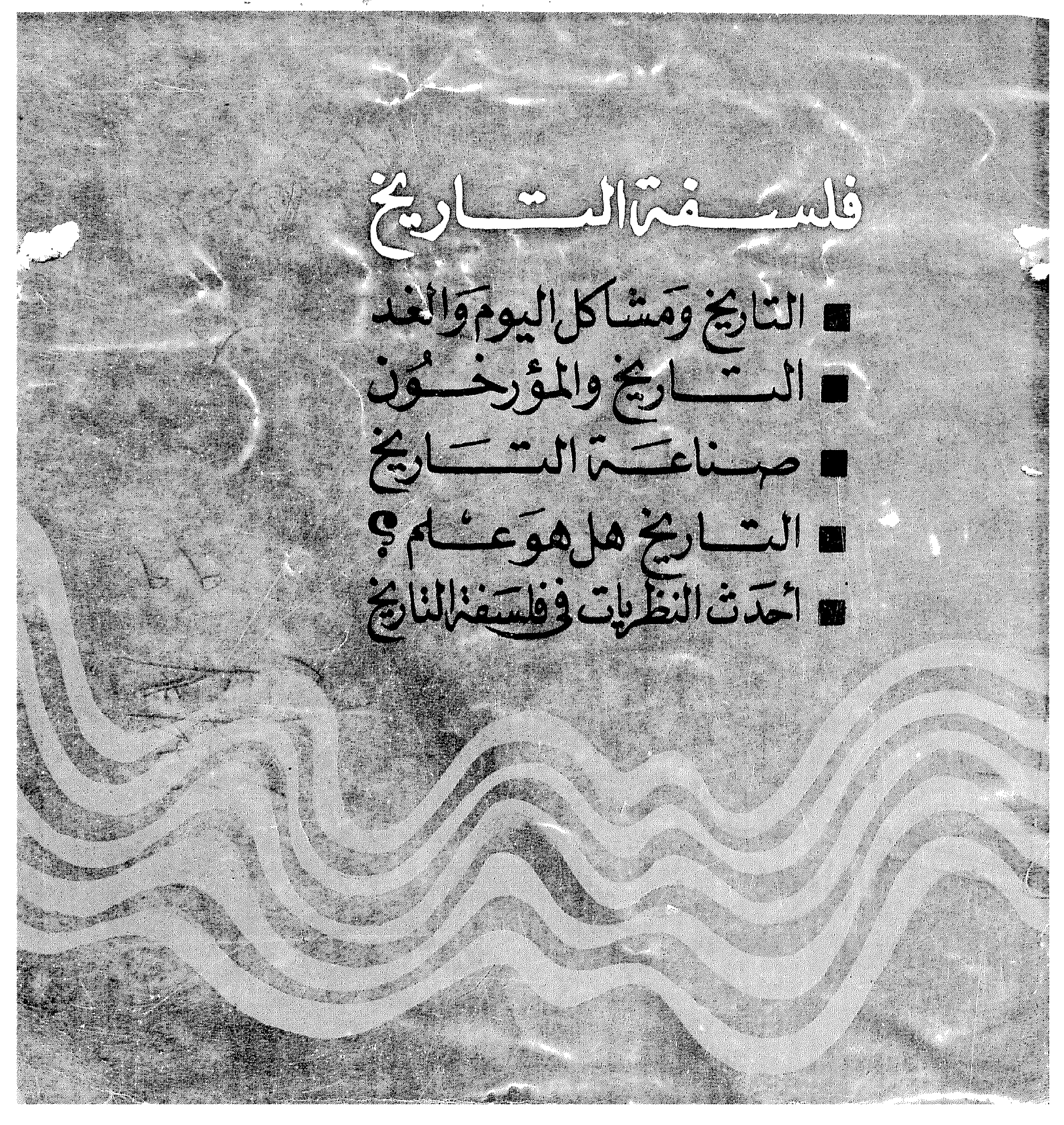
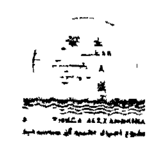
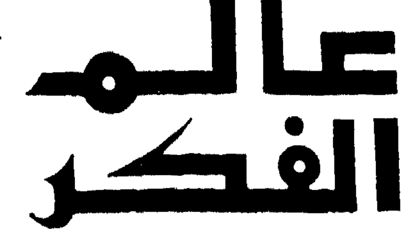
عالم الفكر

المجلد الخامس العدد الأول - ابريل - مايو - يونيو ١٩٧٤







رئيس التحرير : أحمد مشاري العدواني
مستشار التحرير : دكتور أحمد أبو زيد

مجلة دورية تصدر كل ثلاثة اشهر عن وزارة الاعلام في الكويت * ابريل - مايو - يونيو - ١٩٧٤
المراسلات باسم : الوكيل المساعد للشئون الفنية * وزارة الاعلام - الكويت : ص . ب ١٩٣

المحتويات

فلسفة التاريخ

★ ★ ★

آفاق المعرفة

★ ★ ★

ادباء وفنانون

★ ★ ★

عرض الكتب

الدراسات التي تنشرها المجلة تعبر عن آراء أصحابها وحدهم .

فلسفة التاريخ



في ايامنا هذه ، ونحن نسير في سرعة تصعب على العقل ملاحقتها نحو القرن الحادى والعشرين ، تدخل الانسانية كلها عصرا جديدا يختلف عن كل ما سبقه ، حتى ليعجز الانسان عن تصور المصير الذى ستصير اليـه ، في ذلك العصر الحافـل بالمفاجآت والهزات والاخطار تدخل علوم البشر جميعها في طور جديد جداً ، يمتاز بالدقة المتناهية والعمق البالـغ ، والشـمول البعيـد المدى ، والسرعة التى جعلت حقائق العلم تتجاور حـد الخيال ، حتى ان شطحات رجل مثل جول فيرن ، التى كانت تعتبر في الماضى طرائف نتسلى بهـا في اوقات الفراغ ، أصبحت اشياء بالية قديمـة تخطاها العلم بمراحل شاسعة ، واين حديثه عن معجزة الطواف حول الارض في ثمانين يوما ؟ واين تصوراته للغواصات والطائرات مما نحـن فيـه اليوم من رحلات الفضاء والتجول على سطـح القمـر ؟

---

* اشرف على اختيار موضوعات هذا العدد وراجع مادتـه العلمية الاستاذ الدكتور حسين مؤنس .

فى هذا العصر كان لا بد للتاريخ ايضا ان يساير هذا التطور ، والا انتهى امره وانصر الناس عنه ، واصبح جزءا من حطام العلوم البائدة كالسيمياء التى كانت تسعى الى تحو الحديد والرصاص الى ذهب ، وبالفعل ارتفعت اصوات كثيرة بعد الحرب العالمية الاولى تهاـ التاريخ وتنكر عليه مكانه بين العلوم ، وزادت الحملة بعد الحرب العالمية الثانية على التاريـ واصبح مصيره فى الميزان فعلا ، لولا حركة التجديد التى ادخلها على مفهومه ومناهجه علماء افذاذ ومؤرخون من ذوى الجد والبصر ، والعلم الواسع بشئون البشر ، فاخرجوا التاريخ من نطـا المرويات واساطير الأولين ، وأدخلوا عليه مناهج البحث والاستقصاء ، ومدوا نطاقه حتى شـ الحاضر والمستقبل ، وجعلوا منه دراسات اجتماعية وسياسية وفكرية ، وفتحوا له بذا آفاقا جديدة ، فبعثوه بذلك حيا من جديد ، ودعوا كل امة الى ان تعيد النظر فى تاريخها وتار البشر جميعا لتفهم نفسها وغيرها فهما جديدا ..

وهذا هو الذى حدا « بعالم الفكر » الى ان تخصص للتاريخ عددا من أعدادها ، يصو أزمة علم التاريخ وخروجه منها بشرح مفهومه الماضى والحاضر ، وتفاسيره الكثيرة عند كب المؤرخين . ويلقى نظرة على مستقبل هذا العلم وماذا يرجى منه فى قابل الايام حتى لا يفقد مكان كعلم له أصول ومناهج ووظيفة فى الحياة .

وقد حدا « بعالم الفكر » الى تخصيص هذا المجلد لعلم التاريخ لان تاريخنا الاسلامـ نفسه يعانى فى أيامنا هذه ازمة ربما كانت اخطر على مصيره عندنا من ازمته فى بلاد الغرب ، لا صورة التاريخ عندنا جمدت من زمن طويل عند قوالب جامدة لا تتصل بالحاضر الا من بعيد ، ان الكثيرين استخدموا التاريخ كوسيلة للوعظ والتوجيه الفكرى بل السياسى ، واقتحم ميدا الكثيرون ممن لا يعرفون اصله ومناهجه كعلم له اصوله ومناهج بحثه المقررة ، وما اكثر اه الادب الذين حاجهم موضوع يكتبون فيه فمالوا الى بحر التاريخ واغترفوا منه اغتراف حاطـ الليل ، ثم مضوا يؤلفون كتبا هى فى حقيقتها مؤلفات ادبية او نظرات شخصية لا تنفع التار او قارئه فى شيء ، فتكدست كتب التاريخ عندنا على غير طائل ، وفى غمار هذا الاندفاع نحـ التاريخ كاد المنهج التاريخى نفسه يضيع حتى عند نفر من اساتذة الجامعات ممن اكثروا مـ التأليف فى التاريخ دون تمحيص او صبر او تنقيب مستبلغ فى الاصول ، ولا روية فيما يقرأو ويكتبون ، مما هون امر التاريخ على الناس وقلل الفائدة منه .

لهذا يجيء هذا العدد من « عالم الفكر » وكأنه وقفة تأمل وتدبر ومحاولة للعودة بالتار الى أصوله ومناهجه ، وتذكير بما اهملناه من مسئوليات المؤرخ ودوره فى المجتمع . ثم دعـو الى اعادة النظر فى مفهوم التاريخ عندنا والاجتهاد فى تقويمه ــ أو اعادة بنائه بتعبير ادق ــ حتـ يصبح التاريخ كما ينبغي أن يكون علما نافعا يعين الأمة على ادراك حقيقة نفسها وحقائـ غيرها من الأمم ، ويمكن لنا من أن نتخذ من الماضي نبراسا يضيء لنا زوايا الحاضر وطري المستقبل ، لأن الماضي فى ذاته لا يفيد الا اذا كان له انعكاس على الحاضر . ولا قيمة لدراسـ التاريخ الحاضر أو الجارى الا اذا كان وسيلة لانارة طريق الغد أمامنا ، والاعصر تتغير ولكـ الانسان واحد ، وهو لا يتعلم الا من التجارب وكلما كانت احاطته بتجارب الماضي اشمل كـا ذلك أعون على شق طريقه الوعر الى الغد ، وقد قال أسلافنا ان الخيول على اعراقها تجـر

ونحن فى هـذه الابحـاث نريد أن نقول أن الامم على هدي من تجاربها فى الماضي تسير وترقى ، وان التاريخ لا يدرس للعبرة ، لأن الحقيقة ان احداً لا يعتبر بما يقرأ من أخبار الماضين كمـا سنرى فيما بعد ، وانما نحن ندرسه على انه تجـارب الماضين أو تجـارب الأمم كما قال ابن مسكويه ، فتتسع معارفنا بتجاربهم ، وتزداد بصيرة بالدنيا وأحوالها ، ولا يهم هنا أن نتعظ أو لانتعظ ، بل المهم أن نعلم والحال هنا كحال رجل ينتقل من بلاده الى بلاد اخرى ، فيرى لطبيعتها صوراً واشكالا تختلف عما ألفه فى بلاده فتزداد معرفته بالارض ومـا فيها دون أن يحـاول تحوير مناظـر الطبيعة فى بلاده الى صوره تشابه ما رآه فى غيرها . وهـذا فى ذاته مستحيل استحالة الاتعاظ بتجـارب الاخرين ، لان الانسان جـزء من تجربة حياته ، ولهذا فـلا يمكن لانسان آخـر أن يقـوم بنفس التجربة ، ومن هنا فهي لا تنفع غير صاحبهـا الا فى القليل النادر . وكذلك يصعب أن نتصور أمة تقوم بنفس التجربة التي قامت بهـا أخـرى ، وتصل الى نفس النتيجة فيما عدا بعض النتائج العامة لتجارب الامم مثل ضرورة ضبط الاداره ، ووضع قواعد لها ، والتدقيق فى مصارف الاموال والحـرص على اقامة علاقات طيبـة مع الامـم الاخرى ، واقامة الحكم على أساس الشـورى والتراضي ، وهي الديمقراطية ، وما الى ذلـك من البديهيات .

وهذا الكلام الذى نقوله يبدو للغالبيـة العظمى من القراء وكأنه مناقض للحقيقة بسبب تعودهم السماع عن عبر التاريخ ودروسه . وقد يستنكر كلامنا هذا نفر من الواغلين فى التاريخ ، الداخلين ميدانه من غير بابه ، لان اهم كتباً شتى فى التاريخ يقبل الناس على قراءتها فيتوهـم اصحابها انهم يكتبون تاريخاً وما هم فى الحقيقة الا أهل أدب أو تأملات أو فلسفات . والكثير من هذه المؤلفات جيد وممتع ، ولكنه ليس بتاريـخ ولا فائدة فيه للمؤرخ المنقطع لهذا الفن وطلابـه الذين يدرسون عليه .

وهذا المجلد من « عالم الفكـر » يحاول أن يوضح هذه النواحي ويعرف الناس بالتاريخ ؛ اى شيء هو وما منهجـه وكيف يكـون ، وكيف يتأتى لنا فهمه على الوجه العلمي المضبوط ، لهذا فقد تعاونت على كتابته جماعة من أساتذة التاريخ الذين قضوا أعمارهم فى خدمته باحثين ومؤلفين ومعلمين وموجهين لابنائهم من الباحثين ، واتجه الاهتمام الى تقسيم موضوعات العلم التاريخي بينهم على نحو يمكّن القارىء من أن يلم بهـذا العلم وخصائصه ومدارسه الماماً عاماً ، فتتفتح أمامه موضوعاته لكي يستزيد منها اذا شاء المزيد .

وقد قصرنا معظم الابحاث على علم التاريخ عامة دون أن نطيل الوقوف عند علم التاريخ عند العرب ، لان هذا فى ذاته بحث طويل يستحـق أكثر من اشارات ولمحات ، وربما أعان الله ومد فى الاجل حتى يفرد لعلم التاريخ عند العرب مجلد قائم بذاته ، وهو فى الحق جدير بمجلدات عدة .

البحث الأول من هذا المجلد وموضـوعه « التاريخ والمؤرخون » كتبه د . حسين مؤنس مدخلا عاما لهذا العلم . تناول فيه مباحث شتى مثل ماهية التاريخ ولماذا ندرسه ، وتطوره فى الغرب خلال العصور الحديثة ، وأهم نظرياته ومراحل تطوره ، وشمل الحديث بناة علم التاريخ الحديث وأهم اعمالهم . وقد اتجه الجهد فى هـذا البحث الى التبسيط والتقريب ، لأن الآراء فى تعريف التاريخ وتحديد

ماهيته وفائدة دراسته كثيرة جدا ، وبعضهــامعقد لا يفهم فى سطور ، وبعضها الاخر يقوم على نظريات معروفة فى علم الاجتمــاع أو علم النفس وما اليها ، ولهذا فقد اجتهدنا فى التوضيــح وتقريب المعاني أكثر من اجتهادنا فى التفصيــل والتفريع حتى يستطيع الافادة من البحث رجل التاريخ المنقطع اليه وطالب التاريخ المبتدىء فيه والقارىء العادى الذى يقرأ ليتثقف ويوســع أفقه .

ولهــذا فقــد طال الكلام بعــض الشيء فى بعض الفقرات . ولكن لم يكن من ذلك مفر اذا أريد لهذا الكلام أن يكون عميم النفع .. وقد تطلب الامر أحيانا مقارنة بعض النظريات الفرعيــة بمذاهب وآراء مؤرخين من العرب مثل **ابن خلدون وشمس الدين السخاوى .**

ومن الواضح أننا عندما نتكلم مثلا عــن الغرض من دراسة التاريخ فاننا لا بد أن نشــير الى آراء أئمة العلم التاريخي عندنا الى جانب من نذكر من آراء غير العرب فى هذا الموضوع .

وتعرض البحث بعد ذلك لتطور الدراسات التاريخية فى الغرب من مطالع العصر الحديث ، ولم يتســع المجــال للكــلام عــن أنظــار اليونان والرومان وأهل العصور الوسطى فى هذا العلم ، لأن الحقيقــة أن علم التاريــخ ، الــذى تقــرأ المؤلفات فيه اليوم ، انما هو من عمل طائفة مــن أعلام المفكرين الغربيين المحدثين ، ما زالوا يعملون حتى أعطوا علم التاريخ شخصيته المميزة لــه ، وحددوا له الغايات التي يسعى اليها ، ورسموا له مناهج البحث الخاصة به . وقد تتبعنا عمل أولئك المفكرين ، وعرضنا وجوه انظارهم وخاصة ذلك الرأى الطريف الذى يقول أن التاريخ حوار بين الماضي والحاضر ، حوار بين الاجيال ، بين الانسان والزمــان ، بين المــؤرخ والقــارىء ، وانتهينا من عرض هذه الآراء الى القول بأن كــل عصر ينبغي أن يكتب التاريخ من وجهة نظــره ومفهومه الخاص وعلى ضوء ظروفه . ومن هنا فلا يمكن أن يكون لاىّ بلد من البلاد ، أو العالم كله تاريخ واحد ، بل تواريخ متعددة ومعنى هذا أن عملية أعادة كتابة التاريخ ينبغي أن تكــون متجددة ومسايرة للتطور الفكرى والحضارى .

وانتقلنا بعد ذلك الى الكلام على الاتجاهات السائدة فى كتابة التاريخ فى عصرنا هذا ، فبدأنا بالكلام على بعث الدراسات التاريخية نتيجــة لتنبه الناس لمجموعــات الوثائق الضخمة التــي احتفظت بها الكنائس ، ودور محفوظات الدول ، ومكتبات البلديات ، وما الى ذلك ، وانكبــاب المؤرخين على تنظيم هــذه المجموعــات وقراءتهــا لاستخلاص المادة التاريخية منها ، وتكلمنا عــن التيارات المختلفة لكتابة التاريخ نتيجة لظهــور هذا القدر الضخم من المادة التاريخية الخامــة أو الاصيلة ، وفصّلنا أمر الواقعية الموضوعيــة والايجابيــة التاريخية ، ثم النسبية التاريخيــة ونظرية ارتباط الماضى بالحاضر . وأعقبنا ذلك بالكلام على تطور العلم التاريخي على أيــدى النابهين من أصحاب هذه الاتجاهات ، بادئــين بفولتير ثم تحدثنا عن ادوارد جيبون والموسوعيين الفرنسيين ، وديفيــد هيــوم ، وآدم سميث ، وليوبولد فون رانكه ومدرسته ، وجوهــان جوتفريد هيردر ، وبارتولد جيورج نيبوهــر ، وجيــزو ، وأوجســتان فييرى ، وبوركهــارت وميشليه . ووقفنا طويلا عند هيجل والمثاليــة التاريخية . وانتقلنا بعد ذلك للكلام على مذهب المادية التاريخيــة الــذى ابتكره كارل ماركس وفريدريش انجل وفصّلنا الكلام فيه . وختمنا

هذا الكلام عن المذاهب التاريخية بالكلام عن مذهب جديد فى التاريخ يؤمن به الكثيرون من أئمة علم التاريخ فى عصرنا وهو مذهب التاريخ الكلي . ويراد به التأريخ للعصر الذى نؤرخ له بصورة كاملة تتناول كل نواحيه سياسية كانت أم اقتصادية أم فكرية ، لأن هذه النواحي مجتمعة تعطي الصورة الحقيقية للعصر الذى نؤرخ له . ثم تكلمنا عن أعلام التاريخ فى عصرنا مثل كولنجوود وكروسى وشبنجلر وتوينبي ، وشرحنا مذهب كل منهم شرحا وافيا ولكنه مبسط على نحو يستطيع معه أى قارىء متقف أن يفهمه فهما صحيحا ، لأننا لاحظنا أن معظم النظريات العلمية والأدبية لا يفهمها القارىء العربي فهما صحيحا ، لأن الذين يتولون تقديمها اليه لا يقدمونها اليه تقديما صحيحا أولا ، ثم أنهم يصوغون كلامهم على نحو لا يستطيع القارىء العادى معه أن يدرك حقيقة هذه النظريات والآراء ، وخذ مثلا نظريات داروين وانظر كيف يفهمها الناس عندنا .

● ● ●

وتناول **د. شاكر مصطفى** موضوع « التاريخ بين العلوم » تناولا جديدا من كل ناحية . وجعل مقاله مقدمة للموضوع نفسه الذى تصدى له ، فطاف بنا طوافا بعيدا فى موضوع علم التاريخ بادئا بالكلام على الانسان نفسه وهو صانع التاريخ ، أو أداة تنفيذ الحوادث بتعبير أدق ، ثم وقف طويلا عند الاجابة على سؤال رئيسى هو : **هل التاريخ علم ؟** فعرض آراء الكثيرين من أساتذة ذلك العلم فى الغرب ، وتحدث عما سماه « ثورة التاريخ » فى عصرنا ، وهى ثورة حقيقية تشمل الانسانية كلها وعلومها ومن بينها التاريخ . وتناول أسباب هذه الثورة ومداها وقال ان ثورة التاريخ اليوم رغم أنها تجرى فى « الصمت الاخرس » ، تسهم فى الانقلاب الجذرى للفكر الانسانى ، وقال ، «انها فاعلة منفعلة » بهذا الانقلاب فى وقت معا ، أبعادها تتناول مادة التاريخ تناولها لمناهجه ومساره فى العمق والشمول » وتناول بالمناقشة عوامل تلك الثورة فى ميدان التاريخ فتحدث عن تضخم مادته فى عصرنا الراهن بزيادة عدد الأمم التى بلغت الوعى واخذت تكتب تواريخها ، ثم تناول الثورة من ناحية المنهج وذكر كيف أن التاريخ ما كان يمكن أن يظل بعيدا عن الثورة العامة التى تشمل مناهج العلوم جميعا .

ثم تحدث عن التاريخ « لا كأحداث تعبر الزمن ، ولكن كممارسة فكرية وجهد تكوينى » وهنا يتناول موضوع التاريخ بتفصيل طويل بعد أن يعرض لآراء عدد كبير من المشتغلين بهذا الموضوع من شيوخ الفن . ثم يقف وقفة طويلة عند موضوع « الزمان » وتحديد معناه ، وهو فصل طويل من فصول الفلسفة . ولكنه فى نفس الوقت موضوع أساسى من موضوعات التاريخ . لأن التاريخ يدور فى الزمان ، وبلا زمان فلا تاريخ . ويعقب ذلك بالحديث عن الماضى وامكان معرفته ، ووسائل هذه المعرفة ، وهل يمكن أن تكون كاملة . ويقف طويلا عند سؤال شغل بال الكثيرين من المؤرخين وهو : الى أى حد نستطيع القول بأن التاريخ الذى نقرؤه هو الصورة الحقيقية لما مضى من الاحداث ، وينتهى الى القول بأن معرفتنا التاريخية لا بد أن تكون جزئية ومحدودة .

وعلى هذا النحو الفلسفى الرفيع يمضى شاكر مصطفى فى تناول موضوعه الواسع العسير . وهو يقف عند كل صغيرة ويناقشها مناقشة فلسفية مدعمة بالحجج مما قرأ من أصول التاريخ وكتب المؤرخين وما عاناه هو نفسه كمؤرخ نشيط لا يكف عن التنقيب فى نواحى

ذلك الميدان الواسع من ميادين المعرفة الانسانية. ويستوقف النظر كلامه عن « الحادث . وما يراد به ثم حركة التاريخ وما هى « وميكانيكية العملية التاريخية » وهنا يعرض عشرات من آراء أعلام التاريخ فى تلك المشاكل التى تعرض لها وخاصة المعرفة التاريخية وطبيعتها وحدودها وينتهى بأن يضعنا على عتبة موضوع دراسته وهو «مكان التاريخ بين العلوم .. فيتحدث طويلا عن عملية التاريخ ، ثم عن الموضوعية وما هى وما حدودها ، والنقد التاريخى والذاتية التاريخية والسببية التاريخية وما الى هذه من الموضوعات التى يثيرها فى ذهن القارىء ذلك البحث الممتع .

• • •

وننتقل بعد ذلك الى المقال الثالث وهو الذى كتبه **د. عبد الرحمن بدوى** عن أحداث النظريات فى فلسفة التاريخ .. وعبد الرحمن بدوى فيلسوف أصيل الف فى الفلسفة ما يمكن أن يوصف بأنه موسوعة كاملة تتناول كل مسائلها وعصورها ، وهو يتناول الموضوع هنا تناول الخبير العارف بكل كلمة يكتبها ، وهو يسير فى موضوعه سيرا منهجيا دقيقا يضع السؤال ويجيب عليه ثم ينتقل الى الذى يليه ، وهكذا حتى يستوفى بحثه على أحسن وجه يكون .

وهو ـ كفيلسوف ـ يبدأ بالكلام عن الزمان ، ويعطينا فى سطور آراء أهم الفلاسفة الذين تعرضوا لذلك الموضوع الذى تعرض له شاكر مصطفى فى بحثه من وجهة نظر المؤرخين . ثم ينتقل الى الكلام عن مسار التاريخ وهل هو يسير فى خط مستقيم أو فى دوائر . ويتحدث عن كثير من المشاكل التى تناولها شاكر مصطفى ولكن فى أسلوب فلسفى كمسألة النسبية التاريخية ، والعلية التاريخية وامكان التنبؤ بما سيكون عليه التاريخ، ومن تعرضوا لبحثها من أعلام فلسفة التاريخ . ويقف عند الكسيس دى توكفيل ويعقوب بوركارت وفريدريش نتشه وكارل ياسبرز .

ثم يخصص فصولا ضافية حافلة بالعمق لعدد من فلاسفة التاريخ فى العصر الحديث وهم فلهلم دلتاى ورأيه فى تاريخية الانسان . ثم يتحدث عن جورج زمل ونظريته فى نسبية المعرفة التاريخية . ورأيه فى امكان وجود قوانين تحكم سير التاريخ .

وبعد ذلك يتحدث د. بدوى عن بندتو كروتشى وفلسفته التاريخية ، ويعطينا عرضا شاملا موجزا لآراء هذا المفكر الايطالى الذى يعتبر فى طليعة فلاسفة التاريخ فى عصرنا هذا . وليس من اليسير ايجاز كلام بدوى هنا ، لأنه فى ذاته خلاصة دقيقة لدراسات واسعة فى كروتشه وكتبه، وخاصة ما يتعلق منها بالتاريخية المطلقة.

ويقف بدوى بعد ذلك عند كارل ياسبرز وهو من أكثر فلاسفة التاريخ تعقيدا ، ولكنه استطاع أن يشرح لنا آراءه شرحا وافيا ، يوضح جوانبها ، وخاصة فيما يتعلق بالموضوعات الرئيسية التى تعرض لها مثل حدود التاريخ ، والتراكيب الأساسية للتاريخ ، ووحدة التاريخ والوعى التاريخى ، والعلو على التاريخ ، والتاريخ والكون والوراثة والمنقول والفردى والكلى .

وقد استطرد بدوى عن الكلام عن اشبنجلر لأن له عنه كتابا كاملا ، ولم يطل الوقوف عند آرنولد توينبى لأنه فى الحقيقة مؤرخ لا فيلسوف تاريخ ، وقد شرحنا ذلك بتفصيل فى المقال الأول من ذلك المجلد .

ونصـــــل الى المقال الممتع الذى كتبـــه **د. محمد عواد حسين** عن صناعة التاريخ الى كتابته ، فقدم لنا دراسة منهجية ذات أهمية كبرى فى المنهج الامثل لكتابة التاريخ . وهــذه الدراسة ذات قيمة عظيمة لأى مشـــتغل بهذا العلم . واذا كان طالب التاريخ فى الجامعــة ، وخاصة طالب الدراسات العليا فى التاريخ ، يفيد أعظم الفائدة من هذا المقال فان كل مؤرخ ــ حتى أولئك الذين تمكنوا من المنهج التاريخى ، وألفوا كتبا تعتبر عيونا من مؤلفات هذا الفن ، يفيدون من ذلك المقال ويجدون متعة وفائدة فى قراءته ، اذ أن كاتبه خبير بذلك الموضوع سواء بما ألف ونشر من الكتب عن الاغريق والرومان ، أم بما تولى من تدريس هذا الموضوع لطــلاب الدراسات العليا فى أقســـــام التاريخ فى مصر والكويت .

ولقد قرأته فى امعان وروية وخرجت مـن قراءتى بمعرفة أدق وبطريقة مثلى فى التجويد فى الصنعة التاريخية ، لأن د. عواد يســير بنا خطوة خطوة من جمـــع المــادة الى ترتيبها وتصنيفها ، الى صياغتها فى صورة مقـــال أو كتاب ، واحسب أن هذا المقــال ينبغى أن يكون فى مقدمة ما ينصح أهل التاريخ جميعا بقراءته ، والتفكير فيه وتطبيقه تطبيقا دقيقا .

● ● ●

ونصل أخيرا الى مقال : **التاريخ ومشاكل اليوم والغد** الذى يهديه الينا **د. محمد الطالبى** وسط هذه المجموعة من الأبحاث والدراسات عن علم التاريخ .

و د. الطالبى طراز فريد من مؤرخى العرب المعاصرين ، فهو تونسى من نفس المدرسة التى أخرجت لنا ابن خلدون التونسى الأصل مثله ، ودراسته عربية فرنسية ، تجمع بين أصــالة العلم التونسى التى تتجلى فى أعمـــال مفكرين تونسيين مثل سعيد بن عبد الســلام المعروف بسحنون ــ درة التاريخ الفكرى التونسى الخالص فى العصور الوسطى ، ومحمـــد بن أبى زيد القيروانى الذى شــأى أضرابه من فقهــاء المالكية برسالته الصغيرة حجما العظيمة قــدرا والتى تعتبر ــ فى رأيى ــ من أجمل وأدق ما كتب فى الفقه على مذهب مالك امام دار الهجرة .

وثقافة د. الطالبى بعد ذلك فرنسية ، وقارئه يستمتع وهو يقرؤه بهذه الطلاوة التى يعرضها كل مطلع على الكتابات الفرنسية ، فان المفكر الفرنسى عادة دقيق فى تفكيره ودقيق فى تعبيره ، وهذه الدقة لا تحول دونه ودون العمق والشمول والنظرة الواسعة ، وهذا بالضـــبط هو ما يجده القارىء فى مقال د. الطالبى الذى يحمل الينا جدة فى الاسلوب وأصالة فى التفكير . ومع أن الموضوع الذى طلبنا اليه الكتابة فيه موضوع عسير وهو « التاريخ ومشاكل اليــوم والغد » الا أنه عرف كيف يتناوله تناول أستاذ جمع أطراف الفن التاريخى فى يديه ، ومضى بنا فى مباحث ومسارات من التفكير تحمل الينا طعم الفكر الفرنسى وما يمتاز به من ذكاء وحدة .

وأقرأ مثلا كلامه البديع عن موقف الانسان والتاريخ اليوم ، واستمع اليه يجيب عن سؤال عظيم الأهمية وهو : « هل الحوادث أى الهزات العظيمة التى اعتاد أن يسجلها التاريخ هى حقيقة أجل ما يوجــه عجلة مصيرنا ؟ وجــوابه « ان الزلازل التي اعتاد أن يسجلها الانسان فى ذعــر

وفزع لا تزيد على أن تخدش وجه الارض خدشا لا يبقى له أثر ، بينما التعاريج الوديعة الخفية عن العيان هي التى تكيف الجبال والاودية والبحار .. وهذه مقالة مؤرخ مفلسف أديب أريب تعطينا فكرة عن المستوى العالى الذى ارتفع اليه فى كتابة موضوعه الممتع .

والقضايا التى يتناولها محمد الطالبى هنا كثيرة ومثيرة ، والاسئلة التى يطرحها ثم يجيب عليها تثير فى الذهن دوامات من التفكير ، فقد تحدثنا مثلا فى المقال الاول عن رأى بعض المؤرخين فى أن التاريخ حوار بين الانسان والزمن ، ونجد الطالبى هنا يضع الموضوع وضعا آخر ويتحدث عن الحركة الجدلية بين الانسان والتاريخ ، فالتاريخ يصنع الانسان ويكفيه ، والانسان هو الذى يصنع التاريخ ويصوره » . وفى سياق بحثه يتعرض الطالبى لابن خلدون وهو من أحسن من درس هذا المفكر العظيم الذى لا يزال الى يومنا هذا يطل بقامته المديدة على نهر الفكر العربى السائر الى الابد باذن الله .

ثم يسأل بعد ذلك : هل يعين التاريخ على حل مشاكل اليوم ؟ وللاجابة على هذا السؤال يطوف بنا مع نفر من اعلام التاريخ عندنا من أمثال الطبرى وابن الاثير وابن خلدون . ويربط بين ابن خلدون وهيجل ربطا بديعا ويشير الى جول فاليرى . وفى أثناء كلامه يجيب عن سؤاله بقوله « ان التاريخ لا يمدنا بحلول لمشاكل الحاضر لأنه لا يعيد نفسه ، ولكنه مع ذلك يعيننا اعانة جذرية على فهم واقعنا » . ويختم بحثه بعبارة جميلة ربما كانت تعبيرا بليغا عن موقفنا نحن أهل التاريخ من علم التاريخ وصلته بالانسان ومستقبله ، قال : « وخلاصة القول اننا من المتفائلين بمستقبل التاريخ العلمى . وان كانت الصعوبات لا تخفى علينا ولا تأمن الخيبات ، وذلك لأننا نؤمن بالتقدم ، ذلك التقدم الذى تقرأ خطوطه واضحه فى سجل الخليقة ، ذلك السجل الذى أعاننا ، وسيعيننا التاريخ أكبر فأكبر على سبر صفحاته : « أفحسبتم أننا خلقناكم عبثا وانكم الينا لا ترجعون ؟ » .

● ● ●

ذلك هو الزاد الوافر من العلم بالتاريخ الذى يضعه هذا المجلد من عالم الفكر بين يدى القارىء العربى الذكى ، المتطلع الى المعرفة ، الباحث عن كل ما يعينه على حل مشاكله كممثل لشعب من أكبر الشعوب التى حملت مشعل الحضارة ووجهت سير التاريخ . وهو زاد فيما نعتقد غنى ووفير يحتاج منا الى أن نستوعبه فى هدوء ، ونتمثله فى صبر ، ونقدمه الى أمتنا المجيدة فى تواضع ، ولنضيف به الى بناء الفكر العربى الشامخ لبنة صغيرة « وخيركم من جاد بما عنده » والله الموفق سبحانه .

★ ★ ★

محمد الطالبي *

التاريخ ومشاكل اليوم والغد

ما فائدة التاريخ بالنسبة لمشاكلنا اليوم وغدا ؟ وما هو مستقبله فى عالم التقنيات والعلوم التجريبية ، والقوانين الكونية التى تضع بيدالانسان مقاليد التحكم فى المصير وتكييف العالم الحاضر والقادم ؟ انه يحسن بالمؤرخ ، وبكل ذى علم على الاطلاق ، ان يقف من حين الى حين وقفة تأمل وتساؤل عن جدوى العلم الذى وهب له حياته . ولعل هذه الوقفة أوكد ما تكون فى ايامنا هذه التي اخذت فيها البشرية تخرج من جلدها ،وتقفز فى الاجواء العليا محققة ما انبأ به التنزيل ـ « يا معشر الجن والانس ان استطعتم أن تنفذوا من اقطار السموات والارض فانفذوا ، لا تنفذون الا بسلطان » (١) ـ وما ورد فى الأثر :« لو تعلقت همة بنى آدم بما وراء العرش لنالته » . فاليوم اعطيت البشرية سلطانا عظيما ،وتاقت همتها الى ما وراء العرش ، وقبلت

*** الدكتور محمد الطالبي استاذ التاريخ الاسلامي فى كلية الاداب بالجامعة التونسية . يمتاز بثقافة واسعة وعلم غزير بتاريخ الاسلام العام والمغرب خاصة معظم مؤلفاته بالفرنسية .آخرها عن ابن خلدون وفلسفته التاريخية والاجتماعيه نشره بالفرنسية .**

(١) الرحمن ، سورة ٥٥ ، آيه ٣٣ .

التحدى . فما سيكون المصير ؟ وما دور المؤرخ والتاريخ فى هذا الوضع الجديد والانقلاب الحاسم .

فالانقلاب اليوم اجسم واهول بكثير مماشاهده فى زمانه مؤرخ عربى فذ ، حضرمي النسب ، اندلسي الاجداد ، تونسي المنبت ، مغربي التجربة والتنقل ، ومصرى الخاتمة والمنقلب ، اعنى **ولي الدين عبد الرحمن بن خلدون** (٧٣٢ ــ ١٣٣٢/٨٠٨ ــ ١٤٠٦) حيث كتب فى ذلك الاسلوب المحكم الصادر عن وضوح الملاحظة وعن نفاذ بصيرة مدهش : « واذا تبدلت الاحوال جملة فكأنما تبدل الخلق من اصله ، وتحول العالم باسره ، وكأنه خلق جديد ، ونشأة مستأنفة ، وعالم محدث . فاحتاج لهذا العهد من يدون احوال الخليقة والآفاق (٢) » .

ولعهدنا هذا الذى نعيش فيه فنحن ايضا فى أوكد حاجة الى من « يدون احوال الخليقة والآفاق » ، احوال الخليقة عامة ، لا احوال بعض الجماعات المنفردة مهما كانت هامة فى حد ذاتها ، او عزيزة على نفوسنا لسبب من الاسباب ذلك ان « الخلق الجديد » الذى نعيشه ، حسب عبارة ابن خلدون ، ان لم يكن أول خلق للبشرية من نوعه ، فهو بدون منازع اجسم من كل ما سبق ، وهو احسم منعرج من تلك المنعرجات العديدة التي تسوق حتما الخليقة نحو مصيرها .

ثم ان البشرية ، ان كانت قديما تساق نحو مصيرها فى غيبوبة بين الغفلة والوعي ، فهي اليوم يزداد وعيها وضوحا اكثر فاكثر ، وهي تعالج فى تعثر توجيه خطاها عن يقظة وتبصر نحو اهداف لم تتضح لها بعد كامل الوضوح ، يطغى عليها ذلك الجانب المادى الصرف الذى حذر منه ابن خلدون (٣) . فالوعي البشرى الجماعي اخذ يفتق من اكمامه ، اكمام الحدود العديدة ، حدود الانحياز ، وضيق الاذهان ، والتعصب الطائفي او الاقليمي ، او الجنسي ، وغير ذلك مما يسد الأفق ويحول دون الشمول ووضوح الرؤية .

الانسان والتاريخ اليوم :

ان الكائن البشرى يمتاز من بين كل الكائنات بالذاكرة ، ذاكرة فردية وذاكرة جماعية ان التاريخ هو ذاكرة الجماعات هكذا كان قديما ، وهكذا هو اليوم . غير اننا اليوم توغلنا فى منعرج سوف يصبح فيه التاريخ ، عندما يبلغ التطور غايته ، ذاكرة الجنس البشرى بدون حصر او تقييد .

والحقيقة ان هذا التطور الذى سيجعل فى النهاية من التاريخ ذاكرة الجنس الذى ننتمي اليه بدأ منذ احقاب او قرون ، لكن بصفة بطيئة وئيدة ، لا يسلك سبيلا واضحة سوية ، بل كثيرا ما يتيه فى ادغال التعصب والتحزب والشعوبيات ، قبل ان يعود الى الجادة على يد بعض الرواد الافذاذ الذين لم تنطمس امامهم السبيل مهما انسجتها من جنوب وشمال . والنا الى هذه الناحية من البحث عود .

وريثما يتم التطور الذى نعتقد ان التاريخ سوف يصبح فى نهايته علما حقيقيا ــ وان اختلف عن علوم الطبيعة ــ فما نشاهد اليوم ؟ ما التاريخ ، وما علاقته بالانسان فى يومنا هذا ، وفى هذه

---

(٢) ابن خلدون ، المقدمة ، بيروت ١٩٥٦ ص ٥٣ .

(٣) ابن خلدون ، المقدمة ، بيروت ١٩٥٦ ، ص ٢١٦ ، ٢١٨ ، ٢٢٢ ، ٢٥١ ، ٦٧٠ ، ٦٧١ ــ ٦٧٤ .

المرحلة الحاسمة التي نفطعهـا بين ماض يزدادتشعبا كلما زدنا في درسه تعمقا ، ومستقبل نحن على ابوابه في منزلة بين المنزلتين ، يتقاذفنا الوجل والأمـل ؟ ان كل من اعتـاد تقليب الصـفحات الصفراء ، صفحات تواريخنا القديمة ، وكل من راض نفسه على سبر بطونها ، ونفض غبارها ، واستكشاف ما احتوت عليه من افراح واتراح ، لعله يجنح الى الظن الى ان كلمة تاريخ انما هي مرادف كارثة او عجيبة .

هكذا فهم اجدادنا التاريخ عندما كان في طور الطفولة ، لم يتخلص بعد من خضم الاسـاطير التي منها طفا شيئا فشيئا . كان بعضهم يقصدمنه التسلية ، وبعضهم يسجل به مفاخر القبيلة ، او مآثر الآلهة ، وهذا يجعل منه مدرسـة عظةوارشاد ، والآخر يضعه للملوك كي يكتسبوا من خلاله ما يحتاجون اليه من خبـرة سياسـية اويستغلوه لتدعيم ملكهم وسلطانهم . وهكذا اتت التواريخ تدوي بصليل السيوف ، وتقطر دماء ، وتضج بالتهليل والتكبير ، او بالنديب والعويل . وهكذا وردت في شـكل حـوليات شـحنت بكل حادثة جليلة اعتبرت جـديرة بأن تسـجل على صفحات التاريخ الغرّاء او السـوداء .. فاذابصفحات هذا التاريخ تكاد تكون خالية من وصف الانسان في حياته اليومية ، واذا بك تلتمس الانسان الهادي الذي تنبض فيه الحياة ويكسوه اللحم والدم ، وتبحث عنه في بطون هذه السـجلات القديمة ، فلا تكاد تعثر له على اثر . هنا ايضا كما هو بالنسبة لعلوم اخـرى ، طغى الغـريب والولوع بالشاذ على ما به العمل وعليه المعوّل . الحوادث احتلت كل مكان ، وطردت في النهاية الانسان . وبقيت هذه النزعة العتيقة التي لا ترى في التاريخ الا وعاء لأهم الحوادث وذكرا مفصلا لهامسيطرة على كثير من العقول الى يومنا هذا ، اذ انصارها المخلصـون لها لم ينقرضـوا بعد ولم يستسـلموا ، وان فلّت صـفوفهم وخفتـت اصواتهم .

ذلك انه قويت نزعة أخرى جعلت التاريخ يعير اكثر عناية للانسان العادي ويوجه نحـوه الانوار التي كانت مقصـورة على الحدث البارز الذي كثيرا ما كان اروقة البلاط او ساحة الوغى . وهذه النزعة اكثر كشفا عن واقع الانسان ، واجزل فائدة بالنسـبة الينـا ، بالنسـبة لعقلياتنـا ، ومتصـوراتنا ، وحاجات يومنا ، فنحن لا ننكر ـ وهذا ما يجـب ان نؤكده حتى لا نتخلص من تطرف لنقع في تطـرف معاكس ـ ما للحـوادث الحاسمة من قيمة ممتازة . غير أن هذه الحوادث ، مهما كانت جسيمة ، فهي لا تزيد على ان تكون شبيهة بتلك التجاعيد التي تكسو سطح البحار . فهي وليدة ما يجري في الاعماق ، وتلك الاعماق هي ، بالنسبة لنا ، بواطن روح الانسان العادي ، وصروف حياة الشعوب الكادحة ، وما يطرأ على المحيط التي يحويها من تغـير وتفاعل يهتز له بعنف ، من حين الى حين سطح التاريخ . لقد اعتاد التاريـخ التقليدي ان يسـجل الهـزات السطحية ، واصبحنا نبحث عن اسبابها البعيدة واسرارها الدفينة . ذلك هـو التغير الجذري الذي طـرأ على العلاقـة الجدليـة التي تربط الانسـان ، انسان اليوم ، بتاريخه . فمن موقف الاندهاش امام الرجات التي كان يكتفي بتأريخها ، اي بضبط زمانها ، خرج الى البحث عن اسبابها . ومن أدراك ؟ لعله اذا ما اهتدى الى الكشف عن العلة وجد السبيل الى تفادي ما يتبعها من محن واحن ، او حال دون وقوعها ولنا الى هذا عود .

ثم لنا سؤال آخـر ، هل الحـوادث ، اي الهزات العظيمة التي اعتاد أن يسجلها التاريـخ مهما بدت ممتازة ، هي حقيقة أجلّ ما يوجّه عجلة مصيرنا ، واجدر ما يسـتوجب عنايتنا ؟ واذا ما اردنا ان نضرب مثلا قلنا : اي شيء أشد اثرا في تكييف وجه البسيطة ، الهزات العنيفة

التي ترتعد لها الفرائص والقلوب ، أم التعاريج الهادئة البطيئة التى لا تثير الانتباه ولا يحسب لوجودها ادنى حساب ؟ الجواب اصبح اليوم يسيرا لأن الجيولوجية علمتنا ان الزلازل التي اعتاد ان يسجلها الانسان فى ذعر وفزع لا تزيد على ان تخدش وجه الارض خدشا يكاد لا يبقى له أثر ، بينما التعاريج الوديعة الخفيَّة على العيان هي التي تكيف الجبال والاودية والبحار .

فهذا الاكتشاف جعل الانسان اليوم يقيِّم الدوافع التاريخية ــ او الاسباب ان شئت ــ تقييما جديدا . اننا اصبحنا لا نقيس هذه القيمة بمقياس خطورة الكارثة ، وشدة المحنة ، وعدد القتلى . فكم من كارثة رهيبة ، او انتصار باهر ، لم يغيرا مجرى التاريخ بقدر انملة ، وكم من دقيقة لطيفة ، لم ينتبه لها أيام ظهورها لدقتها ، اسفرت عن جسيم العواقب . فاكتشاف العجلة ، واكتشاف صنع الفولاذ ــ وليسا من الحوادث التاريخية بالمفهوم العادى القديم ــ غيرا وضع البشرية . وكذلك اكتشاف العالم الجديد ، وشق السبيل الى الهند عن طريق البحر ، قد عملا لتقويض قاعدة العرب الاقتصادية ولتدهورهم وانحطاطهم ، ما لم تعمله الحروب الضوارس . فالحوادث اذن ، جليلها ودقيقها ، لبنة لا يستغنى عنها طبعا التاريخ ، الا انها ليست التاريخ كله .

فليس التاريخ اذن ، فى نظر انسان اليوم ، كما كان الشأن بالنسبة لانسان الامس ، سلسلة من حوادث متعاقبة فى زمن مضى ومنسوبة الى الأهمية بوجه وبدون وجه . فاذا خرج التاريخ ان يكون هذا تعريفه ، فما هو اذن ؟ فلقد عرَّفه بعضهم بانه ((**علم الماضي**)) غير أن هذا التعريف لا يرضى تماما ايضا ، لان الماضي وعاء لكل مظاهر الكون . بمختلف اشكالها والوانها ، يتسع للجيولوجية ، ولعلم تطور الحياة ونشوئها وارتقائها ، ولعلم الفلك وغيره . فلكل صنف من اصناف الكائنات ، من جماد ونبات وحيوان تاريخ وهذا التاريخ له علماؤه وله اختصاصيوه .

وكذلك للكائن البشرى تاريخه ــ فى جملة الكائنات ــ اذ أن هذا الكائن لا نستطيع ان نتصوره الا فى محيط وفى وضع وحالة . فالتاريخ اذن علم الانسان فى وضعه واحواله المتبدِّلة دائما ابدا . فهو علم نطلب منه ان يساعدنا على حل لغز الحياة ، وفى حلّه طبعا حلٌّ للغز الكائن البشرى على العموم . وهذا العلم لا يبسط سلطانه طبعا الاعلى الماضي ، الا أن هذا الماضي التاريخي من نوع خاص . فهو ليس بماضٍ قارٍّ ذى حدود معينة ثابتة . هو ماضٍ فى امتداد مستمر . فهو كالظل يأكل فى كل آن ولحظة الحاضر ويتحفَّز ليرخي سدوله على المستقبل . فالتاريخ اذن ليس علم ماضي الانسان ، بل هو علم تطور الانسان بلاانقطاع على مدى الزمان . فهو علم يعدو وراء الانسان محاولا ان يدركه وان يفهمه ويُفهِمَه ، وان ينيره لنا فى مختلف المراحل المتتابعة المتداخلة التي مر بها ، ويتجه نحوها ويدأب على المرور بهاوطيها فى طيات التاريخ .

غاية التاريخ اذن وهدفه ان يشرح لنا الانسان . وهكذا يتضح لك ان الحوادث ــ بارزها وما خفي منها فى الاعماق ــ ليس لها فى حد ذاتها ، من حيث هي حوادث مجردة كبير قيمة ما لم تتفاعل مع الفكر الانساني . ذلك انما تصبح الحوادث ذات قيمة عندما ينطقها المؤرخ بعد خرس باستفساره اياها والحاحه فى سؤالها عن قدر مسئوليتها ومدى تأثيرها فى تغيير وضع الانسان وتوجيه مصيره . فالتاريخ اذن غايته وضالته ان يَفهم ، ان يربط العلل بالمعللات والأسباب بالمسببات ، وأن يجعل من كامل الواقع المتشعب والمترامي الأطراف شيئا له نظامه

وانسجامه اضطرارا والراما بحكم التسلسل والتولد المنطقي. التاريخ بناء منطقي لعالم الانسان. واذا كان الامر كذلك فانه ينبغي — كي يكون البناء متين الاسس وفى مأمن من مزالق الخيال — ان لا يهمل المؤرخ اى مظهر من مظاهر الواقع ، اذ هذا الاغفال قد يؤدى الى عدم الفهم ، او الى شر من ذلك ، الى سوء الفهم واشادة قصور من ورق سرعان ما تنهار ونسلم اصحابها الى اوخم العواقب . انه يستحيل عليك مثلا ان تفهم الانسان فهما صحيحا مفيدا اليوم وغدا والانسان هو موضوع علم التاريخ — اذا اكتفيت باحصاء الكوارث ، واذا اجتهدت فى وضع قوائم الحوادث. اذ الانسان كلّ لا نفهمه ما لم نعتن ايضا بحياته الاقتصادية ، والاجتماعية والتشريعية والسياسية والعقائدية والادبية والفنية والعقلية عامة ، وغيرذلك مما يكوّنه ويكوّن بيئته وماهيّته . ولذا ترى المؤرخ اليوم يلجأ الى تخصص أدق فأدق حتى يتمكن من أداء رسالة التاريخ على وجهها ، أى حتى يتمكن من اعانتنا على فهم ذاتنا أكثر فأكثر . وذلك أن سبل التاريخ فى تشعب مستمر كلما ازداد موضوع بحثه تعمقا واتساعا وكلما ازداد وضع الانسان تعقدا ، اى كلما ازدادت انسانية الانسان تكاملا على مر التاريخ وبفضله .

فهناك حركة جدلية بين الانسان والتاريخ . فالتاريخ يضع الانسان ويكيّفه ، والانسان هو الذى يصوغ التاريخ ويصوره . لا تاريخ لو لم ينقش الانسان التاريخ على صفحات ذهنه قبل ان ينقشه على صفحات ابقى على مر الزمان . فالانسان ، فى علاقته مع تاريخه ، فاعل منفعل . فهو يجلي هذا التاريخ فى مرآة فكره ويقلبه الى متصورات محكمة الهيكل ينعكس تأثيرها بدورها على اتجاه مصيره . فلا وجود للتاريخ . كما لا وجود للزمن الذى هو وعاء التاريخ . اى لا وجود للظروف والمظروف لولا الفكر الذى يفكر التاريخ والزمن . انما التاريخ من خلق فكر الانسان فليس الانسان اذن ريشة تسير فى اتجاه ريح التاريخ ، انما هو يريد ان يكون ارادة تحاول ان تجرى الرياحَ بما تشتهي السفنُ ، فيعكس المثل ويخضعه لعزيمته .

لكن التجربة البشرية التي بلغها علمنا حتى الآن تعلمنا ايضا ان سيل التاريخ يجرف الانسان فى تياره . فهل لهذا السيل اتجاه وغاية ، وهل يوجه الانسان ، او يوجَّه من طرفه ؟ هذا مشكل من أشد المشاكل تعقدا واستعصاء على الحل انكب عليه فلاسفة ومؤرخون عديدون ، وبالرغم مما أسال من حبر فهو لم يزل الى يومنا هذا قائما ، شائك الجوانب ، حافزا للتحمس ، بل قل للتعصب ، فى اتجاهات متناقضة (٤) ، وسوف لن يزال كذلك الى أمد بعيد . ذلك أن

---

(٤) انه يعسر الاستيعاب فى هذا الصدد . لكن يمكن ان نحيل القارىء على المصادر التالية التي هي من اهم ما كتب حول الموضوع :

L'homme et l'Histoire, Acts du VIe Congres des sociétés de Philosophie de Langue Française (Strasbourg 10-14 Septembre 1952) P.U.F., Paris 1952.

فى هذا العدد يبسط المؤتمرون آراء أهم القدماء والمحدثين ، من فلاسفة ومؤرخين فى القضية

L'Histoire et ses interprétations ; Entretiens au tour de Arnold Toynbee, sous la direction de Raymond Aron, Paris 1961.

فى هذا المؤلف نجد نقاشا لآراء ارنولد توينبي — بحضور الكاتب نفسه — وكثير من هذه الآراء تدور حول اتجاه التاريخ وعلاقته بارادة الانسان

Janus, No. IV, Paris Décembre 1964 — Janvier 1965, Ansacré a la question,, **L'Histoire a-t-elle un sens ?**

Rene Sédillot, **L'Histoire n pas de sens,** Paris, A. Fayord, 1965.

M. Talli, **Ibn Khaldun et l'Histoire,** Maison Tunisienne de L'Edition, Tunis 1973.

جدلّية ارتباط الانسان بالتاريخ لعلها في قرارتهاتلتحق بجدلية الجبر والاختيار التي أعيت كل العقول ، لانها ولا شك تتعدى الادراك الذي يحشرون دون استيعاب كل اطراف القضية ــ وهو شرط لحلها ــ في مرحلتنا هذه التي وصلها نمونا الفكري وبلغتها قدرتنا على الالمام . فالأمر بالنسبة للقول بحتمية اتجاه التاريخ لا يختلف في جوهره عن الاعتقاد في ابرام القضاء والقول بالجبر . واذا ما اعتقد المرء هذا اعتقادا صادقا لا لبس فيه ،أداه حتما هذا الاعتقاد ، بحكم التولد المنطقي الاضطراري ، الى اسلام امره الى أعِنّة القضاءالمبرم التي تقود التاريخ ، فتقوده بالتبعية ، فيما ومن تقود ، الى ما لا يعلمه ولا يتحكّم فيه . انهذا التصور مثير ، وهو ، كالقول بالجبر ، يدكّ ويقوّض من الأســاس اركان الجهد والاجتهادوالمسئولية . أو هو ، في بعض الاحيان ، يخدم سياسة او مذهبية معينة تدعي أنها منتصرة ، لاريب في ذلك ، لانها في اتجاه التاريخ ، ولأن تطور العــالم يداب حتما نحوها . لكن هــذا ليس منالتاريخ في شيء ، وانما هو ضرب من التزييف والتزوير سوف نعود اليه في حينه .

والذي نذهب اليه هو ان اقرب المواقفالى الصواب في هذه المسألة ، كما هــو بالنسبة لمسألة الجبر والاختيار ، هو موقف الاعتدال .ان الانسان في تفاعله مع التاريخ موجَّه وموجِّه . انه لا شك في نظرنا ان التاريــخ لا يخبط خبطعشواء في ليلة دكناء . ان ما نعلمه عنه يفيدنا أنه يسير ، عن طريق لعلها ليست بالســوية كرميةقوس نحــو المرمى ، لكنها تقصــد ، مهما كانت منعرجاتها المثيرة للحيرة ، هدفا وغاية . لكن هذهالغاية التي نحوها يسير بنا ركب التاريخ ، ليست في نظرنا ، كما اعتقد البعضنظاما اجتماعيا معينا،ولا مذهبية سياسية دون غيرها ، انما هي أسمى من كل ذلك ، اسمى وأبقى من كل هذه الجزئياتالفانية التي لا تزيد ــ اذا ما نُظر اليها من زاوية التاريخ ــ على ان تكــون أعراضــا متغيرة بتغيرالظروف ، زائلة بزاولها . ان الغاية التي يســير بنا ــ او بفضلنا ــ نحوها التاريخ انما هي نفسالغاية التي تحرك كل الخليقة من النشــوء الى الارتقاء . ان عجلة التاريخ تدفعنا ، بوسائل شتىتختلف باختلاف الظروف ، وكثيرا ما تكون اليمة قاسية ، نحو انسانية اكمل ، تخلق لنفسها ، في كل مرحلة من مراحل سيرها الى الأمام ، الاطار الاجتماعي ، والاقتصــادي والســياسي الملائم لوضعها ولنضجها . ان حركة التاريخ الوحيدة التى لا جدال فيها ، هي حركة النشوء والارتقاء ،ذلك هو اتجاهه ، وتلك هي غايته .

ويتضح لنا هكذا ان التاريــخ ، اذا مــاوضعناه في هذه الأبعاد ، لم يبدأ من يــوم نقش الانسان مآثره على المدر او الورق،أو حتى من يومأنضج الخزف أو سنّ الحجر وصقله بل من يوم نفخ الله فيه روح الانسية ، وفصله وفضّله بذلكعن ســائر الحيــوان . « قل ســيروا في الارض فانظروا كيف بدأ الخلق ، ثم الله ينشيء النشأةالآخرة ، ان الله على كل شيء قدير » (٥) . لقد سار العلماء في الارض واجتهدوا كي ينظروا كيفبدأ الله الخلق ، واتضح لهم بصفة لا تقبل الشك ان الانسان في تطور لم يزل مستمرا ، ويؤمل أنيستمر .. ان لم تكن كارثة واجهاض .

والحقيقة ان هذا الاكتشــاف ليس بجديدتماما في خواتمه ونتائجه . ذلك ان الانسان ان لم يقم عليه الدليل العلمي قديما كما هــو الشــأنالآن ، فقد انتهى اليه بمجرد التأمل ، قبــل أن

---

(٥) العنكبوت ، سورة رقم ٢٩ ، آية ٢٠ .

بهديه السـير فى الارض ، وفحص أديمها ، الى العثور على حلقات السلسلة التي تربط أوله بحالة اليوم . ومن بين المفكرين العـرب الذين كان لهم ـ قبل داروين بقرون ـ القسـط الأوفر فى هذا الصـدد ، يجـدر أن نخص بالذكر اخـوان الصفا (٦) ، ومسكويه (٧) (توفى سـنة ٤٢١/١٠٣٠) وابن خلدون ، الذى يلاحظ فيما يخص نشوء الانسان وارتقائه فى سلّم الكائنات :

« واتسع عالم الحيوان وتعددت انواعه ، وانتهى فى تدريج التكوين الى الانسـان صاحب الفكر والرؤية ، ترتفع اليه من عالم القردة (٨) الذى اجتمع فيه الحس والادراك ، ولم ينته الى الروية والفكر بالفعل . وكان ذلـك أول أفق من الانسان وبعده . وهذا غاية شهودنا (٩) » .

ويضـيف **ابن خلدون** : « .. فوجب من ذلك ان يكون للنفس اسـتعداد للانسـلاخ من البشرية الى الملكيـة لتصـير بالفعل من جنس الملائكة وقتا من الأوقات فى لمحـة من اللمحات ، **وذلك بعد ان تكمل ذاتها الروحانيـة بالفعل** كمانذكره بعد ، ويكـون لها اتصـال بالأفق الـذى بعدهـا ، شـأن الموجـودات المرتبـة كماقدمناه (١٠) » .

وهكذا يصبح التاريـخ وعاء لحركة تقدم جدلية يتوق الانسان من خلالها ، وبفضل الانتصار على تناقضاته المتجسمة فى اجهاضات الحضارات المتتالية ، الى **انسانية اكمل فأكمل . فهو فى كل يوم يبني ، بالتغلب على خيباته المتكررة ، انسانيته** ، وما الخيبات فى هذا الصدد الا جملة من الانحرافات التي ، ان عاقت السير فى طريق الارتقاء ، لا تقطعه ولا تغيّر اتجاهـه . وهذه الطـريق تؤدى الى الأفق الذى يلي ، أفق يكون فيه ـ حسب تعبير ابن خلـدون ـ « الانسـلاخ من البشريـة الى الملكية » ، أى الاقتراب من عـالم الروحانيات . ومن يدريك ؟ لعل فى خاتمـة مطاف هذه المرحلة ينشىء الله يوما الانسان نشأة اخـرى ، لا تقل خطورة عن تلك التي فصله بها وفضله على عالم الحيوان ؟ فالتاريخ اذن ليس بالنسبة للانسـان تسلسلا زمنيا تعده دقات الحوادث ، انما هـو حركة تطورية جدلية ، يستمر بها الخلق .

هذه الحركة توجه الانسان بلا ريب . لكن هذه الحركة ، فى نفس الوقت ، لم يكن ليكون لها وجود لولا الانسان ذو اليد والرؤية ، لأن الانسان هو نقطتها المركزية ومُحرّكها الدافع لها . لا اتجاه

---

(٦) انظر رسائل اخوان الصفا ، ط . بيروت ١٩٥٧ ، ج ٤ ، ص ٢٢٧ ـ ٢٣٨ ، وانظـر ايضـا المؤلـف التـالي

S. H. Nasr, An introduction to islamic cosmological doctrines, Conceptions of Nature and Methods used for its study by the Ihwan El-Safa, Al-Birun and Ibn Sina, Harvard Universitd Press, 1964.

(٧) انظر الفوز الاصغر ، ط. القاهرة ١٣٢٥ هـ ، ص ٧٦ ـ ٨٣

(٨) الرواية التي اخترناها هنـا هي التي اثبتها كاترمار Quatermere فى طبعه للمقدمة ، باريس ١٨٥٨ ، ج ١ ص ٩٧٤ ، وهي التي اعتمدها ايضا روزنتال Fr. Rosenthal فى ترجمته الانجليزية للمقدمة (ج ١ ص ٤ و ٩ و ج ٢ ص ٤٢٣) عملا بما ورد فى مخطوط المقدمـة الذى راجعه ابن خلدون بنفسه وبقلمه والمحتفظ به فى استنبول وهذه الرواية هي الوحيدة التي تنسجم مع السياق . اما الطبعات الاخرى المتعددة للمقدمة ، فاننا نقرا بها عوض « القردة » « القدرة » وهـذا اختيـار لا يتماشى مع السياق ويأسف له ساطع الحصرى فى دراساته عن مقدمة ابن خلدون ، بغداد ١٩٥٣ ، ص ٣٠٢ .

(٩) ابن خلدون ، المقدمة ، بيروت ١٩٥٦ ، ص ١٦٧ .

(١٠) ابن خلدون ، المقدمة ، بيروت ١٩٥٦ ، ص ١٦٨ .

للتاريخ لو لم يكن ذلك الاتجاه فى خلد الانسان الأول كالتجرة فى النواة . التاريخ انما هو التجلي التدريجي لحاجات الانسان الكامنة فى بنيته الاولى ، واتخاذ الوسائل المؤدية لتحقيقها . فهو خروج مسترسل من القوة الى الوجود ، وتحقيق متواصل للغاية التي يحمل سرها الانسان فى غيب تكوينه وفى الطاقات المودعة فيه ، وان كان لا يدرك دائما على حقيقتها ، وفى كل وضوح تلك الغاية ، وان كثيرا ما اشتبهت عليه السبل ، وانحرف وتاه فى معارجها ، وأساء استعمال طاقاته ولم يحسن تقييمها وتوجيهها . غير أن الطاقة الموجهة للتاريخ كامنة فيه بلا منازع . فتاريخ الانسان فى الانسان من أول الخليقة .

لكن ان كانت القوى الدافعة للتاريخ كامنة فى الانسان ، هل هي متساوية فيه من حيث هو انسان على العموم ، أم هل هى تختلف باختلاف الافراد ، فيكون لبعضهم دور أحسم ووزن أجسم فى توجيه عجلة التاريخ ؟ انكر بعضهم ــ خاصة بعدما ظهرت المنهجية الماركسية فى التاريخ ــ أن يكون للفرد دور يذكر حقيقى فى التطور التاريخي، اذ الدوافع الحقيقية كامنة فى الجماعات وما يحدث فى حياتها من تغير . فهي الأعماق التي تتكون فى صلبها التعاريج العظمى التي تغير وجه الكون ، والهزات التي يرتجف لها من حين لحين . غير أن هذه النظرية ــ على ما فيها من حقائق لا تجحد ــ تمثل تطرفا جديدا فى التفسير والفهم يمثل رد فعل معاكس ضد تطرف آخر طغى على التاريخ قرونا طويلة وجعل منه مجرد ملحمة ــ وردية تارة وسوداء تارة اخرى ــ لبعض الابطال المتوجين وغيرهم . والصواب فى نظرنا فى الابتعاد عن كل انواع التطرف ، وفى التقييم السليم لكامل العناصر ، اذ تفاعل الانسان بتاريخه ، على مستوى الأفراد والجماعات ، شديد التعقد كثير التشابك ، فمن ينكر الدور الذى لعبه « أنف كليوبترا » أى سحر شباكها ، فى تاريخ مصر وروما ؟ وهل تاريخ انجلترا كان يكون على ما كان عليه لو حذفنا كرومويل (١٥٩٩ ــ ١٦٥٨) Cromwell ؟ وما قولنا فى هتلر Hitler هل حال عالمنا اليوم كان يكون على ما هو عليه ، لولا هذا الرجل الغريب ، بشذوذ عقليته ، واحتدام مزاجه ، واختلال توازنه ، وقدرته على الهاب الجماهير وتجنيدها ؟ طبعا يمكن أن نلاحظ أنه لو لم يجد حطبا جزلا ، لما استطاع أن يبعث الحريق . لكن يمكن ايضا ان نعكس الآية ونقول : لولا قدرته العجيبة على قدح الزناد ، لما اضطرم الحطب ، وما شب الحريق بتلك الصورة التي نعرفها على الأقل . وهكذا نجد دائما فى طريقنا تداخل العوامل وتشابكها ، وتفاعل الانسان ، على مستوى الافراد والجماعات ، مع تاريخه . فهو مؤثر مؤثر فيه ، فاعل منفعل على الدوام بصور واشكال مختلفة تعجز الحصر والاحاطة والاحصاء .

وخلاصة القول أن صلة الانسان بالتاريخ وفهمه له قد تغيرا تغيرا بعيدا منذ تلك الأيام الأولى التي لم يكن التاريخ فيها سوى ضرب من الميثولوجية او قصص اساطير الاولين . وان العرب قد لعبوا دورا حاسما فى تقدم العلوم التاريخية وكان دورهم فى عصورهم الذهبية يفوق بكثير دور الأمم الاخرى . فعن طريق منهجية الحديث ، ادخلوا فى التاريخ الاعتناء بالموضوعية ، والتأكد من صحة الأخبار المروية بفضل قواعد الجرح والتعديل ، والاعتناء بنقد السند والرجال ، أى بما نسميه اليوم النقد الخارجي . وبهذا جعلوا من التاريخ علما حقا ، ذا جدية ومنهجية . وكذلك قد حاولوا ان يخرجوا به من حدود الاقليمية الضيقة الى حدود أوسع هدفها أن تشمل العالم المتحضر المعروف فى زمانهم .

ثم ظهرت مقدمة ابن خلدون التي شكلت **منعرجا حاسما في كيفية فهم الانسان لتاريخه** وتقييمه له ، وما يرجو منه من كشف ، لا عن ماضيه فحسب ، بل خاصة عن تطور الجنس الذى ينتمي اليه ومصيره . لقد سبق أن بيناكيف اعتبر الناس ــ قبل ابن خلدون وحتى بعده بقرون ــ أن التاريخ انما هو رواية صادقة ، **مرتكزة على قواعد سليمة ، عند اهل الجدّ من** المؤرخين ، غايتها الالمام بحوادث الماضي والاحصاء **العددى لها . لقد حاول الانسان أولا ان يؤرخ** الحوادث البارزة ، اى ان يكوّن لنفسه ، ولعشيرته ، ولقومه ذاكرة تحفظ المفاخر خاصة ، وتضبط ازمانها حسب السنوات ، من دون أن يحاول ان يفهم فهما عقليا عميقا ضرورة بروزها في زمن وبيئة ما وسرّ تداخلها ، ومدى تأثيرها على جنسه كأنسان بقطع النظر عن الشعوبية الضيقة . وأول من شذّ عن هذه القاعدة اليوناني **توسيديد** Thucyolide الذى عاش بين سنة ٤٦٠ وسنة ٣٩٥ قبل المسيح . فلقد حاول التحليل والتعليل . لكن رغم الومضات الصادرة من حين الى حين عن بعض الأفذاذ فان التاريخ بقي ، بصفة عامة حتى القرن التاسع عشر مجرد دفتر به تضبط الوقائع حسب وقوعها ، مع توخّي الصدق والتحرّي في الرواية اذا كان المؤرخ أمينا . وهذا ما جعل **ايف لاكوست** Yves Lacoste يجزم « أن قبل القرن التاسع عشر لم يكتب لأحد أن يفوت **توسيديد** سوى **ابن خلدون** : فالأول قد اخترع التاريخ ، وعلى يد الثاني اكتسى هذا التاريخ صبغته العلمية » (١١) .

فكيف اصبح ياترى التاريخ عِلْما ــ بالمعنى المعاصر للكلمة ــ على يد ابن خلدون ؟ كان ذلك قبل كل شيء عن طريق فهم ابن خلدون للعلاقة الجدلية الخلاقة التي تربط الانسان بتاريخه . **ويتخلىّ ذلك بكل وضوح في تعريفه له حيث يكتب :**

« حقيقة التاريخ أنه خبر عن الاجتماع الانساني ، الذى هو عمران العالم ، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال مثل التوحش والتأنس والعصبيات ، واصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض ، وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها ، وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع ، وسائر ما يحدث في ذلك العمران بطبيعته من الاحوال (١٢) » .

فهذا التعريف للتاريخ يدهشنا ، اذ هو تعريف له كما نفهمه نحن اليوم ، بل كما يفهمه انصار الحركة التجريدية الذين حملوا حملة شعواء في مؤتمر سنة ١٩٥٠ بباريس ، على من بقي من المؤرخين متمسكا بالطريقة التقليدية في رواية الحوادث واعتبار التاريخ يكفي أن يكون سجلا لها . فابن خلدون يريد عكس ذلك ، فهو يريد أن يجعل من التاريخ اداة كشف عن سر « الاجتماع الانساني » ، وعن خروج هذا الانسان من « التوحش الى التأنس » بفضل الصراع الجدلي الذى يُعبّدُ سبيله ، عبر عقبات متجددة ، **نحو النسيئة اكمل ، عن طريق الرُقي المستمر** الناشيء حتما عما « ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع ، وسائر ما يحدث في ذلك العمران بطبيعته من الاحوال » ، وطبيعة الاحوال هذه التي يشير اليها

---

(١١) Yves dacoste, Ibn Khaldoun, raissance de l'histoire, passe du tiers-monde, Paris, F. Maspero, 1966, p. 187.

(١٢) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٥٧ .

ابن خلدون ، ويعتبرها القانون الذى بمقتضـاه يسير التطور الضرورى الذى لا يعاند ، انما هي سنة الله « التي توجّه شراع الخليقة ، ليّنة تارة عنيفة اخرى ، والتى اشار اليها القرآن فى اكثر من آية . وهكذا يصبح التاريخ استكتشافا كليا لتطور الانسان ، ومحاولة حل للغز وضعه اليوم فى هذا الكون ، ولمصيره العاجل او الآجل .

وان لم يطبق ابن خلدون آراءه هذه الطموحة الجريئة فى كتاب العِبَر ، فان ذلك لا يسلبه فضل التعبير عنها بغاية الدقة والوضوح . وبعد فانه يستحيل عمليا لا سيما فى زمانه ، تطبيقها من طرف باحث واحـد ، فى موسـوعة فتحت صفحاتها لتاريخ العالم الاسلامي بأكمله . ولعل استعصاء تطبيق هذه الآراء فى كتاب العِبَر هو الذى جعل ابن خلدون يضمن خلاصة أفكاره وعِبَره واعتباراته خاصة فى المقدّمة . وهكذا فتح ابوابها للاجتماع والاقتصاد والمؤسسات ، وضروب الثقافات والعلوم ، لان كل ذلك ان لم يكن تاريخا صرفا بالمعنى الضيق فلا غنى للمؤرخ عنه ولا سبيل لفهم الانسان بدونه .

هل يعين التاريخ على حلّ مشاكل اليوم ؟

لقد حاولنا فيما سـبق أن نعالـج بعض القضايا الناشئة عن تفاعل انسان يومنا بتاريخه ، وأن نستكشف أبعادها ، ودورها فى هيكلية كيانه ومحيطه . ولقد اتضح لنا ان الانسان ، ان كان كما قيل قديما « حيوانا اجتماعيا » فهو ايضا ، والى درجة أبعد ، « حيوان تاريخي » فالتاريخ يغذّي ويكيّف بصفة أعمق فأعمق على مر الزمان ، شعوره واللاشعوره .

فهل لهذا التاريخ ــ الذى اخذ الانسان يشعر اليوم بوضوح لم يسبق له مثيل بوزنه ــ فائدة عملية ، وهل يمكن أن نغنم منه غنما يلمس بصفة واقعية حسية لحل مشاكل الساعة ؟ أم هل هو علم مجاني ، لا مقابل من ورائه سـوى مجرد المعرفة ولذة البحث ؟

هذه قضية قديمة ، وهذا السؤال ليس وليد مشاغل اليوم . ولقد اختلفت الاجابة عـن هذا السؤال باختلاف الأوضـاع والملابسات ، وباختلاف الأمم والشعوب ، وتغير الازمنـة والعقليات . لكن ، ان اختلف الناس قديما وحديثا فى تفاصيل الجواب ، فهم متفقون بدون استثناء أن للتاريخ فائدة .

ورأوا أولا فوائده فى جوانبه الدينية . كان التاريخ يعتبر علما تكميليا للعلوم الدينية التي كانت تحتل مركز الدائرة بالنسبة للعلوم الأخرى الملتفة حولها ، السابحة فى فلكها . كانت وظيفته بالنسبة للحضارة الاسلامية فى أيام نشـوئها ، انارة ظروف البعثة المحمدية ، وما نشأ عنها من غزوات وفتوحات ، وما نشأ عن الفتوحات من مشاكل فقهية تتعلق بنظام الارض حسب فتحها حلما أو عنوة ، وبالجزية والخراج ، وقانون أهل الذمة ، كما يطلب منه تفصيل ما ورد فى القرآن من اشارات الى الانبياء ، والرسل والامم القديمة وما الى ذلك . التمس اذن السلف فى التاريخ حلاً للمشـاكل التى كانت قائمة فى أيامهم ، ووفقوا فى ذلك الى حد بعيد .

وتظهر هذه النزعة بوضوح فى تاريخ **الطبرى** (٢٢٤ ــ ٨٣٨/٣١٠ ــ ٩٢٣) ، وتبرز من أول وهلة جليّة ، فى عنوان الكتاب « تاريخ الرسل والملوك » ، كما تجدها مفصلة فى المقدمة التي قدّم له بها مؤلفه ، الذى كان فى نفس الوقت محدثا ومفسرا . ولعله يحسن أن نذكر هنا ان التاريخ بدأ عند العـرب أشـبه ما يكـون بعلم الحديث ، فى منهجه وأسلوبه وطرق روايته . كانت هكذا غاية التاريخ لا تختلف كثيرا عن غاية الدين فى حل مشـاكل المجتمع والفرد .

ويؤكد **ابن الاثير** (٥٥٥ — ١١٦٠/٦٣٠ —١٢٣٢) على هذه الناحية ايضا ، غير أنه أصبح يلح خاصة على الجوانب السياسية التي اخـذت تحتل المكانة الأولى عندما انقلبت الخلافة الى الملك ، حسب تعبير ابن خلدون (١٣) . ومعنى ذلك ان التاريخ الذى كان فى أول أمره فى خدمة الدين اصبح فى خدمة السياسة . ففي وعائه افرغ **مسكويه** (٣٢٠ — ٩٣٢/٤٢١ — ١٠٣٠) وغيره « تجارب الامم » ، كي يغترف من معينها أولو الأمر الحلول الملائمة لما يحـدث لهم مـن مشـاكل فى سياسـة الشـعوب التي يديرون شؤونها . وهذا ابن الاثير يعبر عـن ذلـك بكل وضوح فى تاريخه الكامل الذى وضعه **لبدر الدين لؤلؤ بن عبد اللـه الاتابكـي ، الملقـب بالملـك الرحيم** (١٤) ، صاحب الموصـل (توفي ٦٥٧ —١٢٥٦) فهو يبين ما نصه :

فمن فوائد التواريخ : « أن الملوك ومـن اليهم الأمر والنهيُ اذا وقفوا على ما فيها مـن سيرة أهل الجور والعدوان ، ورأوها مدوّنة فى الكتب يتناقلها الناس ، فيرويها خلف عن سلف ، ونظروا الى ما اعقبت من سوء الذكر ، وقبيح الأُحدوثة ، وخراب البلاد وهلاك العباد ، وذهاب الاموال ، وفسـاد الاحـوال ، استقبحوهـا ، واعرضوا عنها واطّرحوهـا . واذا رأوا سـيرة الولاة العادلين وحسنها ، وما يتبعهم من الذكر الجميل بعد ذهابهم ، وأن بلادهم وممالكهم عمرت واموالها درّت ، استحسنوا ذلك ورغبوا فيه ، وثابروا عليه وتركوا ما ينافيه . هـذا سـوى ما يحصل لهم من معرفة الآراء الصائبة التي دفعوا بها مضرات الاعداء وخلصـوا بها مـن المهالك ، واستعانوا نفائس المدن وعظيم الممالك . ولو لم يكن فيها غير هذا لكفى به فخرا .

ومنها ما يحصـل للانسـان من التجارب والمعرفة بالحوادث ، وما تصـير اليه عواقبها ، فانه لا يحدث أمـر الا قد تقدم هـو أو نظيره ، فيزداد بذلك عقـلا ، ويصـبح لأن يقتدى به أهلا (١٥) .

لا شك أن ابن الاثير ، عندما كان يكتب هذه الأسطر ، كان يفكر فى الملك الرحيم ولى نعمته ، الذى استفاد من دروس التاريخ وعظته ، واستعان بها فى سياسة ملكه . وهكذا حدث تطور فى فهم فوائد التاريـخ وغاياتـه ، فاعتبـره معاصرو مسكويه ، وابن الاثير ، ومن أتى بعدهم ، زيادة على اغراضه الدينية ، مدرسة لتخريج الاطارات السياسية ولتخريج الملوك منهم خاصة . وتتخلى هكذا متانة الصلة التي تربط التاريخ ، فى نظر هذا الجيل من المؤرخين والقادة ، بمشاكل الحين والساعة .

---

(١٣) انظر الفصل الثامن والعشرين من الباب الثالث الذى عقده ابن خلدون بمقدمته (ص ٣٦٢ — ٣٧٤) تحت عنوان : « فى انقلاب الخلافة الى الملك » .

(١٤) خير الدين الزركلي ، الاعلام ، الطبعة الثالثة ، بيروت ج ٦ ص ١١١ . ويذكر ابن الاثير تاليف الكامل فى التاريخ لبدر الدين فى الجزء الاول من هذا الكتاب ص ٥ . ويلاحظ أن هذا الملك ، الذى الف له ابن الاثير كتابه : كان من احسن الملوك سيرة ، مما ينير ما يذكر صاحب الكامل من فوائد التاريخ لسياسة الدولة . ولعله يحسن ان نثبت نبذة مما يروى ابن تغرى بردى فى شأنه فى النجوم الزاهرة (ط. دار الكتب ، القاهرة ، ج ٧ ص ٧٠) وهـذا نصها : « ... وكان شديد البحث عن اخبار رعاياه ، ما يخفى عنه من احوالهم الا ما قل ، وكان يفرم على القصاد والجواسيس فى كل سنة مالا عظيما . وكان اذا عدم من بلاده ما قيمته مائة درهم هان عليه أن يبذل عشرة آلاف دينار ليبلغ غرضه فى عوده ، ولا يذهب مال رعيته . قلت : لله در هذا الملك ، ما احوج الناس الى ملك مثل هذا يملك الدنيا باسرها . وكانت وفاته بالموصل وهو فى عشر التسعين سنة » .

(١٥) ابن الاثير ، الكامل ، بيروت ١٩٦٥ ، ج ١ ص ٧ .

ولم يتند ابن خلدون فى هذا الاتجاه العام ،واعتبر هو بدوره التاريخ حقل تجارب فريد ، ومجال تأمل واعتبار ، وابرز ذلك بصفة جليـةفى جبهة موسوعته التاريخية التي اختار لها ، عن قصد وروية (١٦) ، اسم « كتاب العبر ، وديوان المبتدأ والخبر ، فى أيام العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوى السـلطان الأكبر » فهوايضا حرص على ببان ونوضبح فوائد التاريـخ بالنسبة لأهل العصر وما يحدث لهم من قضـايا **فكتب منبّهاً :**

« اعلم أن فن التاريخ فن عزيز المذهب ،جم الفوائد ، شريف الغاية ، اذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم فى أخلاقهم ، والأنبياء فى سيرهم ، والملوك فى دولهم وسياستهم ، حتى نتم فائدة الاقتداء فى ذلك لمن يرومه فى أحوال الدين والدنيا » .

لكن رغـم هذا الانفاق العام حـول فوائدالتاريخ ، وعدم مجانيته بالنسبة لشئون الحياة العاجلة والآجلة ، فانه حدث نفير جوهرى فى فهم نوعية هذه الفائدة وكيفية اسنثمارها . لقد رأينا منذ حين أن ابن الاثير كان يرى « انه لا يحدث **امر الا قد تقدم هو او نظيره » أى حسب العبارة** التي شاعت ، وما زالت شائعة فى اذهان الكثير **من ابناء يومنا « أن التاريخ يعيد نفسـه » .**

وركز كل من يرى هذا الرأى فائدة التاريخ على امكانية الحصول من حوضه على حلول جاهزة، برهنت على نجاعتها قديما ، لمشاكل متكررة هى بعينها ، أو نظائرها .. ويجمع المؤرخون اليوم ، وكل اهـل الفكر ، أن هذا وهم وخطأ محض ،وسـوء فهم للتاريـخ .. ومن العجيب ان ابن خلدون قد سبق ـ قبلنا بقرون ـ الى نفس ماانتهينا اليه من نتائج ونبه الى ما أشرنا اليه من خطأ ، بفضل ما أوتي من عبقرية ، ونفاذ ملاحظة، **ودقة بصيرة،وقدرة نادرة على التاليف والتحليل.** فلقد اهتدى الى ان التاريـخ لا يعيد نفسـه ،واوضح ذلك ايضاحا لا لبس فيه . فكتب فى هذا الصدد **ما نصه :**

« ومن الغلط الخفي فى التاريخ الذهول عن تبدل الاحوال فى الامم والاجيال ، بتبدل الاعصار ومرور الايام . وهو داء دوى ، شديد الخفاء ، **اذ لا يقع الا بعد احقاب متطاولة** ، فلا يكاد ينفطن له الا الآحاد من أهل الخليقة . وذلك ان احوال العالم والامم وعـوائدهم ونحلهم ، **لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر . انما هو اختلاف** على الأيام والازمنة ، وانتقال من حال الى حال . وكما يكون ذلك فى الاشخاص والاوقات والامصار : **فكذلك يقع فى الآفاق والاقطار والازمنة والدول .** سنة الله التي قد خلت فى عباده (١٧) » .

ويعتمد ابن خلدون فى استنتاجاته هذه على الحضارات العديدة البائدة او القائمة فى زمانه ، كحضـارات الفـرس الأولى ، والسريانيـين ،والنبط ، والتبابعة ، وبني اسرائيل ، والقبط ، والروم ، والفرنجة ، والترك ، والبربر ، وسائر العجـم ، والعـرب من مضر وغـيرها .. فهذه الحضارات كلها تقيم الدليل القطعى ـ كما سبق أن بينا ـ **ان التاريخ ليس تكرارا وعودا متواصلا** على بدء ، انما هو تطور وخلق . وهذا الخلق لايزال يرتقي فى سـلم « التدريج فى المخالفة حتى ينتهي الى المباينة بالجملة (١٨) » . وهكذا ينتهي ابن خلدون الى خاتمة ما كان لينكرها لا **هيجل** Hegel (١٧٧٠ ـ ١٨٣١) ولا **پـول ڤالـيرى** P. Valéry (١٨٧١ ـ ١٩٤٥) خاتمة تمثل

---

(١٦) المقدمة ، ص ١٢ .

(١٧) المقدمة ص ٤٦ ، انظر ايضا ص ٤٨ .

(١٨) المقدمة ص ٤٧ .

خلاصة تجربته الطويلة وتفكيره في جدوى التاريخ بالنسبة لحل قضايا اليوم والساعة ، وهي انه « لا يقاس شيء من احوال العمران على الآخر ، اذ كما اشتبها في أمر واحد ، فلعلهما اختلفا في أمور (١٩) » . ونتيجة هذا هي « أن العلماء من **بني البشر أبعد عن السياسة ومذاهبها (٢٠)** » . ويعلل ابن خلدون استنتاجه هذا ، الذي جعله عنوانا لفصل من الفصول الاخيرة التي يختم بها مقدمته ، والذي يمثل عصارة ما انتهى اليه في خاتمة مطافه في مجالي المغامرة والتأمل ، « بأن العلماء — **لأجل ما تعودوه من تعميم الأحكام** ، وقياس الأمور بعضها على بعض — اذا نظروا في السياسة ، افرغوا ذلك في قالب انظارهم ونوع استدلالهم ، فيقعون في الغلط كثيرا ولا يؤمن عليهم (٢١) » . **ومعنى هذا ان التاريخ يتحدى المنطق** وأن صناعة المنطق غير مأمونة الغلط لكثرة ما فيها **من الانتزاع وبعدها عن المحسوس (٢٢) » اذا ما** اقحمت قهرا في حقله وطبقت عليه اعتباطا ، وكل ذلك لان التاريخ — خلافا للاعتقاد الذي ما زال شائعا في كثير من الاذهان — لا يعيد نفسه ، وذلك لانه خلق متجدد .

لكن اذا خرج التاريخ كما بينا أن يكون يعيد نفسه ، وان يكون وعاء حلول جاهزة أو على الأقل جملة من الأمثلة تحتلب منها بالاستقراء المنطقي النظائر والتشبائه ، هل تبقى له مع ذلك فائدة تذكر لحل ما يعرض لنا من مشاكل في كل حين وساعة من حياتنا اليومية أو السياسية ؟ أم هل هو بالعكس ، لا يرجى من ورائه نفع يلمس ، **ولا يزيد على ان يكون عبئا يثقل عبئا الذاكرة ، أو في أحسن الحالات انما هو زينة يتحلى بها الرجل** المثقف والأديب الاريب ؟ .

لقد سبق ان قطعنا ، بدون تردد ولا توقف ان التاريخ ليس بعلم مجاني ، وان له نفعا وفائدة . في هذا جملة لا يختلف اثنان ولا يتناطح عنزان . لكن الاختلاف يظهر عند التفصيل وحصر مواطن النفع والفائدة . لقد عرضنا — لنحسن ضبط القضية وفهمها — لبعض آراء القدماء من بين اهم مؤرخي العرب . ولنا الآن على نور ما تقدم ، أن نضبط أبعاد القضية بالنسبة لوضعنا اليوم .

اننا اصبحنا اليوم لا نعتقد ان التاريخ يمدنا بحلول ، لانه لا يعيد نفسه . لكننا اصبحنا نعلم علم اليقين انه يعيننا اعانة جذرية على فهم واقعنا ، بل انه لا فهم لهذا الواقع ما لم نستعن بنوره **الذي لا يعوّض . والفهم الصحيح شرط** أساسي لالتماس الحل الناجح . لهذا نحن نعتقد اليوم ، كما اعتقد اسلافنا ، مع الاختلاف في التقدير ، أن التاريخ مدرسة لتخريج الاطارات السياسية ، أو على الأقل انه لا غنى عنه في تكوين الرجل السياسي الذي بيده الحل والعقد .

فكيف يتأتى مثلا لصاحب الامر ان يفهم العالم الحديث ، وتوازن القوى المتصارعة حتى يحسن التصرف والسير بامته في طريق السلامة ، **اذا ما جهل كيف كوّن هذا العالم في ارحام التاريخ** القريب منه والبعيد ؟ انه من البديهي ان نقول ان تصرفات العالم الغربي ، واختيارات قادته ، وملابسات سياستهم ، تكمن في ذلك الماضي الذي شهد تكون الرأسمالية وانبثاق الثورة الصناعية ، وما تبعها من تسابق نحو مواطن الطاقة والمواد الاولية ، وما نشأ عن ذلك كله من توسع ،

---

(١٩) المقدمة ص ١٠١٩ .

(٢٠) المقدمة ص ١٠١٨ .

(٢١) المقدمة ص ١٠١٩ .

(٢٢) المقدمة ص ١٠١٩ .

واكتساح اراضي الغير واوطانهم بالقوة ،ومزاحمات ، ونزاعات مسلحة وانقلابات داخلية تزيد وتقل عنفا ، وظهور مذهبيات اجتماعيةثورية ، وما نبع ذلك كله من انعكاسات أليمة على ما نسميه اليوم بالعالم الثالث ، وعلى وطنناالعربى بالخصوص ، الذى ذاق الأمرين نتيجة لانعزاله التدريجى عن حظيرة التاريخ ، بعدماكان ، فى القرون التي خلت ، مركز دائرته والمحرك الدافع لعجلته .

ولقد كون الغربيون ، لدعم سياستهمالمولدة عن الانفجار الصناعي والتقني الذى شهدته ربوعهم مستشرقين عديدين ، وكثيرا منالمختصين فى شئون البلاد التى اخذوا يغزونها بسلاحهم وتقنيتهم ، وامتداد حضارتهم ولغاتهم،سواء كانت تلك البلاد فى أميركا ، أو افريقيا أو آسيا ، علما منهم أنه لا تحكم فى الواقع بدونفهمه جيدا . وهكذا يتضح لك لم كتب تاريخنا ــ أول ما كتب بصفة علمية فى عصرنا ــ فى لغاتالحضارات الغربية الغازية . لم يكن ذلك عملا مجانيا صرفا ، مهما كان حب العلم والاطلاع داعيااليه . وفى هذا دلالة واضحة بينت التجربة نجاعتها ، على اهمية التاريخ بالنسبة لشئونالوقت والساعة . ونتيجة هذا هي اننا اذا ما اردنا اليوم ان نحكم سياستنا نحو الغرب،وننجحفى علاقاتنا معه ، وجب علينا الا نكتفي بدرس تاريخنا ــ وهو ما نقتصر عليه كامل طاقاتنا اليوم ــبل أن ندرس ايضا تاريخ وحضارات الأمم الأخرى التي نتعامل معها أكثر فأكثر . اى انه يجب عليناان نكون ــ اذا صح التعبير ــ « مستغربين » مختصين فى تاريخ الغرب وشؤونه . ولا يذهبنبكم الظن ان ما نعرفه من لغات القوم ، وما نقرأه مما صنفه علماؤهم فى تاريخهم ومختلف شؤونهميغني من ذلك ويجزي . فان المثل يقول : « ما حك جلدك مثل ظفرك » . ولعل فشل سياستناالبوم وسلبيتها فى كثير من الاحيان يعزيان الى انعدام المختصين فى صفوفنا فى شئون الامم التيتعايش معها او نتصادم . لقد سبق أن قلنا ان التاريخ بقي ايضا بالنسبة الينا ، لكن بمفهومجديد ، مدرسة لتخريج الاطارات السياسية . وليس معنى ذلك ان رجل السياسة ينبغي انيكون مؤرخا . ان التاريخ اختصاص يفني ــ كغيره من العلوم ــ الأعمار ، ولا يترك المجال للاشتغالبما سواه . لكن يجب ان يجد القائد السياسي من بني جلده وحوله ، من المؤرخين الاكفاء ، ومنالدراسات التاريخية المتينة ، ما ينير له السبيل ، ويمكنه من ادراك الوضع بوضوح ، حتى يحسنالخطاب والتصرف ، ويحقق النجاح لا لأنه ، كما توهم القدماء ، يستطيع ان يقترف حلولا جاهزةمن الماضي يطبقها على الحاضر ــ مما قد يؤدى الى الكوارث الجسام ــ بل لأن الحكم على الشيء،كما بين ذلك المنطقيون فرع تصوره . وفى التاريخ عون عظيم على التصور الصحيح . واذا صح ماقدمنا من مقدمات ، فانه يصح ايضا ان نقول ان اخفاق السياسة فى معالجة شئون اليوم ، انماهو الى حد بعيد اخفاق الجامعة قبل كل شيء .

وللتاريخ دور آخر فى معالجة شئون اليوميلعبه على المستوى الداخلي لأمتنا العربية . ان هذه الامة تفتتت منذ قرون ، وتجرعت كأسالانحطاط ، وعرفت ذل الخضوع الى الغير ، وهددها الذوبان ، وجربت مرارة الهزيمة . فهللكل هذه الادواء فى التاريخ اعانة على العلاج ؟ طبعا ليس التاريخ عصاً سحرية تحقق المعجزات. لكن ــ على هذا البساط ايضا ــ فى التاريخ اعانة على الفهم ، والفهم الصحيح طريق الحل .

ان التاريخ من أهم مقومات الشخصية . فالفهم الصحيح له يعين على بنائها ، ووقايتها من الذوبان الذى يهددها ، وعلاجها من الامراضالنفسية التي تعترضها ، وتشل طاقاتها . فكما

ان الانسان يحتاج الى ذاكرة ، فهو يحتاج الى تاريخ ، لأن التاريخ هو ذاكرته القومية ، وعلماء النفس يعلمون الاختلال الذى يطرأ على التوازن العقلي والنفسي اذا ما فقد المرء ذاكرته . فكما يمرض الأفراد لفقدان الذاكرة او اضطرابها ، كذلك تمرض الشعوب لضياع تاريخها او دخول التشويه والتشويش عليه .

وان شئت أن نفهم قيمة التاريخ بالنسبة لحياة الأمم ، وتوازن ذاتياتها الذى هو شرط نجاحها فى معركة الحياة ، فما عليك الا ان تلقي بنظرة على من لم يمنحهم **القدر** – او الحظ – تاريخا مرموقا او عريقا ، فهم كثير . فسترى العديد منهم يتألمون – عن شعور أو عدم شعور – من نقص وبتر ، كثيرا ما نرى قوما ، عظم شأنهم أو قل ، يبحثون عن قاعدة قارة متينة يضعون عليها أرجلهم ، ويشيدون عليها بنيانهم ، ويستمدون **منها** قواهم فى صراعهم اليومي . فهم تارة يخلقونها من عدم ، ويحصون كل كبيرة وصغيرة لوضع أسسها الحديثة التي لا عمق لها فى صاب الأرض . وقد يرمي اليأس بالضعفاء منهم فى أحضان تاريخ غيرهم ، فيفضلون هكذا الذوبان فى معين غير معينهم ، والسباحة فى ماء ليس بمائهم ، على البقاء بدون تاريخ . فكأن **الكائن البشرى الذى لا تاريخ له كائن عار لا يجسر** ان يظهر للناس .

غير أنك تسمع ايضا المثل القائل أن الامم السعيدة لا تاريخ لها . كلا ان هذا المثل يرشح **بالاستسلام ، وينبىء عن الضعف ، وينم عن** الخوف ، والكبت ، والميل الى التوارى والنعاس **اللذيذ** على هامش **الحياة** ، **والفشل والخمول** والخذلان . هو مثل المقهورين الذين عضهم الزمن بنابه ومال عليهم بكلكله . كأن المحن والاحن ليست **لازمة ، كالأفراح والنجاح ، لتكوين الكائن الحي** حقا ، شحذ العزيمة فيه ، وتدريبه على المغالبة والانتصار بفضل رياضة طويلة عسيرة لا ندرك **دائما سرها . وبعد فلقد سبق أن بينا ان التاريخ** ليس هو حتما ودائما تاريخ الكوارث والفتك تارة ، والنواح وتضميد الجراح تارة اخرى . ونحن **نعتقد** أن أهم ما فيه ليس من هذا القبيل . ثم اننا نأمل ان يصبح يوما تاريخ عالمنا تاريخ عزة **المعرفة** ، والتقدم عن الكمال والسعادة عن طريق السلامة ، طريق آمنة من حوادث المرور .

ومهما يكن الامر فالتاريخ مدرسة نتعلم من خلالها الاطوار التي مررنا بها فى طريق تكويننا ونضجنا ، مدرسة تعيننا أن ندرك ذاتيتنا ، وان نخرج ذلك الادراك من حيز التصور الغامض الى حيز الشعور الواضح البين . خذ مثلا من نفسك . انت عربي ، تدرك انك عربي لا بحكم الرقعة التي تحتلها من ارض الله ، بل لأن لك ذاتية خاصة تميزك عن غيرك من أهل البلاد الاخرى ، لانك تعرف وجهك فيما يحيط بك ، لأنك تحس ان **هناك سببا يربط بينك وبين من سبقك على سطح هذا الوطن من الأجيال المتتابعة . ان** ذلك السبب هو سبب التاريخ . فلو قطعت هذا السبب لأضعت قاعدة ذاتيتك . كما انك ، اذ **سبرت اعماق تاريخك، وتصورت تصورا واضحا** جليا نوع الروابط التي تربط بينك وبين من غبروا من بني جلدتك ، تمكنت من تعزيز ذاتيتك . . كما تتمكن ايضا من شذبها اذا ما احتاجت الى شذب وتهذيب ، كي يسرى فيها الماء من جديد بفضل بتر الاغصان التي لا خير فيها ، وتستعيد هكذا شبابا متجددا ابدا ، وتستعيد القوى التي تمتصها من اعماق تربتها . والذاتيات القوية **الأصيلة الواعية هي التي تخلق العزائم الصادقة التي تستطيع ان تثبت فى رياح الدهر ، وتتابع** السير الى الأمام باعتزاز وكرامة واحترام للغير .

لقد قلنا ان التاريخ يعين على التشذيب لاستعادة شباب ذاتياتنا اذا ما دعت الظروف الى ذلك . وهذا ما قد يغفل عنه الكثيرون لأن الرأى السائد هو ان التاريخ لا يزيد عن شحن وعاء

الذاكرة بمواد تزيد وتقل قيمة . وقل: ما يهتدى المرء الى أن التاريخ كثيراً ما يكون ، لا شحنا ، بل طرحا للاعباء التي لا خير فيها ، الأعباء او الانقاض التي تتراكم على الذاتية ، وتغشيها بالادران التي تتوالى عليها عبر القرون ، فتخنقها ، ويعشش في **زواياها الكبت وانواع العقد العائقة عن الانطلاق .** فتمرض نفسيات الجماعات كما تمرض نفسيات **الافراد ، فتسرى فيها المركبات سريان السرطان، ويخل بتوازنها الذهان ويشلها العصاب ويدخل** عليها الارتباك . وفى التاريخ بمفهومه العلمي الصحيح علاج لهذه الادواء ، لانه يلعب بالنسبة لنفسيات الأمم والجماعات ، الدور الذى يلعبه التحليل النفساني بالنسبة للافراد .

ولنضرب لذلك مثلا حسيا . أتذكر انك انتبهت أكثر من مرة ــ وقد ضربت فى الأرض شوطا ومر عليك زمن منذ نزلت من الحافلة ــ انتبهت وانت تضم يدك ، وتعقد اناملك عقدا على التذكرة التي ابتعتها عند ركوبك ، وأمرت ان تحتفظ بها كي تدلي بها عند الحاجة ، وتأمن المراقبة والحساب ؟ هل تساءلت عن السر فى احتفاظك بتذكرة اصبحت عديمة العائدة بعد نزولك من الحافلة ، واخذك طريقك نحو غايتك على الأقدام ؟ هذه التذكرة فقدت صلاحيتها ، **واصبحت مجرد ثقل يثقل يدك ، ويعوق حركتك،** وانت تحتفظ بها ، فهل مر بخلدك ، وطرق ذهنك ، أن السر فى ذلك هو ان الامر الذى صدر عن وعيك الباطن ليدك ولأناملك بالاحتفاظ بالتذكرة لم **يرفع بعد ؟ ..** فاستمرت الأنامل **المأمورة على الامتثال للأمر . . وان رفعت الاسباب** التي من اجلها صدر ذلك الامر . بقي الامر مرسوما فى طيات ، بل فى طيات أعماق نفور وعيك الباطن واقصاها ، بقي فى غضون اللاشعور كمالو رسم فى ناظمة آلية ، فبقيت تمتثل اليه وانت لا تشعر به شعورا واضحا . حتى اذا انتبهت ووعيت ان الظروف قد تغيرت واستحالت ، صدرت عندها الأوامر بالتخلي عن التذكرة التي **اصبحت عبئا لا نفع وراءه . فتنبسط اذ ذاك كفك** ، وتنطلق أناملك وتسقط التذكرة ، وتشعر بنوع من الانفراج ، وبأن عائقا قد رفع ، وأن عقدة قد حلت ، وانك اصبحت قادرا على أن تصرف قواك التي كانت معطلة الى ميدان آخر ، هو أكثر نفعا ، فى الظروف الجديدة القائمة . **فخلاصة** القصة هي أن نسيانك التذكرة لم يخلصك من عبئها غير الصالح ، وأن الخلاص لم يتح ، والعقدة لم تحل الا عندما أدركت ، وتذكرت ووعيت .

وكذلك شأننا مع التاريخ ، فنسياننا اياه ، وتنكرنا له ، واعراضنا عنه ، وغض الطرف لا يعيننا كل ذلك لا قليلا ولا كثيرا على الانفلات من شبكته . فنحن ، ما دمنا نحمله فى غضون اللاشعور نا دون فرز وتقييم وتمييز ، فاننا نظل نجر قيوداً عديدة من عقائد بائدة ، ورواسب بالية ، وأقشاش فانية ، تشوش شخصيتنا ، **وتعطل حركتنا وتثقلها مع انها قد فقدت الحاجة** اليها ، ولا نستطيع أن نتخلص منها وننطلق الا **عن طريق الاضطلاع البصير والوعي الجرىء الذى** يمكن من طرح ما ينبغي طرحه ، وايداع ما ينبغي ايداعه فى خزانة المحفوظات ايداعا مرتبا منظما . وهكذا نتمكن من شذب ذاتيتنا كي تبقى فتية أبدا، تؤتي أكلها وافراً جيداً ، من دون أن نتنكر الى عودنا ، ولا نجتث أرومتنا .. واجتثاث الأرومة يميت الشجرة ويذهب بالذات ، بينما التشذيب يزيدها قوة ويضمن لها الحياة . ان التاريخ عملية تطهير . فالوعي التاريخي السليم يقوم اذن مقام الوعي الذاتي بالنسبة للافراد : فيه سلامة روح الأمة عن طريق الوعي . فعندما نرتب عن علم

تاريخنا ، نرتب في نفس الوقت عن وعي مابأنفسنا . و « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » (٢٣) ، ولقد قيل ان الأمم المتخلفة اقتصاديا انما هي في الحقيقة متخلفة تحليلا . وهكذا نجد التاريخ في صلب مشاكل اليوم .

ولننظر الآن – على سبيل المثال ، ومع ترك الباب طبعا مفتوحا في وجه التأويل والتحليل – من بين قضايا الساعة في قضية واحدة وهي قضية الوحدة العربية ... وقضية وحدة الامة العربية هي قضية أمم كثيرة تبحث اليوم عن الوحدة وتشعر بالحاجة الماسة اليها على جميع المستويات . ومن بين هذه الأمم ، المعطيات الخام التي تمكن من بناء قاعدة هذه الوحدة ، لعلها أوفر عند العرب مما هي عند غيرهم . ولعل الحاجة اليها ايضا اوكد وامس بالنسبة الينا . لكننا نتوق الى الوحدة بصدق ، ونسلك اليها عن طريق تؤدى الى التفرقة . لم ؟ انه يستحيل علينا ان نجيب عن هذا السؤال ، وان نفهم السر في هذا التوق الصادق وهذا التناقض المضني – والفهم كما قدمنا طريق ضرورية نحو الحل – ما لم نستعن بمشعل التاريخ نهتدى في ظلمات اخفاقنا كي ننير السبيل نحو النجاح والوصول الى الأهداف .

طبعا انه يمكن أن نقتنع باليسير من التفسير ، فنقف عند قول عثمان لأصحابه قبيل ان يدخل عليه في بيته ، ويسفك دمه بغير حق : « لئن قتلوني لن يصلوا بعدى جميعا ابدا ولن يقاتلوا عدوا جميعا ابدا » ، فيذهب بنا الظن الى أن دعوة الخليفة الشهيد قد استجيبت ، والى أن العرب لم يزالوا ، ولن يزالوا يحملون دم عثمان على مر الأيام ، اذ بذلك قضى القدر . فهذا تفسير ما ورائي لا نطمئن اليه .

غير انه يحمل ضربا من الحق انه ينبغي أن نبحث عن توق العرب الى الوحدة ، وانهماكهم في الانقسام ، في تلك الفترة التي عاشها العرب أيام الفتنة الكبرى ، فتنة صدعت وحدتهم صدعاً لم يجبر بعد .

لقد مر عليهم ، من قبل ، ردح من الزمن نعموا فيه بحرية مطلقة ، حرية الفضاء الفسيح حرية المغامرة والغزو والنهب والأخذ بالثأر ، حرية الخيام التي ترفع قصد التوغل في الصحارى المقفرة بين الأودية والرمال ، حرية الطفينة النائية ، والأثافي الباقية ، والقلوب المكلومة الباكية على الأطلال . دهر اباء يشبه اباء الضوارى ، قضي عندما ظهر فجر الاسلام ... غير أنه ترك في النفوس والعقول آثاراً لم يعف رسمها مهما نسجتها رياح الدين الجديد . ولعل هذه الآثار مازالت كامنة في طيات اللاشعور نا الى اليوم .

ولقد حاول الاسلام ان يجعل من المسلمين اخوانا ، وان ينزع ما في قلوبهم من غل ، ويمحو حمية الجاهلية . فسعى الى تأليف قلوبهم حول اله واحد ، وكتاب واحد وقبلة واحدة . وسوى بينهم ، سوى صفوفهم في الصلاة ، وسوى طوافهم في ازار واحد محلقين الرؤوس حول الكعبة ، وخفف من التفاوت الاجتماعي بأن جعل – عن طريق الزكاه – حقا للفقير على الغني . وهكذا من هباء القبائل والعشائر والافراد ومن الغل والبغضاء خلق أمة موحدة تربط بين افرادها لحمة الأخوة وتضمن سلامتها عدالة التشريع وتوفير المساواة .

ودارت عجلة التاريخ دورتها . فاذا العصبية تبعث من رمسها – أو قل تستيقظ بعد اغفاء – واذا الحمية تحتدم ، واذا دم عثمان يسفك ، والشمل يمزق تمزيقا لم يلتئم بعده التئاما حقيقيا

---

(٢٣) سورة الرعد ١٣ ، الاية ١١ .

الى اليوم . لكن بذرة الاخاء والوحدة التي بذرهاالاسلام لم تمت ايضا ، فبقيت كامنة فى النفوس، لا تورق وتثمر ، ولا تزول وتفنى ، وذلك لأسباب يجب أن يميط عنها اللثام التاريخ ، اذا ما اردنا ان نهيىء للبـذرة الظروف الملائمـة لازدهارهاالدائم . لأن السبل التي اعتمدت الى اليوم لم تأت بطائل ولم تسفر عن نتائج قارّة ، بل انتهتبنا فى آخر الامر الى عكس ما اليه نقصد .

لقد عمد الأمويون الى لـم شعث الأمة ،فاعتمدوا فى الجملـة على السيف الا شذوذا ، ونفخوا فى العصبية ، وحاولوا اخضاع شق الى شق ، أو شق بشق . فتتابعت الفتن والثورات وأودت فى النهاية بملكهم . وحاول ان يلم شعث الأمة العباسيـون ، فاسـتعانوا بالخراسانيـة وأوكلوا أمرهم الى المرتزقة من أصناف الجند ،واحكموا نظام البريد والاستعلامات . فلم يغن عنهم ذلك شيئا ، ولم يجنوا من الاعتمـاد على القوة والبأس شيئا ما ، سوى انقسام دار السلام الى ممالك عديدة ، فلم يبق فى يد الخليفة المقفّص بين وصيف وبغا شيء يذكر .

وبقيت دار السـلام والعروبـة مفترقـة الشمل ، بل حربا على بعضها بعض . ومرت القرون . وحـاول بعض الفقهـاء ــ كالماوردى(٣٦٣ ــ ٤٥٠/٩٧٤ ــ ١٠٥٨) وابـن تيميـة (٦٦١ ــ ٧٢٨/١٢٦٣ ــ ١٣٢٨) وغيرهما ــ ان يبرروا الانقسام او ان يخفوه وراء ستور من الصيغ القانونية الملائمة . وقد يخال للانسـان ان الشعور بالوحدة ، بعد هذا كله ، قد طوى فى طيات التاريخ وقضي امره . فاذا بقرار الغاء الخلافة ــ الصادر فى ٣ مارس ١٩٢٤ يحدث رجة عميقة فى القلوب وأزمة فى الضمائر . واذا الكتب تنشر حول هذا الموضوع ، تسيل أسى تارة ــ ككتاب مولوى محمد بركات الله ، الهندي الأصل ــ وتصف الدواء تارة اخـرى ككـتاب رشيد رضا الشهير فى الخلافة .

وفى هذا دلالة واضحة على ان اللحمة التي نسجتها لغة القرآن بين كل الناطقين بها خاصة لم تبل بالرغم عما تعاقب عليها مـن احداث .تمزقت الامة العربية على المسـتوى السياسي وبقيت حية على المستوى الحضارى والعاطفي .وفى بقائها حيـة ، وفى صـمودها طوال القرون المتتالية فى وجه كل دواعي التلاشي ، دلالة على انها تملك ارضية يمكن أن نطمئن للبناء عليها .

لكن لِمَ لم ننجح فى اشادة هذا البناء بالرغم من كـل المحاولات المعاصرة التي لا نشـك فى صدقها ؟ هذا يحتاج الى تحليل تاريخي عميق ودقيق لا يتسع له طبعا هذا المقال ، اذ يجب ان نخصه بعديد الدراسات التي تثير المشكل مـن جميع النواحي . اننا اخفقنا الى اليوم فى حـل أهم قضية من قضايا عصرنا لأننا لم نحسن تصور كامل أبعادها ، ولم نحسن ذلك التصور لأننا لم نحسـن التحليل التاريخـي ، ولم نمد رجـال السياسة منا بما يضمن لمساعيهم التوفيق .

وعندى ــ اذا كـان لي عند ــ أن السر فى فشلنا يكمن فى أننا ما زلنا ، بصفة وبأخـرى بطرق مقنعة أو صريحة ، نسعى الى الوحدة مـن تلك الطريق التي جربها الآباء فى غير نجاح ، طريق القوة ، والاخضاع ، والهيمنة ، وتفوق عصبية على عصبية ، وشق على شق . ولقد اقام التاريخ دليله القطعي ان هذه الطريقة تنتهي الى رتج (٢٤): أن نسفك دم عثمان أو أن نطالب به ، أى أن كل اصناف العنف ، ما يدعى منها بالثورى وما يدعى بالرجعي ، الفعل ورد الفعل ، كل ذلك لا يحل المشكل ولا يجمع شملا . ألم تر أن الغرب ، عندما شعر بالحاجة الملحة الى الوحدة فى أيامنا هذه ، اخذ يسعى اليها عن طريق توحيد المصالح وتأليف العقليات ؟

---

(٢٤) الرتج هو الطريق المسدود .

لقد مر علينا دهر ونحن نتأرجح بين قطبي الوحدة والتفرقة ، واعتقادى انه يستحيل علينا ان نخرج من هذا التأرجح الى الانطلاق الا اذاوعينا تاريخنا واحسنا تحليله وفهمه ، وفهمنا دروسه . ولا يمكن أن نفك الدائرة الموبوءة الا اذاغسلنا ايدينا من دم عثمان — اى من وسائل العنف بكل انواعه — ولا يكون ذلك الا بتطهير ضمائرنا من بقايا حمية الجاهلية — التي مازالت ولا شك تختلج فى اعمق اعماق اللاشعورنا — فتنقلب فينا باعانة الوعي والارادة الصادقة ، المبادىء التي بذرها فى قلوبنا الاسلام ، تلك المبادىء الخالدة لكنها لمّا تينع ايضا لعدم صفاء تربة ضمائرنا . ان التحليل التاريخي الصحيح يمكن ان يحدث ثورة فى نفوسنا لا لأن فيه عمارة للذاكرة واثقال لها ، بل لأنه كثيرا ما يكون ، كماقدمنا ، عملية شذب وطرح للأعواد اليابسة ، ورفعا للكابح الذى يعوق الانطلاق .

هذا كله معناه ان التحليل التاريخي فيه فك للقيود التي تعوق حل مشاكل الساعة . فينبغى اذن ان نحذر ان نقع فى الخطأ الذى حذر منه ابن خلدون ، وحذرنا منه بدورنا ، اى ان نعتبره خزانا لحلول جاهزة . ولقد وقعنا فى هذا الخطأ فعلا ، فلم ننجح فى نهضتنا التي سبقت نهضة اليابان زمنا ، وتأخرت عنها تحقيقا وانجازا بهوة ساحقة ، هي هوة تخلفنا الدائم . ولعل السر فى ذلك هو ان حركة الاصلاح التي انبعثت فينا كانت تدعو الى الرجوع الى السلف الصالح — وهل كان كل السلف صالحين ، فلنقلب صفحات التاريخ عن صدق — وكان شعارها : « لا يصلح حال حاضر هذه الامة الا بما صلح به أولها » . فلم نوفق الى السبيل التي جعلت من اليابان ثالث قوة فى عالمنا ، وما ذلك الا لأننا لم نع أنه : « لا يقاس شيء من احوال العمران على الآخر » ، كما علّم التاريخ ذلك ابن خلدون ، فعلمنا اياه ، فلم نفقه . فحاولنا ان نقلد السلف عوض أن نبتكر ونخلق ، أو على الأقل كوّنا فى انفسنا عقلية تبعث على التقليد اكثر مما تبعث على الابداع والابتكار .

لذا يجدر بمؤرخينا اليوم ان يعتبروا كل هذا حتى لا يكون التاريخ ، اما علما مجانيا لا فائدة ما ترجى من ورائه سوى مجرد المعرفة ، واما سجل تمجيد نعالج به — بصفة غير ناجعة فى الحقيقة — مركبات النقص ، ولا نجني منه فى النهاية سوى التخدير ولذيذ النعاس على فراش مجد أسلافنا . يجب ، كي نعين على حل مشاكل اليوم ، ان نعطى الأولوية فى بحوثنا الى تلك الفترات المظلمة فى تاريخنا ، تلك الفترات التي انتهت بنا الى ما نقاسيه من تخلف وحرمان . الى هذا الحقل يجب ان نوجه جهود شبابنا من الباحثين . وبهذه الصورة نرجو ان يكون فى التاريخ عون على الاقلاع الذهني الذى هو شرط ضروري للاقلاع فى بقية الميادين .

تزوير التاريخ

لكن التاريخ لا يؤدى على الوجه الاكمل وظيفته هذه ، التي تخرجه من أن يكون علما مجانيا (٢٥) ، الا بشرط : شرط مطابقته للواقع حتى لا يكون بناء الحاضر والمستقبل على مقدمات واهية . ولسوء الحظ فان توفر هذا الشرط ، الذى يحلم به كل مؤرخ مخلص لعلمه ، ليس عسيرا فقط ، بل هو مستحيل تماما فى كامل العلوم الانسانية اطلاقا ، وفى التاريخ على وجه الخصوص ، وذلك لاتحاد المنظور بالناظر . لقد سبق أن قدمنا اننا نصنع التاريخ بقدر ما يصنعنا . فكل كتابة للتاريخ اذن ، مهما احطتنا ، تزوير بوجه من الوجوه وبدرجة من الدرجات .

---

(٢٥) يريد الكاتب بلفظ مجاني شيئا لا فائدة فيه .

ذلك ان التاريخ الذى نكتبه ليس أبدا عين الحقيقةفى ذاتها المجردة ، انما هو صورة ننتزعها من ذهننا نتوهم بصدق أنها تعكس عين الحقيقة . فكل كتابة للتاريخ مبنية فى قرارتها على هذا الوهم .

ثم ان هناك مشكلة الوثائق التي نعتمدهافى كتابة التاريخ . فهذه الوثائق لا تمثل أبدا كامل أوجه الواقع . مهما كان التاريخ الذى نكتبه قريبا او بعيدا ، وخاصة اذا ما كان بعيداً ، فان ما يبلغنا من وثائق لا يحيط بجميع نواحيه . ذلكان يد الدهر ويد الانسان وانواع الصدف فى النهاية تضمن البقاء للبعض وتتلف البعض الآخراتلافا بلا رجعة . وهكذا تكتسي كتابتنا للتاريخ صبغة اعتباطية تميز بعض الظواهر دون بعضوما ذلك الا لجهلنا ، وعدم شمول وثائقنا ، التي تترك فى نسيج التاريخ ثقوبا تكثر وتقل ويتسعخرقها ويضيق . وكل هذا يختم فى النهاية بالوان من التحريف ، لا سيما عندما يستعين المؤرخبالخيال ليرتق الفتق ، ويملأ البياض ، ويرفو الثقب .

أضف الى ذلك كله وهن الملاحظة . فمايكون قد شاهد الجندى الذى شارك فى واقعة واترلو (١٨١٥/٦/١٨ Waterloo) التى اودتبمجد **نابوليون** Napoléon وما قد يستطيع ان يحكي عنها ؟ ان ابعاد الحادث واتساع رقعتهتعجز المشاهدة وتفوتها . وعندما تتسع المشاهدة **للحادث وتستطيع الالمام به ، فان ذلك لا يقيهـا**تماما النقص والخطأ . خذ ، ليتضح لك الأمر ، مثلا بسيطا ، مثل حادث مرور ، يرويه عدد من شهود عيان كلهم ثقات . فانك واجد لا محالة اختلافات تزيد وتقل أهمية فى الرواية ، وستجد البون يتسع بين الرواة عند تقدير المسئوليات وتقييم الأسباب . **وفى هذا دلالة على استحالة**التقاط صورة صادقة كل الصدق للحادث مهما كانت الظروف ملائمة . فما بالك عندما يكون التقاط الصورة فى ظروف سيئة يختلط فيها الحابل بالنابل ، وتتصادم فيها المصالح ،وتحتدم فيها الأهواء ؟! وهذه هي أغلب الحالات التي تسجل خلالها وقائع التاريخ . وفى كم منمرة نحن نكتب التاريخ اعتمادا على روايات غير مباشرة لاكتها الألسن احقاباً بل قرونا قبل انتسجل لا ندرى كيف على وجه التحقيق واليقين !

كل هذا يؤدى اضطرارا الى اضطرابالصورة التى نحاول أن نرسمها للتاريخ ، والى عدم أمانتها أمانة تامة تطمئن لها القلوب اطمئنانا **لا يكدره شك . ففي كل هذه الاحوال التي** استعرضناها ، على سبيل المثال من دوناستيعاب ، يصطدم المؤرخ بانواع متنوعة من **الهنات والملابسات التي تعوقه دون بلوغ الحقيقة،**من غير ان يقصد حتما الى التلبيس قصدا ، والى التزوير عمدا ، فى أى مرحلة من مراحل تسجيلالحادث او تأليف البحث . انما هى صعاب وتقصيرات ملازمة لطبيعة التاريخ . وهذا **مايجعل التاريخ ، وان كان واحداً فى قرارة ذاته** التي تخرج عن قبضة ادراكنا ، متعددا فى تأويلاتهالتى تصوغها عقولنا انطلاقا من قواعد تزيد وتقل ثبوتا . وليس من تأويل ، عندما تكون خاصةهذ ملابساته ، فى مأمن تام من الانحراف والزيغ .

لكن هناك اخطر من هذا كله ، قد يقصداحيانا ، لاسباب عديدة ، الى التزوير عن قصد وروية بطرق شتى ، تتراوح من التدليس الصراح**والافتراء السافر ، الى الاغفال المدبر وغض** الطرف واسدال الستر . والامثلة على هذا لسوءالحظ اكثر من ان يحيط بها عد او حصر ، تجدها فى اقدم عصور البشرية ، عندما كانت تسجلالمآثر على المدر والخزف ، كما تجدها فى عصرنا هذا ، عصر الوسائل السمعية والبصرية . فماذانعلم عن جهم بن صفوان ؟ لا شك انه كان احد اعلام التفكير الاسلامي فى ايامه الاولى . لكن لم يبلغنا عنه الا ما كال له معارضوه من انواع الثلب والتحامل . وفيما يخص الأمويين هل نحن علىيقين تام ان تاريخهم كان يكون على الصورة التي

نكتبها لو بلغتنا المصادر التي ألفت فى ايام قيــامدولتهم ؟ أو لم يبلغ التزوير المدبر المنظم فى أيام العباسيين الى تدليس ونيقة ، شهد على صحتهاثقات الشهود ، تدنس نسب الفاطميين ؟ ثم أنظر ما كتبه السنيون والشيعيون فى شأن عبد اللهالداعي ، القائم بدعوة الفاطميين بافريقيا والباني لدولتهم . أي صورة نصــدق ؟ وكيف نفرقالحقيقة من التمجيد او صريح الافتراء فيما كتبه القاضي **النعمان** ــ وكان منقطعا **للمعز لدين اللهالفاطمي** ومتحزبا لمذهبه ــ أو فيما وصلنا متفرقا من تاريخ الرقيق ، الذى كان من رجــال دولــةالزيريين ، اى من رجال السياسة فى عصرهم ؟ وفى أيامنا هذه ، ماذا كان يكون تاريخ النازية لوانتصرت هذه النزعة وكتب تاريخها مؤرخــون متحزبون لها ؟ ثم ألسنا نعلم ان تاريخ الحزب**الشيوعي تعاد كتابتــه كلما تغير ذوق الساسة** فيســطع نجم البعض من رجالاته ويأفــل نجمالآخرين ؟ وهلم جرا .

وكل انواع التزوير هذه ، التي تزيد وتقلسفورا ووقاحة وتحديا ، فان تعددت وســائلها وتحسنت واحكمت على مر الايام بفضل التقدمالتقني لأجهزة قلب الحقائق ، فانها بقيت واحدة فى غاياتها ودواعيهــا . وهذه الدواعى هي التىنقصد عموما الى ان تجعل من التاريخ خادما طيعا لسياسة الساعة . فعوض ان يكون التاريخ بحشانزيها وعسيرا عن الحقيقة ، ومحاولة فهم صادق لوضعنا ، يصبح سلاحاً مجردا لمناهضة سياسةومناصرة اخرى . ويستحيل ان يكون ذلك بدون تحزب الى شق على شــق ، وبدون انحياز الى **هؤلاء على أولئك . فان الالتزام فى التاريخ ــ ما** لم يكن فى خـدمة الحقيقــة ــ يجر حتمــا الىالتزوير . فالأولى اذن بكل رجال السياسة ، على اختلاف مشاربهم ، الا يكون المؤرخ متحزبا ،حتىلا يكون حــربا ، وحتى يتمكن من اداء رســالته المسبرة بأكثر ما يمكن من أمانة . ولقد رأينا انذلك ليس بهين حتى فى أحسن الظــروف ، فما بالك اذا ما تراكمت العقبات ؟! ولقد رأينا ايضاان فى البحث التاريخي الصادق عونا لكل رجال السياسة الذين يكرســون جهودهم عن اخلاصللتقدم بشعوبهم .

غير أن هناك من يدعو جهرا الى تحزبالمؤرخ وانحيازه فى تأويله الى فريق او مذهب . ويعللون هذا بأن التاريخ تصور ذهني. يستحيل،مهما بذلنا من جهد ، ان يكون نسخة صــادقة مطابقة للواقع . ونحن نعلم هذا ، ونظن اننا اكدناعليه تأكيدا كافيا فيما سبق . لكننا نعتقد ايضا ان هذا التعليل ، وما يتــرتب عليه من تزييفمتعمد مدبر للحقيقة ، انما هو ، كما قال علي ، « كلمة حق أريد بها باطل » . حق ان الواقع فىقرارة ذاته لا يدخل تحت قبضة ادراكنا . وباطل ان نتخذ من ذلك ذريعة كي نشوه الواقع عنروية،ونكيفه ، ونؤوله حسب ما يرتضيه حزبنا ، او ولي نعمتنا ، او مــا تمذهبنا به من مذاهب . فان كان الواقع صعب المراس مستحيل المنال ، فانه لا عذر فى ذلك للمؤرخ ان يفقد الايمان ويصبحمن المرتزقة . بل يجب ان يدعوه ذلك الى المزيد من الحذر واليقظة حتى يتجنب اكثر ما يمكن منالشراك الباطنية والخارجية . وذلك انالموضوعية المطلقة ، ان كانت غاية يستحيل تحقيقها لعدد منالأسـباب التي تعرضــنا لبعضــها ، فمحاولة الموضوعية فى امكان كل مؤرخ صادق العزيمة ،مخلص لعلمــه ، واع لمســئوليته ومتمكن من منهجية صــناعته . كي نأمن التزوير ، المضر فىالنهاية بالمزور والمزور له ، يجب اذن ان نوفر للبحوث التاريخية أكثر ما يمكن من الحرية : حتىتتلاقح الآراء ، ويكشف هذا عما يغيب عن ذاك .

وهناك ضرب آخــر من التزوير نكاد نجدانفسنا امامه عزلا من كل ســلاح ، بل نكاد لا نتوهمه ولا يخطر لنا على بال ، لأنه يندس الينا عن طريق التكيف الذى لا ينفلت من قبضة اي

انسان يعيش فى مجتمع متحضر . ذلك اننا ، فى كل القضايا التي نعالجها ، نلقى على الماضي ما بأنفسنا وما يشغل عصرنا . ونفعل ذلك عامة فى كل شئوننا . وهذا ما ادركه الوعي الشعبي ولخصه فى المثل القائل ان « كل اناء بما فيه يرشح » وهكذا يصبح التاريخ ــ رغم ارادتنا وفى دون وعي واضح منا ــ رشح شواغلنا وشواغل بيئتنا . فهذا ما وقع قديما وحديثا ، وما سيقع ايضا مستقبلا ، ريثما يصبح التاريخ فى يوم من الأيام علماً صحيحا ــ اذا ما افترضنا حصول **ذلك ممكنا ــ أو ان يقترب على الأقل أكثر فأكثر من** العلوم الصحيحة ، بفضل ازدياد الوعي بالمشاكل وبفضل ما نقوم به من نقد ، ونبذله من جهود منهجية . ولنكتف الآن ببعض الامثلة على هذا الضرب الخفى من التحريف الصادر عن رشح اناء التاريخ بما فى نفس المؤرخ المكيف بشواغل عصره .

اننا نجد **حسان بن النعمان** (٢٦) (توفي حوالى ٨٠/٦٩٩ ــ ٧٠٠) بعد هزيمته امام الكاهنة بافريقية ، يصف البربر الى **عبد الملك بن مروان** كما يلي : « ان أمم المغرب ليس لها غاية ، ولا يقف احد منها على نهاية . كلما بادت أمة خلفتها أمم ، وهي من الجهل والكثرة كسائمة النعم (٢٧) » هكذا انعكست صورة البربر على مرآة ضمير حسان المنهزم . فهو لم ير فيهم ، عن صدق ، سوى قطيع من « سائمة النعم » لا يتميز الا بالكثرة والجهل . ولم يخطر له على بال أنهم أمة ابية ، قاومت طوال قرون عديدة الاحتلال الاجنبي بثبات وعزيمة ، واستماتة . ان حسانا كان فى حكمه ، من حيث لا يشعر مكيفا .

وهكذا نجد الوعي الجماعي لبعض الأوساط **العربية، لما كان يغلب عليها من تكيف بروح العصر،** تفرز هذه الاحاديث الملفقة التي تطفح بالاحتقار وتنافى تماما تعاليم الاسلام . يروى **ياقوت** (٢٨) ما يلى :

« وذكر **محمد بن احمد الهمذاني** فى كتابه ، مرفوعا الى **أنس بن مالك** قال : جئت الى النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ ومعي وصيف بربرى فقال : يا أنس ما جنس هذا الغلام ؟ فقلت : بربرى يا رسول الله . ــ فقال : يا أنس ، بعه ، ولو بدينار ــ فقلت له : ولم ؟ يا رسول الله ــ قال : انهم أمة بعث الله اليهم نبيا فذبحوه وطبخوه واكلوا لحمه ، وبعثوا من المرق الى النساء فلم يتحسوه . فقال الله تعالى : لا اتخذت منكم نبيا ولا بعثت فيكم رسولا » .

ويضيف ياقوت (٢٩) : « ويروى عن النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ انه قال : ما تحت اديم السماء ولا على الارض خلق شر من البربر . ولئن أتصدق بعلاقة سوطي فى سبيل الله أحب الي من ان اعتق رقبة بربرى » .

وتدور عجلة التاريخ دورتها، وتمر القرون، وتنقلب الاوضاع ، وتحتل الجيوش الفرنسية المغرب ، وينظر الفاتحون الجدد الى اهل البلاد من وراء عدسة تكيف جديدة . ويؤلف **هنرى**

---

(٢٦) انظر كتابه Les Arabes d'hier a demain Chap. I.
Lo rupture de l'homme traditionnel, P. 13-30, ed. du seil Paris 1960.

انظر دائرة المعارف الاسلامية الطبعة الجديدة .

(٢٧) ابن عذارى ، البيان ، ط كولان وليفي ــ بروفنسال (ليدن (هولندا) ١٩٤٨ ، ج ١ ص ٣٦ .

(٢٨) معجم البلدان ، بيروت ١٣٧٤/١٩٥٥ ج ١ ص ٣٦٩ .

(٢٩) معجم البلدان ، ج ١ ص ٣٦٩ .

فورنال Henry Fournel مؤلفه الضخم فى تاريخ المغرب ، ويشرح اهدافه هكذا فى مقدمته (٣٠) :

« اثناء السنوات ١٨٤٣ – ١٨٤٦ التي كرستها للمهمة التي كلفني بها السيد وزير الحرب قصد الكشف عن الثروات المعدنية التي قدتحتوى عليها ارض الجزائر .. فانه قد جلبت انتباهي الفروق العديدة التي تفرق بين الجنسين البربرى والعربي .. وتساءلت عندئذ كيف ، ازاء جنسين توجد بينهما هذه الفروق ، نستطيع ان نتمادى اكثر فى التصرف نحوهما تصرفا واحدا من دون ان نفكر فى البحث ، اليس من واجبنا ان **نبدى شيئا من التفضيل يكون ، فى صالح الجميع،** الغالبين منهم والمغلوبين ، قاعدة لسياسة يبدوانها تعوزنا تماما » .

وهكذا يبدو التكيف بالظروف السياسية واضحا . ويظهر هذا التكيف فى عنوان كتاب فورتل « البربر » ، وفى عناوين الكتب التى تلته ،وكان اساسه التفضيل العنصرى . لكن فى هذه المرة عكست الآية ، وكان نفضيل البربر على العرب ، واول كل تاريخ المغرب على هذا الاساس، اساس اغتصاب العرب لأرض كانت ، عن طريق رومة ، تابعة للغرب وملتحمة بحضارته . وأدى هذا الاغتصاب ، الذى غير مجرى التاريخ الطبيعي **ردحا طويلا من الزمن الى دول بلاد البربر فى** حندس تلك « القرون المظلمة » التي حاول **جوتي** E. F. Gautier فى كتاب هذا عنوانه ان يشرحها للفاتحين القادمين بحضارة ودين يعيدان الأمور الى نصابها الطبيعي ، بعد الفساد الطويل الذى تسبب فيه العرب .

وهذا التكيف بالوضع ، الذى يؤدى المؤرخ الى التزوير بصفة تكاد تكون غير شعورية تعسر مغالبتها ، خطير جدا . فينبغي ان نتنبه اليه بصفة خاصة ، وان نحذره ونحذر منه ، وان نتعظ بالأخطاء التي وقع فيها من سبقنا عندما وقعوا فى حباله . قلنا انه خطير جدا وذلك لأنه يؤدى بدوره عن طريق كتابة التاريخ وتدريسه الى تكييف الاجيال الصاعدة ، ونقع هكذا فى دور تسلسل يعسر الانفلات من ربقته ومما ينجر عنه من وخيم العواقب . فهذا **موريس كروبيلي** Maurice Crubellier يكتب فى هذا الصدد ،ضاربا المثل بمعركة بلاط الشهداء التي استشهد فيها والى الاندلس **عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي عندما اصطدم بجيوش شارل مارتيل** Charles Martel (رمضان ١١٤/ اكتوبر ٧٣٢) قرب مدينة بواتي Poitiers بفرنسة : « ان الصيغة التي تقدم بها معركة بواتي قداثرت زمنا طويلا فى الصورة التي ارتسمت فى قلوب الشباب الفرنسي عن الاسلام والمسلمين(٣١) . وهذه الصورة لم تكن طبعا تخدم التآخي والتفاهم . وهكذا يصبح التاريخ عن طريق القديم والتأويل المغرض للحوادث – وهو تزوير كثيرا ما يكون غير شعورى ناشئا عن التكيف بملابسات البيئة والعصر ، او عن الميل الاعتقادى والمذهبي – مدرسة تبث سم العداوة والبغضاء فى نفوس الصبيان الطاهرة اللينة ، وتجعل منهم فى النهاية تلك

---

(٣٠) H. Fournel, **Les Berbers**, Paris 1875-1881, Vol. I, p. 1.

(٣١) Maurice Crubellier, **Enseignement de l'histoire et formotion humaine**, dans **l'histoire et L'Historien**, col. **Recherches et Debate du centre catholique des Intellectuals Francais**, Fayard, Paris 1964, p. 66-7.

الأمم الضاربة التي يدفع بها سكر المجد او الحقدفي حروب لا تنتهي ولا تعود بالخير على جنسنا».
وكل من فكر في هذا لا يستطيع عدم مشاطرة **پول فالیری** Paul Valery **رأيه التشائم في** التاريخ الذي يعبر عنه هكذا :

« ان التاريخ اخطر انتاج انتجته الكيمياءالذهنية . . فهو يهيج الاحلام ، ويثمل الشعوب، ويولد لهم ذكريات موهومه ، ويزيد ردود فعلهم حدة ، **ويغذي جراحهم القديمة ، ويعكر عليهم** صفو راحتهم ، ويقودهم الى الهذيان بالمجد اوبالاضطهاد ، ويجعل الامم تشعر بالمرارة والعجب، ويصيرها لا تحتمل زهوا بنفسها (٣٢) .

ما العمل اذن ؟ هل يجب ان نكسر كوب التاريخ **الذي « يثمل الشعوب » ؟ اننا لن** نستطيع ذلك حتى لو عقدنا العزم عليه . اننا لا نستطيع سلب جنسنا الذاكرة . فالطريق الوحيدة المفتوحة امامنا اذن هي طريق تطهير هذه الذاكرة ، وانارتها وصقلها . لقد رأينا أن هذه الطريق عسيرة ، كثيرة الانحراف ، والزيغ والشراك . لكن هذا كله يجب الا يسلمنا الى الفشل والخذلان والاستسلام . وذلك لاننا مهماكانت الخيبات ، نشعر اننا في النهاية نتقدم . ان الحقيقة التاريخية في جوهر ذاتها لا تدرك . لكننا نقترب منها . ان باب الغد ، **الذي نرجوه بفضل** ما حصل وسيحصل لنا من يقظة متزايدة مفتوح امامنا .

التاريخ والغد :

قلنا ان باب الغد مفتوح امامنا . لكن ماسيكون عليه هذا الغد ؟ كيف ستكون ملامحه ؟ لقد رأينا ــ وذلك ما جعل پول فالیری يدين التاريخ ــ اننا كثيرا ما زرعنا الرياح عن طريق تزوير الماضي ، وسوء فهمه وتأويله ، فحصدنا العواصف ، وما زلنا نحصدها . **ذلك معناه ان** تصورنا للأمس يؤثر في صورة الغد . وذلك معناه ايضا **اننا اذا ما تحكمنا في الماضي** ، سوف يعيننا ذلك لا محالة على التحكم في المستقبل ، وعلى اعطائه صورة اقرب مما نأمل ونرتضي . ان الغد ثمره يقطفها الخلف ، ويبذر بذورها السلف ، **ويتعهدها برعايته وميض الحاضر . اننا الى اليوم** لم نحسن علم زراعة غدنا ، فقطفنا الشوك اكثر مما قطفنا الورود . لكن علمنا في نمو ، وهذا هو الأهم .

وربثما يزيد علمنا نموا ونجاعة ، لعله يحسن ان نحدد نقطة وضعنا اليوم ، وان نلقي هذا السؤال : هل يمكننا التاريخ ، في هذه المرحلة التي بلغها علمنا ، من ان نرسم خطا بيانيا يكشف لنا عن الاتجاه الذي تتجه نحوه سفينتنا ، وعماسيكون عليه غدنا ؟ انه من البديهي ان التاريخ ليس ضربا من الكهانة او التنجيم ، وانه ليس من دور المؤرخ ان يتنبأ مسبقا بدقائق ما سيقع من الحوادث في مستقبل قريب أو بعيد . لكن المؤرخين وفلاسفة التاريخ حاولوا منذ القدم ان يستنيروا بالماضي لثقب حجب المستقبل ، وانتهوا الى نظريات متفائلة واخرى متشائمة وحيث انه من المستحيل ان نفصل القول في كل هذه النظريات ، فاننا اخترنا ان نستعرض بسرعة آراء مؤرخ تجريبي ، **ارنولد توينبي** Arnold Toynbee وكاهن مسيحي ، **تيار دي شاردان** Teilhard de Chardin وفيلسوف صوفي مسلم ، **محمد اقبال** .

---

(٣٢) P. Valery, **Regards sur le monde actuel**, p. 63.

يحتل **ارنولد توينبي** ، الذى ولد ببريطانياسنة ١٨٨٩ ، مكانة سامية فى التفكير المعاصر ، اذ قد احدثت آراؤه فى التاريخ عامة ، وفى الحضارةالغربية خاصة ، ضجة كبرى قبيل الحرب العالمية الثانية ، وأصبح اليوم من المستحيل ان يتحدثمتحدث عن تأويلات التاريخ المختلفة من دون ان يذكر اسمه ويحيل على مؤلفاته . ان كتابارنولد توينبي فى « دراسة التاريخ » (٣٣) A Study of History اذا ما لجأنا الى التعريف بهفى عبارة وجيزة لا تخلو من ادخال الضيم على المعرف به لايجازها ، قلنا انه كتاب فى فلسفةالتاريخ ، اى انه يحاول ، من خلال فحص الخوادث ـ لا ان يصف الماضي ـ بل ان يستنتجمنه عبرة وفلسفة ، وجملة من القوانين التي تسيّر الكون ، وتدفع التيار البشرى ، وترسم الخط البياني لما سيكون عليه الغد . هذا الاتجاه ليس جديدا فى ذاته . انما ارنولد توينبي يذهب **ابعد فى طريق قد سلكت من قبل ، ويعتمد فى ذلك** منهجا بريطانيا صميما ، هو المنهج التجريبي الذىينطلق من طرق المشاهدة كي يصل الى نتائج تفرضها التجربة فرضا ، وتنتهي بنا الى تصورعام لغاية التاريخ ومآل الحضارات .

ولقد حاولعلماء كثيرون انيفحصوا الماضيالبشري ، كى يستخلصوا منه فلسفة أو قوانين تزيح الستار قليلا او كثيرا عن سر الغد . ويرجعتأويل هؤلاء المفكرين الى نمطين اثنين لا بد من ضبطهما لايضاح ما يلي :

النمط الأول هو الذى يمكن ان نسميه :بالنمط الخطي المسترسل التصاعدى ابدا. ومعنى هذا هو انهم يؤولون التاريخ كخط مستقيممتصاعد دائما نحو اكتمال مسترسل لا ينتهي . وهذه النظرية نتيجتها ـ وقاعدتها ايضا ـ الايمانالمطلق بالرقي . فهي تأويل متفائل .

النمط الثاني هو الذى يمكن ان نسميه :بالنمطي الدورى . ومعنى ذلك هو انهم يؤولون التاريخ كحلقة ، بل قل كجملة حلقات متناهيةزمنا ومكانا ، منفصلة بعضها عن بعض ، تمثل كل حلقة منها حضارة ، من يوم نشوئها عند ابتداءالحلقة الىيوم وفاتها الحتمية عند انغلاقالحلقة . فكل حضارة إذن حلقة لها بداية ونهاية ، حلقةمتناهية تمر باطوار أربعة : التكوين ، فالنمو ، فالجمود ، فالانحلال والاضمحلال . فهي فى هذاتشبه كل الكائنات الحية : فهي تولد وتموت .

ولقد أول التاريخ التأويل الأول جماعة منأهمهم **هيجل** (١٧٧٠ ـ ١٨٣١ Hegel) **واوجوست كونت** (١٧٩٨ ـ ١٨٥٧ Auguste Comte) **وكارل ماركس** (١٨١٨ ـ ١٨٨٣ Karl Marx) وذهب الى التأويل الثانيقوم آخرون اهمهم **سبنجلر** (١٨٨٠ ـ ١٩٣٦ Spengler) صاحب « افول الغرب » ، وفىأيامنا هذه الاستاذ **تيجارت** Teggart من جامعة كاليفورنيا ، فى مؤلفيه « تطور التاريخ » The Proecessus of History الفه سنة ١٩١٨ ، و « نظرية التاريخ » The Theory of History الفه سنة ١٩٢٥ . وذهب هذا المذهب ايضا **سوركين** Sorokin فى كتابه فى « الحركيةالاجتماعية والثقافية » Social and Cultural Dynamics الذى نشر بين سنة ١٩٣٧وسنة ١٩٤١ .

خلاصة القول ان النقاش فى شأن التاريخوالغد ـ الذى هو ليس بالجديد فى الحقيقة اذ نجد أثره عند القدماء ايضا ـ قد استرعى اكثراهتمام المفكرين ابتداء من اوائل القرن التاسع

---

(٣٣) صدر هذا الكتاب فى عشر مجلدات ، واعيد طبعهمرارا ، واختصره سنة ١٩٤٧ سماروال sommerwell **وظهر سنة ١٩٥١ له اختصار آخر فى اللغة الفرنسيةتحت عنوان (التاريخ) اخرجه بباريس الناشر جليمار** Gallimard

عشر ، واستفحل واحتدم قبل الحرب العالمية الثانية بصفة خاصة ، وزاد احتداما فى السنوات التي تلتها . والسبب فى ذلك هو القلق الذى اخذ يساور مفكرى الغرب عندما شعروا فجأة ان حضارتهم ليست فى مأمن من أن يصيبها ما أصاب الحضارات السابقة ، وان الغد ليس حتما مضمونا .

فى هذا الجو فكر ارنولد توينبي واراد ان يكون منهجه تجريبيا بحتا ، يذهب راسا من وصف الواقع من دون رأى مسبق فيه . فأخذ يستعرض لوحة كامل التاريخ ، لوحة ارادها مستوعبة لكامل الحضارات الماضية ـ : حضارات آسيا ، وافريقيا ، وامريكا واوروبا . وكانت نتيجة استعراضه هذا للتاريخ ، وتفكيره فيه عملا بمنهجه التجريبي ، ان الحضارات لا يمكن ان تفهم الا فى نطاق النمط الدورى ، اى انها ككل كائن حي ـ وهي فى نظره أكمل الكائنات الحية حياة ـ **تمر بكامل مراحل الحياة بدون استثناء الموت والانقراض** ، وهكذا يلتقي **ارنولد توينبي** بمفكرين آخرين ، نخص بالذكر منهم **عبد الرحمن بن خلدون** ، الذى كان المؤلف من المعجبين به(٣٤) .

ولقد كان لآراء ارنولد توينبي ، لما اكتسبت به من جدية ، صدى بعيد مريع فى ربوع الغرب . لأن الغرب اخذ يدرك ان غده ليس مضمونا ، بل ان كل القرائن تدل على انه دخل منعرج الهرم . ولقد عيب هذا الرأى على المؤلف لما فيه من تشاؤم بمستقبل الحضارة التي ينتمي اليها فأجاب بما نصه : ـ

« لقد اضطرب عدد كبير من ابناء عصرى عندما اندلعت الحرب العالمية الأولى ، فأدركوا ان الموت ينالنا نحن ايضا . ان هذه التجربة القاسية ، اظنها فيما يخصني ، قد وجهت موقفي فى شأن مستقبل حضارتنا الغربية . غير أني شعرت ايضا ، من الناحية العملية ، انه من الحسن بالنسبة للمجتمعات ، أو قل بالنسبة لاعضاء تلك المجتمعات ، ان يدركوا ان الموت ينالهم .

« ففيما يخص حياتنا الفردية ، فاننا لا حيلة لنا . فنحن نقبل ، برباطة جأش تقل وتزيد ، ان يحل أجلنا بعد ردح من الزمن . غير انني لا اعتقد ـ وانا فى هذا الصدد اخالف مخالفة تامة **شبنجلر** Spengler ـ ان المجتمعات من هذه الناحية ـ وهي ناحية هامة جدا ـ شبيهة بالافراد البشرية . ان الكائن البشرى كالحيوان اوالنبات ، كتب عليه الموت بعد اجل أقصى معلوم . فاني لا ارى لماذا يكون كذلك المجتمع ، قد كتب عليه هو أيضا الموت . اني أؤمن ايمانا راسخا بالاختيار ، وبأن المستقبل مفتوح . اني الاحظ طبعا ان جل المجتمعات البشرية ، لما ارتكبت من أخطاء وحماقات ، قد اندثرت كلها بعد عصور متفاوتة الطول . غير اني لا اعتقد ان مجتمعا واحدا من هذه المجتمعات قد كتب عليه هذا المآل . هذا هو الفارق الجوهرى بين نظريتي ونظرية **شبنجلر** . فانا اذن اقف موقفا من الحضارة الغربية ، غير اني لا اقف منها موقفا متشائما (٣٥) .

هكذا اجاب ارنولد توينبي . غير ان جوابه هذا ، المقام على فكرة الجبر والاختيار لم يكن

---

(٣٤) لقد خص ارنولد توينبي فى كتابه فى « دراسة التاريخ » عبد الرحمن ابن خلدون بصفحات ملؤها الاعجاب . انظر
A Study of History, 6th ed. 1955, III, 321, 8, 473-5.

(٣٥) **L'Histoire et ses interprétations.** Entretiens au tour de Arnold Toynbee, sous la direction de R. Aron, Cerisy-la-Salle 10-19 1958, ed. Mouton et Co. Paris — La Haye 1961, p. 19-20.

مقنعا تماما . وذلك ان كامل كتابه انما هو دليل طويل الذيل على الجبر . فكتابه سلسلة من الادلة على ان كامل حضارات العالم السابقة ، مهما بلغت من القوة والشمول وطول الحياة ، كان مآلها حتما ونهائيا الموت ، وانها لم تستطع ان تختار لنفسها البقاء وتضمن الغد . فاذا ما كان الأمر كذلك فيما مضى ، فلماذا هو سيختلف يا ترى ، ويتغير ؟! ارنولد توينبي يجيب : « ان المستقبل مفتوح » ، وأن تاريخ الماضي لا ينبئنا بصفة قطعية ثابتة بما سيكون عليه الغد . غير أن النمط الدورى الذى يهيمن على كامل حضارات الماضي يجعلنا نتصور مآل حضارة اليوم ، أى بصفه أخص حضارة الغرب التي تحتل مركز النقاش . ان مثل آرنولد توينبي فى ايمانه بامكانية خلود الحضارة التي ينتمي اليها والفوز بضمان الغد . **مع اقامته الدليل على ان كل الحضارات التي** سبقت لم تستطع ان تضمن لنفسها ذلك ، هو اذن كمثل الفقيه الذى يقيم الدليل على الجبر ، ثم يؤمن لأسباب نفسية بالاختيار . ولقد لخص هو نفسه موقفه فى هذه العبارة :

« اني حقا اقمت الدليل على ان الحضارات زائلة لا محالة ؛ بصفة اكثر اقناعا من اقامة الدليل على استحالة التنبؤ بالمستقبل . غير ان هذا لا يمنع من ان الانسان يمكنه دائما ان ينفلت من الجبر ، ومن انه يمكنه دائما ان يوجه تاريخه فى الطريق التي يشتهيها . لكن – فى الواقع – ليس من اليسير على الكائن البشرى ان يكون بشرا حقا ، ولا على الحضارات البشرية ان تسلم من الموت » (٣٦) .

وهكذا تصبح مشكلة التاريخ والغد مشكلة ما ورائية . وهكذا يبقى المسألة مطروحة والقلق قائما . قد زالت كل الحضارات ، كحلقات كلما استكملت الدورة انتهت . فماذا سيكون غد الحضارة التي تهيمن على عالمنا اليوم ؟ هل ستخضع لحكم الحضارات التي سبقت أم هل ستشذ عنها لأول مرة فى تاريخ البشرية ؟ ارنولد توينبي يجيب : « ان الانسان يستطيع ان ينفلت من الجبر » .

لكن هذا معناه انا اذا اردنا ان نتحدث عن التاريخ والغد بصفة تجعلنا نتجاوز الخيبات المتمثلة فى مقابر الحضارات المتتالية ، يجب ان نخرج بالمشكل من اطاره الذى وضعه فيه ارنولد توينبي ومن حذا حذوه ، وهو اطار الحضارات المنفصلة المتتالية يخلف بعضها بعضا على مر الزمان ، الى اطار أوسع ، وهو اطار غد الانسان **عامة . ذلك ان مشكل التاريخ والغد لا ينحصر** فى مستقبل هذه الحضارة او تلك ، وان وضع السؤال على هذا المستوى هو الذى أثار حماس مفكرى الغرب وقسمهم الى متفائلين ومتشائمين بمستقبل حضارتهم . فاذا ما اردنا اذن ان نتقدم فى البحث وجب ان نغلق قوسي التساؤل بقلق عن مستقبل حضارة الغرب ؛ أى أن نكسر حدود بقايا القبلية ، كي نفضي الى سؤال أهم وهو : هل فى التاريخ ما يزيح لنا الستار عن غد الانسان ؟

هذا ما فعله تيار دى شاردان (٢٧) **(١٨٨١ – ١٩٥٥)** Teilhard de Chardin
كان الرجل يسوعيا ، وكان فى نفس الوقت عالم **احياء وانثروبولوجي ، أثارت اكتشافاته**

---

(٣٦) Op. Cit., p. 22.

(٣٧) انظر من بين مؤلفاته :

Le phénomène humain, éd. du senil, Paris 1955,

-L'apparition de l'homme, ed. du senil, Paris 1956 ; **Le Milieh devin,** ed. du Senil, Paris 1957. On pent églement consulter, Cl. Tresmontant, **Introduction a la pensee de Teilhard de Chardin.**

وآراؤه صدى بعيدا ، قبل ان يصبح اليوم محل احراز ونقد من طرف كثير من العلماء ..
لاحظ تيار دى شاردان كفيره أن الحضارات الى فناء وزوال . لكن ان بادت وزالت الحضارات ، فان الانسان باق ، وهو فى تقدم **مطرد . وذلك ما يستخلص من علمي الاحاثة** والاناسة . لكن هذه النتيجة ، التى لا يختلف فيها اثنان اليوم ، قد أولت تأويلات مختلفة حسب **العائلات الفكرية المتباينة التى** ينتمي اليها المفكرون . كانت الارض فى نظر القدماء مركز العالم ، والأفلاك حولها مرتبة فى نظام . **فأتت** العلوم الحديثة **فبددت هذا الوهم وحطمت هذا الامتياز . واذا بكرتنا الارضية لا تزيد** عن ذرة مبعثرة فى محيط لا ساحل له من عديد العوالم .
وتشبث الانسان بعد ذلك بفكرة اخرى وجد فيها عوضا عن مركزية الارض ، وهي مركزيه البشرية anthropocentrisme . لكن هذا ايضا وهم جديد فى نظر عدد كبير من علماء الحياة الذين نجد تعبيرا واضحا عن آرائهم **فى مؤلف چان روستان** Jean Rostand **«عبر احيائي»** Penseés d'un Biologiste
فهؤلاء لا يعتبرون الجنس البشري الا عرضا اسبزول بدوره كما زالت من قبله بلا شك انواع اخرى من الحياة تولدت عن الصدف فى زاوية من زوايا الكون العديدة . وتطورت فى احضان **الآمال والآلام، ثم انقرضت انقراضا لا رجعة فيه**. ولعل هذه العملية ستتجدد تحدوها دائما نفس الأوهام ، وتفضي فى النهاية الى العبث والبطالة« اذ هي قد اهلت حتما من الأساس الى الخيبة فى الحتام والى ظلمات لا ساحل لها » . وقد أول بعضهم **هكذا** ظاهرة الحياة تأويلا متشائما حالك الافق ، كله ولادة واجهاض ، حسب ذلك النمط الدورى الذى وصفناه والذى يهيمن على كثير من المفكرين فى تأويلهم لتعاقب الحضارات . **فهؤلاء لم يزيدوا فى تفكيرهم هذا على ان نقلوا النمط** الدوري المتشائم من سلمه الارضى الى سلم كوني .

ان **تيار دى شاردان** لم يسلك هذه السبيل المتولدة عن **الاكتشافات الديثة الباهرة فى ميدان** علوم الفضاء والحياة والتى هى أقسى سبل التفكير المعاصر تشاؤما ، اذ تنقل العبث والقلق الى مدار كوني . ان الانسان فى نظريته لم ينشأ عبثا من تفاعل « الصدفة والاضطرار » ، ولن **يزول باطلا فى محيط** لا ساحل **له من الظلمات** تطفو على سطحه الحياة وتفور . ان الملاحظة الدقيقة اليقظة فى اعماق الماضي السحيق جعلته يتبين « خطوط انفلات » des lignes de fuite **نحو الغد ، خطوطا يبدو ان اتجاهها قد ضبط** مسبقا ابتداء من نقطة الانطلاق ، ويكفي اذن ان نطيلها فى اتجاه غايتها كي نحدد نقطة البلوغ .اننا اذن ، انطلاقا من ملاحظة الماضي ، نستطيع ان ندرك الغد . هذا الماضى يفيدنا أن الحياة ، **من أول ظهورها فى ابسط تركيب الوذة الأولى**، لم تزل تدفع دفعا نحو تعقد متزايد ، وتخصص **أدق الوظائف ، وهيكلية اشد احكاما واكثر تشعبا . تبدو لنا هكذا القوى الحيوية كخط** موجه نحو الانسان الذى يمثل القمة الحالية للحياة على وجه الارض . وهذه القمة لم تزل تزداد ارتفاعا منذ ظهور الانسان الأول البدائي ولا شك أن ارتفاعها لم يكتمل بعد ولم يبلغ غايته. لكنه فى امكاننا ان نتصور من الان تلك الغاية ، **اى نقطة البلوغ . تلك النقطة التي تجذب التيار الحيوي نحوها** ، يسميها **تيار دى شاردان نقطة « اوميجا »** * **معطيا اياها اسم** آخر حروف الهجاء عند اليونان ، رامزا بذلك الى انها نقطة الغاية والنهاية التى تكسب الحياة معناها وتبررها . وهكذا يكشف لنا التاريخ اذا ما

---

* **اوميجا** Omega **وهو حرف** Ω **فى اليونانية**

وضعناه فى احداثياته ، أن العبرة ليست فى تعاقب الحضارات مونا وحياة ، انما هي فى ارتفاء الحياه ارتفاء مسترسلا مطردا نحو ما سميه نيار دىشاردان نقطة « اومجا » اى فى اعتفـاده نحـو المسيح أو الله . فالحياه اذن سهم موجه يرتفي بنا نحو الله ، اى نحو عالم الروح . وهذا عين ما يفوله ابن خلدون الذى هو ايضا ـ كما رأيناسابقا ـ وضع تفكيره فى التاريخفىنطاق احداثية كونيه قاطعها ومقطوعها النشـوء والارتقـاء ،ومحركها « الانسلاخ من البشرية الى الملكيـة » (٣٨) « الله يبدأ الخلق ، ثم يعيده ، ثـم اليـهترجعون » (٣٩) .

ان هذا التصور لنفطة الغد ، اعتمـادا علىاطالة خطوط التاريخ ، يرتكز على افتراض وجود قصد او مشروع ، اى على وجود خالق ، فهـواذن ، ان ارضى المعتفـدين ، لا يرضي مـن لا يعتفد . ولعل احسن معبر عن هـذا الصنف الاخير منالمفكرين هو جاك منود Jadques Monod المدير لمعهد باستور Pasteur بباريس الآن ، والـذى احرز سنـة ١٩٦٥ جـائزه نوبـل فى الفيريولوجيا ** والطب . فهو طبعا لا يذهب بذهب نيار دى شاردان بل يزدرى ذلك المنهج ويكتب : ان فلسفة تيار دى شاردان الاحيائيةليسـت جديرة بان تستوقفنا لولا الصدىالمدهش الذى أثارته حتى فى الاوساط العلميـة ، ذاكالصدى الذى يعرب عن القلق ، وعن الحاجه الى تجديد العهد (٤٠) » . وحيث لم يكن جاك مونودفى حاجه الى تجديد العهد اراد ان يضع تفكيره على بساط موضوعي بحت ، البساط الوحيـدالذى يلىق بالعلوم . واداه هذا التفكر فى آخر اكتشافات الاحيائية الى انه ليس هناك من شيءيندر بانفجار الحياة فى صلب المادة . فالحيـاة اذن لم تنشأ عن قصد او مشروع مسبق . فلم يبق اذن الا انها وليدة محض الصدفة . هـذه النتيجة الأولى التى يفضى اليها جاك مونود هيوليدة المنهجية التى اختارها ، وهي الموضوعية العلمية التىيعرفها كما يلي :«هي الرفض المنسقلاعتبار امكانيه حصول اى معرفة حقيقية عـن طريق تأويل الظواهر تأويلا يصاغ فى عبارات عللغائية (٤١) » .

غير ان جاك مونود يلاحظ « ان الموضوعيـةتجبرنا ايضا ان نعترف بان الكائنات الحيه لهـا صبغة « تطوريه مقننة » téléonomique وانىسلم بانها فى هيكليتها وانجازاتها تحقق مشروعا وتقصد نحوه . فهناك اذن ـ على الاقل بصفـةظاهرية ـ تناقض منهجـي عميق . فمشـكل الاحيائية المركزي هو هذا التناقض ذاته الذىينبغي ، اما ان نحله ، فى حالة أنه لا يزيد على أنه ظاهرى فحسب ، واما ان نقيم الدليل على انـهيستعصي جذريا على كل حل اذا ما كان الامر فى الحقيقة كذلك » (٤٢) .

---

(٣٨) المقدمه ، بيروت ١٩٥٦ ، ص ١٦٨ . انظر ايضا ما سبقص ٧ ـ ٨ من هذا البحث .

(٣٩) الروم رقم ٣٠ ، الاية رقم ١١ ، وقد ورد الرجوع الىالله فى اكثر من آية . انظر محمد فؤاد عبد الباقي ، المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم ، ص ٣٠٢ ـ ٣٠٣ .

** الفريولوجيا او علم الفيروسات .

(٤٠) Jacques Monod, **Le Hasard et la nécessité**, éd. du senil, Paris 1970, p. 44.

(٤١) Jacques Monod, **Le hasard et la nécessité**, p. 32.

(٤٢) نفس المصدر ص ٣٣ .

ان جاك مونود لا يعتبر طبعا المشكل غير قابل للحل . فهو يحاول في كتابه اعتمادا على آخر معطيات الكيمياء ، والاحيائية ، وغيرهما ان يبين كيف تخضع الكائنات الحية ، من ناحية الى الثابتية invariance التى تحفظ لها خصائصها ، أي خصائص جنسها ، وتضمن لها توارثها ، ومن ناحية اخرى الى التطور المقنن téléonomie الحاصل عن طريق ما يحدث – صدفة في نظريته – من تغير في مورثاتها ، او جيناتها ، تغير ينطبع فيها بدوره بصفة قارة فيصبح ثابتية . وهكذا يفك لغز الثابتية والانتخاب الطبيعي المتواصل الذي هو محور الاحيائية ، ويشرح شرحا علميا موضوعيا . ويلاحظ جاك مونود ان من بين كل العمليات الممكنة – وهي لا تحصى عدا – يقع التغير الحاصل في المورثات دائما في اتجاه يضمن الانتخاب الطبيعي ، او تطور الحياة الى اشكال ارقى فارقى . « قال فمن ربكما يا موسى قال : ربنا الذى اعطى كل شيء خلقه ثم هدى » (٤٣) .

لكن جاك مونود يرفض وجود هداية او هاد (٤٤) . فهو يبين ان الثابتية تخضع لقانون يجد العلم سره مكتوبا في المورثات ، وان الانتخاب الطبيعي له ايضا قانونه الذى يحول دون التقهقر مثلا ، لكنه يرفض وجود مقنن مفارق ، عملا بالفرض الاولى الذى فرضه وهو فرض الموضوعية التى عليها اقيم العلم الحديث . وهكذا يفضي بنا في النهاية الى فلسفة مقامه على وحدة الوجود ، هي ايضا احيائية كفلسفة بيار دى شاردان ، غير انها « نفاتية » (٤٥) ، اذ ترفض رفضا باتا التعليل الغائي وتعوضه بالصدفة .

ولقد اثارت آراء جاك مونود هذه ردود فعل كثيرة نذكر منها على الخصوص ما ورد في مؤلفين : الاول عنوانه « الصدفة والحياة » (٤٦) Le hasard et la vie
وصاحبه مارك اوريزون Marc Oraison كاهن اختصاصي في الطب النفساني ، والثاني صدر تحت عنوان « مذهبية الصدفة والاضطرار » (٤٧) : L'idéologie du hasard et de la nécessité
وهو بقلم السيدة مادلين بارتيليمي – مادول Madeleine Barthelemy — Madaule
المتخصصة في الفلسفة . اما مارك اوريزون فانه يقبل الى حد ما نظرية الصدفة فيما يخص ظهور الحياة ، باعتبار ان هذه النظرية لا تريد على انها تعبر في لغة خاصة على ان ظهور الحياة ليس حادثا ضروري الوقوع بذاته ، وانما هو جائز ومحتمل فقط ، اى انه في الامكان ان لم

---

(٤٣) طه رقم ٢٠ ، الاية ٤٩ – ٥٠ .

(٤٤) انظر مؤلفه المشار اليه ص ٣٧ – ٤٦ ، ١٨٢ – ١٩٥ .

(٤٥) وردت كلمة نفاة ، ج ناف ، للتدليل عمن ينفي وجود الله . قال ابو العلاء المعرى

اثبت لي خالقا حكيما

ولست من معشر نفاة

انظر اللزوميات ط . صادر ، بيروت ١٩٦١ ، ج ١ ص ٢٢٩ . ونحن نستعمل هنا عبارة « نفاتية » كمقابل للكلمة atheisme

(٤٦) éd. du senil, Paris 1971.

(٤٧) éd. du senil, Paris 1972.

يكن . وأما فيما يخص الاضطرار ، الذى يضمن للكائنات الحية ثابتية الجنس والارتقاء فى نفس الوقت عن طريق التطور المقنن ، فانه يلاحظ بحق ان من قال ارتقاء أو « انتخابا » قال حتما تحجيرا » (٤٨) ، تحجير حدوث ما يخالف الانتخاب . « فالحياة اذن ، فى شكلها هذا الذى نطهر عليه ونلتئم ، تحجر بصورة من الصور حدوث شىء آخر (٤٩) « فيعين اذن الا نرى فى كل هذا قصدا une intentionnolité بل « رسالة » message و « معنى » sens .

وتلاحظ السيدة مادلين بارتيليمي ـ مادول بدورها فى مؤلفها الذى هو أعمق تحليل فلسفي لنظريات جاك مونود أن تفكير هذا العالم لا يخلو من تناقض اذ هو يعترف من ناحية باخلاص : « انه من المستحيل ان نتخيل تجربة فى وسعها ان تقيم الدليل على عدم وجود مشروع ، او هدف مقصود ، فى اى ناحية من نواحي الطبيعة (٥٠) ومن ناحية اخرى يقطع بعدم وجود هذا المشروع ، وبأن الحياة تخضع لمجرد الصدفة وهكذا يستدرجنا نحو فلسفة مركزة على وحدة نفاتية . وتعتبر المؤلفة بجدارة انه ليس من اللائق ان نستدرج هكذا ، بدون بينة كافية ، من نفاتية منهجية ـ كثيرا ما ينطلق منها العلماء كقاعدة فى ابحاثهم ـ الى نفاتية كائنية ontologique أو ما ورائية عقائدية . ونأخذ على جاك مونود اشياء اخرى منها انه يستخف بغير حق بتيار دى شاردان فى حال انه يدين له باقتباسات كثيرة منها بعض المصطلحات .

ان التفكير فى تاريخ الانسان وعده انسع كمارأينا الى تفكير فى نشوء الحياة وغايتها حتى من طرف من ينكر المشروع والغاية . ذلك ان التاريخ صنفان : فهو عندما يكون غير شعورى ، تاريخ طبيعي للاجرام السماوية ، والفضاء والجماد عامة ، والنبات والحيوان . ذلك لان لكل شىء تاريخا ، اذ كل شىء يتغير ويتحول على مر الزمان ، ويرتقي الى هيكليات اكثر فأكثر تشعبا واحكاما . ان قافلة الزمان ، اى حركة التاريخ ، تسير بكل شىء فى طريق التطور ، وعندما تصبح هذه الحركة شعورية ، عندها تصبح تاريخا بالمعنى المصطلح عليه عند المؤرخين . فالتاريخ اذن هو وعي التطور والاضطلاع به ، والانسان هو الكائن الذى بفضله ينقلب التطور الشامل لكل الطبيعة تاريخا بالمعنى الاصطلاحي .

ففي هذا الاطار وضع محمد اقبال (١٨٧٣ ـ١٩٣٨) تفكيره فى التاريخ . ففكر فيه كفيلسوف (٥١) ، وفكر فيه كصوفي فى شعره . فهو كجلال الدين الرومي (٦٠٤ ـ ٦٧٢/١٢٠٧ ـ ١٢٧٣) الصوفي الشاعر ، وكابن خلدون ، المفكر الاجتماعي ، يعتقد أن الحياة لا تقهقر ولا تكرار

---

(٤٨) Marc Oraison, Le hasard et la vie, p. 142.

(٤٩) op. cit., p. 142-3.

(٥٠) Jacques Monod, Le hasard et la nécessité, 0. 33.

(٥١) انظر تجديد التفكير الديني فى الاسلام ، ترجمة عن الانجليزيه ، عباس محمود ، القاهرة ١٩٥٥ ، ص ١٥٥ ـ ١٣٤ .

فيها . انما هي نمو ، وانما هـي رقى مطـردمتصاعد ابدا من المادة الى اكمل الكائنات التى يقع عليها حسنا : الانسـان . فهذا الانسـان بصنع غده ، ويناجي الله هكذا :

حوار بين الله والانسـان (٥٢)

اللـه

اني صنعت هذا الكـون من ماء وطين
وصنعت ايران ، وبلاد التتر وزنجبار
مـن الارض صنعت حرف الفولاذ ،
وصنعت السيف والنبـل والبندقية
وصنعت الفـأس لشـجرة المـروج
وصـنعت القفص لمفـرد الطيـور .

الانســان

صنعتَ الليـل ، وصنعتُ القنـديل
صنعتَ الطـين ، وصنعتُ الكـوب
خلقتَ الصحارى والاودية والجبـال
وانشأتُ الرياض والحدائق والورود
فانا الذى اخرجت من الحجر البلور
ومـــن الســـم التريــــاق

●●●

وهكذا تبدو لنا من خلال هذا القصيد الصوفي الغنائي وظيفة الانسان فى الكون وظيفة سامية . **فهو يضطلع عن وعى بدوره الخلاق اذ تحولت فيه حركة التطور الى حركة شعورية اى انه اصبح** فى تفاعله مع حركة التاريخ او الخلق فاعلا منفعلا . وهذا الانسان ليس قمة ، انما هو رمية نحـو مرمى ، نحو هيكلية اكمل ، نحو انسان الغـد الذى يدعوه **محمد اقبال** فى لهجته الصوفيـــة الغنائية هكذا :

اقبـل ، انـت ، يا فـارس القـدر
اقبل ، يا نور ظـلام عالم التحول !
فالبشرية حقل بذر ، وانت حصادها .
انـت هـدف قافلـة الحيـاة (٥٣)

فالتاريخ اذن امامنا اكثر مما هو خلفنا .

---

(٥٢) هذا القصيد يوجد فى ديوان محمد اقبال فى اللغـة الفارسية وعنوانه « بيـام ـ ى ـ مشرق » اى « رسـالة الشرق » . ترجم هذا الديوان لاول مرة باكمله الى لغة اوروبية ـ وهي اللغة الفرنسية ـ بعناية ايفا مايروفيتش Eva Meyerovitch ومحمد اشنا ، تحت عنـوان Message de l'Orient, Paris 1956 وقد عربنا هذا القصيد عن الفرنسية ، وهو يوجد بالطبعة المذكورة ص ١١٠ ـ ١١١ .

(٥٣) نفس المصدر ص ١٥

واذا ما اردنا الآن أن نتكهن بما سيكون عليه غد حضارة اليوم ، اى الحضارة الغربيـة التى تكتسح اكثر فأكثر عالم ما تحت القمر وما فوقه ، وجب ان نضع السؤال فى احداثيات ما سبق . يقول ارنولد توينبي ، الذى أقام الدليل اكثر من كل من سبق على ان كل الحضارات عرضـة للزوال : « ان المستقبل مفتوح » نعم ، هو مفتوح . لكن على اي غد ؟ ان كل الحضارات السابقة ارتكبت « اخطاء وحماقات » انتهت بزوالهـا . فالأمر اذن يرجع الى قدرة حضارة اليوم على تجنب الاخطاء والحماقات . فالحضـارة هـي الصورة التى يستكمل فيها الانسان يوما بعـد يوم انسانيته . فاذا ما « فسد الانسان فى قدرته على اخلاقه ودينه ، (و) فسدت انسانيتـه ، وصار مسخا على الحقيقة » حسب عبارة ابن خلدون (٥٤) ، فذلك يؤدى حتمـا الـى زوال الحضارة المعنية ، لانحرافها عن جادة التطـور المقنن « téléonomic » الذى يوجه الحياة . فما دامت اذن حضارة اليـوم تسير و « وخـطوط الانملات » نحو نقطة اومقا التى يتحدث عنهـا تيار دى شاردان ، اى ما دامت تسير فى سبيل الانتخاب الطبيعي ، حسب لغة جاك موتود ، فانها ستبقى لادائها لوظيفة الحياة . واذا ما فشلت فى ذلك فانها ستنقرض كمـا انقرضت قبلهـا حضارات عديدة . لكن ان انقرضت هذه الحضارة وخلت ، كما خلت قبلها حضـارات وامم ، فان الحضارة باقية ، وستجد البشرية عندها كمـا وجدت قديما ، فى خزانات امم اخرى لم تفسد انسانيتها ، سواعد جديدة تذهب بمشعل الحياة اشواطا اخرى الى الامام حتى يبلغ التطور غايته ويتم الله نوره .

مستقبل التاريخ

بقى لنا الان ان نتساءل سؤالا اخيرا : ماذا سيكون مستقبل التاريخ ؟ لقد راينا انه كتب الى حد الآن باقلام مختلفة واول تأويلات عديدة . وقيل فيه وعليه كثيرا . هل يجب اذن ان نيأس ـ والحال تلك ـ من الوصول الى حقيقة مشتركة ، ان لم تكن مطلقة ، وان نشاطر شبنجلر فى رايه الذى يعبر عنه هكذا : « الحقائق انما هي حقائق بالنسبة لفريق من البشر فقط . فان فلسفتـي الشخصية مثـلا لا تعكس الا الروح الغربيـة فى اختلافها عن الروح الكلاسكية ، او الهنديـة ، او غيرها (٥٥) .

ان هذا لصحيح . لكن اذا ما ظل الامر كذلك وجب أن نيأس من مستقبل التاريخ وان نغسل ايدينا منه ، وان نوصد ابـواب مدرسته التـي لا نتلقى فيها الا شبه حقائق مزعومة ونسبية ، ودروسا خطيرة فى الشعوبية . واذا ما اردنا ان نترك التشاؤم ــ الذى لا طائل وراءه ــ جانبا ، وجب ان نخرج من سجن التكيف بالبيئة الذى يجعل من الحقائق « حقائق بالنسبة لفريق من البشر فقط » . ومعنى ذلك هو ان مؤرخ المستقبل يجب ان يسعى جهده وأن يضـع تفكيره ، لا فى نطاق قومي شعوبي بل فى احداثيات عالمية . ان هذا ليس طبعا بالهين لكنه اصبح تقنيا ممكنا .

---

(٥٤) المقدمة ص ٦٧٤ .

(٥٥) Oswald Spengler, The Decline of West, to. by C.F. Atkinson, London 1954, p. 46.

ان الناظمات الآلية اخذت اليوم تغزو كامل قطاعات الحياة ، حتى مطابخ البيوتات الفردية. وسوف يزيد بسرعه نطاق انتشارها فى مستقبل اقرب مما قد نظنه ونتكهنه . وليس من شك فى ان انتشار الناظمات الآلية ، ومرونتها المتزايدة ودقة التحكم فيها ، ستفتح امام التاريخ آفاقا يعسر تصورها من قبل . وستتغير طبعا منهجية التاريخ تغيرا تاما ، اذ لا بد لكتابته بصفة عصرية من الاستعانة بخبرات عديدة ، لتزويد الناظمات بالمعلومات اولا ، وحسن استنطاقها ثانيا . ولعل تفاوت المؤرخين حذقا فى المستقبل سيقاس بتفاوت قدرتهم على ابتكار الاسئلة الراشقة ، وعلى مهارة استنطاقهم للناظمات .. ومهما يكن من امر فان هذه الناظمات سوف تمكننا من الشمول ، والخروج من حدود الاقليميات الضيقة ، وتعودنا ان نعتبر التاريخ ليس بتاريخ امة دون امة ، او حضارة دون حضارة ، وانما هو تاريخ الانسان عامة . واذا خلقت فينا هذه العقلية نكون قد خطونا خطوة شاسعة نحو الموضوعيه ، وابتعدنا من تلك الحقائق الجزئية او النسبية التى يتحدث عنها سبنقلار ، والتى كثيرا ما زيفت (٥٦) وجه التاريخ سابقا . فلعل الناظمات وشبكة التنقل التى تزيد سرعة وشمولا ، والتحاكك المتزايد بين الاجناس وتلاقح الافكار وعبور الآراء ، يمكن فى المستقبل من كتابة تاريخ الانسان فى كامل اوضاعه واصقاعه دون تحيز وتمييز وتعصب . **انه لا بد ان يأتي يوم ـ طال الزمان ام قصر ـ تصبح** فيه قولة مونتسكيو (١٦٨٥ ـ ١٧٥٥) Montesquie هذه : « اني انسان اولا وفرنسي بالصدفة » ، شعار كل مؤرخ . لعل هذا المستقبل بعيد ، ولعل دونه عقبات كأداء ، لكن النجوم على بعدها تهدى السائرين وتجنبهم الضلال . ومهما يكن الامر فان التاريخ لن يتقدم الا اذا ما اصبح علما حقيقيا من علوم الانسان ، وخرج من القبلية التى ما زالت تهيمن عليه حتى **اليوم ، بصفة تزيد وتقل غلوا ، وتختلف سفورا** وتقنعا ، وتشرب بالوان المركبات غرورا ونقصا .

لكن هل يصبح التاريخ يوما علما حقيقيا ؟ ان من يشك فى ذلك كثيرون ومن بينهم **بول فاين** Paul Veyne **الذى يقطع بدون تردد « ان التاريخ لن يكون ابدا تاريخا علميا (٥٧) . ان هذا القول الفصل ـ الذى ينم عن وثوق بالغ بالنفس ويظهر فى لهجة كامل الكتاب ، وكثيرا ما يحرج المطالع ـ ناشىء فى نظرنا**

---

(٥٦) انظر ، فيما يخص تزوير التاريخ المقالات التالية الواردة فى مجلة « الاصالة » التي تصدر بالجزائر العاصمة ، فى عدديها ١٤ و ١٥ سنة ١٣٩٣/١٩٧٣ : سعد الله ، منهج الفرنسيين فى كتابة تاريخ الجزائر ، ص ٧ ـ ٢٧ ، عبد المجيد مزيان ، النظريات التاريخية بين التفسير والتحريف ، ص ٢٧ ـ ٣٥ ، محمد ابراهيم الميلي ، نماذج من تشويه المؤرخين الاجانب لتاريخ الجزائر ، ص ٥٧ ـ ٦٥ ، المهدى البو عبدلي ، موقف المؤرخين الاجانب من تاريخ الجزائر عبر العصور ، ص ١٢٥ ـ ١٣٩ ، عبد الرحمن الجيلالي ، من بواعث الاستشراق واهداف المستشرقين ، ١٥٥ ـ ١٦١ ، الطاهر فيفة ، تاريخنا يحتاج الى اعادة نظر ، ص ١٧٣ ـ ١٧٧ ، اسماعيل العربي ، مساهمة المؤرخين الفرنسيين وهل تصلح اساسا لتنمية تاريخنا القومي ، ص ١٨٧ ـ ١٩٩ . وفى القسم الفرنسي من هذه المجلة :

Yvonne Turin, L'histoire et sa nationalité, p. 13-22, Charles Robert Ageron, Simple note en faveur de la décolonisation de l'histoire algerienne . . . p. 23-26.

(٥٧) Paul Veyne, comment on écrit l'histoire, éd. du senil, Paris 1971, p. 205 et. suir.

عن مركب وخلط . فاما المركب فهو ذاك الذي تتألم منه كل العلوم الانسانية عامة امام العلوم المدعوة بالصحيحة والتي من الاصح ان نسميها بعلوم الطبيعة – لما حققته هذه العلوم من **انجازات غيرت وجه حياتنا المادية وتحدت** اعتقاداتنا الروحية . وهذا المركب هو الذي يجعل كثيرا ممن يشتغلون بعلوم الانسان لا يكادون يفكرون فى علومهم الا وقارنوها – بصفة شعورية او غير شعورية – بعلوم الطبيعة ومناهجها . وهذا طبعا يفضى الى الخلط ، اذ يجعل دائما **العلوم الانسانية موضوعة ، بوجه من الوجوه ،** على كفة ميزان هو غير ميزانها ، وهذا عين ما نلمسه فى صفحات عديدة من كتاب بول فاين ، مما يؤدى الى استطرادات كثيرة تضل عن الموضوع اكثر مما تهدى اليه .

كل يعلم منذ قرون ان التاريخ ، كغيره من علوم الانسان ، ليس بعلم ناموسي nomologique وان غايته ليست فى تجريد نواميس من نوع اذا ادخلت حامضا على قاعدة اصبحت ملحا ، وانما هى الفهم . الم يقل لنا ابن خلدون انه « لا يقاس شيء من احوال العمران على الآخر (٥٨) » . وهذا معناه طبعا ان التاريخ لا يفضي بنا الى نواميس تاريخية ، ولا يقصد الى ذلك . واما النواميس التي كد فى استخلاصها بعض المؤرخين المعاصرين فانها ليست ناموسية فى شيء . وذلك لسبب بسيط ، وهو ان النواميس العلمية مقامة كلها على تكرار الظاهرة كلما توفرت شروطها . وهذا لا يتوفر الا فى عالم تكرار الظواهر ، وهو عالم الطبيعة . والتاريخ ، كما بينا ، وكل ما واكبه من **نشاطات الانسان لا تكرار فيه ، اذ هو حركة خلق** مستمرة . لذا فانه من المستحيل ان نتصور تجربة تاريخية من نوع تجارب الكيمياء والفيزياء التي يقام بها فى المخابر . كل هذا مفروغ منه منذ زمان ، وليس فى حاجة الى زيادة تدليل .

لكن ، ان كان التاريخ ليس من العلوم الناموسية ، فليس معنى ذلك حتما انه ليس بعلم فهو علم بهدفه ، اذ هو ككل العلوم يسعى وراء **الحقيقة ، وهو علم بمنهجه الذى لم يفتأ على مر** العصور يتطور ويزداد احكاما . فخلافا لما يزعمه بول فاين فاننا نرى التاريخ يصير يوما بعد يوم علميا اكثر فأكثر ، وليس هناك من موجب كي تهدأ هذه الحركة او تكف ، بل كل شيء ينذر أنها ستزداد سرعة . انا نرى التاريخ اليوم يستنجد **باحدث اكتشافات الكيمياء أو الفيزياء وسوف** يستخدم غدا بدون شك الأجهزة والعقول الالكترونية كي يسيطر اكثر فأكثر على الواقع . ولعله يوفق يوما فى تسجيل ذاكرة جسنا فى ناظمة آلية واحدة .

هل سيمكن ذلك المؤرخ يوما من استيعاب كل المعطيات حتى يتمكن من تأويل اثبت للواقع وفهم ادق ؟ الامر يختلف طبعا باختلاف العصور والميادين . لكن يمكن ان نقول ان الاستيعاب المطلق للمعطيات يبدو لنا فى كل الحالات عسيرا ، وفى بعضها مستحيلا غير ان هذا ليس له فى الحقيقة من الاهمية ما قد نتخيله اولا ، اذ يمكن ان نحصر الحقيقة التاريخية ونضيق عليها الخناق بوسائل شتى حتى نظفر بها بدون حاجة الى الاستيعاب . ثم اننا لسنا فى حاجة الى ان نعلم كل

---

(٥٨) المقدمة ص ١٠١٩ .

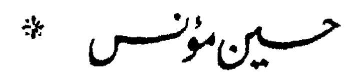
شيء من شئون الماضي . ومهما يكن الامر ، فانه ليس من الضروري كي يكون العلم علماً ، ان يميط اللثـام عن كل خفية ودقيقة ، بل يكفي ان يبلغ الحقيقة في الميادين التي بلوغها فيها يكون ممكنا . وهذه الميادين كثيرة بالنسبة للتاريـخ وستزيد اتساعا وعددا في المستقبل .

وخلاصة القول اننا من المتفائلين بمستقبل التاريخ العلمي ، وان كانت الصعوبات لا تخفى علينا ولا نأمن الخيبات، وذلك لاننا نؤمن بالتقدم، ذاك التقدم الذي نقرأ خطوطه واضحة في سجل الخليقة ، ذاك السجل الذي اعاننا ، وسيعيننا اكثر فأكثر التاريـخ على سبر صـفحاته .

((افحسـبتم انما خلقناكم عبثا وانكم الينـا لاترجعون)) (٥٩) .

* * *

(٥٩) المؤمنون ٢٣ الاية ١١٥ .



التاريخ والمؤرخون

ماهية التاريخ ولماذا ندرسه ـ تطوره فى الغرب فى خلال العصور الحديثة ـ اهم نظرياته ومراحل تطوره وبناة علم التاريخ الحديث واهم اعمالهم .

الخلاف حول اهمية التاريخ ومكانته بين العلوم :

يحتل التاريخ بين فروع المعرفة الانسانيةمكانا صدرا ، وتشغل المؤلفات فيه نسبة عالية من الكتب التي تصدر فى الشرق والغرب علىالسواء . والى ما قبل الحرب العالمية الاولى كانت المؤلفات فى التاريخ وما يتصل به من تراجم وقصص تاريخي وآثار وسياسة ومذكرات تكوّن خُمُسَ المكتبة العالمية . وفى ايامنا هذه ،ورغم اتساع ميادين المعارف وغلبة الاهتمام بالعلوم الطبيعية والرياضية والطبية والهندسيةعلى الاهتمام بما عداها لا زالت مؤلفات التاريخ تحتل جانبا ضخما مما ينشر كل عام ، وخاصةاذا اضفنا اليها ذلك النوع الجديد من الكتب

---

* الدكتور حسين مؤنس استاذ التاريخ الاسلامي بجامعةالكويت مؤرخ واديب وقصاص له مؤلفات كثيرة وخاصة بالمغرب الاسلامى . آخر مؤلفاته « الاسلام والحضارة » .

الذى يؤلفه نفر من اذكياء اهل الصحافة والادبعن حوادث التاريخ الجارى current history ورجاله ، ويكفي ان نشير الى العدد الضخم من المؤلفات التي صدرت خلال السنوات الاخيرة عن قضايا فلسطين وفيتنام والأمن الاوروبى والاستعمار الجديد والشيوعية والاشتراكية وتحرر العالم الثالث وما الى هذه من موضوعات التاريخ المعاصر ورجاله من امثال **لينين وستالين وماو ــ تسي ــ تونج وهو ــ شي ــ منه وونستون تشرشل وشارل دى جول وجمال عبد الناصر وايرنستو (تشيه) جيفارا وجون كينيدى وغيرهم** ، وكل هذه كتب صحفية الطابع فى التاريخ المعاصر تنشر وتباع بعشرات الالوف بل مئاتها ،مما يدل على أن التاريخ لا زال من اكثر فروع المعرفة الانسانية قربا الى قلوب الناس .

ومع ذلك فلا زالت حقيقة « التاريخ » ومكانته بين العلوم وطبيعته وفائدته موضع شك ونقاش طويل بين المؤرخين والفلاسفة والمفكرين عامة .وقد عرض **شمس الدين السخاوى** (٨٣١ ــ ١٤٢٧/٩٠٢ ــ ١٤٩٧) فى كتابه المشهور « الاعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ » بعض جوانب مشكلة علم التاريخ عند المسلمين ، واعطانا صورا من المآخذ التي كان علماء عصره يوجهونها الى اهل التاريخ وحاول الدفاع عنهم ، وهو لم يوفق لا فى العرض ولا فى الدفاع ، فقد كان اقصى ما قاله فى مدح التاريخ ان جعله احد العلوم المساعدة لعلم الحديث ، ولكنه على أى حال اعطانا فكرة واضحة عن مشكلة علم التاريخ عند العرب والاختلاف بينهم فى تقديره والحكم عليه .

وتتلخص آراء الناقدين لعلم التاريخ من المسلمين فى انه علم لا ينفع ، اذ هو يشغل الانسان باخبار الماضين واساطير الأولين عما ينفع الانسان فى أخراه من علوم الدين ، ثم انه يعرض صاحبه للكذب عن علم أو غير علم ، فهو لا يدرى ان كانت الاخبار التي يسوقها صحيحة ام غير صحيحة ، ورأى بعض نقاد التاريخ من المسلمين انه غيْبة ،لأن المؤرخ يتناول الغائبين بالذم والنقد ويكشف عن عيوبهم ، والاسلام ينهى عن الغيبة ، ثم ان بعض المؤرخين يقعون فى اعراض الناس ويسيئون اليهم ، ولهذا تحامى الكثيرون من اهل الخلق والتصاون الكلام فى التاريخ حفاظا على خلقهم .

ولكننا نعذر الماضين من اهل الفكر عندنا فيما وجهوه للتاريخ من نقد ، لأنه لا زال بين اهل عصرنا من كبار المفكرين ــ والفلاسفة خاصة ــ من ينكرون وجود التاريخ اصلا ، ويقولون ان التاريخ يعنى بما مضى وانقضى من الاحداث ، وما دامت قد مضت فهي غير ذات وجود حقيقي ، وهي لا تبعث الى الحياة الا فى ذهن المؤرخ . فالمؤرخون وحدهم ــ فى رأى هؤلاء ــ هم الذين يشعرون بوجود التاريخ لأنه صنعتهم ومدار حياتهم ، اما من عداهم فلا وجود للتاريخ فى حسابهم ، وهم لا يحسون بالحاجة الى معرفته ، ويحلو لكثير من اهل العلم ان يرددوا قول **هنرى فورد** « التاريخ لغو History is bunk .

ولكن التاريخ كما سنرى ليس لغوا ، فهو لا يقتصر على اخبار الماضين واساطير الاولين ، بل هو يدرس التجربة الانسانية او جوانب منها ،ويسعى الى فهم الانسان وطبيعة الحياة على وجه الارض ، واذا نحن اعتبرنا الحياة طريقا يقطعه الانسان ، فلا شك فى ان معرفتنا بما قطعناه من الطريق تعيننا على قطع ما بقي منه . وسنأتي فيما بعد بفقرة طويلة وافية عن فائدة التاريخ وضرورة دراسته ومعرفته .

مثل من اختلاف الناس حول طبيعه التاريخ ووظيفته : رأي ابن خلدون ونظرية هيجل :

ولا زال تعريف **ابن خلدون** للتاريخ فى فاتحة مقدمته يعتبر من ادق ما قيل فى هذا العلم ، وهو تعريف اعجب به واشار اليه نفر من كبار المؤرخين فى الغرب من امثال كولنجوود وتوينبي رغم انه لم يترجم الى الانجليزية ترجمة دقيقة الا على يد فرانتس روزنتال فى السنوات الاخيرة . وترجمته دقيقة ولكنها خالية من الروح ، وافضل منها واكثر حيوية الترجمة الفرنسية التي صنعها فنسان مونتاى ، وسنشير اليها فيما بعد .

قال ابن خلدون بعد مدخل بلاغي : « أما بعد ، فان فن التاريخ من الفنون التي تتداولها الامم والاجيال ، وتشد اليه الركائب والرحال ، وتسمو الى معرفته السوقة والأغفال ، وتتنافس فيه الملوك والاقيال ، ويتساوى فى فهمه العلماء والجهال ، اذ هو فى ظاهره لا يزيد على أخبار عن الايام والدول ، والسوابق من القرون الأول ، تنمو فيها الاقوال ، وتضرب فيها الامثال ، وتطرف بها الاندية اذا غصها الاحتفال ، وتؤدي الينا شأن الخليقة كيف تقلبت بها الاحوال ، واتسع للدول فيها النطاق والمجال ، وعمروا الارض حتى نادى بهم الارتحال وحان منهم الزوال . وفى باطنه نظر وتحقيق ، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق ، وعلم بكيفيات الوقائع واسبابها عميق ، فهو لهذا اصيل فى الحكمة عريق » .

وهذه عبارة تدل على فهم ذكي لطبيعة التاريخ ووظيفته فهو « فى باطنه نظر وتحقيق » اى تفكير فى طبائع البشر وتكوين مجتمعاتهم ، وبحث عن اسباب الحوادث وتحليل لنتائجها ، فهو على هذا ــ كما يقول ابن خلدون ــ « اصيل فى الحكمة عريق وجدير بأن يعد فى علومها خليق » والحكمة فى المفهوم العربي هي اعلا مراتب العلم ، وقد قرنها الله سبحانه وتعالى بالكتب السماوية فى القرآن الكريم ثماني مرات ، وعبارة « الكتاب » والحكمة عبارة قرآنية لا تزال تتردد فى الاسماع والقلوب .

ولكن يستوقف النظر ان ابن خلدون ينظم التاريخ فى سلك الفنون لا العلوم ، والفن بمعنى « الضرب من الشيء » كما جاء فى « لسان العرب » اقل منزلة واهمية من العلم الذى هو معرفة اكيدة . نعم ان ابن خلدون عاد فعقد فصلا عن فائدة التاريخ سماه « فى فضل **علم التاريخ** وتحقيق مذاهبه والالماع لما يعرض للمؤرخين من المغالط وذكر شيء من اسبابها » ولكنه يبدأ هذا الفصل ذاته بقوله : « أعلم ان فن التاريخ فن عزيز المذهب » فكأنه غير مقتنع تماما بأن التاريخ علم مستكمل لاشراط العلوم .

وهذا الفصل الذى نشير اليه يدور حول وظيفة التاريخ او فوائده ، وهو يعطينا فكرة عن راى ابن خلدون فى قيمة التاريخ وفضائله فى نظر ذلك المفكر الكبير ، قال : « اعلم ان فن التاريخ فن عزيز المذهب جم الفوائد شريف الغاية ، اذ هو يوقفنا على احوال الماضين من الامم فى اخلاقهم ، والانبياء فى سيرهم والملوك فى دولهم وسياستهم ، حتى تتم فائدة الاقتداء فى ذلك لمن يرومه فى احوال الدين والدنيا ، فهو محتاج الى مآخذ متعددة ومعارف متنوعة ، وحسن نظر وتثبت يفضيان بصاحبهما الى الحق ، وينكبان به عن المزلات والمغالط » .

وخلاصة هذا الكلام هي ان التاريخ ينفع فى العظة والعبرة ، فنحن ندرس تواريخ الدول والملوك لنتعلم ، وندرس سير الانبياء لنتأسى بهم ، وندرس تجارب الامم ونرى ما وقعت فيه من الاخطاء لننجو بانفسنا عن المزلات ومواطن الضرر ، وهذه فى رأينا هي اعظم فوائد التاريخ فى نظر دارسيه من العرب . ولهذا نجد ابن خلدون يسمى تاريخه الكبير « كتاب العبر » .

ولا ندرى كيف غاب عن ابن خلدون ان احداً لا يعتبر بما يقرأ من التاريخ . ولقد كان الملوك فى الماضي من اكثر الناس مطالعة للتاريخ . ومع ذلك فما اتعظ احد منهم بما قرأ ، فنجدهم جميعا يقعون فى نفس المغالط التي يقرأون عنها فى الكتب ، وهم يرون انها أدت بالملوك السابقين الى التلف ومع ذلك يسيرون فى نفس الطريق ، وكل الظلمة فى تاريخنا كانوا من المشغوفين بالتاريخ فأين فائدتهم من ذلك ، والسخاوى نفسه يحدثنا عن شغف نفر من سلاطين المماليك وامرائهم بالتاريخ ومع ذلك فقد كان اولئك المماليك من اجهل الناس بالسياسة والحكم واقلهم معرفة بتجارب الامم واكثرهم اسرافا فى العدوان على اموال الناس وابشارهم ، فأين استفادتهم مما قرأوه ؟

والحق ان الكثيرين يقرأون التاريخ ليتعلموا منه وليوعظوا به ولكنهم لا يتعلمون ولا يوعظون ، لأن الانسان قد يعجب بما يقرأ ويجد فيه متعة ولكنه لا يتعظ به ، لأن الموعظة لا دخل لها فى التجارب الانسانية . فمهما حذرت ابنك من الاندفاع وراء النساء فان تحذيرك لن ينفعه ، لأنه لا بد ان يجرب بنفسه .

واسأل نفسك : اننا معاشر العرب من اكثر الامم تأليفا فى التاريخ وقراءة له حتى ان مناكبنا لتنوء لثقل ما نحمل من اعباء التاريخ ففيم نفعنا ذلك ؟ وها نحن منذ الدهر الآبد نقع فى نفس الاغلاط ببلاهة تدعو الى العجب .

ثم اننا نرى فى كلام ابن خلدون عن فائدة التاريخ ابهاما لا نرتضيه ، فما المراد مثلا بقوله ان التاريخ « عزيز المذهب شريف الغاية » ؟ لقد اختلط امر معنى « عزيز » و « شريف » على **فنسان مونتاى** مترجم المقدمة الى الفرنسية فى سلسلة الروائع الانسانية التى تنشرها منظمة اليونسكو ، وترجمهما بلفظ واحد هو noble وهو لفظ فرنسي مبهم المعنى ايضا ، مثله فى ذلك مثل مقابله فى العربية : « نبيل » .

ونحن لا نلوم ابن خلدون فى لجوئه الى هذا التعريف غير الدقيق لطبيعة التاريخ ووظيفته ، فبعد **وفاة ابن خلدون** باربعة قرون وربع القرن (توفي فى ١٧ مارس ١٤٠٦) القى **جيورج فلهلم فريدرش هيجل** محاضراته المشهورة فى فلسفة التاريخ فى شتاء سنتي ١٨٣٠ ــ ١٨٣١ وقال فيها ان تاريخ البشر كله يمكن ان يوصف بأنه عملية طويلة استطاعت البشرية خلالها ان تحرز تقدما روحيا واخلاقيا ، وهذا التقدم هو ما استطاع العقل البشرى ان يحرزه فى طريق معرفته لنفسه ، وقال ان التاريخ يسير وفقا لخطة Plan ومهمة الفيلسوف هي معرفة هذه الخطة . ولقد عجز الكثيرون من المؤرخين المبرزين عن الكشف عن أى خطة واكتفوا برواية الاحداث ، ووجد آخرون مفتاح التاريخ فى قوانين مختلفة ذهبوا الى ان الطبيعة تعمل بموجبها . اما تفكير هيجل فيقوم على الايمان بأن التاريخ هو تحقق الغاية التي ارادها الله من وراء الخلق ، وان الانسان وصل فى بداية القرن التاسع عشر الى درجة من التقدم تمكنه من الكشف عن هذه الغاية وهي تحقيق حرية البشر تحقيقا تدريجيا . والحرية التي يعنيها هيجل هي تحرر الانسان من عقال الجهل والخوف والظلم .

وفى رأى هيجل ان الخطوة الاولى فى هذا الطريق كانت الانتقال من حالة التوحش الطبيعية الى مستوى النظام والقانون . خلال هذه المرحلة كان لا بد من انشاء الدول ، وكان على اولئك الذين انشأوا هذه الدول ان يستعملوا القوة والعنف ، ولا سبيل غير القوة والعنف لالزام الناس بطاعة القانون قبل ان يصلوا الى درجة كافية من التقدم العقلي تجعلهم يلزمون النظام

والقانون من تلقاء انفسهم . وهذه العملية لا يمكن ان تتم بالنسبة لكل البشر فى نفس الوقت ، فهناك مرحلة يصل فيها بعض البشر الى هذا الادراك لقيمة القانون واحترامه فيصلوا بذلك الى الحرية فى حين لا يستطيع بعضهم ادراكها فيظلوا عبيدا ، وذهب هيجل الى ان الانسانية وصلت الى مستوى من الفهم يجعلها توقن بأن البشر جميعا احرار نظريا وان واجبنا ان ننشىء النظم التي تجعل هذه الحرية حقيقة .

وقد وقفنا عند هيجل هذه الوقفة القصيرة فى كلامنا عن ماهية التاريخ لكي نضرب للقارىء مثالا من الاختلاف الواسع المدى الذى يمكن ان يقع بين فلاسفة التاريخ حول طبيعة التاريخ ووظيفته ، فان ابن خلدون كما نعلم وضع نظرية دورة العمران ، وقال ان مسار التاريخ دائرة مغلقة سيئة ، لا يزال الانسان يدور فيها حتى يطوى الله الارض وما عليها . اما هيجل فيرى ان هذا المسار نمط مستقيم يبدا عند البداوة والتوحش ولا بد ان ينتهي يوما ما الى تحرر البشر جميعا وعيشهم فى سلام فى ظل القانون .

وقد نبعت فلسفة كل من ابن خلدون وهيجل من تجربته الخاصة والطريق الذى سارت فيه تجربة الامة التي انتسب لها ، فقد عاش ابن خلدون فى عصر شقي مضطرب ، وتلفت الى وراءه فراى ان تاريخ أمم العروبة يتلخص فى سلسله من التجارب الحزينة الفاشلة ، فساء ظنه بالدنيا والناس ، وصور تاريخ البشر فى هذه الصورة اليائسة ، اما هيجل فقد كتب فى عصر وصل الغرب الاوروبى فيه الى استقرار نسبي ورخاء وغنى وسيادة ، فامتلأت نفسه بالتفاؤل وقال ان الانسانية تسير من حسن الى احسن ، وانها ستصل فى يوم ما الى هدفها الاسمى الذى ذكرناه .

وقد كان هيجل يحسب انه قال آخر كلمة فى فهم التاريخ وانه وضع يده على الخطة او الخط الذى رسمه الله سبحانه لمسيرة البشر على وجه الارض ، ونسب اليه نفر من خصومه عبارة ساذجة تنطوى على غرور كثير وهي قوله : « عندى ينتهي التاريخ » والحق ان الرجل لم يقل شيئا من ذلك كما اثبته تلميذه ومجدد فلسفته **فلهلم دلتاى** Wilhelm Dilthey وانما زعمه خصومه من الماركسيين ، ومن المعروف ان كارل ماركس واتباعه اجتهدوا فى هدم آراء هيجل ، وقد ابغضوه لايمانه الشديد بالمسيحية ولمناصرته للدول والنظم الرأسمالية التي سادت الغرب فى ايامه .

ما هو التاريخ

بعد هذه المقابلة فى الرأى فى علم التاريخ بين اثنين من اكابر فلاسفة التاريخ ، وهي مقابلة اردنا من ورائها ان نستلفت النظر الى صعوبة ادراك حقيقة التاريخ وفائدته نعود فنسأل : ما هو التاريخ ؟

والجواب : هو دراسة الحوادث او هو الحوادث نفسها .

والحوادث جمع حادث ، والحادث هو — من وجهة نظر المؤرخ — كل ما يطرأ من تغير على حياة البشر ، وكل ما يطرأ من تغير على الارض او فى الكون متصلا بحياة البشر .

والحادث قد يكون مفاجئا كوقوع زلزال يهدم المدن وقد يكون عنيفا مثل قيام حرب وقد يكون بطيئا غير محسوس كعمليات التطور البطيئة التى لا يفطن الانسان الى حدوثها الا على المدى الطويل . ومثال ذلك تطور المرأة العربية وخروجها من عزلة البيت الى الحياة العامة ومساهمتها فى كل ميادين

النشاط الاجتماعي والثقافي والسياسي ايضا ،فهذه عملية طويلة بدأت من اواخر القرن الماضي ولا زالت مستمرة الى اليوم . وهي فى مجموعها حادث تاريخي خطير بعيد المدى . وقد يقع الحادث دون ان يفطن اليه احد ثم تتجلى خطورته فيما بعد مثل ميلاد طفل يصبح فى يوم من الايام قائدا كبيرا او مفكرا عظيما او سياسيا ماهرا ، اى يصبح من صناع التاريخ .

وسواء أكانت الحوادث صغيرة او كبيرة ،محسوسة او غير محسوسة ، قصيرة الامد او طويلة ، فان الجامع بينها هو ان الحال قبلها يختلف عنه بعد وقوعها ، فالعالم قبل نابليون يختلف عن العالم بعده ، والدنيا قبل الحرب العالمية الثانية تختلف عنها بعدها ، والمفكر الانساني قبل جورج برنارد شو يختلف عنه بعده ، وهكذا ، فالعبرة فى الحوادث التي هي مادة التاريخ هي ان تعني تغيرا فى الاحوال . سواء أكان هذا التغير كبيرا او صغيرا ، محليا او عالميا ، وحوادث التاريخ اذن هي تغيرات . والحادث الآن هو التغير . واذا نحن اردنا ان نتبين اهمية حادث ما فنحن نقارن الاحوال قبله وبعده . وعلى هذا الاساس فنحن نعتبر ظهور من نسميهم بعظماء الرجال او صناع التاريخ حوادث . فيوليوس قيصر حادث ، وخالد بن الوليد حادث ، والشيخ محمد عبده حادث ، وهكذا ، وواضح اننا اذا اعتبرنا كلا من أولئك الرجال حادثا فنحن نأخذه فى مجموعه وننظر الى حجم التغير الذى احدثه فى مسيرة البشر .

ولكننا اذا فكرنا مليا وجدنا ان التغير فى حقيقة الامر مستمر وهو لا يتوقف على ظهور اشخاص باعيانهم ، ولا ينتج عن تجمع ظروف تؤدى الى قيام دول او نشوء حروب أو وقوع تطورات وما الى ذلك ، بل ان التغير فى احوال الارض والناس مستمر منذ ان انشأ الله الخلق الى ان يطويه ، واذا نحن اخذنا حقبة من الزمن من تاريخ امة لاحظنا ان مجرد مرور الزمن يحدث تغيرا الى الأحسن او الى الاسوأ ، ولكنه تغير على اى حال . وهذا التغير يحدث نتيجة لسير الزمن نفسه . فما دامت الشمس سائرة فى فلكها ،والارض فى مدارها فلا وقوف للتغير . ونحن نحس فى انفسنا ذلك ، فنحن نتغير مع مرور الليالي والايام ونتنقل من الطفولة الى الشيخوخة دون ان تكون لنا يد فى ذلك . ولقد قالت **سيمون دى بوفوار** تلميذة **جان بول سارتر** : ان اقوى عامل فى حياتنا هو ذلك الشيء الذى لا يحس ولا يرى ولا يدرك له وزن : الزمن . انني أحس الآن بوطأته على كتفي « والحق ان الزمن نفسه هو الحادث الاكبر ، واذا استطعنا ان نتصور ان الزمن يمكن ان يتوقف لرأينا ان الحوادث هي الاخرى يمكن ان تتوقف . والحق ان الشاعر الذى قال :

الليالي من الزمان حبالى   مثقلات يَلِدْنَ كل عجيب

لم يفطن الى عمق الحقيقة التي توصل اليها فى هذا البيت .

فاذا كان التاريخ فى حقيقته هو الحوادث ،وكانت الحوادث هي التغيرات ، والتغيرات وليدة الزمان او سير الزمان انتهينا الى ان التاريخ هو الزمان . ويكون ميدان اهتمام المؤرخ على هذا هو دراسة كل تغير طرأ على الكون والارض وكان له تأثير على حياة البشر . ثم دراسة كل تغير طرأ على حياة البشر انفسهم ، مهما كان هذا التغير صغيرا او غير ظاهر الاهمية . فالحقيقة انه لا توجد حوادث صغيرة واخرى كبيرة ،لأن الحوادث الكبيرة انما هى تجمع حوادث صغيرة بعضها الى بعض فى نطاق مكاني وزماني ضيق . وكما ان السيل الجارف ينشأ من تجمع ذرات صغيرة من البخار فان وقوع حرب عالمية مدمرة يكون فى الغالب نتيجة تجمع قوى بشرية وتراكمها فى دولة

من الـدول او اكثـر . فيؤدى هذا التجمع الىالاحتكاك ثم الانفجار ، وكذلك الحال بالنسبة لمن نسميهم عظماء الرجال ، فهم فى ذاتهم لا قيمة لهم الا بالرجال الذين ساروا وراءهم وايدوهم ، وما فيمه نابليون بدون جنوده وما قيمة المتنبي بدون قرائه ؟

لقد شبهوا سير التاريخ بسير الماء فى مجرى طويل يتسع حينا ويضـيق حينا ويستقيم حينا ويتعرج حينا وينبسط مرة ثم ينحدر فى صورة شلالات مرة اخرى، وقد تعترضه الجنادل والصخور ، والماء ــ الذى هو التاريخ ــ يسير بحسب حالة المجرى ، فاذا اتسع المجرى انساح الماء وبطأت حركته، واذا استقام انساب الماء رفيقا حتى لاتحس بانسيابه ، واذا نعرج يلوى معه الماء وتراخى سيره او اندفع بحسـب المنعرجات ، ونفس هذا المـاء الهادىء يتحول الى شلال رهيب فينصب انصبابا يحطم اقسى الصخور اذا انحدر المجرى انحدارا عنيفا ، واذا احسـن التحكم فيـه اطلق قـوى كهربائية ضخمة من عقالها ، وهذا هو سير التاريخ او سير الزمان بعصور هدوئه وعصـور فورانه ، ومصدر القوة والخير والرى والكهرباء هـو ذلك الماء الهادىء الصامت الذى تحفن منـه فى كفيك وتنظر فلا نرى شيئا ، وهذا هو الزمان الـذى شكت منه سـيمون دى بوفوار وتعجبت من انه صنع بها ما صنع ومع ذلك فهو لا يرى ولا يحس ولا يدرك له وزن . واذا كان نهر المـاء يتكون من شيئين : الماء والمجرى فان نهر التاريخ يتكون من عنصرين : البشر والزمان ، ويضاف اليهما عنصر ثالث وهو المكان .

وفى بداية التاريـخ اى فى عصـور توحش الانسان الأولى ، كان الانسان يعيش تحت رحمة الزمان والمكان . فلما نما ذهنه واتسعت تجاربه بدأ يتأمل ما حوله واخذ يحاول التحكم فى الزمان والمكان ، ولكي يحمي نفسه من عبث الزمان وتحكم المكان تعلم كيف يتخذ اسلحة واكسية ، وسكن المغارات ثم تعلم كيف يبني الكوخ . وعندما اهتدى الى فضل النار وعرف كيف يوقدها خطا خطوة فسيحة الى الأمام ، ثم تعلم كيف يدخر غذاءه ثم كيف ينتجه عن طـريق الزراعـة وهكذا مضى فى طريق التحكم فى ظروفه الزمانيـة والمكانيـة عن طريق التفكير والتجربة ، وعندما فطن الى فكرة الكتابة دخل عصور التاريخ ، لأن الكتابة مكنت له من ان يختزن معلوماته وثمرات تجاربه عن طريق التدوين لينتفع بها فيما بعد .

وهذا الطريق الذى سار فيه الانسان منذ عصور البداوة والتوحش الى عصور الكتابة وما تلا ذلك من عصور هو الذى يسـمى بالتاريخ السياسى والحضارى . فاما السياسى فهو جانب الصراع الذى خاضه ويخوضـه الانسـان لتأمين نفسه ومجتمعه من العدوان الخارجي ثم تنظيم هذا المجتمع على نحـو يوفر له اكبـر جانب من الأمان والـرخاء ، واما الحضـارى فهو صراعه للارتقاء بنفسه وبمستواه المعاشي من الناحيتين الماديـة والمعنوية . ومن الواضـح ان الجانبين السياسي والحضارى متلازمان ولا يمكن دراسة واحد منهما دون دراسة الآخر ، ولا يمكن الفصل بين التاريخ السياسي والحضارى ، وانما يمكن الاهتمام فى بعض المؤلفات بجانب السياسة اكثر من الاهتمام بجانب الحضارة او العكس .

ولماذا ندرس التاريخ ؟

وهذا الكلام يوهم بأن ميدان التاريخ هـو الماضي وحده او حكاية ما انقضى وفات وطـواه الزمان فى سَيْرِهِ الآبِد من الأحداث ، وليس هذا بصحيح ، لأننا اذا قلنا ان التاريخ هو نهر الحياة فان هذا النهر متصل السير قبلنا وفى زماننا وبعد زماننا ، واذا كنا عندما نكتب التاريخ فمعنى ذلك اننا نسجل التجربة الانسانية . وهذه التجربة لا زالت سائرة متصلة الحلقات ، والتاريخ على هذا يشمل الماضى والحاضر والمستقبل معا، ونحن عندما ندرس الماضي فاننا فى نفس الوقت ندرس

الحاضر والمستقبل ، لأننا اذا دققنا النظر تبينا الا شيء فى الوجود يتلاشى ويضيع مع الزمن . وفى علم الطبيعة يقولون ان المادة لا تفنى ، اما فى علم التاريخ فنحن نقول الا شيء يزول زوالا تاما . وانما هي الاشياء نفسها تأخذ مع الايام صورا شتى ، فلو انك نظرت الى صورة نفسك وانت طفل رضيع وقارنتها بصورتك فى يومك لهالك الفرق ولحسبت انكما انسانان مختلفان ، والحقيقة ان هذا الطفل هو انت فى صورة اخرى والفرق الذى نراه هو فعل الزمان ، ومن هنا فان الذين ينظرون الى كتاب فى تاريخ مصر القديمة مثلا ويحسبون انه تاريخ مضى وانقضى يخطئون ، لأن شعب مصر القديمة لا زال حيا فى كيان شعب مصر الراهن ، وحضارتها لا زالت قائمة فى الكثير من مظاهر حضارتنا الراهنة ، ونحن العرب أولى من غيرنا بالاحساس بحيوية الماضي ، فان اسماء عمر بن الخطاب ، وعلي بن ابي طالب ، وهارون الرشيد ، وابي بحر عمرو بن عثمان الجاحظ ، اسماء معاصرة تتردد فى اذهاننا وكلامنا كل يوم لأننا نعيش تاريخنا الماضي فعلا . بل ان بعضنا يذهب به الحماس الى درجة انه يؤمن بأنه من الممكن ان نعود الى هذا الماضي فنعيشه كما كان . حقا لقد دخلت الانسانيه كلها طورا من التقدم جديداً من كل ناحية من اوائل القرن التاسع عشر ، وظهرت نتيجة لذلك صور للمجتمع البشرى تختلف كل الاختلاف عن صوره الماضية ، ولكن ليس معنى ذلك ان الماضي قبل ذلك اختفى بحذافيره ، بل لا زال حيا فى كل ناحية من نواحي حياتنا الراهنة ، واذا كنا نحن احفاد من عاشوا قبل القرن التاسع عشر نحمل فى كياننا الكثير من خصائصهم المميزة ، بل لا زلنا نتكلم لغتهم ونؤمن بنفس العقائد التي آمنوا بها ، فان كل معالم حياتنا هي ايضا حفيدة معالم حضارتهم ، وان اختلفت المظاهر لأن الماضي لا يموت ، او قل انه ليس هناك شيء ماض تماما .

ثم اين هو الفاصل بين الماضي والحاضر والمستقبل ؟ انك لا تكاد تفكر فى لحظة « حاضرة » حتى تجد انها قد اصبحت ماضيا فى طرفة عين ، وهذه السطور التي تقرأها الآن ماضية بالنسبة لي ، لأنني كتبتها من زمن ، ولكنها « حاضر » بالنسبة لك لأنك تقرأها اول مرة وهي «مستقبل» لمن سيقرأها فى قابل الايام ، والمسألة هنا مسألة نسبية تختلف من انسان لانسان ، بل يختلف الحكم عليها بحسب اختلاف حالة الانسان نفسه من زمان لزمان ، وقد قالت بهذا مدرسة كاملة من مدارس المؤرخين المعاصرين وهي مدرسة النسبيين . وسنقف عندها فيما بعد وقفة طويلة بعض الشيء .

وعلى هذا فالمؤرخ ليس ذلك الرجل العنيق الطويل اللحية الغارق فى غبار الماضي ولا هو ذلك الشيخ الذى حنت ظهره السنون التي قضاها زاحفا بين الاسفار العتيقة والاضابير المتراكمة فى كهوف المكتبات ، وانما هو على العكس من ذلك تماما ، انه دارس حياة البشر كلها قديمها وحديثها ومستقبلها ، وهو يدرس الماضي ونظره متجه الى المستقبل ، بينما تقف اقدامه ثابتة على ارض الحاضر ، وهو يعتبر تاريخ الانسانية كلها تجربة واحدة بداها آدم وسار فيها اولاده ، وهو يرقبها ويحللها ويستخرج حقائقها لعله يخرج بشيء من الحكمة ينفع الانسانية فى تجاربها الكثيرة . واذن فالمؤرخ ليس مسجل أحداث الماضي فحسب ، بل هو رفيق الانسانية فى حاضرها وهو من قادة الانسانية فى سيرها الطويل نحو الغد .

ومع هذا الجهد الذى يبذله المؤرخ لينير لاخوانه البشر الطريق ــ مثله فى ذلك مثل غيره من اهل العلوم النافعة ــ فقد تعرض المؤرخون دائما للنقد بل للسخرية . وفى ايامنا هذه يلاحظ

بصورة عامه انصراف الكثيرين من اذكياء الشبان عن دراسة التاريخ على اعتبار انها دراسة عقيمة لا يتحقق من ورائها نفع واضح، الا اذا كان الغرض من دراسته الاشتغال فيما بعد بتدريسه في المدارس او التخصص فيه في الجامعات . ومن هنا فانه يلاحظ تضخم اقسام التاريخ في جامعات البلاد الفقيرة لأن ذلك طريق سهل نوعا للحصول على درجة جامعيه تفتح امام صاحبها ابواب التدريس ، وهو عمل مطلوب دائم ومأمون رغم قلة مكاسبه . اما في البلاد الميسورة الحال او الغنية فان الطلاب ذوى الحس التاريخي يتجهون الى دراسة علوم متصلة به ، ولكنها تفتح سبلا اوسع للصعود الاجتماعي كالعلوم السياسية والاجتماع .

ونحن الذين ندرس التاريخ نجد انفسنا في احيان كثيرة مضطرين الى الدفاع عن العلم الذى تخصصنا فيه وتبرير اشتغالنا به ، لأن الكثيرين من الناس لا يزالون مثل **دوق كامبرلاند** الذى مر بالمؤرخ المشهور **ادوارد جبون** وهو غارق في العمل في كتابه عن اضمحلال الدولة الرومانية وسقوطها فقال له ساخرا : ما اراك الا منصرفا ما تزال الى الحرفة القديمة : تنبش ثم تنبش ثم تنبش » (١) .

وقد تصدى **شمس الدين السخاوى** (٨٣١ — ١٤٢٧/٩٠٢ — ١٤٩٧) للرد على خصوم التاريخ في كتابه المعروف « التوبيخ لمن ذم أهل التاريخ » ولكنه هو نفسه لم يعرف كيف ينصفهم، لأن السخاوى لم يكن مؤرخا او صاحب ملكة تعينه على ادراك حقيقة التاريخ ، انما كان السخاوى حافظا اثقل رأسه بحفظ عشرات المجلدات ، فغلبت على ذهنه الملكة الواعية على الملكة المفكرة ، وتلك ظاهرة نلاحظها عند الكثيرين من الحفاظ الذين حولوا اذهانهم الى مكاتب متنقلة وتعطلت عندهم ملكة التفكير والتأمل ، ومن هنا فان مفهومه للتاريخ ضيق جدا بل يخلو تماما من الحس الانساني والحضارى ، فالتاريخ عنده « في الاصطلاح التعريف بالوقت الذى تضبط به الاحوال من مولد الرواة والائمة ووفاة ٍ صحة ٍ وعقل ٍ وبَدَن ٍ ورحلة ٍ وحَجٍّ وحفظ ٍ وضبط ٍ وتدقيق ٍ وتجريح ٍ ، وما اشبه هذا مما مرجعه الفحص عن احوالهم في ابتدائهم وحالهم واستقبالهم ، ويلتحق به ما يتفق في الحوادث والوقائع الجليلة ، من ظهور مُلِمَّة ، وتجديد فرض ، وخليفة ووزير وغزوة وملحمة وحرب وفتح بلد وانتزاعه من متغلب عليه وانتقال دولة . وربما يُتَوَسَّع فيه لِبَدء الخلق وقصص الانبياء ، وغير ذلك من أمور الأمم الماضية ، واحوال القيامة ومقدماتها كما سيأتي ، او دونها كبناء جامع اومدرسة او قنطرة او رصيف او نحوها مما يعم الانتفاع به مما هو شائع مشاهد ، او خَفِيٍّ سماوى كجراد وكسوف وخسوف ، او ارضي كزلزلة وحريق وسيل وطوفان وقحط وطاعون ومَوَتان وغيرها من الآيات العظام والعجائب الجسام . والحاصل انه فن يُبْحث فيه عن وقائع الزمان من حيثيّة التعيين والتوقيت . بل عما كان في العالم » .

وهذا في رأينا اضعف ما يمكن ان يقال في التعريف بالتاريخ ، فهو سقيم سطحي من كل ناحية ، بل ان اسلوبه ردىء غير متماسك .

وفي كلام السخاوى عن « فائدة التاريخ » نجده يحدد افق هذا العلم الى درجة انه يجعله علما فرعيا مساعدا لعلم الحديث وجعل مزيّته الكبرى تحقيق سنوات ميلاد الرواة ووفاتهم حتى

---

(١) So I Suppose you are at the old trade again : Scribble, Scribble, Scribble.

نتأكد من امكانيـــة لقاء بعضـــهم ببعض وروايـــةبعضهم عن بعض . ومدار كلامه فى هذا الشـــأن قول **سفيان الثورى** : لما استعمل الرواة الكذباستعملنا لهم التاريخ .

ثم ذكر السخاوى بعد ذلك فوائد شـــتىتدل على انه هو نفسه كان بعيدا عن ادراك حقيقة التاريخ والالمام بفضـــائله . فهو يرى فيـــه اولامقياسا للتحقق من صحة رواية الناس للاحاديث بعضهم عن بعض . ثم يرى فيـــه ثانيا موضـــعاللعبرة : « وكذا ما يذكر فيه من اخبـــار الملـــوك وسياساتهم ، واسباب مبادىء الدول واقبالها ،ثم سبب انقراضها ، وتدبير اصحاب الجيـــوش والوزراء وما يتصل بذلك من الاحوال التي يتكررمثلهـــا واشباهها فى العالم ، غـــزير النفع كثـــير الفائدة ، بحيث يكـــون مَنْ عَرَفَه كمن عاش الدهر كله ، وجرب الامور باسرها ، وباشر تلك الاحوال بنفسه، فيغزرُ عقله ويصير مجربا غير غرولا غمر ، كما سيأتي فى نظم بعضهم .... وانه ايضا جم الفوائد كثـــير النفع لذوى الهمم العاليةوالقرائح الصافية ، لما جبلت عليـــه طباعهم من الارتياح عند سماعهم هذه الاخبار الى التشـــبهوالاقتداء باربابها . ليصير لهم نصـــيب من حسن الثناء وطيب الذكر الذى حرص عليه خلاصـــةالبشر ، واخبر الله تعالى عن امام الحنفاء الخليل عليه الصلاة والسلام انه قال : « واجعل لي لسان صدق فى الآخرين (الشعراء ٨٤) وامتن على غير واحد من رسله عليهم الصلاة والســـلام بقوله« وتركنا عليه فى الآخرين » (الصافات ٧٨) وعلى خيرته من خلقه عليه افضل الصلاة والسلام بقوله : « ورفعنا لك ذكرك » (الشرح ٤) و « انه لذكر لك ولقومك » (الزخرف ٤٤) .

ولكننا نحمد للسخاوى انه جمع فى « الاعلان والتوبيخ » طائفـــة من احسن ما قال العـــرب فى التاريخ . وكلامهم فى مجموعه لا يخرج عما ذكرناهمن فضائل التاريخ عند كتاب المسلمين وهي انه يساعد على تحقيق تواريخ ميلاد الرواة ووفاتهم ،فيعين هذا على التثبت من صحة رواة الحديث أو عدم صحتهم ، ويقدم لنا مادة نافعة فى تفسيرالقرآن الكريم ، ثم هو الىجانب ذلك حافلبالعبر والمواعـــظ ، اى ان للتاريـــخ فى الجملة فائدتينرئيسيتين : الأولى دينيـــة والاخـــرى تعليمية . وهناك على اى حال اجماع بين قدامى المؤرخينومحدثيهم عن القيمة التعليمية للتاريخ .

ذم التاريخ وأهله

ونحمد للسخاوى ايضا انه اتانا باطراف مماقال خصوم دراسة التاريخ من كتاب المسلمين ، وقد اشرنا الى ما ذهب اليه بعض اهل الغرب منعقم الدراسة الناريخية وقلة جدواها ، ونضيف هنا ان سجل تاريخنا الفكرى لم يخل ممن رأوافى دراسة التاريخ هذا الـــرأى وقالوا فيها (ان غاية فائدتها انما هو القصص والاخبار ، ونهايةمعرفتها الاحاديث والاسمار . ومنهم من نســـب بعضهم الى القصور ، حيـــث لم يتعرض للجرح وضده ، مع كونه اعظم فوائـــده ، ولا على اخبار الائمـــة والزهاد والعلمـــاء الذين بذكرهم تتنزل الرحمة ، ولا على شرح مذاهب الناس مع عموم الحاجة اليه ، بل اقتصر على الحروب والفتوحات ونحوها ، مع أن مَنْ أَنصف يعلم انه ليس من العلم فتح البلد الفلاني فى سنة كذا ، ولا ان عددالجيش كان كذا) .

« ومنهم من نسب المتعرض منهم للتجريحفى الازمان المتأخرة الى ارتكاب المحرم لأنه غيبة ، وان الاخبار المرخص له من اجلها قد دونت ومابقي له فائـــدة ، وممن صرح بهذا **ابـــو عمرو بن المرابط** ، وقـــال ان فائدتـــه انقطعـــت من رأس الاربعمائة ، ودندن هو وغيره ممن لم يتدبر مقاله بعيب المحدثين بذلك ، وصرح بعضهم بأن ما يقعفى كلام جماعة من المتأخرين القائمين بالتاريخ وما

اشبهه كالذهبي ثم شيخنا من ذكر المعائب ــ ولوكان المعاب من اهل الرواية ــ غيبة محضة . ونحوه تعقب**التقي ابن دقيق العيد بن السمعاني**(٢)فى ذكره بعض الشعراء وقدح فيه بقوله : اذا لم يضطر الى القدح فيه للرواية لم يَجُز » .

« ومنهم من نسب بعضهم (اى بعض المؤرخين) الى التقصير والتعصب . حيث لم يستوعب القول فيمن هو منحرف عنهم ، بل يحذف كثيرا من ثناء الناس عليهم ، ويستوفي الكلام فيمن عداهم غير مقتصر عليهم » .

« ومنهم من الحامل له على الذم مجرد الجهل ، فاما الاول ، فلا شك فى تحريم الاقتصار عليه حسبما قررناه ، واما الثاني فقد رواه ابن الاثير بما حاصله انه ظَنّ؛ من اقتصر على القشر دون اللب ، واختصر فلم ينظر ما فيها من الجواهر لما عنده من التعصب . ومن رزقه الله تعالى طبعا سليما وهداه صراطا مستقيما علم ان فوائده كثيرة ومنافعه الدنيوية والاخروية ــ يعني كما قدمنا ــ جمة غزيرة » .

« واما الثالث فليس الاقتصار على ما ذكر نقص ، فالمؤرخون مقاصدهم مختلفة ، فمنهم من اقتصر على ذكر الابتداء ، او على الملوك والخلفاء ، واهل الأثر يؤثرون ذكر العلماء والزهاد ويحيون احاديث الصلحاء ، وارباب الأدب يميلون الى اهل العربية والشعراء » .

« ومعلوم ان الكل مطلوب والجميع محبوب وفيه مرغوب ، وكل من التزم شيئا فالغالب عدم خروجه عن موضوعه وان لم يمكنه الاستيفاء لمجموعه ، والسعيد من جمعه فى ديوان وأودعه من غير كبير خلل ولا نقصان والكمال لله » .

« واما الرابع فقد اجبناهم بأن الملحوظ فى تسويغ ذلك كونه نصيحة ولا انحصار لها فى الرواية (٣) . فقد ذكروا من الاماكن التي يجوز فيها ذكر المرء بما يكره ولا يعد ذلك غيبة ، بل هو نصيحة واجبة ان تكون للمذكور ولاية لا يقوم بها على وجهها ، اما بأن لا يكون صالحا لها ، واما بأن يكون فاسقا او مغفلا او نحو ذلك ، فيذكر ليزال بغيره ممن يصلح ، او يكون مبتدعا من المتصوفة وغيرهم ، او فاسقا ويرى (٤) من يتردد اليه للعلم او للارشاد ويخاف عليه عود الضرر من قِبَله ، فيعلمه ببيان حاله . ويلتحق بذلك المتساهل فى الفتوى او التصنيف او الاحكام او الشهادات او النقل او الوعظ حيث يذكر الاكاذيب وما (لا) أصل له على رؤوس العوام ، او المتساهل

---

(٢) فى الاصل الذى نشره د . الصالح العلي ورد لفظ ابن بدون الف مما يفهم منه ان تقي الدين بن دقيق العيد انكر على ابن السمعاني وهو غير صحيح . والصحيح كما اعتقد ان تقي الدين بن دقيق العيد انكر على ابن السمعاني قدحه لبعض الشعراء ويرى ان هذا القدح لا يجوز ، لان القدح لا يجوز الا اذا كان نقدا لرواية من رواة الحديث غير الموثوق فيهم .

(٣) يريد ان يقول انه بين ان المهم فى اباحة نقد الناس وتجريحهم ان يكون ذلك على سبيل النصيحة والتحذير والتنبيه ، لا ان يكون مجرد ذم وتجريح ، ومواطن النصيحة فيما يتعلق برواية الاحاديث كثيرة لا تحصر .

(٤) الفاعل هنا هو المؤرخ .

* ساقطة من الاصل والسياق لا يستقيم بدونها .

فى ذكر العلماء او فى الرشى او الارتشاء ، امابتعاطيه له او باقراره عليه مع قدرته على منعه ، او اكل اموال الناس بالحيلة والافتراء ، اوالغاصب لكتب العلم من اربابها او من المساجد بحيث تصير ملكا ، فضلا عن الاوقاف التي لاحقيقة للمسوغ فيها ، او غير ذلك من المحرمات . فكل ذلك جائز او واجب ذكره ليتحذر ضرره . وبهذا ظهر أن الجرح لم ينقطع ، وانه والحالة هذه من النصيحة الواجبة المناب فاعلها ، وقد قال من لم يشك فى ورعه **الامام احمد لأبي تراب النخشبي** حين عزله علي (٥) الجرح بقوله « لا تقتب الناس ويحك » : هده نصيحة وليست غيبة » (٦) .

ولا ينبغي ان تطول دهشتنا من طول وقوف السخاوى عند موضوع الغيبة ، لأن نقد رجال الحديث الى رواته وهو المسمى بالجرح والتعديل كان يقوم على اصدار احكام على الرواة ، فهذا صدوق وهذا عدل او من اهل الضبط والتحرى ، وذاك كذاب او مدلس او فاسق او ضعيف او متروك . وكانوا قليلا ما يمتدحون أحدا ، الكثير من كلامهم نقد وتجريح واتهام لاسباب شخصية فى الغالب . وقل من سلم من لسانهم ، ولهذا ذهب اهل الصادق منهم الى تحريم مثل هذا التجريح للناس وقالوا انه غيبة ، واباحه بعضهم كما رأيناها على انها نصيحة . والامر فى ذلك مقتصر على اهل الحديث ، ورواة الاخبار المتعلقة بالسيرة والصحابة ، ومن هنا فهو لا ينطبق على المؤرخين عامة ، ولا يمكن بداهة ان يرمى المؤرخ بالغيبة لأنه نقد هارون الرشيد او المأمون او ابن طولون او نابليون فذلك موضوع آخر يختلف تماما عما كان يدور فى اذهان السخاوى وامثاله من الشيوخ .

وقد كتب فى علم التاريخ وفوائده كثيرون من المسلمين ، ومعظم كلامهم يجيء فى فواتح كتبهم على سبيل التمهيد او على سبيل تبرير اشتغالهم بالتأليف فى هذا العلم أو اعتذارهم عن انفاق الوقت فيه ، اذ كان التاريخ فى حسابهم من « الفنون » اى العلوم الفرعية او الثانوية المحدودة النفع ، ومن ثم فلا محل لانفاق الوقت فيها فيما خلا ما يمكن ان ينفع المحدث او مفسر القرآن من تفاصيل تاريخية . ولكن كل كلامهم فى تعريف التاريخ او مفهومه او فوائده او تقسيمه لا يخرج عما اورده السخاوى ، وهو كلام ، كما رأينا ، بعيد عن ادراك حقيقة هذا العلم او موضوعه او مقاصده كما نراها اليوم ، ولكنه كلام يتفق مع عقلية العصور التي كتبت فيها ومفهوم العلم كله فى نظر اهلها ، ونستثني من ذلك ابن خلدون ، فقد كان بالفعل مفكرا سابقا لأوانه ، وعالما من طراز نادر فى تلك العصور .

ضرورة الدراسة التاريخية واهميتها وفوائدها

من اواخر القرن الثامن عشر كثر فى الغرب التأليف فى علم التاريخ وموضوعه ومناهجه وتفسيراته ومذاهبه . وظهرت من ذلك الحين نظريات وآراء كثيرة جدا فى هذه الموضوعات . وسنعرض لأهم هذه النظريات والآراء فى فقرة خاصة من هذا البحث . ولكنني اورد هنا ترجمة

---

(٥) الاصل : عن ، والسياق يقضي ابدالها بعلى .

(٦) شمس الدين السخاوى ، « الاعلان بالتوبيخ لمن ذم اهل التاريخ » نشره ضمن ترجمته العظيمة القيمة لكتاب تاريخ التاريخ عند المسلمين . وقد أتى د . صالح العلي فى ترجمته بكل النصوص التي رجع اليها المؤلف وهو فرانس روزنتال . ص ٤٦٢ .

لفقرة من أهم ففرات دراسة جامعية مختصرةضمنها المؤرخ الانجليزى **آرثر مارفيك** Arthur Marvic فى كتابه المسمى « طبيعة التاريخ The Nature of History (٧) وهو من الكتب الدراسية الجامعية المعتمدة Text-Books الواسعة الانتشار فى جامعات اوروبا وامريكا وهو يمتاز بالايجاز والشمول والوضوح . والفقرةتتناول ضرورة الدراسة التاريخية واهميتها . قال بعد تمهيد صغير (ص ١٤ وما يليها) : « واذن فالتبرير الاساسي للدراسة التاريخية هو انها ضرورية . فهي تسد حاجة غريزة انسانيةأساسية تفى بحاجة اصيلة من حاجات البشر الذين يعيشون فى المجتمع » .

« وضرورة التاريخ لها وجهان ، فالتاريخيقوم للانسان والجماعة البشرية بوظيفة فعلية functional بمعنى انه يسد حاجة المجتمع الىمعرفة نفسه ورغبته فى ان يفهم علاقته بالماضي وعلاقته بالمجتمعات الأخرى وثقافاتها ، وهو — اىالتاريخ — شاعرى او عاطفي Poetic بمعنى ان كل فرد تقريبا يضم فى كيانه تطلعا مركبا فى طبعهوشعورا بالعجب من أمر الماضي ، وهذا التطلع هو وعي عبَّر عنه **جورج ماكولي تريفيليان** George Macauly Trevelian بقوله : « انه وعي الى حقيقة كأنها عجيبة وهي انه فى وقت مامشى قبلنا على ظهر الارض رجال ونساء ، ناس حقيقيون مثلنا اليوم ، تشغل اذهانهم افكارهمالخاصة بهم وتحركهم عواطفهم الخاصة بهم ، وان هؤلاء الناس قد مضوا جميعا الى سبيلهم ،واختفى جيل منهم فى اثر جيل وانتهوا تماما كما سنختفي نحن ايضا فى القريب كما لو كنا اشباحافى ظلام الغسق » . ففي اعماق الخيال الانساني ترقد رغبة غريزية فى تحطيم حواجز الزمن والموتومدّ حدود الوعي الانساني بهذه الطريقة الى ما وراء عمر الانسان الواحد (٨) . وهذه الغريزةشبيهة بهذا الشعور الذى يملأ نفس الانسان فى ايام الخريف عندما يحس برائحة دخان الخشبتملأ الهواء من حوله ، وعندما يجتاح الذهن شوق غريب مضطرب ، وهذه الغريزة شبيهة ايضابالأحاسيس التي يثيرها فى النفس رنين اجراس الكنائس فى صباح يوم أحَدٍ ساكن (٩) .

« وسواء أكان المؤرخ يهتم اكثر بالناحيةالشاعرية او العملية من التاريخ فانه يخدم حاجة انسانية ، واذا هو قال — كما لا يزال الكثيرون منالمؤرخين يقولون — انهم انما يدرسون الماضي لذاته فهو اما ان يكون مؤرخا جيدا يؤمن من زمنطويل بالحاجة الواضحة لدراسة التاريخ ايمانا كاملا ، وسلّم بها كما هي ، أو يكون مؤرخا سيئامن طراز خاص . وحال المؤرخ فى هذا شبيهة

---

(٧) طبعاته الزهيدة الثمن كثيرة اهمها طبعة دارماكميلان ودار بنجوين ، ونحن نتابع هنا طبعة ماكميلان سنة ١٩٧٠ .

(٨) May Mackisack, History as Eudcuation (1956), p. 10.

(٩) G. J. Renier, History, its purpose and method (1950) p. 29.

والتشبيهان يشيران الى تطلع الانسان الى تعرف ما حولهواحساسه وهو فى وحدته بان هناك اناسا كثيرين يعيشون بعيدا عنه دون ان يراهم ، وهم الذين يوقدون النار فينبعثمنها الدخان الذى يصل اليه ، وهم الذين يدقون اجراس الكنائس فتترامى اليه اصواتها وهو قابع فى بيته . هذهالاحاسيس تشبه احاسيس الانسان نحو الاجيال الماضية التي ذهبت وخلفت آثارها . وهذه الآثار تثير فى نفسه التطلع الىمعرفة اخبارها وما فعلت .

بحال الفنان ، ففي احيان كثيرة تتجلى لنا الحقيقة التي تقول بأنه على قدر ما يقل شعور المؤرخ باهميته في المجتمع تزداد قدرته على القيام بواجبه كمؤرخ ، وهو شبيه بالفنان في انه يكون فنانا حقا عندما يترك جانبا الاهتمام الظاهر بالغايات التي يتوخاها من وراء عمله . فان المجتمع يحتاج الى التاريخ لا الى المؤرخ ، والمؤرخ الذى يحس اكثر مما يجب بحاجة المجتمع اليه قد يكتب (نتيجة لهذا) تاريخا سيئا ، لأنه على الرغم من ان التاريخ له ذلك العنصر الاجتماعي القوى الخاص به الذى يعتبر تبريرا لوجوده فانه يشترك مع غيره من العلوم الانسانية في انه جزء من الهجوم العام الذى يقوم به الانسان على المجهول الذى لم يكشف النقاب عنه بعد . والمؤرخ شريك في صراع الانسان ليفهم بيئته من النواحي الطبيعية والزمنية والاجتماعية . فالتاريخ اذن ــ بالاضافة الى المبررات الأساسية لدراسته والخاصة بهذه الدراسة ــ له نصيب في المبرر العام لكل نشاط ذهني يرمي الى توسيع آفاق العلم الانساني (وليس من الضروري ان يكون هذا الدافع الى دراسة التاريخ اقوى من الدوافع التي يمكن ذكرها فيما يتصل بميادين اخرى من الجهد الانساني) .

« وما ذكرناه هنا ان هو الا تبرير بدائي جدا لدراسة التاريخ ، وهو ليس التبرير الذى يقدَّم دائما او في غالب الحالات ، ولكن قبل ان نحاول ان ندلل على ان كل التفسيرات الاخرى هي في صميمها تفسيرات فرعية او مصاحبة للتبرير الاساسي قد يكون من المفيد ان نذكر هنا تحديدا او تحديدين ، فان لفظ التاريخ يستعمل عادة في ثلاثة مستويات من المعاني : الاول : ان التاريخ يمكن ان يعرفنا (**بماضي البشر كله كما حدث**) . ولا شك ان الحياة تكون ابسط اذا نحن استطعنا ان ندع هذا التعبير جانبا ونأخذ بدلا منه لفظ ((**الماضي**)) الذى يحمل في طياته اكثر من معنى . ولكن اللغة ملك للجميع ، وهي احيانا تفهم فهما خاطئا او يستعملها الناس استعمالا سيئا ، ولكن لا يمكن ان يكون استعمالها وتفسيرها تحت رحمة جماعة الاكاديميين المتحذلقين (١٠) . وحتى اولئك العلماء الذين اعلنوا على الملأ انهم كفوا عن استعمال لفظ التاريخ في هذا المعنى سيجدون انفسهم في مرحلة ما من مراحل عملهم يخونون انفسهم ، لأنه من العسير جدا ان يتجنب الانسان استعمال عبارات ثقيلة الوزن مثل قولنا : ليس التاريخ من عمل شخصيات الأبطال أو « لقد حان الوقت لأن نتخذ من التاريخ ذخرا » .

« والاستعمال الثاني والاكثر فائدة هو ان التاريخ يعني ايضا محاولة الانسان وصف الماضي وتفسيره ، وهو ــ كما قال الاستاذ **باراكلاف** Barraclough ــ « المحاولة التي تبذل للكشف عن الاشياء المهمة في الماضي على أساس من شواهد جزئية ماضية » . وهذا هو التاريخ الذى نعنيه عندما نتحدث عن التاريخ كضرورة اجتماعية اوعن التاريخ كصناعة (١١) وهذا هو اقرب المعاني الى المفهوم الاصلي للفظ التاريخ عند الاغريق وهو « الاستعلام أو الاستفهام . وواضح ان بعض محاولات الكشف او الاستعلام اكثر توفيقا من غيرها ، وقد أعطت بعض عصور التاريخ اهمية لمسائل نضعها نحن الآن في نطاق الخرافات والاساطير او نجعلها موضع مناقشة . اننا نستطيع

---

(١٠) يريد ان المؤرخ لا يستطيع في كثير من الاحيان مغالبة التحذلق والادعاء بانه يعالج بعلم التاريخ قضايا خطيرة مثل اهمية الابطال في صناعة التاريخ او ان الاوان قد آن ليتبين الناس ان التاريخ كنز من كنوز المعارف .

(١١) بالانجليزية history being an industry **وسنتحدث عن هذه النقطة فيما بعد .**

ان نستمتع او نستفيد من مؤلفات تاريخية ظهرت على طول تاريخ النشاط الادبي الانساني مثل مؤلفات **توكيديد** Thucydides (١٢) **او سوما-تشيين** Ssuma Chien (١٣) **او بيد** Adam Bede (١٤) او **ماكيافيلي** Machiavelli (١٥) ، ولكننا ينبغي ان نلاحظ ان الدراسة المنهجية للتاريخ ، اى دراسة التاريخ كعلم discipline **(وهذا هو الاستعمال الثالث للتاريخ)** ظاهرة حديثة تقررت فى جامعات غرب اوروبا وشمال امريكا فى القرن التاسع عشر فقط متأخرة بذلك تأخرا كبيرا عن دراسات الفلسفة واللغات القديمة والرياضيات والعلوم الطبيعية (١٦) . وفى كتابنا هذا سنهتم بصورة خاصة بتطور الدراسات التاريخية الحديثة ، ولكننا سنتعرض لموضوع هام وعسير ومثير للجدل فى نفس الوقت هو موضوع النزاع بين من يعتبرون التاريخ علما اكاديميا — يميل الى التعالم والتفيهق فى احيان كثيرة — . والقائلين بأن التاريخ انما هو وجه اساسي من وجوه التجربة الانسانية » .

« وما دمنا قد عرضنا بالمعاني الثلاثة التي يستعمل التاريخ فيها فان الوجوه الثلاثة التي يستعمل فيها لفظ « التاريخ » لا تبدو غير ذات معنى كما قد يظن ولو انه ربما بدا محيرا فى بعض الاحيان .. » .

---

(١٢) يمكن كتابة اسمه ايضا توسيديد بحسب النطق الفرنسي لحرف C اليوناني واللاتيني . هو اكبر المؤرخين اليونان وقد عاش فى النصف الثاني من القرن الخامس قبل الميلاد وهو مشهور بالتاريخ الذى كتبه للحروب البلوبونيزية التي شبت بين الدويلات الاغريقية على ايامه ، وقد بدأت سنة ٤٣١ ق . م . وكانت السن قد تقدمت به اذ ذاك فتنبه الى اهميتها وتوقع ان تكون طويلة المدى وشرع فى كتابتها . وترجع اهمية كتاب توكيديد الى انه يصف الحرب التي شنتها اثينا وحلفائها ضد اسبرطة التي كانت تسود بلاد الاغريق الى ذلك الحين بفضل تفوقها العسكرى وتمكنها من انقاذ بلاد اليونان من اجتياح الفرس اياها وانتصار اثينا وديموقراطيتها بفضل رجال من امثال بيريكليس وديموستين . والكتاب حافل بالملاحظات ذات العمق والصدق ولهذا يعد توكيديد تاليا لهيرودوت فى انشاء علم التاريخ عند الغربيين .

(١٣) صو ما — شيان Ssu-Ma Chien ولد فيما بين ١٤٥ و ١٣٥ ق . م . وتوفي ٩٠ ق . م . اكبر المؤرخين الصينيين القدماء وهو مشهور بكتابه المسمى شيه — تشي Shih-Chi اى سجلات المؤرخ وقد اتمه بعضهم بعد وفاته فى سنة ١٠٠ ق . م . وقد عاش فى بلاط الامبراطور «دو» من اسرة هان Han وكتابه يغطي ٢٠٠٠ سنة من تاريخ الصين من بدايته الى حياة المؤلف وقد جرؤ صو — ما فى اواخر ايامه على الدفاع عن قائد مغضوب عليه فعاقبه الامبراطور بخصائه . وكانت عادة الناس ان من جرى عليه هذا العقاب الشنيع ينتحر بعده ، ولكن صو ما فضل الحياة على الموت حتى يفرغ من تاريخه . وهو يهتم اهتماما خاصا بتراجم الرجال وما أثر عنهم من الاعمال والاقوال الحكيمة .

(١٤) آدم بيد Adam Bede ليس من المؤكد ان اسمه آدم ، ولقبه يكتب احيانا Baeda او Beda وهو راهب انجليزى عاش فيما بين سنتي ٦٧٢ (او ٦٧٣) و ٧٣٥ وكتب باللاتينية كتابا فى التاريخ الكنسي للشعب الانجليزى Historia Ecclesiastica Gents Anglorum وهو من اقدم المؤلفات فى تاريخ انجلترا ولهذا يلقب بيد بابي التاريخ الانجليزى ، وهو من اوائل العلماء فى التاريخ الانجليزى كله وله فضل كبير فى نشر المذهب الكاثوليكي فى الجزر البريطانية .

(١٥) هو نيقولو مكيافيلي Niccolo Machiavelli (١٤٦٩ — ١٥٢٧) مفكر وفيلسوف سياسي ايطالي من اهل فلورنسا ، وهو مشهور بكتابه المسمى « الامير » الذى يرشد الامراء فيه الى اسرار السياسة ، والسياسة عنده انتهازية لا ضمير لها ولا اخلاق فيها ، وقد وصف مكيافيلي بانه خبيث وصولي مع انه فى الحقيقة كان رجلا سليم الطوية ، ودليل ذلك انه فشل فى ميدان السياسة ولم يصل الى شيء يذكر .

(١٦) الحكم هنا ينصب فقط على الغرب اما بالنسبة للعرب فان التاريخ كعلم كان مقررا ومعترفا به وكان يدرس ويدرس منذ القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى لضرورته لتفسير القرآن والحديث ومعرفة رجال السند .

« وعندما نتحدث عن فلسفة التاريخ تطفرامامنا صعوبات اخرى متصلة بالتحديد او التعريف . وهذا الاصطلاح « فلسفة التاريخ »يمكن ان تكون له ثلاثة معان رئيسية .

فاما المعنى الاول فهو ان فلسفة التاريخ تعني بالنظريات العالية المستوى الخاصة بالتيارات التحتية او القوى الاساسية للتاريخ باعتباره حقيقة موضوعيه (هي الماضي) .

« وهناك معنى ادنى من ذلك لفلسفة التاريخ وهي انها تصف لنا النظرة العامة الاساسية والمفهومات الاساسية ايضا التي يأتي بها مؤرخ اوتأتي بها مدرسة من المؤرخين متعلقة بالمشاكل التاريخية التي يعالجونها متضمنة النظريات الخاصة بتعليل الحوادث أو مفهوم التقدم وما الى ذلك » .

« واخيرا من الممكن ان يستعمل مصطلح فلسفة التاريخ مرادفا على وجه التقريب للمنهج التاريخي historical methodology اى العملية الفعلية التى يسلك المؤرخ فى شعابها » .

وحيث اننا لا نستطيع من الناحية العملية ان نقول : « ان هذه الكلمة سيكون لها هذا المعنى ولا معنى غيره » فانه من المهم دائما ان نتأكد من المعنى الذى نريده ونميزه عن غيره . ومن سوء الحظ ان كثيرا من المصطلحات التي تستعمل فى علم اصول التاريخ او مراجعه المسمى باسم historiography او فى الصور المختلفة لفلسفة التاريخ مصطلحات مبهمة يحمل الواحد منها اكثر من معنى . ومن الامثلة البينة لذلك هذا المصطلح الهجين historicism (بالعربية : الفكر التاريخي) وقد نشأ هذا المصطلح فى المانيا Historismus اشتقاقا من اللفظ الايطالي storicicmo وسنحاول فيما بعد ان نقدم مصطلحات بديلة له ولكن خيرما نفعله به الآن هو ان نتجنب استعماله » .

« ويذهب نفر قليل من المؤرخين الى ان الدراسة التاريخية ينبغي ان تطلب لذاتها ، ولما تبعثه فى النفس من متعة ، وليس فى ذلك غرابة فقد قال الرياضيون وعلماء الكيمياء الحيوية والمثالون ذلك عن ميادين نشاطهم ، ويمكن من ناحية ان تعتبر مسألة المتعة فى الدراسة التاريخية تابعة للنقطة الاساسية المتعلقة بشوق الانسان الغريزى الى التاريخ ، وهو شوق يحس به فى اقوى صورة طالب التاريخ الملتزم به (سواء كان محترفا او غير محترف) ومن ناحية اخرى يمكن ربط هذه المتعة بالمبدأ القائل بأن الشيء الذى يعطي المتعة للفرد يمكن ان يكون مفيدا من الناحية الاجتماعية اى مفيدا للجماعة . وقد لجأ عدد قليل جدا من المؤرخين عندما ارهقهم التساؤل عن فائدة التاريخ الى انكار وجود اى فائدة فى دراسته . ولكننا اذا تمسكنا بالرأى القائل بأن التاريخ يدرس لذاته كما ان المعرفة تطلب لذاتها فاننا فى هذه الحالة نكون قد قلنا كل شيء أو لم نقل شيئا على الاطلاق . فان المعرفة اذا لم تنتقل من انسان الى انسان فان دراسة التاريخ لا تكون لها فائدة البتة (١٧) اما اذا نقل العلم من انسان الى انسان فان ذلك يحقق هدفا انسانيا واجتماعيا . وعلينا ان نقارن ونقابل بين الخدمة التي يؤديها التاريخ وما تؤديه الفروع الاخرى من النشاط الفكرى . وعندما يقوم اهل التاريخ بتلك المقارنة فانهم يهتمون بابراز الناحية التعليمية من التاريخ كوسيلة لتمرين الذهن او كدليل عملي على تشابه مشاكل المجتمع الانساني ومعضلات

(١٧) اى اننا اذا كنا ندرس العلم لذاته ونطلب المعرفة ارضاء لنفوسنا فحسب دون ان نعنى بنقل ما نتعلم الى الناس فان دراسة التاريخ تظل قصرا على اصحابها ولايتأتى منها اي نفع للآخرين .

السياسة . والمشكلة فيما يتعلق بالقول بأن الاشتغال بالتاريخ فيه تمرين للذهن هو انه يتوقف كثيرا على درجة الحزم او التركيز التي يلتزمها القائم بالدراسة التاريخية ، ثم انه يصعب تطبيقه على اولئك الذين لم تسبق لهم الا معرفة عابرة بمؤلف او مؤلفين من المؤلفات الكبرى في التاريخ» .

« ان من يقوم بدراسة تاريخية مركزة مكثفة سيجد دون شك ان ذهنه قد تحسن بذلك . وفيما يتعلق بالحالة الخاصة للتاريخ فمن المعروف الشائع ان دراسته احسن صور التعليم الحر . وقد تعرضت هذه العبارة للمبالغات من جانب من يتناولون التاريخ على سبيل الهواية . والمتسفلين بالادب التافه ، وذلك لا مبرر له ولا معنى على الاطلاق ، اما اذا اريد من وراء دراسة التاريخ ان نفهم الانسان من شتى نواحيه المختلفة فان دراسة التاريخ تصبح عنصرا مصاحبا او مكملا لرأى الذين يبررون دراسة التاريخ فانها وسيلة ضرورية لتذكر تجارب الناس والجماعات الماضية على نحو يعين الفرد والجماعة على توجيه جهوده وجهودها توجيها سليما وسط تيارات الحياة الانسانية المتضاربة . ولقد اتخذ الناس اساليب شتى فى تصوير هذه الحقيقة ، فقيل ان التاريخ رحلة فى الزمان تزيد فى معارف الانسان وتوسيع افقه كما هو الحال فى الرحلات الاخرى ، وكان من القائلين بهذا **و . هـ . وولش** W. H. Walsh الذى قال مرة ان من وظائف التاريخ الكبرى هو انه يعرف الناس بزمانهم عن طريق رؤيته مقارنا بزمان آخر . وقال المؤرخان الفرنسيان **لانجلوا وزينوبوس** Seignobos, Langlois « ان التاريخ يعرفنا بالاختلاف فى صور المجتمعات ويشفينا من مرض الخوف من التغيير » .

« اما القول بأن التاريخ دليل عملي للجماعات للسير فى مجاهل التجربة الانسانية فهو استمرار واكمال لنظرية القائلين بأن التاريخ مدرسة للبشر ، وانه اذا كان البشر يشعرون بالرغبة فى معرفة ماضيهم للاسترشاد به فان قادتهم ومديرى امورهم أحوج الى ذلك . وقد ادى هذا الرأى بكثير من المؤرخين الى قول اشياء بالغة السخف فى تعظيم فائدة التاريخ وكما ان هناك من ينكرون انكارا تاما فائدة التاريخ ، فان فائدته ووظيفته الاجتماعية وجدت فى السنوات الاخيرة من يبالغ فيها ، ولكن المؤرخ المحدث المعتدل فى تفكيره الذى يزن ما يقول وزنا جيدا يكتفي بترديد ما قاله الاستاذ **ستراير** Strayer من ان « دراسة التاريخ تعين الانسان على مواجهة المواقف الجديدة لا لانها تقدم له اساسا للتنبؤ بما سيكون ، ولكن لأن الفهم الكامل للسلوك الانساني فى الماضي يتيح الفرصة للعثور على عناصر مشتركة بين مشاكل الحاضر والمستقبل مما يجعل حلها حلا ذكيا امرا ممكنا . وليس معنى هذا ان دراسة التاريخ الحديث وحده هى التى تعود على الانسان بالفائدة بالنسبة للحاضر والمستقبل ، لأن التاريخ كله مادة واحدة . ودراسة قديمه لا تقل فائدة عن دراسة حديثه ، فكلها جوانب من التجربة الانسانية المتعددة الصور . فمع ان التاريخ لم يكن يدرس فى جامعات العصور الوسطى الا انه كان دائما معتبرا موضوعا اساسيا فى تعليم الامراء ورجال الدين ، ولهؤلاء ــ ولهذا الغرض ــ الف الاسقف **بوسويه** Bossuet تاريخه للعالم الذى سماه : Discours sur l'histoire universell سنة ١٦٧٩ » .

وقد قال الاستاذ **ستيورات هيوز** ان التاريخ كان يعد نفسه دائما « علما شاملا وعلما وسيطا » ، وقد كان التاريخ فى الماضي يربط الشعر بالفلسفة ، وهو اليوم يربط الادب بعلم الاجتماع . وربما يكون المؤرخون قد اغضبوا غيرهم احيانا بالمبالغة فى الدور التحليلي الذى يقوم به علمهم . ولكن سواء استطاع التاريخ ان يقوم بدوره كوسيط ام لم يستطع ، فان التاريخ لا يستطيع ان يتخلص من دوره كعلم وسيط ، ومادام لكل شيء تاريخه فان التاريخ كعلم يشمل كل

شيء ، حتى الكاتب الصغير الذى يدرس مبادىءالتأمين يجد نفسه يدرس الى حد ما تاريخ التأمين . والتاريخ يكوّن جزءا من عمل الناقدالادبي وجزءا من عمل دارس العلوم الذى يدرس تطور علمه . واذن فالتاريخ يصبح ميدان التقاءكثير من العلوم وهذا هو ما يجعل التاريخ دراسة فاتنة ، ومع ذلك فان كل ما نفعله الآن هو ان نجيد صياغة مبررات دراسة التاريخ : ان الانسان ينبغي ان يعرف ماضيه ولهذا فعليه ان يقف علىما يضمه الماضي من غنى وتنوع لا حد لهما سواء فى الفن والعلم والتنظيم الاجتماعي والسياسة . هذا الغنى وذلك التنوع هما فى الحقيقة مادة التاريخ » (١٨) الى هنا ينتهي كلام **آرثر مارفيك** .

التاريخ حوار بين الماضي والحاضر

يقول كثير من العلماء ان كل عصر ينبغيان يكتب التاريخ من وجهة نظره لأن تقدير كل عصر لما هو مهم وذو معنى بالنسبة له يختلف عنتقدير العصر الآخر ، وكل عصر كذلك يحاول ان يرى الماضي من خلال اهتماماته والافكار السائدة فيه ، و من هنا قال كثيرون من المؤرخين ان التاريخ حوار بين الحاضر والماضي ، وهذا فىذاته يكشف لنا عن جانب من جوانب المتعة فى الدراسة التاريخية، فان التاريخ بطبعه ـ كدراسةللانسان واعماله تتأثر صورته التي يراها المؤرخ تأثرا واضحا بالاحوال المادية والمعنوية فى الوسط الذى كتبت فيه ، وليس فى هذا عيب او مأخذ على التاريخ ، فكل العلوم الاجتماعية تخضع لهذاالتأثر ، وصورة المتنبي كما يرسمها مؤرخ أدب فى القرن الثامن عشر مثلا تختلف عن صورته كمايرسمها مؤرخ ادب اليوم ، وكذلك الحال مع الدولة الاموية مثلا فان تصوير الجاحظ لهايختلف تماما عن تصويرنا نحن لها . بل ان نظريات العلوم الرياضية والدقيقة والطبيعيةكثيرا ما تكون وليدة الظروف التي احاطت بمن ابتكروها ولفتت انظارهم اليها ، فلولا ان **توماس مالتوس** Thomas Malthus قد عاش فى عصر انفجار سكاني لما تنبه الى ظاهرة زيادة السكان ولما ابتكر نظريته المشهورة فى العلاقة ـ او بتعبير أدق ـ انعدام العلاقة بين زيادة الموارد وزيادةالسكان ، ولولا نظرية مالتوس هذه لما توصل تشارلس داروين الى ضبط نظريته عن « صراع البقاء » ، واعتقد ان احدا لا يناقش فى ان سنوات الحروب تكون فى الغالب سنوات اسراعفىالاختراع والابتكار ، لأن ظروف الخطر ورغبة الجماعات فى النصر والتخلص من الاخطار تشحذ القرائح الىابعد حد . وليس هناك عالم رياضي او طبيعي الا

---

(١٨) انظر : Robert V. Daniels, Studying History. How and Why, 1966.

Richard Pares, The Historian's Business (1961) p. 5.

Robert K. Merton, Social Theory and Social Structure (1957) p. 16.

C. L. N. Brooke, The Dullness of the Past. 1957.

May Mackisack, History as Education (1956) p. 10.

G. J. Renier, History, its purpose and method (1950) p. 29.

Geoffrey Barraclough, History in a Changing World (1955) p. 29-30.

Marra Komarovsky, Common Frontiers of the Social Sciences (1957) p. 264.

H. Stewart Hughes. The Historian and the Social Scientist in American Historical Review, LXVI (1960) p. 46.

وهو متأثر الى حد بعيد فى آرائه بالظروف المحيطة به . والعالم الذى ينكر اما مخطىء او مخادع لنفسه ، واذن فلماذا يُوجّه اللوم الى التاريخ وحده ويقال انه يتأثر دائما بعصر المؤرخ وظروفه ومزاجه ؟

ومن الواضح ان اهتمامات المؤرخين فى عصر ما تختلف عن اهتماماتهم فى عصر آخر ، ومن ادلة ذلك ان الاهتمام بالسيرة النبوية وشرحها وتفصيلها عندنا نشط جدا فى القرنين السادس والسابع الهجريين، لأن توالي الاخطار على المجموعة الاسلامية دفع المؤرخين المسلمين الى الارتداد الى سيرة النبي صلى الله عليه وسلم يلتمسون فيها الحل او المخرج او لمجرد تقوية الروح المعنوية ، **فظهرت كتب مثل الاكتفاء فى مغازى رسول الله ، والثلاثة الخلفاء لأبي الربيع سليمان بن موسى الكلاعي الاندلسي ، وتاريخ الخميس للديار بكرى ، ودلائل النبوة للبيهقي ، ودلائل النبوة لأبي نعيم ، و ((الروض الأنف)) فى شرح سيرة ابن هشام لأبى زيد عبد الرحمن السهيلي ، و ((شرح السيرة)) لأبي ذر الخشني و ((شرح المواهب اللدنية))للزرقاني و ((الدرر فى اختصار المغازى)) والسير لابن عبد البر و ((الشفا فى التعريف بحقوق المصطفى)) للقاضي عياض بن موسى السبتي و ((عيون الاثر)) لابن سيد الناس و ((كنوز الحقائق)) للمناوى ، وكلها كتب فى سيرة الرسول، وليس من المصادفة ظهورها كلها فى هذه الفترة التي توالت فيها الاخطار على المجموعة الاسلامية.**

ومن الملاحظ ان اهتمام الناس فى الغرب بدراسة التاريخ واجتهاد الكثيرين من العلماء فى تحويل هذه الدراسة الى علم مستقل مستكمل لاشراط العلوم نبع الى حد ما من قيام القوميات والدول الكبرى فى اوروبا خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وواضح أن الاجيال التي قامت بانشاء هذه الدول والامبراطوريات شعرت بالحاجة الى معرفة الماضي ربما لتستنير به ، اذ لا شك فى ان معرفتك بما قطعت من الطريق تعينك على معرفة الباقي ، ومن هنا اخذ **نيبوهر ورافكه وبوركهارت** وغيرهم اهميتهم كمؤرخين واهتمت الدول بتيسير عملهم ففتحت لهم دور المحفوظات لكي يستخرجوا ما يستطيعون من حقائق الماضى. وهذا يؤكد لنا الحقيقة التي لا زال الكثيرون يجادلون فيها ، وهي ان الماضي لا يدرس لذاته بل للحاضر والمستقبل ، وان كتابة التاريخ انما هى صورة من الحوار الذى لن يتوقف بين عصرنا والعصور التي سبقته . ومن المؤكد على اى حال أن المؤرخ مهما بلغ تجرده لا يستطيع التخلص من روح عصره . وفى بعض الاحيان نشعر أن المؤرخ يبحث عن حاضره فى الماضى الذى يدرسه ، فاجتهاد رافكه فى دراسة تاريخ الرومان راجع الى ايمانه العميق بالدولة البروسية التي كان يخدمها ورغبته فى التماس الأدلة على صواب رأيه المحافظ بقوة الدولة فى صفحات تاريخ روما فى ازهى عصورها عندما كانت الدولة الرومانية تهيمن على كل شيء .

وبديهي ان اى مؤرخ ذكي يتحرى دائما ان يكتب ما يكتب من التاريخ على صورة تنفع معاصريه او تكون ذات قيمة ونفع لهم على الاقل ، ومن هنا كانت كتابة سير عظماء الرجال موضوعا مطلوبا دائما ، لأن النفس الانسانية تميل دائما الى معرفة تفاصيل حياة اولئك الرجال ، ولهذا فكتب التراجم دائما كتب ذات معنى للحاضر . والهدف الرئيسي من الحوار التاريخي او من النظر الى التاريخ كحوار بين عصرنا والعصور الماضية هو ان نرى أين اخطأوا لكي لا نقع فيما وقعوا فيه . وفى العصور الوسطى ، حينما كانت عيون الناس متجهة نحو الحياة الاخرى وحدها دون امل فى صلاح الحاضر كان افق اصحاب المدونات التاريخية ضيقا جدا ، فلم يكن يهمهم من الماضي الا ملوكه وامراؤه وكبار علماء الدين والصلحاء فيه . ومن عدا هؤلاء فلا وجود لهم فى

حسابهم ، ولا يمكن ان يكون لهم في التاريخ دورولا ذكر . ومن هنا يجوز لنا ان نقول ان الماضي كما يراه جيلنا يختلف عن نفس الماضي كما رآهالجيل السابق علينا ، وكما سيراه الجيل الذى سيأتى بعدنا ، ومن هنا يصدق القول بأن للامةالواحدة اكثر من تاريخ ، ولا بد ــ لهذا ــ لكل عصر ان يكتب التاريخ من وجهة نظره ، وكما اننانتعجب من السخافات التي ملأ بها ابن اياس « بدائع زهوره » فان الاجيال القادمة دون شكستتعجب من نظرتنا لماضينا بل اغلب الظن ان عجبها سيكون اشد من نظرتنا الى حاضرنا .

ويرى كثيرون من المؤرخين ان ذلك يقوّي حجة القائلين بأن التاريخ لغو" ، فما دامت صورة نفس الشيء تتغير بحسب العصور فلا يمكن ان يكون التاريخ علما ، لأن العلم يقوم على ثبات الحقائق ولو لفترة طويلة من الزمن ، فقد ظلتنظريات علم الطبيعة ثابتة قرونا متطاولة ولم يدخل التغيير عليها الا بعد ان اتسعت آفاق العلم الانساني الى حد استلزم اعادة النظر فى كل حقائق العلوم ، ثم ان عالم اليوم يملك من الادوات ووسائل القياس والحساب والتحليل ما يمكن من الحصول على رؤيا جديدة تزعزع الثقة فيقواعد الماضي الثابتة . ومن العجيب ان هذا التزعزع فى حقائق التاريخ وتغير صورته بحسبالاجيال والاشخاص يعجب الكثيرين من المؤرخين القائلين بأن دراسة التاريخ لا فائدة فيها وانما هيتمارس للمتعة الشخصية ليس غير .

ويوجه الكثيرون الى التاريخ كعلم نقداشديدا بسبب ارتباطه الدقيق بالمجتمع الذى يكتب فيه . ولكن هؤلاء النقاد ينسون ان ذلكينطبق ايضا على كل اوجه النشاط الفكرى الذى يقوم به الانسان ، وان الظروف التي تحيطبالمشتغل بالعلوم الانسانية جميعا هى التى توحي اليه بما قد يبتكر من آراء ونظريات ، ومثال ذلكما ذكرناه من ان توماس مالتوس Thomas Malthus طليعة علماء الديموجرافيا (علمالسكان) لم يقم باجراء دراساته البالغة الدقة فى شئون السكان الا بسبب ما كان يلاحظ حولهمن زيادة مضطردة فى اعداد السكان من حوله ، وكان المفهوم الذى انتهى اليه مالتوس وهو مفهومالصراع للبقاء struggle for survival هو الذى عجل بتبلور آراء داروين ونظرياته عنالنشوء والارتقاء والتطور على أساس من نظريته القائلة بأن البقاء للأصلح survival of the fittest وعلى هذا فان قوانين **مالتوس وداروين** ومن فى طبقتهم من اهل العلم ناتجة عن التأثر بالبيئةوالظروف التي كانوا يعيشون فيها . ومن هنا فان نقد علم التاريخ لأن حقائقه كما يعرضها المؤرخونتكون دائما متأثرة بالظروف التي يعيشون فيها نقد لا محل له . ولا يمكن القول قط بأن اهل العلوم والباحثين فى العلوم الاجتماعية عندنا اليوم متحررون تماما فيما يصدرون من الاحكام علىالافكار المستبقة والآراء الشائعة فى عصورهم ، وهذا لم يمنع من القول بأن المؤرخين ربما كانواكثر تأثرا بهذه الظروف والآراء من غيرهم من اهل العلوم .

وقد لاحظ **آرثر مارفيك** فى كتابهالمشار اليه(سابقا) ان مؤرخي القرن التاسع عشر فى الغرب الاوروبي وامريكا كانوا يوجهون اهتمامهم بصورةخاصة نحو اعمال الحكومات وعظماء الرجال وتطور الوعي القومي ونحو الحريات السياسية فيحين ان مؤرخي القرن العشرين يوجهون عناية اكبر نحو الاقتصاديات والديمقراطية الاجتماعية،وهم يصرفون جهدهم الى التاريخ الاقتصادى مهتمين بالجماهير دون الافراد . وابدى نفسالمؤرخ ملاحظة اخرى لها اهميتها : وهي ان المؤرخين فى غرب اوروبا كانوا يهتمون بصورةتقليدية بحضارات بلادهم وحدها ، وكانوا اذا التفتوا الى تاريخ اقليم آخر او حضارته لم يروامن هذا التاريخ وتلك الحضارة الا ما كان صدى او رد فعل للحضارة الغربية فيه . اما الآن فقدظهرت قوميات اخرى كثيرة جديدة واخذ اهلها

فى العمل على استلفات الانظار نحو تواريخ بلادهم وحضارانها . ومن هنا فقد أدت دراسات التاريخ الافريقي وتاريخ امريكا اللاتينية ، واهم من ذلك تاريخ الصين وشرق آسيا الى تغير الصورة العامة لتاريخ البشر والاتجاه الغالب فى ايامنا هذه« التي تهدّم فيها عالم الاستعمار وامبراطورياته» يقصد الى دراسة تلك الحضارات غير الغربية من ناحية تطورها المحلي الخاص بها لا من ناحية علاقاتها بالغرب وصراعها معه فحسب كما كان الحال قبلا . وهذا وسّع آفاق الدراسات التاريخية ، وسيؤدى حتما الى تغيير الصورة التقليديه التي تعودناها فيما يعرف بالتواريخ العالمية الكثيرة المتداولة اليوم . وكلها اوروبية أو مكتوبة من وجهة نظر غربية ، فالاهتمام فيها منصب نحو الغرب وحضارته وحدها ، فهي فى الواقع تواريخ للغرب الاوروبي لا تواريخ عالمية . والتواريخ العالميه الجديرة بهذا الاسم لم تكتب بعد ، وعلينا نحن اهل العالم الثالث الذين لم يحسب لهم حساب فيما يتداول الناس من تواريخ عالمية ان نعيد كتابة تاريخ البشر وحضارتهم ، بادئين بدراسة تاريخنا نحن ، لكى يتسنى لنا وضعها فى مكانها الصحيح فى سلسلة التاريخ العالمي .

واذا نحن اعتبرنا التاريخ حوارا بين اجيالنا والاجيال السابقة فينبغي ان نتسع مائدة الحوار حتى يكون فيها لكل قوم من اهل الارض مقعد وصوت . هنا فقط يمكن ان يقال اننا نستطيع كتابة تاريخ عالمي . أما ان يكون التاريخ العالمي قصة الصراع بين دول اوروبا على سيادة العالم فهذا زيف مقصود او غير مقصود .

الاتجاهات السائدة فى كتابة التاريخ فى عصرنا الراهن

ويتحدث علماء التاريخ فى الغرب عن طفرة الدراسات التاريخية فى الغرب ويرجعون بهذه الطفرة الى النصف الاول من القرن التاسع عشر عندما فتحت دور المحفوظات الاوروبية ابوابها لأهل العلم فاخذوا يستخرجون كنوزها وينشرونها على الناس ، فكانت هذه الثروة الضخمة حافزا للكثيرين على الاتجاه نحو دراسة التاريخ على اساسها . ومن تم حدث ما يسمى عادة بالانفجار الواسع المدى فى الدراسات التاريخية .

وسنرى فى الفقرة التالية كيف ظهرت مجموعات الوثائق الكبرى ووضعت مقاييس دراستها ، دراسة علمية دقيقة على يد اقطاب العلم التاريخي من امثال ليوبولد فون رانكه ، ولكننا سنمر هنا مسرعين بأهم تيارات الدراسات التاريخية فى عصرنا وقبله بقليل .

ساد فى الغرب الاوروبي خلال القرن التاسع عشر تياران رئيسيان : **الاول** تيار الواقعية الموضوعية objective empiricism الذى يقول اصحابه بأنه من الممكن ان نكتب الحقائق التاريخية بالضبط كما كانت فى الماضي ، **وتيار** القائلين بتوالد احداث التاريخ بعضها عن بعض The genetic view of history واصحابه الذين كانوا يستعملون ذلك المصطلح البغيض « الهيستوريسيزم historicism اى الفكرة التاريخية — يرون ان التاريخ عملية توالد مستمرة ويؤمنون باضطراد التوالد من عصر الى عصر . وكلا التيارين ثمرة من ثمرات تلك الثقة البالغة فى النفس التي ملأت نفوس اهل العلم فى الغرب فى القرن التاسع عشر ، حتى ليشعر من يقرأ لهم انهم كانوا يحسبون انهم جمعوا العلم كله من اطرافه جميعا . ويدخل فى هذا النطاق ايضا فريق التقريريين المقننين او الايجابيين من المؤرخين positivist historians اولئك الذين حسبوا انهم يستطيعون ان يوجزوا التاريخ كله فى سلسلة من القوانين العامة . ويمكننا ان ندخل فى زمرة

اولئك التفريريين المقننين ابن خلدون الذى اوجزتاريخ العالم فى قانونه المتسهور عن « دورة العمران » ، وعلى الرغم من انه عاش فى القرنالرابع عشر الميلادى الا اننا نستطبع ان نضعه على رأس هذه المدرسة الهامة من علماء التاريخ .

اما مؤرخو القرن العشرين الدين يكتبونمتأثرين بنظريات **فرويد واينشتاينوكارل ماركس** فقد صرفوا النظر الى حد كبير عن الموضوعبةالتاريخية وابتكروا ما يعرف عادة بالنسبية التاريخية historical relativism . وفى ايامناهذه يتجه نفر من اكابر المؤرخين الى صرف النظر عن النظريات والتيارات جملة والعكوف علىدراسة الحروب والانقلابات الاجتماعية كلا على حدة صارفين النظر تماما عن نظرية « الاستمرارفى التاريخ » التي كانت اساسا متينا لكتابة التاريخ ازمانا متطاولة . وسنشرح النسبية التاريخبةبشيء من التفصيل فيما بعد .

وكما انصرف المؤرخون عن البحث عنقوانين وضوابط تحكم سير التاريخ ، فكذلك انصرفوا عن قواعد كثيره كانت تعد الى حين قريبمن الاسس التي لا يملك اى مؤرخ أن يتخلى عنها، مثل قولهم : كلما قرب المؤرخ من العصر الذىيتحدث عنه ، كان كلامه اصدق ، فقد تبين ان مسألة القرب او البعد عن الحوادث هذه لا تعنىسيئا كثبرا بالنسبة لصدق الفهم وكثيرا ما نجد مؤرخا يكتب عن عصره نفسه وعن حوادث مرتامام عينيه فلم يدرك من حقيقتها سيئا وجاءت روايته هي الغباء بعينه . وفى نفس الوقت نجدمؤرخا يكتب عن نفس الحوادث ، بعده بعدة قرون ، فيرى بالفهم ودقة الحس العلمي ما لم يره هذا المعاصر ، وخذ مثلا كتاب « الفتح القسى فى الفتح القدسي » الذى حاول فيه **عماد الدينمحمد بن محمد بن حامد الاصفهاني** وصف استعادة صلاح الدين لبيت المقدس ، واسألنفسك بعد قراءته ان كان هذا الرجل الذى توفي سنة ١٢٠١/٥٩٧ اى بعد استعادة القدس باربععشرة سنة فقط قد رأى او فهم شيئا . ولا بد لهذا من ان نتخلى بعض الشيء عن قاعدة القربمن الحوادث هذه ، لأن العبرة فى التاريخ بالفهم والادراك والاحساس ، ومن دلائل ذلك انك نقراكتاب ادوارد جبون عن الدولة الرومانية فلا يخالجك شك فى ان هذا الرجل عاش فى عصورالرومان بقلبه وذهنهفعلا وهو يكتب هذا التاريخ. وفى بعض الفقرات التي كتبها عن عصر الانطونيينتشعر وانت تقرأ انك تسمع جلبةالجيشالرومانى الخارج للفتوح وقعقعة العجلات على صخورالطرق الرومانية وصهيل الخيل وجلجلة السلاح.

وفى ايامنا هذه يسلّم المؤرخون جميعا بأنالمؤرخ مهما فعل فهو لا يرى الماضي الا من خلال عصره ، أي انه لا يستطيع التخلي عن مفهوماتمجتمعه والآراء السائدة فيه ، وفى هذا خير كثير للتاريخ والمؤرخين ، فان المؤرخ بصفته خادماللجماعة الانسانية ينبغي ان يكتب تاريخه فى صورة ذات معنى واهمية ، لأبناء عصره وهذاالمعنى وتلك الاهمية يعبر عنهما المؤرخون بما يسمى بارتباط التاريخ بالحاضر the relevence of history to the present فاذا لم يكن الحادث التاريخي الماضي ذا اثر فى الحاضرrelevant to the present فلا قيمة حقيقية له ، وهو اشبه بناء قديم محطوم فى البيت ،كانت له اهمية فى حينه ايام كان نافعا ، ثم تقادم به العهد وتحطم ، فلم يعد اكثر من ذكرى ماضية،ومن الصالح التخلص منه ، لأن هذه الذكرى نفسها غير ذات قيمة . وهنا يقول آرثر مارفيك :« وما دامت للتاريخ تلك الاهمية بالنسبة للمجتمع فان أحسن تاريخ يمكن كتابته ، ينبغي ان يكونافرب ما يستطاع الى الحقيقة . والمؤرح الواعي

للعجز المفروض عليه بسبب وضعه مكانا وزمانا(بالنسبة للاحداث التي يؤرخ لها) ينبغي عليه ان يجتهد فى تلافى التشـــويه والتحـــوير الذين ينتجان عن اختلاف الزمان والمكان » (١٩) .

وقد كان لجهود اصحاب نظرية النســـبيةالتاريخية (٢٠) أثر طيب فى تخفيف ثقل المدرسة الالمانية التى قادها **رافكة** والتي ظنت انها تستطيع ــ اعتمادا على الوثائق ان تكتب التاريخ بالضبط كما حدث منذ مئات السنين او آلافها . وكان من رأى اصحاب هذه المدرسة ان المؤرخ نفسه لا يقول سيئا وانما هى الوثائق التي تقول كل شـــيء ،وعلى هذا فلا فـــرق بين مؤرخ ومؤرخ الا فيما يتعلق بدرجة القدرة على استخدام مناهج البحث . وهذا غير صحيح فان موهبة المؤرخ لا يمكن اغفالها، والمؤرخ ليس كما قال **كونيارز ريد** Conyers Read رجل يقضي عمره لاهثا بين مكتبة ومخزن الوثائق ودهاليز المخطوطات المثقلة بالغبار . ليس هذا هو المؤرخ الوحيـــد الجدير بالاعتبار ، لأن المؤرخ الجيد ليس عبد الوثائق والمخطوطات وانما هو ناقد حصـــيف يختار منها ويكتب كلاما حيا نخاطب عقول الناس فى كل عصر . وكم من مؤرخ كتب من عشرات السنين نحس ونحن نقراه انه اقرب الى نفوسنا من مؤرخ معاصر نموت الحوادث بين يديه قبـــل ان يكتبها ، ومؤلفاته ان هي الا اكفان لما يكتب .

فاذا صـــدق هذا اســـتطعنا ان نقـــول ان التاريخ على الحقيقة انما هو اعادة كتابة واعادة تفسير مستمرتان ، وهذه العملية المستمرة تلقى ضوءاً على الطريق الذى نسير فيه . فنحن عندما نرى كيف كان اجدادنا أسرى أوهام عصـــورهم اســـتطعنا ان نتجنب أوهام عصرنا ، وفى هـــذه الحاله تكون دراسة التاريـــخ قد نفعتنا وارتقت بمستوى ادراكنا ولو الى حد ضئيل . ومن هنا تجيء فائدة قراءة ما كتب الماضون من صفحات التاريخ ، فان المؤرخ الذى لا يفعل ذلـــك لا يقل بعدا عن المنهج الصحيح من ذلك المؤرخ الذى يقدر قيمة الكتب بدرجة صُفرَة ورَقها ، ويؤمن بكل ما طبع على ورق اصفر لمجرد انه اصفر .

اذن فالتاريخ كما قلنـــا ينبغي ان يكـــون حوارا بين الماضي والحاضر ، ولا بد ان يكـــون كذلك حوارا بين المؤرخ وقارئه ، والكلمة الاخيرة فى تاريخ اى عصر او اى حـــادث لم تقل بعد ولا يمكن ان تقال ابدا ، وهذا يضع يدنا على مكمن الخطأ الاكبر فى اعمال رافكه ومدرســـته ، اولئك الذين بلغ بهم الغرور بوثائقهم التي اعتمدوا عليها حداً جعلهم يتصـــورون انهـــم وصـــلوا الى كبد الحقيقة فى كل ما كتبوه .

تطور الدراسات التاريخية :

كل تاريخ لتطور علم التاريخ نقراه فى كتاب غربي لا بد ان يكون بالضرورة ناقصا ، اذ ان هذه الكتب تسقط من الحساب ـــ كليا او الى حـــد كبير ـــ الدور الضخم الذى قام به المؤرخـــون المسلمون فى تطوير هذا العلم ، وما نقـــول هـــذا مجاملة منا للسابقين من مؤرخينا بل نقوله لأنه حق ، واذا كان من الممكن الجدل فى قيمة ما وصل اليه علماء العرب فى الطبيعة والكيمياء بالنســـبة لحالة هذين العلمين اليوم فانه لا جـــدال فى ان المؤرخين العرب والمسلمين قد وصلوا فى هذا العلم الى شأو يضارع أحسن ما وصل اليه الغربيون الى اواخر القرن التاسع عشر على الاقل . بل اذا

---

(١٩) Arthur Marwick, The Nature of History p. 21.

(٢٠) هم المعروفـــون باسم relativists وقد اشرنا اليهم .

كانت مدرسة الوثائقيين واهل التوثيق الكامل فى الغرب وهي مدرسة **ليوبولد فون رافكه وياكوب بوركهارت** هي ذروة ما وصل اليه العلم التاريخي فى القرن التاسع عشر فان مؤرخينا المسلمين بدأوا بالذات من هذه النقطة : بدأوا على طريقة المحدثين المدققين الذين لا يروون خبرا الا اعتمادا على سند متين موصول من رواة ذوى صدق وامانة ، وساروا بعد ذلك على مناهج علمية جديرة بكل تقدير . ولهم ، نتيجة لهذا ، فضل كبير جدا فى تطوير هذا العلم ، ولكن مؤرخي الغرب ساروا على مبدأ ان العلم كله غربي . وفى ميدان التاريخ يبدأون عند **هيرودوت وتوكيديد** وينتهون عند **توينبي وهويتسنجا** Huitsinga ومن اليهما من معاصرينا .

ومن العسير لهذا ان نوسع فى هذه العجالة مكانا مناسبا لما قمنا به فى تاريخ هذا العلم . ولهذا فسندعه جانبا لكي نخصص له دراسة قائمة بذاتها ، ونكتفي هنا بأن نروى للدارس العربي تاريخ هذا العلم كما يروونه فى كتب الغرب .

وقد كان من المناسب لهذا البحث ان نروى فى ايجاز تاريخ تطور علم التاريخ من بداياته الاولى عند هيرودوت الى اليوم ، ولكننا رأينا اننا اذا قصصنا هذا التاريخ بحسب المفهوم الغربي جاءت القصة ناقصة ، لأنها ، كما ذكرنا ، لا نحسب حساب الدور الكبير الذى قام به العرب والمسلمون فى تطوير ذلك العلم والسير به الى الامام ، ثم ان هناك ـ خارج النطاقين الاوروبي والعربي ـ مؤرخين ومدارس تاريخية لها اهميتها عند الصينيين والهنود خاصة ، فاذا كان ولا بد من ايجاز تاريخ علم التاريخ فلا بد ان يتضمن ذلك الموجز حديثا عن نصيب تلك الامم فى تطوير علم التاريخ بدلا من الاقتصار على متابعة اهل الغرب فيما يقولونه والاكتفاء به ، ومن آفات الفكر الغربي انه لا ينظر الا الى نفسه ولا يكاد يحسب لغيره حسابا ، وفى اعماق كل مفكر غربي ان الحضارة الجديرة بالاهتمام هي الحضارة الغربية وحدها ، وان الفكر هو الفكر الاوروبي ولا غير ، فاذا ظهر خارج النطاق الاوروبي افذاذ من امثال ابن خلدون وطاغور مثلا فهذه نوادر بل طرائف تقرأ ، ويهتم بها لغرابتها او لطرافتها ، لا لأنها تكوّن جزءا اصيلا من الخط الرئيسي .

ولهذا وحتى يمكن تعديل التاريخ التقليدى لعلم التاريخ على نحو يجعله انسانيا عاما لا اوروبيا فحسب ، فاننا سنكتفي هنا بأن نعرض تطور هذا العلم خلال العصر الحديث من اواخر القرن الثامن عشر الى اليوم ، وهي فترة حاسمة فى تاريخ تطور التاريخ ومفهومه ومناهجه .

تطور علم التاريخ خلال العصر الحديث :

الى منتصف القرن السابع عشر كان التاريخ فى الغرب فرعا ثانويا قليل الاهمية من العلم يهتم به بصورة خاصة الرهبان وحواشي الملوك ، فأما الرهبان فقد كان همهم موجها الى شئون الدين وتواريخ البابوات واخبار القديسين وما يقال من اجرائهم المعجزات او الكرامات ، وربما اشاروا فى اثناء ذلك الى بعض ما يهم غير رجال الدين من الحوادث . ومراكز المخطوطات فى مكتبات الغرب مثقلة بهذه التواريخ التي كتبها الرهبان فى صمت صوامعهم على ضوء الشموع على سبيل التسلية احيانا وقطعا للوقت وهروبا من الملل وتقربا الى الله فى اكثر الاحيان .

ومعظم هذه المدونات مكتوب باللاتينية ، والقليل منها بلغة اهل البلد من فرنسية او المانية او انجليزية وما اليها ، ولكنها كلها تشترك فيما يسودها من ثقل وتشابه وايمان بالخوارق والمعجزات وقلة ما يجده المؤرخ فيها من مادة تاريخية نافعة .

واما ما كتبه حواشي الملوك من سِيَر سادتهم وما قاموا به من اعمال فاكثر قيمة من الناحية العلمية وان كان يغلب عليها المَلَق والمبالغة والاكاذيب ، ولكنها على اى حال تضم مادة تاريخية يمكن استخلاص حقائق نافعة منها بعد جهد قليل او كبير .

والخلاصة هنا انه لم يكن فى الغرب الى ذلك الحين شيء يمكن تسميته علم التاريخ ، انما كانت هناك المدونات Cronica التي ذكرناها وبينا قلة قيمتها كأصول تاريخية ، وفيما عدا مؤرخي العصور القديمة ما بين اغريق ورمان من امثال **هيرودوت وتوكيديد وبوليبيوس وتيتوس ليفيوس ومارسيلوس اميانوس** لم يكن هناك الا اصحاب مدونات اشهرهم رجال مثل **اجينارت** Eginhardt مؤرخ شرلمان **وفرواسار** Froissart **ودى جوانفيل** De Joinville **اللذين** أرّخا لبعض الحملات الصليبية .

ولهذا فعندما نشر **فولتير** مؤلفه الاول فى التاريخ عن حياة واعمال **شارل الثاني عشر** ملك اسكنديناوه وحروبه مع الروس Historie de Charles XII سنة ١٧٣١ راى الناس فيه لونا جديدا من التاريخ لم يعرفوه الى ذلك الحين ، فعلاوة على تحقيق فولتير لاعمال هذا الملك الاسكنديناوى الشاب واجتياحه للقوات الروسية كأنه شهاب ثاقب ، معتمدا فى ذلك على دراسة نستطيع ان نصفها بانها وثائقية نجد ان فولتير عرف كيف يتأنى فى الحكم ويحسن المقارنة بين ذلك الملك الشاب المغامر ومنافسه العنيد **بطرس الاكبر** قيصر الروس . فقد راى فولتير ان شارل الثاني عشر ، رغم انتصاراته العسكرية ، شاب متهور مخرب فى حين ان بطرس الاكبر رغم قسوته وعنفه رجل مصلح استطاع ان ينشيء امبراطورية شاسعة متحضرة وايد فولتير بعد ذلك ملكته التاريخية فى كتابه البديع « خطابات فلسفية » Lettres Philosophiques الذى يدخل فى نطاق المؤلفات الفلسفية ولكنه حافل بالآراء والملاحظات على مسار التاريخ وتصاريف الزمان . وبعد ذلك بست سنوات نشر فولتير كتابه المشهور عن عصر **لويس الرابع عشر** Le Siècle de Louis XIV الذى ابدى فيه براعة فائقة فى تحليل الاحداث والاشخاص ، واعطى للمرة الاولى فى تاريخ الفكر الغربي الحديث صورة بديعة لعصر اشتهر بما زانه من مظاهر الحضارة . وقد اغراه نجاح كتابه هذا بالتفكير فى كتابة تاريخ عالمي ، ولكنه لم يستطع السير فى عمل ضخم كهذا ، واقتصر على تحرير خلاصة صغيرة اسماها « مقال عن الاخلاق والعادات » Essai sur les moeurs وهو كتاب طريف يجد المؤرخ لذة فى قراءته نظرا لما فيه من محاولة التعمق فى فهم الجماعة البشرية وتركيبها ، وبعض صفحات هذا الكتاب تذكرك احيانا بصفحات مما كتب **المسعودى** فى مروج الذهب ، واحيانا اخرى بما اورده **ابو حيان التوحيدى** فى « الامتاع والمؤانسة » .

ولهذا كله يميل الكثيرون من المؤرخين الى اعتبار فولتير مؤسس العلم التاريخي بمفهومه الحالي فى الغرب . ولكن فولتير لم يكن على الحقيقة مؤرخا ، وانما كان من هواة التاريخ ، وقد كتب التاريخ على انه لون من الادب اوالفلسفة ، وهو يمثل القمة التى وصل اليها لون من الوان الفكر الغربي نشأ فى عصر النهضة وجمع اصحابه فى مؤلفاتهم اطرافا من الفلسفة واخرى من التاريخ واضافوا الى ذلك فيضا من التأملات والآراء الصائبة أو غير الصائبة .

ولا بأس هنا من الاشارة الى بعض كتاب عصر النهضة هؤلاء ممن صدرت عنهم مؤلفات اصبحت فيما بعد من ذخائر المكتبة التاريخية ، واولاهم بالتنبيه هنا **نيكولو ميكافيلي** Nicolo Machiavelli (١٤٦٩ — ١٥٢٧) صاحب كتاب « الامير » المشهور ، وهو كتاب فلسفة وسياسة فى ظاهره ، ولكنه قائم فى صميمه على فهم سليم للتاريخ وخاصة لتاريخ

ايطاليا فى عصره وهنـــاك ايضـــا **فرانشيسكو جيشيارديني** Francesco Guicciardini (١٤٨٣/ ١٥٤٠) الذى كتب تاريخا لايطاليا لا يخلو من تعمق ونظـر تاريخي ، **وليوناردو بروني** Leonardo Bruni (١٣٧٤ ـ ١٤٤٤) صاحب كتاب تاريخ فلورنسا Storia Fiorentini الذى يعد من احسن المؤلفات التاريخية التي خلفها عصر النهضة . وقريبا منه ذلك الكتاب الذى الفه السر **والتر رالي** Walter Raleigh وسماه تاريـخ العالم History of the World ونشره سنة ١٦١٤ فلم يلق كبير نجاح رغم انه لا يخلو من قيمة علمية .

وفى نفس الوقت كان نفـر من الرهبان فى الأديرة يحاولون الخـروج من سـآمة المدونات التاريخية والبحث عن طرق جديده لدراســة التاريخ وفهمه . وقد التفت بعضهم الى اهمية مجموعات الوثائق المكدسة فى الاديرة وامكانيــة استخدامها كمادة تاريخية اذا هى درست الدراسة العلمية الكافيــة ، واهـم هـؤلاء الرهبــان هم البندكتيون فى ديـر **ســان مور** Saint Maur فى فرنسا، ويشبههم فى ذلك نفر من رهبان الجيزويت فى بلجيكا على رأسهم الراهب المؤرخ المشــهور **يوحنا بولاند** Jean Bolland (١٥٩٦ ـ ١٦٦٥) الذى اصبح علَما على مدرسة جديده فى دراسة وثائق الأديرة واستخراج المادة التاريخية منها ، ولا زالت جمعية البولنديين Les Bollandistes الى يومـــا هذا من اكبـر الجمعيات التاريخيــة واكبرها مكانا من احتــرام النــاس . وقد أدت دراسات اولئك الرهبان الى الكشف عن حقائق ازالت من النفوس كثيرا من الأوهام ، ومن ذلك ما كشــف عنه الراهب **فــالا** Valla (١٤٠٧ ـ ١٤٥٧) من ان الوثيقة المشهورة المســماه بهبة **قسطنطين** Donatio Constantini التي كانت تعتبر مقدســـة لأن البابوات كانــوا يقولون ان **الامبراطور قسطنطين الكبير** وهب فيها اراضى ايطاليا للكرسى البابــوى على اعتبار انهـــا ارث **الرسول بطرس** اخذه عن السيد المسيح مباشرة . فقد انبـا هذا الراهب ان هذه الوثيقة زائفة وان رجال الكنيســة زيفوها ووضـعوا عليها خاتـم قسطنطين وان **السيد المسيح** لم يمنح الحوارى بطرس شيئا فى ايطاليا او غيرها . وقد احــدث هذا الكشف زلزالا عنيفا فى اوساط العلم والسياسة والدين فى اوروبا ، وهــوجم الراهب فالا هجوما عنيفا .

وكان هذا النجاح الذى لقيه فــالا مُغريا للكثيرين من الرهبان على الانكباب على مجموعات الوثائق التي تحت ايديهـم فاقبلوا يدرســونها ويمحصونها ، فبدات اصول علم الوثائق تظهر وهو العلم الذى عرف فيما بعد باسم الباليوجرافية Paleography ووظيفتــه دراســـة الكتابات والمخطوطات ، وتفــرع عنه علم النقوش المعروف باسم الابيجرافيه Epigraphy ووظيفته دراسة النقوش والرسوم على الاحجار وغيرها وتفسيرها واستخراج المادة التاريخيــة منها ثم لم يلبث ان ظهر علم الآثار او الاركيولوجيــا Archeology ووظيفته دراسة كل ما خلفته العصور الماضية من ابنية واشياء مصنوعة أو ادوات او قطع او نقوش او بقايا عمران .

وهكذا وســيئا فتــيئا من اوائل القـرن الثامن عشر اخذ العلم التاريخي يستقر على قواعد واصول فنية علميه خرجت به ـ شــيئا فشيئا ايضا ـ من مجال الادب والفلســـفة والتأملات واساطير القديسين ومدائح الملوك الى ارض العلم الصلبة ، وولد علم التاريخ فى الغرب ، ونضـع خطا عريضا تحت عبارة ((**فى الغرب**)) لأن التاريخ عندنا ـ معاشر العرب ـ ولد من أول الامر علما دقيقا قائما على النقد والتحقيق ، فان شجرة التاريخ عند العرب نبتت فى تربـة علم الحديث ، وعلم الحديث علم يقوم على الدقــة والتحـرى والضــبط بالنســبة للحديث المـروى وعلى نقد الرجال ـ وهو علم الجـرح والتعديــل ـ فيما يتصل برجال السند وهم قواعد الرواية وعمدها .

وقد ارتبط ميـلاد هذا العلم التاريخي في الغرب باسـماء لا زلنا نقـرأ مؤلفات اصـحابها باجلال عميق : هناك **دوشسن** Duchesne الذى كتب تاريخا ضخما للكنيسة الكاثولكية تحرى فيه الدقة والصدق وتسلح بشجاعة نادرة كشف بها عن مساوىء الكثير من البابوات وزيف بعض كبار الرهبان ، **وبالـوز** Baluze **ومابيـون** Mabillon **ومونفوكـون** Montfaucon الـذين اقبلوا على دراسة مجموعات الوثائق المحفوظة في الاديرة والبلديات وخزائن الدولـة واجتهدوا في جمع ما لدى الافراد من وثائق لايداعها في المكتبات الوطنية وجعلها في متناول الناس .

أدوارد جيبون ودوره في تطور علم التاريـخ في الغرب ـ معاصرو جيبون .

ووسط ذلك الحماس للتاريـخ والاهتمام بجعله علما محتـرما ظهـر **ادوارد جيبـون** Edward Gibbon (١٧٣٧ ـ ١٧٩٤) الذى يعتبر من اعاظم المؤرخين واساتذة هذا العلم على مـر العصور رغم ان كتابه الاشهر : تاريخ اضمحلال الدولة الرومانية وسقوطها The History of the Decline and Fall of the Roman Empire حافل بوجوه النقص ، ولكنه عمل علمي رائـع كتبه صاحبه عن ايمان عميق باهميـة ما يعمل ، وانفق في كتابته معظم سنوات عمـره تقريبا كما فعل مؤرخنا العظيم ابو جعفر محمد بن جريـر الطبرى ومهما تقادم به العهد فسيظل دائما من درر المكتبة التاريخية في كل عصر ولغة ومكان ، ولقد قال المؤرخ الانجليـزى الاشـهر **ج . ب . بيوري** J. B. Bury : انك لن تكون مؤرخا حتى تقرأ جيبون ، وهي قالة حق ، لأن جيبـون عاد بالفعل بنفسه الى ايام الدولة الرومانية وقرأ كل ما تيسر له من كتابات اهلها وكتب تاريخا لها لا يمل الانسان من قراءته . واذكر انني في سنوات الدراسة الاولى في جامعة القاهرة كنت احفظ عن ظهر قلب تقريبا اربعة فصول من كتاب جيبـون هذا ، نشروها في طبعة ميسرة للطلاب هي الفصول الخاصة بعصر الانطونيين The Age of the Antonines

واجمل ما في **جيبون** انه كان رجلا ميسـور الحال طول حياته ، وكان في صبوته مبتلي بالامراض مثقلا بالمتاعب بسبب اهمال امه اباه ، ولكنه كان انسانا غني النفس ذكي القلب ، فهذا الصـبي الذى لم تمكنه صحته من الدراسـة المنتظمة الابعد ان ادرك سن الرشد وتخطى الخامسة عشرة لم يلبث ان قرر بعد تفكير طـويل ان يتخلى عن العقيدة الانجليكانية ويعتنق الكاثوليكية . وهـو أمر افزع اباه ، لأن معناه حرمان ابنه ما عاش من الوصول الى اى وظيفة محتـرمة في الدولة او مكانة مرموقة في المجتمع . ولكن ادوارد جيبـون سار في طريقه غير هياب ، وعندما ابعده ابـوه الى جنيف ، حتى يعـود الى عقلـه ويتـرك الكاثوليكية ، اقبل على دراسة الفرنسية وبرع فيها واخذ يؤلف بها ، واتصل بفولتير واصحابه ، واصبح شخصية لها مكانتها واقبـل على قراءة الآداب اللاتينية في نَهَم بالغ . وعندما اشتركت انجلترا في حرب السنين السبع دخـل الجيش ووصل الى درجة كابتن ، ثم ذهـب الى باريس سنة ١٧٦٣ وتعرف على الموسوعي الاشهر **ديدرو** Denis Diderot وصاحبه دالامبير Jean D'Alembert ثم ذهـب الى ايطاليـا ، وفي منتصـف اكتوبر ١٧٦٤ وبينما كان يتنقل بين آثـار روما خطرت بباله فكرة كتابة تاريـخ شـامل للدولة الرومانية . ومن ذلك الحين الى آخـر حيـاته اصبح هذا التاريخ شغله الشاغل ، وقد ظهـر مجلده الاول في ١٦ فبراير ١٧٧٦ ومجلده الاخير في ٨ مايو ١٧٨٨ ، وتوفي جيبون نفسه بعد ذلك بست سنوات في ١٦ يونيو ١٧٩٦ وقـد ترهل جسده وحطت عليه الامراض وتكاثرت عليه الآلام بموت خيرة اصحابه واصدقائه .

لا يتميز كتاب جيبون بفلسفة خاصــــــةللتاريخ . بل ان الدقة والضــبط والاســتفادة الكاملة من المراجع تنفصه فى احيان كثيرة ، ولكنه كان اول غربى كتب فى العصر الحديث دراســة تاريخية لدولة كبرى ، قص فيها تاريخها كاملا .وحاول ان يستقصي اسباب ضعفها وانهيارها ، وكان اقبال الناس على هذا الكتاب وتقديرهم اياه كافيا لرفع قدر التاريخ الى مستوى اهم فروع العلم واجدرها بالعناية . ومن حسن الحظ انه كان رجلا بليغا فخم العبارة عظيم الهمة وان كان هو نفسه رجلا صغير الحجم دميم الشكل ، وقدنجح الى حد كبير فى أن يضع قارئه فى العصر الذى يتحدث عنه حتى انك لتسمع ، وانت تقرأ وصف خروج جيتس قيصر من روما للحــرب ، قعقعة العجلات وصلصلة السيوف وصهيل الخيل ، ولم يحاول ان يفلسف الاحداث او ان يجهد نفسه فى البحث فيما وراءها .

والاجماع منعقد على ان تاريخــه للقــرون الثلاثة الاولى من تاريخ روما عمل رائع ، ولكن النقد كثير لما كتبه عن تاريخ الدولة البيزنطية اىعن الالف سنة الاخيرة من تاريخ الدولة الرومانية، وقد سخط عليه الكثيرون لتحرر فكره وقلة ايمانه بالمسيحية ، ولهذا كرهه وحمــل عليــه الدكتور صمويل جونسون وصاحبه بوزويل ، ولكن هذابالذات اعطى ذلك الرجل الفرصة ليفهم الديانات الاخرى ، ولهذا فادوارد جيبون من الاوروبيين القلائل الذين قدروا الاسلام ورأوا بعض جوانب عظمة الرســول الكريم وهنــا نجــد جيبــون اوسع ذهنا واكثر تحررا من ڤولتــير الــذى لم يستطع ، رغم تحرره المعروف ، التخلص من اسار التعصب الكاثوليكي ، بل لقد حاول جيبــون ان يفهم الزردشتيه والمانوية وما اليهما من العقائد غير السماوية ، وهذا فضل يذكــر له . لم يكن جيبون صاحب مدرسة فى التاريخ ــ مثل رافكه مثلا ــ ولكنه ارتفع بالتاريخ كله الى مستوى لم يعرفه الغرب قبل ذلك .

لقد عاش جيبــون فى صــميم عصر التنور The Enlightenment وعاصر **ڤولتير ومونتسكيو** Montesquieu **وچان چاك روسو** وغيرهم من اعلام ذلك العصر . ويحس الانسان وهو يقرأه انه اكثر الجميع استنارة ، لا نستثني من ذلك چان چاك روسو . وهو دون شك اقــرب الى الروح الانســــانى ، وادق فهما للتاريــخ من معاصره الفرنسي الأسقف **چاك بنين بوسويه** Jacques Benigne Bossuet (١٦٢٧ ــ ١٧٩٤) الذى يحتل مكانا كبيرا بين المؤرخين بكتابه المسمى مقال عن التاريخ العالمي Discours sur l'histoire universelle الذى جعل الكنيســــة الكاثوليكية فيه محور التاريخ الانساني كله وفسر التاريخ كله تفســيرا دينيــا صرفا بل مســيحيا كاتوليكيا فحسب .

فى ذلك العصر ارتفــع مقــام المؤلفــات التاريخية واقبل عليها الناس حتى ان **ديفيد هيوم** David Hume الفيلسوف صرف جزءا كبيرا من وقتــه فى التأليف التاريخي ، والف تاريخــا لانجلترا فى ستة مجلدات ، كسب من المجلد الاول وحده الفي جنيه وكانت مبلغا ضخما بحســاب تلك الايام .

ولا يمكننا ان نترك عصر التنوير ومؤرخيه دون وقفة صــغيرة عند **آدم ســميث** (١٧٢٣ ــ ١٧٩٠) الذى يعتبر مؤســســا لعلم الاقتصــاد بكتابه المشهور عن «ثروة الامم Wealth of Nations وهـــو كتــــاب تاريـــخ فى صــــميمه وفى طريقته ، وفضيلة آدم سميث انه لفت الانظار الى اهمية العوامل الاقتصادية فى سير التاريخ ، وهي كما نعرف من اهم العوامل وأولاها بالاهتمام . ويكفي ان نذكر ان جيبون فى بحثه الطــويل عن اسباب ســـقوط روما لم يتنبه الى العامـــل

الاقتصادى . انما تنبه اليه المؤرخون بعد ان كشف آدم سميث عن اهمية العامل الاقتصادى فى بناء الدول والجماعات ، وقد افاض كارل ماركس بعد ذلك فى هذه الناحية ، ولكن آدم سميث يعتبر صاحب الفضل الاول فى استلفات انظار الناس الى اهمية العامل الاقتصادى .

واذا كان مؤرخو القرن الثامن عشر وعلى رأسهم ادوارد جيبون قد لفتوا انظار الناس الى اهمية دراسة التاريخ دراسة علمية وقيمتها الكبرى ، كدراسة انسانية اصيلة ، فانهم رغم ذلك لم يصلوا الى تثبيت اقدام التاريخ كعلم له اصول ومناهج مقررا فى البحث . فعلى الرغم من ان جيبون وهب حياته كلها لدراسة التاريخ الا انه ظل يعتقد انه ضَرْبٌ من الأدب وقال عنه انه « أذْيعَ ضروب الأدب » : The most popular of all forms of literature وهي عبارة انكرها عليه مؤرخو القرن التاسع عشر انكارا شديدا ، والحق ان الذى يقرأ جيبون وفولتير على انهما اديبان ، يقدرهما بأكثر مما يفعل من يقرأهما على انهما مؤرخان . ومن عباراته المبدعة التى كتبها فى مقدمته لكتابه عن اضمحلال الدولة الرومانية قوله : « ان كل صفحة من صفحات التاريخ ملطخة بدماء البشر وعنف الصراع بين الناس وغرور النصر واليأس من التوفيق وذكريات المظالم الماضية والخوف من الاخطار المقبلة ، وهذه كلها امور تثير العقل ولكنها تُسكِتُ صوت عاطفة الاشفاق » وهذه مقالة اديب وشاعر وليست قطعا عبارة مؤرخ محترف ، لان المؤرخ الممارس يعرف ان هذه كلها اشياء طبيعية داخلة فى تكوين بنية الحياة على الارض . فكما ان عالم الحيوان لا يستنكر افتراس الذئب للارنب ، لان الذئب بطبيعته يعيش على الافتراس ، فان المؤرخ لا يستنكر الحروب او المظالم او المآسي التي ينزلها الناس بالناس لأن هذه هي طبيعة الحياة .

ويؤخذ على مؤرخى القرن الثامن عشر كذلك قلة تنبههم الى تطور الانسان ومجتمعه . فانسان عصرهم فى نظرهم هو نفس انسان العصور القديمة دون ادنى تطور فى عواطفه او سلوكه . ومن هنا فانهم جميعا يجمعون على سوء الظن بالناس وتصرفاتهم . والسخرية من البشر واعمالهم ، وهم بهذا اقرب الى الاخلاقيين منهم الى العلماء او المؤرخين المحترفين . ولهذا فانهم لم يستطيعوا ان يصلوا بالتاريخ الى مرتبة العلوم التي تدرس فى الجامعات .

ليوبولد فون رانكه ومدرسته :

ولكن وضع التاريخ هذا والنظرة اليه كان لا بد ان ينالهما تغيير حاسم خلال القرن التاسع عشر الذى تميز بتزاحم الاحداث الضخمة التي احدثت فى الذهن الاوروبي ما يشبه الزلازل العنيفة العميقة المدى ، وقد احدث هذا الزلزال ثورة حقيقية فى كل ميادين العلوم تقريبا ، وكان لا بد ان يكون للتاريخ نصيب من هذه الثورة ، فانتقل التاريخ من نطاق الهوايات او الآداب الى نطاق العلوم ذات الاصول والمناهج .

وتمثلت هذه الثورة فى ميدان التاريخ فى الحركة الشاملة البعيدة المدى التي قامت بها مدرسة برلين وطليعتها نيبوهر Niebuehr وقائدها **ليوبولد فون رانكه** .

ولكن الفضل فى هذا التطور الشامل فى علم التاريخ لا يرجع كله الى الالمان ، بل سبقهم اليه مفكرون اوروبيون آخرون اشهرهم **جامباتيستا فيكو** Giambathista Vico (١٦٦٨ — ١٧٧٤) وهو مفكر ايطالي من نابولي تشوب تفكيره فوضى جعلت البعض يتهمونه بالجهل ، ولكن الرجل كان ذا فكر لمّاح مكّن له من ان ينظر فى التاريخ نظرة هي اعمق مما فعله الكثيرون من مشاهير رجال

عصر التنوير ، فقد نظر الى التاريـخ نظرة عامةوآخذة فى مجموع عصوره وقسـمها الى ثلاث حقب ، الأولى ((**الهيبـة**)) اى العصر الـذى كانالناس يردون كل الحـوادث الى صـنع آلهة ، والثانية ((**بطولية**)) كان التاريخ فيها سردا لاعمالوعظماء الرجال ، والثالثة ((**انسانية**)) وهي التى انتبه المؤرخون فيها الى أن التاريخ الحقيقي هوالذى تصنعه الجماهير والشعوب . وعلى الرغم من بساطة هذا التقسيم وسذاجته ، فان ڤيكويعتبر فى الغرب أول من نظر الى التاريخ العالمي نظرة عامة فلسفية . لقد عاش بعد ابن خلدونبثلاثة قرون (عاش ابن خلدون فيما بين سـنة ١٣٣٢ ـ ١٤٠٦) ، وكان ينبغى ان يعتبر تالبا لهفى سلسلة فلاسفة التاريخ ، ولكن اهل الغـرب نادرا ما يفكرون نفكيرا عالميا حقيقيا ، وهم نادراما يوسعون لغير غربي مكانا فى تاريخ الفكر العالمي .

ولقد كان لكتاب **فيكو** اثر بعيد فى اوساطالمؤرخين الى نهاية الحـرب العالميـة الاولى على الاقل ، وربما كان اثره مباشرا عند رجـل مثـل**يوهان جوتفريد هيردر** Johann Gottfried Herder (١٧٤٤ ـ ١٨٠٣) الذى يعتبـر بحق مؤسسالمدرسة الالمانية فى علم التاريـخ . كان هيردر فى اساسه أديبا وناقدا أدبيا ، وتكوينه الأول لاهوتىكلاسيكي ، وهو يحتل مكانا ضخما فى تاريخ الأدب الالماني ، فهو صديق **جيته** معظم ايام عمره ، وهومن مؤسسـي حـركة الاقتحـام والاندفـاع Strum und Drang ذات الاثر البعيد فى تاريـخالفكر الجرماني ، ولكنه صرف الى التاريخ جانبا من عنايته وألّف فيه كتبا تعتبر معالم على طريقعلم التاريخ الحديث وخاصـة كتابـه ((آراء فى فلسفة تاريخ البشر : Ideen Zur Philosophie der Egeschichte der Menschheit ورسالته المسماة ((وكذلك فلسفة اتاريخ بنـاءالانسانية)) Auch eine philosophie der geschichte zur bildung der Menschheit غير أن آراء هيردر فى التاريخ متناثرة فى اعماله الكثيرة فى الادب وعلم اللغة والدراسات القديمة ،فقد كان الرجل موسوعيا بحق سـواء فى ثقافته الخاصة او ميادين دراساته وتواليفه .

وتقوم فلسفة التاريخ عند هيردر على القولبأننا لا بد ان ندرس الماضي لنفهم مشاكل اليوم والغد ، وقد شـابَه ابنَ خلـدون فى تشـبيههالجماعات الانسانية بالمخلوقات الحية وقال ، بأن لها هي الأخرى اعمارا من الطفولة والصبوة الىالشيخوخة ، وابدى ذكاء بعيدا فى فهم التاريـخ الاوروبي المعاصر له ، وقد قال ان المؤرخ ينبغيان ((يحس)) العصر الذى يؤرخ فيه احساسـا مباشرا ، وابتكر لذلك فعلا فى اللغة الالمانية هـو cinfuehlen وقال ان هذا الاحسـاس المباشر هو الحاسة التاريخية ، ولهذا فأن لفظ الحس اوالاحساس das gefuehle له عنـد هـيردر معنى خاصا ، وهو ممن قالوا بأن المؤرخ الحق هو الذىيسنطيع ان يكون فكرة او صورة عامة Gestalt عن العصر أو الشخص او الظاهـرة التي يكتبعنها . وقد حاول ان ينبت فى كتابه المسمى ((آراء عن فلسفة تاريخ الانسـانية)) ان التاريخ يخضعلقوانين كتلك التي تخضع لها الاشياء والطبيعة ، وقد قال بأن التاريخ يسير فى خط تقدمي واحد ،وتحدث عما سماه التوازن الداخلي للجماعات ، وان كل جماعة حية سليمة ينبغي ان تحافظ علىهذا التوازن ، وان الاضطرابات والفوضى وعهود الظلم والتأخـر تنتج عن فقدان هـذا التوازن ،وكان يؤمن بأن لانسانية ستصل يوما ما عن طريق العقل والتجربة الى حالة من التوازن تستقر معهااسس العدالة والنظام .

وكان هـيردر بعمله هذا فاتحا لعصر جديدزاهر فى ناريخ العلم التاريخي انتهى باعتباره علما قائما بذاته له اصوله وقواعده وكراسيه واقسامهفى الجامعات ، والفضل الأكبر فى ذلك يرجع الى **ليوبولد فـون رانكه** Leopold Von Ranke (١٧٩٥ ـ ١٨٨٦) الذى عمَّر فـوق التسعين

سنة ، عاملا نشيطا فى ميدان التاريخ ، وهو من اوائل من قصروا جهدهم كله على التاريخ ووصفوا فى الغــرب بأنهم مؤرخــون . ولد رانكــه فى ٢١ديسمبر ١٧٩٥ فى بلدة فيهي Wiehe فى مقاطعة تورينجن فى مملكة سكســونيا وتخصص اولا فىالدراسات القديمة واللاهوت ، ثم دخل فى خدمة ملوك بروسيا وانتقل الى برلين حيث عين استاذامساعدا للدراسات القديمة فى جامعتهــا ســنة ١٨٢٥ ثم اصبح استاذا وظل فى هذه الوظيفة الىوفاته فى ٢٣ مايو ١٨٨٦ فى برلين .

كان رانكه عميق الايمــان بالمســيحية علىالمذهب اللوثرى (البروتستانتي) وكان مثاليا على مذهب فيخته ، وتأثر باتجاه هيردر نحو الاعترافبالجانب الانساني اى البشرى فى التاريــخ وقال بفكره التطور العضوى للجماعات وكذلك بأهميةالعامل الفــردى Das Individualistische فى توجيه الاحداث ، ولكنه انكر استخدام التاريخللعظة والعبرة ، وهــو مذهب مؤرخي العــرب ومعظم مؤرخي القرنالثامن عشر فى اوروبا ، وقالان التاريــخ ينبغي ان يدرس لذاته لا كوســيلة للتعليم والتهذيب .

واهم ما تميز به رانكه ودعا اليه قوله بأنناينبغي قبل كل شيء ان نعرف الاحداث والاحوال الماضية كما كانت بالضــبط ، ودفعه هــذا الىالاهتمام بالوثائق ومخلفات الماضي اهتماما بالغا . فلكي نعرف عصرا ينبغي ان نراه فى الاصول التىكتبت خلاله لا تلك التي كتبت عنه ، وأى شيء هو اصدق من الوثائق الرسمية ومكاتبات الدولوالافراد وسجلات الحكومات والكنائس والمذكرات الشخصية ؟ وقد بلغ من حماس رانكه وتلامبذهلهذه الاصــول ان انتشروا فى الارض ينقبون فى كهــوف المحفوظات ورفــوف الاديرة باحثين عنالوثائق فى حمــاس جعــل الدول والامــارات والكنائس وغرف التجارة وبيوت الاشراف تهتمبتلك الاضابير وتنظيمها فنشأ علم الوثائق واخذت قواعدهتستقر ، وقامتدور المحفوظاتومجموعاتالسجلات فى اوروبا كلها ، واقبل طلاب التاريخ يدرسونها وكأنهم — كما قيــل يومئذ — فيرانيقضي الليل فى قضم صفحات الكتــب « وكان كتابه الاول المسمى تواريــخ الشــعوب اللاتينيةوالجرمانيه Geschichten der Romanischen und Germanischen Volker طــرازا جــديدا مــن التأليـــف التاريخــي يقــوم علــى الاعتماد على الاصول . وقد بســط فيــه رانكهآراءه التي ذكرناها . ولكنه وقع فيما وقع فيه ابن خلدون عندما عجز فى تاريخه عن أن يطبقنظرياته التى بسطها فى « المقدمــة » فقــد كان — مثلا — ناقدا حصيفا لأصوله التي اعتمد عليهاولكنه كان شخصيا غير موضوعي فى الكثــير من احكامه ، وانكر على هيجل تأملاته وتصوراته غيرالتاريخية ثم ملأ هو كتبه بالتأملات والنظريات الخاصة ، ومن اكبر وجوه النقص فى تفكيره انهفى حماسه للنظام البروسي لم ير الحد الفاصل بينسعي بروسيا نحو الوصول الى القوةواستخدامهذه القوة للعــدوان بعد ذلــك . وقــد رأى فى « الدولة » مفهوما اخلاقيا شبيها بالكنيســة ،ووقع بذلك فى الانحراف الذى وقع فيه الكثيرون من مفكرى الالمان الذين تحمسوا للنظام البروسىواعتماده على القوة والنظام حماسا يعتبر تمهيدا لقيام دولة الحديد والنار على يد **بسمارك** .

وكان اهتمام رانكــه بالوثائــق الرســميةومكاتبات الدول سببا فى اهتمامــه الشــديد بالتاريخ السياسي والعسكرى فلم ينتبه كثيرا الىالنواحى الاجتماعية والاقتصادية . وقد وجــه معظم اهتمامه الى قيام النظم السياسية الاوروبيةوما كان يقوم بينهــا من صراع . ولكن غاب عن ذهنــه تماما ان يفطن الى اهميــة قيــام الدولةالسلافية الكبرى وهي روسيا وتوسعها البطيء

الذى سيجعل منها فى المستقبل اكبر قوة فى اوروبا . وكان ايمانه شديدا بنظام المجتمع الالماني الذى عاش فيه والنظام البروسي الذى حكم ذلك المجتمع ، فكان شديد الاعجاب بالطبقة الوسطى الالمانية ــ وهو منها ــ وكذلك بالطبقة الارستقراطية الالمانية التي انتسب اليها فيما بعد . وهذا كله حال بينه وبين ان يقدر نظم المجتمعات الاخرى خارج اوروبا ويفهم حضارنها ، واذا كان قد اجاد فهم تاريخ بروسيا فى الكتب التسعة التي كتبها عنه Neun Bucher preussischer Geschichte (١٨٤٧ ــ ١٨٤٨) وتاريخ انجلترا فى كتابه عنه Englische Geschichte (١٨٥٩ ــ ١٨٦٨) وكذلك تاريخ فرنسا فى كتابه Fransoesische Geschichte (١٨٥٢ ــ ١٨٦١) فانه لم يوفق فيما كتبه عن موضوعات تاريخية غير اوروبية . ومثال ذلك مقاله عن محمد صلى الله عليه وسلم الذى نشره فى المجلة التاريخية التي سنشير اليها ، وهو دليل واضح على قلة علمه فى ذلك المجال وقصوره عن ادراك حقيقة الاسلام ورسوله . وكذلك فهمه قليلا بالحركة الصناعية فى اوروبا كلها وما كان لها من نتائج ، ولم يكتب شيئا ذا قيمة عن الولايات المتحدة .

ولكن الذى اعطى رانكه مكانه الكبير فى تاريخ علم التاريخ هو اهتمامه بالوثائق والمنهج الدقيق الذى وضعه لتنظيمها ودراستها ، وكانت الوثائق تسمى بالدبلومات ولهذا فان مدرسة رانكه تسمى بالمدرسة الدبلومية ومن الخطأ تسميتها بالمدرسة الدبلوماسية . فلا علاقة لعمله بالدبلوماسية بمفهومها الشائع اليوم . ومما يذكر له بالخير اسفاره المتعددة الى بلاد اوروبا لفحص مجموعات الوثائق وتقارير السفراء والمكاتبات الرسمية . واليه يرجع الفضل فى انشاء اللجنة التاريخية فى اكاديمية باڤاريا للعلوم Historische Kommission bei der Bayrischen Akademie der Wissenschaften فقامت هذه اللجنة بنشر الوثائق العامة ووثائق الدولة والمدونات والخطابات . وعلى مثال هذه اللجنة انشئت فى نواحي اوروبا كلها هيئات قامت بهذا العمل فى كل ناحية ، فتهيأت السبل بذلك امام المؤرخين ليقيموا دراساتهم على الاصول . وانشأ كذلك المجلة التاريخية السياسية Historische-Politische Zeitschrift فكانت من طلائع الدوريات التاريخية التي قامت ولا زالت تقوم بالدور الذى نعرفه فى ميدان الابحاث التاريخية .

والنظرية الاساسية التي جاء بها هي قوله باننا ينبغي ان نصور الماضي كما كان بالضبط wie es eigentlich gewesen وهي غاية عسيرة كل العسر ، لم يوفق اليها هو نفسه فى الكثير من كتبه ، ثم اننا لا نعرف كيف كان الماضي بالفعل حتى نحكم اذا كان المؤرخ قد وفق الى تصويره تصويرا دقيقا ام لم يوفق ، ولكن مذهبه هذا دفع بالمؤرخين الى الانصراف عن التصورات المثالية او التخيلية للماضي والبحث عن الحقيقة كيفما كانت على قدر ما تساعفهم ملكاتهم .

وكان رانكه كذلك مولعا بتنسيق المادة التي يحصل عليها والبحث عن التوازن فى تصويره للحوادث او المجتمعات ، ولهذا فانه لم يوفق الى فهم الثورة الفرنسية مثلا لانه لم يجد فى حوادثها ذلك التوازن الذى كان يلتمسه دائما . وقد كان مغاليا ولا شك فى تقدير مهمة المؤرخ عندما قال فى مقدمته لكتابه عن تاريخ الامم اللاتينية والجرمانية : « ولقد وُضِعَت على عاتق التاريخ مهمة الحكم على الماضي وافهام الحقائق لأهل الحاضر بما يعود بالخير على اهل الاجيال القادمة . وكتابي هذا لا يسمو الى تحقيق هذه المطالب الرفيعة وكل مايسعى اليه هو ان يعرض ما حدث فعلا بالضبط كما كان بالفعل » . ولقد كان لهذا المبدأ اثر سيء فى اعمال الكثيرين من المؤرخين الذين تابعوا رانكه ، فجعلوا من انفسهم قضاة للماضي وحكماء على اهله ، ومضوا يصدرون احكاما تضمنت خطلا كثيرا ، وجعلت الكثير من هذه الكتب اشبه بالهراء ، لأن مهمة المؤرخ الاساسية ليست الحكم على الماضي وانما فهمه ، وعند الفهم الصحيح للماضي ينتهي مهمة المؤرخ كمؤرخ ، فاذا تعدى مهمته ونصّب نفسه قاضيا تعرض للخطأ .

على أى حال يعتبر رانكه بشخصيته وحماسه ونشاطه ودأبه على العمل فاتح عصر جديد فى تاريخ التاريخ ، فقد نقل التاريخ من ميادين الادب والفلسفة والتأملات الى ميدان خاص به ، فتقرر بصورة نهائية مكانه كعلم له شخصيته وحدوده ومناهجه واهدافه وفائدته . واقبلت الجامعات تخصص له الكراسي ، عامة اولا ، ثم مخصصة بعد ذلك ، فانشىء فى الجامعة الواحدة اكثر من كرسى للتاريخ ، وانشئت دور المحفوظات ، ورتبت فيها الوثائق ، ووضعت تحت تصرف الباحثين ، وظهرت وظيفة خاصة جديدة هي وظيفة قيّم المحفوظات Archioist بل انشئت كما سنرى معاهد خاصة لعلم الوثائق . وقد بلغ من تقدير الناس لعمل رانكه أن قال اللورد آكتون استاذ التاريخ الانجليزى المعروف : ان رانكه هو كولمبوس العلم التاريخي .

ولا يمكن ان نغفل ذكر **نيبوهر** Barthold Georg Niebuhr فى هذا المجال . كان هذا الرجل دانماركى الاصل ولكنه دخل فى خدمة الحكومة البروسية من سنة ١٨١٠ حيث عين محاضرا فى التاريخ فى جامعة برلين ، وفى تلك الجامعة القى سلسلة محاضرات عظيمة القيمة فى تاريخ روما نشرت فى مجلدين سنة (١٨١١ – ١٨١٢) وقد اثبت فى هذين المجلدين واعتمادا على الوثائق والسجلات زيف مؤرخ كان له مقام كبير فى دراسات تاريخ الدولة الرومانية وهو **تيتوس ليفيوس** Titus Livius وقد اتبع نيبوهر فى دراسته منهجا غاية فى الدقة والاحكام تمكن به من استخلاص الحقيقة من كل ما وقع تحت يده من وثائق ونقوش وسجلات وخطابات . وقد تأثر رانكه نفسه بمنهج نيبوهر فى الاستفادة الكاملة من المذكرات واليوميات والمراسلات الدبلوماسية وروايات شهود العيان وما اليها من المراجع الاصيلة المباشرة .

وعقب ذلك مباشره قام المؤرخ الفرنسي **فرانسوا جيزو** Guizot (١٧٨٧ – ١٨٧٤) الذى اصبح وزيرا فيما بعد باصدار اوائل مجلدات مجموعة وثائق تاريخ اوروبا فى العصور الوسطى المعروفة باسم Monumenta Historiae Germaniae التى بلغت مجلداتها فيما بعد بضع مئات ضمت مجموعة هائلة من الوثائق والمذكرات والمكاتبات ونصوص المعاهدات وما اليها . ثم قام المؤرخ الفرنسي **اوجستان تييرى** Augustin Thierry (١٧٩٥ – ١٨٥٦) باصدار كتابه المعروف « تاريخ الغزو النورماندى لانجلترا » (١٨٢٥) معتمدا على الوثائق الأولى فحسب ومثقلا بالهوامش واشارات المراجع . وفى سنة ١٨٢١ انشئت فى فرنسا مدرسة الوثائق المعروفة باسم Ecole des Chartes التي لا تزال الى اليوم من اعظم معاهد اوروبا لدراسة علم الوثائق والمخطوطات وما الى ذلك . وكل هذه نتائج مباشرة للحركة التي ادخلها رانكه ونيبوهر على دراسات علم التاريخ .

ولم يقتصر عمل رانكه ونيبوهر ومدرستهما على تقرير اصول البحث التاريخي ومناهجه ووضع الاسس العلمية للنقد التاريخي واكمال تكوين التاريخ كعلم سوي قائم بنفسه مستقل الشخصية . بل انهم عملوا كما قال **ايمرى نيف** فى كتابه عن « شاعرية التاريخ » : على توكيد مغزى الاحداث واستمرارها وادراك حركة التطور التاريخي وفهمها » (٢١) .

وقد اتهم رانكه ، من بعض معاصريه ومؤرخي الجيل التالي عليه ، بأنه جرد التاريخ من شاعريته وجعله سجلا جافا للحقائق المدعمة بهوامش ضخمة من الاشارات الى الاصول ، والمراجع ، واخذ عليه ايضا ايمانه القومي المتعصب بالدولة البروسية واسلوبها المحافظ فى

---

(٢١) Emerhy Neff, The Poetry of History (1947) p. 137.

الحكم ، ومن هنا كان رانكه معاديا لكل حركات التحرر التي قامت فى اوروبا فى عصره ، ومن الواضح ان محافظته حالت بينه وبين فهمها . ومن هنا كانت الحملة عليه شديدة من جانب مؤرخين مثل **دورنج** Duuering **ولورنتس** Lorentz **ولامبرخت** Lamprecht **ويوهان جوستاف درويسن** Johann Gustav Droysen (١٨٠٨ – ١٨٨٤) الذى وصف موضوعية رانكه بانها سلبية .

ولكن اكبر ناقدى رانكه كان **يعقوب بوركارت** Jacob Burckhardt (١٨١٨ – ١٨٩٧) وهو من اصل سويسرى ، ولكنه تتلمذ لرانكه وتخرج عليه فى برلين وقد نفر من جمود رانكه وقضائه على الجانب الشاعرى من التاريخ . وبلغ من استنكاره لمذهب رانكه هذا ان رفض ان يتولى كرسي التاريخ بعده فى جامعة برلين ، ثم قام بتأليف ثلاثة من احسن ما كتب فى التاريخ على المذهب الجديد وهي : عصر قسطنطين الكبير Die Zeit Konstantin des Grossen (١٨٥٣) وحضارة عصر النهضة فى ايطاليا Die Kultur der Renaissance in Italien (١٨٦٠) وتاريخ النهضة فى ايطاليا Die Geschichte der Renaissance in Italien (١٨٦٨ – ١٨٧٣) ثم اتبعها بكتابه المشهور : تأملات فى التاريخ العالمي Weltgeschichtliche Betrachtungen وكلها كتب تجمع بين المنهج التاريخي الدقيق الى جانب الاحساس الانسانى والجمالي . وجدير بالذكر ان آدم ميتز الذى كتب كتاب نهضة الاسلام Die Renaissance des Islams الذى اشتهر عندنا بترجمته العربية التى عملها **د . محمد عبد الهادى ابو ريده** ونشرها باسم « الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع » هذا الرجل كان تلميذا لبوركارت وهو سويسرى مثله ، وقد كتب كتابه على مثال كتاب استاذه عن تاريخ عصر النهضة فى ايطاليا .

وقد اشرنا الى بعض ممثلي هذه الحركة الجديدة فى فرنسا من امثال جيزو وفييرى ولكن اكبر اولئك الممثلين وابعدهم اثرا كان **جول ميشيليه** Jules Michelet (١٧٩٨ – ١٨٧٤) الذى جمع الى ضبط المدرسة الجديدة ودقتها وقدرتها على الاستفادة من المراجع روحا شاعرية رومانتيكية ، وحماسا قوميا يساير حركة الثورة الشعبية التي استمرت فى فرنسا طوال القرن التاسع عشر . لقد اشتهر ميشيلية بتاريخه المطول لفرنسا الذى يقع فى سبعة عشر مجلدا (١٨٣٣ – ١٨٦٧) الذى يعتبر دون شك من اعظم الاعمال العلمية فى تاريخ التاريخ ، ولكن جهود ميشيليه فى اصلاح مناهج علم التاريخ فى المدارس الثانوية لا تقل اهمية عن ذلك . لقد تولى مشيليه التدريس فى مدرسة المعلمين العليافى باريس L'Ecole Normale وفى السوربون وفى الكوليج دى فرانس Le Collège de France ولكن ذلك لم يصرفه عن تأليف كتب مختصرة فى التاريخ لينتفع بها المدرسون فى المدارس مثل مختصر للتاريخ الحديث Prècis de l'Histoire Modern (١٨٢٧) ومقدمة للتاريخ العالمى Introduction à l' Histoire Universelle (١٨٣١) وكلها مؤلفات كان لها ابعد اثر فى وضع الأسس للكتاب المدرسي فى مادة التاريخ .

هيجل والمثالية التاريخية :

ولا بد من الاشارة هنا الى العلاقة بين آراء هيجل فى التاريخ وما حققه رانكه ومعاصروه . لقد سبق ان اشرنا الى بعض نظريات جيورج فلهلم **فريدريش هيجل** (١٧٧٠ – ١٨٣٠) ولكننا حريون الآن بأن نلقي نظرة على مجمل آرائه قبل ان ننتقل الى دراسة آراء مدرسة الماديين اى

اصحاب التفسير المادي للتاريـخ ، وهـم الذينزعزعوا الثقة في قيمة فلسفة التاريخ عند هيجل.
وواضح ان هيجل سابق على رانكه بجيل كامل فقد ولد هيجل سنة ١٧٧٠ وولد رانكه بعد ذلك بخمس وعشرين سـنة (١٧٩٥) وعندما توفيهيجل سنة ١٨٣١ كان رانكه في مطالع نشـاطه الواسع المادي ، ولكنه نشأ على أى حال في جـومشبع بالهيجيلية التي ظلت تسيطر بقـوة على الفكر الاوروبي حتى تمكن الماديون من زحزحتهاعن مكان الصدارة في عالم الفكر الاوروبي .

يعتبر هيجل في جملة المثاليين الذين يقولونان الفكر او الفكرة اساس كل ما هو موجـود .
ويـستعمل هيجل هنا مصـطلحا خاصـا هـو der Geist الذى يمكن ترجمته ايضا بعبارة الروح او ما يسمى في الانجليزيـة Spirit وفي الفرنسية Esprit ولكن هيجل كـان يعني به العقل او الفكر ، ولكنـه ليس العقل او الفكـرالانسانيين العاديين وانما هو العقل الأعلى الذى يوجه الكون ، وهذه الفكرة نبعت من ايمان هيجلالوثيق بالمسيحية وقد بسط فكرته تلك في كتابه عن روح المسيحية Das Christlicha Geist وهو يرى في المسيحية او روح المسيحية اجتماع العنصرين الالهي والانساني ، اى الروح والبدن ،اى الكنيسة والدولة ، والعبادة والحياة ، والتقى والفضيلة ، وهذه الثنائية المسيحية كان هيجليراها في الكون كله . وقد كان المفكرون الماديون يقولون ان الفكر يحكم الدنيا L'Opinion gouverne le Monde فكانـوا بهذا يعطون العقـل الانسانى اكثر مما يستحق او يستطيع ، وكانوابذلـك واحديين أو monists في تفكيرهم . اما هيجل فكانثنائيا يؤمن بأن هناك عنصرينمتميزين يختلف كل منهما عن الآخر وهما الروحي والمادي وهما يجتمعان في روح او فكر واحـد Geist يعتبر القوة العليا التي تحرك كل شيء ، وهذا هو العقل المطلق ، ويعتمد هيجـل في التدليل علىذلك بنوع خاص من الجدل او الحوار يسمى عادة باسم Dialektik وعن طريق هذا الجدل وصلالى القول بأن العقل او الفكر الانساني يسـعى دائما نحو التقدم ليصل الى العقل او العلم المطلقالذى يعتبره مثالا يحتذيـه ، ومن هنا يوصـف هيجل بانه مثالي ، بل يعتبر في طليعـة المثاليينالألمـان وهم خصـوم الماديين the materialists الذىن سنتحدث عنهم في الفقرة التالية . وقـدشرحنا فيما مضى كيف طبق هيجل هذا المبدأ في فلسفته للتاريخ وهي تتلخص في سـعي الجماعاتالانسانية للانتقال من حالة الهمجية والوحشية الى مستوى الدولة ذات النظام والقانون . وقدوفق هيجل في ميدان فلسفة التاريخ توفيقا جعل الناس يضعونه دائما في عداد المؤرخين . وبالفعلكان هيجل مؤرخا واسع الفهم والادراكالتاريخي.
وبفضل هذا الادراك وصل بفلسـفة التاريخ علىمذهب المثاليين الذين يؤمنـون بالفكر او العقل المطلق الذى يسير الاحداث في الكون ويعتبرونهمثالا او مثلا اعلى ، وان التاريخ على هذا الاعتبار ان هـو الا عمليـة طـويلة مُقَدَّرة بقَـدَر Vorsehungsprozesse يأخذ فيها كل حادث او ظرف مكانه ومبرراته على ضوء مسـار التاريخفي مجموعه . وقد اهتم هيجل اهتماما خاصـا بالتطور الانساني للدولة وهنا يتفق هيجـل معرانكـه الـذى قال ان الـدول افكـار اللـه Gottesgealanken ويريد بذلك انها تقوم بتقديرالله سبحانه (٢٢) .

---

(٢٢) Fritz Stern, The Varieties of History (1956) p. 61-62.
Arthur Marvick, The Nature of History, p. 37.

وقد اخذنا آراءنا عن فلسفة التاريـخ عند هيجل منكتابه المشهور عن فلسفة التاريخ واحسن ترجمة انجليزية له هي التي عملها J. Sibree ونشرها سنة ١٩٥٦ .

التفسير المادى للتاريخ :

ولكن مثالية هيجل لا تعين الانســـان علىتفسير الحركة الدائمة للتاريـخ . انها ترضـي الفيلسوف او العقل الفلسفي الذى يفتنه منطقهيجل الدقيق ، وطريقته فى الجدل ، التى تكشف عن ذكاء خارق ، ودقة ذهن لا تجارى ، ولكنناعندما ننتهي من استيعاب مذهبه ونفهم ان الفكر او الفكرة او العقل المطلق او المثال هو اساس كلموجود او روحه بتعبير ادق ، وان المادة نفســها ليست الا صورة من صور وجـود العقل المطلقاو الفكر نجد انفســنا قد خـرجنا من ميدان التاريخ تماما ، واننا عاجزون عن الاستفادة منهذا التفلسف الرفيع فى فهم اى حادث كبير من حوادث التاريخ . ان الفيلسوف يجد متعة كبرىعندما يجد هيجل يقول : ان التاريخ انما هـو تفتح ذلك العقل الكوني (المطلق) وانبساطه فىالزمان . ولكن المؤرخ لا يـدرى ماذا يفعل بهذه العبارة .

ولقد قال هيجل ان فلســفة التاريـخ هيالتاريخ منظورا اليه بذكاء . وبالفعل يرى القارىء لكتاب هيجل فى فلسفة التاريخ انه نظـر اليـهبذكاء ، فالقى نظرات بالغة الصدق على حضارات العصور القديمة ، ولكنه عجـز تماما عن ادراكالعوامل التي ادت الى سقوط روما مثلا . وهذا هو الذى جعل رانكه ومدرسته يجهدون انفسهمفى جمع الوثائق والمخلفات والمخطوطات ودراستها بعناية ، باحثين عن العوامل التي حركت تاريـخالبشر شأنهم فى ذلك شأن المحقق الجنائي الذى يفحص كل صغيرة وكبيرة يعثر عليهـا فى مسرحالجريمة بحثا عن ادلة توصله الى الحقيقة ، ثم يعد ملفا كاملا للقضية ، ويضعه بين يدىالقاضي. هذا الملف يصف بغاية الدقة كيف وقعتالجريمة، ولكنه فى الغالب لا يصل الى مرتكبها الحقيقي ،ويوقع القاضي بذلك فى حيرة كبرى ، والقاضي هنا هو القارىء الـذى يهلك فى قـراءة مؤلفاتالمؤرخين الذين الفوا على مذهب رانكه ، متاثرين بمثالية هيجل ، واثقلوا كتبهم بهوامش واشاراتالى المراجع تزيد حجما على النص نفســه ، ولا يصل فى نهاية الامر الى حقيقة الواقعة التاريخيةالتي يقرأ عنها .

ولكن نفرا آخر من المؤرخين اتجهوا من أولالامر اتجاها ماديا فى دراسة التاريخ ، اذ انهـم اعتبروا الانسان حيوانا كغيره يسعىلرزقهوحمايةنفسه . وجعلوا دابهم البحث عن العوامل الداخلية التي تدفـع الانســان او الجماعات البشرية الىالحركة ، وكلها فى نظرهم عوامل مادية . اى انهم نظروا الى التاريخ وكأنه فرع من فروع التاريخالطبيعي فكانت مؤلفاتهم اكثر واقعية واقرب الى حقيقة الواقع ، وهؤلاء هم الماديون الذين تركواجانبا العامل الروحي او الديني او الفكرى ونظروا الى المادى وحـده ، فعرفـوا باسـم الواحديين Monists او اصحاب المذهب الواحد ، بخلاف المثاليين او الثنائيين الذين فسروا حركة التاريخعلى انها بحث عن التوازن بين توجيه العقل المطلق الرفيع ونزعات البشر .

ولن نستطيع دراسة جميع اولئك الماديينومذاهبهم . فذلك مطلب يطول . ثم ان الكثيرين منهـم تمادوا فى هذا الاتجاه الى درجـة التبذلوالسخف ، ولهذا فاننا سنكتفي بالظاهرين منهم ، الذين يحددون معالم الطريق الذى وصل فى نهايتهالى كارل ماركس وفريدريش انجلز .

نبدأ عند **سان ســيمون** Saint Simon الذى يعتبر من المع رجال الفكر الثورى فى فرنسا بل اوروبا كلها . عاش سان ســيمون فيما بينسنتي ١٧٦٠ و ١٨٢٥ فهو من الممهدين للثـورة الفرنسية وصانعي فلسفتها ، وهو يحســب فىالعادة بين علماء الاجتماع او الاقتصاديين . وهو

نفسه كان يقول ان ميدانه هو الفيزياء الاجتماعية la phisique sociale وكان يحسب انه يستطيع بتحليل المجتمع تحليلا فيزيائيا ان يجعل من التاريخ علما يقينيا كغيره من العلوم الطبيعية. ولكي يصل الى ذلك عكف على دراسة تاريخ اوروبا منذ سقوط الامبراطورية الرومانية. واهتدى الى ان هذا التاريخ يتلخص فى صراع متصل بين العاملين (من زراع وصناع) ويسميهم بالطبقة الثالثة tiers-etat والطبقتين الممتازتين اللتين تستفيدان من جهود العاملين ، وهما طبقة النبلاء (الملوك ورجال الاقطاع) وطبقة كبار رجال الدين أو الاكليروس. وقد ابدى سان سيمون ذكاء بعيدا فى دراسته تلك. وشرح لنا كيف ان الملوك أيدوا الطبقة الثالثة فى صراعهم مع امراء الاقطاع خلال العصور الوسطى. ومن مظاهر هذا التأييد تلك الحقوق التي منحوها لسكان المدن من تجار وصناع الذين كانوا يكرهون امراء الاقطاع الذين كانوا يستغلونهم ، وكانت نتيجة ذلك ظهور المدن الصناعية الفنية les bourgs وسكانها وهم البورجوازيين les bourgeois الذين تزعموا الطبقة الثالثة فى نضالها مع أمراء الاقطاع. ثم قادوها بعد ذلك فى صراعها مع الملوك (الثورة الفرنسية وما تلاها).

وبذلك يكون سان سيمون اول من تنبه الى ان صراع المصالح الاجتماعية ، او مصالح الطبقات الاجتماعية هو السبب الرئيسي فى الحركة التاريخية ، واول من تنبه الى حرب الطبقات وحرب المصالح ودورها الكبير فى حركة التاريخ.

وفى هذا الطريق سار احد نبهاء تلاميذ سان سيمون وهو **اوجستان تيرى** Augustin Jacques Nicolas Thierry (١٧٩٥ — ١٨٥٦) الذى يعد من المؤرخين الرومانتيكيين بسبب بلاغته وقدرته على صب رؤيته فى قالب درامي يذكرنا بأدوارد جيبون. وكان الى جانب اهتمامه بالتاريخ والاجتماع قصاصا. ويعتبر كتابه عن « الغزو النورماني لبريطانيا » من أحسن ما كتب فى الموضوع معتمدا على المراجع الاولى ، وقد كلفه هذا الكتاب بصره ، فما زال يضعف حتى عمي تماما سنة ١٨٣٠ ولكنه ظل نشيطا فى عالم البحث التاريخي حتى توفي سنة ١٨٥٦.

وقد عاش تيرى بعد احداث الثورة الفرنسية وتحمس لمبادئها تحمسا شديدا واستهواه نظام الكومون la comune parisienne اى الحكومة المحلية الاشتراكية التي قامت فى العاصمة الفرنسية فى اثناء الثورة ، وهي اول تجربة فى تنظيم الحكم على اساس اشتراكي متطرف ، فأخذ يدرس تاريخ جمهور الناس او ما يسمى بالطبقة الثالثة tiers-état وألف فى ذلك كتابا من اربعة مجلدات سماه « مجموعة وثائق غير منشورة عن تاريخ الطبقة الثالثة (١٨٥٠ — ١٨٧٠) Recueil des monuments inédits de l'histoire du Tiers-état فسّر فيه التاريخ على انه صراع بين الطبقات ومصالحها ، وقال فيه ان الطبقة العاملة هي اساس الانتاج ومصدر الثورة ، وانها كانت دائما فى كفاح مع الطبقات القوية المستبدة للوصول الى حقوقها ، وهاجم الفكرة القائلة بأن التاريخ من صنع الابطال وعظماء الرجال وتساءل : « أتريدون ان تعلموا على وجه الصحة من الذى انشأ مؤسسة ما ، أو من الذى وضع خطة مشروع عظيم ؟ اذن فابحثوا عن الذين احتاجوا اليه بالفعل ، اولئك هم اصحاب فكرته الأولى وارادة العمل من اجله ، وهم اصحاب الفضل الاكبر فى تحقيقه ». وعلى هذا الاساس لا يكون وليام الفاتح بطل الغزو النورماني لانجلترا وانما الابطال الحقيقيون هم الزراع النورمان الفقراء فى شمال غربي فرنسا ، الذين دفعتهم حاجتهم الى الارض الى الاندفاع نحو انجلترا باحثين عن مجال حيوى فسيح. وهنا فقط تصدى وليام لقيادتهم.

وشبيه بهذا ما نقرأه عند معاصر تييرى وهو **فرانسوا مينييه** François Auguste-Marie Mignet (١٧٩٦ ـ ١٨٨٤) الذى كان مؤرخا،وامين محفوظات ، وصحفيا ثوريا مناضلا . كان زميلا وصديقا **لأدلف تيير** Adolphe Thiers الذىاصبح فيما بعد رئيسا للجمهورية الفرنسية. كتب مينييه كثيرا جدا ولكن تاريخه للثورةالفرنسية الذى صدر فى مجلدين سنة ١٨٢٤ يفسرها على انها صراع طبقات . صراع بينالعاملين المنتجين والطبقتين المستفيدتين من ثمرات جهود العاملين ، فهو يقول مثلا عن دستورسنة ١٧٩١ الذى اصدرته حكومة الثورة الفرنسية : كان هذا الدستور من صنع الطبقةالوسطى la bourgoisie التي كانت اقوى الطبقات فى ذلك الحين . اذ أن القوة السائدةـ كما هو معروف ـ تسيطر على المؤسسات والنظم . وكان يوم ١٠ اغسطس انتفاضة جماهيرالناس ضد هذه الطبقة الوسطى وضد الملكية الدستورية . كما كان يوم ١٤ يوليو انتفاضةالطبقة الوسطى ضد الطبقات المتميزة وضد الحكم الملكي المطلق » .

وهذه العبارة تهمنا هنا بصفة خاصة لأنهاترينا ان كارل ماركس لم يكن اول من تنبه الى الدور الحاسم لحرب الطبقات وصراعها علىالسلطان فى توجيه التاريخ .

فمن المعروف أن الثورة الفرنسية التيقامت فى ١٤ يوليو ١٧٨٩ قادها رجال الطبقة الوسطى ، الذين كانوا قد اثروا وتمولوا فى عهودالملكية ، وعندما تكدست ثرواتهم شعروا بقوتهم وتطلعوا للسلطان ، فنادوا بالثورة على الملكيةواستخدموا جماهير الناس فى ذلك . فلما انتصرت الثورة تربع رجال هذه الطبقة الوسطى اىالبورجوازيون فى دست الحكم واصدروا دستور ١٧٩١ الذى يؤمّن اموالهم وامتيازات طبقتهم .وانزلوا بجمهور الناس مظالم شتى .

وكان هذا هو الذى دفع بجماهير الناس فىباريس بالثورة على البورجوازية المتحكمة وانشاء الحكومة الاشتراكية المتطرفة la comune فى ١٠ اغسطس١٧٩٢ والغاء دستور ١٧٩١ ومواصلة الثورة الى نهايتها .

كارل ماركس والتفسير المادى للتاريخ :

لم يكن كارل ماركس اذن اول من تنبه الىان التاريخ لا يسيره العقل المطلق وحده ولا يصنعه عظماء الرجال بعبقرياتهم ، وانما تصنعه عمليةتطور اجتماعي داخلي فى كيان كل امة ، وصراع طبقات للوصول الى الحكم والسلطان ، وان العامل الرئيسي الذى يقرر المصير فى النهاية هو الانتاج ، هو الثروة ، وان من يملك وسائل الانتاج يستمتعبثمراته ويفرض سلطانه . والذى فعله ماركس انه نص على العامل الاقتصادى الاجتماعي فىتحريك التاريخ نصا شديدا وصاغ منه نظرية متكاملة الاطراف .

وكارل هاينريخ ماركس Karl Heinrich Marx(١٨١٨ ـ ١٨٨٣) المانيا من اصل يهودى ، وقد تنصر والده على المذهبالبروتستنتي ، ونشأ اولاده كلهم على هذا المذهب ، ولكن كارل ماركس يبدو لنا من أولالامر عريق الالحاد . درس الفلسفة والتاريخ فى جامعتى بون وبرلين ، وتأثر تأثرا عميقا بآراءفلهلم فريدريخ هيجل « وبعد حصوله على الدكتوراة من جامعة ييفا كان يستطيع اتخاذالسلك الجامعي ، ولكنه خلق مقاتلا فاتخذ الصحافة عملا ، واصبح رئيس تحرير جريدةالراين Rheinische Zeitung فى كولونيا ، ولكنه لم يكن صحفيّ اخبار ، بل كان صحفيرأى ، وصحافة الرأى قلما تؤتي صاحبها مالا ،

ولهذا ظل كارل ماركس حياته كلها فقيرا . بل مرت به فترات من الفقر المدقع ، وكان يعتمد دائما على المعاونات المالية التي ظل يقدمها لـه عمره كله صـديقه وزميلـه **فريدريخ انجلـز** Friederich Engels وهو قسـيمه فى معظم افكاره ومؤلفاته وكفاحه .

وقد ظهرت آراء ماركس فى التفسير المادى للتاريخ فى رسالة صغيرة نشرها سـنة ١٨٤٧ فى بروكسـل بعنـوان بؤس الفلسفة Misère de la philosophie ردا على رسالة بعنوان فلسفة البؤس Philosophie de la misère كتبها فيلسـوف مثالي تقليدى هو **ب . ج . برودون** P. J Pnoudon الذى كـان يعتبر كبير فلاسـفة ذلـك العصر . وفى سـنة ١٨٤٨ نشر ماركس فى بروكسل ايضا بالاشتراك مع صاحبه انجلز البيان الشيوعي Manifest des Kommunistischen Partei وهو دعوة صريحة للعمال فى العالم كله الى الثورة وانتزاع السلطة وانشـاء الدولة الاشتراكية او الشيوعية ، وتجلى بوضـوح ان ماركس لم يكن فيلسوفا من اصحاب الرأى والقلم فحسب بل داعيـة لانقلاب سياسـي اجتماعي كبير ، ودليل ذلك انه انشأ فى سنة ١٨٦٨ اثناء وجـوده فى لندن الجمعية الدوليـة للعمـال : International Workingmen's Association التي تعـرف عادة باسـم « الدوليـة الاولى The First International » تمييزا لها عن جمعيتي العمال الدولية الثانية والثالثة اللتين قامتا على يد **لينين** واتباعه فيما بعد .

وكان كارل ماركس يشرح فى كتبه طـريقة اخراج افكاره الى حيـز التنفيذ ، اى طـريقة احداث الثورة الاشتراكية او الشيوعية ، ولهذا تعتبر كل كتبه اسسا للعمل عند أتباعه ، واهمها بالنسبة لموضوعنا هنا : صراع الطبقات فى فرنسا من ١٨٤٨ الى ١٨٥٠ (نشر فيمـا بـين سـنتي ١٨٥٠ و ١٨٥٩ Klassenkaempfe in Frankreich 1848 bis 1850 و « فى نقد الاقتصاد السياسي » Zur Kritik der politischen Oekonomie (١٨٥٩) ثم كتاب رأس المال Das Kapital الشهير الذى ظهر جزؤه الاول سنة ١٨٦٧ ونشر الجزءان الثاني والثالث بعد موته فى سنتي ١٨٨٥ و ١٨٩٤ وفى هـذا الكتاب يقدم ماركس نظريـة كاملة عن طبيعة رأس المال والنظام الرأسـمالي ويظهر كيف انه نظام هدام يخرب نفسه بنفسه، وسنتحدث عن هذه الآراء فى الفقرة التالية .

ويجهل كثير من الناس ان **ماركس** الـذى اشتهر بالدفاع عن الحرية وحـرية المستضعفين بصورة خاصة كان يؤيد الامبراطورية البريطانية ويدعو الى تقويتها وتثبيت اقدامها فى المستعمرات، ويذهب انصاره الى انه كان يقـول بذلك لانه كان يكره روسيا القيصرية ويرى انها الد اعداء الحرية فى اوروبا ، وانه كان يرى فى مساندة الامبريالية الانجليزية اضعافا لروسيا القيصرية ، وهذا غير صحيح ، والصحيح الذى يجهله الكثيرون انه كان رغم تظاهره بالالحاد يهوديا فى الصميم ، وكانت انجلترا اذ ذاك موئل اليهود وسندهم الاكبر الى جانب هولندا . وذلك قبل ان ينتقل مركز الثقل اليهودى بصورة نهائية الى الولايات المتحدة . بل كان **كارل ماركس صهيونيا** وله كتاب لا يذكر الا فى النـادر اسـمه « **الدولـة اليهوديـة** Der Judische staat » وهو الاصل الذى استلهمه **تيودور هيرتسل** عندما الف كتابه الذى يحمل نفس الاسم .

وينبغي الحذر عند الكلام على آراء ماركس، لأن الكثير مما ينسب اليه ليس له ، وانما وضعه الشيوعيون فيما بعد ونسـبوه اليه . وجديـر بالذكر ان أمر ماركس لم يشتهر فى عصره بل غطى عليه فى فرنسا فى ميدان التاريخ وفلسفته **برودون** الذى اشرنا اليـه ، وفى المانيـا **فردينان لاسـال** Ferdinand Lavalle ولم يكن لاسـال خصما لماركس بل شارحا لآرائـه . ولم تشـتهر آراء

ماركس ومؤلفاته الا على يد الثوريين الروس وخاصة لينين ، الذى وجد فى كتابات ماركس مصدرا لالهامه ، واساسا فكريا للثورة الروسية الشاملة التي كان يدعو لها . وسنحاول ان نعرض هنا اهم آراء ماركس فيما يتعلق بموضوعنا وهو التاريخ وفلسفته .

يرى ماركس ان التاريخ تحكمه قوانين يدركها العقل الانساني ، وهذه القوانين حتمية اى انها تفرض نفسها لأنها ناتجة عن حركة التاريخ نفسه . واذا ادرك الانسان هذه القوانين استطاع ان يقرر صورة مستقبل الجماعة الانسانية : وهذه القوانين ليست مثل قوانين العلوم البحتة ، وانما هي حقائق متعلقة بطبيعة العمل والانتاج ، وطريقة توزيع الثروة بين المواطنين ، فان الثروة تنتج عن العمل ، والعمل يقوم به من يعملون بايديهم او بعلمهم ومواهبهم ، فلا بد ان تعود ثمرته حتما على اولئك العاملين انفسهم . فاذا استولى عليها منهم غير العاملين من اصحاب السلطة او الطبقات غير المنتجة كالاشراف ورجال الدين والوسطاء التجاريين والمضاربين ، اختل توازن المجتمع واصبح من الضرورى اعادة التوازن اليه اما عن طريق ثورة هادئة تتم شيئا فشيئا بفضل ادراك اصحاب السلطان لطبيعة الاشياء (كما فى انجلترا) او ثورة عنيفة تحطم نظام المجتمع القائم وتقيم محله نظاما جديدا . واذا لم تنجح الثورة الاولى فى الوصول الى النظام السليم الذى يشترك اعضاؤه جميعا فى الانتاج ويستمتعون معا بثمرات الانتاج . فلا ينال انسان الا بحسب عمله ولا يصيب الا حاجته دون زيادة ، فلا مفر من ثورة جديدة كما حدث فى الثورة الفرنسية الأولى ، التي جنى ثمراتها البورجوازيون من مياسير اهل الحرف والصناعات والمتاجر وهم فى رأى ماركس ليسوا المنتجين الاصليين بل مجرد وسطاء ، فقامت بعد ذلك الثورات المتوالية على النظام البورجوازى : ثورة الكومون سنة ١٧٩٢ ثم ثورة ١٨٤٨ التي اسقطت الملكية الثانية ، ملكية لويس فيليب وماتلاها من احداث .

وقد تولت شرح تلك النظرية الحتمية **روزا لوكسمبورج** (١٨٧٠ ــ ١٩١٩) Rosa Luxemburg وهي امرأة بولندية يهودية ذات نزوع ثورى مخرب ونشاط عجيب وذهن وقاد . واليها يرجع جانب كبير من الفضل فى دفع الثورة الشيوعية الى الامام ، وهي لم تأخذ المذهب الشيوعي عن ماركس وانما عن كبار تلاميذه من الروس من امثال **ج . ف بليخانوف** G. V. Plekhanov **وباڤل اكسلرود** Pavel Axelrod **وفيرا تسازوليخ** Vera Zasulich **وهم من اكابر شيوخ لينين** . وكثير من الآراء التي تنسب الى ماركس يرجع الى روزا لوكسمبورج وخاصة فى كتابها المسمى « تراكم رأس المال Die Akkumulation des Kapitals » .

وقد قال بعض الماركسيين الحتميين بأنه اذا كان هذا التغيير حتميا أي لا مفر منه فلماذا يتعين على العمال القيام بالثورة وتعريض انفسهم للاسراع به ، ويرد الماركسيون المحاربون Militant Marxists على ذلك بالقول بأن التضحيات التي يقدمها العمال عند القيام بثورتهم اقل بكثير من خسائرهم اذا تركت العملية تتم من تلقاء نفسها ببطء . وهنا نقطة من نقط الخلاف بين الماركسيين .

ويقول ماركس ان الاحوال او الاوضاع الاقتصادية لأى جماعة هى التي تحدد صورة نظامها وكل مظاهر حضارتها . فاذا اردنا ان نفهم نظام اى مجتمع ونظامه السياسي، او حتى طبيعة عقيدته الدينية وانتاجه الفني والفكرى ، فلننظر اولا الى نظامه الاقتصادى . واساس النظام الاقتصادى هو الانتاج ونوعه واساليبه وطريقة استعمال او توزيع ثمراته . والانتاج نفسه ، سواء

أكان يدويا بدائيا او آليا متطورا لا يظل دائما على مستوى واحد واسلوب واحد . فهو يتطور دائما ، أو على الاقل متطور باستمرار ، ادواته وصورته وطريقة توزيعه . وهذا التطور للانتاج اى للوضع الاقتصادى مستمر وحتمي مهما كان بطيئا ، وتطوره هذا هو الذى ينتج عنه تطور المجتمع الذى يقوم عليه . وكل نظمه institutions وقوانينه وما يقوم على ذلك كله من افكار وعقائد وآداب وفنون ، وكل ما يسميه الماركسيون المظهر الخارجي العلوى للمجتمع Super structure .

ويقول ماركس فى شرح نظريته تلك : « ان الناس فى اثناء قيامهم بانتاجهم لمعيشتهم يقيمون فيما بينهم علاقات معينة ضرورية لهم ، ولا مفر لهم من اقامتها ، لأنها مرتبطة أشد الارتباط بانتاجهم نفسه . وعلاقات الانتاج هذه تطابق درجة معينة من تطور قواهم الانتاجية المادية .

ومجموع علاقات الانتاج هذه يشكل صورة البناء الاقتصادى للمجتمع ، أى انه الاساس الواقعى الذى يقوم عليه الظاهر الخارجي العلوى Super structure الذى ذكرناه ، وهذا الظاهر الخارجي العلوى يشمل القوانين والنظام السياسي واشكالا معينة من الوعي الاجتماعي التي تسود فى أى مجتمع من المجتمعات . ومعنى ذلك ان الانتاج المادى لجماعة ما هو الذى يحدد صورة نظامها الاجتماعي والسياسي والفكرى بصورة عامة ، فليس وعي الناس هو الذى يحدد صورة حياتهم ومستواها الاجتماعي . بل العكس هو الصحيح .. صورة حياة الناس ومستواهم الاجتماعي هما اللذان يحددان درجة وعيهم .

وعندما تبلغ الطبقة المنتجة فى الجماعة درجة من القوة فى تطورها يزداد وعي افرادها باحوالهم وحقوقهم ، ويحفزهم هذا الوعي الى الدخول فى نزاع مع الطبقة الحاكمة ، اذا كانت هذه الطبقة الحاكمة تستولي على معظم تمرات الانتاج بمقتضى التشريعات او التقاليد التي وضعتها ، لتضمن استمرار احتكارها لهذه الثمرات ، وفى العادة تكون هذه الطبقة مالكة لأحسن الاراضي والعقارات ومنابع الثروة ومحصنة لهذه الملكية بتشريعات تمكنها من احكام قبضتها على الاراضي ومنابع الثروة والعقارات ، وحصرها فى ايدى افرادها . ولا بد فى هذه الحالة من وقوع الصراع بين قوى الانتاج وتنظيمات الملكية السائدة ، لأن هذه التنظيمات انما هي فى الحقيقة قيود تكبل الطبقة المنتجة وتعرقل تطورها وتحول بينها وبين الاستفادة من تمرات جهدها .

وهنا يبدأ عهد ثورات اجتماعية وسياسية ، لأن تغير الاساس الاقتصادى يزعزع كل البناء العلوى الهائل (السوبر ستراكتشر بكل نظمه وقوانينه واخلاقياته) على درجات مختلفة من العنف والسرعة .

وعند دراسة هذه التغيرات أو الانقلابات او الثورات ينبغي دائما التمييز بين اساس الموضوع ومظهره . فأما الاساس هنا فهو التغير المادى للاوضاع الاقتصادية للانتاج ، وهذا التغير المادى حقيقي يمكن تقديره بدقة علمية ، وأما المظهر فهي الاشكال القانونية والاوضاع السياسية والدينية والفكرية والفلسفية ، وهذه الاشكال الظاهرية هي التي تسمى فى مجموعها بأيديولوجية النظام القائم ، وهي ، كما رأيت ، نتيجة لا سببا ، وطبقة علوية خارجية Super structure وليست اساسا ، ولكننا تعودنا على أن نعتبرها الاساس ، ونعطيها اكبر جانب من الاهمية ، والسبب فى ذلك ان المفكرين والفلاسفة اهتموا بتركيز الضوء عليها لأنهم هم انفسهم فى جملتها ، فهيجل مثلا وغيره من المثاليين قالوا ان الفكر هو الذى يوجه التاريخ ، لانهم هم انفسهم كانوا جزءا من النظام القائم ، وكانوا قادة الفكر فيه ، وتفكيرهم كله تأييد له ولأوضاعه ، ومن العسير

عليهم ان يتصوروا انهم فى جملة الصورة الخارجية لنظام الجماعة . ورجال القانون يتصورون أن قوانينهم هي اساس سلامة المجتمع واستقراره ويفوتهم ان هذه القوانين نفسها لم توضع الا لصيانة شكل معين للمجتمع ، حتى عيوب ذلك المجتمع ونقائصه تحميها هذه القوانين ، وكل من يحاول اصلاح هذه العيوب يعتبر معتديا على نظام المجتمع . ولا بد ، حسب رأيهم ، ان يقع تحت طائلة القانون . ومن هنا فمن الممكن جدا ان تكون مجموعة الافكار المتداولة بين المفكرين واهل القانون والنظام مليئة بالاخطاء ولكنهم يدافعون عنها فى أصرار ، ودفاعهم هذا لا يمكن ان نقبله على انه حقيقة لانك لا تستطيع ان تحكم على انسان بحسب ما يقوله عن نفسه .

وعندما تتغير اوضاع الانتاج تغيرا بعيد المدى ، يظهر بوضوح التناقض بين الحقيقة والمظهر ، بين الأساس والبناء القائم فوقه . ومن المعروف ان هذا التناقض لا يظهر بصورة حاسمة الا اذا تحركت الطبقات المنتجة لتطالب بتغيير الاوضاع ، وهنا تظهر المشاكل الاجتماعية ، وهذه المشاكل الاجتماعية الكبيرة لا تظهر الا عندما تكون الظروف المادية كلها قد وجدت ، أو آخذة فى التكون .

ويذهب كارل ماركس الى ان اوضاع الانتاج وعلاقاته هي التي تحدد جميع العلاقات الاخرى التي تقوم بين الناس فى مجتمع ما . وخاصة اوضاع الملكية ، ملكية الارض والعقار والمال والمنقولات ، فاذا كان المنتج يحصل على اكبر جانب من ثمرة انتاجه لم تكن هناك وسيلة لِتكدُّس الأموال فى يد البعض ، ولكن ذلك يحدث عندما تستولي طبقة الاقوياء والوسطاء على ثمرات الانتاج . وتكدس الاموال يظهر حتما فى صورة ملكيات كبيرة او صغيرة ، ففي مجتمع الصيادين ، حيث يتقاسم الصيادون لحم الفريسة التي صادوها معا ، فانه لا يبقى لرئيس القبيلة فائض من نصيبه يمكن تحويله مع الزمن الى ملكية ، اما فى المجتمعات الزراعية فان السلطة الحاكمة تعطي قطعا كبيرة او صغيرة من الارض لانصارها . وهذه الملكية لا قيمة لها الا اذا وجد الفلاح او او الزارع الذى يستطيع زراعة الارض واخراج ثمراتها . وما دام الفلاح فى حاجة الى ارض يزرعها فهو مضطر الى التفاهم مع مالك الارض على ان يُسمح له بزراعتها ، وهو فى الغالب يتفاوض فرديا فيضطر الى قبول شروط المالك . وهي فى العادة لا تعطي الزارع الا الكفاف ، والباقي يتوزع بين صاحب الارض والوسطاء بينه وبين الفلاح المفرد الصغير . وشيئا فشيئا يقل نصيب الفلاح من ثمرة انتاجه ، ويزداد تبعا لذلك نصيب الآخرين ، فتزداد مساحات الملكيات وثمراتها ، وتُسَنُّ القوانين ، وتوضع النظم لحماية هذه الملكيات ، ولقد صدق **جيزو** عندما قال : ان اوضاع الملكية فى اى مجتمع تشرح لنا طريقة تكوينه .

ويطبق الماركسيون هذا القول على الصناعة فيقولون ان الصانع الذى يوفق فى صناعته ، ويتمكن من جمع رأس مال يمكنه من توسيع نطاق صناعته ، يفرض شروطه على العامل المفرد الذى يدخل فى خدمته . وكما ان مالك الارض الزراعية يجتهد دائما فى ان يحصل من المزارع الصغير على اكبر قدر من ثمرة عمله ، فكذلك صاحب المصنع . فنصيب العامل دائما اقل فى حين ان رأس مال صاحب المصنع فى زيادة دائما ، وفى وقت ماينعدم التوازن بين المنتج والمتمتع بثمرة الأنتاج . ولا سبيل فى هذه الحالة امام العمال ، ليعيدوا هذا التوازن الى حد معقول ، الا بأن يتفاهموا جماعيا مع صاحب رأس المال ، وما دام عملهم هو اساس ثروته فهو مضطر الى التفاهم معهم ، وهذا هو اساس البيان أو «المانيفستو الشيوعي» الذى نشره ماركس وانجلز سنة ١٨٤٨ وبدأه بقوله : يا عمال العالم اتحدوا .

ومعنى هذا ان ماركس واتباعه يقولون ان الظروف المادية للمجتمعات هي التي تحرك التاريخ ، فالثورات والانقلابات السياسية سواءاكانت عنيفة سريعة ، او هادئة بسيطة ، ترجع فى نهاية الامر الى اوضاع العمل والانتاج والملكية ، وسلامة هذه الاوضاع او عدم سلامتها هي التي تعين قوة النظام القائم عليها او ضعفه . وقوته تحول دون العدوان الخارجي عليه ، وضعفه يشجع الآخرين على العدوان عليه . اى ان الاوضاع المادية للمجتمعات هي فى النهاية من اكبر أسباب الحروب . بعبارة مختصرة : الاوضاع المادية ، واحوال الملكية ، وصراع الطبقات ، بعضها مع بعض ، هي العوامل التي تدفع حركة التاريخ كله ، وهذا هو ما يسمى بالتفسير المادى للتاريخ .

ولا يقول ماركس بأن الافكار لا دور لها اطلاقا فى توجيه التاريخ ، بل هو يعترف بقوتها وفاعليتها ، ولكنه ينكر انها عوامل مستقلة بنفسها . وانما هي ناتجة عن الاوضاع المادية ، وهي فى رأيه وسيطة بين التغير الاقتصادى والمظهر الخارجي للحوادث . وفى هذه الحدود يقول ماركس ان الافكار يمكن ان تكون ذات قوة كبيرة . ولايقول ماركس بأن الانسان لا تحركه الا الدوافع المادية الانانية ، فهو يعترف بوجود عواطف الايثار ، والحماس الديني ، والوطنية وغيرها من الخصال المثالية ، ولكنه يردها بدورها الى الاوضاع الاقتصادية واثرها المباشر او غير المباشر على العقل الانساني .

وهو يقول ان التطور التكنولوجي يؤدى بطبيعته الى انشاء مصانع اكبر فاكبر ، وان ذلك سيستلزم بالضرورة رؤوس اموال اضخم مع الزمن ، وكلما زاد حجم المنشأة الصناعية تضاءل حجم العامل بالنسبة لرأس المال الضخم واصحابه ، وهذا يؤدى الى استبداد رأس المال بالعمال ، ومن هنا تبدأ مشاكل الصراع بين العمال واصحاب رؤوس الاموال ، وهو صراع يحول بين الجماعة والاستقرار المنشود ، ويعرض مصالح العمال للخطر ، ولا حل فى هذه الحالة الا ان نضع الجماعة يدها على مصادر الانتاج وادارتها جماعيا ليعود خيرها كله على الجميع .

وقد لاحظ معظم نقاد التاريخ والاقتصاد ان هناك نقطة ضعف كبيرة فى تلك النظرية وهي غموض مفهوم « التغير الاقتصادى The economic change التي جعلها ماركس اساسا لكل فلسفته التاريخية الاجتماعيه ، وجدير بالذكر انه لم يقدم فى اى كتاب من كتبه عرضا واضحا متكاملا لتفسيره المادى للتاريخ ، انما جاء هذا العرض مفرقا ومتناثرا فى مؤلفاته الكثيرة . وقد اجتهد انجلز وماركس معا فى لمّ اطراف هذه النظرية فى رسالة كتباها فى الرد على ناقد ثورتهما يسمى **اويجن دورنج** Herr Eugen Dûhrings revolution in science ولكن حتى هنا لا نجد ذلك العرض المتكامل الذى يتحدث عنه الماركسيون فى حماسهم للتفسير المادى للتاريخ .

والحق اننا لا نستطيع الفصل بين الانتاج والفكر فى مجتمع ما ، ولا يمكن ان نقول ان صورة الانتاج هي التي تعطي الصورة الظاهرة لنظام المجتمع وفكره وذوقه ، او ما يسميه الماركسيون بالظاهر الخارجي super structure لأن الانتاج نفسه يخضع فى جانب كبير منه لهذا الظاهر الخارجي . واكثر من نصف الانتاج فى أى مجتمع معاصر يوجه لارضاء مطالب نفسية واجتماعية وذوقية وفنية للمجتمع . فان الانتاج لا يقتصر على الزراعة وصناعة الضروريات ؛ بل يشمل ايضا الاقمشة الغالية الفاخرة ، والسيارات الفارهة ، والاثاث النفيس ، والعطور الغالية ، وادوات التجميل ، وملابس السيدات ، والخمور والسجائر ، وغير ذلك مما يدخل ضمن الكماليات ، ولكنه يصنع خاصة لارضاء مزاج وذوق اهل الطبقة الظاهرة الخارجية اى السوبر ـ ستراكشر ، وهنا يتجلى لنا كيف ان هذا الظاهر الخارجي للمجتمع هو نفسه يعتبر من أسس الانتاج .

ولكن ، لا شك ان تطور الانتاج عامل حاسم في تطـور الجماعات وسـير تاريخهـا ، وحتى لو سلمنا انه في اساسه يعتمد على القدرة البدنية والتقدم التكنولوجي ، فلا بد ان نسلم بأنه مستمر ولا يمكن ايقافه . صحيح انه في كثير من الاحيان تقف النظم والقوانين والمصلحة المتشـابكة لأهل نظام معين سائد في وجه هذا التطور ، ولكن مع تقدم العلم والتكنولوجيا يصبح الانتاج المادى قوة لا تقهر ، وهنا نضع يدنا على الجانب الصحيح من النظرية الماركسية ، وفي ايامنا هـذه نلاحظ ان تطور الانتاج ومستواه وكميته وتنوعه هو العامل الحاسم في سير مجتمعنا الحاضر .

ان التفسير الاقتصادى للتاريـخ لا ينطبق بصورة ملموسة الا على عصرنا هذا الذى تقدمت فيه العلوم والتكنولوجيا الى درجة جعلت الاقتصاد (وأساسه الانتاج) الشغل الشاغل للمجتمع كله ، ولكن لا يمكن القـول مثـلا بأن ذلك العامل كان العامل الحاسم في توجيه التاريـخ في العصـور الوسطى ، لأن رجال الدين والمفكرين والملوك كانوا هم الذين يحركون التاريخ في تلك العصور ، ثم ان الذين خرجوا بالغرب من ركود العصور الوسطى ، وفتحوا له آفاق النهضة والاكتشـافات والتقدم الفكرى والعلمي . كانوا المفكرين واصحاب الآراء والنظريات ، لا العمال او الزراع . وهنا يبدو لنا جانب ضعيف من جوانب التفسير المادى للتاريخ . ولكننا ينبغي ان نسلم بأن تمسـك الماركسـيين بأهمية الانتـاج افاد الطبقات العاملة ، ورفـع مستواها ، وفتح لها ابواب المشاركة في الحكم ، وهذه خطوة الى الامام لا شك فيها . وهي الجانب الايجابى الذى لا ينازع فيه في آراء الماركسيين .

ولا بد مع ذلك ان نلاحظ انه لا علاقة بهذه الآراء الماركسية التي تسـمى في مجموعها احيانا بالمادية التاريخية Historical materialism لا علاقة لها بما يسمى في الفلسفة بالمادية الفلسفية Phiosophical materialism .

ويتجه الماركسيون في اثبات صحة نظرياتهم تلك الى استخدام طراز خاص من الجدل يسمى بالجدلية الماديـة Material dialectic وهـو جدل يعتمد في طريقته على الاسلوب المنطقي المحكم الذى وضعه هيجل والمثاليون ، ولكنهم يستخدمونه لتحقيق اهدافهم الخاصة ، ويقـول هذا الجدل الماركسي ان كل التقدم التاريخي يتم عن طريق صراعات شـاملة بين أسـس قديمـة للتنظيم الاجتماعي . وهم يرون ان الصراع ينبغي ان يكون شاملا وعنيفا ، وان الاصلاحات الجزئيـة للنظم العتيقة تعوق عملية التحول التـاريخي واحيانا تجهضها . وكذلك يرون ان التطور التدريجي لا يمكن ان يؤدى الى نتيجة حاسمة ، وان الاصلاحات لا تكون لها فائدة الا اذا اقحمت في بدن النظـام القديم على نحـو يسرع بمـوته . وحيـث ان الماركسيين لا يوافقون على الاصلاحات التدريجية التي لا تقضي على النظام القديم بل تكتفي بتحويره او تعديله فان الطريق الوحيد للتغيير الشـامل عندهم هي الثورة وهم يقولون ان الآلام والتضحيات التي تسببها الثورات هي الثمن الذى لا بد من ادائه في مقابل الوصـول الى اى تقدم . ومن الغريب ان يصر الماركسيون على ذلك مع علمهم بأن بلادا كثيرة تم فيها التغيير الشامل ، والانتقال من القديم الى الجديد عن طريق عملية اصـلاح تدريجية طويلة المدى ، واكبر مثال لذلك انجلترا واليابان .

ومن تفاصيل النظرية الماركسـية التي لا زالت موضع الجدل بين مفكرى الماركسية انفسهم هو قولهم بأنه لا توجد مصالح مشتركة بين الطبقات المتصـارعة ، ويرى ماركس ان كـل مذهب من مذاهب التنظيم الاجتماعي تمثله طبقـة معينة ، فالنظـام الاقطـاعي يمثله الاشراف ، والنظام الرأسمالي يمثله المقاولون او اصحاب الاعمـال entropreneurs والنظـام الاشـتراكي يمثله العمال ، ولا توجد مصـلحة مشـتركة بين هذه الطبقات ، ومن ثم فهي لا تستطيع ان تتعايش ، والصراع بينها ينبغي ان يكون حاسم النتيجة ، فلا يتوقف حتى تموت الطبقة القديمة تماما ، وهم

يرون ان هـذا الصراع لا يمكن ان يأخذ صـورة ديموقراطية اى لا يمكن ان يعتمد على الانتخابات او الاستفتاءات ، لأن هذه القواعـد الديموقراطية تنص على ضرورة احترام آراء الخصوم، والخصوم فى رأى الديالكتيكيين الماركسيين لا احترام لهم ، بل ينبغي الا يكون لهم وجـود . وهم يرون ان انتصار النظام الجديد على القديم ينبغي ان يتبعه القضاء على الخصوم بكل انواع العنف ، وفرض ما يسمى بالحكم المطلق للطبقة العاملة او دكتاتورية البروليتاريا dictatorship of the Proletariat ويستمر هذا طـوال فتـرة الانتقـال من النظام الراسمالي الى التسيوعي .

وواضح ان هذا المنطق مليء بالمتناقضات ، لأن فرض دكتاتورية طبقة من الطبقات على غيرها ، والقضاء على الخصـوم بالعنف لا يتفقان مع ماينادى به الماركسيون من عدالة فى الحقوق ، ثم انه ثبت بالفعل ان الرأسمالية يمكن ان تتعايش مع الشيوعية كما هـو الحال فى الوفاق الحالي بين السوڤيات والامريكيين ، وفى يوغوسلاقيا اليـوم صبغة من الشيوعية تسمح بالتعايش مع الرأسمالية وهذه بعض صور ما يسمى بالماركسـية الجديدة Neo-marxism التـي ينتهجها الـروس بعـد **ستالين** ، وينكرها **ماو ـ تسـي ـ تونج** واتباعه ممن يرون انهم يسيرون على خط **ماركس ـ انجلز** بكل امانة .

وواضح من العرض السريع الذى قمنا به ان الماركسية سواء كمذهب فى تفسير التاريخ ، او فى تغيير قواعد علم الاقتصاد مليئة بالمتناقضـات ووجـوه الضـعف ، ولكنها على اى حال حققت بصفتها فلسـفة اجتماعيـة نجاحا لم تحققه اى فلسفة اخرى مماثلة ، ولقيت من كثير من الناس وشعوب الارض اقبالا فاق كل تصور ، واصبحت نظام الحكم والعمل الوحيد فيها ، ويرجع ذلك لأنها اظهرت الى الوجـود الأهمية الكاملة للعمل والعمال ، حتى فى البلاد غير الشيوعية قفز العمال الى الصدارة وشـاركوا فى الحكـم وانتقلـوا من أجَراء الى اصحاب رأى وقوة واثر سياسي فعال يتمثل فى احـزاب قـوية يسـارية او تميـل الى اليسار ، ونقابات ذات قوة سياسـية حقيقية . ومن الواضح انه لولا الالحاد ، والاصرار على انكار الاديان ومحاربتها ، لكان للماركسية نجاح اكبر ، ولكن ذلك الالحاد جزء لا يتجزأ من الآراء الماركسية نفسها . فهي ترى فى الدين اساسا من أسـس النظام القديم الذى يجب القضاء عليه . ومع ذلك فقد ادت مبادىء الماركسـية الى تغير حاسم فى الاوضاع الاجتماعية والفكـرية للطبقة العاملة ، فتطلعت آمال نبهاء العمال الى ان يستزيدوا من العلم ويدخلوا ضمن التكنولوجيين ، وهذا بدوره رفع المستوى الفكرى للعمال فى الدنيا كلها ، وادى ذلك بطبيعة الحال الى ارتفاع المستوى الاجتماعي للامة كلها .

وجدير بالملاحظة ان معظم الفضل فى النجاح الذى حققته الماركسية يرجع الى اعتناق الثوار الروس اياها ، وخاصـة **فلاديمـير اوليانوف المعروف باسم لينين** ، فهذا الرجـل هـو الذى تمكن من ان يحول آراء ماركس الى ثورة دموية وحولت امبراطورية من اضخم دول الارض الى دولة شيوعية ومركزاً لنشر الشيوعية فى العالم ، ولولا لينين لما كان لماركس هذا الاثر كله فى التاريخ.

التاريخ الشامل واهم شيوخ مؤرخي عصرنا

انتقل علم التاريخ اذن خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر فى اوروبا من فرع ثانوى من فروع المعرفة يمارسه بعض الناس على انه هواية او وسيلة للتقرب من الله برواية اخبار الصالحين او للتزلف الى الملوك بكتابة تراجمهم الى علم مقرر الاصول والمناهج ، تخصص له الكراسي والاقسام فى الجامعات ، ويقوم بالعمل فى ميدانه مؤرخون اجلاء ، ويدرسه طلاب كثيرون على انه عماد من

عُمُد المعرفة الانسانية ، ونشأت عن ذلك العلم التاريخي علوم اخرى مساندة له او مساعدة كالآثار ، وعلم النقوش او الدبيجرافية ، والخطوط والكتابات القديمة او الباليوجرافية ، وعلم الوثائق والمحفوظات ، وما الى ذلك مما انشئت له المعاهد والمراكز والمجلات فى كل بلد من البلاد . بل كان علم التاريخ سببا فى اكبر حركة سياسية واجتماعية بعد الثورة الفرنسية وهي الثورة الماركسية ، وما كان لها من اصداء بعيدة فى كل ناحية من نواحي الحياة فى عالمنا المعاصر .

وعلى أثر ذلك اخذ نفر من اساتذة المادة يتساءلون عما اذا كان لا بد ان يوجد لعلم التاريخ منهجية methodology خاصة به الى جانب ما لابد للمؤرخ من التمسك به من مناهج الدقة والاستيفاء والبحث والتحليل التي تشترك فيها العلوم جميعا . هنا لا بد من الوقوف قليلا عند كتاب من احسن ما كتب فى ذلك الموضوع فى نهاية القرن الماضي (سنة ١٨٩٨) وهو الذى كتبه المؤرخان الفرنسيان **لانجلو وزينبوس** عن علم التاريخ ومنهجه :

C. V. Langlois et Charles Seignobos : **Introduction à l'étude de l'histoire**

فى هذا الكتاب وفق العالمان الفرنسيان أكثر من غيرهما الى رسم ما يمكن ان يسمى بدستور المؤرخ ، وقالا ان التاريخ ربما كان احوج فروع العلم الى الالتزام التام بالامانة ودقة المنهج ، لأن التاريخ كما يبدو ميدان سهل للبحث والتأليف ولكنه فى الحقيقة من اصعبها . لأن البحث التاريخي ينبغي ان يكون اصيلا وصادقا وقائما على حقائق ، وفى كثير من الاحيان يصعب ذلك لاسباب نفسية او عاطفية او عقائدية وربما شخصية ، ولهذا فلا بد من ان يتكون المؤرخ تكوينا منهجيا دقيقا حتى يخرج شيئا له قيمة . وقالا ان الجانب الاكبر ممن يتناولون التأليف فى التاريخ لا يعرفون لماذا يتخذون التاريخ عملا ، وربما كان السبب فى ذلك انهم كانوا اقوياء فى مادة التاريخ فى المدرسة الثانوية او يحسبون ان التاريخ ميدان سهل نسبيا . وربما كان دافع الانسان الى العمل فى التاريخ نزعة عاطفية رومانتيكية كما كان الحال مع اوجستان تييرى .

وقال لانجلوا وزينوبوس ان التغير الحاسم فى تاريخ العلم التاريخي تم حوالي سنة ١٨٥٠ عندما استقل التاريخ بنفسه ولم يعد فرعا من الادب ، وهما يريان ان المؤرخ لا ينبغي ان ينفق الوقت فى بحث المسائل الصغيرة لمجرد تكديس المعلومات وقالا : « انه ليس من هدف التأليف فى التاريخ جلب المتعة الى القارىء او استخراج قواعد عملية للسلوك او اثارة المشاعر ، وانما الهدف الحقيقي هو المعرفة الخالصة البسيطة (la connaıssance pure et simple) للموضوع الذى يدرس .

وفى نهاية القرن التاسع حفلت اوروبا بنفر من اعاظم المؤرخين الذين افادوا من صراع سابقيهم فى وضع التاريخ فى مكانه بين العلوم ووضعوا مناهجه ، ومن اكابر هؤلاء **تيودور مومسن** Theodor Mommsen (١٨١٧ ــ ١٩٠٣) الذى وضع اساسا متينا للدراسات الرومانية بفضل معرفته الوثيقة باللغات القديمة ، وتمكنه من منهج العمل التاريخي ، وتضلعه فى قراءة النصوص القديمة واستخدام ادوات التاريخ جميعا ، وهو من المؤرخين القلائل الذين حصلوا على جائزة نوبل .

وفى انجلترا كثر المؤرخون الذين ساروا على نهج **رانكه** ومدرسته من امثال **وليام ستابز** William Stubbs صاحب الكتاب المشهور عن تاريخ الدستور الانجليزى و **ج . ب . بيورى** J. B. Bury الذى الف واجاد فى كل عصر من عصور التاريخ ، وله كلمة مأثورة فى فضائل علم التاريخ القاها عندما خلف **اللورد اكتون** فى استاذية علم التاريخ فى كيمبردج ، قال : « واذا

كان علم التاريخ يصبح عاما بعد عام واكثر فاكثر قوة عظيمة تعمل على نزع غشاوات الخطأ ، وتعين على تكوين الرأى العام ، وعلى السير الى الأمام بقضية الحرية الفكرية والسياسية ، فان ذلك العلم سيعمل جاهدا على تكوين طلابه على نحو يمكنهم من القيام بذلك الواجب لا للانتفاع به في سدّ مطالب الاسبوع التالي او العام القادم اوحتى القرن الذى سيجيء ، ولكن لكي يذكروا دائما ان التاريخ ، وان كان يقدم مادة للتاريخ الادبي او للتأمل الفلسفي ، الا انه علم قائم بذاته لا اكثر ولا اقل ، وينبغى الحذر من تطويع ذلك المثل الاعلى لحاجات اللحظة ، ولا يجوز كذلك تحديد مجال ذلك العلم وآفاقه » .

وقد تغيرت نظرة بيورى مرارا فيما بعد ،وذلك يصدق على الكثيرين من كبار المؤرخين ولكنهم جميعا متفقون على ان مواصلة العمل العلمي فى ذلك المجال للكشف عن الحقائق وعرضها عرضا أمينا سيؤدى حتما الى اعطائنا صورة أمينة للماضي . وفى اثناء ذلك حرص المؤرخون على ان يفيدوا من كل المذاهب والنظريات التي جدت فى ميادين العلم الاخرى من آراء نيوتون فى الطبيعة الى نظرية اينشتاين فى النسبية ، لأن هذا كله يوسع أفق المؤرخ ويزيد فهمه لما يقرأ ، ورجل مثل بيورى هذا كان واسع العلم والافق يتكلم بثقة فى كل موضوع من موضوعات العلوم ، ولهذا فهو يعتبر بحق من اعمدة الفكر الانجليزى فى عصره ، وقد كان يكتب الى جانب ذلك فى اسلوب ادبي رفيع مما جعل له مكانا محترما فى عالم الادب . ومثل ذلك يقال ، وبدرجات متفاوتة ، عن **فريمان** Edward A. Freeman **وجرين** G. R. Green **وسيلى** Seelay فى انجلترا **وجيبوتي** فى ايطاليا **وجورج بانكروفت** George Bancraft (١٨٠٠ — ١٨٩١) مؤسس مدرسة المؤرخين الامريكيين ، وتاريخه للولايات المتحدة كان ولا يزال مدرسة يتخرج فيها المؤرخون هناك .

ويضارع بيورى فى المكانة وفى الجمع بين صفات المؤرخ والفيلسوف والاديب **جورج ماكولي تريفيليان** George Macauly Trevelian (١٨٧٦ — ١٩٦٢) الذى يعتبر كتابه عن التاريخ الاجتماعي لانجلترا نموذجا يحتذى فى هذا المجال العسير من علم التاريخ ، وله مقال بديع عن طبيعة علم التاريخ وحدوده جعل لها عنوانا طريفا هو :« Clio, a Muse (كليو الهة التاريخ ، الهة فن) » خلاصتها ان التاريخ لا يمكن ان يكون علما دقيقا ، او واضح المنفعة كما هو الحال فى العلوم الطبيعية ، ولكنه علم فى حدود معينة هي الدقة والاستقصاء فى جمع المادة ، والدقة كذلك فى الموازنة بين الادلة وقال : « وحتى عندما يعالج المؤرخ موضوعا واضح الوقائع نسبيا كالثورة الفرنسية ، فانه من المستحيل ان يتعرف الانسان على حقيقة الحالة النفسية لخمسة وعشرين مليون انسان (هم سكان فرنسا اذ ذاك) يختلف كل منهم عن الآخر ، اختفوا جميعا فى ظلام ليل التاريخ فيما عدا بضعة مئات او آلاف هم الذين نعرف كيف كانوا يحسون وماذا فعلوا . وعلى هذا فلا احد يستطيع ان يقدم عرضا كاملا شاملا للثورة الفرنسية . ولكن قراءة الدراسات التاريخية الناقصة خير من لا شيء على اى حال ، والمؤرخ الذى يستطيع ان يزن كل الادلة التي فى متناول يده وزنا دقيقا ومعقولا يستطيع ان يستلفت اهتمام العقول بكلامه ويثير احدى العواطف الانسانية ويفتح الباب امام قوى التخيل والتصور .

وذهب تريفيليان الى ان **توماس كارلايل** Thomas Carlyle وفق الى ذلك بكتابه عن الثورة الفرنسية ، فعرف كيف يصف ببيانه المبدع ، وقدرته على فهم طبيعة البشر ، مشاعر الجماهير الفرنسية ، وتمكن كذلك من ان يعطينا صورا حية لكثير من شخوص الثورة . وقد وفق كارلايل الى ذلك بأكثر مما استطاع اى مؤرخ محترف . جمع من الادلة اضعاف ما جمع كارلايل

ولكنه عاجز عن فهم طبيعة البشر . ولتريفيليانكلمة بالغة الصراحة وان كانت ثقيلـة على نفس المؤرخ ، وذلك حين يقول : « وفى الجزء الأهم منعملية التأريخ نجد ان التاريـخ ليس استنتاجا علميا ، وانما هو حدس قائم على التخيل ، ومبنيعلى اساس اقرب التعميمات الى الامكان . .

In the most important part of its business, history is not a scientific deduction, but an imaginative guess at the most likely generalisations.

وفى نفس الوقت الذى اتجه فيه الانجليــزالى الاقتصاد فى تقدير التاريخ وحدوده ومكانته بين العلوم نجد ان الالمان والفرنسيين ساروا فىطريق العمل التاريخى المحكم الدقيق ، محاولين ان يثبتوا اهمية التاريخ عن طريق اخراج اعمالتبهر العقول بدقتها وذكاء اصحابها، وقدرتهم على الاستخراج والاستنتاج ، وتصوير الماضي كما كانعلى صورة تحقق ما كان يرجوه **ليوبولد فون رانكه** الى حد بعيد . ففي الجانب الالمانى نجد كثيرينسنقف لحظة عند واحد منهم فقط هو **فريدريش ماينكه** Friederich Meinecke (١٨٦٢ ــ ١٩٥٤)وهو من عظماء رواد التاريخ على مذهب رانكــه وبوركهارت ، وقد وجه اهتمامــه الى دراســةالافكار وتطورها ، وقد شغل ماينكه اعلا مراكز الاستاذية فى جامعات المانيا ، وظل اكثر من اربعينسنة (١٨٩٣ ــ ١٩٣٥) رئيســا لتحرير المجلة الالمانية التاريخية Historische Zeitschrit وهو مشهور بكتب ثلاثة تعتبر نماذج تحتذى فى دراسة الفكر السياسي وتطوره اولها : المواطنةالعالمية والدولية القومية Weltbûrgertum und Nationalstaat (١٩٠٨) وفيــه يؤيد فكـرةالدولة القائمــة على الاســاس القومي والعدالة وخدمة الحضارة . و « فكـرة صــالح الدولة » Idee der Staatssaison (١٩٢٤) وفيه يكشف النقاب عن الصراع والتناقض بين الاخلاقوسياسة القوة ويهاجم الماكيافيلية فى عنف معتمدا على حقائق التاريخ . وكتابه الثالث الكبير « قيامالحركة التاريخية Entstehung des historismus (١٩٣٦) يتتبــع فيــه قيــام علــم التاريـخالحديث ويؤيد فيه نظرية اعتماد التاريــخ على افراد هم الذين يصنعون التاريخ متابعا فى ذلكرانكه وجيته .

ومن الفرنســيين نقف عند اثنين لا بد منذكرهما فى حديثنا هذا عن بنــاء علم التاريــخ الحديث ، الاول هو **ايرنست رينان** Ernest Rénan (١٨١٣ ــ ١٨٩٢) وهو علامة متبحر فى اللغات والفلسفات والتاريخ ، ومؤلفاته تجمع بينوفرة المادة وعمق الفهم وحرية فى الحكم لا نجدها الا عند القلائل،وقارىء رينان يحس باستمرار انهيستمع الى مؤرخ حكيم يتحدث ، فكتابه المسمى مســتقبل العلــم l'avenir de la science الذى لم ينشر الا سنة ١٨٩٠ يتحدث عن اهمية دراسة تاريخ الاديان . على اعتبار انها علم انسانيله اهمية علوم الطبيعة مثلا ، وفيــه نلحظ قلة تدين رينان وضعف ثقته فى الكنيســة المسيحيةومحاولته اثبات ان المفكر الحصيف الجيدالتكوين اقرب الى استكشــاف حقائق الحيــاة والنفسالبشرية من رجــل الدين المحترف . وفى ســنة ١٨٥٢ نشر كتاباً مشهوراً عندنا هو **« ابن رشد والرشدية** Avenoés et l'Auerroisme وهو دفاع مجيد عن ذلك الفيلسوف الاندلسى الجليلالذى كان مركز الدراسات الفلسفية فى جامعات اوروبا الى اواخر القرن السابع عشر وحــركةالرشدية التي اثارتها فلسفته . والرشدية عند رينان ليست دراسة لآراء ابن رشــد وانما هيمجموع الآراء والافكار التي دارت حول موضــوع علاقــة العقــل بالدين . ويتجلى تفكير رينــانالتاريخي الفلسفي بصورة اوضح فى كتابه الآشهر « مقالات فى الاخلاق والنقد Essais de morale et de critique » (١٨٥٩) وهو مجموعة

مقـالات نشرها رينـان فى جـريدة المحـاورات Journal des Débts ومجلـة العالمـين Revue de Deux Mondes و « العالمان » هناهما عالم الفكر والدين . وفى هذه المقالات نجد ان رينان يرينا كيف ندرس الاديان دراسـة تاريخيةانسانية (٢٣) . وقد كان لرينان أثر كبير فى تاريخنا الفكرى الحديث ، فقد ترسم خطاه طه حسـينفى الكثير من كتب أيام كفاحـه الاول الطـويل فى سبيل تحرير الفكر العربي .

والثانى **هو فوستل دو. كولانج** Huma Dénis Fustel de Coulanges (١٨٣٠ – ١٨٨٩) الذى يعتبر مؤسس المنهج العلمي فى دراسـةالتاريخ فى فرنسا ، وهـو اسـتاذ بحـق فى علم التاريخ ومنهجه ، وقد وضعللمؤرخين الفرنسيينمنهاجا صـارما يقـوم على الموضـوعية البحتة والتركيز على المصادر الاساسـية ودراسـتها فىلغاتهـا ، واسـتخلاص كل ما تحويـه من مادة تاريخية ، وقلة الاهتمام بالمصادر الثانوية . ثم الاكتفاء بذكـر الحقـائق التي تؤيدها الادلة دون غيرها . وله كتب كثيرة قائمة على هذه الاسسمنها كتاب « المدينةالعتيقة La Cité Antique (١٨٦٤) وقد درس فيه المدن التي كانت فى نفسالوقت د'ولا' فى العصر القديم la citè-état مثل اثينا واسبرطة وروما ، واثر الدين والتطورالسياسى والاجتماعي فى تاريخها . ثم ركز همه على دراسة نظم العصور الوسـطى وخاصـة فىفرنسا ، ووضـع أسـس دراسـة الوثائـق والمخطوطات . ولا زالت كتبه قطعا من العمـلالتاريخي الدقيق مثل « الغزوة الجرمانية ونهاية الامبراطورية L'Invasion Germanique et la fin de l'Empire و « الملكية الفرنجيةLa Monarchie Franque (١٨٨٨) والولاء والملكيـةالزراعية فى العصر الميروفنجى L'allue et le domaine rural pendant l'epoque merovingienne(١٨٨٩) وكل مؤرخي العصور الوسطى فى فرنسا من امثـال مارك بلوك Marc Block (٢٤) منتلاميذ ذلك الرجل .

ونختم هذا الكلام عن بعض اكابر اساتذةعلم التاريـخ المحدثين الذين وضـعوا اصـوله ، وقرروا مناهجه بكلمة عن المؤرخ البلجيكي **هنرىبيرين** Henri Pirenne (١٨٦٢ – ١٩٣٥) ويهمنا بيرين من ناحيتين : الاولى انه عني عناية كبيرةبالناحية الاقتصادية – لا كعامل محرك للتاريخ كما فعـل ماركس ، بل كجزء من الاطار العـامللحقائق التاريخية ، فهـو يدرس نظم الضرائب والاسعار والتجارة وطرقها وموادها والعملة ومالى ذلك ، والثانية انه احسن من طبّق ما يسـمى **بالتاريخ الكلي** ، وهو مفهوم للتاريـخ يختلف عن**التاريخ التقليدى**،وهو انتؤرخ للناحية السياسـية لعصر معين ، او تدرس تاريـخ واقعة معينة اوحيـاة رجل بعينه ، أما التاريـخ الكلي فهو ان تدرس العصر الذى تريد من كل نواحيه: سياسيةواجتماعية واقتصـادية وحضـارية وتعطي عنه صورة كاملة ، وهذا يقتضي جهدا شاقا فى جمعالمادة اللازمة لعمل الصورة التاريخية المطلوبة .

كنموذج لدراسة الناحية الاقتصاديةللتاريخنأخذ كتاب « تاريخ المدن فى العصور الوسـطى Les Villes Mediévales وهو دراسة غايةفى العمق للحياة الاقتصادية فى العصور الوسطى ، لأن المدن ظهـرت خـلال القـرن العاشر كمراكزاقتصادية ، صناعية وتجارية . ويشـبه هـذا الكتاب كتاب آخر يعد من اجمل واعمق ما ألّفبيرين فى تاريخ العصور الوسـطى وهـو **محمد وشـارلمان** Mohammad et Charlemagne (١٩٣٧) وهو دراسة كاملة لاثر سيادة الاسلام

---

(٢٣) F. Millepieres, La Vie d'Ernost Rénan, Sage d'Occident (1961)

(٢٤) J. Herrick, The Historical Thought of Fustel de Coulanges

على البحر الابيض المتوسط خلال القرن التاسع الميلادى على احوال اوروبا الاقتصادية والاجتماعية . ويقول بيرين ان سيادة المسلمين هذه اقفلت ابواب اتصال اوروبا بالعالم الخارجي فتم تحول المجتمع الاوروبي الى مجتمع زراعي مقفل ، تم ان الخطر الاسلامي على غرب اوروبا (من الاندلس) كان السبب فى ظهور الدولة الكارولنجية نتيجة لانتصار شارل مارتل او مارته كما يقول العرب على المسلمين فى موقعة بلاط الشهداء ٧٣٢/١١٤ ، ومن كلماته المأثورة : لولا محمد لما كان من الممكن ان يظهر شارلمان .

واكبر اعمال **هنرى بيرين** هو تاريخه لبلجيكا Histoire de Belgique فى سبعة مجلدات ، وهو ايضا نموذج من التاريخ الكلي الذى يعطي صورة شاملة للعصر او الموضوع الذى يدرس . وحيث ان بلجيكا لم تولد الا سنة ١٨٣٠ فان ما سبق الميلاد الرسمي لبلجيكا انما هو تاريخ اوروبا والاراضى المنخفضة بشكل خاص .

ومن اجلاء اساتذة مدرسة التاريخ الكلي جورج ليفيفر George Lefebore (١٨٧٤ ـ ١٩٥٩) الذى سار على المنهج الدقيق الذى يلتزم الاصول بكل دقة ، وله كلمة مأثورة هي : لا وثائق ، لا تاريخ .

واجلاء شيوخ هذا الفن فيما بين ١٨٥٠ والحرب العالمية الاولى كثيرون غير هؤلاء . ولكننا نكتفي بمن ذكرنا ممن كان لهم الفضل الاكبر فى جعل التاريخ علما مستقل الشخصية ، واضح المنهج والطريقة ، وانبتوا للناس انه من اهم نواحي الدراسات الانسانية ، وابعدها اثرا فى تكوين العقل الواعي المدرك لحقائق الحياة .

فلاسفة التاريخ فى عصرنا ، كروتشي وكولنجوود وتوينبي وشبنجلر

ونلتفت الآن لنلقي نظرة على آخر موضوعات هذه الدراسة وهي الالمام بأهم مذاهب فلسفة التاريخ خلال القرن العشرين .

وصل التاريخ على ايدى من ذكرنا وغيرهم كثيرين الى مرتبة العلوم ذات الوظيفة والشخصية المستقلتين ، واستقر الرأى على ان التاريخ علم بالمنهج ، اى ان موضوعه الأساسي ـ وهو الانسان ـ لا يسمح بأن تكون له قواعد وقوانين لهادقة قوانين العلوم ، ولكننا ندرسه بمناهج البحث العلمي من استقصاء للمادة ودراستها وتحليلها تحليلا دقيقا ثم استخلاص الحقائق ، وقال بعضهم ان التاريخ لا يسير على قوانين ولكنه يسير على منطق ، فلكل حادث اسبابه وتطوراته ونتائجه المنطقية ، وفى احدى دراساته قال **ج . ب بيورى** عبارته التي لقيت قبولا كبيرا : التاريخ علم ، لا اكثر ولا اقل . ولكن بيورى نفسه تبين فى دراسته الاخيرة ان عبارة History is a science, no more, no less تحتاج الى تعديل . لاننا فى الحقيقة لا نستطيع الوصول الى صورة الماضي كما كانت بالضبط ، وانما نراها متأثرين بعصرنا ومفهوماته ، وعلى هذا فالصورة او الحقيقة التاريخية نسبية دائما ، ومن هنا حلت عبارة « التاريخ النسبي Relative History محل التاريخ العلمي Scientific History وهذا يعود بنا الى الفكرة التي تحدثنا عنها اوائل هذا البحث عن ان التاريخ حوار بين الحاضر والماضي ، وقال **ج . ب . بلاك** J. B. Black فى مقاله عن فن التاريخ The Art of History « ان رؤية التاريخ بصورة مباشرة غير ممكنة ، وهو لا يرى ـ الا بصورة غير مباشرة اى كما يتجلى فى مرآة عصرنا . وفى محاضرة القاها هنرى بيرين فى قاعة الجمعية

الجغرافية فى القاهرة سنة ١٩٣٣ سمعناه يقـول انـنا نرى حوادث التاريخ كما نرى ملعقة وضعناها فى كوب ماء فانغمرت الى ثلاثة ارباعها ، فالغامرفى الماء لا يرى الا منكسرا بحسب انكسار شعاع الضوء عند مروره فى الماء. وشيئا فشيئا اصبحت النسبية التاريخية Historical Relativism هي النظرية السائدة ، وكان هذا حلا موفقا لأن صورة الماضي « كما كان بالضبط » التي سعى وراءها رانكه ومدرسته كانت امـرا فى الحقيقة مستحيلا . وقال **تشارلس بيرد** Charles A. Beard عميد المؤرخين الامريكيين ان التاريخ العلمي انما هو حلم نبيل تبدو الحقائق فيه وكأنها الحسناء النائمة فى الغابة la belle au bois dormant تنتظر المؤرخ المنقذ الذى يقترب منها ونظارتاه على عينيه ويضع على جبينها قبلة الحياة فتدب فيها الروح كما تقول الاسطورة . وقبل الحرب العالمية بقليل قال **كارل هاينـريخ بيكـر** Carl Heinrich Becker الذى كان ايضا من كبار المستشرقين ــ أن كل انسـان مؤرخ نفسه ، اى ان كلا منا يروى التاريخ على طريقته ، واكد ذلك **كونيارز ريد** Conyers Read عندما قرر ان نسبية التاريخ The relativity of History اصبحت القاعدة السائرة .

ولم ير **بندتو كروتشي** Benedetto Croce (١٨٦٦ ــ ١٩٥٢) أن يسير على هذا المذهب الذى رأى فيه تواضعا لا يتفق مع اهمية التاريخ فى نظره . كان كروتشي مؤرخا وفيلسوفا ، وكان له نصيب فى سياسة ايطاليا اذ تولى وزارة التربية سنة ١٩٢١ ــ ١٩٢٢ أى قبل استيلاء موسوليني والفاشيين على الحكم ، وبعد ذلك اصبح خصما مناوئا للحكم الفاشي . ولكن مناوأته لم تصل الى حد التحدى الذى ربما كان قد ادى الى العصف به ، فظل دائما محترما من جانب السلطات ، وان كان الفاشيون نهبوا داره فى نابولي سـنة ١٩٢٦ بعد اعلانه احتجاج اهل الفكـر على اسـتبداد الفاشيين . وفى سنة ١٩٤٣ وبعد أن تزعزع النظام الفاشى الف الحزب الحـر واصـبح وزيرا بغير وزارة فى وزارة **بييتـرو بادوليـو** Pietro Badoglio التي اعقبت سقوط موسوليني ، وشغل نفس المنصب فى وزارة **ايفانوى بونومي** Ivanoe Bonome (١٩٤٤) واصبح عضـوا فى الجمعية التشريعية سنتي ١٩٤٦ و ١٩٤٧ وفى نفس السنة اسـس المعهد الايطالي للدراسـات التاريخية Instituto Italiano di studi storici وتوفى فى داره فى نابولي فى ٢٠ نوفمبر ١٩٥٢ .

وقد كتب كروتشي كتبا تاريخية كثيرة من الطـراز العلمي التقليدى ، ولكن مقالاته وآراءه كلها نجدها فى مجلـة « النقـد » la Critica التي انشأها سنة ١٩١٣ ، وظل مديرها ورئيس تحريرها احدى واربعين سنة . وعندما تخلى عنها انشأ كراسات النقد Cuaderni della critica ونشر منها عشرين عددا ، وهو مشهور بكتابه الكبير فلسفة الروح Filosofia delle spiritu الذى قسمه الى اربعـة مجلدات : الاول فى علم الجمال stetica والثاني فى المنطق Logica والثالث فلسفة السلوك Filosofia della condutts والرابع فى نظرية التاريـخ وتاريخـه Teoria a storia della storiografia وهذا الجزء الاخير هـو الذى يهمنا وهـو الذى يجعل له مكانا بين فلاسفة التاريخ .

وكان كروتشي يرى فى نفسه فيلسوفا من مستوى هيجل ، وكان الكثيرون من انصـاره ينظرون اليه على هذا الاعتبار ، ولكننا عندما نقرأ الجزء الخاص بالتاريخ من « فلسفة الروح » نجد انه يعوزه الوضوح وتلك الدقة الذهنية التي تميز تفكير هيجل . وفى كثير من الاحيـان نفقد خيط الافكار . وانا شخصيا لم استخرج من آرائه الامما وجدته فى طبعات انجليزيـة لبعض جـوانب فلسفته فى التاريخ وكلها مقتبسة من كتاب وضعه هو نفسـه ونشر فيـه مختارات من كتاباتـه فى الفلسفة والشعر والتاريخ .

والـذى يريده كروتشي بالروح هـو روح العصر اى لبابه وشخصيته والجو السائد فيـه والافكار المسيطرة عليـه والنظم والتقاليد التي تحكمه ، وهو يقول انك لا تستطيع ان تؤرخ لعصر الا اذا ألمت بروحه على هذا النحو الشـامل ، ويقول كذلك انك لا تستطيع ان تؤرخ لرجل الا اذا ألمت بظروف عصره كلهـا وتمكنت من الاحاطة بظروفه الشخصيـة ايضـا ، حتى أوصـافه الجسـمانيه لا بد من معرفتهـا فهي فى كثير من الاحيان ذات أثر بعيد فى توجيه فكـره وحياته ، ومعنى ذلك كله ان التاريـخ فى الحقيقة عمليـة معايشة ، معايشة العصر الذى نكتب عنه ومعايشة الرجل الذى نترجم له وادراك روح الموضوع اياكان ادراكا تاما .

وهذا الروح الذى يتحدث عنه كروتشي هو الذى يعبر عنه كبار المؤرخين فى عصرنا ممن يؤرخون على مذهب «التاريخ الشامل total history التي سنتحدث عنها بجو العصر او المناخ التـاريخي historical climate وهـو آخـر المذاهب التاريخة المعتمدة فى عصرنا .

وترجع فلسفة كروتشـى فى بعض نواحيها الى آراء جيامبا تيسـتا فيكو التي اوجزناها ، وترتكـز فى بعص نواحيها الاخـرى الى تجربته الشخصيه ونشـاطه الواسـع فى النقد الادبـي والتاريخ ، ولهذا نجده يستمد آراءه من الواقع التاريخى الذى لمسه اثناء معاناته لكتابة التاريخ ومحاولاته تفسير الاحداث . وهو يرى ان فلسفة التاريخ ينبغي ان تنبع من التاريخ نفسـه اى لا بد ان تقوم على أساس الوقائع الثابتـة ، فهي على هذا تفسير للوقائع لا فلسفة لها ، وكلا الوقائع وتفسيرها ينبغي ان يقوما على فهم كامل لروح الموضوع . ومع هذا التمسك بالواقع التاريخي والتشدد فى القول بانه ينبغي ان يكون اساسا لأى فلسفة تاريخية ـ مما يجعل الانسان يتصور ان كروتشي يرى ان فلسفة التاريخ ما هي فى الواقع الا تفسير له . على الرغم من ذلك نجد كروتشي يميل الى الجانب المثالي او التأملي فى فلسـفته للاحداث . مما يوحي بأن هناك اضطرابا فى تفكيره الفلسفي التاريخي ، وهذا صحيح الى حد بعيد .

ومن أطرف آراء كروتشي قوله بأن هنـاك فرقا اساسيا بين المعرفة التاريخيـة والمعرفـة العلمية . والأولى فى نظره لون من الثقافة او الادراك الفكرى . وهو يقول ان الماضي فى ذاته لا وجود له ، وهو يتبع فى ذلك نفرا من العلماء الذين قالوا بذلك لينقضوا القول بأن التاريـخ علم ، فاذا لم يكن للماضي وجود فعلي فانه لا يوجد الا فى ذهن المؤرخ . ومعنى ذلك ان الحوادث الماضية لا وجود لها بالفعل الا اذا فكر الانسـان فيها ، فى هذه اللحظة توجد وتصبح بالنسبة للمؤرخ المعني بها حـوادث معاصرة ومن هنا يقـول كروتشـي ان التاريخ كله معاصر على هـذا المعنى ، ولنضرب لذلك مثالا من تاريخنا فنقول ان ثورة الزنج التي قامت فى عصر الخليفة العباسي المعتمد (٢٥٦ ـ ٢٧٩/٨٧٠ ـ ٨٩٢) وبعض سـنوات خـلافة المعتضد (٢٧٩ ـ ٢٨٩/٨٩٢ ـ ٩٠٢) كانت من اعظم الحـركات الاجتماعيـة فى تاريـخ الـدولة العباسية ، وكانت لها آثار سياسيه واجتماعية بعيدة المدى . ولكنها انتهت وتلاشت آثارها بعد ذلـك فيما دهم الدولة العباسـية من تدهـور واحداث جسام ، فهي على هذا حادث مضى تماما واندرج فى صحائف التاريخ ولم يعد له وجود فى الواقع ، فاذا فكر مؤرخ فى دراسـة ثورة الزنج وبحث عنها « وجدت » فى ذهنه واصبحت حادثا واقعيا بالنسبة له لأنه يشغل نفسه بها ويعيش فيها . وهذا الراى الذى يستوقف النظر لطرافته لا لعمقه يبدو وكأنه استطراد مع القول بنسبية التاريخ . ويمكن تلخيصه على هذا الاساس بالقول بأن التاريخ حي بالنسبة للمؤرخ او لأبناء العصر ، وميت بالنسبة لغيرهم .

وكان كروتشي يرى ان الفكر التاريخي اعلاواوثق من أى فكر آخر لأنه يعتمد على واقع وتجربة ومعاناة ، وان القول بنسبية التاريخ ليست مظهرا من مظاهر ضعف التفكير التاريخي ، بل تأكيد للقوه الذهنية والتخيلية . ويمكن القول بأن كروتشي كان حصيفا ناقدا ومصيبا فيما كتب عن تاريخ ايطاليا ، اما كتاباته فى فلسفه التاريخ فيشوبها الغموض والتناقض .

ولكن آراء كروتشي كانت ذات نفع لمعاصر لهمن كبار الفلاسفة والمؤرخين وهو **روبين جورج كولنجوود** Robin George Collingwood (١٨٨٩ — ١٩٤٣) وهو علامة انجليزى صافي الذهن بعيد النظر ، تخصص أول الامر فى التاريخ وخلف لنا كتابا من احسن ما كتب فى تاريخ انجلترا فى العصور الرومانية Roman Britain (١٩٣٦) وهو جزء من تاريخ اكسفورد لانجلترا ، وشغل وظائف استاذية التاريخ فى أكثر من جامعة انجليزية ، وجعل همه التقريب بين الفلسفة والتاريخ ، وقال ان الفلاسفة منذ ايام ديكارت شغلوا انفسهم بمشاكل العلم والمناهج ومعان اخرى لا يمكن تطبيقها عند دراسة الفكر او العمل ، وبعد ان رأى الدنيا تخوض غمار حربين عالميتين ايقن ان العلوم لم تساعد كثيرا فى حل مشاكل البشر وان الفلسفة اذا مزجت بالتاريخ كان من الممكن ان تعين على ايجاد هذا الحل ، وقال ان دراسة الواقع التاريخي ربما اعطت الانسان نوعا من الحكمة الواقعية تمكنه من العثور على طريق قويم . وقد جمع آراءه فى كتاب « فكرة التاريخ The Idea of History » الذى نشر بعد وفاته سنة ١٩٤٤ وهي رسالة مصوغة فى اسلوب جميل حافلة بالآراء الصادقة ، ولكنها لا تتضمن نظاما فلسفيا متناسقا .

وقد كتب كولنجوود كتابا آخر عن فلسفة التاريخ ، وهو يحمل هذا العنوان بالفعل Philosophy of History وهو يعتبر فى العادة اقل مستوى من « فكرة التاريخ » ولكنه على اى حال اوضح ، ويستطيع الانسان ان يخرج منه بشيء نافع . ويؤيد كولنجوود هنا القول بنسبية التاريخ (٢٥) ولكنه ينكر ان المؤرخ يتبع هواه فى اختيار الطريق الذى يجمع به الشواهد او الادله التاريخية على ما يريد قوله . ثم يتابع كروتشي فى تفكيره ويقول انه ما دام التاريخ ابتداعا وخلقا للمؤرخ نفسه ، اى ما دام الماضي لا يبعث حيا الا اذا وجد المؤرخ الذى يهتم باعادته الى الحياة فان عودة الحياة الى الماضي لا تحدث الا اذا سأل المؤرخ سؤالا ، اى ان ثورة الزنج مثلا لا تكتسب اهمية الا اذا تساءل المؤرخ عن ماهيتها ومضى يبحث عن هذه الماهيه . ونفى كولنجوود القول بأن المؤرخ يتخير ما يريد بحثه من حوادث الماضي ، لأن هذه الحوادث نفسها غير موجودة ، انما هي توجد فقط عندما يريد المؤرخ ذلك . وكان الناس قبل كولنجوود يقولون ان الماضي او التاريخ كله لا وجود له الا فى ذهن المؤرخ ، وعلى هذا فرأى كولنجوود هذا ليس الا صياغة جديدة لهذه الفكرة . ومن هنا نفهم كيف كان كولنجوود من المتحمسين لما قاله كروتشي من ان التاريخ كله معاصر وقال : ان التاريخ كله يروى احداثه ويضعها فى عالم الحاضر لا كتاريخ بالضرورة بل كتاريخ للتاريخ . وربما اراد ان يقول بذلك ان كتاب التاريخ الراقد على رف فى المكتبة لا يصبح تاريخا الا اذا تناولته وفتحته ومضيت تقرأ فيه . هنا تدب فيه الحياة وقبل ذلك كان كل ما فيه شيئا ميتا .

ومن هنا استنتج كولنجوود ان التاريخ ليس له تفسير واحد بل ان كلا منا يفهمه ويفسره على قدر ما يستطيع ذهنه ، وهذا التفسير لا يمكن ان يتحلل من شخصية المؤرخ وثقافته ، وهذا يفسر

---

(٢٥) سنتحدث عنها بتفصيل فيما بعد .

لنا كيف ان كل مؤرخ يرى فى نفس الحوادث شيئاآخر ، وعلى هذا فانه لا يمكن القضاء على العنصر الشخصـــي The subjective element وانالتاريخ الموضوعي الصرف pure objective history يكاد ان يكون لا وجود له .

وليس معنى ذلـك ان كولنجوود يـرى انالتاريخ كله خاضع للهــوى والاحكـام الفرديـة التعسفية . ولكنه يقول ان المسألة مسألة وجهةنظر ورأي صادر عن انسان له شخصيته وتكوينه وخلفيته وقال : « فاذا كان لى مثلا رأىفىيوليوس قيصر يختلف عن راى مومسن فهل معنى ذلك ان واحدا منا على خطأ ؟ الجـواب لا ، لأن تفكيرىالتاريخي مبني على ماضيّ وتجربتي لا على ماضي مومسن وتجربته . انني ومومسن نتفق فى اشياءكثيرة ، وفى احيان كثيرة نتفق فى نواح من ماضينا، ولكن حيث اننا انسانان مختلفان ، وكل منا يمثلثقافة معينة وبنحدر من اصلاب خاصة به فوراء كل منا ماض يختلف عن ماضي الآخـر ، وكلشيء فى ماضي مومســن لا بد ان يعاني انحرافا عندما يدخل فى ماضيّ » .

ويقول : « واخيرا وحيث ان الماضي نفسهلا شيء ، فان معرفة هذا الماضي ليســت ـ ولا يمكن ان تكون ـ هدف المؤرخ ، انما هدفه ـ وهوهدف كل مخلوق يفكر ـ هــو معرفة الحاضر ، الى هذه الغاية ينبغي ان ينتهي كل تفكير ، وحولهذه الغاية ينبغي ان يدور كل شيء . ولكن المؤرخ لا يشغله الا مظهر واحد من الحاضر ، وهو : كيفصار الى ما هو عليه . وعلى هذا الاعتبار يكـون الماضي مظهرا للحاضر ووظيفة من وظائفه ، وعلىهذه الصورة ينبغي ان يظهر التاريخ فى نظر المؤرخ الذى يفكر بذكاء فى عمله او يحاول ان يصـل الىفلسفة التاريخ » .

وقد كان الكثـيرون ممن ينقدون التاريـخ ومنهجه يقولون ان عمل المؤرخ يعتمد على « المقص وزجاجة الصمغ Scissors and paste اى انهيقطع صفحات مما قال الأولون ويلصقها بعضها الى جانب بعض ويعمل منها تاريخا ، وهذا يصدقـ ربما ـ على الكثـيرين من مؤرخي العصــور الوسطى ، وقد انكر كولنجوود ذلك انكارا شديداوقال ان المؤرخ الحق ليس عبدا لمراجعه وقال : « ان المقص والصمغ لم يكونا قط اساس المنهجالتاريخي » فأن المؤرخ الحق لا يتقيد بمراجعه الى الحد الذى يجعلها قيدا له ، بل ان للمؤرخ الحقفى أن يقوّم مراجعه نفسها اذا تبين له فيها الخطأ او الكذب .

وقد اورد كولنجوود هذه الآراء فى تاريـخحياته An autobiography الذى نشره ســنة ١٩٣٩ وهو من اجمل واذكى ما يقـرؤه المؤرخ اوالمفكر بصفة عامة . ويصــادف القارىء فى هــذا الكتاب الكثـير من الآراء التي لا يقبلهـا ، ولكنالمؤرخ يشعر وهو يقرؤها ان هذا المفكر الفذ يؤكد له اهمية عمله ويكشف له عن آفاق واسعة للعملالتاريخي . فقـد كان كولنجوود مقتنعا تمامـا بأهمية التاريخ ، و فىكتاباته يشعر الانسان بجلالةهذا العلم وقدره ، واذا كان الكثيرون قد نقدوه لقوله بأن للمؤرخ ان يعتمد الى جانب مراجعه علىادراكه الشخصي وتصوره للاشياء حتى لو خالف تلك المراجع ، الا ان كل مؤرخ يحترم صـنعتهويشعر بقدرها لا بد ان يشعر بتقدير واجلال لهذا الرجـل الذى انصـف التاريخ والمـؤرخ معا ،واستطاع بذكائه وصـدقه واخلاصـه للحقيقة العلمية ان يضع التاريخ فى وضع رفيع بين العلومسواء اكانت نظرية ام عملية .

التاريخ العالمي ونظرياته

وهكذا نصل الى اشهر المؤرخين المعاصرينوابعدهم اثرا فى الفكر الفلسفي التاريخي فى ايامنا هذه وهو **ارنولد يوسف توينبي** Arnold J. Toynbee الذى ولد فى نفس العام الـذى ولد فيــه

كولنجوود (١٨٨٩) وانجه بالدراسات التاريخيةاتجاها اشمل واوسع مما قصد اليه كولنجوود واجتهد فى ان يتحقق مما اذا كان للتاريخ مسارمعين يمكن التعرف عليه ولو على وجه التقريب ، ومعنى ذلك انه وجه اهتمامه الى ما يسمى احيانا**بما وراء التاريخ** Metahistory اى البحث عن القوى او العوامل او المناهج التي تسير التاريخ .

وعاد توينبي بالفكر التاريخي الى حيث تركهالمفكر الفرنسي المعروف اوجوست كونت Auguste Comte (١٧٩٨ — ١٨٥٧) الذىاجتهد فى ان يطبق على الانسانيات والتاريخ خاصة — نفس المناهج العلمية التي تطبق علىالعلوم الطبيعية ، وقد ركز كونت اهتمامه على علم الاجتماع ، وهو دون شك منشىء هذا العلم فىالغرب **قبل دوركهايم** Durckheim **بزمان طويل** . وهنا نجد كونت قريبا جدا فى منهجه وطريقةعلاجه لما يدرسه من منهج ابن خلدون ، وربما كان من المفيد ان يعكف بعض المشتغلين بالفلسفة عندنابعمل مقارنة بين مناهج الرجلين . على اى حال لا يعد كونت مؤرخا او مفلسفا للتاريخ . لأنميدانه الحقيقي هو فلسفة العلوم ، ولكنه بالحاحه على البحث عن قواعد وقوانين لسير التاريخ انشأما يسمى **بالايجابية التاريخية** La positivité historique اى التزام الدقة العلمية فى كتابةالتاريخ مع البحث عن المنطق الدقيق وراء كل حادث وتطور . وقد لقيت الايجابية التاريخيةنجاحا كبيرا وجعلت اى مقدم على التأليف فى التاريخ يبذل غاية وسعه فى استقصاء مادتهوتنقيتها وتحليلها باقصى ما يستطاع من الدقة اى بأدق ما يستطاع من المنطق ، وكان يرى ان دراسةالتاريخ تقدم لنا المادة التامة لفهم المجتمع . والى هذا الرجل يرجع الفضل فى انشاء كرسي التاريخفى الكوليج دى فرانس سنة ١٨٣١ . وقد وضح الرجل منهجه فى كتابين يعتبران من اسس الفكرالحديث وهما « دروس فى الفلسفة الايجابية (١٨٣٠ — ١٨٤٢) ومنهج للسياسة الايجابية Système de politique positiviste (١٨٥١ — ١٨٥٢) وهو لا يزال يكرر فى كتابيههذين على رأيه فى ان المجتمع الانساني قابل للدراسة على الاساس العلمي .

وقد رأينا كيف عمل كروتشي وكولنجوودمن بعده فى تحرير التاريخ من العلم الطبيعي والمؤرخين من محاولة تطبيق مناهج العلم الطبيعيعلى مجرى حياة البشر ، ومن فضائل كولنجوود انه نصح المؤرخين بأن يكفوا عنالسعيوراء البحثعن قوانين عامة للتاريخ ، وقال ان الاجدى هو الاجتهاد فى فهم الحوادث كما فهمها أهل عصرها ،وعرضها فى اطار الزمن الذى دارت فيه لا فى اطار عصرنا . ففي العصور الوسطى مثلا كان الملوك اذاصعدوا الى العرش كان اول همهم القيام باعمال عسكرية ضد جيرانهم لا بقصد العدوان وانمااعلاما للجيران بأن الملك الجديد قوي جسور لا يصطلي بناره « كما يقولون » فيهابوه ويحترمواحدوده ، فاذا لم يفعل ذلك ظنوه ضعيفا فقاموا بالعدوان على بلاده ليعجموا عوده ، وعلى هذا فلاينبغي ان ننظر الى كل حروب الملوك والامراء فى العصور الوسطى على انها اعمال عدوانية ، بل هيروح العصر كانت تقتضي ذلك . هكذا ينبغي ان نفهم التاريخ فى ضوء عصره وظروفه وافكارهالشائعةحتىنطمئن الى انفهمنا للحوادثصحيح.

ولكن فكرة البحث عن قواعد وقوانينتسيِّر التاريخ العام ما زالت مع ذلك تراود ذهن المؤرخ الطموح الذى لا زال يأمل فى الوصول الىسر التاريخ . ومن هذا الطراز لدينا فى العصر الحديث عدد ليس بالقليل ، ولكنهم لم يعودوايصدرون آراء فلسفية قائمة على التأمل ، ولكنهم لجأوا الى ما عرف عند الالمان باسم التحليلالتاريخي او مورفولوجية التاريخ Geschichsmorphologie او تحليل الحضارات Kulturmorfologie والمراد بذلك ان يأخذ المؤرخ مجموعة من الحضارات يعتبرها نماذج ثم يحللعناصرها ومكوناتها ويحاول ان يجد عناصر

متشابهة بينها تساعده على ان يرى ان كان هناك بالفعل ــ او لم يكن ــ نظام واحد يمكن ان يطبق عليها جميعا .

وهذا المفهوم للتاريخ العالمي يختلف عن مفهومه التقليدى الذى يقوم على رواية تاريخ البشر عصرا عصرا او امة أمة كما نجد مثلا فى تاريخ كيمبريدج باقسامه الثلاثة : القديم والوسيط والحديث ، ويختلف كذلك عن مفهومه الفلسفي الذى يبحث عن القوى العامة التى تحرك مسار التاريخ كما رأينا هيجل ينظر الى التاريخ او العملية التاريخية كما كان يسميها Geschichtsprozesse على انها عملية صعود منطقي الى مستويات عقلية او فكرية جدلية Dialektische Stufen تنتهي آخر الامر الى تحقيق ما تقصد اليه القوة العليا المدبرة لشئون الكون Weltgeist من توحيد العالم فى كل واحد Weltganz يعيش فى حرية وامان ، وكان يحسب ان الانسانية قد اقتربت من هذا الهدف الاعلى بظهور الدول الاوربية المنتظمة القائمة على القانون Rechtsstaaten وكان يرى فى الدين والعلم والفن مظاهر مرتبطة بما يتحقق من الاقتراب من ذلك الهدف الاخير الذى قصد اليه العقل الكوني الاعلى ــ اى الخالق سبحانه فى راى هيجل ــ وقد رأينا كيف هدم ماركس هذا البناء الفلسفي بقوله لا وجود لهذا العقل او الروح الاعلى ، وان المحرك الحقيقي للتاريخ هو الاقتصاد والانتاج ، اى انه هبط بالفلسفة التاريخية من السماء الى الارض ، وقال ان ما ذكره هيجل من دين وعلم وفن ، وظن انها لباب التاريخ واساسه ان هي الا قشرة ظاهرية لبنية التاريخ ، وقد سماها بالبناء العلوى Neberbau او Super structure كما يترجمها الانجليز يقوم اساسا على انتاج الطبقات العاملة ويعتمد على عمل الكادحين الذين هم فى رأيه بناة التاريخ وصناع الحضارة .

هذا التصور الجديد للتاريخ العالمي يرجع الى آراء فيكو فى قيام الدول وسقوطها ومحاولة البحث عن اسباب القيام والسقوط وقد رأينا ان فيكو يحاول ان يرد القيام والسقوط الى عوامل بيولوجية اى انه فعل ما فعله ابن خلدون من تشبيه الدول والحضارات بالنباتات والحيوانات وقوله بأن لها اعمارا لا بد ان تمر فيها .

ونحن نذكر ان ابن خلدون اشار فى تحليله الى ان الامم فى صعودها تتطلع نفوس اهلها الى عظائم الامور وتستسهل الصعاب ، وفى ايام هبوطها تسقط همم اهلها وتصعب عليهم الصغائر ، وهذه لمحة عبقرية سماها متفلسف تاريخى المانى هو **فونت** Wundt باسم نفسية الشعوب Vôlkerpsychologie وتحدث عنها **كارل لامبرخت** Karl Lamparecht فى تأريخه للحضارات على أساس نفسانى .

وكان **لامبرخت** من اوائل من فكروا فى البحث عن سر التاريخ عن طريق تحليل عدد من الحضارات والبحث عن العوامل التي سببت قيامها وهبوطها واستخراج المعاني من ذلك التحليل او ما يسمى بدلالات التحليل الحضارى Kulturmorphologische Geschichtsdeutungen

وقد يكون لامبرخت قد استوحى فى ذلك آراء مؤرخ روسي يعتبر من اوائل دعاة الحركة الصقلية اى السلافية ، وهو **نيكولاى دانيليفسكي** Nikolai Davielewski (١٨١٢ ــ ١٨٨٥) وفى محاولته لتحديد الشخصية السلافية قام دانيليفسكى ببناء نظرية كاملة تقوم على أساس من مورفولوجية التاريخ . فاختار عشر حضارات رأى فيها انها حضارات مبتدعة او بانية للحضارات ثم قسمها على أساس لغوى ، فجمع الحضارات الايطالية والفرنسية والاسبانية مثلا فى وحدة

حضارية واحدة ، وكان هدفه من ذلك ان يبين آخر الامر ان هناك وحدة حضاريه صقلبية او سلافية تتزعمها روسيا ، ولكنه كشف عن جهل عميق بما هو خارج عن النطاق الاوروبي فقرر ان هناك اجناسا ذات اثر سلبي او مخرب للحضارات .

وقد تناول هذه الفكرة وسار بها الى مدى ابعد مؤرخ الماني اصيل هو **اوزفالد شبنجلر** Oswald Spengler (١٨٨٠ — ١٩٢٣) فقد كانت نظرته اوسع وافقه اشمل فأدرك من التوفيق ما ادرك لامبرخت ودانيليفسكي وقد بسط آراءه في كتابه المشهور : افول نجم الغرب Untergang des Abendlandes الذي ظهر جزؤه الاول سنة ١٩١٨ ، واثار ضجه كبرى ، اذ انكره المؤرخون المحترفون لأنه هدم الكثير من آرائهم ودعاهم الى اعادة النظر فيما يتناولون من علم التاريخ . اما جمهور الناس فقد اعجبوا بكتاب شبنجلر وتهافتوا عليه لما رأوا فيه من جدة وشمول ، ثم ظهر جزؤه الثاني سنة ١٩٢٢ مع نسخة معدلة من جزئه الاول .

رأى شبنجلر تشابها بين قيام الحضارات ونموها ووصولها الى القوة ثم انحدارها عملية بيولوجية شبيهة بما يجرى على الكائنات الحية من تطور طبيعي عضوى naturhafte prozesse بالضبط كما قال ابن خلدون . واذا كان نظر ابن خلدون لم يتخط نطاق الحضارة الاسلامية ودولها الا فيما ندر ، فاننا لا نستطيع بسبب ذلك ان ننكر عليه فضله فى انه اول من قال بهذا الرأى وان كان هذا الرأى فى ذاته غير صحيح .

درس شبنجلر سبع حضارات وحاول ان يستكشف اسباب صعودها وسقوطها ، وكل واحدة من الحضارات التي اختارها تتميز بسيادة طراز معين من الناس ما بين رجال دين او عسكريين او فلاسفة . وحاول ان يرى كيف سارت الامور فى كل منها ، فتبين — بحسب ما ادى اليه نظره — انها جميعا مرت بعصور انشاء ونمو ونضج ثم انحدار ، كأنها كلها مرت باعمار محددة ، وكان شبنجلر بارعا فى عرضه ولكن سيطرت عليه فكرة التشابه بين الدول والكائنات الحية ، وهي فكرة غير سليمة ، لأن الدول او المجتمعات لا تشبه الكائنات الحية ، فان الكائن الحى يبدأ فى الموت بعد ان يصل جسمه الى درجة معينة من النمو فى حين ان الشعوب او الجماعات يتجدد شبابها مع ميلاد كل جيل ، ونحن نقول مثلا ان الكائن الحي يتشيخ وان الامه تشيخ ، فاما شيخوخة الكائن الحي فمفهومة واما شيخوخة الامة فكيف تكون : هل يولد اطفالها جميعا فى فترة ما شيوخا ؟ الحق ان شيخوخة الامة مفهوم آخر يختلف كل الاختلاف عن شيخوخة الكائن الحي ، وهي فى الحقيقة ليست شيخوخة وانما هي ضعف وفساد وظواهر اجتماعية وسياسية تختلف كل الاختلاف عن الشيخوخة العضوية .

ونتابع شبنجلر فى تحليله للحضارات التي اختارها فنقول انه ذهب الى ان الحضارات اجهزة عضوية Kulturen Sind Organismen وان كل حضارة تمر فى مراحل عمر تشبه مراحل اعمار البشر المشهورة هي : Jede Kultur Lâuft die Alterstufe des eingenen Menschen ولكل حضارة منها روح او لباب ، وشبنجلر لا يستعمل هنا لفظ Geist الذى استعمله هيجل ولا Spiritu الذى استعمله كروتشي ولكنه استعمل لفظ Scele وهي الروح التي فى الكائن الحي . وهو يقول ان الفترة الاولى من حياة اى حضارة تشبه العصور الوسطى الاوروبية . وهي فى نظره على هذا مرحلة طفولة او صبوة ، ثم تدخل فى مرحله الوعي لنفسها والتنبه الى قواها ، ثم تبدأ بعد ذلك مرحلة الضعف والهبوط ، واننا نستطيع ان نستشف روح كل حضارة فى معاملات

الناس فى نطاق اى حضارة ما فى كيانها من قوه ،وما تمر فيه من مراحل العمر ، وطابعها الخاص كذلك ، وعبارته بنصها :

In den Handlungen der Menschen wird dabei Kraft, Alter und Eigenart jeder Kulturseele sichtbar

وقد اتينا بها لانها كانت موضع نقد شديد ، لأنه ذهب فى تشبيه دورة الحضاره بدورة حياة الكائن الحي الى مدى مسرف فى البعد ، فان التطابق بين حياة الامم وحياه الافراد كما قلنا غير موجود الا فى الظاهر فقط . وقد عدل شبنجلر عن بعض آرائه تلك فيما بعد ، ولكن صلب نظريته ظل قائما . واليوم لا يأخذ احد بنظرية شبنجلر التي تتلخص فى قول احد تلاميذه :

Spenglers Deutung der Weltgeschichte als Naturhaftes Prozesses des Wachstums and Verfalls.

(تصوير شبلنجر التاريخ العالمى فى صوره عملية نمو وتفكك طبيعية) ، وأضاف ـ مقتبسا من كلام اشبنجلر : ان ملاحظة سير الدوره Zyklus الحتمية وتتبع أطوارها يمكننا من الحكم على مستقبل اى حضارة وذلك بدراسة ما قطعه من اطوار دورة حياتها فنعرف ما بقى لها من العمر . وقال « ان الصورة الروحية لكل من هذه الاطوار ومدتها وسرعتها ولبابها وانتاجها تمكننا من الوقوف على ما بقى لأى حضارة راهنة من سنوات الفوة . وقال ان حضارة الغرب قد خلفت وراءها مرحلة الخلق الحضارى ودخلت فى مرحلة التأمل والاستمتاع المادى (التى يعتبرها سبنلجر مرحله النضج الكامل لأى حضارة فلم يبق للغرب الا مرحلة الانحدار او الافول Verfall) وقال ان اعادة الشباب الى حضارة الغرب وتجديدها مستحيل استحالة اعادة الشباب الى حيوان او انسان ادركته الشيخوخة .

وقد كان غضب المؤرخين فى الغرب على اشبنجلر شديدا وقاسيا بسبب هذه النبوءة السوداء ، وهاجموا كتابه ومنهجه وعلقوا أهمية كبرى على بعض الاخطاء التاريخية التى وقع فيها فى دراسته الواسعة المدى فتعرض بسبب ذلك لمتاعب كثيرة ، وزادت متاعبه عندما قام النظام الهتلرى فى المانيا ولم يرض الاشتراكيون الوطنيون (النازيون) عن آرائه وتوفى فى ميونيخ فى ٨ مايو ١٩٣٨ اسيفا وحيدا . (٢٦)

وكانت تجربة شبنجلر حافزا للكثيرين للقول بأنه خير للمؤرخ ان يقصر على عمله العلمى ، وهو دراسة ما يتولى من موضوعات التاريخ على المنهج التاريخى الصحيح ويترك جانبا موضوع البحث عن قواعد وقوانين عامة ، وهذا هو الذى رفع مقام كولنجوود الى المستوى الذى ذكرناه ، وبين أن عكوف المؤرخ على عمله على هذه الصورة يمكنه من الخروج فى الموضوع الذى يبحثه بنتائج ربما كانت أهم بالنسبة للفكر الفلسفى من المحاولات المتعثرة لتقنين مسار التاريخ .

---

(٢٦) انظر R. G. Collingwood, Oswald Spenglor and the Theory of Historical Cycles (Antiquity. بحث نشر فى مجلة) 1927.

P. A. Sorokin, Social Philosophies of An Age of Crisis (1950)

M. Schröter, Metaphysik des Untergangs (1949).

عبد الرحمن بدوى : اشبنجلر . القاهرة ١٩٤٧ .

وكان ارنولد توينبى فى جملة هؤلاء الـذين عكفوا على دراستهم التاريخية فى جد بالغ . كان موضوع دراسته وتخصصه هو تاريخ الاغريق وأدبهم وعندما قامت الحرب العالمية الاولى كان يقرأ على تلاميذه فى جامعة اوكسفورد درسا فى الحرب البلوبونيزية ويشرح لهم كلام **توكيـديد** عنها ، وهنا خطر بباله أن الحرب التى يصفها ذلك **المؤرخ الاغريقى بين كتلتى بلاد اليونان اللتين** تزعمتهما اتينا واسبرطة شبيهة الى حد كبـير بالحرب العالمية التى اندلعت ووقفت فيها بريطانيا وحلفاؤها ضد المانيا وحليفاتها . وان التاريـخ ربما كان يعيد **نفسه حقا كما قال توكيديد ، وان شبنجلر** لم ينفق وقته فى بحثه وراء نظام للمسيرة التاريخية . **وتوينبى** من أولئك الذين لم يدخلوا ميدان التاريخ عن طريق الاحتراف بل لانه كان يحس أن تيار التاريخ يتدفق فى شرايينه كمـا تجرى الشاعرية فى كيان من خلقه الله ليكـون شاعرا . وبعد اربع سنوات قضاها مدرسا فى أوكسفورد (١٩١٢–١٩١٥) انتقل الى لندن أستاذا للتاريخ البيزنطى ، واللغة اليونانية المعـاصرة (١٩١٩ – ١٩٢٤) وهنا بدأ اتصاله بالدولـة العثمانية والمسألة الشرقية عموما ، وهنا أيضا درس عليه المؤرخ المصرى **محمـد شفيق غربال** وارتبط معه بصداقة كان لها أثر بعيد على تفكير توينبى وشفيق غربال معا . ومن سنة ١٩٢٥ الى سنة اعتزاله (١٩٥٥) كان توينبى أستاذا للتاريخ الدولى فى لندن وكذلك مديرا للدراسات فى المعهد الملكى للشئون الدولية . Royal Institute for International Affairs وفى سنة ١٩٢٢ بدأ فى كتابة دراسته الواسعة للتاريخ التى دلل فيها – ضمن أشياء كثيرة – على حقيقة استمرار التاريخ ، وأن الماضى والحاضر يربطهما بالفعل رباط حقيقى لا شك فيه . ولقد استوقف نظر توينبى وهو يتتبع اخبار الحرب العالمية أن البلغاريين كانـوا يلبسون قلانس من فراء الثعالب ، وكذلك كان جنود أجزرسيس ملك الفرس فى حربهم مـع الاغريق ، **فكأن لا شىء فى الحضارة يموت موتا نهائيا .**

يقول كتاب توينبى على دراسة عامة شاملة لتاريخ البشر على اعتبار أن هذا التاريخ يتكـون من سلسلة من التجارب السياسية وصـل كل منها الى قمته فى صورة حضارة قائمة بذاتهـا . **فالتاريخ الاسلامى بمجموعه** – فى نظره – تجربة واحدة خلاصتها **هى الحضارة الاسلامية . فاختار** توينبى من هذه الحضارات احدى وعشرين ومضى يدرس كلا منها دراسة عميقة شاملة على حـدة ، فتجمعت له بذلك ثروة من العلم التاريخى ربما لم تتوفر لمؤرخ آخر قبله ، وهذه الثروة هى التى تبهر قارىء كتابه **وتجعله يتغاضى** عن بعض الاخطاء فى التفاصيل .

وتبين توينبى أن تاريخ كل أمة من الامـم التى اختارها موضوعا لدراسته انما هو استجابة لتحدى الظروف التى وجدت فيها . ويرى توينبى أن أى مخلوق حى يجد نفسه بمجرد خلقه أمام عوامل تعمل على فنائه والقضاء عليه ، فما مـن حيوان الا وله اعداؤه علاوة على ظروف المناخ والغذاء وهى ليست دائما مؤاتية . ومن هنا فان الحياة فى ذاتها تحد للكائن الحى ومواجهتـه لظروفه ومحاولته التغلب عليها والاستمرار فى عالم الاحياء هى استجابة لذلك التحدى . من هنا تنبه توينبى الى حقيقة التحدى والاستجابة Challenge and Response التى تعتبر مفتـاح نظرته العامة للتاريخ .

وعند دراسة توينبى للحضـارات التى اختارها تبين أن المجموعات البشرية تقودها دائما جماعات من القادة أو اصحاب الرأى وهـؤلاء هم الذين يقودون الجماعة فى استجابتها للتحدى

ويحددون نوع هده الاسجابة بحسب ملكاتهم . فاذا كانت استجابتهم قائمة على ابتداع الوسائل التى تمكن الجماعة من التغلب على المصاعب التىتواجهها والسير الى الامام كانت هذه الجماعة موفقة ، وسار تاريخالجماعة الى الامام ، لانالاستجابة كانت ابتكارية أو ابتداعيه Creative Response ولا نزال الامة فى صعود وتقدم مادام قادتها محتفظين بالقدرة على الاستجابة الابتداعية . فاذا عجزوا عن ذلك أخذ سيرالجماعة كلها يتلكأ ويتراخى وربما توقف . وبينما كان اشبنجلر ــ مثل ابن خلدون ــ يرى انالاستجابة الابتداعية تصل الى ذروتها ثم تتوقف، اى ان موت الحضارات لا مفر منه يرى توينبيانه من الممكن ان تستمر الحضارة فى الاستجابة الابتداعية ولا تموت بذلك . ويضع توينبي فىدراسته العوامل الفكرية والروحية فى المقدمة خلافا لما كان يفعله ماركس من تقديم النواحيوالعوامل المادية على غيرها .

وقد أخذ توينبى عن المفكر الامريكي**ف.ج.تيجارت** F. J. Tegart فكرة انتفع بها فيما بعد فى دراسته . وهي انه لكي نفهم تاريخحضارة ما علينا اولا ان نقرأ عنها فى توسع حتى نهتدى الى روحها ولبابها . وهذا هو مفتاحفهمها ، فاذا كان فى يدنا هذا المفتاح عدنا نقرأ تاريح هذه الامة وتجربتها السياسية والحضاريةفنجد انفسنا قادرين على ادراك حقائق هذا التاريخ ومعرفة مواضع قوته وضعفه . وافادتوينبى كذلك من دراسة علم النفس على مذهب **يونج** Jurg احد تلاميذ فرويد ، ويونج ممناقدر من درس موضوع نفسية الجماعات وهى تختلف كما هو معروف عن نفسية الافراد .

وجد توينبي أن كلالحضارات التى يدرسهامرت باطوار متشابهة فى النمو واستمرار التقدم وزيادة القوة ، ثم تعقب ذلك مرحلة من المصاعبالداخلية والخارجية يليها تصدع العناصر التي قامت عليها قوة هذه الحضارة وربما انتهى الامربتفككها او تصدعها ، ويعقب ذلك تحولها الى دولة عالمية Universal State اى ان عناصرقوتها تتفرق فى الشعوب التي كانت تتكون منها كما حدث مثلا بالنسبة لدولة الرومان ، فقدقامت على العنصر اللاتينى الروماني الذى كان تكوّن الاقلية القائده التي قادت الرومان فىتاريخهم الاول بما لديها من قوة الخلق والابتداع، وتمكنت من انشاء الامبراطورية وسيادتها ، ثممرت فى حقبة الاضطراب الداخلي وحروب **ماريوس وسلا** وصراع الاخوين **جراكوس** فى سبيلالاصلاح الداخلي ، ثم حروب قيصر واوكتافيوس وقيام الامبراطورية ، وهنا تصل الدولة الرومانيةالى قمة قوتها وتأخذ وحدتها فى التصدع ثم التفكك ، وتنتقل حضارتها وعناصر قوتها الىالشعوب التي كانت تحكمها ، اى انها تحولت الى دولة عالمية . ومن السهل على المؤرخ العربيان يتتبع سير هذه العملية فى تاريخنا العربي الاسلامي نفسه .

ويقول توينبي ان النموذج العادى للتفككالاجتماعي فى حضارة من الحضارات تأخذ صورة انشقاق فى صفوف الجماعة وظهور الطبقة العاملةالى الميدان وتحديها للقوة الحاكمة . ويقترن ذلك بعجز هذه الطبقة عن الثبات لذلك التحدىبسبب التصدع فى بنيانها وعجزها عن الاستجابة ابداعيا للتحدى ، وشيئا فشيئا تفقد القيادةسيادتها وتميل الامور الى الفوضى ، وقد يتم ذلك على مراحل تحاول القوة الحاكمة فى كل منهااستعادة سلطانها ثم تفقده ، وفى آخر الامر ــ

وكحل وسط للمشكلة ـ تترك جانبا من السلطان للطبقات او الجماعات الاخرى فى الدولة اى انها تتحول تحت ضغط الظروف الى دولة عالميـة او عامة كما ذكرنا ، وهنا نجد الطبقة العاملة او البروليتاريا التي احدثت هذا التغيير الشـامل تجعل من مبادئها التي نادت بها اثناء تحديهـا للسلطة الحاكمة عقائد ثابتة وتنشيء ما يمكن ان يسـمى بهيئـة او قـوة عقائـدية عامـة Universal Church وهذه العقائد العامة هي التى تبقى بعد تفكك الدولة وزوالها وتصبح نواة لبناء دولة او قوة جديدة .

وقد كتب توينبي المجلدات الست الاولى من تاريخه قبل الحرب العالمية الثانية فى ظـروف سادت اوروبا فيها موجات من التفكك والضعف واليأس ، ولكن الحرب العالمية الثانية جددت الى حد ما نشاط الحضارة الغربية ، فلما عاد يستتم كتابه بعد نصر الحلفاء كتب المجلدات الاربعـة الباقيه بروح من التفاؤل تختلف عن روح الاجزاء الاولى وقال : « اذا كانت هناك مركبة تسير الى الامام فى طريق رسمه لها قائدها فلا بد انها تسير محمولة على عجلات تدور وتدور فى حركة منتظمة راقية . فاذا تصورنا ان حضارة البشر هي هذه المركبة وان عجلاتها تضعف وتتهشم اثناء السير الطويل لتحل محلها عجلات اخرى تبينا ان هذا التعـاقب فى تغيير العجـلات واسـتمرار سير الحضارة يدل على ان اتصال هذا المسير مقدر فى ذاته ولا بد ان يكون هناك نتيجة لهذا تقدير الهي اعلى يسيّر هذه العملية ويجعل مـن فشـل حضارة من الحضارات عنصر قوة وبناء لحضارة تليها .

ومعنى ذلك ان توينبي لا يرى ضيرا او شرا فى اضمحلال الحضارات لان تجاربها لا تذهـب سدى بل تنتقل الى غيرها ، وتكون نقطة بداية لتجربة جديدة او عنصرا من عناصر قوتها . ومن هنا فهو يقول ان التاريخ لا يعرف حضارة تزول تماما ، وانما الذى يحصل فى الغالب ان الحضاره بعد ان تتم دورها على يد امـة مـن الامم تذبل وتجمد او تتحجر Petrifies ثم تتفكك وتنتقل عناصرها الى امة او امم جديدة لتقوم حضارة او حضارات جديدة . وقد كان توينبي يكتب هـذا التاريخ فى نفس الوقت الذى كان يشرف فيه على تحرير دورية سنوية كان يصـدرها المعهد الملكي للشئون الدولية تسمى « عرض للشئون الدولية Survey of International Affairs اى انه كان يتابع سير التاريخ الحاضر فى نفس الوقت الذى كان يقلب فيه دفاتر الماضي ، مما اعطى دراسته للماضي نفسه طابعا من الحاضر بث فيه حيوية وقوة وواقعية . وتوينبي نفسه قال انه ما كان يمكنه ان يقوم بأى من العملين على شكل ناجح او لم يكن يقوم بالآخر فى نفس الوقت . لان تتبع سير التاريخ الحاضر وفهمه لا يتمان الا اذا اخذ الانسـان فى اعتباره سـير الحوادث فى الماضي ايضا . واى مؤرخ ناجح لا بد ان يكون متتبعا لاحداث عصره فى نفس الوقت الذى يدرس فيه ما مضى من الاحداث لان مادة التاريخ واحدة ، وهي الانسان ، ولبابه واحد وهو الحضارة . **فلا بد لمن يدرس حمورابي او اخناتون ان يكون متتبعا لرجال عصره مثل غاندى ولينين واتاتورك وفرانكلين وبلانو روزفلت .**

وتلـك هي الميزة الكبرى لنظـرة توينبي للتاريخ . فهو يدرسه على انه كل واحد او تجربة واحدة تمت على مراحل او دورات ، واذا كان كل من سبقوه من مفلسفي التاريخ فى الغـرب قـد

ركزوا على تاريخ الغرب بادئين بالمصريين القدماء فالاغريق فالرومان ومنتهين بالثورة الفرنسية والقرن التاسع عشر ، فجاءت دراستهم ناقصة لانها قامت على فهم ناقص للتجربة الانسانية العامة . فان توينبي ادخل فى اعتباره تجارب أمم الشرق جميعا وانفق جهدا ضخما فى فهمها وتقديرها ، بل ادخل فى اعتباره التجارب الحضارية للهنود الحمر قبل الكشف الكولومبى . ومن هنا كانت دراسته انسانية عامة وان سيطر عليها شعوره المسيحي البروتستانتي ، واذا كان بعض النقاد قد قالوا عنه أنه يتكلم احيانا كواعظ مسيحي فان من الحق ان يقال انه فى معظم تاريخه يصدر عن احساس انساني عام قائم على الايمان بوحدة الانسانية وتجربتها الحضارية .

وتوينبي لا يعد نفسه فيلسوفا او مفلسفا للتاريخ ويكتفي بالقول بانه مؤرخ ، اما كبار مؤرخي العصر من امثال **يوهان هويتسنجا** Johan Huizinga فينكرون عليه هذه الصفة، ويكتفون بالقول بانه شاعر ويصفون انه ادخل على التاريخ عنصرا شاعريا انسانيا ولكنه لم يكتب تاريخا حقيقيا منهجيا كما يرون . وارنولد توينبي لا يغضب من هذا الموقف ويقول ان هدفه من كتابه « دراسة التاريخ » كان تعريف الامم بعضها ببعض واطلاع كل منها على التجربة السياسية والحضارية للاخريات ، وهذه المعرفة من شأنها ان تقلل من كراهة الامم بعضها لبعض ، وتخفف من خوفها وتفتح بابا من ابواب التفاهم الانساني . وهذا فيما نعتقد يكفيه .

ونلاحظ ان معظم نقاد توينبي ومنكرى فضله هم من اليهود او ممن يميلون الى الاخذ بدعاياتهم . ولقد اجتهد اليهود خلال نصف القرن الاخير فى تضخيم قدر ما يسمى بدولتهم فى جزء من فلسطين لكي يجعلوا من ذلك سندا لدعواهم العريضة فى القول بانهم اساتذة الانسانية . فجاء توينبي وقاس الابعاد السياسية والحضارية لتلك الدولة ووضعها فى وضعها الصحيح . وفى كلامه عن العقيدة اليهودية بيّن زيف الدعوى التي روجها اليهود التي تقول ان مفكريهم هم اصل الاديان السماوية وان النصرانية والاسلام تحريفات لها . فكشف توينبي زيف ذلك كله . واثبت دون تحامل او قصد معين ان هذه كلها مزاعم من صنعة اللاهوتيين والسياسيين اليهود فى العصر الحديث ، واعطى المسيحية حقها ، وتكلم عن الاسلام عن فهم أو محاولة صادقة للفهم على الاقل . فكان هذا كافيا لاثارة حملة اولئك عليه : وهي حملة سياسية فى حقيقتها ولا قيمة علمية لها .

فى كتاب ((**دراسة التاريخ**)) نرى كيف تمكن توينبي من المصالحة بين علمي الاجتماع والتاريخ على احسن صورة ممكنة ، فهو فى الواقع مؤرخ وعالم اجتماع . وهو اذ يتحدث مثلا عن حضارة مصر القديمة يجتهد فى ان يعطيك صورا للمجتمع المصرى القديم ، لان الحضارة لا تنجلي فى مبتكرات اهل العبقرية بقدر ما تنجلى فى مستوى معيشة الجانب الاعظم من الشعب ، ومن هنا فان توينبي لا يتحسس حماسا شديدا لعصر النهضة الاوروبية لمجرد انه اطلع رجالا من امثال **ميكلا نجلو** لآن الفلاح الايطالي كان يعيش اتعس ايامه خلال ذلك العصر المضطرب . ومن هنا نستطيع القول بانه حتى الذين يريدون ان يقولوا أن ارنولد توينبي ليس مؤرخا لا بد ان يسلموا بانه فتح فى التاريخ فتحا انسانيا لم يوفق اليه مؤرخ قبله .

الى هنا نقف بهذا البحث ، فقد قطعنا فيه رحلة اثنين وعشرين قرنا من جهد علماء الغرب فى اثبات قدر علم التاريخ وللوصول به الى ما هوعليه اليوم . ولم يكن لنا مفر فى اثناء هذا العرض من الاستطراد عن أعلام لهم قدرهم فى هذا المجال من امثال **ف.و.ميتلاند** F. W Maitland (١٨٥٠ — ١٩٦٠) صاحب الفضل الاكبر فى نشاط نشر الوثائق الاولى فى انجلترا وهو مشهور بنشره لمذكرات **براكتون** . Bracton's Not Book (١٨٩٥) وكان براكتون محاميا فى القرن الثالث عشر ومذكراته حافلة بالكلام عن الصور الاجتماعية والمعاملات فى عصره ، وهذه المذكرات تشبه فى قيمتها العلمية وثيقة « يوميات كاتب الشونة » التى نشرها عزت عبد الكريم والقى بذلك ضوءاً باهرا على حياة الناس فى الشام فى العصر العثماني . **وپول فينوجرادوف** Paul Vinogiadoff (١٨٢٤ — ١٩٢٥) ذلك المهاجر الروسي الذى انشأ فى مانشستر بانجلترا مدرسة من اصلب مدارس العلم التاريخي ، والمؤرخ الامريكي **ماكلوين** C. H. Nacllwain استاذ التاريخ فى هارفارد ورئيس الجمعية التاريخية الامريكية American Historical Association وهو صاحب فضل كبير فى تعريف الامريكيين بالقيمة الكبرى للوثائق التاريخية ايا كانت ، و **ل.ب.نامير** L. B. Namier (١٨٨٨ — ١٩٦٠) الذى تعتبر مؤلفاته الى جانب مؤلفات ميتلاند نماذج للتاريخ العلمي المستكمل الشروط .

وهؤلاء الاساتذة جميعا يسيرون فى التاريخ على مذهب التاريخ الشامل Total History اى الدراسة الشاملة للفترة او الظاهرة التي ندرسها . فاذا كنت مثلا تدرس موضوع الضرائب فى عصر الدولة الايوبية مثلا ، فلا بد لك من ان تدرس الدولة الايوبية دراسة كاملة من كل نواحيها . وتلم بتاريخها السياسي والعسكري والاقتصادى والثقافي . وتدرس الى جانب ذلك احوال العالم الاسلامى كله فى ذلك العصر . وذلك لكى تستطيع ان تتكلم فى موضوعك عن ثقة وتمكن . ولا مفر من هذه « الكلية » totalité لمن يريد أن يقوم بدراسة تاريخية جديرة بالتقدير . ولم يتبع هذا المنهج اتباعا صادقا ووصل فيه الى مداه كما فعل ابناء المدرسة الفرنسية العريقة التي عرفت بمدرسة الانال L, Ecole des Annales التي ذكرناها . ففى هذه المدرسة الاصيلة التي تكونت حول الجماعة التي انشأت دورية الانال .. اى الحوليات ظهر رعيل فحل من المؤرخين الفرنسيين الذين بلغوا الذروة فى كمال البحث واصالته حتى قال واحد منهم وهو Ariès اريبه ان كل ما ننفق فيه الوقت من دراسة الحوادث السياسية والعسكرية ووقائعها ربما لا يكون فى الحقيقة الا الواجهة الظاهرة للتاريخ ..

la faca de apparente de l'histoire وان التاريخ الحقيقي يقع وراء ذلك فى حياة الناس العاديين ومستوى معيشتهم وافكارهم وآمالهم ومخاوفهم . وهم لهذا يحذرون من التاريخ السطحي histoire superficielle الذى ينزلق اليه الكثيرون فيجرون وراء تتبع الحوادث ذات الدوى الكبير ومع ذلك فربما لم يكن لها فى الوعي الانساني أثر .. على المؤرخ اذن ان يبحث عن الاصيل والدائم عن اللباب دون القشر .

ومن امثلة الدراسات الشاملة على مذهب مدرسة الحوليات ذلك الكتاب المبدع الذى كتبه **فردينان برودل** Ferdinand Braudel الاستاذ المعاصر فى السوربون عن عالم البحر الابيض فى

ايام فيليب الثانى La Mediterranée et le Monde Mediterranéen a l'epoque de Philippe II (1949)

وهو كتاب شامل يدرس البحرالابيض فى عصر الصراع الضخـم بين الاتـراك العثمانيين والاسبان والبلاد الاوروبية على سيادةالبحر الابيض . وقد درست على هذا الرجـل وربطتنى به صداقة كبيرة ايام كنت ادرس تاريخاسبانيا فى السوربون ، وكنت فى جملة طـلاب قاعة بحثه Seminaire فى المدرسـة العليـا العملية فى جامعة باريس . ورأيت استهلاكه نفسه فى تكوين تلاميذه وتدريبهم على التأريخ على مذهبالبحث الشامل . ولكى يصل الرجل الى بحثه هـذا درس جغرافية البحـر الابيض دراسـةمستفيضة واستخرج ما سماه بشخصية البحر الابيـض التاريخيـة la personalité histoirique de la Mediterranée ويتجلى هذا فى الجزء الثانى من كتابه الذى يدرس فيهوحدة النظم الاقتصادية والنظم السياسية التى سادت فى معظم الدول التي قامت على حوض هذاالبحر . وبعد هذا كله يدرس برودل فى الجـزء الثالث حوادث الصراع على سيادة هذا البحرخلال القرن الخامس عشر الميلادى وهو يسمي هذا الجزء تاريخ الاحداث histoire événementielle وعلى نفس الطريقة سار Charles Labrousse **شارل لابروس** فى كتابه المبدع عـنالثورة الفرنسية الذى حلل فيه النظام القديم اى النظام الملكي l'ancien régime تحليلا اجتماعيااقتصاديا فكريا ونفسيا بالغ العمق والشـمول يجعل من كتابه هذا خير ما يعرّف الانسان بالثورةالفرنسية واسبابها والظروف التي قامت فيها .

ويضاهي برودل فى سعة الافق وشـمولالبحث والتاريخ على مذهب التاريخ الشـامل **بيير رينوفان** Pierre Renouvin الذى تخصصفى دراسة العلاقات السياسية فى العصر الحديث. وهو من الذين يرون فى احداث التاريخ السياسيمجرد مظهر سطحي للواقع التاريخي الاهم وهو جماع الظروف الاقتصاديةوالاجتماعية التي تدفعبالجماعات الانسانية الى التعرف على هذا الوجه او ذاك . ويظهر رينوفان ذكاء بعيدا وسعة رائعةفى الافق عندما يتكلم عن اثر الدولة والسياسـة فى تشكيل الصورة العامـة لنشـاط الامة كلهاواهميتها فى المجتمع الدولى ، ويظهر كذلك براعة فى تحليل ما يسـميه بالسياسـة الكبـرى la grande politique اى التيارات الضخمة التي تسير سياسات الدول الكبرى ويتجلى ذلككله بصورة واضحة فى كتابه عن تاريخ العلاقات الدولية Histoire des relations internationales الذى ظهر سـنة ١٩٥٣ وفيه تتجلى الميزة الكبرى لمدرسة الحولياتوهيالقدرةعلى عرض المشكلة عرضا سليماشاملا وهـو ما يسـمى بالموضـوع la thèse ثم دراسـتهادراسة نقدية شاملة وهو ما يسمى بنقد المشكلة antithèse ثم الخروج بعد ذلك بالخلاصـةالتحليلية المركزة التي تسمى جمع الاطراف أو لمّ اطراف الموضوع la synthèse .

وبمناسبة الخلاصة التحليلية أو لمّ اطرافالموضوع الذى بلغت به مدرسةالانال اىالحوليات ما بلغت من مكانة فى تاريخ العلم التاريخى نقفلحظة عند واحد من اكبر ممثلي هذه المدرسة وهو مارك بلوك Marc Blochالذى اشـتهر امرهبكتابه البديع عن المجتمع الاقطاعيLa Société Féodale الذى ظهر اول ما ظهر سـنة١٩٣٥ وعد فى ذلك الحين فتحا فى التاريخ للعصور الوسـطى وتحليل مجتمعها الاقطـاعي تحليـلااقتصاديا اجتماعيا واثنوجـرافيا بالغ العمق .

ولقد ادخل **بلوك** على كتابه تعديلات فى طبعات تالية ، ولكن النظرية الرئيسية فى الكتاب ظلت كما هي وملخصها ان التركيب الاجتماعي الاقتصادى ينبغي ان يكون الاساس لكل تحليل تاريخى la structure sociale et économique doit être lo noyau de toute synthèse historique وقد بسط مارك بلوك رأيه هذا فى دراسة مشهورة عن ازمة العلم التاريخي فى فرنسا La crise de la science historique en France وفى هذا البحث تطرق الى دراسة المجتمع الفرنسي كله قبيل الحرب العالمية الثانية والهزيمة التى انتهت اليها . قال : ان هزيمة فرنسا كانت قبل كل شيء هزيمة للذكاء والخلق الفرنسي : la defaite de la France a été, avant tout, une detaite de l'intelligence et du caractère وقد اتيت بهذه العبارة بنصها املا فى ان تدعو بعضنا الى التفكير فى أزمة العرب الحالية على هذا الاساس او فى هذا الاتجاه على الاقل .

• • •

هؤلاء ما هم الا نماذج من عشرات المؤرخين العاملين اليوم فى جامعات الدنيا فى خدمة هذا العلم الانساني الخالص الذى يدور حول الانسان وتجاربه على سطح هذا الكوكب وما ادرك من توفيق وما اصابه من نكسات وما صادف من مآسى . هؤلاء الناس ــ المؤرخين اقصد ــ يحاولون جهدهم النفاذ الى الماضي الطويل المظلم والقاء الاضواء عليه لعل معرفتنا فى الماضي تمكننا من فهم الحاضر والنظر فى شيء من الفهم وحسن التقدير للمستقبل . وهم يبذلون فى ذلك جهدا شاقا فى الاطلاع والدراسة والتحليل والتفكير ولكن قلّ ان يُقدِّر مجهودَهم أحد . ولا يعرف الشوق الا من يعانيه كما قال جبته . ومن سوء الحظ ان التاريخ ــ وعندنا خاصة ــ مركب سهل يتخذه كل صاحب قلم اعوزه موضوع يكتب فيه او نطلع الى الشهرة وحسن الفالة بين الناس وشيئا من المال ، فما اسرع ما تمتد يده الى موضوع ضخم من موضوعات التاريخ الاسلامي ثم ينشيء فيه كتابا ربك سبحانه وتعالى اعلم بما فيه . ورفوف المكتبات العربية متقلة بالدراسات التاريخية ومعظم ما فيها تصورات وتأملات وفروض وتملق للقاريء الطيب القلب . ونادرا ما نقع عينك على كتاب فيه بضع صفحات ــ من مئات ــ تبرر قراءته فضلا عن تأليفه .

لقد رأيت الجهد الشاق الذى بذله رجال الغرب فى نقل التاريخ من هواية الى علم ، ومن حكايات واساطير الى دراسات وحركات فكرية هي الغاية فى العمق والشمول . ونحن عندما نقرأ كتابا مما الفوا انما نمسك بالثمرة ، ولكننا نادرا ما نفكر فيما وراءها من الجهد والتعب وسنوات العمر التى انقضت ليلة بعد ليلة بين وثائق لا نقرأ ، ومخطوطات كأنها الطلاسم ، ومصطلحات لا تفهم ، الا بعد البحث الطويل ، والعناء الشاق فى تتبع الاصول اللغوية والقواعد العرفية ، وليس فى الدنيا عالم هو اقل كسبا من وراء ما يكتب من المؤرخ فيما عدا اولئك القلائل الذين المنا بذكرهم فى هذا العرض السريع . وهل يعرف الناس مثلا قدر الجهد الذى بذلته تلك الجماعة الصادقة من المؤرخين الذين انشأوا دورية الانال اى الحوليات Annales de l'histoire economique et sociale التى ظهر عددها الاول فى فبراير ١٩٢٩ ولا زالت تصدر الى اليوم ؟ هل يذكر الا

القليلون فضل **لوسيان فيفر** Lucien Fèvre **والبير ديمانجون** Albert Demangeon **وهنرى هاوزر** Henri Hauser **واندريــه سيجفريد** Andrè Siegfried **وهنرى يرين** Henri Pirenne الذى ذكرناه وغيرهم كثيرين ممن قاموا على انشاء هذه المدرسة الجليلة .

ولكن لا بأس فان العلم جهاد ومشـــــقة وصمت ، والتاريخ يستحق هذا الجهد كله ، فهو سجل الماضي وصورة الحاضر والمرشد الى الغد . انه يسير فى طريقه قائما بنصيبه المتواضع فى الكشف عن المجهول فى امانة وصدق وعلى اســـس علمية سليمة انشاها اهل العلم فى صبر وصمت وتضحية على طول احقاب متطاولة كما رأيت .



مراجع مختارة

اتينا فى كل ففرة من هذا البحث باهم المراجع التي اعتمدنا عليها فى كتابتها . ونضيف هنا طائفة مختارة من امهات المؤلفات فى مبحث علم التاريخ مقسمة الى ففرات :

تاريخ التاريخ

Carlo Antoni, From History to Sociology. The Transition in German Historical Thought. Detroit 1959.

H Elmer Barsies, A History of Hisotical Writing (revised paper back ed. New York, 1962)

J. B. Black. The Art of History. London 1926

E. Bayer, Worterbuch Zur Geschichte. Begriffe und Fachansdrûcke 1960.

Brandi, K. Geschichte der Geschichtswissenschaft. 2 Aufl. 1952. Deutsche Geschichtsphilosophie von Xessing bis Jaspers.

(مختارات من كتابات : Schiller, Kent, Herder, Lessing.

Nagel, Schilling, Fichte, Humboldt, Goethe وجيته

Nietzche, Diltheyo, Burckhardt, Engels, Marx,

K. Rossman نشره Jaspers, Weber.

فى فرانكفورت سنة ١٩٥٩

J. W. Thompson u. B. J. Holm, History of Historical Writing 1950.

T. B. Bottomore and M. Rubel, Karl Marx, Selected writings in sociology and social philosophy (paper back ed. London 1967).

J. B. Bury, Selected Essays. London 1930.

V. H. Galbraith, Historical Research in Medieval England, London 1959.

G. B. Cooch, History and Historians of the Nineteenth Century, London, 1952.

S. William Holperin, Some 20th Century Hisotrians (Chicago 1961).

دراسات عن هنرى بيرين وتريفليان وليفيفر ورينوفان وفيفر .

Page Smith, The Historian History. New York, 1966,

Fritz Stern, The Varieties of History, Cleveland, Ohio 1956.

مختارات من كتابات كبار المؤرخين من فولتير الى ايامنا هذه .

عن النظريات التاريخية

Philip Bagby, Culture and History, London 1958.

Marc Block, The Historian's Craft, Manchester 1954.

Norman Canter and R. Schneider, How to Study History, N.Y. 1967.

R. G. Callingwood, An Autobiography. London 1939.

— The Idea of History, London 1946.

— The Philosophy of History, London 1930.

G. R. Elton, The Practice of History. London 1967.

H. P. R. Finberg, Approaches to History, London, 1962.

V. H. Galbraith, An Introduction to the study of history, London, 1961.

— The Historian at work. London 1962.

Louis Coltschalk, Unverstanding History. A Primer of Historical Method. N.Y. 1951.

C. V. Langlois et C. Seignobos, Introduction a l'elude de l'Histoire Paris 1898.

من اصول الكتب عن المنهج التاريخي . صدرت له طبعات كثيرةبعد ذلك « ترجمة الى الانجليزية » نشر في لندن مع مقدمة اضافية سنة ١٩٦٦

Gordon Leff, History and Social Theory, London 1969.

Hans Meyerhof (ed.) The Philosophy of History in our Times, N.Y. 1959.

مختارات من احسن ما كتب في فلسفة التاريخ في عصرنا .

L. B. Namier, Avenues of History, London 1952.

Emergy Neff, The Poetry of History, London 1947.

Richard Pases, The Historian's Business, Oxford 1961.

A. L. Rowse, The Use of History, London 1946.

David Thompson, The Aims of History, London 1969.

A. J. Toynbee, A New Opportunity for Historians, London 1956.

W. H. Waslh, Introduction to the Philosophy of History. 1967.

Alban Gregory Widgesy, Interpretations of History :
Confucius to Toynbee, London 1950.

Arthur Marwick, The Nature of History, London 1970.

C. G. Gustavson, A Preface to History N.Y. 1953.

Nans Rothfels u. Valdemar Besson, Geschichte

(وهو الجزء الخاص بعلم التاريخ من دائـرة معارف فيشرالمعروفة باسم Das Fischer Lexikan فرانكفورت ١٩٦١) .

★ ★ ★

محمد عواد حسين *

صناعة التاريخ

تعريف بالتاريخ

فى لغتنا العربية تأتي كلمة التاريخ والتأريخ والتوريخ بمعنى الاعلام بالوقت ، وتاريخ شيء من الاشياء قد يدل على وقته الذى ينتهي اليه ، مضافا اليه ما وقع خلال هذا الوقت من حوادث ووقائع ، ويقول السخاوى انه فن يبحث عن وقائع الزمان من حيث التعيين والتوقيت ، وموضوعه الانسان والزمان (١) .

وكلمة « تاريخ » فى لغتنا هي المقابل لكلمة History فى اللغة الانجليزية ، وكلمة Histoire فى اللغة الفرنسية ، وكلاهما اشتقاق من الكلمة اليونانية Histor بمعنى التعلم أو المشاهدة اى كل ما يتعلق بالانسان منذ بدأ يترك آثاره على الأرض (٢) .

---

* دكتور محمد عواد حسين رئيس قسم التاريخ واستاذ التاريخ القديم فى جامعة الكويت متخصص فى التاريخ اليوناني والروماني ومصر البطلميه . آخر مؤلفاته : بيريكليس والديمقراطية الاثينية .

(١) السخاوى (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن) ـ الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ . القاهرة ١٣٤٩ هـ ص ١٧ .

(٢) Oman, Ch. On the Writing of History London 1939, P.2.

وقد استعمل ارسطو كلمة « هستوريا » بمعنى السرد المنظم لمجموعة من الظواهر الطبيعية سواء جاء ذلك السرد وفقا للتسلسل الزمنى أم جاء غير كذلك ، ولا يزال هذا الاستعمال شائعا فيما نسميه « التاريخ الطبيعى » .

وقد تدل كلمة « تاريخ » على مطلق مجرى الحوادث الذى يصنعه الابطال أو تصنعه الشعوب (٣) .

ونحن لا نستخدم كلمة تاريخ الآن الا فى حالة السرد المرتب زمنيا ، وفى المعنى العام صارت كلمة تاريخ تعنى ماضي الانسان ، ولهذا وضع لها الالمان كلمة تحمل نفس المعنى ، وهي Geschichte المشتقة من الفعل الالماني Geschehen بمعنى يحدث ، ولكن الواقع ان كلمة تاريخ تعنى مجموعة الاحداث التي وقعت فى الماضي ، والتي تقع حاليا ، ثم التنبؤ على هدى ذلك وفى ضوئه بما سوف يقع مستقبلا .

ويقول **ابن خلدون** فى مقدمته « فن التاريخ عزيز المذهب شريف الغاية ، اذ هو يوقفنا على احوال الماضين من الامم فى اخلاقهم ، والانبياء فى سيرهم ، والملوك فى دولهم وسياستهم ، حتى تتم الفائدة فى الاقتداء بذلك لمن يرومه فى احوال الدين والدنيا » .

ومفهوم هذه العبارات يقطع بأن التاريخ يتناول الماضي والحاضر والمستقبل كما ذكرنا ، ولكن ابن خلدون يرى التاريخ فنا من الفنون ويبعده عن دائرة العلوم ، وذلك موضوع سوف نتناوله فيما بعد .

كيف بدأ التاريخ :

ظهر التاريخ أول الامر بصورة بدائية حين اخذ الانسان القديم فى فجر الحضارة يقص على ابنائه قصص قومه ويروى لهم الاساطير والمعتقدات الدينية .. فالتاريخ اذاً قرين الحضارة ، ولقد بدأ الاحساس به فى ذهن البشرية منذ أقدم العصور حين كان الانسان يسجل الاحداث بالرسم والنقش على الحجر ، ومع تطور الحضارة وازدهارها أخذ التاريخ يشكل اساسا جوهريا فى تسجيل الاحداث ، واضحى بمثابة السجل الذى يحفظ لنا الوانا من الاحداث والافكار والاعمال .

وتجمعت المعلومات التاريخية بصورة تدريجية حين أراد الناس أن يركنوا اليها ويفيدوا منها فى حياتهم واعمالهم ، فلا تكاد تمر بالانسان لحظة دون ان تتمثل فى ذاكرته صور عديدة بعضها عفوى وبعضها ارادى ، ولا تكاد تمر به لحظة دون ان ترتد الى ذهنه ذكريات عن احداث الماضي التي عفا عليها الزمن ، ولكنه عرفها وسمع عنها .

وحين يشرع الواحد منا فى القيام بعمل ما فانه ـ وحتى دون ان يشعر ـ يهتدى بامور مشابهة لهذا العمل سبق ان قام بها غيره ، وهذا الاهتداء هو الذى ينير له طريقه ويهديه سبل النجاح ، لانه من غير شك سوف يتجنب ما خيب آمال من سبقوه الى القيام بهذا العمل المشابه .

وهكذا يبدأ التاريخ فى ابسط صوره ، يبدأ حين يستعبد المرء من بين ذكرياته المتناثره ما يصلح لأن يكون نموذجا لاعماله التي ينوى القيام بها .

---

(٣) عبد الحميد العبادى ـ علم التاريخ (ترجمه لكتاب هرنشو) القاهرة ١٩٣٧ ، ص ٨ .

والغريب ان هذه الصورة البدائية للتاريخ لم تنقص ، ولا نظن انها الى زوال ، لأن الانسان تمسك بها كلما ازدادت مظاهر نشاطه وتعقدت.

واذاً فالناس حين يجترون الماضي ويتمسكون بشواهده انما يؤرخون وهم لا يشعرون ... وهكذا يصبح التاريخ عملا حتميا لا بد منه لكل مجتمع بشرى، وبدونه ينعدم الاحساس باستمرار الوجود ، ويعجز أى مجتمع عن التعرف الى شخصيته، وليس هناك ما يقى الناس من النسيان غير التاريخ .... ولقد تتسع مهمة المؤرخ باتساع الامور التى تدفعه الى العمل ، ولكنها لا تخلو أبدا من الواقع النفعي .

واذا كان التاريخ بمعناه العام يهدف الى معرفة الماضي كما ذكرنا من قبل ، فذلك لأن الانسان ميال بطبعه للوقوف على ماضيه ، فهو يحب ان يعرف كيف كان حال أجداده ، وكيف كانت اساليب حياتهم ثم كيف تطورت هذه الاساليب ، كما يجب أن يعرف اعمالهم ، والآثار التي خلفوها وراءهم ، وانجازاتهم .

واذا كانت حياة الانسان — منذ كان — عبارة عن سلسلة متصلة الحلقات لا انفصام فيها ، فان الانسان اذا يصبح ابنا للماضى باسره وثمرة هذا الماضي برمته . وبالتالى فان العلاقة بين حياة الفرد فى أى زمان من الازمنة ، وحياة القرون السابقة ، تكون علاقة وطيدة وثيقة ، ولا بد له من معرفة تامة بأحوال هذه القرون السابقة حتى يفهم نفسه وحاضره ويتمكن من التنبؤ بمستقبله ، ومعرفة الماضى تكسبنا خبرة السنين الطويلة التي عاشتها البشرية فى حقبها المتتالية .

ولا شك ان التأمل فى الماضي يأخذ الانسان بعيدا عن ذاته ، وحين يتم ذلك فانه يرى أشياء عديدة من العسير عليه أن يراها فى نفسه بسهولة، وبالتالي يصبح اقدر على فهم نفسه وأقدر على حسن التصرف فى حاضره ومستقبله (٤) .

والماضى — ايا كان — يكون دائما عزيزا على اصحابه ، ومن لا يعرف له ماضيا مدروسا لا يعتبر انسانا متحضرا ، والشعب الذى يجهل ماضيه يكون شعبا مبتورا لا جذور له ، وهو بهذه المثابة يخرج من دائرة شعوب الارض المتحضرة ، ويصبح اشبه ما يكون بشىء معلق فى الهواء تتقاذفه الرياح والأعاصير ثم تهوي به فى مكان سحيق .

من أجل هذا كله يصبح التاريخ دراسة تستحق كل الجهد الذى ينفق فيها ، وهناك اربعة اسئلة يحسن أن نسألها لأنفسنا ثم نحاول الاجابة عنها ، وسوف تجلو لنا هذه الاجابة كل ما يتصل بالتاريخ .

وهذه الاسئلة هي :

ما هو التاريخ ؟ وما هو موضوعه ؟ وما هو اسلوبه ؟ وما هو هدفه ؟

ويدور حول السؤال الأول جدل كبير ، لكن التاريخ آخر الامر لا يخرج عن كونه نوع من أنواع البحث العلمى ، فهو أصلا يندرج تحت ما نسميه « العلوم » .

---

(٤) حسن عثمان — مصطلح التاريخ ص ١٢ ، ١٣ — الطبعه الثانية (القاهرة ١٩٦٥) .

والعلوم الوان من التفكير تثير أمامنا أسئلةمعينة نحاول الاجابة عنها ، والعلم بصفة عامة لا يخرج عن كونه محاولة لتركيز الجهد حول شيءلا نعرفه في محاولة جادة لمعرفته والوقوف على حقيقته ، فالعلم اذا هو الكشف عن حقيقةالاشياء وهذا هو المعنى المقصود من قولنا ان التاريخ علم .

لكن ابن خلدون يقول في عبارته التي يُعرّف بها التاريخ انه **فن** (٥) ، فما هي الحقيقة ؟ وهل يعتبر التاريخ علما أم فنا ؟

هناك من يقول ان التاريخ لا يمكن ان يكون علما لأنه يعجز عن اخضاع الوقائع التاريخية لما يخضعها له العلم من المعاينة والمشاهدة والفحص والاختبار والتجربة ، ودراسة التاريخ لا توصلنا الى استخلاص قوانين يقينية ثابتة على نحو مايصل اليه الكيمائيون والفيزيائيون مثلا . وذلك رأى له وجاهته ؛ ولكن التاريخ مع ذلك يعتبر علما من حيث المنهج،لأن نتائجه تخضع للتحقيق، والاتفاق بين المؤرخين أو عدم الاتفاق بينهم ،وذلك عن فهم وادراك .

والذى أريد ان اقطع به هو أن التاريخ يبحث عن اسباب تسلسل الظواهر ويحاول ربطها الى بعضها وتعليلها تعليلا يقبله العقل .

ولكن هذا لا يفضي الى وضع القوانين الثابتة ، لأن المؤرخ لا يجرد ، والتاريخ قصص وليس برهانا ، ... وهو يتناول أحداثا مستقلة لا تقع الا مره واحدة ، ومن هنا لا يستطيع المؤرخ ان يستخلص منها نواميس عامة شاملة .

وليس هناك شك في أن المؤرخ يستخدم أحيانا تحقيقات الاختبارات العامة ونتائج الملاحظات الاجتماعية ليدرك مدى الحدث الواحد الفريد ، وكذلك نرى المؤرخ اليوم يبسط الأوضاع الاجتماعية والأوضاع الاقتصادية ليوضح آثارها على مجرى التاريخ ، وهذه وتلك من الاشياء المجردة .

ولقد نستطيع أن نُعرّف التاريخ بأنه العلم الذى يوازن العلوم الاخرى ، ذلك بأن حياة المجتمعات الانسانية هي في الحقيقة تاريخ هذه المجتمعات ، وبما أن التاريخ لا يعيد نفسه ، ولا يضع سُنَناً عامة ثابتة لا تتغير ، فلن تكون لأى علم القدرة على الوصف الدقيق في كل تفاصيله ... لكن التفاصيل ذات قيمة كبرى ، ومعرفة هذه التفاصيل والعوارض الفريدة هي المجال الذى يخوضه التاريخ .

ومن هنا فان التاريخ لا يستطيع أن يصل أبدا الى غايته المنشودة وهي اعادة تمثيل الحياة البشرية كما كانت ، واعادة رسم مظاهر النشاط العقلي بكل تطوراته وتقدمه .

والانسان هو الوحدة التي يدور التاريخ من حولها ، وكل جهد يحاول به صاحبه أن يعزل فئة من الناس خارج تاريخ الانسان ، انما هو جهد فاشل .

وبهذا المفهوم فان التاريخ يتضخم الى درجة الشمول لكل انواع المعرفة ، حتى العلوم الطبيعية يستطيع التاريخ ان يخرجها عن الرسم التجريدى اللازمني ويعرضها عرضا مؤسسا على مجهود الانسان ، بوصفها نتيجه لهذا الجهد .

---

(٥) انظر ص ١ من هذا البحث .

ووجود عنصر شخصية الفرد هو فى الواقعالسبب الرئيسي فيما يذهب اليــه البعض من نفي صفة العلم عن التاريخ ، لأن الانسان الفرد ــ اى انسان ــ له ارادة حرة وله ميول واهواء واتجاهات خاصة ، وهذه كلها تدخل فى التاريخحين يصنع ، وربما حين يكتب ، وذلك قمين بهدم كل محاولة تبذل لاقامة التاريخ على اسس علميةثابتة مجردة تماما .

ومن هنا ذهب البعض الى أن التاريخ فنكما ذكــرت ، وينبغي أن يكــون كذلك لأن العلم المجرد لا يمكن أن يعطينا عن الماضي سوى عظامهالنخرة ، ولا بد من الاستعانة بخيال المؤرخ لكي يكسو تلك العظام لحما ، ويحيلها الى شيء ينبضبالحياة ، ولا بد من براعة المؤرخ فى العرض لكي يخرج القصص التاريخي فى ثوب براق جذاب كمايقول **هرنسو** (٦) .

ومع ذلك فان صفة العلم تظل منطبقة علىالتاريخ ، اذ يكفى لذلك ان نعلم أن المؤرخ يمضي فى دراسته ساعيا جهــده الى توخي الحقيقة ،طارحا وراء ظهره كل هــوى فى نفســـــه ، وكل افتراض سابق ، قادرا آخر الامر على التصنيفوالتبويب وحسن العرض (٧) .

والخلاصة من كل ما ذكرت هي أن التاريخله منهج خاص ، غايته بلوغ المعرفة عن طريــق تسلسل الحوادث الفريدة لا عن سبيل وضــعالقوانين المجردة ، فهو علم ، والتاريخ ايضا يحتاج الى خيال كاتبه وقدرته الادبية ، فهو فن وهــوادب ايضا .

ان التاريخ لا يمكن ان يكون ولا يستطيع انيكون غير الاجابة عن منشأ الحالة الحاضرة التي نعيشها نحن ، والاسباب التى وصلت بدنيانا الىما نراها عليه الآن .

ولننتقل الى الاجابة عن بقية الاسئلة :

فموضوع التاريخ ــ كأى علم آخر من العلوم ــ هو الكشف عن نوع معين من الحقائق ، وهذا النوع هو جهود الانسان ومنجزاته فى الماضــى ،ونستطيع أن نقول فى اجابة اخرى ، ان التاريخ هو العلم الذى يحاول الاجابة عن الاسئلة التىتتعلق بما بذلته الانسانية من جهود منذ كانت .

اما طريقه التاريخ او منهج البحث فيه فهوتفسير الوثائق ، والوثيقة هى الشيء الذى يرجع الى زمان ومكان معينين ، وتحمل معلومات ذاتطابع خاص ، يفكر المؤرخ فيه ويعمل على تفسيره، ولسوف نتناول الوثائق التاريخية فيما بعد بمزيدمن الدراسة والتفصيل .

أما **هدف التاريخ** فهو ــ فى عبارة موجزة ــ **وقوف الانسان على حقيقة نفسه** ، ولســت اعني بذلك مجرد معرفته بمميزاته الشخصــية التيتفرق بينه وبين غيره من الناس ، وانما اعني أن يعرف الانسان طبيعته كانسان ، وما يستطيع انيعمل وان يقدم لبنى جنسه ، وهذا غير ممكن الا اذا عرف الانسان ماذا فعل فى الماضــى وما هيالجهود التى بذلها فعلا . واذا فقيمة التاريــخ ترجع الى أنه يحيطنا علما باعمال الانســان فىالماضي ومن ثم بحقيقة هذا الانسان .

---

(٦) انظر عبد الحميد العبادى ــ علم التاريخ (ترجمةلكتاب هرنشو) القاهرة ١٩٣٧ ، ص ٣ ، ٤ .

(٧) انظر عبد الحميد العبادى ــ علم التاريخ (ترجمةلكتاب هرنشو) القاهرة ١٩٣٧ ، ص ٦ ، ٧ .

كتابه التاريخ :

يتبين لنا مما سبق أن التاريخ علم ضروري للشعوب وللافراد على السواء ، فلا بد للفرد من أن يعرف نفسه بوقوفه على ماضيه ، ولا بد لكل شعب من ان يعرف تاريخه ليربط حاضره بماضيه ويصبح جديرا بالحياة ، ولا بد من أن يدرس التاريخ دراسة عميقه ، وان يدون كل دارس ما انتهى اليه لكي يقدم بعد ذلك للطلبه فى المدارس والمعاهد وكافة المثقفين بل والمتخصصين على السواء .

ومن ألزم اللزوميات ان تتم كتابة التاريخ على خير وجه ، فيكون الكاتب دقيقا غاية الدقه ، باذلا كل ما فى الطاقة من جهد وصدق وامانة وعدل ، ومستعينا بكل ما لديه من احساس وفن وذوق ، وهذا كله يؤدى الى الوصول الى الحقيقة قدر المستطاع .

ونحن نقول عادة ان التاريخ ليس علم تجربة واختبار ، وانما هو علم نقد وتحقيق ، واذا كان الناس يقولون ان التاريخ كالجيولوجيا لأن موضوع كلهما هو دراسة آثار الماضى ومخلفاته ، فان المؤرخ يختلف عن الجيولوجي من حيث اضطرار الأول الى دراسة العامل البشرى الذى يدور من حوله التاريخ ، بكل ما فيه من ارادة وانفعال وميول خاصة .

من هنا كان لا بد ان تتوافر فيمن يتصدى لكتابة التاريخ مجموعه من الصفات والمميزات ، وان تتاح له الظروف التى تجعله قادرا على الدراسة العميقة والتدوين الادبى السليم .

وأول صفة ينبغي أن يتحلى بها كاتب التاريخ ليصبح مؤرخا ، هى صفة عامة لا بد منها فى كل الباحثين فى شتى العلوم ، تلك هى حب الدراسة والاصطبار عليها ، فقد يكون البحث وعرا شاقا ، وقد تكون المصاعب التي تعترض الباحث اثناء عمله ، مصاعب جمة وكثيره ، كندرة المصادر وغموض الوقائع والحقائق أو اختلاطها واضطرابها . . . ولكن ذلك كله لا ينبغي أن يصد الباحث عن بذل الجهد والصبر على مواصله الدراسة ولو اقتضت منه السنين تلو السنين ، ذلك ان الاسر والتعجل سوف يؤديان دون شك الى طمس الحقيقة التاريخية .

ولا بد للمؤرخ من أن يكون أمينا شجاعا ، فلا يكذب باصطناع الوقائع ، ولا يزيف فى تفسيرها ، ولا ينافق لارضاء صاحب جاه اوسلطان ، أو دفعا لبطشه وطغيانه . . . فلا رقيب على المؤرخ الا ضميره ، ولا بد من أن يرضيه كل الرضا .

واذا كنا نقول ان التاريخ علم نقد وتحقيق ، فلا بد للمؤرخ من ان يكون ناقدا نافذ البصيره قادرا على تحليل كل وثيقة تصادفه ، والواقع ان المؤرخ الذى تعوزه ملكة النقد يصبح غير جدير بصفته ، ويتحول الى مجرد قصصى يروى كل مايعرض له على أنه حقيقة واقعه .

وعلى المؤرخ أن يكون مولعا بعمله من أجل هذا العمل لذاته ، لا سعيا وراء شهره أو فائدة مادية عاجلة ، عليه أن يتفرغ لما يدرس تفرغا تاما ، وأن يقتصر عليه وحده ، والا توزعت جهوده وعجز عن أداء مهمته كما ينبغي . . . ان التفرغ للعمل الواحد فى الوقت الواحد كفيل بالانتهاء الى اطيب النتائج وأسلمها ، بل هو كفيل بأن يجعل صاحبه ممن يقدمون للانسانية أجل الخدمات ، وممن يسهمون بنصيب وافر فى تقدم الحضارة وازدهارها .

ومن الصفات التى لا عنى عنهـا فى كل من يريد أن يكون مؤرخا ، عدم التحيز أو الميل مـع الهوى ، فلا بد للمؤرخ ان يحرر نفسه تماما من عواطفه وميوله الشخصية ، وأن يصدر أحكامه بصورة موضوعية خالصة على اسـاس مما بين يديه من ادلة ووثائق ، وبدون ذلك يصبح المؤرخ قاضيا مجحفا ، وتصبح الكتابة التي يجرى بها قلمه غير علمية تأخذ القارىء بعيدا عن الحقيقة ، وتلك جريمة نكراء .

ولعل من اهم صفات المؤرخ ان يكون صاحب حس مرهف وعاطفة انسـانية واضـحه حتى يستطيع أن يدرك نوازع الآخرين ، ويتمكن من تفسير اعمالهم وتصرفاتهم ، والدوافع التي دفعتهم الى هذه الاعمال والتصرفات ، والواقع ان فاقد الحس والعاطفة يعجز عن فهـم ما كان بجيش بصدور من اسهموا فى تسكيل التاريخ .

تلك هى الصفات الرئيسية التي ينبغي ان تتوافر فيمن يريد أن يكون مؤرخا جديـرا بهذه الصفة . . . واذا اكتملت لدى المرء هذه الصـفات فقد اصبح مؤرخا .

بدء النشاط التاريخي

وأنماط الكتابة فى التاريخ :

نقصد بالنشـاط التاريخـي هنا ، كتابة التاريخ ، ونريد أن نعـرف كيـف بدات وكيف تطورت أنماطها على مر العصور .

وفكرة التاريخ بوضعها الحالي جديده من غير شك ، فالمحدثون يعتقدون أن التاريخ كفكرة يدور حول محاور أربعة هى :

١ ــ أنه علم كسائر العلوم يجيب على أسئلة معينة .

٢ ــ انه يتصل بمجهود الانسان فى الماضي .

٣ ــ ان طريقته هي تفسير الوثائق التاريخية .

٤ ــ انه يهدف الى تعريف الانسان بذاته .

وهذه الفكرة باركانها الاربعة لم تكـن هي فكرة الناس عن التاريخ فى كل العصور ، فقديما وبالنسبة للسومريين وقدماء المصريين ، كانت كتابة التاريخ تتمثل فى النقوش الرسمية او شبه الرسمية التي يقصد بها احياء ذكرى ملك او أمير ، او تمجيد اله ، او الانتصار فى حرب من الحروب .

وفى حكومـة الكنيسـة فى العصـور الوسـطى اصطلح الناس على أن كل شيء مرده لفعل القدر .

ومثل هذه الصور من الكتابة التاريخية لاتعطينا تاريخا حقيقيا ، وان كانت تعطينا صـورا تتصل بالتاريخ فى بعض النواحى ، هي فى حقيقتها تعبير عن بعض ألوان الفكر لا نسـتطيع الآن أن نسميه تاريخا لأنه يفتقد الطابع العلمي ، فهو لايجيب على سؤال محدد لا يعرفه الكاتب أصـلا وانما هو تسجيل لأمور يعرف الكاتب أنها حقيقة ، ثم ان هذه الامـور ليسـت فى الغـالب من عمل الانسان ــ فهي لا تتصل بمجهوده ــ وانما هي من عمل الآلهة والانسان فيهـا مجرد أداة ، وتبعا لذلـك فانهـا لن تكـون تاريخية بالنسـبة لطريقتها لأنها لا تعتمد على وثائق ، ولا هي تاريخية من حيث قيمتها لأنها لا تستهدف معرفة الانسان لذاته وانما تخدم معرفة الانسان بالآلهة .

لقد كان الكاتب لا يكتب تاريخا،وانما يكتب عن الدين والآلهة ، وهي كتابة نستطيع نحن الآن أن نعتبرها وثائق تاريخية ونعتمد عليها فى كتابةالتاريخ بالصورة الحديثة .

واذن فأسلافنا القدماء لم يكن لديهم الشيءالذى نسميه « فكرة التاريخ » ولعل السبب هو أنهم لم يكونوا يملكون المادة التاريخية نفسها ، لم يكن هناك تاريخ ، وانما كانت هناك مادة تشبهه فى بعض النواحي ، ولا تتفق مع مفهومنا عن التاريخ قائما على محاوره الأربعة التي ذكرناها .

ونحن نستطيع بعد ذلك أن نقرر أن التاريخ فى وضعه الحاضر قد أصبح شيئا واقعا ، فكيف حدث ذلك ؟ وما هي مراحل التطور التي أوصلتنا الى ما يسمى بالتاريخ ؟

ان هذه المراحل قد نبعت أصلا من منطقةالشرق الأدنى القديم ، ومن ثم فينبغى أن نبدأ حديثنا من نفس المنطقة ، ففيها بدأ التاريـخ ،تاريخ البشرية كلها فى مرحلته الاولى ، واهم ما تميزت به هذه المرحلة هو الارتباط الشـديدبالعقيدة ، ففى كل حدث ، وفى كل تفسير له او تأويل ، نلمس العقيدة الدينية واضـحة جليه ،حتى ليكاد يختفي أى جهد للانسان ذاته ، لقد كانت الافعال كلها الهية ، والسبب فى ذلك هو أن الناس تصوروا الآلهة كآدميين من الحكام .

فهم يملون ارادتهم على الملوك على نحو مايفعل هؤلاء مع رعاياهم ، ونحن نتصور تبعا لذلك أن السلطات كانت موزعة توزيعا هرميا تبدأ من الأرض وتتصاعد فى حلقات تربط بينها وبين سلطة السماء ، سلطة الآلهة .

وكان الملك غالبا هو الله ، هـو الصـورةالمجسدة للاله على الأرض .

وهكذا كان التاريخ فى مرحلته الاولى تاريخادينيا ، ومفهوم طبعا أن التاريخ الذى نقصده هنا ليس تاريخـا بمفهومه العلمى ، وهذا التاريـخالديني لا يجعل جوهـره أفعال الانسـان ، ولا يعرض لها أساسا ، ولكنه مع ذلك يتناول هذهالافعال فى ثنايا الاساطير .

ولنتناول الفكرة الرئيسيه فى القصـيدةالبابلية عن الخلق : ترجع هذه القصـيدة الى القرن السابع ق.م. ، وهى تقرر انها ترجع الىصور اخرى لها موغلة فى القدم ، وبدايتها تحدثنا عن نشأة الخليقة ، لم تكن هناك أول الأمر ابةمخلوقات أو موجـودات على الاطـلاق ولا حتى الآلهة ، ومن حالـة العدم هذه تنشـأ عنصران ،أحدهما يقال له Apsu أى الماء العذب ، والثاني يقـال له Tiamat اى الماء الملح ، وتزاوج هذان العنصران ، فجاءا بمولود يقال له Mumma ، وهو يمثل المرحلة الاولى فى نشأة الآلهة ، ثم أخذعدد الآلهة يتزايد بالتناسل ، واشتد الصراع بين هذه الآلهـة الى أن اسـتطاع الاله ماردوك marduk تمزيق المعبودة تيامات الى شـطرين شطر خلق منه السماوات ونجومها ، وشطر خلقمنه الارض ، ومن دماء ماردوك خلق الانسان .

وهذا النـوع من التفكير الديني ، المتزجبالاساطير هـو الذى سـيطر على تفكير الشـرق الأوسط كله طوال العصور القديمة وحتى ظهوراليونان تقريبا ، وفى هذه الفترة كتبت التوراة وفيها نلمس ابراز المقدرة الالهية فى حياة اليهود ،ولم يكن هناك سبيل لاثبات هذه المقدرة افضل من عرض تاريخ هذا الشعب .

ولقد التزم كتاب التوراة فى سرد الوقائعاسلوبا شرقيا ، واسـتعملوا التعبيرات الشرقية واستساغوا حدوث الخوارق والمداخلات الالهيةالمباشرة التى تغير اتجاه الاحداث تغييرا مُعجزا..

فى التوراة نجد طابع التعميم : وهذا نطورعما كنا نجده فى الاساطير القديمة فى مصر والعراق القديم حيث كانت الحكومة الدينية تحتفظ بطابع التخصص فى قصص شعوبها وحدها ، واقصد بالتعميم تناول البشر بصفة عامة ، ولعل السبب فى ذلك هو اعتقاد اليهود ان الههم يسيطر على البشر اجمعين ، فهم ينتظرون منه ان يحكم بين هؤلاء البشر وبين اليهود بالعدل والقسطاس ، ولا ينتظرون منه ان يرعى مصالحهم وحدهم دون غيرهم من البشر .

فنحن بصدد مقاييس عامة للناس كافة ، ولذلك نجد قصة الخلق عند اليهود تتضمن محاولة لتفسير أصل الانسان بعامة وتفسير اصل الشعوب . وجملة القول أن الفرق بين القصص البابلى والقصص العبرى هو أن الأخير قد اتجه الى سلالة البشر ، بينما كان الاول متجها الى سلالة الآلهة .

بداية التاريخ العلمي — الاغريق

ظهرت كتابة التاريخ بعد ذلك عند الاغريق فى اسلوب ملحمي أول الامر ، ويعتبر الشاعر **هوميروس** صاحب الملحمتين الخالدتين — الالياذة والاوديسا — ملهم امته فى هذا المجال .

لقد عني **هوميروس** (٨) اشد العناية بتمجيد البطولة والابطال وروح النضال التى ترتفع بصاحبها الى قمة الشخصية وتجعل منه بطلا مغوارا يأتى بالمعجزات ... وعنه أخذ المؤرخون من بعده هذا كله .

فلما جاء **هيرودوت** (٩) ، الذى لقب « بأبي التاريخ » والذى يعتبر أول المؤرخين الاغريق على الاطلاق ، كتب كتبه التسعة واطلق عليها اسم « التواريخ » وقال فى مقدمتها « أنه يدون تاريخه حتى لا يطمس الزمن أعمال الرجال ، وحتى لاتبقى الانجازات الرائعة دون تمجيد أو اعجاب ، سواء فى ذلك منجزات الاغريق أو مآثر المتبربرين » .

وهذه العبارة وحدها تقوم دليلا لا يرقى اليه ادنى شك فى أن الاغريق قد أدركوا أن التاريخ علم ، وبالتالي فلا بد أن يتناول أعمال الانسان ويمجدها ، فالقصة الاغريقية تتناول الحادث التاريخي فتفصله تفصيلا دقيقا ، وتبرز من خلال ذلك شخصية بطلها ابرازا شديدا ، وقد ترجم لنا حياته كما فعل المؤرخ **بلوتارك** Plutarch وهو يكتب « المقارنات » .

بهذا يتجه التاريخ عند الاغريق اتجاها عقليا يرتبط بالانسان نفسه وتصرفاته ولا يخضع هذه التصرفات للارادة الالهية ، ولا أعنى بذلك أن مؤرخى الاغريق قد تجاهلوا الاساطير الدينية تماما ، انما اعتمدوا عليها كثيرا .

---

(٨) هوميروس هو شاعر الاغريق الاكبر ، وهو صاحب الملحمتين الكبيرتين ، الالياذه والأوديسا ، وترجعان على الارجح الى القرن التاسع ق . م . ، وتدور الملحمة الاولى حول حرب طرواده وبطولة الاغريق فيها ، بينما تدور الثانية حول المغامرات التي لقيها الملك أويسيوس لدى عودته بحرا من آسيا الصغرى الى مملكته بعد انتهاء حرب طرواده وقد افدنا كثيرا مما جاء فى الملحمتين عن الاوضاع السياسيه والاجتماعية والاقتصادية فى بلاد الاغريق آنذاك .

(٩) هيرودوت هو أبو التاريخ كما كناه خطيب الرومان والسياسي الكبير شيشرون . ولد فى هاليكارناسوس بآسيا الصغرى حوالي عام ٤٨٤ ق . م . ، وفى سن مبكره هاجر من مسقط راسه الى اثينا ، وقام برحلات عديدة زار فيها كثيرا من بلاد المشرق . وخلف لنا تسع كتب باسم التواريخ تحكى لنا قصة الحروب بين الفرس والاغريق .

وحسبنا دليلا على ذلك الاتجاه العلمي العقلي أن نقرأ ما كتبه المؤرخ الاغريقي الكبير **ثوكيديديس** فى مقدمته عن «الحروب البلوبونيزيه» حيث يقول « انه يكتب من اجل الفائدة التي يمكن ان تحصل عليها من معرفة حقائق الماضي ، ومن ثم نضع مقاييس سليمة للأحداث المتشابهة التى يمكن ان تقع مستقبلا ترتيبا على الطبيعة المشتركة بين البشر » .

هذا هو النمط الجديد فى كتابة التاريخ ، فعلى نقيض كتاب التوراة لم نجد مؤرخو الاغريق فى سير الحوادث اتجاها جبريا تفرضه العناية الالهية ، ولا عبثا ورث الناس أثقاله جزاء ما اقترفه أجدادهم .

ونحن اذا تناولنا خصائص التاريخ الأربعة التي سبق حدثتنا عنها ، وهي أن التاريخ علم لأنه يجيب على أسئلة يضعها الكاتب لنفسه ، وانه يتناول أعمال الانسان ، وانه يخضع للعقل من حيث استناده الى تفسير الوثائق ، وانه يكشف عن ذات الانسان عن طريق سرد أعماله ... اذا تناولنا هذه الخصائص وحاولنا تطبيقها على ماكتبه المؤرخون الاغريق ، لرأينا أن الخواص كلها واضحة فيما كتب هيرودوت باستثناء الخاصية الثالثة . ولا شك فى أن التاريخ بوصفه علما قد ابتكره الاغريق ، وأن هيرودوت هو امام المؤرخين ، ولعل **شيشرون** قد ادرك هذه الحقيقة حين كناه « ابا التاريخ » .

اما **ثوكيديديس** فلعله تفوق على هيرودوت حيث حقق فى كتاباته الخاصية الثالثة ، وهي الاستناد الى الوثائق في تفسير الاحداث . وهو الذى يقرر بصراحة أن البحث التاريخي تقوم على المصادر التاريخية .

ولما كان الاغريق قد اهملوا تاريخ البشرية ككل ، واهتموا بالحوادث وحدها ، فقد وصلوا باسلوب العرض والرواية والتفسير الى درجة رفيعة من الاتقان الفني ... وكان المؤرخون يحصلون على مادتهم من الذكريات الشخصية ومن المؤلفات الأدبية ومن السجلات المحفوظة ومن شهود العيان ومن الاساطير أيضا ، فاذا جمعوا هذه المادة عمدوا الى تصفيتها وتنقيتها ومناقشتها ثم بسطوها فى عرض جميل .

ولنستمع الى مؤرخ اغريقي آخر ــ **بوليبيوس** Polybius وهو يقول « على الكاتب أن يوجه اهتمامه الى الظروف التي سبقت الحادث أو واكبته أو جاءت بعده ، لأن دلالة هذه جميعا تفوق ما يروى عن الحادث نفسه » ثم يستطرد قائلا « نحن اذا انتزعنا من التاريخ البحث عن الاسباب والاساليب والاهداف التى حركت الانسان ، واغفلنا دراسة النتائج التي توخاها من عمله ، والقدر الذى استطاع تحقيقه من هدفه الكلي ، فاننا لا نبقي من التاريخ سوى تمارين أدبية لا عبرة فيها ، ولقد يكون متعة للآذان وملهاة للأذهان لانتيجة لها بالنسبة لمستقبل الايام » .

فالتاريخ عند بوليبيوس له هدف مادي ، وذلك يحتم على كاتبه توخي الدقة العلمية قدر الطاقة ، ويدفعه الى محاولة اصابة كبد الحقيقة ، وميزان الحقيقة هنا هو مدى تقبل العقل لها كشيء مجرد لا دخل للغيبيات فيه .

وفى هذا الصدد نرى بوليبيوس يسخر من الكتاب الذين جعلوا من هانيبال اداة مسخرة فى يد اله يرشده الى اجتياز جبال الألب ويقول فيهم « أنهم قد قلدوا شعراء التراجيديا فى أكثر المآسى التي تمثل فوق مسارحنا ، فاضطروا مثلهم الى ادخال الآلهة فى حل عقدة المأساة ، لأنهم

اختاروا الاساطير موضوعا لما يكتبون ، وابتعدوا عن نطاق العقل والحقيقة ، وهكذا اضطروا الى الاستعانة بالابطال والآلهة ، لأنهم انطلقوا فيما يكتبون من بدايات تدخل فى نطاق المستحيلات ، وبالتالي لا يمكن ان تكون لها نهاية يقبلها العقل المجرد ، انهم في الواقع يعجزون عن ايجاد الخاتمة فيلجأون الى الآلهة لتضع هي الخاتمة ، والتاريخ غير ذلك ، انه يستند الى الحقائق والانسان هو الذى يصنعه .

التاريخ فى العصر الهلينستي

كان التاريخ عند الاغريق كما رأينا يخضع للقيد الزمني والقيد المكاني ، فهو يعرض في الاصل لوحدة اجتماعية معينة فى وقت معين ... وبعد القرن الخامس قبل الميلاد تغيرت نظرة المؤرخ للأحداث ، فلم تعد تخضعها للقيد الزمنى ، وأخذ التفكير الاغريقى يتجه الى أن التاريخ ينبغى أن يلتزم بوحدة جوهرية تربط بين مراحله الزمنية ، ومن ثم تغلبوا على الطابع الجزئى .

وتبين لهم أن هذه الوحدة الاجتماعية الجوهرية ، ترتبط بدورها مع عدة وحدات أخرى لا بد أن تظهر هى ايضا على المسرح التاريخى ، وهكذا مثلا كتب هيرودوت عن الفرس لا اهتماما بهم وانما لارتباطهم بالاغريق كأعداء لهم .

واذا كان الاغريق قد فطنوا — ربما قبل القرن الخامس — الى وجود عالم انساني يتألف من مجموعة من الوحدات الاجتماعية الجزئية ، فان الوحدة التي ينهض عليها هذا العالم كانت وحدة جغرافية — فى نظرهم — وليست وحدة تاريخية ، ولهذا لم يدركوا وجود فكرة تاريخ عام ينتظم احداث العالم وتطورها .

ولما كان منهجهم فى البحث التاريخي يستند — فيما يستند اليه — الى أقوال شهود العيان ، فقد اقتصر بحثهم على نطاق محدود من الاحداث بالقدر الذى تتسع له الذاكرة الانسانية .

فلما جاء **الاسكندر** وغزا شعوب المتبربرين (الذين لا يعرفون اللغة الاغريقية ولا ينهجون فى اسلوب حياتهم النهج الاغريقي) ونشر حضارة الاغريق بينهم ، فأخذوا بأسبابها وتعلموا لغتها ، تحول العداء بين الاغريق والمتبربرين الى نوع من التعاون والتآخي ، ونظر الاغريق الى هذه الشعوب بوصفها وريثة لحضارتهم .

كذلك ادت غزوة الاسكندر الى خلق وحدة سياسية تشمل الجزء الأكبر من دنيا الانسان ، واصبح العالم وحدة جغرافية ووحدة تاريخية ، وارتبطت امبراطورية الاسكندر بتاريخ واحد ، هو تاريخ العالم الاغريقي الذى يؤلف وحدة تمتد من البحر الادرياتى غربا الى نهر السند شرقا ومن الدانوب شمالا الى الصحراء جنوبا .

هكذا ظهرت فكرة العالمية فى عصر ما بعد الاسكندر وهو العصر الذى نسميه « العصر الهلينستي » وعاشت الفكرة فى العصر الروماني واصبح من المستطاع كتابة تاريخ من نمط جديد ، يمتاز بالوحدة الواضحة — بصرف النظر عن مداها — ويقوم بكتابته مؤرخون يجمعون المادة العلمية ممن سبقوهم من المؤرخين .

ولقد كان بوليبيوس أول من فكر فى كتابة تاريخ من هذا الطراز ، فهو يعرض لموضوع هام ، واعنى به غزو روما للعالم ، ولكنه يبدأ قصته باحداث وقعت فى ماض يرتد الى قرن ونصف قرن ، وبذلك نراه يؤرخ لخمسة أجيال لا لجيل واحد .

التاريخ عند الرومان

بانتاج المؤرخ الاغريقي بوليبيوس انتقل التفكير التاريخي من المفهوم الذى استنه المؤرخون بعد الاسكندر ، الى أيدى الرومان ، ثم شهد بعدذلك تطورا أصيلا وهاما على يد شيخ مؤرخى الرومان ((**تيتيوليفيوس**)) .

فهذا المؤرخ هو مبتكر فكرة كتابة تاريخ روما منذ نشأتها الاولى ، معتمدا على من سبقوه من المؤرخين ، وعلى الجمع بين السجلات التى حفظت مراحل تاريخ روما المبكر وادماجها كلها فى مؤلف واحد .

ونحن نلمس فرقا واضحا بين المؤرخين الرومان والمؤرخين الاغريق ، فالرومان بطبيعتهم ماديون تغلب عليهم النزعة النفعية ، ولم يبرأ المؤرخون الرومان من هذه النزعة المادية النفعية ، والتي كانت سببا فى انشاء روما لدور السجلات الرسمية التي تخضع لاشراف هيئات دينية .

ومن هذه السجلات كتبت الحوليات ودونت الاحداث عاما بعد عام .

واعتقد الرومان أن تاريخهم وحده هو الخليق بالتدوين ، فهم أرقى الناس كافة ، وهم وحدهم الذين اختصوا بالفضائل السامية ، ولهذا جاء تاريخ **ليفيوس** تاريخا عاما يتناول الحقيقة التاريخية التي لا يرقى اليها شك ، وجاء تاريخا للعالم بأسره لأن روما أصبحت سيدة العالم بأسره .

وكان المؤرخون الرومانيون يدورون فى كل ما يكتبون حول محور رئيسي ، هو روما ذاتها ، واعتبر المؤرخ نفسه صاحب رسالة فى امته ، فهو يؤدى وظيفة وطنية حين يتحدث عن امجاد وطنه ويهدى اليها مواطنيه ... وهذه روح مادية نفعية ، كان لها ولا شك اثرها الضار على روح البحث الحيادى ، وعلى النقد الهادف الرشيد ، واللهفة على المعرفة المجردة .

وهكذا حصر المؤرخون الرومان كل اهتمامهم فى روما ذاتها التي غزت شعوب الأرض واحدا بعد الآخر ، دون أن تعبأ حتى بمعرفة لغات هذه الشعوب فضلا عن آدابها وتقاليدها ، وبالتالي لم يهتموا بتدوين شيء عن هذه الشعوب الكادحة ، وركزوا اهتمامهم فى التحدث عن كبار القادة ورجال السياسة .

ومع ذلك فنحن نستطيع أن نقرر أن التاريخ عند الاغريق والرومان معا قد التزم بمحور واحد من المحاور الاربعة التي قلنا ان التاريخ الحقيقي يقوم عليها ، واعنى بها تناول التاريخ بوصفه دراسة اجتماعية تعرض لتاريخ الانسان ممثلا فى الشعب الرومانى وما قام به من مجهود وما استهدفه من آمال وما أصابه من فشل أو نجاح .

وكتّاب التاريخ الاغريق والرومان يسلمون معا بوجود قوة الهية مقدسة ، لكنها لا تتدخل فى مجرى التاريخ بحيث توجهه توجيها جبريا ، انما هي ارادة عليا فيها تحبيذ ودعم لارادة الانسان الحرة ، وتلك هي الفلسفة الانسانية التي اعتنقها المؤرخون فى العصرين اليونانى والرومانى .

التاريخ فى العصر المسيحي

تعرضت كتابة التاريخ لأزمة خطيرة فى القرن الخامس قبل الميلاد ، حين نشأت الفكرة التي

تنادى بأن التاريخ علم كسائر العلوم ، أو هو ضرب من ضروب البحث العلمي ، وكانت تلك هي الازمة الاولى ، ثم تعرضت لأزمة ثانية في القرنين الرابع والخامس للميلاد حين خضعت فكرة التاريخ لتكييف جديد نتيجة للانقلاب الذى جاء في ركاب التفكير المسيحي .

لقد استحدثت المسيحية فكرتين رئيسيتين في كتابة التاريخ بعد النمطين الاغريقي والروماني : **الأولى** هي فكرة التفاؤل بالطبيعة الانسانية ، **والثانية** هي الفكرة التي تقول بوجود قيم أبدية خالدة تكمن وراء عملية التغيير التاريخي .

اريد ان اقرر ان المسيحية بدلت الفكر البشري تبديلا بالغ العمق بحيث غير كل الأوضاع التي شاعت في العصر الروماني ومن بينها المنهج التاريخي ... كانت الثقافة اليونانية والرومانية آخذة في الأفول ، فحملت اليها المسيحية ثروة هائلة جديدة من القصص والاحداث والحكم والامثال المستقاة من التوراة .

ووجدت الشعوب نفسها امام هذه الثروة التي تمثل غذاء روحيا كانت في مسيس الحاجة اليه ، فاقدمت عليها تلتهمها ، ثم ارادت ان تهضمها ، ولم يكن هناك سبيل الى ذلك الا اذا قدمت الحلول التي تفسر دقائقها وما يبدو فيها من متناقضات .

وقام بهذا العمل آباء الكنيسة من الاغريق والرومان ، وعلى رأسهم جميعا القديس اوغسطين (١٠) الذى فتح للتاريخ آفاقا فسيحة ، اذ سمح للفكر أن يرسل نظرة اجمالية الى مجموعة التواريخ الموجودة وايجاد تفسير لها ... فالمسيحية كما يرى ترشد معتنقها الى تصور تاريخي للكون يبدأ بالخلق كما جاء في التوراة وينتهي بالدينونة العامة أي يوم الحشر .

ومنذ وضع أوغسطين هذه المبادىء لم ينس مؤرخ في الغرب أن التاريخ بمعناه الصحيح هو تاريخ البشرية كلها ، وان من يكتب تاريخ امة واحدة انما يصنع قطعة صغيرة من لوحة كبيرة .

والواقع اننا نلاحظ في أى تاريخ كتب على النمط المسيحي انه يتميز بصفة العموم ؛ فهو تاريخ عام شامل ، وانه قَدَريٌّ ، للاله فيه قوة مسيطرة توجه الناس فيما يصنعون من احداث .

ولقد كان التاريخ اليوناني والروماني عاما للعالم ، لكن ليس بالمعنى المسيحي ، لانه ينبثق من مركز جاذبية خاص به ، له اسلوبه في تكييف الحوادث ، فاليونان أو روما هما المركز الذى تدور من حوله الاحداث و لاتخرج عن فلكه ، أما التاريخ المسيحي العام فقد نبذ فكرة وجود مركز جاذبية من هذا النوع .

ثم ان التاريخ في العصر المسيحي لم يرد الاحداث لحكمة البشر ، ولكن لحكمة قدرية ؛ فالاله هو الذى يهيمن على نشاط البشر ويرسم الطريق للاحداث التي سبقت في علمه .

كذلك كان التاريخ في العصر المسيحي يهتم بحياة المسيح ، وكثيرا ما يجعلها محور الاحداث ، وقد قسمه المؤرخون الى حقب وفترات لكل فترة مميزاتها الخاصة وطابعها الخاص وفصل بينها وبين الفترة السابقة واللاحقة حادثة تعتبر — كما نقول — بداية عصر جديد .

---

(١٠) اوغسطين ولد سنة ٣٤٥ م وتوفى سنة ٤٣٠ م ، عاش في تاجستي في نوميديا ، كان أبوه وثنيا وامه مسيحية ، واعتنق الدين الجديد واصبح في عام ٣٨٦ م من أبرز رجاله وكتابه . وقد نذر حياته للتوفيق بين ما جاء في تعاليم الدين الجديد وما الفه الناس من عقائد وثنية .

والتاريخ بوصفه تاريخا للعالم اجمع من حيث المبدأ ، لا يقيم وزنا كبيرا لألوان الصراع الهائل الذى احتدم بين الفرس والاغريق أو بين روما وقرطاجه مثلا ، ولا يهتم بانتصار فريق وهزيمة آخر ، وانما يهتم بالنتائج التي تمخض عنها هذا الصراع ، هذه الفكرة هي التي غدت مألوفة تماما فى نمط الكتابة فى العصر المسيحى ، واكبر رمز يشير الى فكرة التاريخ العام هذه ، هي اختيار توقيت ينتظم الاحداث التاريخية جميعا ، وهذا التوقيت العام الواحد هو تاريخ ميلاد المسيح الذى استحدثه ايسيدور الأشبيلي فى القرن السابع للميلاد ، فكل احداث الماضي والمستقبل تؤرخ بميلاد المسيح .

كذلك شاعت فكرة توجيه القدر للأحداث ، كما شاعت فكرة تناول أخبار الكنيسة .

هذه هي الافكار التي شاعت فى الكتابات التاريخية تحت تأثير المسيحية ولم يكن لها وجود على الاطلاق عند اليونان والرومان .

كتابة التاريخ فى العصور الوسطى

تعتبر كتابة التاريخ فى العصور الوسطى ــ فى جانب من جوانبها ــ رجوعا الى الاسلوب الذى درج عليه المؤرخون بعد الاسكندر الاكبر وعلى ايام الرومان . فقد اعتمد مؤرخو هذه العصور على المصادر التقليدية يستنبطون منها الحقائق ، ولكنهم لم ينقدوا هذه المصادر ولم يحللوها التحليل العلمي الدقيق ... واذا كان بعض مؤرخي العصر قد قاموا بمحاولة للنقد ، فان هذه المحاولة كانت تستند الى التقدير الشخصي لكل منهم دون استناد الى منهج علمى ، لذلك كانوا يصدقون كل ما جاء فى مصادرهم .

ومع ذلك نجد مؤرخ العصور الوسطى يختلف عن مؤرخ مثل ليفى الروماني من حيث كونه يعرض مادته مرتبطة بتاريخ العالم ككل . وكانت القومية قد غدت حقيقة واقعة فى العصور الوسطى ، وبدأ الصراع القومي يظهر ثم يشتد ، وبدأ الاعتزاز بالقومية يأخذ مكانه فى الكتابة التاريخية .

واتجهت فكرة المؤرخين الى ان التاريخ يمضي بمشيئة الهية ، وان هذه المشيئة تنتظم الاحداث كلها ، والانسان عنصر فيها ، مهمته اقرار المشيئة الالهية .

أما المهمة الكبرى التي انيطت بمؤرخي العصور الوسطى فكانت الكشف عن الخطة الالهية وتفصيلها .

والذى حدث هو ان تيار الفكر التاريخي انتقل من دراسة اجتماعية الى دراسة مجردة محدودة تنبثق من سلطان الكنيسة ، لقد اعترفوا بالدور الذى تؤديه المقادير فى الاحداث التاريخية ، لكنهم حددوه بصورة ينتفى معها وجود اى مجال لنشاط الانسان ، وكانت النتيجة هي عجز المؤرخين عن التنبؤ باحداث المستقبل ــ لأنهم يجهلون ما يخفيه القدر ــ وانصرافهم الى البحث عن جوهر التاريخ خارج نطاقه نفسه ، لأن بحثهم كله كان يهدف الى الكشف عن سياق الاحداث انطلاقا من عقيدة راسخة فى ان القدر هو الذى وجّه هذه الاحداث ، بعيدا عن ارادة الانسان .

ومن هنا اتسمت كتابة التاريخ فى العصور الوسطى باهمال الدور البشرى فيه ، وبالتالى لم يكن ثمة مجال لنقد او تحليل ... لقد كانت المصادر بين أيديهم لكنهم فرضوا على انفسهم قيدا شديدا وجعلوا همهم الاول هو دراسة خصائص الذات العليا المقدسة .

وبرغم كل شيء فنحن نستطيع ان نقرر انكتابة التاريخ فى العصور الوسطى كانت السبب فى الاحتفاظ لنا بالتسلسل التاريخي خلال الاجيالدون انقطاع .

وعرفت العصور الوسطىالتراجمالتاريخيةالتي تتناول سير القديسين لتكريمهم وتخليدهم واظهار ما تحملوه من آلام فى سبيل العقيدة، ولكنالحقائق كانت تتراجع كثيرا فى هذه التراجم امام المبالغات المسرفة ، وبدأ كتاب التاريخ فى العصورالوسطى يلجأون الى الأساليب العلمية فى استقاء المعلومات ، ذلك ان هذه العصور بحروبها المتصلةلم تقطع اسباب الدوام والاتصال فى حياة هيئات عديدة ، كالأسر الاقطاعية والكنسية ، وعاشتهذه الهيئات اياما بالغة العنف ، كانت الحقوق فيها تضيع وتنكر ، وكان البطش فيها يسودويحكم ... ولهذا كان لا بد من الحرص على وثائق الملكية ، فامسكت دفاتر الحسابات التيتثبت الحقوق وتؤكدها ، وغدت هذه الدفاتر سجلات تاريخية هامة ومصادرا من اهم مصادرالتاريخ ، كما اتجهت الاسر الاقطاعية الى تسجيل تاريخها ، فنشأ نوع من التاريخ الأسرى .

ونظرا لاتساع ثقافة رجال الدين ... فقد اصبحوا مؤرخي العصر حتى القرن الخامس عشر حين انتقلت هذه الصفة الى رجال ...ون ، فادخل هؤلاء فى كتاباتهم اللمسة القانونية واستندوا الى الصكوك والوصايا والعقود فكانذلك بدوره سببا فى ظهور المزيف منها، وكانبعض هذه ذا اثر عميق فى مجرى الاحداث ، كالوصيةالتي زعموا انها صدرتعن الامبراطور قنسطنطين لصالح البابا قبل رحيل الاول لبيزنطة ، اذ اوصىله بملكية روما .

التاريخ فى عصر النهضة

كان على مؤرخي نهاية العصور الوسطى انيوجهوا كتابة التاريخ توجيها جديدا فيخلصوها من الخضوع لنظريات اللاهوت والفلسفة التيسيطرت على مجرى الاحداث التاريخية ورسمت لها مسارها دون اى اعتبار للواقع المادى ولنشاطالانسان فى رسم هذا المسار .

وحين جاء عصر النهضة الاوربية عاد الناسالى تقييم التاريخ بوصفه دراسة اجتماعية تستند الى اسلوب علمي ، والى كتابته استنادا الى اعمالالانسان ونشاطه فى تحديد مساره تماما كما كان الحال فى العصرين الاغريقى والروماني .

وكانت النتيجة الاولى لذلك هي البدء فيتنظيف المادة التاريخية التي كتبت فى العصور الوسطى مما علق بها من خرافات لا أساس لها ،كما كان من نتائجها ايضا البدء فى كتابة النتائج على أسس نقدية تحليلية .

والواقع ان النظم فى الدول الاوربية كانتقد تقدمت تقدما كبيرا فى عصر النهضة ، واخذت العلاقات بين هذه الدول تتشابك وتتعقد ، كمااكتمل فن الدبلوماسية واتضحت اساليبه ، وبالتالى فقد اصبحت كل دولة بحاجة الى هيئةمنظمة تتولى كتابة تاريخها .

والامر الذى نلاحظه بوضوح تام فى كتابةالتاريخ فى عصر النهضة هو ان حكام الدول اخذوا يستعينونبالادباء لتدوينتاريخدولهم، فبرز الاسلوب الادبى ولا سيما فى ايطاليا بوصفها الدولة التي سبقت دول اوربا جميعا الى عصر النهضة .

لقد بدأ التاريخ اذاً يفقد طابعه الديني ،وسيطر المذهب العقلي على كتابه ، فاستبعدت الخوارق والمعجزات ، واصبح هدف المؤرخ هوالتثقيف السياسي لا مجرد القاء المواعظ وحمل الناس على الأخذ بأسباب الدين .

ولم يعد هناك كذلكاهتمام يذكر بالكونيات،وانما تركزت كتابة التاريخ حول الدولة ذاتهـا بوصفها المحور الرئيسي الذيينبغي انتدور حولهالاحداث ، واصبح المؤرخ ذاته في الصف الاول من رجال الدولة .

وتبعا لذلك فان المؤرخين لم يحفلوا كثيرابالجماهـير ولم يهتمـوا بالشـعب ، وانما نركز اهتمامهم على بلاط الملوك والامراء والحكام وعظماءالرجال .

وسرعان ما حذا الاسبان والفرنسيون حذوايطاليا ، فأصبح لكل دولة مؤرخها الرسـمى ، فكان **راسين** هو مؤرخ فرنسا الرسمي بأمر منملكها لويس الرابـع عشر ، وفيما بعد خلع هذا اللقب على **فولتير** .

واتبع امراء المانيـا نفس القاعدة . فنجدامراء هانوفر يعينـون الفيلســوف الشـــهير Leibmitz مؤرخا لامارتهم .

وفى انجلترا ظهر **ماكولى** ومن قبله **كلارندون**يؤرخان للأحزاب بعد تغلب البرلمان على العرش فى القـرنين ١٧ ، ١٨ ، فانصرفا بكل جهودهمالتوضيح المسائل الدستورية والقضائيةمعالاشادة بعظماء الحزب .

ويعتبر **فولتير** ومعاصره **هيوم** امامى مدرسةجديدة فى التفكير التاريخي ورائدى حركة جديدة فى كتابة التاريخ ، هي حركة الاستنارة ، ونحننقصد بكلمة الاستنارة تلك الجهود التي اتسمت بها مقدمات القرن الثامن عشر والتي استهدفتتطبيق الثقافـة العلمانية فى كل ميـادين الحيـاة الانسانيةوالتفكير ، وهي فى واقعها ثورة علىالدينالذى يقيد النشاط الانساني ، فهي جهاد ضد سيطرته وسلطانه غايتها تحرير الانسان من كلقيد على فكره وتصرفاته .

لقد تقيـد التــدوين التاريخى فى عصـرالاستنارة بفكرة البحث التاريخي ، فكان ذلـك مدخلا للتاريخ العلمي ، الذى استنفد اقـرارهجهودا صامتة جاءت بمثابة فاتحة لعهد جديد ، وكان السبب فى هذا التطور تلك المناظرات التيانصبت على الأمور الدينيـة بين البروتستانت ومخالفيهم .

وظهرت فى بلجيكا جماعة من اليسوعيين ارادت ترجمة حياة القديسين على حقيقتها ، فكان لا بد من تقويم اعوجاج الاسـاطير العديدة ، وبدأافراد هذه الجماعة يشككون فى صدق كل الوثائق القديمة استنادا الى ذلك التزييف الطاغى الذىلمسوه فى سير القديسين .

ومن هنا ظهـرت جماعات الباحثين الذينوجهوا كل اهتماماتهم الى نقد الوثائق ، وأصبح هذا النقد فنا له اصول وقواعد .

وما لبثت هذه النزعة العلمية ان انتشرتفاذا الفرنسيون يميلون الى كتابة التواريخ العلمية واذا الاهتمام باللفات يزداد زيادة كبيرة ، واذاالوثائق تصبح الشغل الشاغل للباحثين فى كل انحاء اوربا ، وبعد ظهور كتاب **ديكارت** Discours de la Methode ، أصبح منهجـه قاعـدة

للباحثين ، وعلى اساسه استبعدت كل شواهدالتاريخ المؤسسة على العقيدة وحدها ، وأصبح الشك هو الاساس العام للدراسة والسبيل الوحيد للوصول الى المعرفة .

ولم يعد المؤرخ يستسلم لخياله ، او يقصر همه على دراسة الوثائق ونشرها ، وانما كان عليه ان يهتم بالأحداث والوثائق جميعا ، وان يناقش هذه وتلك ، ويعرض نتيجة عمله فى اسلوب أدبي .

هكذا كانت نهضة البحث التاريخي فى القرن الثامن عشر .

واذا كان العظماء قد استطاعوا فيما قبل اغراء كتاب التاريخ على العمل لفائدتهم ، الا أن الاوضاع تغيرت فى القرن التاسع عشر وأصبح العصر عصر اتصال الكاتب بالجمهور اتصالا عفويا ، واصبح البحث موضوعيا يستهدف النتائج ولا يستلهم فائدة سياسية يجنيها فرد أو حزب ، وغدا التاريخ عملا علميا محضا يحاول به صاحبه كشف ماضي الانسان على اسس علمية .

ومعنى ذلك ان الجهد المبذول فى الكتابة كان جهدا مجردا منزها ، بمعنى ان التاريخ الذى كان رواية لما يثير ، اصبح رواية للحياة اليومية للمجتمعات ، واذا كان تاريخ الافراد يكتفى بسرد الوقائع ، فان تاريخ المجتمعات يقتضينا اعمال الفكر ، وانتقاء الحدث النموذجي ، الامر الذى يتطلب التعرف التام على خصائص هذا المجتمع ، ومن هنا سلك التاريخ سبيله الى ان يصبح دراسة انسانية تتصل بالحياة البشرية عموما فى شتى نواحى انشطتها المختلفة .

مشكلة البحث التاريخي ومنهجه

لا تختلف مشكلة البحث التاريخي عن غيرها من مشكلات البحث فى اى علم آخر ، فلا بد أن يدرك الباحث انه يبحث ليزيح الغموض الذى يكتنف موضوعا من الموضوعات ، او ان هناك شيئا يتطلب الايضاح .

والمشكلات التي يراها المؤرخون اساسية تتطلب البحث ، تختلف من جيل الى آخر ، اعني ان المؤرخ الذى يتصدى لاختيار الوقائع التي تبدو له اساسية بالنسبة لجيل من الاجيال ، لا يمكن أن يراها كذلك بالنسبة لجيل آخر لأن الظروف والاوضاع تتغير ، ولأن ميول الانسان تتغير كذلك .

ومن هنا نقول ان المسألة الرئيسية فى الدراسات التاريخية هي تحليل التغير عبر الزمن ، ونقول أيضا ان معطيات المؤرخين هي الحوادث المترابطة زمنيا ، ولهذا فان كل حادثة تاريخية ، مهما تكن مشابهة لغيرها ، تكون فريدة فى بابها من بعض الزوايا ، ولهذا ايضا نقول أن التاريخ لا يعيد نفسه ، ولا مفر للمؤرخ من أن يدخل عنصر الزمن فى اعتباره عند البدء فى القيام بعملية التحليل .

واذا كان من المسلم به ان الهدف من كل بحث ، هو المعرفة وفهم العلائق ، فان البحث التاريخي يقتضينا الكشف عن اوجه ترابط الاحداث المتتابعة زمنيا ــ لا مجرد سردها ــ من حيث ان بعضها يكون عللا وبعضها الآخر يكون معلولات .

ولقد تحدثنا فيما سبق عن الصفات التي ينبغي ان تتوفر فيمن يتصدى لكتابة التاريخ

ونريد الآن ان نتحدث عن المنهج التاريخي . أعنى الطريق الدى ينبغي على المؤرخ أن يسلكه ليمضي فى مهمته على أسس سليمة ، وليخرج تاريخه صادقا قدر الطاقة ، مصطبغا بالصبغة العلمية ما وسعه ذلك .

ومنهج البحث التاريخي فى تعريف مبسط هو المراحل او الخطوات التي يمضي فيها الباحث حتى يصل الى الحقيقة التاريخية عن طريق فحص وتحليل سجلات الماضي ومخلفاته ثم يدونها ليقدمها للناس ، والحقيقة التاريخية غير مطلقة ، فمن العسير جدا بلوغ الحقيقة المطلقة لأى شيء فى الماضي ، بل وفى الحاضر ، وذلك لعوامل كثيرة تعترض سبيل من ينشدها ، ومن أهمها ضياع البراهين وانطماس الأدلة ، وتدخل الاغراض والمصالح ، لذلك نقرر منذ البداية أن الحقيقة التي يصل اليها المؤرخ لا تعدو ان تكون حقيقة نسبية ، كلما زادت نسبة الصدق فيها اقتربت من الحقيقة المطلقة . وحين يبدأ الباحث فى التاريخ عمله ــ ولا سيما فى التاريخ القديم ــ فانه لن يجد بين يديه ما هو بحاجة اليه من مصادر مكتوبة ، وبالتالي فانه يستخلص مادته من مخلفات الانسان وآثاره المادية ، كالنقوش والصناعات والآثار ، وهذه جميعا تحتفظ لنا بكثير من الحقائق التاريخية ، ويحتاج المؤرخ الى بذل كثير من الجهد لاستنباط هذه الحقائق من تلك الآثار والمخلفات الصامتة (١١) .

ويحاول المؤرخ باستخدام المنهج التاريخي والتدوين التاريخي ان يرسم صورة لماضي الانسان بالقدر المتاح له ، ونحن نسمي العمليتين معا فى كثير من الاحيان « بالمنهج » لانهما دائما متلازمتان متواكبتان ، كلاهما جزء من عمل واحد .

ويخضع المنهج التاريخي لقواعد وتنظيمات ، وهكذا كان منذ كتب المؤرخ الاغريقى **ثوكيديديس** كتابه عن « الحروب البلوبونزية » ، فلقد قال لقرائه بصراحة وأمانة الكيفية التي جمع بها مادته ، كما روى الاختبارات التي طبقها ليفصل الحقيقة عن الخرافة والاسطورة ، ونحن نعرف أنه الف خطبا انطق بها معاصريه من امثال بركليز ، فبذل غاية الجهد فى استقصاء المصادر الموفرة لديه كي يجعل هذه الخطب اقرب ما تكون الى الأصل ، وكان يأمل ان يصل الى حرفية الخطبة لكنه لم يستطع .

ومنذ ايام توكيديديس كتب العديدون فى المنهج التاريخي باسهاب احيانا وفى ايجاز احيانا اخرى ، ومن أمثلة ذلك **لوكيانوس** السفسطائي الاغريقي (ولد حوالى ١٢٥ م) وابن خلدون وفولتير . ولكن الدراسة الاكاديمية للمنهج التاريخي لم تبدأ الا بعد ان الف Ernest Bernleixm كتابه المشهور « تعلم المنهج التاريخي والفلسفة التاريخية عام ١٨٨٩ » ، وفيه وضع ارنست الخطوات التي يجب على المؤرخ ان يخطوها والعقبات التي تعترضه وكيف يذللها ، والمهالك التي قد يقع فيها وكيف يتحاشاها ، ولا يزال هذا المؤلف حتى اليوم اكمل ما صنف فى بابه .

ومن بعد جاء العالمان الفرنسيان **شارل سنيوبوس** Ch. Signobos **وشارل لانجلوا** " Ch. Langloi " فأصدروا فى عام ١٨٩٨ كتابهما المعنون « مقدمة فى الابحاث التاريخية » فجاء مختصرا دقيقا ومفيدا .

---

(١١) Oman, Ch. : The Writing of History, p. 26.
وحسن عثمان ــ منهج البحث التاريخي ــ ص ٢٠ ــ ٢١ .

ونحن نستطيع ان نقول ان المنهج التاريخي يتألف من مجموعة العناصر الآتية :

١ ــ الثقافة الواسعة .

٢ ــ اختيار الموضوع .

٣ ــ جمع المادة .

٤ ــ نقد المادة .

٥ ــ ترتيب الحقائق .

٦ ــ انشاء الصيغة التاريخية .

ومن المقرر ان قيمة التاريخ الذى نقرأه فى الكتب تعتمد اساسا على اتساع ثقافة الكاتب واتقانه لمنهج البحث التاريخى ، كما تعتمد على استعداده وملكاته الشخصية ومدى تمتعه بالصفات التي سبق ان تحدثنا عن وجوب توافرها فى المؤرخ .

ولا شك ان الثقافة الواسعة هي الركيزة الاولى التي لا بد منها لكتابة تاريخ علمي صحيح ، والمقبل على كتابة تاريخية ينبغي ان يعرف تماما انه بصدد مهمة شاقة تقتضي منه الدراسة العميقة والتحصيل الجاد المتنوع ، والتاريخ فى هذا كله لا يختلف عن غيره من سائر العلوم ؛ فالمعرفة بعامة متداخلة متشابكة وليس فى وسع احد ان يدرس علما بذاته مستقلا تماما عن العلوم الاخرى ، فما هي العلوم المساعدة التى تعين المؤرخ على اتقان عمله ؟

العلوم المساعدة :

يتصل التاريخ اتصالا وثيقا بكثير من صنوف المعارف الانسانية ، ومن يتصدى لكتابته لا بد له من تحصيل هذه المعارف اولا ، لأنه حين يحسنها يستطيع ان يحسن ما يكتب من الدراسات التاريخية .

ونحن نسمي هذه المعارف عموما بالعلوم المساعدة او العلوم الموصلة ، وهي بطبيعة الحال تختلف بالنسبة للدارس باختلاف العصر اوالموضوع الذى يريد ان يتناوله ، فدارس التاريخ القديم مثلا تختلف علومه المساعدة عن علوم دارس تاريخ العصور الوسطى ، وهذا تختلف علومه المساعدة عن دارس التاريخ الاسلامي او التاريخ الحديث .

الواقع ان اللغات تأتي فى مقدمتها جميعا ، لأنه لا فكاك من ضرورة معرفة اللغة الاصلية الخاصة بموضوع البحث التاريخي ، ومهما كان لدينا من ترجمات ، فانها قد تفي باحتياجات من يستهدف الحصول على ثقافة عامة ، لكنها لا تكفي ابدا للمؤرخ الذى يستهدف الفهم الكامل العميق للناحية التى يريد ان يتناولها ، أعني أن الذى يريد ان يدرس ناحية من نواحي التاريخ المصرى القديم ، لا يستطيع ان يفعل ذلك الا اذا تعلم اللغة الهيروغليفية ، والذى يريد الكتابة فى موضوع من موضوعات التاريخ الاغريقي ، لا بد ان يعرف اللغة الاغريقية القديمة ، والذى يريد ان يكتب فى موضوع من موضوعات التاريخ الاوربي الوسيط ، لا بد له من معرفة اللغة اللاتينية .

وذلك هو السبيل الوحيد الذى يمكن الدارس من قراءة النصوص الاصلية بلغتها الاصلية ؛ وكلما تنوعت اللغات القديمة التي يعرفها الباحث ، اتسع امامه أفق البحث ،

ولا يصدنه عن تعلم هذه اللغات صعوبتها ، والافأولى به ان يتخلى تماما عــن التصــدى لهذه التخصصات القديمة .

وينبغى على الباحث ايضا ان يكون عارفاباكثر من لغة من اللغات الاوربية الحديثة الشائعة، لأن اللغات الاوربية كلها غنية بتراثها التاريخي ،ولا يجوز للدارس ان يفوته الاطلاع على هــذا التراث كي يفيد منه الافادة القصوى .

ونحن لا ننكر ان تعلم اللغات القديمة بالذاتامر فيه كثير من العسر والصعوبة ، ولهذا اخذ الدارسون الشبان من خريجي الجامعات فى بلادناالعربية ، يبتعدون عن التخصصات التي تتطلب العلم بهذه اللغات ، وهذا امر مؤسف حقا ، كانتنتيجته ندرة المتخصصين عندنا فى فروع التاريخ القديم بعامة ، والذى أدعو اليه ان يتخلى الشبابالدارسون عن الخوف من دراسة اللغات القديمة شرقية كانت أم غربيــة ، وان يقــدموا عليها فىشجاعة وثقة بالنفس ، ولسوف يجــدون بعد بضعة اشهر انهم خطوا خطوات طيبة فى تعلم هدهاللغات ، ولســوف يدفعهم ذلــك الى مواصلة الدرس فى اصرار وتصميم ، ان الدراسة الجادةعلى مدى عام واحد لاية لغة قديمة تكفي لوضع اساس طيب للاستمرار وتحصيل المزيد .

ويأتى بعد ذلك علم قراءة الخطوط Paleography ، فهو علم لازم لدراسة التاريخ القديم والوسيط ، بل ولدراسة الفترات المبكرة مــنالتاريخ الحديث ، وتبدو لنا أهمية هذا العلم واضحة جلية حين نتصدى لدراسة تاريخ الشرقالقديم وتاريخ اليونان والرومان وتاريخ العرب قبل الاسلام وتاريخ العصور الوسطى وتاريــخالشرق الادنى الحديث حتى القرن التاسع عشر .

ونحن نستطيع عن طريق هذا العلم أن نحددتاريخ أية وثيقة غير مؤرخة تعرض لنا تحديدا مضبوطا بمجرد النظر الى الخط الذى كتبت بهوخصائصه ، وليس ثمة شــك فى ان معلوماتنا سوف تظل قاصرة عن قرون كاملة وطويلة منتاريخ البلاد التي خضعت للعثمانيين ، ما لم يوجد من يدرس خط القيرمة مثلا ، الذى دونت بهوثائق النظم الادارية والمالية فى ظل الحكم العثماني لهذه البلاد ، ولا سيما مصر ، التي شاع بهــااستعمال هذا الخط ابتداء من القرن الحادىعشر الهجرى ، والتي تفيض دار محفوظاتها بالقلعةبآلاف من الوثائق المكتوبة بخط القيرمة ، وكذلك دمشق التى توجد بمكتبتها الظاهرية مجموعــةكبيرة من الوثائق المدونة بنفس الخط ونتناول ــ فيما تتناول ــ تاريخ فخر الدين المعنى الثانيأمير لبنان .

ومن العلوم المساعدة الهامــة للمؤرخ علم« **النوميات** » **او علم النقود المسكوكة** ، فالعملة القديمة تحمل عادة صورا للآلهة التي كان الناسيعبدونها ، كما تحمل صــور الملــوك والامــراء واسمائهم ، وهذه كلها تمد الباحث بمادة تاريخيةأصيلة عن العصور القديمة والعصور الوسطى على السواء ، كما تعيننا على دراســة الاســاطيروالديانات والفنون والنشاط التجارى فى الفترات التي ترجع اليها هذه المسكوكات .

أما الجغرافيا ، فانها من المواد المساعدةالتي لا يستغنى عنها الباحث فى التاريخ ، ذلك ان الارتباط بين الجغرافيــا والتاريخ ارتبــاطعضوى وثيق ، فالأرض كمــا يقــال هي المسرح الذى مثلت فوقه الاحداث التاريخية .

وليس ثمة شك فى أن لجغرافية اى اقليماثرا كبيرا على توجيه مسار تاريخه ومن ثم على مصائر اهل هذا الاقليم .

ان الناس فى اية بيئة من البيئات يتفاعلون معها تفاعلا تلقائيا تمليه الطبيعة الجغرافية لهذه البيئة ، ومن ثم يتشكل تاريخهم تشكيلا يتفق والبيئة ، وبالتالي يتحدد مسار تاريخهم .

ومن أبرز الامثلة على أثر الطبيعة الجغرافية في تاريخ قوم من الاقوام ، مصر ، فالنيل هو مصدر حياتها وهو الذى شكل تاريخها ووجهه الوجهة التي سار فيها ، لقد تعلم منه سكانها هندسة الرى ، وادركوا بفضله معنى الوحدة والتعاون وجعلهم من اغنى شعوب العالم القديم واسبقهم الى الأخذ بأسباب التقدم الحضارى .

وينبغي للمؤرخ ان يلم بعلم الاقتصاد الماما يمكنه من الوقوف على مدى تأثير العوامل الاقتصادية على مسار التاريخ ، فنحن نعرف أن السياسة الداخلية لدولة من الدول تعتمد أعتمادا كبيرا على مدى ثرائها الطبيعي ونشاطها التجارى ، وطريقة توزيع الثروة الطبيعية فى بلد ما تحدد عادة نوع الحكم فيها ومستوى الرخاء العام بها وعلاقة طوائفها ببعضها ، وفضلا عن ذلك فان الرخاء الاقتصادى يؤثر تأثيرا هائلا فى علاقة الدول ببعضها ، لا فى النواحي الاقتصادية وحسب ، وانما فى النواحى السياسية أيضا .

ان كثيرا من الحروب والغزوات ، والحروب الاستعمارية ، كان الدافع اليها دافع اقتصادى بحت ، ومكانة الدول فى عالمنا الحديث تتوقف قبل كل شيء أيضا على أوضاعها الاقتصادية .

والأدب من العلوم المساعدة التي يلزم المؤرخ ان يلم بها ، فأدب القوم هو مرآة حياتهم وحضارتهم ، وهو التعبير الصادق عن أفكارهم وعواطفهم الانسانية ، وهو الذى يكشف دخائل الافراد ويصور لنا أحلامهم وامانيهم ، والادب فى مجالاته المختلفة يرسم لنا اوضاع الشعوب ونظمهم وشتى جوانب حياتهم .

ونحن اذا تناولنا الادب المصرى القديم ـ برغم قلة ما وصلنا منه ـ أو الادب الاغريقى أو الادب الروماني ، نجده يفيض بالمعلومات التى ترسم لنا تاريخ هذه الشعوب رسما دقيقا واضحا .

وقد تكون مخلفات اديب واحد معينا هائلا للمؤرخ ، يستقي منه معلومات تاريخيه هامة لم تكن لتتاح له لولا هذه المخلفات ، فالياذة هوميروس و « العمل والايام » **لهيسيودوس** ومسرحيات **ايسخولوس وسوفوكليس ويوريبيدس** عند الاغريق القدماء ، وآثار دانتى الادبية التي ترجع الى أواخر العصور الوسطى فى ايطاليا ودراسة الادب العربي الحديث ، كلها تعتبر من المصادر التي لا غنى عنها لمن يريد التصدى للبحث فى التاريخ السياسي والاقتصادى والاجتماعي لتلك الازمان ، البعيد منها والقريب على السواء .

ونرى كذلك ان الاحاطة بفنون الرسم والتصوير والنحت والعمارة فى عصر من العصور مسألة ضرورية بالنسبة للباحث فى تاريخه ، وان آثار مصر القديمة أو آثار العراق القديم أو آثار الاغريق والرومان ، كلها تعطينا صورا واضحة لحضارات هذه البلاد وتمدنا بفيض من المعلومات عن تقاليد اصحابها وحياتهم الاجتماعية والاقتصادية والدينية .

بل ان هذه الآثار الفنية تعتبر المصدر الوحيد لتاريخ الشعوب التي عاشت قبل معرفة الكتابة ، فلم تترك لنا أية سجلات او مدونات ، وانما تركت فقط آثارها لنستنطقها ونستنبط منها تاريخها .

وفضلا عن ذلك كله ، يستطيع الباحث في التاريخ أن يزود نفسه بقسط من علوم المنطق والفلسفة والاجتماع والنفس والقانون ، فكلها تفيده في البناء التاريخي لموضوع دراسته ، وفي عقد المقارنات وتفسير الظواهر بحيث يخرج تاريخه متكاملا وبحثه وافيا .

وعلى المؤرخ في النهاية الا يعتمد على ما يتاح له من مراجع ومصادر فحسب ، انما عليه ان يعتمد ايضا على ما حصله هو شخصيا من خبرة بالحياة العملية بين اهله وعشيرته وقومه ووطنه ، فذلك زعيم أن يجعله اقدر على فهم تصرفات البشر في الماضي وتقدير الظروف التي أحاطت بهم وأدت الى توجيههم توجيها معينا .

وعلى المؤرخ ايضا الا يكتفي بالدرس والبحث داخل نطاق بلده وحده ، انما يتحتم عليه ان يسافر ويرتحل خارجه ما استطاع الى ذلك سبيلا ، فذلك سوف يفتح أمامه آفاقا جديدة رحبة ويكسبه خبرة واسعة باقوام وبيئات متباينة ، ومن الواجب عليه ان يقوم بزيارة البلد الذى يكتب عنه ، وان يشاهد بنفسه الاماكن التي يتناولها في بحثه ، وذلك كفيل بأن يضفي على ابحاثه مزيدا من الدقة ومزيدا من نبض الحياة .

وبعد ، فذلك الذى تحدثنا عنه في الصفحات السابقة ، يعطينا موجزا عن الثقافة الواسعة التي يتعين على المؤرخ أن يزود نفسه بها ، ومفهوم بطبيعة الحال أننا لا نطلب من المؤرخ أن يتوسع ويتعمق في كل هذه العلوم المساعدة ، فذلك مستحيل ، انما نطلب منه فقط الالمام بها الماما طيبا ولا بأس عليه اذا هو تعمق ناحية بذاتها من هذه الدراسات تكون لها صلة مباشرة وثيقة بموضوع بحثه التاريخي .

اختيار الموضوع :

ذلك هو العنصر الثاني من عناصر المنهج التاريخي ، وعملية اختيار موضوع تاريخي معين لدراسته والكتابة فيه تتصل اتصالا وثيقا بميول الباحث ومدى المامه بالعلوم المساعدة التي يتطلبها البحث في هذا الموضوع ، وهي في الواقع أول مشكلة تواجه من يتصدى للكتابة التاريخيه ، ومن واجبه ان يصرف فيها وقتا كافيا حتى يستقر على ما يريد ، ويضمن قدرته على المضي فيه .

ويختلف موضوع اختيار البحث باختلاف وضع الراغبين فيه ، فمثلا طالب الجامعة المبتدىء في التخصص لا يستوى مع طالب الدراسات العليا الذى انهى دراسته الجامعية الاولى ، وبدأ يتطلع للحصول على الماجستير ثم الدكتوراه ، وكلاهما لا يستوى مع المتخصص الكبير الذى أمضى حياته في كتابة التاريخ .

فطالب المرحلة الجامعية الاولى يدربه اساتذته على وسائل تحصيل المادة وجمعها ، وهذه الوسائل هي التي تصبح اسلحته في المستقبل للعمل العلمي الاصيل المبتكر ، ونحن لهذا السبب لا نطالبه بالكتابة التاريخية للوصول الى نتائج علمية جديدة لم تكن معروفة من قبل ، انما نحن نساعده في اختيار موضوعات من تلك التي سبقت دراستها بهدف تمرينه وتدريبه على الاقتباس ، واعادة الكتابة في الموضوع بترتيب جديد وتبويب جديد وعرض جديد ، معتمدا على المصادر والمراجع التي يرشده اليها استاذه ، فاذا جمع من هذه وتلك ما يراه متصلا بموضوعه ودونه في مذكراته ، كان عليه بعد ذلك ان يجمع ما حصل عليه من معلومات ، وان يميز بين ما يتعلق منها

بالنقاط الجزئية فى المراجع المختلفة ، ثم يعمد الىالمقارنة بينها حتى ينتهى الى ما يريد ويعرضه بعد ذلك فى اسلوبه الخاص .

وغالبا ما يكون الموضــوع الذى يختــارهالطالب فى هذه المرحلة الاولى من كتابة البحوث ، موضوعا عاما شاملا ، ثم يتدرج بعد ذلك ــ تحتاشراف استاذه ايضا ــ الى اختيار الموضوعات المحــددة التي تهتم بجانب واحــد من جوانبالموضوع الشامل الذى كتب فيه أولا ... وهنا يكون موضوع البحث اضيق واكثــر تحديدا ؛وبالتالي يصبح اكثر عمقا .

على هذا النحو ينبغى ان يكون التدرج فىاختيار موضوعات البحث بالنسبة لطلاب المرحلة الجامعية الاولى ، فلسوف يتعلم قبل كل شيءفائدة الالمام بالموضوع الواسع الشامل ، ثم يتعلم الانتقال الى الموضوع المحدد ، وهذا يدربه علىالاهتمام بالجزئيات مع الاهتمام فى نفس الوقت بالنظرة العامة الى الموضوع الذى يدرسه .

ويستطيع الاستاذ الجامعي ان يوجه طلابهفى المرحلة الاولى الى كتب يعينها من كتب التاريخ الهامة الجيدة التي تتناول موضوعا بعينه مــنالموضوعات التاريخية ، ويطلب منهم ان يلخصوا هذه الكتب بحيث تصبح فى نصف حجمها ثم فىربعه ثم فى صفحات محدودة ، وحبذا لو كان الكتاب المختار مكتوبا بلغة اجنبية ، وســوفيستفيد الطالب كثيرا من هذه العملية لأنها تعلمه القدرة على الاستيعاب ثم التركيز ، الى جانبالحصول على معلومات تاريخية جديدة ، واجادة اللغة الاجنبية التي يقرأها .

كذلك يستطيع الأستاذ ان يرشد الطالبالى دراسة بعض الوثائق الاصلية المنشورة ، أو بعض الوثائق المخطوطة ، لاستخراج المعلومــاتالواردة فيها عن موضوع معين ، وهذا تدريب لابد منه لاعداد المتخصص فى التاريخ .

فاذا اتم الطالب هذه المرحلة الجامعيــة ،وحصل على هذا القسط من التدريب على الكتابة التاريخية مستعينا بالمصادر والمراجع والوثائق ،وانتقل الى المرحلة التالية ، مرحلــة التخصص الدقيق ،وعزم على المضي فى الكتابة لاعداد رسائلهللماجستير والدكتوراه ، فان الوضع بالنســبة لاختيار الموضوع يتغير .

هنا يصبح الباحث مســئولا عــن اختيارموضوع بنفسه ، وعلى استاذه المشرف ان يتحقق من ذلك ، لأن العلاقة بينهما لم تعد كما كانت ،علاقة موجه ومشرف على طالب مبتدىء ، انما أصبحت علاقة زمالة ومساواة فىتحمل المسئولية،تقوم على النقد الحر الذى يتقبله الأستاذ مــن تلميذه ، كما تنهض على اســاس مــن التقــديرالمتبادل .

ولقد يقال ان الطالب حديث التخرج قــدلايستطيع الاستقلال باختيار موضوع بحثه . لأنه لم يلم بعد الماما كافيا بالعصر الذى يريد الكتابةفيه ، لكن هذا لايبرر أن يملى الأستاذ على تلميذه موضوع البحث املاء ، انما عليــه أن يرشــدهويوجهه فى صبر وأناة ، وأن يطلب اليه مزيدا من القراءة فى الموضوع وما حوله ، حتى يصبح قادراعلى الاختيار الموفق بنفســه ، فتلك مسئوليته وحده .

والباحث فى مرحلة الماجستير ، يعتبر قائمابدراسة ابتدائية فى مجال التخصص ،ولهذا فنحن نتجاوز عن الزامه بالاتيــان بجديد فى الحقــلالتاريخي ، ونكتفي بالجهد الذى يبذله مخلصــا

فى تحصيل المادة التاريخيــة من أصــولها ، ثم تصفيتها وترتيبها وعرضها عرضا سليما ، ولعله ينتهى بعد ذلك الى جمع شتات موضــوع كان متناثرا فى كتب عديدة ، وهذا عمل مفيد كــل الفائدة . . . لقد ادى خدمة فى ميدان التاريخ وان تكن متواضعة .

وذلك بطبيعة الحال لا يمنع الباحث مــن القيام بنشر عدة وثائق كشفت ولم تنشر بعد ، على أن يكون النشر علميا بالمعنى الصحيح ، وفى هذه الحالة يكون قد أتى بشيء جديد فعلا .

وعلى الباحث فى هذه المرحلة ، ومنذ اللحظة الأولى ، ان يكون أمينا مع نفسه حين يقرر الفرع الذى ينوى التخصص والكتابة فيه ، فيسألها : اهو على دراية كافية بالعلوم المســاعدة الموصله لهذا الفرع ، فمثلا اذا انتوى الكتابة فى التاريخ اليوناني ، عليه ان يتأكد من المامه الكافي باللغة اليونانية القديمة ، فاذا لم يكن مطمئنا الى ذلك ، فعليه ان يكون امينا مرة اخرى ويسأل نفسه ، أهو قادر على تعلم هذه اللغة بالقدر المطلــوب ؟ فاذا تبين له أنه غير قادر ، فليعدل عن المضي فى تلك الدراسة وليفكر فى تخصص آخر .

وفى وسع كل مبتدىء ان يصل الى موضوع يهمه للكتابة فيه ، وكل ما يحتاجه لذلك هو أن يسأل نفسه الأسئلة التالية التي تقع فى مجموعات أربع على النحو التالي :

المجموعة الأولى جغرافية ، وتبدأ الاسئلة بأداة الاستفهام « أين » ، فأى مكان فى العالم الواسع يرغب الطالب دراسته ؟ أهو الشرق أم هو الغرب ؟ ثم اين بالضبط من انحاء الشرق ؟ او أين بالضبط من انحاء الغرب ؟ . . وهكذا . والمجموعة الثانية تتعلق بالسيَر ، والأسئلة هنا تبدأ بأداة الاستفهام **((مَنْ))** ، فمن من الناس يســتأثر باهتمام الطالب ؟ أهم العــرب أم هم الانجليز أم هم الفرنسيون ، أم هم الاغريق أو الرومان ، أم أصحاب حضارات الشرق القديم ؟ . . الخ ، أم هي شخصية فرد بعينه : قائد ام ملك ام زعيم سياسي ؟ . . الخ .

والمجموعة الثانية زمنية : وتبدأ الاســئلة بكلمة **((متى))** : فأى حقبة من الحقب يفضــل دراستها . . . أهي العصور القديمة أم الوسطى أم الحديثة ؟

واخيرا المجموعة الرابعة ، وهي نوعية ، تبدأ الأسئلة فيها بكلمة « أى » فأى نــوع من انــواع النشاط البشرى يستأثر باهتمام الباحث ؟ أهو الاقتصاد ام السياسة أم الحروب ام الاوضــاع الاجتماعية ؟ . . . الخ .

وبعد أن ينتهي الطالب من عــرض هــذه الاسئلة على نفسه ، والاجابة على كل منها اجابة صريحة مقنعة ، فانه ســوف يشــعر باطمئنان كامل ، وسوف يصل الى نتيجة واضحة آخــر الأمــر ، ويقــف على مجال اهتمامه الخاص فى الدراسات التاريخية ومن ثم يختار موضـــوع بحثه .

وهنا ينبغي ان نشير الى بعض المســائل الهامة ، اولها ان المبتدىء يكون عادة ــ ان لم يكن دائما ــ على قدر كبير من الطموح وربما الاندفاع والتسرع . . . والسبب فى ذلك هو قلة ما لديه من خبرة ، فهو لا يستطيع ان يتصور القدر الهائل من الأدلة التي قد تكون متوفرة فى الموضوع الذى اختاره ، فاذا مضى فى البحــث فترة من الوقت ألفى نفسه غارقا الى اذنيه فى بحــر خضــم من المصادر ، وشعر بعجزه عن الخــروج من هذه الامــواج المتلاطمة ، ولقد ينتابه اليأس ويحس بمرارة شديدة قد ترده عن مواصــلة الدرس . وعكس ذلك صحيح ، فربما اختــار موضــوعا

مصادره ومراجعه نادرة ومشتتة ، وبالتالي لايجد بين يديه المادة التي تعينه على المضي فى بحثه .

وليس من الضروري بالنسبة للباحث المبتدىء ان يحدد عنوان موضوعه منذ بداية العمل ، وحسبه ان يحدد العصر او النواحي التي تصلح للبحث فى نطاق محدد ... أما التحديد النهائي للعنوان فلا يتم غالبا الا بعد ان يقطع الباحث شوطا طويلا فى القراءة والاطلاع ... ولعله من المفيد ان يحدد لنفسه المدة الزمنية التي يستطيع ان ينجز فيها عمله ، علما بأنه محتاج الى بعض الوقت لتقصي احوال العصر الذى ينوى دراسة جزء منه .

ومن أهم الامور ألا يختار طالب البحث موضوعا طويلا ، وحسبه ان يكتفى بدراسة مسألة محددة ، فذلك يساعده على انجاز بحثه فى مدة مناسبة ، كما يساعده على الاتيان بشيء جديد .

فاذا تورط الباحث فى موضوع كثير المصادر والمراجع ؟ وماذا اذا حدث العكس ؟ فى الحالة الأولى يكون لا مفر من تضييق نطاق الموضوع الذى اختير ، وفى الحالة الثانية لا مفر من توسيع هذا النطاق .

فلنفترض ان الباحث اجاب عن مجموعات الاسئلة الأربعة سالفة الذكر على النحو التالي : أفضل أن اكتب فى تاريخ الشرق القديم ، وعن العراق بالذات من أقطار هذا الشرق ، وعن الفترة المبكرة من تاريخه ، واخيرا عن الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية حينذاك ، وبالتالي فسوف يكون عنوان الموضوع كالتالي « الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية فى العراق القديم فى تاريخه المبكر » .

وربما اكتشف الطالب بعد فترة ان لديه قدرا هائلا من المصادر والمراجع يغرقه الى اذنيه كما ذكرنا ... هنا ينبغي عليه أن يضيق نطاق الموضوع فيجعله مثلا ، « الأوضاع الاجتماعية عند السومريين فى العصر الحجرى الحديث » وهكذا يكون قد اختصر المكان واختصر الزمان واختصر مظهر النشاط البشرى الذى سوف يتناوله ، وهكذا يصل الى حدود معقولة يمكن التصرف فيها والانتهاء منها خلال مدة معقولة من الوقت .

وربما كان موضوع كهذا من انسب الموضوعات للمبتدئين ، لأنه يضعهم بين مصادرهم ومراجعهم الخاصة المتوفرة فى مكتباتهم او فى مكتبات قريبة منهم .

أما حين يجد الباحث أن موضوعه ضيق النطاق بسبب اغراقه فى التخصص بحيث لا يجد المصادر والمراجع اللازمة ، فعليه ان يوسع نطاق البحث بصورة تتيح له مزيدا من المصادر والمراجع .

ومع ذلك فان البحث التاريخي المتخصص ، اى الذى يتناول احداثا محدودة ، ويقوم على الوثائق المتخصصة ، هذا النوع من البحوث هو الاجدر بالاهتمام والدراسة ، وهو الذى يضفى على صاحبه لقب « الباحث المؤرخ » ، لأننا لا نريد ان نجد انفسنا آخر الأمر مجرد ناسخين ومقتبسين . ولقد قيل ان الفرق بين البحث التاريخي وسرقة ابحاث الآخرين ، هو ان البحث يقتضي نسخ اكثر من كتاب واحد او الاقتباس الجزئي من اكثر من كتاب ... لكن الفارق الحقيقي يكمن فى ان البحث معناه التفتيش عن بعض المصادر الجديدة او التي لم تستخدم بعد ، فتستقى منها المعلومات المتصلة بموضوعنا ، وقد يكون البحث أيضا عبارة عن تحليل وتفسير جديد لمعلومات معروفة .

ومن أهم الامور التي ينبغي ان يراعيها طالب البحث المبتدىء ، هي أن يعرف ــ قبل ان يتورط ــ ما اذا كان الحقل الذى اختاره للدراسة قد درس من قبل دراسة كاملة وافية بحيث تصبح فرص الاتيان فيه بجديد معدومة او محدودة للغاية ... وهنا عليه أن يلجأ الى مؤرخ خبير ليقف منه على جلية الامر .

وهناك كتب تقترح مشكلات تاريخية تحتاج للدراسة والبحث ، كذلك هناك المصادر المرتبة فى مجلدات خاصة بها ، والتي تلخص الابحاث التي تمت فى فترات معينة اعنى كتب الببليوجرافيا Bibliography وهناك أيضا المجلات العلمية المتخصصة التى تنشر دوريا ، وبها مقالات فى النقد العلمي لما ظهر من كتب وبحوث .

بقي أن نذكر انه ينبغي الا يقل الزمن الذى يفصل الباحث عن موضوعه عن خمسين عاما . بهدف اعطاء الباحث فرصة البعد عن الوقوع تحت اى تأثيرات شخصية ، بحيث يكتب كتابة المحايد المتحرر الذى لا يخشى وقوعا فى مضرة او انسياقا وراء منفعة شخصية عاجلة او انحرافا وراء تيار عام ، وذلك زعيم ان يخرج بحثه اقرب ما يكون الى الحقيقة والصدق ، وفضلا عن ذلك فان انقضاء فترة نصف قرن على وقوع الاحداث يكفل بلورتها والخروج بها من حالة الفوران والغليان التي تواكب وقوع الحدث وتستمر بعده فترة غير قصيرة .

ومعروف ان الدول لا تنشر وثائقها المتصلة بسياستها المختلفة الا بعد انقضاء خمسين عاما عليها ، وفيما قبل ذلك فانها تعتبر سرا لا يجدر نشره او الاطلاع عليه ، وان كانت بعض الدول تكتفي الآن بمرور ثلاثين سنة على هذه الوثائق .

جمع المادة

ننتقل هنا الى العنصر الثالث من عناصر منهج البحث التاريخي ، ونعنى بذلك جمع المادة التاريخية اللازمة للبحث من المراجع والمصادر وشتى الاصول . ولعل أول ما يقال فى هذا الصدد هو أن المكتبة ودور المحفوظات العلمية ودور الارشيف التاريخي هي مختبر المؤرخ ، ومن ثم فلا بد ان يكون كل باحث على بينة ودراية تامة بطريقة استغلال المكتبات وهذه الدور .

وهناك كتب كثيرة وضعت بهذا الهدف ، يتعلم منها الباحث افضل السبل لاستخدام المكتبات والحصول منها على المادة التي تهمه بالنسبة لبحثه (١٢) ، وما من شك ان انفع اداة للباحث فى المكتبة هي فهارسها المختلفة ، سواء أكانت للموضوعات او لاسماء الكتب او لأسماء المؤلفين .

ومفروض ان كل باحث يكون على علم بمجموعة من اسماء الاعلام واسماء الاماكن التي تدخل فى موضوع بحثه ، وعليه ان يرجع الى قواميس الاعلام والى دوائر المعارف يبحث فيها عن هذه الاسماء وتلك ، ويحصل منها على مزيد من المعلومات عن كل اسم من هذه الاسماء ، كما يظفر بعدد من اسماء المراجع التي يذيل بها كل مقال يكتب عنها فى القواميس ودوائر المعارف .

---

(١٢) من اشهر هذه الكتب كتاب :

M. Hutchins, A.A. Johnson & M. S Williams ; Guide to the use of Libraries, New York 1936.

كذلك يتحتم على الباحث ان يدرس المسألة الواحدة فى عدة مراجع فى وقت واحد ليرى كيف عالجها اصحاب هذه المراجع ، وذلك هو ما نسميه بالقراءة المقارنة التي تساعد على معرفة أوجه القوة وأوجه الضعف فى الافكار المختلفة عن الافكار المختلفة عن الموضوع الواحد .

ومن المفيد جدا ان يحتفظ بفهرس موجز للكتب التي لا يمكن الاستغناء عنها بحيث تكون فى متناوله دائما، واهم ما ينبغى الاحتفاظ به هو :

١ ـ قائمة باسماء بعض كتب المراجع .

٢ ـ فهرس مطبوع لاحدى المكتبات .

٣ ـ دائرة من دوائر المعارف ويحسن ان تكون من تلك المتخصصة فى حقل الدراسة .

٤ ـ قاموس من قواميس الاعلام .

٥ ـ قاموس متخصص فى حقل البحث الذى يتناوله الباحث (اقتصادى او ديني او اجتماعي ... الخ) .

٦ ـ دورية او اكثر من الدوريات المتصلة بالبحث .

٧ ـ مجموعة للوثائق المتعلقة بعصر البحث .

والمراجع العامة تفيد فى اعطاء الباحث فكرة شاملة جامعة عن العصر الذى اختار منه موضوع بحثه ، وهي أيضا تمده بمراجع اخرى تعينه فى عمله . ومن الواجب ان يبدأ الدارس بالافادة مما كتبه السابقون فى الميدان ، والاطلاع على المراجع والمصادر التي استعانوا بها .

ولنفرض مثلا ان باحثا قد اختار الكتابة فى موضوع « الديمقراطية الاثينية فى القرن الخامس قبل الميلاد » فأول واجباته ان يطلع على المراجع العامة التي تتناول تاريخ الاغريق كله منذ بدايه الى ظهور الاسكندر الاكبر ، ثم يلجأ الى مراجع تتحدث عن تاريخ أتينا وحدها ، ثم يتناول بعد ذلك المراجع التي تتحدث عن النظم الدستورية الاغريقية ، ثم تلك التي تتناول النظم الديمقراطية وكيف تطورت حتى صارت الى ما صارت اليه فى القرن الخامس قبل الميلاد .

تلك هي الخطوات الاولى فى برنامج الدراسة والبحث ، ثم يأتي بعد ذلك دور التعمق فى الاصول والوثائق .

وعملية الوقوف على كل المراجع والاصول ، أو معرفة جلها ، عملية شاقة عسيرة ، ولا مفر لاستكمالها من اللجوء الى كتب المراجع ، او مايسمونه بالانجليزية Bibliographies ، ولقد أصدر العلماء فى الغرب العديد منها ، بعضها له طابع التعميم ، وبعضها الآخر له طابع التخصص ، وبعضها يكتفي بذكر اسم المرجع واسم مؤلفه ومكان نشره وعام صدوره وعدد صفحاته ، وبعضها الآخر يعطينا بالاضافة الى ذلك مذكرة موجزة عن كل مرجع او مصدر مطبوع (١٣) .

---

(١٣) من اهم هذه البيبليوجرافات :

International Bibliography of Historical Sciences, edited by the International Committee of Historical Sciences, Washington 1926.

ومنذ عام ١٩٢٦ يصدر من هذه البيبليوجرافية مجلد واحد كل عام يشترك فيه طائفة كبيرة من العلماء المتخصصين ، يتضمن ما نشر خلال العام فى جميع نواحي التاريخ بل فى طرق البحث التاريخي والعلوم المساعدة ودور الارشيف ، وهو يكتفي بذكر مكان الطبع وتاريخه وعدد الصفحات .

لكن كتب المراجع وحدها لا تكفي لأنها غالباما تغفل اسماء البحوث والمقالات المنشورة فى المجلات العلمية التي تصدر دوريا كل عام أو كل نصف عام أو كل ربع عام بمختلف اللغات .

ولهذا ينبغي أيضا ان تراجع فهارس هذه المجلات للوقوف على ما نشر بها من أبحاث أو مقالات فى الموضوع الذى ندرسه .

فاذا انتهى الباحث من ذلك كله ، فعليه ان يفتش عن الوثائق الخاصة بموضوعه ليدرسها ويستنبط منها ما يستطيع من حقائق ، ونقصد بالوثائق هنا المعاهدات والمراسلات الرسمية وتعليمات الرؤساء وأوامرهم لمن يعملون تحت اشرافهم ، وكذلك المجموعات القانونية ، وهذه جميعا يوجد منها قدر كبير لا يمكن الباحث ان يهمله والا خرج بحثه ناقصا مبتورا عديم القيمة .

ان البحث عن الوثائق من أهم العمليات الجذرية فى كتابة التاريخ ، ونستطيع أن نقرر ان الكشف عن قدر من الوثائق فى موضوع معين هو الفيصل فى امكانية دراسته والكتابة فيه أو الكف عن هذه الدراسة التي لن نخرج منها بجديد ، وحسبنا ان نكرر فى هذا الصدد ما ذكره لانجلوا وسيبوبوس فى كتابهما الرائع عن اهمية الوثائق اذ قالا «حيث لا توجد الوثائق ينعدم التاريخ »(١٤)، وما قرره أسد رستم فى أول صفحة من صفحات كتابه « مصطلح التاريخ » (١٥) حين قال « اذا ضاعت الاصول ضاع معها التاريخ » .

وهذه العبارات تعبر تعبيرا دقيقا عن أهمية الوثائق فى كتابه التاريخ ، فمما لا يقبل الجدل ان التاريخ لا يخترع اختراعا أو يخلق من العدم خلقا ، انما هو ينبني على الآثار التي خلفتها عقول اصحاب هذا التاريخ واياديهم . واذا تصورنا ان فترة من الفترات قد ضاعت اصولها وآثارها تماما لسبب او لآخر ، كالتدمير والحرق وغيرها ، فان تاريخ هذه الفترة يضيع تماما هو الآخر ، وأى باحث يتصدى لكتابة اى تاريخ دون دراسة وثائق واصول هذا التاريخ لا يعدو ان يكون ناقلا عن غيره ، وبالتالي فان قيمة عمله تنعدم مهما انفق فى النقل من جهد ووقت .

واذا كانت الوثائق ضرورية بالنسبة للكاتب الذى يكتب عن عهد قريب منه نسبيا ، فانها اكثر ضرورة بل هي حتمية بالنسبة لمن يكتب عن العصور القديمة ، ذلك ان الاول قد يستطيع الافادة من روايات بعض شهود الاحداث ، فيقارن بينها ويصنفها ويستخلص منها الحقائق ، بينما لا يجد الثاني سوى الاصول وحدها .

ونجد هذه الوثائق محفوظة الآن فى المكتبات والمتاحف والمساجد والكنائس ، وقد توفر عدد كبير من العلماء ـ ولا سيما فى الغرب ـ على فهرستها وتنظيمها ، لكن هناك اكداسا من هذه الوثائق لا تزال فى حكم المجهولة تماما ـ القديم منها والحديث ـ لانها لم تحظ بمن ينظمها ويفهرسها ، وتلك عملية ضرورية لا بد ان يتفرغ لها بعض العلماء .

ونحن جميعا نعرف ان الهيئات العلمية والجامعات فى الغرب تخصص عددا من رجالها وترسلهم فى بعثات الى الخارج للتفتيش عن هذه الوثائق وتصويرها ونشرها .

---

(١٤) Ch. Langlois et Ch. Seignobos : Introduction aux Etudes Historiques, Paris 1898.

(١٥) اسد رستم : مصطلح التاريخ ـ بيروت ١٩٣٩ .ص ١٠ .

وكثيرا ما يجد الباحث فى الوثائق التي يعنرعليها امورا تستدعي الرجوع الى التخطيط العام الذى وضعه لبحثه كي يجري فيه التعديل الذى توحيه هذه الامور .

وحين يعكف الباحث على نقل شيء من الوثائق فعليه ان يعي تماما محتويات ما ينقله ، وعليه كذلك ان يدون على الفور اى تعليق اوملاحظة تعن له وهو يقرأ الوثيقة حتى لا ينسى ما خطر على باله ساعة القراءة .

ويتصل بالوثائق فى هذا الصدد ، ما يتصل بموضوعنا من آثار مختلفة ، سواء اكانت رسوما او صورا او تماثيل او حفراً بارز او غائراً ، فهذه كلها تمدنا بمزيد من المعلومات التي نفتقدها فى المصادر والمراجع المكتوبة .

نقد المادة التاريخية

قلنا فيما سبق ان مادة الموضوع الذى يبحث انما تجمع من المصادر والاصول والمراجع ، وتمدنا المصادر والاصول بالمعلومات بصورة مباشرة احيانا وغير مباشرة أحيانا اخرى، وأقصد بالمعلومات المباشرة تلك التي تأتينا عن طريق مشاهدة الاحداث اثناء وقوعها ، كما اقصد بالمعلومات غير المباشرة تلك التي نستنبطها من دراسة مخلفات الانسان وآثاره ، وكذلك آثار الاحداث نفسها .

ان شاهد العيان الذى يكتب لنا ما رأى بعينه او ما شارك فيه بنفسه ، يمدنا بمعلومات مباشرة ، ولهذا نجد فيها كثيرا من التفاصيل الدقيقة ، وقد نجد فيها تصويرا لروح العصر ، ولكن ذلك لا يعني ان تأخذ كتاباته قضية مسلمه ،لأنه لا يستطيع دائما ان يحيط بمختلف جوانب الحدث ، وهو قد لا يستطيع ايضا ان يخلص نفسه من آفة التحيز والميل مع الهوى ، أو عوامل الخوف من اصحاب السلطان وعوامل الرغبة فى المنفعة الذاتية .

ولهذا فنحن نستمد معلوماتنا عن الاحداث ــ اساسا ــ عن طريق غير مباشر بدراسة الآثار والمخلفات ، وهذه هي نقطة البدء عند المؤرخ ،وبعدها يمضي فى طريق شائك وطويل ومعقد حتى يصل الى الحقيقة التاريخية .

وأولى مراحل هذا الطريق هي دراسة الاصول وتعمقها وتحليلها ، وتلك هي العملية الصعبة التي نعبر عنها بعبارة « نقد الاصول » .

ودراسة الآثار المادية التي خلفها الانسان أوالحدث ، كالعمائر والتماثيل وغيرها ، تكون عادة أيسر من دراسة الآثار المدونة او المسجلة بالكتابة،والسبب فى ذلك واضح تماما ، وهو ان العلاقة بين الآثار وأصحابها تكون دائما ماثلة امام المؤرخ . . . فهذا المعبد قد اقيم لاجراء الطقوس الدينية، وهذا المنزل قد شيد للسكنى ، وتلك المقبرة قداعدت للحياة الأخرى وهكذا .

اما الآثار المسجلة ، فامرها مختلف ، انهامجرد اثر عقلي ونفسي لكاتبها ، او هي بعبارة اخرى تصوير لاثر الاحداث التاريخية فى ذهن هذا الكاتب متأثرة بنفسيته ومزاجه الشخصي ، وهنا مكمن الصعوبة ، فالانسان مخلوق معقد ،ولكل واحد منا مزاج خاص ولكل كاتب انطباع معين عن الحدث الواحد .

ولكي نصل نحن الى الحقيقة التاريخية من الاصل المكتوب ، لا بد ان نتعرف على مختلف العوامل التي دفعت الكاتب الى كتابته ، لا بد ان نتمثل شخصية الكاتب ، وان نضع انفسنا في بيئته وزمانه ، ووسط الظروف التي احاطت به .

هذه هي البداية في عملية نقد الاصل التاريخي ...

وفور وصول الاصل الى يد المؤرخ ينبغي عليه أن يتأكد اولا من كل ما جرى عليه من أحداث : أهو بنفس حالته يوم دون ؟ ألم تتآكل بعض اجزائه ، الم تفقد بعض فقراته ، الم تطمس بعض سطوره ؟ الم تضف اليه فقرات جديدة ؟ ... ذلك كله يعيننا على ترميم الاصل واعادته قبل البدء في نقده ، الى حالته الاولى ...

والنقد نوعان ، هما النقد الخارجي أو الظاهري ، وهدفه دراسة مدى الاصالة في المصادر ؛ والسبيل الى ذلك هو التثبت من صحة الاصل التاريخي ومعرفة نوع الورق المدون عليه الاصل ، واسلوب الخط الذي كتب به ، وكذلك معرفة المؤلف ، ومكان التدوين وزمانه .

ثم النقد الباطني أو الداخلي ، ويهدف الى الوقوف على حقيقة شخصية المؤلف بدراسة حالته النفسية والعقلية اثناء قيامه بالكتابة ، ومحاولة الكشف عن اهدافه من الكتابة ، وهل كان واثقا من صدق ما كتب ؟ وهل كانت لديه الادلة والبراهين الكافية التي تجعله واثقا من هذا الصدق ؟

والاساس الذي ينبني عليه النقد بنوعيه هو الشك فيما ورد في الاصل التاريخي ، ثم الدراسة الواعية المتعمقة لكل ما نقرأ فيه لاستخلاص الحقائق ، وتلك مهمة بالغة العسر ، لأن المرء بطبيعته يميل الى تصديق كل ما يصادف هوى في نفسه ، بينما يميل بنفس الدرجة الى تكذيب كل ما يصطدم برغباته وميوله ، ونحن لا نستطيع أمام هذه الحقيقة أن نأخذ كل ما يصادفنا من مدونات على أنه حقيقة خالصة ، لأن الناس يختلفون في ميولهم ونزعاتهم وأهوائهم وما يعتنقون من قيم .

والنتيجة التي لا شك فيها هي أن المؤرخ لن يستطيع ان يصل الى الحقيقة اذا لم يمارس عملية النقد في كل أصوله ، وقد يتطلب ذلك جهدا ووقتا طويلا ، ولكنه أمر لا مندوحة عنه ، وليس ثمة ما يحمل المؤرخ على العجلة ، ولهذا قلنا فيما سبق انه ينبغي على المؤرخ اذا اراد ان ينتهي الى بحث علمي دقيق ان يختار موضوعا محددا .

وأول خطوات النقد الخارجي هي التثبت من اصالة المصدر وصحته ، لأن التزييف والانتحال شائعان ، ودوافعهما قائمة وكثيرة برغم ان عملية التزييف في المصادر والاصول قد غدت اليوم عسيرة .

وكثيرا ما زيفت الآثار المادية ــ ولا سيما الصغيرة ــ بهدف تحقيق كسب مادي ، وأغلب القائمين بهذه العمليات ممن يعملون في خدمة رجال الآثار اثناء عمليات التنقيب ، وكذلك انتحلت اصول عديدة ، وظل الاعتقاد قائما بانها حقيقية الى درست دراسة علمية دقيقة فثبت انها منتحلة .

وفي كتاب مصطلح التاريخ للاستاذ **الدكتور اسد رستم** (١٦) مثال للمعاناة التي لاقاها حين

---

(١٦) انظر أسد رستم ــ مصطلح التاريخ ــ ص ١٧ ــ ٢٧ .

كلف بفحص احدى الوثائق المكتوبة ـ وكانت عبارةعن رسالة من عهد محمد علي ـ للوقوف على مدى صحتها ، وكيف اضطر الى فحص نـوع الورقالذى دونت عليه الوثيقة وفحص نـوع المداد ، ومقارنتها بمثيلاتها من الوثائق فى اماكن مختلفة ،ودراسة عادات المراسلة والاسلوب واللغة وتاريخ ومكان الكتابة واتفاق ما جاء بها مع الظـروفالتاريخية ، وذلك كله يبين لنا مدى الصعوبة التي يجب على المؤرخ ان يواجهها ويتغلب عليها ليصلالى الحقيقة .

فاذا اطمأن الباحث الى ان الاصـل الذىبين يديه صحيح غير مزيف او منتحل ، فتلك كما ذكرنا هى الخطوة الاولى فقط ، ثم تأتي بعد ذلكخطوات اخـرى لنقد الاصـل بعد ان نبين لنا صدقه ، لأن صدق الاصـل لا يعنى بالضرورةاهمية المعلومات التي وردت به .

لدينا اصول كاملة مستوفاة ، بمعنى انهاتحمل اسـم المؤلف ، ومكان تدوينهـا وزمانه ، ولكن اصولا اخرى تصلنا غير مستوفاة على هذاالنحو ، الامر الذى ينقص دون شك من قيمتها التاريخية . . .

ذلك لأن الباحث لا يستطيع ان يقدر قيمةالاصل الذي بين يديه دون ان يعرف صاحبه ، وبالتالي فانه لن يعرف مدى علاقته بالاحـداثالتي دونها ، فهل يا ترى شهدها بعينيه ؟ ام انه سمعها ثم دونهـا من روايات المشـافهة التىوصلته ؟ ومتى دونها ؟ أوقت وقوعها أم بعده ؟ وما هي المدة التي تفصل بين وقـوع الحـدثوتدوينه ؟ ثم اين تمت عملية التدوين ؟ أفى مكان الاحداث أم فى مكان آخر غير مسرحها ؟

وكل اولئك أمور بالغة الأهمية لا مفر منالوقوف عليها : **فكيف ؟**

ان صاحب المصـدر هو الواسـطه بينناكمؤرخين وبين الحقيقـة التاريخيـة التي نريد الوصول اليها ، فاذا كان رجلا متزنا واهلا للثقة،كانت المعلومات التي نسـتقيها منه أقـرب الى الصحة وأدعى للاطمئنان بصفة عامة ، والعكسصحيح .

من هنا تتضح اهمية الوقـوف على اسـم صاحب الاصل ، لأن القيمة العلمية للاصل ترتبط كل الارتباط بصاحبه ومدى فهمـه للأحداث ،ومدى وقوفـه على الظـروف التي واكبتهـا ، والمعلومات التى يدونهـا أمـير أو حاكم أو زعيم سياسي او قائد عسكرى تختلف اختلافا كبيرا عن تلك التي يدونها عن الحدث نفسه واحد من عامةالشعب ، فالاخير يكتـب متحررا من كل قيد او التزام ، بينما يكتب الأول وهم مقيدون بأغلالمناصبهم راغبين فى تبرير تصرفاتهم ومواقفهم اذا كانوا ضالعين فى الاحداث .

فاذا عجزنا عن معرفة صاحب الاصـلوالوقـوف على اكبـر قـدر من المعلـومات عن شخصيته ، فليس معنى ذلك ان نهمل الاصـلونسـتبعده ، فلعله الوحيـد فى بابه ، وكم من معلومات اسـتقيناها من مصـادر لا نعـرفاصحابها ، وكم من اصل لا يعرف صاحبه .

ولكن واضحا ان وجود اسم شخص علىمصدر او اصل لا يعني بالضرورة انه صاحبه أو حتى صاحب بعضه ، ولذلك ينبغي أن نأخذ جانبالحذر ، ونمضي فى البحث حتى نقف ـ قـدر المستطاع ـ على كاتب الاصل الحقيقي بدراسةنوع الورق والخط والمداد واللغـة والاسـلوب والمصطلحات الواردة فيه ، ثم بدراسة المعلوماتالتى يحتويها دراسة متأنية واعية .

فاذا ضاع عبثا كل جهد بذله الباحث لمعرفة صاحب الاصل ، ووجد نفسه مضطرا الى الاخذ عنه ، فلا بد من أن يشير الى ذلك فى بحثه، وحسبه اجتهاده الصادق فى دراسة المعلومات الواردة فى نطاق العصر .

وكثيرا ما تكون بعض الاصول والوثائق منقولة جزئيا أو كليا عن أصول ووثائق سابقة ، وذلك يستدعي بذل الجهد لتعقب هذه وتلك حتى نصل قد المستطاع الى الأصل الأول .

كذلك قد يكون الأصل التاريخى من عمل اكثر من كاتب واحد ، نتيجة لما أدخل عليه من اضافات وتعليقات فى كثير من المواضع ، فاذا طبع هذا الأصل بعد ذلك بما جد عليه من اضافات وتعليقات ، طبع كأنه من عمل كاتب واحد ، وهنا لا بد أيضا من الاجتهاد لكشف الحقيقة ، ولعلنا نعثر على الأصل المخطوط فنميز المتن عن الاضافات والتعليقات بسهولة تامة ، اما اذا لم نوفق فى العثور عليه ولم نجد أمامنا الا المطبوع ، فليس هناك بد من دراسة اللغة ، والأسلوب لنرى هل هذه وتلك واحدة ، أم هناك اختلاف ، كذلك علينا ان نتبين ان كان الأصل تسوده فكرة واحد وروح واحده أم أن هناك فجوات وتناقضات فى تسلسل الأفكار .

ونأتي بعد ذلك فى عملية النقد الظاهري مشكلة الزمن الذى دون فيه الأصل ، ومدى قربه أو بعده من الزمن الذى وقعت فيه الأحداث المدونة . وتلك مشكلة تختلف عن مشكلتي صدق الأصل ومعرفة صاحبه ، فقد يكون الأصل غير مزيف وغير منتحل ، وقد يكون صاحبه معروفا تماما ومن المشهود لهم بتحرى الدقة وتوخي الحقيقة والبعد عن الهوى ، ومع ذلك فان قيمة الأصل تتضاءل بسبب بعد زمن تدوينه عن الأحداث التى يتناولها ، ففي هذه الحالة سوف يعتمد صاحب الأصل على الروايات التى تحكي له، وحتى لو كان من معاصرى الأحداث ومشاهديها فان ذاكرته قد تخونه فلا تسعفه بدقائق ما وقع ، لان ذاكرة الانسان لا تعي كل شيء ، وهنا لن يستطيع الا أن يجمل ولا يفصل برغم رغبته الشديدة فى قول الصدق واجتهاده فى استرجاع الماضي .

ان صاحب الأصل يريحنا كل الراحة اذا هو دون على أصله تاريخ تدوينه ، ولكن ماذا لو لم يفعل ؟ فعلينا نحن كباحثين أن نحاول تحديد هذا التاريخ تحديدا يكون أقرب ما يكون الى الواقع ، فكيف ؟

فى وسعنا بسهولة ان نضع حدين لبدء كتابة الأصل والانتهاء منها ، لأننا بعد دراسة محتوياته نستطيع أن نحدد التاريخ الذى لا يمكن أن تكون الأحداث قد وقعت قبله ، وكذلك التاريخ الذى لا يمكن ان تكون الأحداث قد وقعت بعده .

وهذا بطبيعة الحال لا يتأتى الا استنادا الى ثقافة واسعة والمام شامل ودقيق بالعصر الذى يتناوله الأصل ، ومن البديهي ان الأصل التاريخي لا يدون الا بعد وقوع آخر حدث ذكر فيه ، غير اننا لا نعرف دائما متى حدث هذا التدوين، أبَعْدَ آخِرِ حدث بزمن طويل أم بزمن قصير ؟ لكننا مع ذلك نستطيع أن نستعين بالصبر والاجتهاد لنحدد تاريخ التدوين تحديدا شبه مضبوط . فاذا كنا حيال أصل من الأصول ، ورأينا صاحبه يهتم اهتماما بالغا باثبات كل الأحداث، كبيرها والصغير، ولا يهمل أبدا واحدا منها مهما صغر شأنه ، ثم رأيناه ينتهي عند حدث بعينه نعرف نحن من دراساتنا واطلاعاتنا الواسعة تاريخه المضبوط ، ثم عرفنا ان حدثا مماثلا فى الأهمية والقيمة قد وقع بعد ذلك بشهر واحد مثلا ، ولكن صاحب الأصل لم يذكره من قريب أو بعيد ولو بمجرد

التلميح ، فاننا نستطيع عندئذ ان نحدد الشهرالذى انتهى فيه صاحب الأصل من كتابته تحديدا مضبوطا ، وهكذا بالنسبة لتاريخ البدء فىالتدوين .

وبعد ، فان عملية النقد الخارجى للأصولالتاريخية عملية شاقة عسيرة تستنفد وقتا طويلا وتتطلب قسطا كبيرا من المثابرة ، ولكنهاعملية ضرورية لا يمكن اغفالها بحال من الأحوال ، وهي السبيل الوحيد للانتهاء الى بحث تاريخىعلمى .

ولننتقل الآن الى النوع الثاني من أنواعالنقد ، واعنى به النقد الباطنى أو النقد الداخلى .

النقد الباطني

وأول ما يقال فى هذا الصدد هو أن النقدالباطنى عملية تستهدف الوصول الى الحقيقة التاريخية من خلال الوثائق والأصول،ونحن نعرفان الأصل التاريخي يصل الينا وقد مر بعدد من العمليات التى لا يوضحها لنا صاحبه، فهو لا يقوللنا كيف لاحظ الوقائع ، ولا كيف جمع معلوماته ، ولا كيف دونها ، وتلك كلها امور تهمنا كل الأهميةولا بد من الوقوف عليها .

والسبيل الى ذلك هو تحليل الوثيقة اوالنص التاريخي تحليلا دقيقا ، والتحليل هو أول عمليات النقد ، ولا يمكن أن يكون هناكنقد بدونتحليل .

ويمكن أن نقول ان عملية التحليل تمربمرحلتين ، المرحلة الاولى نحاول فيها أن نتحقق من معنى الألفاظ وقصد الكاتب ، وذلك نسميه« النقد الباطنى الايجابي » ، والمرحلة الثانية نحاول فيها ان نتبين مدى الصحة فى المعلوماتالمدونة بالنص ، عن طريق تمحيصه واستبعاد الزائف منه ، وذلك نسميه « النقد الباطنيالسلبى » .

النقد الباطني الايجابي

وقارىء النص التاريخي او الوثيقة الذىلا يهتم كثيرا بفهم محتوياته فهما عميقا يعرض نفسه للوقوع فى خطأ فاحش ، وقد يصور بعضهذه المحتويات وفق مزاجه الخاص ، ومن ثم يبعد ـ دون أن يشعر ـ عن الواقع التاريخي ، والسببفى ذلك هو أن الباحث حين يقرأ النص قد يجد فيه بعض العبارات التى تتفق مع آراء مسبقة له فىالموضوع ، وهنا يجد نفسه تلقائيا ميالا الى استخراج هذه العبارات والتركيز عليها تركيزاشديدا حتى ليصبح آخر الأمر امام نص جديد خيالى من وضعه هو ، وذلك أمر بالغ الخطورة .

ولقد يقوم الباحث ببحثه وهو متشبع بفكرة« معينة » من موضوع ما ، أو من اتجاه ما فى النواحي السياسية أو الاقتصادية أو العسكرية أوالدينية ، وتسيطر عليه هذه الفكرة سيطره كاملة فاذا هو يدرس ويكتب تحت تأثيرها فيخرج بحثهترجمة لهواه الشخصي ، لا ترجمة لما جاء فى النصوص والأصول ، لأنه يرفض تلقائيا كل مايتعارض مع الفكرة التى تسلطت عليه ، والنتيجة أن الباحث قد يظن انه يضع تفسيرا جديدا للأصول بينما هو فى الحقيقة يخضعها لفكرته الخاصة .

هذا كله يبعد الباحث من الحقيقة التاريخيةالمنسودة ، ولذلك ينبغى عليه أن يتحرر تماما من كل رأى مسبق يكون قد كونه فى الموضوع،وأن يبدأفى دراسة النصوص والأصول متحررا من كل هوى، وأن يحاول فهمها فهما عميقا يعتمد على ما فيهامن عبارات ، دون أن يضيف شيئا من عنده أو

يحذف شيئا موجودا ، وهذا يصل بنا الى قاعدةعامة فى منهج البحث التاريخي وهــي أن دراسة الأصل ينبغي أن تبدأ بتحليل محتوياته للوصول الى المعنى الذى قصده صاحب الأصل نفسه .

ويحسن ان يجرى الباحث تحليله فى صفحات من حجم الفلسكاب يجعل لكـل منها هامشــين أحدهما يمين الصفحة والتاني يسارها وذلك بثني جانبيها تنيا متوازيا على مسافة معقولة، والا يكتب شيئا فى ظهر الصفحة ، وفى بحر الصفحة يكتب التحليل الذى يهتدى اليه وفى هامشيها يـدون ما يعن له من ملاحظات .

ويشمل التحليل دئما النقاط الآتية :

١ ــ المعنى العام للوبيقة أو الأصل .

٢ ــ مجمل محتويات الوثيفة أو الأصل .

٣ ــ تفصيل هذه المحتويات .

٤ ــ وجهة نظر صاحب الأصل .

٥ ــ رأى الباحث وتعليقاته .

وللوصول الى هذه النقاط نمر بمرحلبين ،فى الأولى نفسر ظاهر الأصل ونحدد معناه الحرفي، وفى الثانية نصل الى معناه الحقيقي وندرك هدف صاحبه .

ونلاحظ ان المرحلة الاولى عملية لغويــة فى جوهرها ، تتطلب من الباحث معرفة اللغــة التى كتب بها النص ، وتستلزم الا نأخذ النص بمفرداته أو بعباراته ، ونحدد معاني هذه وتلك بعيدا عــن السياق العام ، وانما ينبغى ان يتــم التفسير فى نطاق هذا السياق .

أما المرحلة الثانية ، مرحلة الوصــول الى هدف صاحب النص ، فالسبيل اليها هو قراءة ما بين السطور حين يضطر صاحب الاصــل الى عدم الافصاح عما فى ذهنه لسبب من الأسباب ، أو حين يتضمن النص عبارات تتطلب قسطا من المعاناة لتفسيرها .

وحين ينتهي الباحث من ذلك كلــه ، تكون عملية البحث الباطني الايجابي قد تمت ، ويصبح الباحث على بينة من المعلومات التى أوردها صاحب الأصل ، ومن افكاره الخاصــة عن الموضــوعات والأحدث التى تناولها .

النقد الباطني السلبي

رأينا النقد الباطني الايجابي لا يعطينــا ــ كباحثين ــ المعلومات الضرورية عــن الوقائـــع التاريخية فى ذاتها ، انما فقط بمدى فهم صاحب الأصل ونصوره لتلك الأحــداث ، حتى وان كان ممن شهدوا هذه الأحداث بانفسهم .

وفوق ذلك فلعل صاحب الأصل لم يدون كل ما عرفه أو اعتقده ، ولعله يكذب علينا لسبب أو لآخر ، أو ــ اذا نحن أحسنا الظن ــ لعله اعتقد غير الواقع من قبيل الخطأ .

من أجل ذلك كله كثيرا ما نجد الأصــول التاريخة التى تحدثنا عن موضوع واحد ، تختلف عن بعضها اختلافا كبيرا .

وهذا يفضى الى وجوب قيام الباحث بتمحيص ما لديه من أصول تاريخية كى يستبعد منها الزائف او الكاذب حتى يصل الى الحقيقة ، فما السبيل الى ذلك ، ان الشك فى الأقوال المتعارضة والمتضاربة ، والتسليم مقدما بامكان وجود خطأ أو كذب فى الأصل ، هما السبيل الأول الى ما نريد .

والتمحص الدقيق للأصول التاريخية هو النقد الباطني السلبى الذى يهدف الى تصفية المعلومات وغربلتها حتى نستخلص منها الصواب وحده ، وتلك فى حد ذاتها عملية شاقة عسيرة ، لعلها أشق واعسر من عملية النقد الباطني الايجابي .

والنقد الباطني السلبي يؤدى بنا الى قاعدتين هامتين :

القاعدة الأولى هى ان التثبت اليقينى من أية حقيقة تاريخية لا يمكن ان يستند الى الرواية التى يرويها صاحب الأصل ، بوصفه شاهد عيان أو بوصفه معاصرا ، وانما لا بد أن تتوفر لدى الباحث كل الأدلة التى تسلمه الى اليقين .

والقاعدة الثانية هي أن الأصل لا يجوز ان ينقد كوحدة عامة ويكتفي بذلك ، وانما لا بد من أن ينقد كل جزئياته وتفاصيله واحداثه المفردة .

ولا يجوز ابدا ان يخدعنا طابع الصدق الذى قد يبدو فى أصل من الأصول ، فنستند اليه ، ونثق فى صدقه ، لأن طابع الصدق فى بعض الأحيان قد يكون مظهرا خداعا من انسان اعتاد الكذب والتضليل والتلفيق ، فنغتر بالمظهر الذى يخفي وراءه أهدافا هى أبعد ما تكون من الصدق والحقيقة .

ان مهمة النقد الباطني السلبى هى تمحيص الظروف التى واكبت سلسلة العمليات العقلية التى مر بها الأصل حتى دونه صاحبه ووصل الى الباحث ، ولا شك ان معرفتنا بصاحب الأصل يكشف لنا عن بعض هذه الظروف ، لأن نشأة صاحب الأصل وبيئته وعاداته ومستواه ، كلها من الأمور التى تعيننا على الكشف عن دوافع الكذب أو الخطأ او الخداع أو الصدق أو الصواب أو المصارحة عند هذا الكاتب أو ذاك من أصحاب الاصول التاريخية .

فواجبنا اذن ان نتثبت قدر المستطاع من صدق صاحب الأصل وعدالته ، وأن نتثبت من صدق المعلومات التى أوردها ومدى دقتها ، وهل أخطأ صاحب الأصل وخدع بشأنها أم لم يخطىء ولم يخدع (١٧) .

وهناك مسألة تتصل بموضوع النقد الداخلي السلبى اتصالا وثيقا ، وهي علاقة المرجع الثانوى بالأصل .

ان واجب المؤرخ هو الاعتماد أولا على الأصل أو الدليل الأولي ، ونعني بذلك ما قام عليه شاهد عيان ، لكنه قد يعجز ولا يجد هذا الأصل ، فماذا يفعل ؟ عليه ان يلجأ الى أفضل شاهد ثانوى

---

(١٧) Langlois et Seignobos ; op.cit. pp. 166-167.
حيث يجد القارىء مجموعتين من الأسئلة يرى المؤلفان انه لابد للباحث من أن يوجهها لنفسه وان يجيب عنها قدر طاقته ، وان يدرس فى ضوئها الأصل التاريخي كوحدة كما يدرس كل حادث على حدة .

يكون فى متناول يده ، وفى مثل هذه الحالــة فانالمؤرخ يضطر الى اعمال فكره وتأمله وهو يأخذ عن هذا الدليل الثانوى ، واذا كان عليه أن يصدر فىبعض الأحيان احكاما ، فواجبــه ان يتأنى كثيرا ويتمهل كثيرا قبل اصــدارها ، والا يصدرها اذاحصل على أكبر قدر ممكن من الأدلة المقنعة ، لأن اصدار الأحكام دون تثبت واقتناع ينطــوى علىظلم فادح للحقيقة .

وحسبنا أن نذكر فى هذا الصدق قول اللهتعالى : «يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ان تصيبوا قوما بجهالــة فتصبحــوا علىما فعلتم نادمين » .

اثبات الحقائق وترتيبها

تلك هي المرحلة قبل الأخيرة فىمنهج البحثالتاريخي ، وهى مرحلة واسعة تتصل بعملــات كثيرة ، نحاول أن نوجزها فيما يلي :

ذكرنا عند حديثنا عن النقد أننا نصــل عنطريق الممارسة الى المعلومات والآراء التى نريدها لبحثنا ، وهذه المعلومات قد تكون مطابقة للواقعوقد لا تكون .

واذا فان عملية النقد وحدها لا تكفى لاثباتالحقائق وانما هي خطوة فى السبيل اليها ، فما هي الخطوات الأخرى التى ينبغي أن نتخذها لنصــلالى نتائج محددة وحقائق ثابتة نخرج بها من دائرة الشك الى دائرة اليقين ؟

أول ما يقال فى هذا الصدد أن يقوم الباحثبتصنيف النتائج التى أوصلته اليها عمليه النقد ، بمعنى أن يجمع كل المعلومات التى لديه عن حادثواحد الى بعضها ، ثم يقارن بينها ويصل الى رأى نهائي فيها .

ولكننا أحيانا قد لا نجد غير رأى واحــد فىموضوع بعينه ، لأن هذا الموضوع لم يرد الا عــن طريق راو واحد أو مؤرخ واحد ، وفى هذه الحالةينبغي أن ننظــر بعين الشــك والحذر الى تلــك الرواية المفردة ، التى يحسن الا نعدها حقيقــةنهائيــة ، وحسبنــا أن نستعين بها مشيرين الى صاحبها لأنه هو وحده الذى يتحمل مسئوليتها .

أما اذا تعددت الروايات فى حادث واحــد ،وتعارضت بصددها الأصول والمصادر،فانه يتحتم على الباحث ان يتتبع بعض القواعد التى تعينــهعلى الوصول الى الحقيقة التاريخية والخروج بها من بين هذه التناقضات ، ويمكن تلخيص هــذهالقواعد فيما يلي :

١ ــ لا يجوز للباحث أن يقوم بعملية توفيقبين الآراء المتعارضة ، وانما ينبغي السعي للكشف عن الصادق منها ، فاذا فشل فى ذلك فيجب أنيعترف بفشله ولا بد من اثبات الآراء المتعارضــة دون ترجيح واحد منها على الآخر .

٢ ــ اذا اتفقت الآراء فى عدة أصول على رأىبعينه ، وشذ عن هذا الاتفاق رأى واحد مخالف ، فليس معنى ذلك أن الآراء المتفقة هي الأصوب ،وربما يكون العكس هو الصحيح ، والنقد وحده هو الذى يفصل فى الأمر .

٣ ــ اذا أراد الباحث أن يرجــح رأيا علىآخر ، فعليه ان يلجأ الى عملية النقد ، فاذا عجز برغم ذلك ، فعليه ان يمتنع عن اصدار حكم قاطع،وواجبه أن يستمر فى البحث لعله يعثر على أدلة جديدة تنير له الطريق .

الافادة من المصادر والمراجع

تدوين الملاحظات

الواقع أن المهمة التي تثقل كاهل المؤرخ الباحث في بحثه هي نقل الملاحظات من المصادر والمراجع المختلفة ، ولهذا يحسن أن نعرف كيف ندون الملاحظات التي نستمدها من مصادرنا ومراجعنا ، ومتى ينبغي أن ندونها ومتى لا ندونها . . . أعني هل ندون الملاحظة حين يكون ذلك لازما ، موجزه مختصرة ، أم ندونها وافية دون اختزال .

هنالك عدة اعتبارات عامة ينبغي ان نراعيها في هذا الصدد :

أولها : ان المادة التاريخية الواردة في مصدر من المصادر قد تكون من الطرافه بحيث تغري الباحث على نقلها نقلا كاملا برغم عدم ارتباطها ارتباطا وثيقا بموضوع دراسته ، وهذا يؤدي الى ضياع وقت ثمين يمكن ان نفيد منه في تدوين الملاحظات التي تتصل بالموضوع اتصالا مباشرا سواء أكانت طريفه أم غير طريفة . . . واذاً فلا مفر من ان يضع الباحث لنفسه مقاييس دقيقة تبين له مدى ارتباط المادة المنقولة بالموضوع . أعني أن هذه المقاييس تعينه على اختيار ما يدون وما يدع من المصدر أو المرجع .

ثانيها : انه ينبغي الا ندون ملحوظات كاملة وافية لمعلومات عادية أو غير موثوق بها الا اذا أردنا أن ننقدها ونبين وجه الفساد فيها ، وكذلك ينبغي الا ندون ملاحظات عما يسهل تذكره . . . مع التحذير من أن المؤرخ ــ ولاسيما المبتدىء ــ كثيرا ما يحسن الظن في ذاكرته فيعتقد أن ذاكرته تعي الكثير ، ثم يهمل التدوين ، ولكنه لا يلبث بعد ذلك أن يكتشف أنه قد نسي الكثير ، ويبدأ من جديد في انفاق ساعات طويلة ليتذكر شيئا هاما جدا بالنسبة له .

ثالثها : اذا أراد الباحث ان يدون ملاحظات احد المصادر أو المراجع بحرفيتها ، أي يقتبسها اقتباسا كما هي ، فلا بد أن يضع ما اقتبس بين قوسين ، ومثل هذه الملاحظات ينبغي أن تدون في البطاقات بلغتها ، ولا نترجم الا عند تحرير البحث تحريرا نهائيا ، أعني حين يتوفر الوقت الكافي للترجمة الدقيقة ، ثم يردف الترجمة بكلمة (sic) اللاتينيه التي تعني « هكذا في الأصل » واذا اراد الباحث ان يسقط بعض الكلمات من الملحوظة المقتبسة ، فعليه أن يضع بضع نقاط محل كل كلمة ، واذا كانت المادة المراد نقلها طويلة تمتد لبضع صفحات ، فلا بأس من استخدام التصوير بطريقه الميكروفلم .

وحين يدون المؤرخ ملحوظة موجزة (لمجرد التذكير) فانه يكتفي بالاشارة الى مصدرها دون نقلها حرفيا . . . وقد تكون هذه الملحوظة موجزة للغاية اذا كان المصدر أو المرجع ملكا خاصا للباحث ، او اذا كان موجودا بمكتبة يستطيع ان يتردد عليها كثيرا وبسهولة ، وأحسن وسيلة لهذا التدوين الموجز تتم على البطاقات ، فيثبت الباحث اسم المؤلف واسم الكتاب والصفحات التي تعنيه ، وما تضمنه هذه الصفحات ، وذلك كله فيما لا يزيد على سطرين أو ثلاثة . . . وذلك لأن الباحث مطمئن الى وجود المصدر او المرجع تحت يده حينما يريد .

أما اذا كان المصدر أو المرجع صعب المنال لنفاذ طبعته أو عدم السماح باستعارته أو لوجوده في مكتبة نائية ، فيحسن أن نؤخذ منه الملاحظات مفصلة وافية .

وبالتجربة والمران ، ومع الأيام يتعلم الباحث تلقائيا كيف يوفر على نفسه كثيرا من الجهــد والوقت ، من ذلك مثلا أن يشير عند بدء تدوين الملحوظات أو عند الانتهاء من تدوينها الى سبب قيامه بالتدوين . . . وذلك خشية أن يتعذر عليه بعد ذلك تتبع نقطة من نقط بحثه بدت لــه لأول وهلة أنها واضحة تماما ، ثم اذا هذا الوضــوح يزول بعد فترة من الزمن .

وكثيرا ما يحدث ــ حتى بالنسبة للمؤرخين المتمرسين ــ أن يواجه المرء شعورا بالخيبة حين يجد بين يديه ملاحظات بــذل كثيرا من الجهــد والوقت فى تدوينها ، ظنا منه أنها مفيدة لبحثه ، ثم يتكشف الأمر عن عدم جــدواها ، فيســأل الباحث نفسه ، فيم اذن أضعت كل هذا الوقت والجهد ؟؟؟ ولو انه منذ البداية أشــار الى سبب التدوين لما داخله هذا الشعور المرير .

وهناك ملاحظات يدونها الباحث للاستفادة الشخصية ، وهذه لا يستقيها من مصادر وانما تأتيه عفوا ، فقد يحدث بعد عمل مجهد متصل ، وبعد أن يأوى الباحث الى فراشه ، أو حتى وهو على مكتبه ، أن يقترح على نفسه بعض الأسئلة أو الزيادات أو الفروض أو مقارنة مصدر بآخر ، أو يهبط عليه رأي لامع قد يتلاشى مع طلــوع الشمس ، هذه كلها ينبغى أن يدونها فورا على بطاقات ، وتكون منفصلة عن بعضها ، كي يضعها بعد ذلك فى المكان المناسب بين الملحوظات التى استقاها من المصادر .

الملحوظات الخاصة بالمصادر

هناك نوعان من الملحوظات التي ندونهــا لتسجيل أسماء الكتب والمقالات التي تتصــل بموضــوع بحثنا . النــوع الأول يتعلق بالكتب والمقالات التي سوف نرجع اليها مستقبلا ، أما الثاني فخاص بما فرغنــا منه فعلا مــن الكتب والمقالات .

والأول نأخذه مستعينين بمختلف المصادر ، فنحن كلما قرأنا مصدرا أشار الى عناوين مصادر أخرى ومقالات كثيرة استقى منها معلوماته ، أوناقش ما فيها من معلومات . . . وفى هذه الحالة نجد بين أيدينا المعلومات التي تمكننا كباحثين من تشخيص نقط البحث والتثبت منها ، ومن ثم فلا داعي لأخذ ملحوظة طويلة عن العنوان ، الذى ربما ثبت لنا بعد فحصه أن قيمته تافهه ضئيلة . . أما اذا نحن فحصنا المصدر أو المرجع أو المقال فحصا دقيقا وتبين لنا قيمته وفائدته ، فمن الأفضل ان ندون ملحوظة مطولة تتضمن كــل المعلومات التي نحتاج اليها فى كتابة هامش واضح ، أو فى كتابة عرض تحليلي للمصدر .

وهذه الملحوظات سواء أكانت من النــوع الأول أو من النوع الثاني لها أهميتها الكبرى حين نكتب الفصل الخاص بالمصادر والمراجع وترتيبها .

ويجب أن تكتب الملاحظات الخاصة بالمصادر على بطاقات مساحتها ٥ × ٣ سم ، لأن هذه البطاقات سهلة التداول ، ولأن الملحوظة المصدرية ــ أعنى التى تتضمن اسم المصدر ــ لن تزيد عما تتسع له بطاقة بهذه المساحة ، ثم بعد ذلك نرتب هذه البطاقات ترتيبا أبجديا فى ملف خاص ، ثم نضعها فى صندوق مقاسه ٣ × ٥ سم أيضا ، وكلما انتهينا من دراسة احد المصادر ، ننقل البطاقــة مــن المجموعــة الموضــوعة فى صــندوق « مصــادر للمراجعة » الى صندوق «مصادر روجعت فعلا» .

الملاحظات الخاصة بالمادة المنقولة من المصادروالمراجع

هذه لا تدون على بطاقات من النوع السابق،لأنها تكون صغيرة جدا وسميكة أيضا فضلا عن ثمنها الباهظ ، والأفضل أن نستخدم وريقات جيدة لا تشغل حيزا كبيرا ، ويمكن تداولها ونقلها من مكان الى آخر دون تعريضها للتلف . . . كذلك ينبغى أن تكون البطاقة هنا ذات اتساع معقول بحيث يمكن استخدامها فى أية مكتبة يعكف فيها الباحث على بحثه .

وافضل نوع هو المعتدل السمك بمساحة لا تزيد على ٨×٥ سم فمثل هذه البطاقة تكون عادة كافية لتدوين الملاحظة اذا ما استخدم وجهاها .

ولا ينبغى أن نضع الملحوظة الواحدة فى أكثر من بطاقة حتى لا نضطر الى استخدام المشابك والدبابيس المعدنية ، لأن هذه مزعجة حقا ، قد تمزق البطاقات وتسبب تشابكها فى بعضها .

وينبغى ايضا أن ننظم البطاقات فى صفوف ،وعليها السنة تكتب عليها العناوين .

والترتيب المفضل عادة هو الترتيب الزمني فى المراحل المبكرة من البحث والاستقصاء ، ولا بأس من التزام هذا الترتيب اذا كان البحث سيخرج آخر الأمر فى شكل متسلسل زمنيا .

هذا ولا شك أن الترتيب الزمني يسهل على الباحث مشكلة ضبط المصادر ومقارنتها ببعضها ، خصوصا حين تكون نفس الملحوظة متصلة بأكثر من مكان واحد فى سياق البحث ، فمن اليسير عندئذ أن نضع الملحوظة تحت أول تاريخ يتصل بها ، ثم ضبط بعد ذلك فى سياق البحث منسوبة دائما الى ذلك التاريخ .

ومما لاشك فيه أن مشكلة ضبط المصادر ومقارنتها تزداد صعوبة اذا رتبت المصادر حسب الموضوع ، لأن الموضوعات دائما تتغير أثناء عملية البحث والاستقصاء ، مع أن الترتيب حسب الموضوعات يكون أجدى وافضل اذا قررنا أن يخرج بحثنا فى شكل جدلي .

والترتيب حسب الموضوعات يكون عادة تابعا للأشخاص الذين يتناولهم البحث او الجماعات او المجموعات البشرية . . . الخ ، ثم ان الموضوعات بدورها قد تأتي الى حد ما مرتبطة ارتباطا زمنيا ، وهذا الأمر يصدق بصفة خاصة حين تكون دراستنا متصلة بالتطور فى مجتمع أو فى منطقة لفترة زمنية محددة .

والمسألة آخر الأمر متروكة لاختيار صاحب البحث متعاونا مع المشرف عليه اذا كان طالب دراسة عليا .

على أن الملاحظ أن الترتيب الموضوعي يعين صاحب البحث على التغلب على الصعوبات الزمنية (التاريخية) وعلى التكرار وعدم التماسك الذى يفقد البحث وحدته الموضوعية ويجعله أقرب الى مجموعة من الدراسات المتراصة .

تقييم الكتابة التاريخية

يجد المؤرخ نفسه فى أوقات الأزمات القومية كتلك التي يمر بها العرب الآن ، أو فى فترات التكييف التي تعقب الحروب ، يجد نفسه مدفوعا الى ادخال العاطفة كعنصر أساسي فى قصة تقدم بلاده وأمجادها ، ولقد يتناسى الحقيقة جزئيا اذا دعت الضرورة القومية الى ذلك . . . والهدف من

ذلك هو عادة تنشئة مواطنين مخلصين اذا كانت قصة تاريخ الوطن مـن الفصص التي يستطيع المواطن أن يفخر بها ... وهـذه نزعة يؤيدهـا ويشجعها الدكتاتوريون والسطحيون من رجال السياسة فى البلاد الديموقراطية ، لأنهم ينظرون الى التاريخ لا بوصفه نوعا من أنواع المعرفة لهـا منهجها الخاص ، بل على انه وسيلة لاذكاء الروح الوطنية واشعال الحماس القومى .

ولهذا ينبغى دائما أن تظل الوطنيـة ــ كمعيار لتقدير الكتابات التاريخية ــ موضع شك القارىء الناقد .

ولما كانت هنـاك طـرق مختلفـة لعرض الحقائق التاريخية ، فان الحقيقة لا تظل وحدها أساس حكمنا على الكتابة التاريخيـة ، وانمـا يشترك معها ــ كمعيار لهذا الحكم ــ عامل آخر هو ما تنطوى عليه هذه الكتابة من فلسفة نابعة من بصيرة الكاتب ، ذلك أن المؤرخ لا يستطيع أن يتجنب فلسفة ما فى كتابته ، ومن الخير أن يتبنى تلك الفلسفة بصراحة تامة ... يجب عليه أن يفصح عن ذاته خلال تلك الفلسفة ، فيبين ما اذا كان رجلا مثاليا أو ماديا ، محافظـا أو حـرا ، شكاكا أو مؤمنا ، الى غير ذلـك مـن الأقيسـة والمبادىء ، والواقع ان المؤرخ الذى ليست لديه مبادىء فلسفية أو أخلاقية لا تكون لديه أسس يقيس بها التغيير أو الاستمرار ، ومن ثم يعجز عن الحكم على عمليات التطـور أو الظهـور أو السقوط أو النمو أو الانحلال ... وبدون مثل هذه الأحكام ينعدم جوهر التاريخ .

ونحن نلاحظ أن المؤرخين القدامى والمحدثين على السواء قد تبنوا لأنفسهم فلسفات معينة ، فقـد كتـب **ثوكيديديس وتاكيتوس وفولتـير وجيبون وماكولى** من أجل هدف محدد ، وبمقاييس محددة للأحكام ، ونحن لا نستطيع أن نقدر قيمة مقاييسهم الا اذا كانت لنا مقاييسنا الخاصـة بنا ... ان المؤرخ منا يحتاج دون شك الى بعض القواعد الفلسفية والأخلاقية لا ليضـع تاريخـا وحسب ، وانما أيضا ليستطيع أن يحكم فى فطنة وذكاء على كتابات غيره من المؤرخين .

ومسألة أخرى فى تقييم الكتابة التاريخية ، وأعنى بها الأسلوب الأدبي ، فلا بد للمؤرخ من أن يخرج كتابته فى أسلوب أدبي ممتاز ، ذلك لأن بلادة الأسلوب وانعدام الطلاوة فيه ، قد تؤدى الى الوقوع فى الخطأ وتشويه المضمون التاريخى المستهدف .

والمؤرخ الذى يكتب تاريخا لا يلذ للقارىء ، يعتبر مؤرخا رديئا باعثا على الملل ، وهو مسئول دون شك عن عمليات بعث الماضي فى اطاره وجوه الذى اكتنفه ، واذا فشل فى ذلـك فانـه يعتبر مؤرخا فاشلا مضجرا وباعثا على الملل بل وعلى كراهية التاريخ .

ومع ذلك فنحن نعترف بأن التزام الدقـة التاريخية واتبـاع قوانين المنهج التاريخي قـد يحدان كثيرا من سيولة القلم الموهوب ... ولكن نقاد الأسـاليب التي يتبعهـا المؤرخ الاكاديمى يدركون ذلك ، ولا ينتظرون منه أن يكتب كمـا يكتب الأدباء المحترفون ، وكل ما يطلبونه منـه هو أن يكتب ببسـاطة فى أسلوب سـهل ممتنع متجنبا الشرود والابهام بالمعرفة .

ومشكلة الاسلوب آخر الأمر يمكن أن تحل ــ ولو جزئيا ــ بشيء مـن التعاون ، فبوسـع المؤرخ بعد أن يفرغ من كتابة بحثه معتمدا على المادة التى استقاها من مصادرها ، بوسعه ان يدفع بهذا البحث الى زميل أو صـديق يتمتع بأسلوب أدبي رفيع ليعيد له صياغة ما كتب ، ولا عيب فى ذلك على الاطلاق ، شريطة الا يكون هذا الأديب ممن يؤثرون الأسلوب الجذاب على الحقيقة التاريخية .

الهوامش

للهوامش فائدة كبرى فى الكتابة التاريخية ،ولعلها اداة الحكم على أصالة هذه الكتابة وجدواها ، ولهذا يعتبر المؤرخ الذى يهملها أويتخلى عنها تماما فى اى مؤلف يضعه ، كأنما تخلى عن اهم وسيلة يستطيع بها غيره أن يفحصما وصل اليه من نتائج ، والملحوظة الهامشية هى التي تهيء للقارىء فرصة الاستدلال علىصدق المؤلف ، كما تهيء له فى نفس الوقت فرصة الحصول على مزيد من المعلومات التى قد تستهويهأو تهمه أهمية مباشرة .

وأهم سبب يدعو المؤرخ الى التهميش فىكتابته أو حين عرضه لنص من النصوص ، هو الاشارة الى النصوص التي استمد منها هذهالعبارة أو تلك ، وهكذا تصبح الملحوظة الهامشية شاهدا على الكاتب ، ومن الخير أن تكون فى هذهالحالة موجزة ... فاذا كان هناك تضارب فى المصادر التي يستعين بها المؤرخ فانه يجد نفسهمضطرا الى الاطالة فى الملحوظة الهامشية ، حيث يشير فيها الى مختلف الآراء ، ويحاول أن يحسممادة الخلاف برأى من عنده .

وأحيانا تكون الملحوظة الهامشية متضمنةلاقتباسات حرفية توضع بين أقواس ، وتلك طريقة مفيدة جدا للقارىء المهتم الذى يستطيعحينذاك أن يقارن بين ما جاء فى عدة مصادر دون الرجوع الى هذه المصادر ذاتها .

على أننا نحذر فى هذا الصدد من التعسفوالتحذلق عند تدوين الملحوظات الهامشية ، كتلك التي يريد المؤلف من ورائها أن يبين للناس وفرةمصادره ، وسعة اطلاعه باللغات الأجنبية ، أو تلك التى يحشرها حشرا نتيجة لمعلومات جديدةصادفته بعد أن فرغ من كتابة بحثه ولم يعد قادرا على ادماجها فى المتن ادماجا سلسا .

وينبغى أيضا أن ننبه الى وجوب اتباعالاختصارات العالمية التي يستخدمها الكتاب فى كل أنحاء الأرض مع ملاحظة أن يدون اسم المصدرأو المرجع بالأحرف المائلة ، والا فيمد من تحته خطا ، وبالنسبة لأسماء المجلات العلمية ينبغىاتباع الاختصارات الدولية أيضا . وهذه الاختصارات مدونة فى معظم المراجع . وتكتبالهوامش فى أسفل الصفحات أو فى نهاية الفصل أو فى نهاية الكتاب ، والطريقة السليمة هي انيكتب أولا اسم المؤلف (اللقب أولا ثم الاسم الأول (أو الحرف الأول منه) ثم بعد ذلك اسم الكتاببحروف مائلة ، ثم رقم المجلد اذا كان الكتاب متعدد المجلدات ، ثم رقم الصفحة أو الصفحات .

وحين يكون الكتاب نادر الوجود ، فيحسنذكر مكان وجوده ورقمه ، وكذلك اذا كان المصدر الذى اعتمد عليه الباحث وثيقة مخطوطة ،فينبغى ذكر الأرشيف أو المكتبة التي توجد بها هذه الوثيقة ورقم المجلد ورقم الملف ورقم الورقةأو الصفحة وتاريخ الوثيقة ومكان تدوينها وعمن صدرت والى من ارسلت ، وبيان ما اذا كانتورقة رسمية أو غير رسمية أو مسودة .

وحين نورد فى الهامش نصا مقتبسا فينبغىكما ذكرنا ان نضعه بين قوسين ، ولا بد أيضا ان نورده بلغته الأصلية دون ترجمة ، لأن هذهقد تغير المعنى .

وأحيانا يرى الباحث ان يكون الهامش مكانمناقشة او نقد نص من النصوص ، أو نقد رأى عدة مؤلفين فى موضوع ما ، او التوفيق بين عـدةآراء متناقضة فى حادث معا . . . ولا بأس من ذلك كله على أن يورد الباحث فى المتن ذاته الرأى الذىيرجحه هو مع الأدلة التى استند اليها فى هـذا الترجيح ، ثم يقتصر فى الهامش على عرض الآراءالمتناقضة وأدلتها ، ويناقشها بعد ذلك .

على أننا نقول انه ليس هناك رأى قاطعأو اصطلاح عام فيما يجب أن يكون مكانه الهامش وما يجب أن يكون مكانه المتن ، والمسألة فى النهايةمتروكة لتقدير الباحث نفسه .

الملاحـق

بعد ذلك تأتى ملاحق البحث ، وهي التييقدم فيها الباحث بعض الأصول التي اعتمد عليها أو مختارات منها ، وهي عادة مراسلات سياسيةمن سفراء لحكوماتهم وبالعكس ، أو معاهـدات مختلفة الطابع ، او وصف لشاهد عيان عن حادثمعين .

ومن الخير نشر هذه الاصول بلغاتها الأصليةمع شرح الفاظها الغريبة وتصحيح ما قد يكون بها من اخطاء مع التعليق اللازم .

وفى النهاية يثبت الباحث أسماء الاصـولوالمراجع التى اعتمد عليها ، وقد يعقد لها فصلا كاملا يناقش فيه كل مرجع ومصدر مناقشـةمعقولة ، وينبغى ان تكون هذه وتلك مرتبة ترتيبا أبجديا حسب اسم أصحابها ، ومن الواجب أيضاتصنيفها وفق القاعدة المتبعة ، فأولا المصـادر بأنواعها ثم المراجع ثم الدوريات ، وينتهى الحديثعن كل مصـدر ومرجع ببيان عـن مكانه ورقمه وتاريخه وعدد مجلداته . . . ولا يخفي أن هـذاالجزء من البحث يعتبر جوهريا وأساسيا ، فهو دليل على الجهد الذى بذله الباحث ، كما انـهيعين الباحثين من بعده .

مشكلة التعليل

يحـاول المؤرخ دائمـا معرفـة الأسـبابوالدوافع التي ادت الى الحقـائق التاريخية ، اعني انه يحاول ان يرد كل معلول الى علته ، وهذهالعملية بالذات هي التي تضفى على الدراسات التاريخية كثيرا مـن المتعة ، وبسـط الحقيقةمجردة لا يمكن أن يكفى القارىء ويقنعه ، وانمـا الذى يقنعه أن يجد سبب هذه الحقيقة مبسوطاأمامه فى وضوح ، فيعرف مثلا لماذا ازدهرت أمة من الأمم ولماذا انحلت وتدهورت ، ولماذا تفوقتحضارة من الحضارات ثم لماذا هبطت وسقطت ، ولماذا كسب أحد القادة معركة من المعارك ثم لماذاخسر معركة أخرى وهكذا .

وقد ذكرنا أن بعض المؤرخـين يحـاولونارجاع سبب كل حدث من الأحداث التاريخية الى الارادة الالهية ، الارادة العلوية التي تسيطرعلى كل شيء وتوجه كل شيء نحو هدف محدد لا يدركه البشر ، وذلك تسليم بالالهيات يخـرجعن دائرة البحث العلمي المرتجى من المؤرخين كما أوضحنا من قبل .

وثمة فريق آخر يحاول أن يرد الأحداثالى علل عقلية أو كما يقول الفلاسفة الى أصل

ميتافيزيفي ، ويمثل هذا الاتجـاه الفيلســوف الالمانى **هيجل** (١٨) وتلامذته الذين كان **مومسن**(١٩) **وميشليه** (٢٠) من أبرزهم ، وخلاصــة رأيهم فى التعليل أن كل حادث تاريخي هو فى نفس الوقت حادث عقلي ، يقع وفقا لمنطق عام ثابت ، وان لكل حـادث مبرراته ودوره فى تقـدم المجتمع البشرى ... فملا النظم بأشكالها حادث عقلي وجد لفائدة المجتمع وتلبية حاجاته ، ولو لم تكن هناك تلك النظم ، لما تمت المجتمعات ولا تطورت .

ولكننا لا نستطيع أن نخرج من هذا المذهب فى التعليل بقاعدة ثابتة ، لأن حوادث التاريخ لم تقع دائما بطريقة عقلية منطقية ، ولم تكن دائما محققة لفائدة المجتمع البشرى .

وتطبيقا لهذا المذهب ، نشر **ميشليه** — فى فرنسا — النظرية الهيجيلية المعروفـة بنظريـة « الصور » ، والتي عرفت فى المانيا باسم « الرسالة التاريخية » للأفراد والمجتمعات ، وخلاصتهـا أن المجتمع فى تقدم مطرد بفضل أدوار متتابعـة يقوم بها الأفراد والجماعات ، لكن هذه النظرية لا تطابق الواقع تماما ، فالمجتمع البشرى فى تغير وتطور وتحول مستمر بصورة عامة ، لكن ذلـك لا يؤدى دائما الى التقدم ، فأحيانا بل كثيرا تأتي فترات انحلال وهبـوط بعد فتـرات التقـدم والازدهار ، وبالتالي فنحن لا نستطيع تطبيقا لهذه النظرية الهيجيلية — أن نخرج بأسباب ثابتـة تؤدى حتما الى نتائج معينة .

وفريق آخر من المؤرخين حاول أن يعرف أسباب الأحداث التاريخية عـن طريق مقارنـة مجموعات من الحقائق ، بهدف الوقوف على نوع الحوادث التي تقع فى وقت واحد ، فى أماكـن متباينة ، فيدرس الباحث مثلا جانبا من تاريخ النظم أو تاريخ العقائد ، ثم يقارن بين أوجـه تطورها فى عدة مجتمعات لكي يحدد اتجاه تطورها العام بقصد معرفة السبب المشترك الذى أدى الى ذلك التطور ... وكانت نتيجة هذا المذهب أن ظهرت أنواع من الدراسات التاريخية المقارنة كدراسة فقه اللغة المقارن ، والقـانون المقـارن والنظم المقارنة ... الخ ، وهذه الطريقة بدورها لا تؤدى دائما الى معرفة الأسـباب الحقيقيـة للحوادث لأنها قد تنطبق على حالات مفردة ، أو قد تتشابه ظاهريا ، خصـوصا وأن الحـالات لا يمكن أن تتشابه تشابها مطلقا ، ولا بد مـن تفاوت واختلاف ولو قليل ... كذلـك قـد لا يستطيع الباحث ان يحيط بكل الظروف التي اكتنفت الاحداث موضع المقارنة .

---

(١٨) George Wilhelm Freidrich Hegel (١٧٧٠ — ١٨٣١) فيلسوف الماني ، ولد فى شتوتجارت ، وكان من انصار حرية الفكر ، درس المسيحية الاولى وذهب الى ان المسيح ابن لمريم ويوسف النجار ... اشتغل بالتدريس فى كثير من جامعات المانيا ومن اهم مؤلفاته « اصول القانون وفلسـفة الدين وعلم المنطق وفلسفة التاريخ » ورأيه ان التاريخ هو تاريخ الفكر الانساني ، وقد قسمه الى مراحـل ثلاثـة : الشرقية والكلاسيكية والجرمانيـة ، ولكل مرحلة رسـالة تؤديها .

(١٩) Theodor Momsen (١٨١٧ — ١٩٠٣) مؤرخ الماني ، ولد فى شلزويج ، درس فى المانيـا وايطاليا ، ومارس التعليم فى ليبزج ثم رحل من المانيـا لأنـه كان من مؤيدى الملكيه ، عاش فترة فى سويسرا ثم عاد الى برلين ، ومن اهم آثاره — تاريخ روما والقانون الدستورى الروماني — امتاز بدقة كبيرة فى البحث والاستنتاج وفى تتبع آثار الفكر الانساني على الحياة السياسية والاجتماعية ، حصل على جائزة نوبل سنة ١٩٠٢ .

(٢٠) جول ميشليه Jules Michlet (١٧٩٨ — ١٨٧٤) مؤرخ فرنسي ، كان استاذا للتاريـخ فى الكوليج دى فرانس ، الف تاريخ الثورة الفرنسية ، ولم يكن محايدا فى كتابته ، وقد كانت آراؤه الحرة المتطرفة سـببا فى تعطيل محاضراته بعض الوقت .

وقد يستطيع الباحث أن يصل الى ما يمكن اعتباره قوانين تجريبية تقع بمقتضاها حوادث متتابعة ؛ بيد أن هذه القوانين لا تفسر دائما سبب وقوع هذه الحوادث تفسيرا مقنعا صحيحا ... ذلك أننا نعرف أن الأحداث التاريخية هي آخر الأمر أحداث انسانية ، ومن ثم فانه فى حقائق التاريخ ــ بعكس حقائق العلوم الطبيعية ــ قد تتضافر عدة أسباب للوصول الى نتيجة ما ... لكن نفس هذه الأسباب قد لا تؤدى الى نفس النتيجة فى ظروف أخرى ... كذلك فان سببا ما قد يؤدى الى نتيجة ما فى مكان ما ثم يؤدى هو بعينه الى نتيجة اخرى فى مكان آخر ، والسبب فى ذلك كله هو تدخل العامل البشرى .

ولقد يضع الباحث فروضا يراها متمشية مع الحقائق التي نعرض له فى سياق التاريخ ، ثم يحاول أن يعلل هذه الفروض واحدا بعد الآخر حتى يصل الى النتيجة التي ترضيه وتقنع قارئه، لكن ينبغي هنا أن يبتعد بنفسه عن الالتزام بنظرية محددة ، ويقوم بعملية التعليل على أساسها ، كما يفعل أحيانا بعض المتحمسين لفكرة سياسية بعينها أو لمذهب اقتصادى أو ديني معين ، وبالتالي فانه يصل الى علل لا تعبر عن الاسباب الفعلية للحقائق وانما تعبر عن لون تفكيره هو .

ومهما يكن من أمر فان اسباب بعض الاحداث التاريخية تكون واضحه لنا فى بعض الاحيان وضوحا كاملا أو جزئيا ، اذ نجدها على هذا النحو أو ذاك فى المصادر التي بين أيدينا ، لكن ينبغى أن ندرك أن الوصول الى الاسباب ليس دائما يسيرا سهلا ، بل انه احيانا تكون عسيرا قريبا من المستحيل بسبب اختلاط الروايات واضطراب الاصول .

اننا اخر الامر نجتهد ، وحسبنا هذا ، ولايتوقع احد من المؤرخ ان يدرك اسرار الوجود كافة ...

الاستدلال والتاريخ

التاريخ دراسة تقوم أولا وقبل كل شيء على الاستدلال ، فما معنى هذه العبارة ؟

الواقع ان التاريخ كغيره من الدراسات العلمية لا يستطيع اصحابه ادعاء صدق ما يكتبون الا اذا استطاعوا تبرير ذلك ...

ولا يمكن أن يعتبر المرء مؤرخا الا اذا ادرك تماما ما يمكن أن تتمخض عنه المادة التاريخية المطروحة امامه من براهين وادلة تفسر الاحداث التاريخية ... فلو فرضنا أن انسانا استطاع أن يحصل على هذا الادراك نفسه عن طريق الذاكرة مثلا ... فان هذا الادراك او هذه المعرفة ليست من قبيل المعرفة التاريخية ، لانها لم تأت عن طريق الاستدلال من مادة تاريخية أعتمد عليها... وهذا الطريق هو وحده الطريق العلمي ، فلو قلت مثلا انني رأيت فلانا منذ اسبوع على ما اذكر ، فتلك عبارة غير تاريخية ؛ ولكن لو اضفت اليها قولي « وذاكرتي فى هذا لا تخونني ولا تخدعني لأنني تسلمت منه هذه الرسالة التي كتبها أمامي » كان ذلك بمثابة دليل استندت اليه لاثبات صدق عبارتي الاولى التي قلتها عن الماضي ... وهنا تصبح العبارة تاريخية لانها تعتمد على الاستدلال ، ولأنها كتبت أو قيلت تبعا لاسلوب او لمنهج البحث العلمي . فالاستدلال اذن هو الاساس فى صياغة التاريخ والاعتماد عليه هو الذى يعطي الباحث صفة المؤرخ .

فما هي أنواع الاستدلال ؟

الواقع أن الصلة التى تربط بين المعرفة وبين الاسس التي تسنند اليها ، نختلف باختلاف فروع هذه المعرفة ... والمناطقة الاغريق هم أول من صنف لنا انواع الاستدلال ، وعلى رأسهم الفيلسوف ارسطو ... لكن التقدم الذى احرزوه فى هذا الميدان كان منحصرا فى العلوم الرياضية ، فلما بدأت العلوم الطبيعية الجديدة ـ التي تقوم على الملاحظة والتجربة ـ تتبلور منذ اواخر العصور الوسطى ، نشأ تدريجيا منطق جديد للاستدلال ، يقوم على تحليل الطريقه المتبعة فى دراسة تلك العلوم الطبيعية الجديدة .

وهناك على كل حال نوعان من الاستدلال ـ الاستدلال الاستنباطي ، والاستدلال الاستقرائي . أما الاول فهو المتبع فى علوم الرياضة البحتة ، وهو وع من الجبرية المنطقية التى تلزم الشخص الذى يضع بعض الافتراضات العلمية ان ينتهي منها الى افتراضات اخرى ما دام قد التزم بالاولى ... والذى يضع هذه الاقتراحات يتمتع بحرية الاختيار بين اتجاهين : اولهما انه لا يلتزم بمقدمة معينة أو افتراض علمي معين يبدأ به ، وثانيهما انه اذا التزم بمقدمة معينة فهو لايزال حراً فى عدم الاسترسال فى التفكير . اما الذي لا يستطيع ان يفعله فهو أن يأتي بمقدمة الاستدلال ثم يسترسل فى التفكير حتى ينتهي الى نتيجة لا تتفق مع ما يجب أن ينتهى اليه القياس من نتيجة علمية .

أما الاستدلال الاستقرائي فليس فيه هذا الاجبار او تلك الجبريه المنطقيه ، لأن جوهر عملية الاستقراء هو اننا نجمع الظواهر التي شاهدناها الى بعضها ، ثم ننتهى منها الى نتيجة معينة ، وبالتالي نستطيع ان نطبق هذه النتيجة فى آفاق غير محدودة .

أى اننا هنا وكما يقول المناطقة ننتقل من المعروف الى غير المعروف أو من الجزئيات الى الكليات .

هذا هو التفكير الاستقرائى ، وجوهره اننا لا نستطرد فيه بحكم الضرورة المنطقية ، ونحن حين نمارسه نكون أحرارا من وجهة النظر المنطقية .

والخطوة الاولى فى النوعين ، الاستنباطي والاستقرائي ، متى كنا بصدد موضوع نريد التدليل على صحته وصدقه ، هي ما اصطلح على تسميته « بالمقدمات » ، والذى يحدث فى الحالين هو ان المقدمات تثبت صحة النتائج .

لكن هناك نقطة خلاف جوهرية ، هي أننا نجد المقدمات فى علوم المنطق والرياضة البحتة تفرض النتيجة فرضا بحيث تبدو شيئا لا محيص عنه ، بينما نجده فى العلوم الطبيعية التي تقوم على الملاحظة والتجربة ، تبرر هذه النتيجة فقط دون ان تفرضها فرضا ، أى أنها تخول الانسان حق الاعتقاد فى صدقها متى أراد ذلك دون أن تكون ضرورية من الوجهة المنطقية... كل ما فى الأمر انها نتيجة مستساغة يمكن الأخذ بها .

وهنا فى هذا المجال حديث ينبغي ان يقال عما يسميه المؤرخون « الشهادة » .

فالتاريخ كبقية الدراسات العلمية ، دراسهمستقله ، بمعنى أن المؤرخ ملزم أن يفكر فى الحل الصحيح لكل مشكله تعترضه عن طريق ابحاثهالعلمية استنادا الى منهج البحث الذى يلتزم به ، ولا يجوز له ان يسمح لأى انسان آخر ان يحملعنه عبء هذا التفكير مهما كان هذا الانسان . . . مؤرخا شهيراً حاذقاً او شاهد عيان أو ثقة منالثقات ولو فعل ذلك لانتفت عنه صفة المؤرخ ، وقيام الفير بهذا التفكير ، ثم قبول المؤرخ المضطلعبالبحث له ، معناه قبول شهادة الفير . . .

وليس معنى ذلك ان نهمل شهادات الفيراطلاقا ، انما الذى نريد تأكيده هو ان قبول هذه الشهادة مشروط بأن تكون مدعمة بأسس تستندإليها وتقوم عليها ، أعني أن الشهادة لا تقبل من كائن أيا كان الا اذا استندت الى دليل .

التحرير أو العرض

تلك هي المرحلة الاخيرة من المنهج التاريخى، وأول ما يقال فيها أنه ينبغي على المؤرخ الذى يهمه رد الفعل لدى قرائه ان يتجنب أفتراضمعرفة واسعة لدى هؤلاء القراء ، وهذه مسألة هامة على وجه التخصيص بالنسبة للمبتدئين فىالتحرير ، ذلك انهم يتصورون عادة ان قارئهم هو فى الغالب استاذ على قدر كبير من المعرفةبموضوعهم . . . وهنا ينبغي على الأستاذ المشرف ان يذكّر تلميذه دائما بالقارىء العادى .

وينبغي على المؤرخ الا يذكر اسم علَم دونأن يقدمه فى اطار معقول من التعريف دون محاولة الاستعلاء على القارىء ، أعني دون محاولةالتحذلق .

كذلك لا يجوز للمؤرخ المبتدىء ان يعمد الىالاقتباس الطويل او الاقتباس الذى تكرر كثيرا ، ومن الخير اذا لم يكن هنالك بد من الاستشهادبنص طويل ، ان يفرد له ملحقا فى آخر البحث ، حيث يستطيع صاحب البحث أن يقدم للنصببضعة أسطر توضح قيمته .

ولا بد ان يذكر المؤرخ المبتدىء أيضا أنالأساليب البيانية المصطنعة لا تساعده على تحسين اسلوبه ، وبحسبه ان يحاول جعلاسلوبه حيا .

وقبل ان يبدأ الطالب المؤرخ فى كتابته ،يجب عليه ان يخطط المقالة او الفصل ، ليعرف بدايته ونهايته ، وما سوف يقول بين البدايةوالنهاية . . . بعد القيام بهذا التخطيط يبدأ الباحث فى الكتابة مستعينا بما لديه من ملحوظاتدونها فى بطاقاته ، ومن كتب ومجلات علمية مما ينبغي ان يكون دائما تحت يده .

وبهذا الاسلوب العلمي ينتهي من المسودةالأولى لبحثه ، والتي قد تبدو وكأنها ملحوظات موضوعة ومصفوفة كقوالب الطابوف ، لا حياةفيها ، ولقد يكتشف الكاتب ان فكرته من اساسها كانت خاطئة ، وان النتائج (التي وصل اليها)لا تنبع من حوادثه . . . وهنا ينبغي عليه أن يبدأ الكتابة من جديد .

وبعد ذلك يعيد الباحث قراءة مسودتهالاولى ليضيف اليها ما قد افلت اثناء التسويد من المعلومات . . وفى هذه المرحلة ــ مرحلة القراءةالثانية ــ يحسن البدء فى تنظيم الهوامش .

وتأتى الخطوة التالية وهي كتابة المسودةالتانية ، وفيها تكون المادة قد استكملت ، والحواشي قد دونت ، ولكن تعوزها سلاسةالأسلوب وحسن الانتقال من نقطة الى أخرى ، والتنظيم بوجه عام ... وربما يبدو فيها بعض التكرار ، ومن ثم يبدأ الباحث فى قراءة هذه المسودة لتنقيتها من تلك المثالب والعيوب ، فيصقل الفقرات ويسلسل الأفكار ، وينتقل من مكان الى مكان ما يقتضي الأمر نقله من عبارات وجمل ، ويحذف ما يراه زائدا من مجازات ومرادفات ، ولا بأس بعد ذلك كله من اعادة النظر فى عنوان البحث .

ويأتي بعد ذلك دور المسودة الثالثة التي لا بد أن تكون على أحسن حال يمكن أن يصل اليه المؤلف الباحث ... وهذه هى التي تقدم للمطبعة .

ولا يغيب عن البال أن كثيرا من الأبحاث يخرج سيئا بسبب عدم التروى ... أعنى بسبب السرعة الكبيرة فى كتابة المسودات .... وفى قلة هذه المسودات نفسها ... وهذه مساوىء يقع فيها المبتدئون بصفة خاصة ، لأنهم يتوقون بتشوق منقطع النظر الى رؤية أول بحث مطبوع لهم ، ولا ينبغي أن ننسى أبدا ان الأشياء الصغيرة هي التي تصنع الكمال ، وأن الكمال نفسه ليس بالشيء الصغير .

بعد هذا الايجاز الشديد الذى التزمناه فى الحديث عن التحرير ، أعنى عن انشاء الصيغة التاريخية ، يحسن أن نتناول بعض نقاط بعينها بشيء من التفصيل :

فحقائق التاريخ متنوعة ومعقدة ولا يمكن أن نعرضها عرضا مركزا كالحقائق الكيميائية أو الفيزائية ، وانما نحن فى حاجة الى أسلوب وصفي نعبر به عن هذه الحقائق وظواهرها المختلفة .

والقاعدة الأولى فى هذا الصدد أن تكون الصيغة التاريخية مختصرة ، وفى نفس الوقت دقيقة ... ولكن الاختصار قد يتعارض أحيانا مع الدقة ، أعنى ان الاختصار حين نلتزمه كقاعدة فى الكتابة التاريخية قد يسبب عدم فهم المراد ... فهل نلجأ فى هذه الحالة الى التطويل ؟ ان التطويل قد يسبب الانتقاص من قيمة الحقائق التاريخية اذ يفرض على القارىء ما هو فى غنى عنه ، وما هو غير ضرورى .

ولهذا فان الطريقة المثلى هي اتباع طريق وسط بين الايجاز والتطويل ، فنضغط الحقائق أولا ، ثم نحذف كل ما نجده غير ضرورى لايضاحها .

ثم ماذا يفعل الباحث المؤرخ لانشاء الصيغة التاريخية التي نعبر بها عن الحقائق الخاصة والحوادث المفردة ؟

فى **الحالة الاولى** ــ اعنى حالة الصياغة المتعلقة بالحقائق العامة ــ يستعين المؤرخ بما وصل اليه أثناء العمل فى بحثه من تعرف على طبيعة هذه الحقائق ومدى انتشارها ، ثم يجمع كل الظواهر المتصلة بها ويركزها وينتظمها فى بنائه التاريخي .

أما فى **الحالة الثانية** ــ اعنى حالة الحقائق الخاصة بعظيم من العظماء ، أو حالة حادثة مفردة ــ فان المؤرخ مسئول حين يحدث الناس عن هذا العظيم أن يبين لهم الظروف التي اكتنفت حياته واثرت فيها ، وكونت له عاداته ، ودفعته الى أعمال وتصرفات بعينها أثرت فى مجرى تاريخ مجتمعه الخاص أو فى المجتمع البشرى كله ، وبتحديد التفاصيل المتعلقة بذلك كله ، وبآراء هذا العظيم ومعلوماته وذوقه وخلقه ، يستطيع الباحث أن ينشىء الصيغة التاريخية المطلوبة .

أما الحادث المفرد فلا بد من تبين طبيعته ومداه وما خلفه من آثار ، ونعنى بطبيعة الحادث المظاهر الخاصة التي تميزه عن الحوادث الأخرى .

وينبغي على الباحث ان يعطى الناحية التاريخية التي يعرضها ، التلوين المناسب الذى يجسمها للقارىء ويجعلها نابضة بالحياة ، وهذا امر لا يمكن أن نضع له قواعد معينة ، وانما هو متروك لذوق الباحث وتقديره .

والصيغة الوصفية التاريخية ليست الهدف النهائي للباحث ، لأنها لا تمدنا الا بالصفات الخاصة بكل مجموعة صغيرة من الحقائق ... وعليه بعد ذلك ان يحدد العلاقات المتبادلة بين الحقائق ، وأن يربط ويقارن بين تلك المجموعات الصغيرة ، وان يحدد مميزاتها ومدى انتشارها واستمرارها وأهميتها .

وكلما مضى الباحث فى هذا العمل تكونت لديه مجموعات أوسع وأعم ، وهنا يستطيع أن يسقط الصفات التفصيلية المتغيرة ، ويستبقي الصفات العامة المشتركة .

ونتيجة ذلك كله هى تركيز الحقائق العديدة ووضعها فى صيغة عامة سواء أكانت هذه الحقائق متعلقة بالدين أم بالسياسة أم باللغة أم بالفن أم بالاقتصاد أم بالاجتماع ... وهكذا يرتب الباحث ما لديه من حقائق ، وتصبح معدة للعرض التاريخي بطريقة توضح مضمونها المشترك .

وحين يأخذ الباحث فى عرض ما انتهى اليه من دراساته ، يلاحظ احيانا ان ما قدمته له الاصول التاريخية لا يكفي لايفاء موضوع بحثه كل حقه ، اعنى ان الحقائق التي استمدها من مصادرها ومراجعها قصرت دون تغطية موضوع البحث تغطية شاملة ... فان الحقائق تكثر احيانا بالنسبة لفترة معينة وموضوع معين ، بينما تندر بالنسبة لفترة اخرى فى نفس الموضوع ، أو لعلها تنعدم تماما ... وتكون النتيجة ان الباحث يجد أمامه فجوات فى السرد المطرد لا يستطيع ان يملأها مستندا الى المصادر والمراجع ، فماذا يفعل ... ؟ هنا لا مفر من محاولة سد هذه الفجوات بالاجتهاد ، اعنى عن طريق العقل والقياس ، وكان علماء المسلمين من أبرز وأفضل من لجأ الى الاجتهاد فى أحكام الشريعة ، ولكن الاجتهاد لا يستخدم اعتباطا ، وانما هناك قواعد ينبغي أن يراعيها الباحث حتى يكون تعرضه للوقوع فى الخطأ اقل ما يمكن ، ويمكن تلخيص هذه القواعد فى النقاط الآتية :

ا ــ لا يجوز للمجتهد ان يسرف فى تحليل الاصول التي بين يديه بحيث يحملها اكثر من محتواها الحقيقي ، الأمر الذى قد يؤدى الى اضافات ليست حقيقية .

٢ ــ لا يجوز الخلط بين الحقائق التي توصل اليها الباحث من وثائقه وتلك التي توصل اليها بالاجتهاد ، بل لا بد من الاشارة الصريحة الى كل ما توصل اليه صاحب البحث باجتهاده وقياساته .

٣ ــ لا يجوز ان يحاول الباحث القيام بعملية قياس الا اذا كان متفرغا لها تماما مركزا ذهنه فيها كل التركيز ، متبعا اصول المناطقة فى الاجتهاد .

٤ ــ النتائج التى يتوصل اليها الباحث عن طريق الاجتهاد ، ويعتقد هو أنها موضع شك ، لا بد من أن يقرر ذلك صراحة لقرائه ، وليس له أن يضعها فى موضع النتائج الثابتة الاكيدة .

والاجتهاد كما هو معروف نوعان : سلبي وايجابي ، فأما السلبي فهو ما يعبر عنه المناطقة بعبارتهم المشهورة « السكوت حجة » والمقصود هو أن سكوت المصادر عن ذكر واقعة أو خبر يؤخذ دليلا على انه لم يحدث ... والا لما سكتت عنه المصادر ... لكن هذا الحكم قد يكون جائرا ، فكم من أصول تاريخية نعرضت للتلف والضياع وكم من أحداث أفلتت من التدوين لشيوعها وذيوعها بحيث يرى الكاتب انه لا داعي لذكرها ... وكم من أحداث اخرى لم تدون لأن السلطات ارادت لها ذلك ، فلم تسجل فى الأوراق الرسمية.

وهكذا لا نستطيع أن نأخذ بعبارة « السكوت حجة » . **أما الاجتهاد الايجابي** فهو الذى يهدف الى استنتاج حقيقة او مجموعة حقائق بمجرد التثبت من وقوع حادثة بعينها ... بمعنى ان يبدأ الباحث بحادث ما اتفقت الاصول على وقوعه، ثم يحاول استنتاج حوادث اخرى لم تذكرها هذه الاصول التي بين يديه ، مستعينا على ذلك بالمقارنة بين حوادث الحاضر وحوادث الماضي ... فما دام هذا الحدث المعين قد وقع ، فهو يستنتج وقوع حادث آخر لترتب هذا على ذلك ، أو لكونهما معا نتيجة لسبب واحد .

وهذا النوع من الاجتهاد ينطبق على الحقائق التاريخية كافة ، فهو يسرى على العادات والتقاليد وعلى عمليات التطور والتغير فى المجتمعات ، وعلى الحوادث الفردية ، وعلى الشئون السياسية والدينية والاقتصادية والأدبية .

وعلى أية حال ، فالاجتهاد كله ــ السلبي منه والايجابى ــ لا يؤدى دائما الى نتائج ثابتة قاطعة ، وانما الى نتائج تقريبية . تلك حقيقة ينبغى الا تنسى .

●●●

خاتمة

وبعد فتلك هي اسس كتابة التاريخ العلمي، وذلك هو المنهج السليم الذى ينبغي أن يتبعه كل من يريد أن يكتب بحثا فى التاريخ تكون له اهميته وقيمته ، أما الكتابات التقليدية التي تكتفي بسرد الاحداث وحسب ، فهذه لا تدخل فى نطاق التاريخ ، وانما هي كما قلنا مجرد قصص قد يتسلى بها الانسان .

ولا بد لكل من يتصدى لكنابة التاريـخ أو بدريسه أن يلم بهذا المنهج وقواعـده الماما تاما دقيقا ، ومدرس التاريخ انما يقوم بمهمة جليلةلأنه بتدرسـه يضع عنصرا جوهـريا من عناصر الثقافة التي ننشدها كل أمة من الأمم لبنيها .

ويحسن ان يكونمدرسالتاريخمتخصصا فىالفرع الذى يقوم بتدريسه ، فلا يدرس التاريخ القديم الا من تخصص فيه ، وكانت دراسـتهالعليا مقصورة عليه ، وكذلك الحال فى بقية فروع التاريخ ، وهذا يصدق بصفة خاصة على مدرسالمرحلة المتوسطه والمرحلة الثانوية وعلى المدرس الجامعي بطبيعة الحال .

وليعلم مدرس التاريخ انه يقوم بتعليم طلابهوطالباته دروسا لها قيمتهـا الكبـرى فى بنائهم العقلى ، وانه ايضا ينمي فيهم ملكـة التنظيم فىالعمل ، ويدربهم على النقد والتحليل ومناقشته الآراء مناقشة منطقية سليمة ، فضلا عما يفوم به من اذكاء الروح الفومية فى نفوسهم ، وتعويدهم الصبر والدأب على البحث والدرس .

ان التاريخ هو الحياة بذاتها ، هو الانسانمنذ وجد على ظهر هـذه الأرض وباشر فوفهـا نشـاطه ، ولهذا فان كتابته هي السجل البشرىالكامل ، ونحن لا نسـتطيع ان نعيش حباتنا مقطوعين عن هذا السجل الحافل .



المصادر والمراجع

حسين محمد احمد : الوثائق التاريخيه . القاهرة ١٩٥٤ .

ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد ولي الدين : المقدمة . القاهرة . ١٩٣٠ .

الدورى ، عبد العزيز : بحث في نشاة علم التاريخ عندالعرب . بيروت ١٩٦٠ .

رستم ، اسد : مصطلح التاريخ . بيروت ١٩٣٩ .

زريق ، قسطنطين : نحن والتاريخ . بيروت ١٩٥٩ .

ابو زيد : حكمت : التاريخ تعليمه وتعلمه حتى نهايةالقرن التاسع عشر . القاهرة ١٩٦١ .

السخاوى ، محمد بن عبد الرحمن شمس الدين : الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ . القاهرة ١٣٤٩ هـ .

شلبي ، احمد : كيف تكتب بحثا او رسالة . القاهرة١٩٥٤ .

صفوت ، محمد مصطفى : التاريخ ، اهميته وطرق‌تدريسه . مستخرج من مجلة العلوم . القاهرة ١٩٤٢ .

لانجلو ، ش . وسينيوبوس ، ش . : المدخل الى الدراسات التاريخية ، ترجمة عبد الرحمن بدوى ضمن كتاب « النقد التاريخي » الذى يتضمن كذلك ترجمة « نقد النص » لبول ماس وترجمة نصوص فلسفية فى التاريخ لكانت وديكارت وبول فاليرى القاهرة ١٩٦٣ .

لوبون جوستاف : فلسفة التاريخ ، ترجمة عادل‌زعيتر . القاهرة ١٩٥٤ .

هرنشو ، ف . ج . : علم التاريخ ، ترجمه وتعليق‌واضافة بقلم عبد الحميد العبادى . القاهرة ١٩٣٨ .

وولش ، و . هـ . : مدخل لفلسفه التاريخ ، ترجمةاحمد حمدى محمود . القاهرة ١٩٦٢ .

Carr, E. H. : What is History. London, 1961.

Clark, G. K. : Guide for Research Student Working on Historical Subjects. Cambridge, 1958.

Collingwood, R. G. : The Idea of History. Oxford, 1946.

Fling, F. M. : The Writing of History, An Introduction to Historical Method. New Haven, Yale University Press, 1926.

Freeman, E. A. ; The Methods of Historical Study. London, 1886.

Garrghan, G. J. : A Guide to Historical Method. Fordham University Press 1951.

Grousset, R. : L'Homme et son Historie. Paris, 1954.

International Bibliography of Historical Sciences, Washington, 1926 . . . .

Langlois, Ch. V. and Seignobos, Ch. : Introduction Aux Etudes Historiques. Paris, 1898.

Oman, Sir Ch. : On the Writing of History. London, 1939.

Pleckhanov, G. V. : The Role of the Individual in History, (Eng. trans.) London, 1941.
The Materialist

Conception of History, (Eng. trans.) London, 1950.

Renier, G. J. : History, Its Purpose and Method. London, 1950.

Rowse, A. L. : The Use of History. London, 1946.

Taylor, H. : History as a Science. London, 1933.

Woods, F. A. : A Statistical Study in History and Psychology. New York, 1906.

★ ★ ★

شاكر مصطفى *

التاريخ هل هو علم ؟

« لأن السماويين لا يقدرون على كل شيء
« اذ لا بد ان يسبقهم القانون الى الهاوية
« هكذا يتغير حال هؤلاء ..
طويل هو الزمان . لكن الواقع يتحقق »

....

« ولهذا كانت قمم الزمان
« متراصة هنا وهناك
« وأحب الاحباب يسكن بعضهم قرب بعض
« منهكين فوق جبال منفصلة
هولدرين
من قصيدتيه (فيموزينة = ذكرى) و (باطموس)

قبيل نشوب الحرب العالمية الثانية بفترة قصيرة ، اشتهر فى الاوساط الثقافية كتاب أعطاه صاحبه **الكسيس كاريل** عنوان : الانســان ذلك المجهول . كان الكتاب محاولة للاحاطة فى نظـرة شاملة بانورامية بما نعرف وما لا نعرف فى العلم والحياة والانسان ، كان جـرد حساب سريع ، وكانت خلاصة الحساب هي العنوان .

---

* الدكتور شاكر مصطفى استاذ التاريخ الاسلامي والعصور الوسطى فى جامعة الكويت . مؤرخ واديب له عدة مؤلفات آخرها دولة بنى العباس كتاب ضخم فى مجلدين .

والآن ، وبعد أكثر من ثلث قرن ، يبدو أن العنوان ما يزال صحيحا . هذا الحيوان العجيب الذى استقام على ساقين ، وحوّل مركز ثقله من وسطه الى ما تحت قدميه ، وتضخمت الفقرة العليا من عموده الفقرى حتى اضحت علبة عظيمة واسعة ، ودماغا متعبا افرز مع الزمن ما يسمى بالحضارة الانسانية . . هذا الحيوان هو فى الواقع النقطة العمياء فى مجموعة المعارف التى يزهو بها هو نفسه . لقد يكون عرف عن الطبيعة الجامدة اشياء . انتصر عليها فى عدد من الميادين ، فيزيائيا ، كيمائيا ، رياضيا ، بيولوجيا ، اخترق الفضاء الى كوكب آخر . . هذه الكتلة من الاخلاط البيو ــ كيماوية التى يكوّن الماء ثلثي تكوينها ، والتى لا يزيد وزنها عما بين ٧٠ ــ ٨٠ كغم فى المتوسط ، ولا طولها عما بين ١٦٠ ــ ١٨٠ سم . . ملكت قدرة عجيبة للقفز فوق الارض وعبر الفضاء بقوى خارقة . . على انها على المستوى نفسه تعقدت داخليا بقدر ما جهلت ذاتها ، اضحك الجهل . . وهكذا لقد نعرف عن الطبيعة الكثير لكن ما ان نصل الى الانسان وعلاقاته الانسانية ، اذن فهى الأدغال المشتبكة ، وهى التيه الاكبر . . من الدهاليز المعتمة ، والأنفاق العجيبة ، والمشاعر الخفية ، والعواطف والارادات والافعال والانهيارات والبنى المستسرة حيث لا ضوء وحيث الف مفاجأة . . فان القى الضوء منهاشيئًا فى الأيدى فكما القى **شعب بوان فى ثياب المتنبى** ذات يوم . . « . . دنانيرا تفر من البنان » .

واذا كان التاريخ احدى الكوى التي طالما حاول الانسان أن يُطِلَّ من خلالها على ذاته ، أعماق ذاته ، فان عفوية هذه « المعرفة » من المعارف الانسانية ، بديهية وجودها تصطدم اليوم مع تعقد الحياة والفكر ــ بألف عقبة . الف ريبة تحوم اليوم كالضباب من حولها ، وبدل ان يتحول التاريخ « علمًا » يحل ــ مع العلوم الاخرى ــ متسكلة « اللغز » الأوديبي الذى هو الانسان ، أصبح هو نفسه مشكلة . . . . قصة الحضار الانسانية رغم كثرة الاضواء التي القيت عليها لم تعمل اكثر من زيادة الادراك لتعقد الحياة الانسانية وتشابك عناصرها الخفية وترامي ابعادها . .

دعونا نسرع أولا فنحدد المقصود من كلمة « **التاريخ** » فقد أصبح مألوفا شائعا التفريق بين التاريخ كمسيرة للانسانية History وبين علم التاريخ ، Historiography كفاعلية فكرية انشائية . ولعلنا نستطيع أن نستعير هنا كلمة سانتيانا التي يقول فيها : « . . بين المعاني الكثيرة التي تعنيها كلمة التاريخ يجب الا نخلط بين معنيين هما : **أولا** : سياق الحوادث كما تقع فعلا ، وثانيا مشهد هذه الاحداث الذى يلتقطه المؤرخ ويضمنه كتابه . والتاريخ فى المعنى الاول دفق هائل وفى الثاني تأليف محدود . . (١) . . ولا نعنينا فى بحثنا هذا المسيرة الانسانية . « هذا الدفق الهائل » من الاحداث والاعمال والافكار الذى ينساب فى استمرار واطراد بدون فترات ولا عصور ولا فصول أو اقسام ، وينساب فى حركة مستمرة لا يحيط بدقائق أحوالها وقوانينها عقل بشرى ، ولا يستطيع التكهن بمسارها اومصيرها ، انما يقع الآن على الطرف الآخر من اهتمامنا الذى يتركز خاصة حول **المعنى الثاني** ، حول « التأريخ » (٢) كفعالية فكرية تتناول ذلك

---

(١) انظر جورج سانتيانا ــ مولد الفكر (بالانجليزية ــ طبع جامعة كولومبيا سنة ١٩٦٨) مترجم للعربية ــ طبع بيروت ص ١١٩ .

(٢) لعلنا نشير بالمناسبة الى ان كلمة تاريخ فى اللغة العربية تاخذ معاني اربعة بل خمسه فقد استعملت فى التراث العربي الاسلامي بمعنى : امجاد القوم وخلاصة شمائلهم فيقال : فلان تاريخ قومه . واستعملت بمعنى تراجم الرجال (بيوجرافيا) ومن ذلك تاريخ البخارى وتاريخ الحنابلة لابن ابي يعلى ، واستعملت بمعنى رواية اخبار الماضي كعناوين : تاريخ الطبرى وابن الاثير والذهبي وغيرهم . وتستعمل اليوم ايضا بمعنى : مسيرة البشر فيقال : جرى ذلك فى التاريخ او فى تاريخ العرب ، كما تستعمل بمعنى كتابة التاريخ ودراسته.

الدفق الهائل نفسه بالتنظيم والدرس والتقسيم والتحليل واستخلاص النتائج .. انما نقصد نحن الى هذا الجهـــد العقلي والعملية الانشـــائية والتكوينات الثقافية المتزايدة السعة التي تمتلىء بها كتب الاطفال الصغار امتلاء اسمار الكبار ، وتثقل رفوف المكتبات كما تثقل جماجم العلماء البيضاء ، وقد تسكر او تعربد أو تهذى على السنة أصحاب العقائد، هذيانها فى منابر المؤتمرات وبين ايدى اللاعبين بمقدرات الناس ومصائرهم على السواء .. وأيا كانت ــ من خلال مختلف الآراء ــ تفسيرات التاريخ وفلسفاته وأهدافه الاخيرة فان ثمة سؤالا مزدوجا يفرض نفسه عند مطلع كل بحث ويقطع الطريق على كل باحث : ترى ما قيمة هذه « المعرفة » الفكرية « كحقيقة موضوعية » من جهة ؟ وما قيمتها « كفاعلية » تخدم الانسان أو تستأثر على الاقل بجانب من جهده الفكرى . من جهة اخرى ؟ ونستطيع ان نضع السؤال المزدوج فى صيغة ثانية اكثر تبسيطا ان قلنا : انه ينتهى الى السؤالين التقليديين هل التاريخ علم ؟ وما هى فائدة هذا العلم ؟ .. وبين هذا وذاك ما مكانه بين العلوم الانسانية الاخرى ؟(*)

هل التاريخ علم ؟

ســؤال ليس بالجديــد . منــذ انتصرت « تفاحة » **نيوتون** ، وشكوكية **ديكارت**، وتجريبية **بيكون** ، وهذا السؤال يلاحق ، كالعواء المزعج، ابراج المؤرخين . يشد ثيابهم ويمزق الكتب .. وبينما لجأ بعضهم مرغمين ، الى قبــة « العلم » الكبرى يحتمون بها ويعلنون حرمة « الوثائق » وعلمية التاريخ على أساس من الآثار ، وموضوعية ما تكشف عنه البقايا الانسانية .. بقي آخرون يجهدون انفســهم لايجاد « الصــيغة » التي يدخلون بها « علم » التاريخ الى حــرم العلــوم ويكرسونه واحدا منها عن طريق التزمت وشــدة التدقيق والتنقير واصطناع الاستقراء والاستنتاج والتحليل ...

وتشـــبهوا ان لم تكونوا متلهـــم
ان التشـــبه بالكـــرام فـــلاح

المشكلة اذن قائمة منذ عهد بعيد ، تاريخها يكشف انها قد اضحت ، على التداول والجذب والدفع ، جزءا من مشــكلة « المعرفة » الكانتية التي تبحث : ضمن اى الشروط تكون « المعرفة » التاريخية ممكنة وصحيحة ؟ انها هي نفســها مشكلة « الحقيقة » فى التاريخ . والى اى مدى يمكن ان ندفع «علميتها» وموضوعيتها؟ وهى لذلك انما تمس مباشرة طبيعة الفكر التاريخي . حتى تداخلت القضية التاريخية والقضية الفلســفية وفتح الباب بين الاولى والاخرى وحتى اضحى التساؤل : ما التاريــخ ؟ يلقينا فجأة فى قلب الفلسفة مرغمين ، وفى قلب المشــكلة الفلسفية للانسان . واذا كانت فلسفة التاريخ تطلــق فى الواقع على مجموعة مزدوجــة من المشــكلات الفلسفية فلها جانبان : تأملي (يتصــل بغايات التاريخ ومعانيه) وتحليلي (يتصل بنوع وقيمة المعرفة فيه) (٣) واذا كان الكثيــر من الباحثين يرفضون الجانب التأملي او يعتبرونه من ميدان الميتافيزيك فكلهم فى الواقــع يقبلون البحث فى الجانب الآخر التحليلي . وبالرغم من أننا لا نرفض الرفض المطلق الجانب الاول ، الا اننا ســوف نقتصر على بحث مشــكلة المعرفة التاريخية من

(*) نتناول فى هذا البحث السؤال الاول فقط على أن ننشرفى عدد قادم بقيته الباقية فى الجواب على السؤالين الآخرين بعنوان التاريخ بين العلوم .

(٣) Marrou : De la Connaissance Historique p. 32.

جانبها الثاني : التحليلي . وبديهي انا لسنا بأول من يفتح ابوابها ، فقد اتعب الكثيرون جباههم في تحليلها ورسم حدودها المتموجة الرواغة . وساءلوا عن « امكان » وجود علم تاريخي يجمع الناس على قبول انتاجه ونتائجه وحدوده . وبأي مقياس تكون موضوعية هذا العلم ؟ وهكذا فان اعدادا من الكتب قد تطوعت لبحث هذه المشكلة منذ القرن الثامن عشر على الاقل . ومن ذلك كتاب **فيكو** : « علم جديد » ، ومحاولة **كانت** : « فكرة التاريخ العالمي » ، و « محاضرات **هيجل** في فلسفة التاريخ » ، وكتاب **هردر** : « افكار » ، وابحاث **انجلز** حول « المادية التاريخية » ، وكتابات زميله **ماركس** حول « تفسير التاريخ » وكتابات **ويلهلم دلتاي** Dilthey منذ سنة ١٨٧٥ حول دراسة التاريخ . . ومعظم هذه الكتابات كان لها المفعول الانفجاري الثوري في الفكر كله ، وبخاصة منها ذلك الخط الممتد من هيجل الى ماركس وانجلز .

وقد اضيف اليها منذ مطلع هذا القرن عدد من الكتب الاخرى حمل في عنوانه المشكلة التي اصبحت تدعى بالفلسفة النقدية للتاريخ . ومن هذه الكتب على سبيل المثال :

- **مشكلة المعرفة التاريخية من تاليف** Mandelbaum **(نيويورك سنة ١٩٣٨)**
- **نظرية وتاريخ التاريخ الذى وضعه** كرونشه B. Croce **(سنة ١٩٣١)**
- **مقدمة لفلسفة التاريخ ـ بحث في الموضوعية التاريخية** لريمون آرون **(١٩٣٨ باريس)**
- **ابعاد الضمير التاريخي لآرون نفسه (باريس سنة ١٩٥٦)**
- **وظيفة القوانين العامة في التاريخ من كتابات** Hempel **(مجلة الفلسفة لندن ـ ١٩٤٢) (وقد أعيد طبعه سنة ١٩٤٩ في كتاب : قراءات في التحليل الفلسفي)** Rea. in Phil. Analy.
- **فقر المذهب التاريخي** Poverty of Historicism **من تاليف** K. R. Ropper **(سنة ١٩٤٥) وهو مترجم للعربية بقلم** عبد الحميد صبرة **(الاسكندرية ١٩٥٩)**
- **فكرة التاريخ :** Idea of His. **من كتابات** Collingwood **نشر سنة ١٩٤٦ .**
- **طبيعة التفسير التاريخي** The Nat. of His. Explanation **من تاليف** P. Gardner **سنة ١٩٥٢**
- **القوانين والتفسير في التاريخ** Laws and Exp. in His. **من وضع** Dray **(سنة ١٩٥٢)**
- The Whig Interpretation of History **من كتابة** H. Butterfield **طبع سنة ١٩٣١ ثم طبع ثانية سنة ١٩٧١**
- **مدخل لفلسفة التاريخ من وضع و . هـ . وولش** W. H. Walsh **وقد ترجم للعربية (ترجمه احمد حمدى محمود ـ ونشر في القاهرة سنة ١٩٦٢)**
- **من المعرفة التاريخية وقد كتبه الباحث الفرنسي** H. I. Marrou **سنة ١٩٥٢ وترجم الى العربية من قبل جمال بدران (القاهرة سنة ١٩٧١) .**

- **كيف نفهم التاريخ : مدخل الى تطبيق المنهج التاريخي من وضع** L. Gottschalk **(نيويورك سنة ١٩٥٠) وقد ترجم الى العربية من قبل عائدة سليمان عارف « طبع بيروت ١٩٦٦ » .**
- **قيمة التاريخ . وضع جوزيف هورس (بالفرنسية) وقد ترجمه الى العربية نسيب الخازن (بيروت ١٩٦٤) .**
- **تطور النظرة الواحدية الى التاريخ وضعه** G. Plekhanov **وترجمه الى العربية محمد مستجير مصطفى (القاهرة سنة ١٩٦٩)**

هذا بالاضافة الى عشرات الابحاث التي نشرت في المؤتمرات والمجلات من مثل :

- **ابحاث** B. De Voto, A. Nevins **بعنوان : ماالمشكلة في التاريخ ؟ في مجلة** SaturdayR. of Lit. **سنة ١٩٣٩ ومجلة** Harpers Mag. **سنة ١٩٣٩ .**
- **بحث** E. W. Strong **بعنوان الواقعة والفهم في التاريخ** Fact and Underst. in His. **في مجلة الفلسفة العدد ٤٤ سنة ١٩٤٧ .**
- **بحث مؤتمر الدراسات الفلسفية المسيحية سنة ١٩٥٣ حول مشكلة التاريخ .**
- **بحث** Pasmore **بعنوان الموضوعية في التاريخ (مجلة الفلسفة نيسان سنة ١٩٥٨) .**
- **بحث** K. Blake **: هل يمكن ان يكون التاريخ موضوعيا ؟ في مجلة** Mind **(كانون الثاني سنة ١٩٥٥) .**
- **وبحث الاستاذ** Dray **بعنوان** Historical Underst. as rethinking **(دورية جامعة تورنتو – كانون الثاني سنة ١٩٥٨)** Toronto Quarterly

والقائمة بعد طويلة طويلة . وهي اوسع من ان يحيط بها الحصر والتعداد .

وليس الالحاح في بحث المشكلة ناجما عن انها ، في الاعماق والجذور الخفية ، جزء من تفكيرنا في مشكلة معنى الوجود او سبب الوجود ومحاولة بالموازبة وعن طريق جمع الاحداث والتجارب وتنامي الخبرات المتطورة للوصول الى « منطق » معين يكشف او يضع الهدف المنطقي للوجود الانساني .. ولكن ذلك الالحاح انما يشتد الآن بقسوة نتيجة مستوى آخر من العوامل الجديدة الملحة التي يمكن ان نسميها « بثورة التاريخ » .

بلى ! هذه الثورة التي حققتها المعارف الانسانية في ربع القرن الأخير ، والتي جاءت للانسان من المعرفة خلال السنوات العشر الاخيرة فقط بأكثر وأوسع مما عرفه خلال تاريخه الاطول كله منذ ثمانية أو عشرة آلاف سنة ، سواء في الكم او في النوع او في التعقيد والتشابك ، هذه الثورة مست بدورها التأريخ بالمعنيين . اكثر بكثير جدا من استيعاب المؤرخين ، هذا الذى ينهال عليهم من المعلومات . واكثر بكثير جدا من قدرتهم على اللحاق به هذا الذى ترمي اليهم به المطابع من الكتب والابعاد والآفاق .. المؤرخون يلهثون اليوم دهشة وعجزاً وفرقاً .. ينوءون او تختنق انفاسهم ، كما اختنق الجاحظ ذات يوم ، تحت أكداس الكتب التي وقعت عليه ! ...

وثورة التاريخ اليوم ، رغم انهـا تجرى فى الصمت الاخرس ، تسـهم فى الانقـلاب الجذرى للفكر الانسانى . انها فاعلة منفعلة ، بهذا الانقلاب فى وقت معا . ابعادها تتناول مادة التاريخ تناولها لمناهجه ومساره فى العمق والشمول . . انه يركض ويركض حتى كأنه أخذ يعيش فى المسـتقبل او يعيش عصر نمو « بالونى » مات فيه الزمن .

فأما فى **المادة** فالتضخم الهـائل الرهيب فى الكمية وعن طريقين فى وقت معا :

ـ طريق زيادة فروع التاريـخ واحتوائها بجانب كل ما كانت تحتوى من قبل ، على تواريخ العلوم والفكر وتواريخ التطـورات الاجتماعية ، وتواريخ الحياة الاقتصادية ، وتواريخ الفنـون والتواريخ المقارنة . . وغيرها . واحمال المعلومات التي تأتي بها الى سوق التاريخ .

ـ وطريق زيادة الشعوب المشاركة فى كتابة التاريخ والاضافة اليه . كان التاريخ من قبـل ملكا للشعوب الحضارية القديمة . حول البحـر المتوسـط ، ثم ملكا للشعوب الغربية . اكثـر من نصف أو ثلثي سكان هذا الكوكب كانوا يعيشون على هامش التاريخ . لا يهتمون به ولا يهتم بهم ، فهم فى العتمة والظلال . يكتب عنهم الآخـرون ما يريدون ومن وجهات نظرهم وهم فى غياب مطلق عما يسطرون .

وفجأة ومنذ عقد وبعض العقد من السنين دخلت ـ وما تزال تدخل ـ تلك الشعوب الغائبة الى حلبة التاريخ . تدخله لا مشاركة فى صنعه فقط ـ كما قد شاركت فيه دوما من قبل ـ ولكن مشاركة ايضا فى كتابته وتصحيح احداثه وتقييم تلك الاحداث وآثارها واضافة الكثـير جدا من الجديد عليه ومن الخطير ايضا . تواريخ شـعوب افريقيا وآسيا وامريكا اللاتينية والكشـوف عن الحضارات المغمورة والمنسية (حضارة خمير ، وانكورفات فى كمبوديا ، وحضارات وادى السند والازتيك والانكا . . الخ) . . تصب الآن ، ولا صبيب الروافد الأمازونيـة على تيـار المـادة التاريخية ، وتقوم من اعماقه ومسيرته وسعته فى الزمان والمكان . . المعطيات الاولى فى التاريخ تبدلت التبدل الجذرى ، الثورة الفرنسية التى كانت تحتل أوسع الصفحات مثـلا فى الكتـب التاريخية عادت الى حجمها الطبيعى التافـه . فضائح تجـارة الرقيق الغربيـة فتحت ملفاتها الواسعة . النهب الاستعمارى الغربي انكشـف كالجرائم النتنة فى تواريخ العشرات من الشعوب . أبعاد حضارات خمير والازتيك والانكا ، وقصص الفتح الاسباني والبرتغالي والانكليزى والهولندى لامريكا وجنوب شرقي آسيا اخذت مكانهـا من ثقافة الناس . تزييف القيم واحتكار الابداع بدأ يتهاوى كالقشور الفارغة أمام العيـون الجديدة المتفتحة للنور بكل مكان . انـه عصر جديد من التاريخ وليست يد واحدة على أى حال ومن جهة واحدة فقط هى التى تسطر سطوره . . . السعة الافقية فى المادة التاريخية اضـحت من الامتداد بحيث شملت اليوم كافة نواحي الحياة الانسانية من جهـة ، وكافة شعوب الارض من جهة اخرى . . . وهات عقولا انسانية ـ الكترونية تستوعب كل اولئك .

اما فى **المنهج** فقد دخل على اساليب التأريخ بدورها مجموعتان مساعدتان :

ـ جاءت من جهة معطيات العلوم والبحوث الجديدة لتفتح فى التاريخ كوى ومسارب ما كان له من قبل ان يطرقها . علم النفس اضاف اليه أشياء ، والبحوث الجنسية (الفرويدية خاصة)

اضافت اليه اشياء اخرى . وبينما اعطته علوم الاقتصاد ابعادا جديدة ، اضافت اليه علـــوم الاجتماع ابعادا اخرى ، وجاءت الاحصاءات ، بل جاءت الرياضيات اليه بأمور وامـــور ، وجاءت الانثروبولوجيا فى الوقت نفسه بمثلها وبأكثـر منهـــا .

ــ وجاءت من جهة اخرى طرق الاحصـــاء الرياضية وتطبيقاتها ، ودخلت العقول الالكترونية لخزن وفرز ومقارنة المعلومات وادوات التحليل الطيفى والكيماوى فى الوثائق والآثار . وادوات التنقيب الجيوفيزيائي فى الاراضي التاريخية .(وهي ادوات كهربائيـــة ، وكهرومغناطيســـية) وتصوير أعماق التربة . وكان استخدام هذه او تلك من مبتكرات العلوم ، مدهش النتائج فى كثير من الاحيان .

وأفاد التاريخ فى الحالين من معطيات العلوم الاخرى ، ومن المبتكرات التكنية للعلم الحديث ، فاذا مناهجه تتنوع من جهة وتتعقد من جهـــة اخرى ، واذا هو على الطريق نحو اساليب جديدة يأمل ان يستطيع معها احتضـــان تلك المتحولات المتشابكة العديدة ، التي لا بد من حساب اثرها فى توجيه التاريخ وصنعه . ديناميكية التطـور المتحول باستمرار لم تعد تخيف المؤرخين كثيرا وتقطع انفاسهم لهاثا ويأسا .

واما فى **الاتجاه والشمول** : فقد اخذ التاريخ طريقه سربا فى العمق التساقولى فى اتجاهين ايضا، وايضا :

ــ صار يهتم بالشعوب لا الافراد . بالكتل الجماهيرية والقواعد الشعبية الواسعة لا القمم والملوك . كان فى القديم ملكيّ القاعدة يدور حول العروش ، ويمسح اعتابها ثم اضحى فى القرنين الاخيرين بورجـــوازى المنطلق ، وقد تحول الآن فصـــار بالضرورة شـــعبيا . اهتماماته ضربت الجذور فى الجموع الواسعة التي تصنع فى الصمت التاريخ الحقيقي . دخل عليه أخـــيرا ما سماه **(لين وايت)** بحق « ما تحت التاريخ » أى اخبار الطبقات الدنيا المسحوقة التي كانت وما تزال تشكل تسعة اعشار البشر .

ــ وصار التاريـــخ من جهـــة ثانيـــة يهتم بالعوامل والتيارات التحتية والخفية . الماركسية والفرويديـــة والدوركهايمية دفعتـــه دفعـــا الى الغـــوص وراء الجذور الاقتصـــادية للاحداث ، واخذ النوازع الجنســـية واللاشـــعورية بعين الاعتبار ، وادخال هزات المجتمع وعقائده ، وقوى تقاليده ونفسيات جموعه فى الميـــزان .. صـــار « الحادث » التاريخي مركبا لا كيماويا فيزيائيا رياضيا فقـــط ولكن بيولوجيا ــ سوسيولوجيا وغريزيا ايضا .. بالاضافة الى انه لم يعد ذلك « الحـــادث » الســـــكوني الثابت . اضـــحى فى ديناميكية تحوليـــة متصـــلة الحلقات ما تعاقب الجديدان .

على ان ثورة التاريخ الجذرية، واتساعه عمقا وامتدادا ومنهجا ، لم تمنحه ما يمكن ان نسميه بالاطمئنان العلمي ان لم تزد بالعكس فى «الريبية» القديمة التي تحيط به . ازمة « الحقيقة » فيـــه ازدادت حدة والحاحا بشكل طردى مع ازدياد الثورة الانقلابية . وظل الباحثون فى علمية التاريخ وموضـــوعيته عند مواقـــع التســـاؤل الأولى يتساءلون : ترى الى اى مدى اقتـــرب التاريخ بها من حرم « العلم » او ابتعد عنه ؟ .. ولقد سئل الفيلسوف البريطاني **جود** Joad فى برنامج اذاعي سنة ١٩٤٠ : هل التاريخ علم ؟ فكان جوابه ان ذلك يتعلق بماذا نعني من كلمة « علم » . وقد نستطيع التحديد أكثر من هذا ان قلنا انه يتعلق بالمفهـــوم الخاص الـــذى نحمله فى اذهاننـــا عن « العلم » .

ولعلنا نحتاج قبل الجواب على هذا السؤال الى ان نعرف ايضا : ما هو التاريخ ؟ وما هو التاريخ لا كأحداث تعبر الزمن ولكن كممارسة فكرية وجهد تكويني ؟ نحتاج ان نحلل هويته كمعرفة بين المعارف الانسانية . ان تحديد هذه الهوية قد يكشف الكثير من نقاط اللقاء والافتراق لا بين « علم » التاريخ وعلوم الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا ولكن بينه وبين كل ما ينتهي بكلمة « لوجيا » . اننا اذا اتفقنا على ماهية التاريخ سهل علينا أن نتفق على حدود علميته .

وفى هذا الصدد تتبدى لنا ضرورة الوقوف بالتحليل عند ثلاث نقاط :

موضوع التاريخ ؟ مسلماته الاولى التي يستند اليها ؟ وعملية التأريخ ؟ أو بكلمات اخرى : ماذا يحاول المؤرخ ان يبحث ؟ ما هي المعطيات والمبادىء التى يقيمها اساسا لعمله ؟ واخيرا كيف يعمل ، وما ميكانيكية العملية الفكرية التي يقوم بها ؟ مجموع التحاليل لهذه النقاط هو الذى يحدد ، من زوايا ثلاث ، حجم هذا العلم وماهيته وعمله وطبيعته التكوينية .

اولا : يقولون بكل سهولة فيما يتعلق بموضوع التاريخ انه « معرفة الماضي الانساني » (٤) مادته اذن هي ما جرى فى الزمن السالف . واذا شئنا ان نكون اكثر دقة استعرضنا تعاريف بعض كبار العلماء فى هذا الميدان :

ــ الفرنسى **جوستاف مونو** يقول : ان غاية التاريخ المثلى انما هي « اعادة تمثيل الحياة البشرية السابقة كما هى ، واعادة رسم مظاهر النشاط الفكرى بتطوراته وتقدمه وتتابع مراحله وتناسبها .. » (٥) .

ــ الامريكي **هنرى جونسون** يقول فى الكلمة الاولى من كتابه تدريس التاريخ : « التاريخ بمعناه الواسع هو كل شيء حدث فى الماضي . انه الماضي نفسه مهما يكن هذا الماضي .. » (٦) .

ــ الفرنسي الآخر **هـ . مارو** يقول : « التاريخ هو المعرفة بالماضي الانسانى ، المعرفة بالانسان او بالناس من امس ، من قديم الزمان ، عن طريق انسان اليوم ، انسان الغد الذى هو المؤرخ » (٧) .

ــ الانكليزى **وولش يقول :** « من المتفق عليه ان الماضي الانساني هو الهدف الاول لدراسة المؤرخ .. » (٨) .

ــ الالمانى **رانكه** اعلن انه فى التاريخ لا يقصد الا أن يصور ما حدث بالضبط فى الماضي .. فاشتهرت كلمته فى القرن الماضي حتى اضحت شعار علم التاريخ ..

---

(٤) (الترجمة العربية ــ ص ٢٦ وقد اهملنا وسوف نهمل فيما بعد هذه الترجمة لانها سيئة جدا) .

(٥) G. Mounod — La méthode dans les sciences p. 367.

(٦) هنرى جونسون ــ تدريس التاريخ (الترجمة العربيه) ص ١ .

(٧) مارو Marrou حول المعرفة التاريخية (النص الفرنسي) ص ٣٢ و ٣٧ .

(٨) وولش ــ المدخل الى فلسفة التاريخ (الترجمة العربية ــ لاحمد حمدى محمود ــ القاهرة سنة ١٩٦٢) ص ٣٩ .

ــ حتى الانكليزى **كولنغوود** حاول ان يجددفى الفكرة نفسهاحين نظر الى التاريخ « كاستحضار للتجربة الماضية » .

وليست هذه النظرة بالحديثة فما من مؤرخ فى التاريخ الاسلامي الا وعبر عنها بشكل او بآخر فكان التاريخ عندهم « مرآن الزمان »(**سبط بن الجوزى**) و « وقائع الدهور » (**ابن وصيف شاه**) و « خبر من غبر » (**الذهبي**)(**وابن اياس**) و « اخبار من ذهب » (**الحنبلي**) و « أخبار الزمان » (**المسعودى**) و « تجارب الامم » (**مسكويه**) الخ ..

ولن نقف بالطبع عند هذه التعاريف فانخطوات كثيرة من التحليل والتحديد والايضاح يجب ان تتم وراءها : .. ولعلنا نكون اكثر دقةان لم نواجهها بتعريف مضاد شامل ــ واين منا التعريف الشامل ؟ ــ ولكن نطوقها بالتحديد عن طريق « النفي » والابعاد والايضاح .. « انه لمن السذاجة ان نتخيل تعريفا متقنا نظريا ومطروحا كذلك بشكل مسبق . يستطيع الاحاطة بالجوهر والماهية فى التاريخ » (٩) .

وهكذا فاذا كانت المسلّمة الاساسية والتي لا خلاف عليها هي ان « الماضي » هو موضوع التاريخ . فان تحديدات عديدة تدخل على هذه المسلّمة الأولى مقصرة من ذيولها الفضفاضة الواسعة: بعض هذه الحدود يتصل بالمدى الزمانى لهذا الماضي ، وبعض يتصل بنوع المعرفة الممكنة له . وهذه وتلك على السواء تقتطع من ابعاد التاريخ فى الزمان او تلغي من فعاليته الناجعة فى ميدان الفكر ما يجعل مداه الحيوى محدوداً من جهة،وقاصر الاداة الفكرية من جهة أخرى قصورا كبيرا .. انها تضعه فى اطاره الحقيقى .

أ ــ فأما فى **الزمان** فالتحديد الاول اورده الكثيرون من الباحثين والمؤرخين ، فقد اضحى الآن بديهيا أن التاريخ لا يعنى بكل الماضي ولا بأى ماض : انما ميدانه الماضي الانساني فقط . علوم كثيرة غير التاريخ ميدانها دراسة الماضي وليس الحاضر : الجيولوجيا ، الباليثتولوجيا ، التاريخ الطبيعي ، الانثروبولوجيا ، الاثنولوجيا كلها بدورها تدرس الماضي القديم وليست من التاريخ فى شيء .. ماضي الكائنات الانسانية وحده يهم التاريخ . ونستطيع القول فى صيغة اخرى انه لا تاريخ فيما وراء الانساني اى لا تاريخ قبل الانسان زمناً ، ذلك ما قبل التاريخ ، ولا تاريخ لغير الانسان موضوعاً ، ذلكم التاريخ الطبيعي للنبات والحيوان والجماد . ولا تاريخ فيما وراء اهتمامات الانسان ، ذلكم هى الجيولوجيا والباليونتوجيا.. الخ . « الانسان هو الوحيد بين الكائنات الحية الذى يعي الزمن » كما يقول **دلتاى** ولهذا فهو الوحيد ذو التاريخ بينها. وهو يصنع التاريخ، والتاريخ بدوره يصنعه فى جدلية حياتية لا تنتهي.

والواقع انه ليس من تاريخ مضطر ان يبدا صفحاته بالحديث عن اصل الكون والوجود . او يعد نقصا فيه ان يغفل طفرات انواع النبات والحيوان منذ ظهرت الحياة على هذا

---

(٩) مارو ــ المصدر السابق ص ٢٣ .

الكوكب » (١٠) . مدى التاريخ الحقيقي اقصر من ذلك بكثير جدا في الزمان واضيق في الموضوع . فماضي الارض في صخورها وطبقاتها وتكوينها السحيق في القدم لا يرد ابدا ضمن نطاق الاهتمام التاريخي : ذلك ميدان الجيولوجيا . وماضي الكائنات الحية من نبات وحيوان وتطور الانواع يدخل نطاقا آخر هو التاريخ الطبيعي . بل ان نيتشه قد لاحظ منذ سنة ١٨٧٤ « ان حياة الحيوان ليست تاريخية. انها لا تعرف الامس ولا اليوم » هي يوم واحد مكرور ابدا . وليست فيه خيالات من الاحوال الماضية .

عناية المؤرخ محصورة اذن في الانسان . في تجارب وافعال البشر فقط ولئن سجل بعض المؤرخين في القديم والحديث بعض الاحداث الطبيعية كالزلازل والقحط والخسوف والفيضانات فانما يأتي على ذكرها لما تؤثر في حياة الانسان ، لا لذاتها او لمكانها الخاص من التاريخ .

ولا يهتم التاريخ من جهة اخرى بماضي الانسان كله ، لا يهتم بالانسان كنوع ، تاريخه البيولوجي السابق للانسان الحالي تطارده علوم اخرى : احدها يعكف على الحفريات (الباليونتولوجيا) والآخر على التاريخ الطبيعي للانسان (الانثروبولجيا) كما ان ماضيه العرقي يدخل في اطار علم ثالث (الاثنولوجيا) يدرس العروق والاجناس في تكوينها وفروقها وتاريخ ذلك التكوين والتصالب العرقي .. فهذا تحديدان للتاريخ في الماضي الزمني .

ومن ناحية ثالثة فان التاريخ انما يبدأ مع بدء الانسان نفسه في كتابة هذا التاريخ. منذ اخذ يسجل ، بشكل أو بآخر ، أي شيء عن ماضيه ، ابتكر معرفة جديدة ، تشترك في بناء الفكر الانساني وحضارة الانسان . من المصطلحات الشائعة اصطلاح « ما قبل التاريخ » تلك المنطقة الزمنية الممتدة ما بين ظهور الانسان الحالي والمجتمعات الانسانية وما بين بدء الكتابة هي ميدان خاص من المعرفة ، عنوانه نفسه يضعه خارج نطاق التاريخ . انا نتقراه باللمس والحفر والمخلفات ، وفي الرسوم والعظام وبقايا الادوات الحجرية ، ونقسمه عصورا وحقبا ، ولكنه ليس من التاريخ . التاريخ انما بدأ مع الكتابة ، فهذا تحديد ثالث .

على أن الانسان من ناحية رابعة ، حين كتب وأرخ لم يكن واضح « الوعي التاريخي » ادراك كل من « الزمن » و « الحقيقة » كانا ابعد ما يكون عن قلمه الحديدي او الخشبي ، الف باء المعرفة التاريخية هي ان تسجل حقيقة او واقع التجربة الانسانية التي مرت في الزمان . ولكن التسجيلات الأولى (سواء منها ملحمة جلجامش الاكادية ــ البابلية أو تخيلات المصريين القدماء ، او تصورات رج ڤيدا الهندية ، او افكار الكنعانيين ــ الفينيقيين التي نقلها العبريون ، كما تدل نصوص رأس شمرا أو غيرها ..) كانت من الضبابية والايغال في التخيل بحيث كانت اوسع وأجرأ الاساطير .. الفكر التاريخي انما ولد في الواقع من ضلع الفكر الاسطوري . طبعت الاسطورة الخطوات الاولى

---

(١٠) بعض مؤرخينا الاسلاميين القدامى بدأوا تواريخهم العامة بذكر التكوين والوجود وخلق السماوات والارض والانسان كالطبرى واليعقوبي والمسعودى وابن الاثير وابن كثير الذى (سمى تاريخه البدايه والنهاية محاولا ان يتناول اول الخلق ثم آخره قبل القيامة) كما ان بعض الفلاسفة المحدثين مثل (ويلز) وغيره في مختصراتهم التي قدموها لتاريخ الانسانية حاولوا ان يجعلوا كتاباتهم تبدأ بخلق الكون وتطوره الطبيعي ثم الانساني . ولكن مؤرخينا القدماء كانوا يصدرون عن رغبة دينية في البدء بتاريخ آدم وحواء (كالطبرى وابن كثير) او نظرة فلسفيه ترافقها (مثل اليعقوبي) أو موسوعية (كالمسعودى) كما ان المحاولات الحديثة نابعة من موقف فلسفي فكرى لا علاقة له بالتاريخ وانما يتصل بالرغبة في القاء الضوء على الطبيعة البشريه ، من خلال تكوينها الاول .

كلها للتاريخ فمطالع التاريخ موصـولة بأواخـرعصور الاسطورة التى حاولت ــ وكانت وظيفتها الفكرية ــ الاجتماعية فى الواقع ــ ترقيع النقص والنسيان فى الماضي الانساني من جهة وأن تقدم من جهة اخرى « المحاولات الاولى لتبين الترتيب الزمنى (للخلق) وللاشياء والاحداث اى لايجاد علم كوني وعلم انساب للالهة والناس .. ولكن هذا العلم الكوني وعلم النسب لا يدلان على تمييز تاريخى بالمعنى الصحيح ، لان الماضى والحاضر والمستقبل فيها مرتبطة معا وهي تكوّن جميعا وحدة لا تمايز بين اجزائها ، وكلاً لا انفصام بين مفرداته .. وليس للزمن الأسطورى مبنى محدد ، وانما هـو زمن أزلي ، لأن الاسـطورة ترى ان الماضـى لم ينتـه بـل ما يـزال مسـتمرا (ابدا) .. » (١١) .

وهكذا ننقطع الافكار التاريخيـة الاولى عن التاريخ لتدخل باب الميثولوجيـا ، او باب علم الاديان ، او باب المورفولوجيا الاجتماعية لكنها على أى حال لا تدخل باب التاريخ الذى يتصل اساسا بظهـور ما يمكن ان نسـميه « بالـوعى التاريخي » اى الوعى المزدوج بالزمن وللحقيقة .. ومتأخرا جدا وصل الانسـان الى هذا الوعي . وان كان قد عـاد فى العصر الحـديث فرمّم ، بالاستناد الى الآثار والنقوش والبقايا ، بعض ذلك الماضي الذى غلفته الاسطورة ، ومدّ معارفـه التاريخية بعض الامتداد الى الوراء ، الا أن ذلك انما كـان فى بعض المناطـق فقـط ولدى بعض الشعوب .

وبقيت الكتـابات حـول مطالع العهـود التاريخية الاولى متداخلة ، فى كثير من الاحيـان مع ميادين الوهم والاسطورة هنا وهناك .. وهذا فى الزمن التاريخي هو التحديد الرابع .

ب ــ وأما فى **امكان المعرفة للماضي** : فثمة ايضا حدود اخرى ليست أقل شأنا . ان الدعوى بأن التاريخ يكشف ماضي الانسان ــ حتى منذ الفترة المحددة القريبة الى اليوم ــ ليست دعوى عريضة فقط ولكنها ايضا دعوى نظرية .. التاريخ الذى يحيط بالماضى الانسانى كله ، بكل نواحيه وتفاصيله ، هو تاريخ نظرى ، لم يكتب قط ونكاد نؤمن انه فى الاحوال الحاضرة للفكر وللقوى العلمية على الاقل ــ لن يكتب قط .

فالمعرفة فى التاريخ ليسـت اولا معرفـة مباشرة .. وأى مؤرخ يجرؤ على القول ان معرفته بالماضى هى معرفة مباشرة ؟ الذين سجلوا ما سهدوه من الاحداث كانوا دوما « شهودا » لا مؤرخين . والمعرفة التاريخية هى دوما وبصورة اساسية : معرفة بالواسطة او هي تصور وجود من خلال معطيات لغوية وأثرية ، واذا نحن تجاوزنا الحاضر المشهود ــ قبل أن يتحول الى ماض ــ فانا لا نستطيع أبدا الحديث عن « معرفة » مباشر للماضي ضمن الشروط التجريبيـة والمنطقية . انما هنالك فقط بالضرورة تصـور ، من خـلال شهادة الغير ، ومن خلال الوثيقة والاثر لما كان .. وينطبق التصور على الحقيقة بمقدار ما تنطبق اى شهادة على الواقع وما تعطي الوثيقة أو الاثر من امكان الاستنتاج الصحيح . العالم بالنسبة للعلماء ظاهرة طبيعية صرفة ، مشهد مبسوط للملاحظة العقلية ، أما احداث التاريخ فانها سطور أو آثار ينظر المؤرخ من خلالها الى شيء آخـر نسميه الماضي ، السطور والآثار هي المنظار السحرى الذى يصبح المؤرخ بدونه أعمى يخبط فى الظلام .

---

(١١) ارنست كاسيرر ــ المدخل الى فلسفة الحضارة الانسانية (الترجمة العربية ــ احسـان عباس ــ بيروت ١٩٦١) ص ٢٩٥ .

والمعرفة التاريخية ليست ثانيا بالصحيحة. ان الماضي كان بالضرورة حركيا تطوريا، ومعرفتنا عنه هي بالضرورة سكونية تراكمية . هو حياةأخذت حدودها الكاملةفي التنامي والتطور والهمود وهي ، معلومات كمية وصور مقطعة .. مجرد جثث . وشتان بين حي وميت !

ثم ان كل معرفة انما هي تاريخ . مجردظهورها كحادث يدخلها في نطاقه . وقصة تكاملها عملية تراكمية تساكها ، بالرغم منها وبالرغم منه ،في عداد سطوره ويجعلها مؤثرة متأثرة به . الذين يدرسون الاسمنت المسلح يدرسون بالضرورةتاريخ تطوراته . والذين يتفننون بطابع البريد او « بمودة » الشعر او زراعة الارضيين ، انما يعملون– بالضرورة ايضا وايضا – من خلال تاريخطويل. المجهولون الذين ابتكروا دحرجة الانقال على« العجلة » ليسوا بأقل نحوبلا للتاريخ من الذين وصلوا القمر . والذي كتب « البيان الشيوعي »ليس بأقل اثرا في حياة الناس ممن ابتكر شكل الهرم في البناء . كل لونية صغيرة من المعارفتضيف جديدا وهاما الى الحقيقة التاريخية ولا يقوم غيرها مقامها . ونقص اي جانب من هذهاللونيات ، نقص في الصورة الكلية ليس بالامكان تلفيقه وترقيع ثغرته . فمن ذا الذي يستطيع ان يؤكد وانما من اننا المنا على الاقل – ان لم يكن أدركنا او عرفنا – بالعوامل الصغرى والكبرى فيالتاريخ ؟ باللونيات الظاهرة والخفيه في نسيج أحداثه ؟ بالنسب الحقيقية للاحداث بعضها الىبعض فيه ؟ ومن ذا الذي يستطيع ان يجزم ان قانون النسبية اقل أو أكبر قيمة في التاريخ منابتكار الحرف ؟ أو ان ارسطو اكثر شأنا فيه من صانع أول حربة ؟

ونسأل السؤال الاهم ثالثا واخيرا : هلمعرفتنا بالماضي الانساني كاملة او شبه كاملة على الاقل ؟ واذا لم تكن فما الذي بقي في أيدي التاريخ والمؤرخين بالفعل من الماضي لاعادة بنائه ؟ الواقع ان الماضي الذي يسقط في هاوية الأبد باستمرارواالى غير رجعة لا يترك لنا في معظم الاحيان الا اضأل الملامح والآثار في الايدي : أسطراً حول مااسترعى الانتباه صدفة أو عن عمد ، آثرا سَلِم بالصدفة عن عوادي الزمن ، ثم ... لا شيء غيرذلك ! « ان قدرا فقط مما لوحظ في الماضي قد تذكره أولئك الذين لاحظوهوان جزءا فقط مما تذكر سجل ، وان جزءا فقط مما قد سجل حفظه التاريخ ، وان جزءا من ذلكالذي وصل يمكن تصديقه . وان جزءا من ذلك الذي يمكن تصديقه هو الذي حفظ وان جزءا منذلك الذي حفظ يمكن ان يوسعه المؤرخ او يقصه ... ان تاريخ الماضي باكمله (وهو ما يسمىبالتاريخ الواقع) لا يعرفه المؤرخ الا بواسطة السجل المحفوظ اي التاريخ المسجل . ومعظمالتاريخ المحفوظ هو الجزء الباقي من الجزء المسجل عن الجزء المتذكر من الجزء اللاحظ منذلك الكل .. وحتى حين يكون الماضي مأخوذا مباشرة من المخطوطات الاثرية او الانثروبولوجية فهذه هي فقط الاجزاء التي اختارها العالم من بين الاجزاء المكتشفة مما ساعد الحظ على بقائهمن مجموع الماضي كله .. » .

« وبالنسبة لما قد يدرسه المؤرخ من امرمتعلق بموضوع خارجي فان التاريخ الذي انقضى ليس هو الذي حدث (التاريخ الواقع) وانما هوالسجلات الباقية لما حدث (التاريخ المسجل) والتاريخ لا يمكن ان يروى الا من التاريخ المسجلالمكتوب ، وهذا هو فقط الجزء الذي شرحه المؤرخون من الجزء المفهوم الذي امكن تصديقهمن الجزء الذي اكتشف من التاريخ المسجل .. وليس هنالك ما يضمن ان ما تبقى هو اهم جزءواكبره واقيمه وافضله واخلده » (١٢) .

---

(١٢) انظر غو تشالك – كيف نفهم التاريخ (الترجمةالعربية – عائدة سليمان عارف ، بيروت ١٩٦٦) ص ٦٠ – ٦١ .

ومن زاويـة اخـرى من النظـر نجد ان المعلومات التاريخية نفسها ليست متوفرة كلها وعلى الدوام وعلى مستوى واحد من الكثـرة ، ومن الوضوح ، لا جغرافيا ولا زمنا ولا موضوعا . انها تتناقص طردا مع ابتعادنا عن منطقة جغرافية معينة ، ومع انغالنا سربا متزايدا فى الماضي ، ومع انتقالنا من موضـوع السياسـة والملـوك الى الاهتمامات الاخرى . فالمعلومات التاريخية عن اوروبا وحوض المتوسط ، فى القديم ، هى اكثر بكثير من معلوماتنا عن الهند او الصين ، وهذه وتلك على أى حال اكثر بكثير جدا من معارفنا عن افريقيا ، او اواسط آسيا التركية .. ثم ان ما نعرف عن القرن التاسع عشر هو بكل تأكيد اوسع بكثير جدا مما نعرف عن القرن الثالث أو الثانى الميلادى ، ولا يقاس غزارة بما نعرف عن القرن التاسع قبل الميلاد .. ثم ان احداث السياسة خاصة ، والحـروب واخبـار الملـوك والطبقات العليا ، كانت دوما هي الطاغية وهى المستأثرة بأقـلام المؤرخين ، بينما حشـرت فى العتمـة أو النسيان المطلق اخبار الفن ، وجذور الاديـان ، وفاعليات الاقتصاد ، وملامح الطبقات المسحوقة او تطور اللغات او تنامي الهندسة او ابتكار النار .. فما لنا فيها سوى الرجم بالغيب والظن .

ولقد يأخذ عمل المؤرخين فى تلمس الماضي ، احيانا ، شكل الاحكام التي تطلقها مجموعة العميان على الفيل الذى يجهلون : يتلمس احدهم اذنه فهو مروحة ، والثانى قدمه فهو عمود ، والثالث ذنبه فهو بعير ، والرابع خرطومه فهو انبـوب ، والرابع بطنه فهو برميل .. والفيل هو الفيل وقد افلت من كل الاحكام التي يطلقون !

وقد حسـب بعض الباحثين ان بامكانـه الهرب من هذا النقص الحتمي والتمادى فى معرفة الماضي بجعل « الفكر » هدفا للتاريخ . هم فرع من المدرسة المثالية اولئك الباحثون من امثال دلتاى . وكولنجوود Dilthey, Collingwood ... التاريخ مثـلا لدى كولنجوود هـو تاريـخ التفكير . يبدأ المؤرخ بالامر الطبيعى الصرف الذى هو الفعل او الحدث التاريخي ولكن الهدف هو النفاذ الى ما ورائه ، اى الى الافكار الكامنة خلف هذا الطبيعي « او الحدث » . هـو الانتقال من « خارج » الواقعة التاريخيـة الى « داخلهـا » يقول : « بالنسبة للتاريخ فان الموضـوع الذى يكتشف ليس الواقعة الصرفة بل الفكر المعبر عنه فيهـا . واكتشـاف هذا الفكـر يعني فهـم الواقعة .. » (١٣) .. على أن هرب المؤرخ من « نقص » الوقائع باللجوء الى دنيا الافكار لا ينفى الواقع الاساسي ، وهو ان الماضي هو : احداث وافعال اولا ، وان ما وصلنا منها هو اقـل من القليل ، وليس ثمة ما يؤكد ان هذا الذى وصل يمثل « كل » الافكار ولا « احسن الافكار » ولا « الافكار » « الغالبة » او « الرائدة » .

وهكذا فان ما نعرفه من حقائق التاريـخ جزئى ومحدود على تفاوت الجزئية والمحدودية فيه ، وقد يكون بامكاننا ان نعرف اشياء (اخرى) عن الماضي الانساني لكننا لا نستطيع بالتأكيد معرفة كل شيء فيه ، بوسائل المعرفة التي نملك الآن على الاقل . وثمة استحالة نظرية اكيدة لكتابة ما يمكن ان نسميه (التاريخ الكلي) اى تاريخ الانسان كلـه ، بكل تفاصـيله وبكل نواحيـه ، وبجميع

---

(١٣) انظر وولش ـ من فلسفة التاريخ (الترجمة العربية ـ احمد حمدى محمود ـ القاهرة ١٩٦٢) ص ٦٨ وانظر Collingwood, Idea of History p. 214.

دخائله او بما نسميه (ما وراء التاريخ) وبجميع طبقات البشر فيه (او ما نسميه ما تحت التاريخ) . ان المؤرخين هم على اى حال اشد تواضعا من ان يطمحوا الى مثل هذا المطلب المرعب . انهم يرفضون ان يحملوه على كواهلهم كما يحمل اطلس الكرة الارضية ، ويقنعون بتعميق وتوسيع السوُر الضيق من المعرفة المتاحة.

وبتبدى عمل المؤرخ فى وصف الماضى وكأنه عملية ترميم مسكينة ، وفى الفكر فقط ، لانساء أثرى رائع الهندسة كثير التهاويل والصور ، ممتلىء الجوانب بالحياة من كل لون وفح .. ولكن لم يبق منه سوى بعض الفتات الهامد !

واذا ما انتقلنا الآن من « موضوع » المؤرخ ومن أداة عمله التي هى اخبار الماضي الى عمله نفسه وجدنا انه يستند من جهة الى اسس فكرية ، بعضها من قبيل المسلمات المسبقة ؛ وبعض من قبيل المعطيات الاولية . كما يتبع فى عمله من جهة اخرى ميكانيكيه ومناهج فكرية معينة ، وهذه وتلك تحتاج بدورها الى وقفة تحليل .

ثانياً : فأما المسلمات المسبقة والمعطيات الاولية فى التاريخ فعديدة . المؤرخون يؤمنون بها كبديهيات فى خلفياتهم الفكرية ، دون ان يأبهوا كثيرا بتفحصها او بالتعبير عنها فى صيغة او اخرى . ونَدَرَ ان ناقشها حتى الباحثون فى فلسفة التاريخ .

من المسلمات :

ــ **وحدة الطبيعة البشرية** : البشر يكونون فى طبيعة تكوينهم « نوعا » متشابها واحدا . وان قومياتهم واجناسهم لا ترسم بينهم من الفروق الا القليل . والاختلاف العرقى ، الثقافي ، البيئى (الجغرافى) والاجتماعي (وهى اختلافات تعيدها بعض النظريات الى الجذور الاقتصادية ، وبعضها الى العرق ، وبعضها الى الفكر) واختلاف المواقف النفسية والمادية تبقى دوما قابلة للادراك والكشف والفهم والتحليل ، وتطويق الأثر من قبل البشر اللاحقين . انها صدى لوحدة « الطبيعة » وخضوعها لقوانين واحدة هذه الفكرة فى وحدة البشر .

ــ **تعقد الطبيعة البشرية** : فهذه الطبيعة المتشابهة بين البشر ليست بسيطة التكوين . تعقدها الداخلي لا يوازيه الا تعقد التفاعلات التي تكون بينها وبين العوامل الاخرى المؤثرة فيها ، من ارض وجو وبشر آخرين ، وهي بدورها عوامل معقدة كل التعقيد ، ومن هذا وذاك كله ، من محصلة التجاذب والتصادم بين هذه القوى المشتبكة يكون التاريخ .

ــ ثبات السنن الطبيعية وتطور الظواهر الحية فى وقت معا . جدلية الاصرار على ان فى التكوين سننا لا بد بالغة غاياتها ، وان الكائنات الحية وبخاصة منها الانسان فى تطور متماد لا يقف ، وان ذلك الثبات وهذا التطور مترابطان معا ، متزاوجان فى تسق ومسيرة جدلية يسير فى هديها واطارها معظم المؤرخين وان كانوا يتفاوتون فى تحديد ذلك السر ، وفى وعى تلك الجدلية .

ــ ان اخبار الانسان اى تجاربه الماضية وافعاله وذكرياته جديرة بأن تروى وتفهم وتدرس . على هذه المسلمة يقوم التاريخ . ان رفضناها رفضنا الاساس والقاعدة الواسعة التي يقوم عليها هذا النوع من المعرفة الانسانية .. عبثا تتضخم المجلدات على الرفوف وتتكاثر ان لم يكن لها من معنى انسانى محدد يدور الفكر من حوله فى تحويم لا ينتهي أبدا .

ـ ان التاريخ ليس مجرد احداث طافيـة على سطح الزمن كما يطفو قطع الاخشاب المنفصل بعضها عن بعض على وجه النهر . ولكنه يستند كالعلوم الاخرى تماما ـ الى فرضية مسبقة هي ان ثمة قوانين تسير هذا النظام من الاحداث على الشكل الذى يجرى فيه لو كانت هذه الاحداث حرة من الترابط والالتصاق والتشـابك الخلفي المحتوم بعضها مع بعض، لو كانت مطلقة السـير والاصطدام والفرق والركض لأخذ التاريخ وجها آخر . لعله الوجه الشيطاني ، وجـه التفكك المدمر لكل شيء . ولو آمنا بانفراط عقد الاحداث بلا ترابط لها ، بـلا اتصـالها العميق فان ذلك يتناقض مع مسيرة الكون فى الامور الاخرى كلها التي نجد الترابط فيها صارما واضحا نهائيـا وحتميا . واذا كانت القوانين المبسطة او المعقدة تسيِّر هذا النظام الكوني كله ، وكانت صحيحة الوجود بالنسبة لكل شيء فى الكون والحيـاة ، فمن غير المنطقي ان لا نفترض ان الانسان بدوره خاضع لهذه القوانين نفسها ، أو لقوانين مشابهة فى افعاله .. اذن فهناك سنن تجرى فى اطاراتها الاحداث ، ولو انا نجهل تلك السنن . ولولا ذلك لم يكن للتاريخ معنى أو قيمة فكرية . ونستطيع ان نمشي بالتحديد خطوة اخرى ونقول : انه مادامت الامور والاحداث فى الماضي قد جرت فى هذا المنحى دون المناحى الاخرى ، وعلى هذا الاتجاه دون الاتجاهات الاخرى الممكنة ، فلا بد اذن من سبب خاص لذلك ، ولا بد من علل معينة جعلتها تسلك هذا التطور دون التطورات الباقية . لا بد من منطق سيَّرها فيه لا فى غيره . التاريخ انما هو حصيلة « الممكنات » التي تحققت ضمن ظروف وحدود معينة ، ما كان يمكن أن يحدث غيرها . ولعل غاية ما يحلم به المؤرخون ليس اكثـر من كشف المنطق الذى يحكم ما « يحدث » . . .

ومن المعطيات الأولى :

ـ **ان التاريخ فعل أولاً ثم كلمة .** « حادث » يطفو من الاعماق الى سطح الحياة ، ثم تسجيل له قبل ان يغوص فى هوَّة العدم الى الابد . فى البدء كان « الفعل » حسب منطق التأريخ لا كما جاء فى سفر التكوين « فى البدء كان الكلمة » .. وهذا الفعل تلقائى يظهر من نفسه على شكل من الاشكال، ولا يكون الا مرة واحدة لا غير ، ثم لا يكون أبداً . ويبقى على المؤرخ ان يعرفه اولا ، ثم ان ينسج كل التسابك الخلفي التى سبقته وأعقبته ، وان يرسم كافة الدوائر التي انداحت على السـطح بسبب ظهوره وغيابه . والفعل التاريخي ليس من صنع العقل . اولئك الذين يتصورون ان العقل الانساني يصنع التاريخ مخطئون ، لأن هذا الفعل نفسه ما هو الا من بعض صنع التاريخ . ولأن الواقعة التاريخية فعل فهي ليست معطاة لنا كما تعطي التجربة الفيزيائية نتائجها ، ولكنهـا قيد التكوين دوما بالنسبة للمؤرخ ، المواد الأولى التى يبني منها عمله وعلمه هي دوما مواد اولية تنتظر مكانها فى البناء . اما البناء التاريخي نفسه ففعل آخر مختلف ، ويحتاج الى مخطط وفلسفة ومنطق انشائى وجهد طويل قبل ان يكمل .

ـ **ان التاريخ علم « متزمن »** هو الوحيد بين العلوم (١٤) الذى يقوم الزمن فى قاعدته . التاريخ ليس شيئا سوى اضافة الزمن الى الحدث لئلا يصبح اقصوصة او اسـطورة . الحدث خـلال الزمن هو الاسم البديل الممكن لكلمة تاريـخ . دون زمن ، ثمة كيمياء وبيولوجيا وسوسيولوجيا وما شئت من عائلة « اللوجيا » ولكن ليس ثمـة تاريخ . انه يسـير فى فلـك ذى ثلاثـة حدود :

---

(١٤) باستثناء علم الموسيقى الذى يقوم بدوره على وحدات زمنية محدودة ومقاسة آليا .

الانسان والمكان والزمان . تلك هي ثلاثية التاريخ الرئيسية التى تدخل على موضوعه المتحولات الواسعة المدى . كافة العلوم لا يدخل الزمن فى حسابها ، ولا يلعب بقوانينها الا عند حساب المتحولات . كلها تسير فى الابعاد المكانية الثلاثة الا التاريخ فانه لا يعيش ولا يوجد دون البعد الرابع : الزمن . كلها تسير فى اطار مقولتين : الواقع والمنطق اما التاريخ فيضيف اليهما ، مرغما المقولة الثالثة : الزمن التي تلعب بالمقولتين الأخريين . على أن الزمن التاريخي سلبي . وهو الزمن الذى انقضى ، وليس الايجابى الآتى الذى تعيش فيه باقي العلوم وتتطور . وعلى هذا الاساس فان كافة العلوم تتطور وتنمو فى فممها الا التاريخ فانه يتطور وينمو فى اواخره . وكل العلوم تطورها يأخذ شكل القفزات والتطور الكيفى الا التاريخ فانه ينمو بشكل متماد رتيب يومى ، ويؤدى تراكم التطورات الكمية فيه الى التطور الكيفى ، والى القفزات التاريخية .

« لو جردنا التاريخ من عنصر الزمن الحى لوجدنا أن مادته نفسها . أعنى التاريخ الخالص المؤلف من الوقائع فحسب ومن وقائع لا جدال فيها ، غير ذات معنى . الوقائع ليس لها فى نفسها معنى . . » (١٥) انما يأتيها المعنى من الزمن الانساني الذى يتصل بها فيعطيها مكانها من ماضي الانسان .

والزمن التاريخي اشبه بتيار الشعور **عند برجسون** . هو دفق مستمر حى، ديمومة متصلة الحركة ، الانسان وحده بين الكائنات هو الذى يعي الزمان والديمومة ، فلا الطبيعة تشعر بالزمان ولا الكائنات الحية الاخرى بالقادرة على تمييز آنات الزمان الثلاثة بين ماض وحاضر ومستقبل . **الديمومة** هي المقولة الاولى فى الزمن التاريخي اما الثانية فهي **التغير المستمر** . واذا كان كل كائن حي فى تجدد دائم فالانسان هو الوحيد فى الكائنات ، الذى يشعر بذلك التغير ويسجله ويعطي الحياة البشرية بذلك وحدتها مابين الامس والغد . اما المقولة الثالثة فى الزمن التاريخي فهي **التنوع** ، تنوع الافعال وردود الافعال . الحياة الانسانية لا تتغير فقط ولكن تخصب باستمرار . تزداد غنى وتنوعا وتعقدا وتركيبا بالتأثير والتأثير المرتد ، وتنامي المعرفة ، وتشعب الفكر والعمل . مجموع هذه المقولات الثلاث المميزة للزمن التاريخي هي ما يمكن ان نسميه بحس الماضي او الحس التاريخي ، فالانسان كائن تاريخي بقدر ما هو كائن عاقل او ناطق أو كاتب أو مفكر . . ولهذا فان حاضره مشحون بالماضي بقدر ما هو مشحون بامكانات المستقبل . الماضي موجود فيه بالفعل بشكل فكر وانظمة وتراث وتقاليد ، والمستقبل موجود بالقوة بشكل امكانات تستعد للتحقق .

والتاريخ ، لأنه صورة الانسان ليس مرتبطا بالزمن فحسب ولكن بمقولاته الثلاث ايضا من ديمومة وتغير وتنوع . وسير الانسان فى الزمن يضيف اليه باستمرار جديدا فى المسيرة . ان تاريخ البط او الحمير او النخل او البقول لا يضيف اليها اى شيء . الوحيد بين الكائنات الذى يضيف اليه التاريخ « جديدا » هو الانسان . ومن هذا الجديد المستمر يتكون « التراث » الانسانى الذى لا تملك جماهير الابل او السمك او جموع شجر التفاح وجذور البصل شيئا من مثله . . . أرأيت هل للطير من تراث ام لاطنان القمح ؟

---

(١٥) Valéry, P. · Variétés (Vol. IV) P. 134-135.

ـ ان التاريخ على المستوى نفســه ، علم « متمكنن » او مكاني ، ارتباطه بالمكان لا يقل عن ارتباطه بالزمان . ان احداثه انما تتم بالضرورة فى مسرح هو « الارض » وفى مكان محدد منها ، وتتحكم معطيات ذلك المكان (الطبيعية والاقتصادية والبشرية والسياسية) فى حدة واهمية وتوتــر الحدث وتعطيه ابعاده التي تتناســب معهــا . الجغرافيا هي احدى حقائق التاريــخ واحدى مقولاته واحدى العوامل الكبرى المؤثرة فيــه . تحكمت فى ظهور المدنيات فى مواقــع محددة كما منعتها الظهور فى مواقع اخــرى . وتحكمت فى اتصالها وصــدامها وتفاعلها فى اقاليم اختارتها الجغرافيا ولم يخترها التاريخ ولا الانسان ... للدرجة التي كان فيها بعض من اعظم النظريات فى تفسير التاريخ ذا اساس جغرافي .. اليســت نظرية التحدى لوينبي كذلك ؟ أليست النظرية المادية التاريخية ذات جذور اقتصادية فى الانتاج وفى المجتمع ؟ بدون المكان الجغرافي يقف التاريخ فى الفراغ . وليس من حدث يجرى فى فراغ .

ـ ان التاريخ حركة مستمرة وتغير دائم فى احجام والوان وآثار وتأثيرات الاحداث وفى اعمارها وعمقها وهذه الحركة ليست بذات وتيرة بسيطة . أو مسار وحيد معروف ، ولكنها ذات الف رأس والف ذيل والف مســار . والتاريخ فى التعبير عن تلــك الحركة انما يعتمد على اللفظ اللغوى . اللفظ ، بجانب كونه سكونيا ، ذو ابعاد محدودة فى المدى التعبيرى امتدادا وعمقا واتصالا .. ثمة هــوة واسعة وتفاوت كبير اذن بين الواقع والصورة . ولقد نكتشف الهوة ان نحن مشينا بعض الخطى وراء الحركة التاريخية وابعادها المتشابكة ومنطقها المعقد فى العمل .

حركة التاريخ لا تسير اتفاقا فى الكــون ، ولكن لها دون شك فلكهــا المحدد . وليس هذا الفلك على شكل خط مستقيم ممدود بين الازل والابد ، ولا شكل دائرى مغلق ، ولقد يكون على شكل لولبي ، ولكن فيه آلاف المســارات معا ، وفيه آلاف الخطوط المتشابكة المتدفقــة تدفق النهر والسيل . وفيه الكثير جدا من التشعــب والتراجع والاضطراب والتحــول ، ومن البطء والسرعة فى وتيرة السير . لا يحضن كل اولئك الا الــزمن ، والا الارض كمكان (حتى الآن على الاقل) . وكما تمشي الافلاك فى فضاء لا نهــائي كذلك يمشي التاريخ فى فضاء من الامكان لا أوسع ولا أبعد .. ويمشي لمســتقر له أو لا مســتقر لــه ... (١٦) .. المسيرة التي يمكن ان نسميها بالمصير .

وفى هذه المسيرة المتعددة الخطوط والاتجاهات والاعماق تتفاعل الوان العوامل فى صــياغة الاحداث ، فللصدفة مكانها ودورها ، ولجدلية التناقضــات مكانها الآخــر ، وللعناصر الماديــة آثارها ، كما للمثالية والميتافيزيــك . وللتحدى دوره كما للهزات النفسية او للخبز او للأسطورة ادوارها الفاعلة . ثمة تيه واســع من العناصر المتفاعلة التي تلعب كلها معا ، فى رحاب القوانين الدقيقة التى تحكــم حــريتها الحــركية لتنتج ! « اخطر محصول انتجته كيمياء العقل » فقط ، كما قال **فاليرى** (١٧) ولكن بكل **تأكيد اعقد** مادة انتجتها تلك الكيمياء وهي : أحداث التاريخ .

وفى منتهى نفاذ الفكر واشراقه الشفاف على الماضي بكل عناصره وتعقده يأخذ التاريخ فى نظرية الالعاب هذه ، التي نعرض لها عابرين ، شــكل نسيج هــائل التعقيد من العــوامل التي تلعب

---

(١٦) فى الآية القرآنية الكريمة : « والشمس تجرى لمستقر لها » . وفى قراءة ثانية « ... لا مستقر لها » .

(١٧) **انظر** : Valéry, P. : Regards sur le mond actuel (Ed. stock, 1931, P. 63).

ـ وليس ثمة كلمة اخرى يمكن ان تكون أحسن وصفا لحركتها الحـرة المقيدة من كلمة لعب ـ بعضها مع بعض ضمن قـوانين بالفـة الصرامة ولكنهـا فى الوقت نفسـه بالفة الحـرية لعـب الكروموزومات فى نـواة الخليـة الحيـة (اوالالكترونات حول نواة الـذرة) وبهذا الشـكل يصبح الكون والحياة مشحونين بعدد لا ينتهى من الاحداث الممكنه التي يتجدد امكانها فى كل لحظة والتي قد تقع كل لحظة ولكنها لا تتحول لسبب أو لآخر الى واقـع اى الى حادث تاريخي الا فى بعضها فقط . والحدث التاريخي الذى يظهـر نتيجة لذلك اللعب ليس اكثر من « امكان » واحد من ملايين الامكانات التي كانت قابلـة للوقـوع وأجهض امكانها فلم تقع .. كما انهـا فى الوقت نفسه نتيجة تفاعل عدد من العوامل الحية الخبيئة التى لا يكاد يظهر منها للباحثين ـ مهما دفعـوا البحث والتدقيق قدماً وسرباً ـ الا بمقدار مانظهر الجمديات الطافية فوق سطح الماء من كتلتها الكبرى الغاطسة تحت السطح الازرق .

واذا كان التاريخ لا يسجل من « الاحداث » الانسانية التي تقـع بالفعل الا النزر اليسـير اليسير ، فانه فى الوقت نفسه انما يسـجله من الخارج وبالتصوير الوصفي اللغوى ... وذلك النزر وهذا الوصف هما اقصى ما يملك المـؤرخ من عدة علمه .. وهما وحدهما معطياته الاولى ، ونقطة انطلاقه دون كل الخلفيات السابقة .

ثالثاً : ميكانيكية العملية التاريخية :

وعملية التاريخ هي فى الاصل ممارسـة فكرية عفوية لحد كبير ، ولم ينخل عنها البشر منذ عرفوها اول مرة . ولعلها كانت موجـودة فيهم بشكل شفهي قبل ان تقيدها انواع التسجيل الكتابي من جيل الى جيل ، انها عملية مستمرة لم تهدأ منذ وجـدت اول مـرة ، وليس الذين يقومون بها هم المؤرخون فقط ولكن ثمة جمهورا واسعا جدا من « الهواة » يعمل عليها (اصحاب المذكرات . الباحثون الاجتماعيون والسياسيون. الادباء .. الخ) بل ان الناس جميعا يؤرخـون ـ ولو باحاديث فى الهواء ـ ولا يدرون تماماً انهم يؤرخون ... مثل جـوردان فى ملهـاة **موليير** (البورجوازى المتمدن) الذى كان يقول النشـرطـول عمره ولا يدرى ! .. الخطوة البدائيـة فى التاريخ مرض واسع الانتشار هو نوع من الادب او حديث السَّمَر . ما اكثر المتطوعين فيه ! .. ولكن هذا التاريخ العفوى ، رغم انه يشكل جانبا من مادة التاريخ ، ليس هو التأريخ الذى نقصد والذى يقوم على عملية فكرية هدفها لملمة الماضي ، ومعرفته واعادة تكوينـه وتحليله على اسـاس منهجي .

وميكانيكية هذه العمليـة يمكن ان نلاحظ فيها عدة ملامح :

أ ـ « .. اى محاولة للنظر الى التاريـخ كشيء يماثل فى بساطته للادراك الحسي يجب ان تكون خاطئة .. » (١٨) .

ان بسطها على اساس سلسلى نكتشف فى صلبها أربع مراحل متعاقبة من التاريخ بأخـذ مخططها الهيكلى الشكل المبسط التالى :

الحـدث التاريخي ⟵ شـهادة (على شكل رواية أو ونبقة أو اثر) ⟵ تصور وجود سابق (على شكل اسـتعادة فكرية متصـورة للماضى) ⟵ معرفة لاحقة (تنظيم فكرى

---

(١٨) وولش ـ مدخل لفلسفة التاريـخ (الترجمة العربية) ص ٤٣ .

متخيل للماضي في اطار المعقولية) ← تاريخ مكتوب (من خلال قدرة المؤرخ الذاتية على التعبير) . . . فكأنما يصنع التاريخ تم يصنع اربع مرات على الاقل ما بين حده الاول الذى هو « الحدث » او الواقعة التاريخية وما بين شكله الاخير الذى هو التأريخ . وما من احد بالطبع يستطيع ان يؤكد ان « الحقيقة » التاريخية قد حافظت على صفائها وذاتها عبر هذه المراحل .

ب ـ فاذا ما نظرنا الى العملية من زاوية « النوعية » وجدنا انها في جوهرها انما هي نقلة في طبيعة المعرفة التاريخية ذاتها من مرحلة الادراكات البسيطة الى مستوى « الفقه » الواعي للواقعة والاستيعاب العلمي ، من الوصف التاريخي البسيط والاشارات الى التحليل والاستنتاج والتركيب ، من المتشاهده العادية السلبية الى حدود المعقولية والمنطق التنظيمي . وهنا ايضا لسنا ندرى بالضبط نصيب الواقع ونصيب الاضافة الفكرية الى الحادث التاريخي اثناء هذه النقلة !

ج ـ ثم أن المؤرخ من حيث فلك العملية التاريخية لا ينطلق من الحدث التاريخى وانما ينطلق من الحاضر ، نعني مما يعرف الحاضر عن الحدث . وبمنظار الحاضر وعدته يسير ليعود في النهاية الى الحاضر ايضا . خط حركته يسير من الحاضر الى الحاضر ، كل بحث تاريخي فانما هو رحلة الى الماضي تنتهي بنقطة الانطلاق نفسها . وينطلق المؤرخ بعده من نص تاريخي او وثيقة أو اثر ليعود من مغارة الماضي السحرية الملأى الغرائب والمجهول بكشف جديد يضيفه الى المعرفة المتوفرة في الحاضر . وهكذا يبدو عمل التاريخ نوعاً من اعمال الريادة والاكتشاف المستمر لقارات زمنية جديدة فيها كل ما في أعمال الارتياد من معنى الرعب وتلمس الطريق والمفاجأة والضلال . . والوقوع احيانا على كنز أو في كمين لصيد الوحش !

د ـ والعملية التاريخية ، الى هذا أو ذاك من حيث اتجاه الفكر ، عملية استحضار تراجعية ، فيها الكثير من الكشف : **فريدريك شليجل** يطلق على المؤرخ العظيم اسم « النبى الاسترجاعى » لأن عمله نبوءة الماضي . نحن نتمثل التاريخ في رحلة تصورية ذهنية تجرى بعكس الزمن . العلوم كلها ـ عدا ما يتصل منها بماضي الارض وجذور الانسان ـ متجهة دوما من الحاضر الى الغد . تفتش عن القانون والتنبؤ لأن الغد نبوءة ، اما التاريخ فهو متجه بالعكس من الحاضر الى الامس يفتش عن النور والكشف لأن الأمس يحتاج الى النور والكشف . ومن الكليات المضللة ما قد يقال من انه « لا جديد تحت الشمس » فمنذ زمن طويل عرفنا ان في كل لحظة جديدا يولد وقديما يموت ، في ملحمة تجديد لا نهائية الفعالية والحدود .

« وان ما يحدث في الزمن ز + ١ مختلف عما حدث في الزمن ز . الحدث لا يتكرر لأن الزمن لا يرجع القهقرى . . والزمان (التاريخي) سلسلة من الاحداث » كما يقول **ميهل** (١٩) . واذا كان ليس ثمة بيئة طبيعية حول المؤرخ كالتي كانت في أمس الغابر وليس ثمة من انسان من ذلك الماضي لأنه في الوقت الذى صنع فيه التاريخ صنعه التاريخ بدوره وغيره من طبيعته ، وليس ثمة من زمن طبيعي مع تطور الحياة في دورانها الرهيب الحديث ومع تعدد الازمان بين زمن فلكي ميكانيكي وفيزيولوجي وتاريخي ونفسي . . اذا كان كل اولئك فان عملية الاستحضار التراجعية التي نسميها التأريخ معرضة للكثير من المجازفة والتيه . . انها بشكل

(١٩) Mehl, Roger : Cahiers internationaux de sociologie (Paris 1947) Vol. III, pp. 138-139.

من اشكال التشبيه عملية تنقيب انرى تأخذ شكل الحلزون المخروطي فى الاتجاه نحو الماضي المطمور بالانقاض . وميدان الحفر ووسائله فى هذا المجال ليست مادية ولكنها فكرية . وتجرى عمليات السبر والحفر والكشف وجميع الفتات والبقايا والملامح لاعادة تكوين الحقائق الضائعة التي يريد مجموعها ان يقول : هذا هو الانسان فى بقعة كذا زمن كذا ، طبقة كذا .. وقد تكون العملية حتى هذا الحد المادى صحيحة ممكنة ولكن اركانها تضطرب متى وصلت ميادين الفكر والتطورات الاجتماعية وحدود الفن والاقتصاد واللامادة . وتصبح عملية التنقيب ، فى كثير من الاحيان – وبسبب ندرة الوثائق مجرد مغامرة تأملية – او شطحة من التصور الذاتي – ولكن فى الفراغ !!

وليست عملية الاستحضار المذكورة هذه مع ذلك عملية بسيطة ، ليست حركة ذهنية فى اتجاه واحد وتتحقق مرة واحدة ولكنها اشبه بعملية « المكوك » فى النول لا يتم النسيج الا بحركتها الجدلية الدائبة التي لا تقف بين حدى القماش : الحاضر والماضي . وقد اشار **(مارو)** الى ديناميكية الفكر هذه (التي تجرى ايضا فى غير مجال التاريخ) بقوله : « .. ان المؤرخ يبدأ بأن يطرح سؤالا ثم يكون ملفا من الوثائق المختصة به يؤدى التحليل المبدئي الى اعطاء كل منها درجة ما يمكن ان تحويه من امور قابلة للتصديق . انها مع ذلك صورة اولية جدا : فالتقدم بالمعرفة (التاريخية) يتحقق بهذه الحركة الجدلية الدائرية ، او بالاحرى الحلزونية التي يمر فيها عقل المؤرخ بالتتابع والتبادل من موضوع بحثه الى الوثيقة التي تشكل الاداة فيها ثم بالعكس .. والسؤال الذى أثار الحركة لا يظل هو نفسه لأنه لا يكف عن التغير أزاء معطيات الوثيقة .. » (٢٠). ويتعلق تغير السؤال فى الاتجاه الصحيح ، ومدى صحة الاجوبة المستخلصة عليه بقدرات المؤرخ الفكرية والثقافية ، وبكفاية الوثائق تحت يده .. وكثيرا ما يضطرب احد هذه الحدود ، أو تندر الوثائق فتكون الحقائق التاريخية المستخلصة بنت وجهة نظر شوهاء ، اشبه بالصورة فى مرآة سيئة الزجاج او طولانية التقعر .

هـ – ولا يعني هذا ان التأمل الشخصي ليس من عملية التاريخ . انه يقوم فى اساسها . ان ميدانها الرحب ليس الطبيعة كما فى العلوم الباقية ولكن فى الفكر وما وراء الجبين . لكن التأمل لا يجرى فى غيبيات الميتافيزيك او نزوات الخيال . ان عمله لدى المؤرخ يقتصر على ادراك المعلومات من جهة ، والخروج بها نفسها من دائرة الوعي الى دائرة التحليل والبناء والتعبير . هو تأمل يخرج من الواقع ليعود اليه . متى فقد الارتباط به استطاع ان يكون كل شيء الا ان يكون تاريخا . ويدخل فى نجاح هذه العملية ، وفى فشلها فى وقت معا ، اختيار المؤرخ للمعلومات والوثائق والآثار الاولى ، وتقييمها وتفضيل بعضها على بعض من جهة كما يدخل فى ذلك بشكل طردى موهبة المؤرخ الفكرية واستعداده العقلي من جهة وثقافته الشخصية ومدى ابعادها من جهة اخرى . وهذا ما دعا باحثا مثل **مارو** Marrou لأن يضع هذه العلاقة بين التاريخ (ت) والماضي (م) والحاضر (ح) بشكل رياضي مبسط : $ت = \frac{م}{ح}$

ويقول : « .. انني اريد بكل بساطة عن طريق هذه الصورة ان اوضح واقعة هي انه كما ان كبر العلاقة فى الرياضيات هي شيء آخر مختلف عن كل حد من الحدود فيها فكذلك

---

(٢٠) Marrou : De la Con. His. p. 122.

الامر فى التاريخ . أنه العـلاقه والانصال أللذان يقومان بمبادرة من المؤرخ بين مستويين للانسانية : الماضى المرئي بواسطة الناس القدماء ، والحاضر الذى يبذل فيه الجهد لاسـتعادة ذلك الماضي ، وذلك لمصلحة الانسان ، والبشر الآتي . . » (٢١) .

و ـ والتاريخ اخيرا من حيث الاداة عمليةوصف عقلى لا سرد وقائع ولا اعادة حياة . هو نقلة فى الفكر من كلام سكونى الى كلام سـكوني(والأثر الأخرس نوع من الكلام والشهادة البكماء) التعبير عن حدود حياتية حركية . وما يقال عن« اعادة الماضي » و « ذكر ما حدث بكل دقة » و « تمثيل الحياة البشرية كما كانت » وما اليهامن تعاريف العلماء للتاريخ ليس اكثر من مطامح النمل فى بناء قبة فلك . . . ان التاريخ انما يعتمدفى الواقع فى كمال الصورة وصـحتها على قدرة الكلمات وعلى مدى ايحائها بالصور . والكلمات ليست بالنسبة الى الواقع الحي اكثر من وسائط سكونية محدودة المـدى والامكان ، ان الماضـي كحياة يتجاوز طـوق كل مؤرخ . وقصـارى ما يستطيعه انما هو الوصف التصورى فى حدود ما قد يكون وصل بالصدفه الى علمه ويده . . .

أما اليقين فـلا يقـين وانمـا   اقصى اجتهادى أن اظن واحدسـا

على حد قول المعـرى القديم . . وينتهي التاريخ باعادة تكوين الماضي بشكل منطقي ولكن فى اطـار أدبي . واذا كان بعض المؤرخين ينتهي بالاجابة على « كيف ؟ » وكان لدى الكثيرين الطموح للاجابة على أل « لماذا ؟ » فليس بمؤرخ ذلـك الذى يكتفي برصف جداول السنين والوقائع . وقوائم الاسماء والوفيات ! تلك الهياكل العظمية للاحداث التاريخية ما من مؤرخ يعتبرها اليـوم تاريخا لأن « الادب التاريخي » هو لحم التاريخ ودمه وان كانت ثمة مسافة من البعد أو هـوة سحيقة غير قابلة للاجتياز ـ حتى الآن على الاقل ـ ما بين هذا الشكل الادبي وبين الماضي الحي . . يضاف الى هذا ان التاريخ يخضع اثناء النقلة من لفظ الى لفظ لما تخضع له الاستخدامات اللغوية والتقنية والمنطقية من تحول عند اعادة البناء ومن غموض يعرضان الصورة الاصلية لالوان الابهام والتغير . . .

كان التحليل السابق كله منصبا على نـوع التفكير التاريخي وطبيعته المخالفة لطبيعة المعارف الاخرى ، وكان رغم طوله ، ورغم طابعه النقدى التحليلي ضروريا لنستطيع الاجابة على السؤال الاساسي الذى طرحناه فى مطلع البحث : هـل التاريخ علم ؟ وهل من الممكن وجود علم تاريخي ؟ واين ينتهى حدود هذا الامكان ؟ لقد حمل التحليل السابق فى الواقع نصف الجواب ، أما النصـف الثاني فنبحث عنه فى المقارنة بين العلم والتاريخ .

رابعاً : بين العلم والتاريخ :

يقول المؤرخ **بيورى** ، وهو آخر سلسـلة المؤرخين « العلميين » الذين انتجهم القرن التاسع عشر ، قرن التاريخ : « التاريخ علم لا أكثر ولا اقل » وقد كرر هذا التأكيد قبل بيورى وبعده جميع اولئك المؤرخين الذين اصروا امام انتصارات العلوم الطبيعية وفوزها بتسليم الجميع وبقيادة الرفاه الانسـاني ، على الصاق التاريـخ بالعلـم الطبيعي ووضع عنوان « العلم » على بابه بالمسامير . كانوا يريدون من خلال التأكيد المتكرر على عملية التاريخ نفي تلك الريب التي تلاحقهم حول قيمة

(٢١) Marrou : De la Con. His. p. 37.

« التاريخ » العلمية .. لم يكن السؤال ـ المشكلة موجودا قبل القرن الماضي . اربعون قرنا ظل التاريخ قبل ذلك ، اما سجلا لاعمال الملوك أو فنا من فنون الادب يروى القصص للتسلية او للاعتبار الخلقي او ملحقا بالمعارف الدينية اقصى همه البرهان على قدرة الخالق البارىء .

وحين اعلن **رانكه** الالماني سنة ١٨٢٤ كلمته التي اشتهرت فيما بعد من ان التاريخ هو « تصوير ما حدث بالضبط » .. ثم اعلن **ميشليه** الفرنسي انه « تبين بوضوح وبساطه كيف ابتعت الاشياء » .. اعتبر المؤرخون انهم ظفروا اخيرا بمنتهى الموضوعية التي يطلبها العلم . وان رانكه انما اعلن ميلاد « التاريخ العلمي » ولم يبق عليهم الا تحديد الطريق الذى يصلون به الى « ما حدث بالضبط » اذن فهي العملية التامة والموضوعية الكاملة .. لم يتنبه احد منهم الى أن كلمة « ما حدث بالضبط » هي المشكلة ، ومع انهم ما يزالون الى اليوم يبدأون تعريف التاريخ بعبارة « التاريخ علم .. » الا انهم منذ زمن طويل قد كفوا ، في الواقع ، عن طموحهم الرانكاوى (نسبة الى رانكه) وأصبحوا أكثر تواضعا بكثير مما كان . **المؤرخ هنرى ت . باكل** H. T. Buckle قرب الهدف قليلا حين قال في مقدمة كتابه تاريخ الحضارة في انكلترا ، بعد ان انتقد اخفاق المؤرخين وعجزهم عن السمو فوق الحقائق الجزئية وعن استنباط القواعد العامة ، انه يأمل « ان يحقق لتاريخ الانسان شيئا يساوى او يقابل .. (ما حققه) الباحثون الآخرون فى مختلف فروع العلم الطبيعي » (٢١) م .

ثم لما قفزت نظرية التطور ، مع داروين ، الى مركز الاهتمام الفكرى ، جاء كارل لامبرخت الالماني في اواخر القرن الماضي يقترح ان يحل محل كلمة **رانكه** شعار آخر هو ان عمل المؤرخ ان يعرف « كيف تطورت الامور بالضبط » . وظهر اثر ذلك اصطلاح « التاريخ التطورى » في محاولة للحلول محل التاريخ العلمي .

وظن **فوستيل دى كولانج** انه عثر على مفتاح اللغز العلمي فى التاريخ حين اكتشف أن فى التاريخ وثائق ونصوصا أثرية وسجلات وثائقية يمكن ان تكون منطلق البحث التاريخي وهكذا كان يردد دوما على تلاميذه سؤاله الشهير : « هل لديكم نص ؟ » معتبرا انه « لا تاريخ بدون نصوص » لأنه ـ كما قال ـ « علم لا يتخيل بل يرى . وهو نظير كل علم . ينظر الى الاحداث ويحللها ويقارن بينها ويحقق الروابط القائمة بينها . والمؤرخ يبحث عن الحدث ويدركه . بدراسة النصوص بامعان ودقة . والطريقة واحدة فى كل علم مؤسس على الملاحظة الدقيقة .. » (٢٢) . وبلغ هذا الاتجاه الوثائقي اوجه على يد لانجلوا Langlois **وسينيوبوس** Seignobos اللذين اعتبرا ان « التاريخ انما يصنع من النصوص » واصرا فى كتابهما الذى اشتهر فى أواخر القرن الماضي (المدخل الى الدراسات التاريخية) بأن « التاريخ هو علم دراسة الوثائق واستعمالها » (٢٣) . ومنتهى طموح المؤرخ ان يتناول الوثيقة . « فيبحث فى كيفية صياغتها وفى مصدرها لاعادتها الى اصلها وهذا ينطبق على الخط واللغة والشكل والمصادر وهذه كلها اعمال « النقد الخارجي » اما النقد الداخلي فيدور على التعليل والقياس التشبيهي المبنيين على اساس نفساني يصور لنا نفسية

(مكرر ٢١) انظر باكل Buckle, H. T
— His of Civ in England (Oxf. Univ.Press, London, New York 1903-1904) Vol. I, p. 3-4.

(٢٢) انظر جوزيف هورس ـ قيمة التاريخ ص ٥٦ الذى نقلنا عنه النص .

(٢٣) انظر Langlois et seignolos : Intr,. aux Et. His. p. 1 et 275

كاتب الوثيقة وما عنى من قوله . وهل هو مقتنع بما كتب وهل هو محق فى اعتقاده .. » (٢٤)
وينهى المؤلفان كتابهما بتأكيدات قاطعة تقول :« ... ان الشكل العلمي للعرض التاريخى نكون وبت منذ خمسين سنة وهو ينفق مع الفكرة العامة التى تضع للتاريخ هدفا واحدا هو المعرفة لا المتعة ولا وصف العلاجات ولا اثارة العواطف .. » .

ونقول : « .. وسيأتي يوم تنجلى فيه جميع الوثائق القديمة وتترتب بفضل تنظيم العمل وتثبت الحوادث التى لم يعرف اثرها .عندئذ يتكون التاريخ ولكنه لن يكون مع ذلك راسخا اساسيا موطد الاركان اذ أن ذلك يستلزم توحيد الابحاث التركيبية الافرادية على يد خبراء يقيمون منها عملا انشائيا شاملا . فاذا خلصت من هذا العمل بنتائج واضحة وحجج دامغة تفسر تطور المجتمعات الانسانية وتبين مراحل تاريخها كان ذلك فلسفة للتاريخ قائمة على قواعد علمية .. » (٢٥) .

واذا سجل كتاب **لانجلوا وسينيوبوس** اوج الخط العلمى التاريخي فى المدرسة الفرنسية فقد ظهر كتاب من مثله يسجل اوج « العلمية »التاريخية لدى الالمان حين اصدر **ارنست برنهايم** كتابه : « تعلم المنهج التاريخي والفلسفة التاريخية » (٢٦) . ولحقت بالكتابين من بعدهما كتب مماثلة فى انكلترا وامريكا منها كتب **جونسون ونيفينز** Nevins وغيرها .

على انه لم يكد ينتهي العقدان الاولان من هذا القرن الحالي حتى اهتزت هذه الثقة المطلقة وبدات الفلسفة النقدية حين بدأ يتكشف للباحثين مدى السذاجة الكبيرة وبساطة الفكر فى هذه الدوغماتية العلمية التي كانت تلهب هوس الباحثين فى القرن الماضي . عدد من مفكرى المانيا خاصة وفرنسا وانكلترا فيما بين الحربين تقبوا هذا النسيج الرقيق الذى نسجه اولئك المفكرون السابقون وكشفوا تهافته السذاج . ابحاث **سيمل** Siemmel **ولهلم دلتاى** Dilthey ، **فيبفر** Febvre **كولنجوود** Collingwood ، **آرون** Aron ، **ريتشي** Ricci **وكروتشه** Croce خلقت فى موقف التاريخ « العلمى » نوعا من الازمة وفضحت الثغرات هنا وهناك فيه ، لا فى محاولة لهدم علميته فى الغالب ، لكن لتحديد مداها وحدودها على الاقل . اضحى التأكيد على علمية التاريخ ، على أساس الشعارات المعلنة فى القرن الماضى كقطعة النقود البالية ، يهرؤها التداول بقدر ما تحاول الايدى فى الوقت نفسه أن تتخلص منها . ان العلوم الاجتماعية والتاريخ واحد منها ، لا يبدو الى الآن انها وجدت « جاليلها » او« نيوتنها » الذى يكشف لها المفتاح الذى كشفه غاليلو ونيوتن للعلوم الطبيعية . واذا صادفت بعض المناهج العلمية بعض النجاح فى بعض العلوم الانسانية كعلم النفس مثلا او بعض العلوم الاجتماعية النظرية كالاقتصاد ، فان الفشل كان الطابع العام لتلك المحاولة التي حاول بها العلماء غزو العلوم الاجتماعية والتاريخ فى اولها ، بآلات ووسائل العلوم الطبيعية . وكان الفشل من القسوة والتكرار بحيث عادوا مضطرين ، الى التساؤل عما اذا كان من الصحيح قياس الانسان بمقاييس الطبيعة نفسها او اصطناع وسائل العلم الطبيعى

---

(٢٤) اخذ النص عن جوزيف هورس – قيمة التاريخ ص ٦٠ .

(٢٥) انظر Langlois et seignobos .
— Introduction ̄eux. etudes historiques pp. 263 et 277

(٢٦) ظهرت الطبعة الاولى من كتاب Ernest Bernheim فى لبزيغ سنة ١٨٨٩ .

فى ميدان العلوم الانسانية . على ان المشكلة المركزية فى الحوار وهي « علمية التاريخ » بقيت معلقة بين جميع اطراف الحوار . والجدل من حولها بقى قائما لا ينقطع ما بين مؤيد ورافض وباحث عن طريق جديد .

ليس بالامكان اليوم رفض علمية التاريخ عن طريق اتهامه بالغيبية وبملاحقة آفاق الميتافيزيك الزئبقية . منذ زمن طويل ودع التاريخ هذا الطموح « الفراغي » . وكما استبعد العلماء الاسباب العليّة الأولى ، او النهائية للوجود والاحداث . ليتوقفوا عند الطبيعة ذاتها والمحسوس المقاس من احداثها ويقيّموا « العلم » الخالص كذلك فعل التاريخ . كان هذا العبء الضبابي اول ما القاه عن كتفيه من الاثقال والمهام . اضحى كشف اسباب الوجود والعلل الأولى ، وميتافيزيك الحياة ، من خلال احداث التاريخ واستخلاص قاعدة حياتية يمكن فرضها ، فوقيا او غيبيا على المجتمعات والافراد ، خارج نطاق التاريخ . كان ذلك على الاقل لأن المقدمات المنطقية والاساسية لمثل هذه الشطحات غير كاملة فيه . انه لا يملك منها الا العرَض المتحول . اما الجوهر والثابت فلا . اقصى الازل وابعد الأبد اصبحا اليوم وراء حدود الطموح التاريخي باتفاق المؤرخين ، يقول دلتاى : انها لخرافة تلك التي ترى فى عمل المؤرخ سرا شبيها بسر الابحاث السيميائية التي كانت ترمي الى معرفة سر الكون فى محاولة تحويل المعادن الى ذهب خالص . كيف للمؤرخ ان يستخرج من المادة الصماء والحوادث الصامتة ذهب التجريد والسببية ويصل الى سر الحياة الانسانية ؟ » (٢٧) .

ان آفاقا اخرى من الجدل العلمى بين الباحثين الى اليوم حول علمية المعرفة التاريخية . ولعل بالامكان ان نلملم ذلك الحوار الواسع الممتد على مدى قرن ونصف القرن وأن نضيق آفاقه ونضعه ضمن اطاره ان نحن حللنا عمل المؤرخ نفسه اولا فهذا العمل فى واقعه يتألف من عملية او مرحلتين اثنتين ، تختلف احداهما عن الاخرى اختلافا كبيرا فى الطبيعة والهدف . ولعل القفز الفكرى بينهما هو الذى يوقع الكثيرين فى الالتباس ويجعل من « الحوارية » حول علمية التاريخ حوار الطرشان :

المرحلة الاولى من عمل المؤرخ : تتناول تنظيم الوقائع وكشف تفاصيلها وتثبيت الحقائق المتصلة بها وبظروفها . وهو عمل « وصفي » ولكنه فى الوقت نفسه عمل علمي دقيق ، وعن هذا العمل بالذات تتكلم سلسلة المؤرخين العلميين الممتدة ما بين رانكه الى سينيوبوس . ولكن المؤرخ اذا اكتفى بهذه المرحلة فانه لا يعدو أن يكون آلة تسجيل كرونولوجي . وفى احسن الاحوال مصورا فوتوغرافيا سكونيا للمادة الهامدة . ولا قيمة للتاريخ الذى يعطيه مثل هذا العمل الا من حيث كونه مادة اولية للمرحلة التالية .

المرحلة الثانية : وعملها تحليل الوقائع وتعليلها وبيان ترابطها السببي . وهذا العمل فكرى تجريدى ، ولكنه فى الوقت نفسه ليس بعلمي تماما ، لأنه وان اشبه العلم فى البحث عن السببية ، الا انه يعتمد على الاجتهاد الشخصي والاحكام الذاتية والتخمين ، لأن الاحاطة بالاسباب تفوق الطوق .

---

(٢٧) Dilthey : Introduction à l'etude des sciences humaines (trad sauzin, Paris 1942) P. 119.

والمرحلة الاولى رغم علميتها المتمثلة فى دقةالارتباط بالواقع ليست بعمل علمي كامـل لأن اساس العلم كشف السببية واقامة التسلسل الزمني لا يكفي لمعرفة السببية ، أما الثانية فان السببية التي تنكشف فيهـا لا تعدو ان تكـون« فرضيات » وقفزات فى المجهول لا تخضع لأى برهان حاسم سوى المنطق والامكان . . ونستطيع القول ان الوظيفة العلمية الحقيقية فى التاريـخ تبدأ حيث تنتهي الوظيفة الوصفية ، وهذا يعني انها تبدأ حيث تنتهي التسلسلات الزمنية والوصف فى المرحلـة الاولى ويأتي التفسـير والتعليـل فى الثانية .

وهكـذا تبقى مشـكلة « العلميـة » أو « الموضوعية » فى التاريخ اذن متصلة بأمرين هما اليوم اساس « علمية » العلوم كلها :

الاول : ضرورة التطـابق الكامـل مـا بين« حدود » التاريخ وصفاً وتسلسلاً ، وبين حدود الحقيقة أو الواقع ، بحيث تمر المعرفة التاريخية فى غربال المنهج العلمي ، وتكون نتيجة مباشرة له ، وبحيث تطرد « الذاتية » بعواصفها واهوائهـا خارج السطور .

الثاني : امكان وضع القانون التاريخي ، اى وضع علاقات الاحداث ضمن صيغة رياضية كلية تفسر الواقع التاريخي وتعلله سـببياً وتسـمح ـ بالنتيجة ـ بالتنبؤ وبأن نصبح ـ على حـد قول ديكارت ـ « اسياداً ومالكين للطبيعة . . . » وللمستقبل !

ان علمية التاريخ انما تنوس فى الواقع مابين هذين القطبـين . واذا نحـن اسـتخدمنا الاصطلاحات المدرسية ، وقلنا ان العلم هو المنهج وهو السير من الجزئي الى الكلي ، ومن الفردى الى العام ، ومن الشخصي الى الموضوعي ، ومن المحسوس الى المجرد ، والانتهاء بكشف العلاقة السببية الكلية ضـمن مبدأ الحتمية . . الخ . فالسؤال يتحول عند ذلك الى أن نعرف اين تقع عملية التأريـخ المزدوجـة الحد فى هذا المنهـج المتعارف عليه للمعرفة العلمية ؟ .

قبل ان ننطلق فى تلمس الجواب نقف عند رأى يجعل نقص « العيار » العلمى فى التاريخ من ذنوب المؤرخين . يجعل ضعف الموضوعية نتيجة لذاتية المؤرخ الباحث . المؤرخ **« هالكين »** حاول ان يلخص مشكلة التاريخ العلمية فى تلك العلاقة الذاتية القائمة بين « الحـدث » وبين « المؤرخ » قائلا : « التاريخ للاسـف غير منفصـل عن المؤرخ » (٢٨) . وتابعه فى ذلك الكثيرون ومنهم مثلا **« مارو »** Marrou الذى قال « لو انا القيناعن الفلسفة النقدية للتاريخ مبالغاتهـا الجدلية وصيغها المتناقضة فانهـا تؤول فى النهايـة الى توضيح الدور الفعال الذى يقوم به المؤرخ فى فكره وشخصيته فى تكوين المعرفة التاريخية » (٢٩) . والواقع أن المشكلة انما هي فى « طبيعة الموضوع التاريخي » وفى « نوعية المعرفـة التاريخيـة » وليست فى المؤرخ الذى يحتال لغزوها فى مستقرها العميق ويصطنع اقصى ما تطيق هي نفسها من وسائل الاسـتكشاف ، لبيان الحقيقـة فيهـا ولاصطياد العلاقة الثابتة الكلية . . بالقدر الذى تسمح هى نفسها أيضا بالكشف عنه :

نحن مضطرون مبدئيا ان نقرر ، دون ظل من اسف أو غضب او مرارة ، أن « نوعية » أو « طبيعة » المعرفة التاريخية ليست مطابقة لنوعية وطبيعة المعرفة فى العلـوم لأن « الحـدث » التاريخي فى

---

(٢٨) Marrou : De la connaissance His. p. 51.

(٢٩) Halkin, L. : Initiation à la critique historique (2 éd. Paris 1953) p. 860.

الاصل ـ وهو موضوع تلك المعرفة ـ ليس مشابها للحادث الفيـزيائي او الكيميائي المبسـط ولا البيولوجي ايضا ، انه من التعقيد الخفي بحيث تصبح الحادثة الفيزيائية بعلاقتها الرياضية لعبة اطفال امام تشابك القوانين في اي حادث تاريخي صغير . ما من شك في ان المؤرخ يلعب دوره الفعال العميق في اعطاء التاريخ طابعه الذاتي ، وما من شك في ان التاريخ غير منفصل (حتى الآن على الاقل) عنه ولكن المشكلة لا تبدأ عنده وانما تبدأ على الطرف الآخر من المعرفة : طرف « الموضوع » الذي يسهل على كل فكر ان يدرك انه ـ لاتصاله بالطبيعة والانسان والحياة ـ فانه أعقد بكثـير واوسع بكثير ، وفي كل الاتجاهات من أن تلملمه أو تحيط به الوسائل العادية المتداولة حتى اليوم للمعرفة العلمية . يقول **سانتيانا** وهو من هـذه المدرسة نفسها التي تنحى باللائمة على المؤرخين : « المؤرخ المثالي يتناول قطعة واسعة من القماش وهو مستعد لرسم كل شيء عليها ولكنه وهـو يرسم ينتحل كل شـيء ويغـيره الى مقومات للوحته . وتنقل عينه البشعة المليئة بالافاعي كل ما تنظر اليه ، ليس لأنه يختار او يؤلف فذلك كسـب للعقل ، ولكن لأنه يعـزو الى لوحتـه التدريجية سحراً خلاقا وكأنه قد كشف العصب الحقيقي للاحداث . غير ان العصب الحقيقي أو بالاحرى الديناميكية الكاملة للاحداث ليست هي على نطاق انساني ، انها ليست رائعة ولا يمكن ادراكها بالتخمين ، او بالتكهن المثير ، او بالعبارات الاخلاقية . انها الحياة الخاملة المعقدة في الطبيعة، تلك العقدة الكبرى لكل الاصول والمشتقات »(٣٠). المشكلة الحقيقية اذن هي في تعقد الموضـوع في جذوره وعوامله وفي بساطة (او احيانا سذاجة) الوسائل المصطنعة للوصول الى الرؤية الواضحة فيـه .

واذا كانت الصفحات السابقة تحليلا او نوعا من التحليل لطبيعة ونوعية المعرفـة التاريخية البالغة التعقيد . فيبقى ان نتمم الصـورة اذن بتحليل المنهج الذي يصطنعه المؤرخون في البحث التاريخي مقارنا بما اتفق العلماء على تسميته **بالمنهج العلمي** .

أ ـ الموضوعية العلمية في مرحلة جمع الوثائق :

لقد يكون من السهل بعض السهولة او كلها السير بالمرحلة الاولى من عمل المـؤرخ ، مرحلة الجمع الوثائقي على أسس دقيقة التزمت للدرجة التي يمكن معها ان توصف بالعلمية . ولقد يكون من السهل ايضا اعادة بناء بعض وقائع الماضي :بترتيبها الزمني وتفاصيل الاحداث فيها بالاستناد الى ما بقي منها بشكل شهادات وآثار . . الطريق في هذا السبيل ممهد . وعلى هذا النحو من الفهم للتأريـخ بنى لانغلوا وسـينيوبوس ، بين البناة الآخرين ، مفهومهم لعملية التاريخ ورسـموا لها المنهج على الشكل التالي :

ـ بحث عن « الوثائق » لأن « التاريخ يصنع من الوثائق أي الآثار التي خلفتها افكار السلف وافعالهم » .

ـ ثم تأتي العمليات التحليلية للوثائق أي :

= النقد الخارجي لها : نقد التصحيح ونقد المصدر والترتيب النقدي للمراجع .

---

(٣٠) انظر جورج سانتيانا ـ مولد الفكر ص ١٢٠ .

= والنقد الداخلى (الباطني) لها :نقد التفسير ، والنقد لأمانتها ودقتها ، وتحديد الوقائع الجزئية فيها .

ــ ثم تأتي العمليات التركيبية اى : تجميع الوقائع والبرهان البنائي فيها وتشييد الصيغ العامة منها .. ثم العرض التاريخى الاخير (٣١) .

وتنامي « منهج البحث التاريخي » بعد ذلك وتوطد حتى اضحى من المعارف التقليدية الكلاسيكية التي تدرس لطلاب الجامعات المبتدئين بالتأريخ ... يعلمونهم (٣٢) :

ــ كيفية جمع الاصول والمراجع (وثائق ، مذكرات ، آثار ، نصوص تاريخيه .. الخ) .

ــ ثم نقد الاصول : نقد صحتها خوف الزيف والانتحال . ونقد شخصية المؤلف وتحديد زمان التدوين ومكانه وتحرى نصوص الاصول وتحديد العلاقة بينها .

ــ ثم النقد الداخلي (الباطني لها) نقدا ايجابيا بالتحليل . وتحديد معاني الالفاظ وغرض الكاتب وطرق كشف المعاني الخفية ونقدا سلبيا للتثبت من صدق المؤلف وعدالته وعدم وقوعه فى الخطأ او فى الانخداع .. او فى الكذب .

ــ ثم اثبات الحقائق التاريخية التي تتضح بعد ذلك ومقارنتها بالروايات الاخرى .

ــ ثم تنظيم تلك الحقائق قبل تركيبها على اساس الاجتهاد والتعليل والايضاح فى صيغة تاريخية محددة .

ان مزالق الذاتية واللاموضوعية محدودة فى هذه المرحلة الاولى التي تعتمد الاستقراء والتحليل والاستنتاج فى مادة هامدة . ولو ان التاريخ كان مجرد تنظيم الوثائق والنصوص والآثار وربط بعضها ببعض لأضحى التاريخ منذ زمن طويل مقبول العلمية والموضوعية دون كبير جهد او جدل .. لولا ما يثور من الريب حول صدق النصوص والشهادات الاولى ومدى الموضوعية فيها . هنا نقطة الريبة الاساسية فى العملية . المشكلة ليست فى منطق التاريخ ولكن فى موضوعه ومادته . فاذا عرفنا الصدق التاريخي بانه المطابقة للحقائق Adaequatio res et intellectus فان هذا ليس حلا مقنعا للمشكلة لأنه قضية دور لا حل . نعم ان التاريخ يجب ان يبدأ بالحقائق وهذه الحقائق ستكون غاية لا بداية فحسب ذلك هو الف باء المعرفة التاريخية ولا ينكر احد هذه الحقيقة . ولكن ما الحقيقة التاريخية ؟ كل صدق حقائقي يتضمن صدقا نظريا .. الحقيقة المادية والحقيقة التاريخية كلتاهما تعتبر جزءا من الواقع التجريبي والى كلتيهما ننسب صدقا موضوعيا ولكنا حين نريد ان نعين طبيعة الصدق نسير فى طريقين مختلفين. أما الحقيقة المادية فنعينها بالمشاهده والتجربة. وهذه العملية من الاخراج الى حيز الموضوعية تبلغ غايتها اذا نحن نجحنا فى وصف الظواهر المعطاة فى لغة رياضية اى فى لغة الاعداد . فكل

---

(٣١) انظر لانجلوا وسينيوبوس ــ المدخل الى الدراسات التاريخيه (ترجمة عبد الرحمن بدوى فى النقد التاريخي) ص ٣٣ ــ ٢٥٤ .

(٣٢) انظر من نماذج هذه الكتب فى المنهج التاريخي كتاب : حسن عثمان ــ منهج البحث التاريخي (الطبعة الثانية ــ القاهرة ١٩٦٥) .

ظاهرة لا يستطاع وصفها او ردها الى عملية قياسية لا تكون جزءا من عالمنا المادى .. الحقائق المادية مرتبطة دائما بقوانين علية الى ظواهر اخرى يمكن مشاهدتها وقياسها مباشرة . واذا كان عالم الطبيعيات فى شك من النتائج فى احدى التجارب فانه يستطيع ان يعيدها ويصححها اذ انه يجد مواده جاهزة لديه فى كل حين .. الا ان حال المؤرخ مختلفة عن ذلك لأن حقائقه تنتمي الى الماضي وقد ذهب الماضي الى غير رجعة . ونحن لا نستطيع ان نعيد بناء ذلك الماضي ولا ان نوقظ فيه حياة جديدة بمعنى مادى موضوعي . وكل ما نستطيعه هو ان « نستذكره » ان نمنحه وجودا مثاليا (فكريا) جديدا فالبناء المثالي ـ من جديد ـ لا المشاهدة التجريبية هو الخطوه الأولى فى المعرفة التاريخية .. المؤرخ لا يستطيع ان يواجه الاحداث نفسها .. ليس لديه الا سبيل غير مباشر يؤدى الى مادته . عليه ان يرجع الى مصادره . الا ان هذه المصادر ليست امورا مادية بالمعنى المألوف لهذه الكلمة .. نعم ان المؤرخ كالعالم الطبيعي يعيش فى عالم مادى ولكن ما يجده عند بدئه البحث ليس عالما من الاشياء المادية وانما يجد عالما رمزيا ـ او عالم رموز ـ وعليه ان يقرأ هذه الرموز . وكل حقيقة تاريخية ـ مهما بدت بسيطة ـ فلا يمكن ان تُعيَّن او تفهم الا بتحليل أوَّلي للرموز . فالمواد الاولى المباشرة فى المعرفة التاريخية وثائق وآثار لا اشياء وحوادث .. ولا نقع على المعلومات التاريخية .. الا بواسطة وتدخل من هذه المعلومات الرمزية .. » (٣٣) .

« على التاريخ أن يبدأ بتلك الآثار لأنه لا يستطيع دونها ان يخطو خطوة واحدة .. وعلى المؤرخ ان يتعلم كيف يقرأ ويفسر وثائقه وعادياته (الاثرية) باعتبار انها رسائل حية من الماضي . رسائل تخاطبنا بلغتها الخاصة لا باعتبار انها بقايا ميتة منه .. ولا يكون المحتوى الرمزى فى هذه الرسائل ملحوظا على التو . وعلى العالم اللغوى والفيلولوجي والمؤرخ ان يجعلوها تنطق وان يجعلونا نفهم لغتها . واذا عجز المؤرخ عن أن يفك معنى اللغة الرمزية فى آثاره بقى التاريخ كتابا مغلقا مختوما .. (٣٤) » .

ويجب ان نسد الى هذا ثغرة اخرى فى موضوعية الوثائق والآثار هي مدى صدقها وصدق أصحابها الأول ومدى تمثيلها الحقيقى للواقع . ان اقصى ما يستطيع جامع الوثائق ومستنطق الآثار ان يقوله فى موضوعية نتائجه انها هي « الحقيقة التاريخية » لا الحقيقة المطلقة . وهي الحقيقة لكن فى حدود ما تسمح به وما تعطيه وما تصدق فيه الوثائق والآثار . انها اذن الموضوعية النسبية والعلمية « المشروطة » .

ب ـ الموضوعية العلمية فى مرحلة التركيب والتعليل التاريخي :

هذا على الاقل فى العملية الاولى من التاريخ عملية الجمع للمادة . على ان مشكلة « العلمية والموضوعية » تأخذ ابعادا أخطر واقسى فى المرحلة الثانية من عمل المؤرخ : مرحلة التركيب والتعليل وكشف السببية فيما بين الوقائع . المنطق الذاتي وحده هو الحكم ، فى هذه المرحلة الثانية . اعمال المؤرخ السابقة ليست اكثر من وسيلة لجمع المادة الاولى وجعلها على مستوى من التصفية والتنقية والموضوعية يسمح بصحة التحليل والاستنتاج . لا بد من صحة المقدمات لتصح النتائج . والتاريخ

---

(٣٣) انظر كاسيرر ـ مدخل الى فلسفة الحضارة الانسانية (الترجمه العربية) ص : ٢٩٦ ـ ٢٩٨ .

(٣٤) المصدر السابق ص ٣٠١ ـ ٣٠٢ .

الحقيقى انما يبدأ عند محاولة استخلاص هذه النتائج ، يبدأ مع مرحلة التركيب والتعليل . وهنا تتدخل عناصر كثيرة من الذاتية والحكم الحدسي والشخصي لتلقي ظلا من الريبة على موضوعية المؤرخ الذى لا يستطيع الانفصال – ولو حرص – على موضوعه . واذا شئنا كشف حدود تلك الريبة فلعلنا نستطيع ذلك بتتبع العملية التركيبية التاريخية خطوة خطوة :

الفرضية وامتحان الفرضية فى التاريخ :

العالم – فيما يقولون – يبدأ بحثه العلمي بفرضية Hypothése يضعها موضع البحث والتجربة والاستقراء والاستنتاج والتحليل . . الخ حتى اذا صمدت لكل اولئك تحولت الى نظرية علمية Théorie او مبدأ Principe او قانون او صيغة رياضية ثابتة الحدود . هذه القفزة فى المجهول لاكتشاف المجهول بالاستناد الى المعلوم تقوم هي نفسها فى اساس العمل التاريخي التركيبي ايضا . ان دور الفرضية فى التاريخ ليس بمختلف من حيث المبدأ عن دورها فى العلم ، ولكن الخطوات التالية هي المختلفة لأن « مادة » التاريخ هي التي تتأبى على الوسائل العلمية « البدائية » للعلوم . .

أ – ففي العلم يتحدثون بصورة اساسية عن المشاهده و « التجربة » وهما مستبعدتان كطريقة فى البحث التاريخي لا لشيء الا لانهما مستحيلتان (٣٥) . . فميدان العلم هو ما يمكن ان يحدث فى المستقبل واما التاريخ فله ما حدث وانتهى . الوقائع التى عرفها الماضي من المستحيل توفير كافة الشروط اللازمة لاعادة حدوبها كرة اخرى . حتى ولو توفرت الشروط فان « ما يحدث فى الزمن ز + ١ ليس ابدا هو ما كان حدث فى الزمن ز » لا لأن الزمن اختلف فقط ، ولكن لأن الانسان فى الزمن الثاني اختلف ، ولأنه تعلم من التجربة فى الزمن ز وتأثر بها ايضا . . ان الحادث التاريخي كعود الكبريت أو بعض مصابيح التصوير لا يتقد الا مرة واحدة . . تجدد وتفرد الحادث التاريخي (وهو ما يسمى احيانا بجزئيته) هما بعض ميزاته الكبرى وبعض مصائبه ايضا .

والواقعية التاريخية لا تقع ابدا تحت المشاهدة الدقيقة الشاملة والكاملة للمراقب العلمي . ليست معطاة لنا كما فى الواقعية الطبيعية – خارج الذات ولكنها تتنامى وتتكامل فى الواقع داخل الفكر ، واذا كان الاساس فى الحادث الطبيعي هو « الكم » وامكان القياس فليس فى التاريخ من كمية . ووقائعه تتأبى على أى قياس . . والتاريخ بالضرورة انما يصاغ على أساس النصوص لا أساس التجارب . يضاف الى هذا وذاك اننا نستطيع فى الغالب عزل عنصر عن آخر فى العلوم ومعاملة تركيب كيماوى او حتى بيولوجي على حدة لدراسة تفاعله وردود فعله وليس ذلك ممكنا فى التاريخ لأن نسيج الاحداث متماسك بعضه مع بعض ، متحول دوما من لحظة الى لحظة ، كالنول الابدى الضخم . وانتزاع الحدث التاريخي لعزله ودراسته عمل نظرى اولا غير قابل للتحقيق بالاضافة الى انه عند تحقيقه يكون ، عمليا ، قد الغى تاريخية الحدث وحوله الى مجرد قشور .

ويتفرع عن هذا الغاء طريقة من طرف العلم فى التاريخ ، هى الكتشف بالمقارنه ، ان المؤرخ لا يستطيع تفسير حادث تاريخي بآخر ، ولا تحليل واقعة او موقف بالرجوع الى وقائع ومواقف من

---

(٣٥) يجب ان نستثني هنا ما يسجله المؤرخ من مشاهدته الشخصية لبعض الاحداث التي يعيشها . وهي حالة خاصة جدا . وليس ثمة ما يضمن ابدا ان هذه « المشاهدة » تتم ضمن الشروط العلمية الكاملة . بالاضافة الى انها ، فى عرف المؤرخين الاخرين لا تعدو ان تكون مجرد شهادة تستحيل على معاودة المشاهدة .

النوع نفسه . القياس المنطقي عمليه شبه معطلةفى التاريخ الماثل بين يديه . لقد يستطيع ان يشير الى التشــابه . ولقد يجـرؤ فيبحث عن بعض التماثل ولكنه محكوم حتما بأن يقف فلا يصل الى التطابق الذى يصل اليه ـ لو شاء ـ كل عالم طبيعي . لو فعل اذن ألفى عامل الزمن فى الحادث التاريخي وتجاوز على خصوصيته وعلى فرديته التي تجعله حادثاً من التاريخ .

التجربة المستحيلة : اى عـدم التكـرر .التفرد . غياب الكم والقياس.عدم امكان العزل . عدم امكان المقارنــة .. هي اذن التحديات التى تواجه المؤرخ لأنها ـ وهي ممكنه دوما فى ميدان العلم الطبيعي ـ تتكل ميزات الحدث التاريخي.. ومشكلاته ايضا فى وقت معاً .

ب ـ وفى العلم ينتقل الباحث من الجـزئى الى الكلي . ومن الفردى الى العام ومن المحسـوس الى المجرد والصيغة الرياضية . ان عمل المؤرخ يكاد يكون بالضبط عكس الطريق . ان الجزئيات فى صورة الماضي هي الاساس ، والفردى له قيمة العام والمحســـوس هـو الدائرة التي لا مجال لتجاوزها حتى لقد سمى « داردیل » التاريخ علم المحســـوس (٣٦) كل حالات التاريـخ « حالات خاصة » لا يمكن ان تتحول عامة ، وهمٌ العلم هو العام . كل وقائعه فردية فى اطار زمانها ومكانها واسبابها ، ولا علم الا بالكلي . وقد فشلت حتى الآن على الاقل جميع الجهود فى ادخال الفعالية التاريخية ضـمن اطار اى قانـون تجريدى اورياضـي لأن تجريدها يلغي على الفـور طابعهـا التاريخي ويخرجها من نطاق التاريـخ الى نطاق الدراســـات الاجتماعيـة التي تنظر فى الحاضر والمستقبل . لا كليات ولا تجريد فى التاريخ .

الذاتية فى التاريخ :

والعلــم يــرفض « الـذاتي » . الاحكــام التشخصية فى العلم هي اشبه بمحرمات الدين . كهَّان التقاليد العلمية ما ان يلاحظوا ظل الذاتية فى عمل علمي حتى تثور ثائرتهم بالطبول والعِصِي، ويطردوا هذه المادة الحرام المسكرة خارج الابواب ويكسروا معها الدنان . والتاريخ كله لحسن حظه او لسوئه ـ يقوم على « الذاتي » . الذاتية قائمة فى جذور التاريـخ لأنه فى تكوينــه ليس الا علم « الانسان » .

« واذا تذكرنا هذا الطابع للمعرفة التاريخية سهل علينا ان نميز الموضـوعية التاريخيـة عن الموضـوعية التي ينتحيهـا العلم الطبيعي . لقد وصف ماكس بلانك وهو عالم طبيعي عظيـم كل عملية الفكر العلمي بانها جهـد مستمر لنزع كل العناصر « الانثروبولوجية » واقصائها ... اى علينا أن ننسى الانسان لندرس الطبيعة ولنستكشف القـوانين الطبيعية ونصـوغها وما يزال العنصر الانثروبو فورمي فى تطور الفكر العلمي يضطر الى التراجع للمؤخرة تدريجيا الى ان يختفي فى النهاية من المبنى الكامل المثالي للطبيعيات . اما التاريخ فيمضي فى اتجاه مختلف . انه لا يســتطيع ان يعيش ويتنفس الا فى العالم الانســاني . فهو ،كالفن واللغة ، انثروبوفورمي فى أساسه . فاذا طمست معالمه الانسانية حطمت فيه شـخصيته وطبيعته الخاصتين به . الا ان الانثروبو فورمية فى الفكر التاريخي ليست قصورا او عقبة فى طريق صـدقه الموضـوعى . لأن التاريخ ليس معرفة الحقائق والاحداث الخارجة وانما هو صـــورة من المعرفة الذاتية واذا اردت ان اعرف نفسى لم أستطع أن أحاول الابتعاد عنها أى أن اتجاوز مدى ظلى بل علي ان اختار السبيل المضاد . ففى

---

(٣٦) هو عنوان كتاب داردیل : L'historie science du concret.

التاريخ يعود الانسان دوما الى نفسه (٣٧) ... »(بعكس العلم الطبيعي الذى هو خروج مستمر من الذات ..) .

وقد أشار كاسيرر صاحب هذه الفقرةالسابقة الى ملاحظة دقيقة هامة تقوم فى جذور الذاتية فى التاريخ هي « ان الذات التاريخيةليست ذاتا فردية . هى انتروبوفورمية . لكنها لا تتمركز حول « الأنا » . واذا اخترنا تعبيرا فيهصورة الناقض قلنا ان التاريخ يجهد وراء انتروبوفورمية موضوعية » . وحين يعرفناالتاريخ ان الوجود الانسانى متعدد الاشكال (بولىفورمي) بحررنا من أهواء اللحظة المفردةالخاصة ونزوانها . فغاية المعرفة التاريخية اذن هي هذا الاثراء والتوسيع للذات ، للأنا العارفةالمحسه ، لا طمسها وازالتها .. » (٣٨) .

ونستطيع ان ننسى موقتاً من جهة هذاالتصعيد الذى يحول به **كاسيرر** الذاتية التاريخية الى « انتروبورفورمية » كما نستطيع ، من جهةاخرى ، ان ننسى بالمقابل الى حين ، ذلك « التحامل السخيف على المعرفة الذاتية الذىيجعلها دون مستوى المعرفة الموضوعية .. باعتبار أن كلمة ذاتى ايضا الحكم المبنى على الاعتباراتالشخصية على التصور الشخصي .. ومن هنا فهو غير صحيح او على الاقل متحيز (٣٩) ..نستطيع ان ننسى هذا الحكم وذاك ، لنقرر ان ذاتية المعرفة التاريخيه ليست نقصا فيها ولعلهابالعكس من مبزاتها . وهي تأتى من منبعين :

أولا : ذاتية المصدر : فالشهادة الشخصيةالتي يحوبها المصدر أو النص التاريخى هي حقل منمتاعر لا متناهيةالتعقد تتداخل فيها مجموعةمتشابكة غائمة او واضحة من العلل والمعلولات والاهواء . والوثيقة (وهى بدورها شهادة) اوالأثر قد يشكلان احيانا ركيزة موضوعية من الدرجة الاولى ولكن من ذا الذى يستطيع ان يقطعانهما التعبير الوحيد ، أو الكاشف الاحسن عن الماضي الذى نخلفا عنه ؟ ان صدفة بقائهما لاتعنى أنهما الحقيقة الموضوعية التي لا حقيقة تناقضها فى عصرها نفسه ، ولا تعنى انهما لايمثلان اذواق او مصالح او ثقافة او علاقة الاشخاص المحدودين الذين تتعلق بهم الوثيقة أوالاثر فى ذلك المجتمع القديم .. ولا تعنى اخيرا أن ما يستخلص منهما هو الحقيقة الموضوعية الاكيدةوالنهائية .. واللاذاتية ايضا . كل شهادة انما هى انتقاء واع او غير واع للحقيقة . وهى انتقائيةبالضروره لأنه لم يتبت حتى الآن ان مشاهدا تاريخيا واحدا استطاع ان ينقل الحقيقة الكاملة. ولم يتبين حتى الآن تطابق كامل واحد لشهادتين. ذاتية النص التاريخي كمصدر أشبه بالظل الملازم لا فكاك منها . فان كانت فى نظر العلميين « لعنة » فانها « اللعنة » الأبدية التي لا بد من قبولها على علاتها والى الأبد ...

ثانيا : ذاتية المؤرخ نفسه فاذا كان حقيقيا ان التاريخ غير منفصل عن المؤرخ « فانه من الصحيح أيضا « انا لا نستطيع الا عن طريق تمييز شكلي أن نعزل الموضوع وهو الماضي فى جانب ، وصائغه ، وهو المؤرخ فى جانب آخر (٤٠) . ذلك ان احدهما لا يتحقق وجوده الا

---

(٣٧) انظر كاسيرر ـ مقال فى الحضارة الانسانية(الترجمة العربية) ص ٣٢٣ .

(٣٨) المصدر السابق ص ٣٢٣ ـ ٣٢٤ .

(٣٩) انظر غو تشالك ـ كيف نفهم التاريخ ص ٥٧(الترجمة العربية) .

(٤٠) Marrou : De la connaissance His. P. 37.

بالآخر . وبالرغم أن الماضـي قد وجـد ولو لم يكتب احد عنه او يسجله فانه لا وجود له كمعرفة الا من خلال المؤرخ الذى يصـوغه . ولا عمل للمؤرخ ، ان لم يكن ثمة ماض محدد يفتح له ، مثل مغارة علي بابا ، مغاليقه . ليس ثمة وجود منفصل مستقل للماضي الا من خـلال وفى اطار النص التاريخي او الاثر ، وهما بدورهما من عمل المؤرخ نفسه .

وقد حاولت مدرسة « الوثائق » ان تطرد « الذاتية » خـارج الابـواب عن طـريق التقيد بالنصوص والوثائق فقط لكنها سرعان ما فشلت لأنه من المضحك والسقيم حقا اعتبار التاريـخ مجرد فعالية فكرية سجينة فى وعـاء الوثيقة اودهليز النص كالخفافيش ومن حقنا ان نسخر مع كولنجوود من هذا « التاريخ المعمول بالمقص واناء الغراء » ومن « هذه المعرفة التاريخية المصنوعة من قبل والتي ليس فيهـا سـوى الابتـلاع ثم القيء .. (٤١) .

واذا كان عمل التاريخ اوسع بكثير من حدود الوثيقة والنص بشموله كل الماضي بما فيه ، فهما واعادة تكوين ، فان هذه الشمولية نفسها تفرض على المؤرخ موقف الانتقاء الذاتى للاحداث خـلال ذلك الماضى . انها تفرض عليه وضع سلم للاهمية النسبية بينها . واختيار « الحادث » المعبر . الناس كل الناس متفقون ان معركة الزاب جرت سنة ١٣٢ هـ ، فانتهت بها الدولة الاموية ولكن هل كانت هذه المعركة هي السبب فى سقوط تلك الدولة ووثوب العباسيين على الخلافة خمسـة قرون بعد ذلك . والناس كل الناس متفقون ان الرشيد توفي سنة ١٩٣ هـ ولكن هل كان هـو المتوفي الوحيد تلك السنة ؟ وهل كانت الوفيات هى الاحداث الوحيدة فيها .. لقد وقع سواء فى سقوط الامويين او فى سنة ١٩٣ هـ من الامور الاخرى ما يحتاج تسجيله الدقيـق « الى ما لا نهاية له من الكلمات والكتب والمكتبات » ولا بد اذن من الاختيار ، اعنى الاتفاق ليس فقط على وجود الواقعة (التاريخية) بل ايضا على اهميتها . . ولما كنا لا نقدر على الاحتفاظ بكل شيء ولا بد من التخلص من خضم الوقائع اللامتناهى بواسطة حكم على اهميتها النسبية فيما بعد ، فان تقرير الاهمية (هو من عمل المـؤرخ) ويدخل العمـل التاريخى من جديد فيما يحاول اجتنابه واستبعاده ولا مفـر من ذلـك . والاهميـة هنا ذاتيـة خالصة .. (٤٢) .

وهكذا فان ذاتية النص التاريخي أو الاثر كمصادر للتاريخ تقابلها ذاتية اخرى يقـوم بهـا المؤرخ بدوره من خلال انتقائيته المقصودة او غـير المقصودة ، ومن خلال مصالحه ومعتقداته وقيمه ومعارفه .. وعمليـة التأريـخ معلقة بين هاتين الذاتيتين على الاقل . واذا كانت الموضوعية تعنى الخروج الذاتي من الموضوع والحياد المطلق تجاهه والنظر اليـه من خـارج فان هذا النـوع من الموضـوعية غـير ممكن التطبيق فى التاريـخ لأن اساس النظر اليه انما هو من داخل ، ومن خلال الذات . ويتدخل ها هنا بعد ذلـك المنظـور الوجودى للمؤرخ ، تتدخل تقديراته الفكريـة ، لتزيد فى شأن حادث او ناحية دون اخرى وتبرز قيمة نص دون آخر . كما تتدخل سعة ثقافته وعمقها لتكشف هذا الامر او تعقد هذا التحليل او تلك المقارنة او تتنبه الى عامل دون نان . ثم تأتى ميوله الفكريـة والسياسـية فللماركسي تفسيره وللديني جوه ، وللملكى رأى لا يتفق مع

(٤١) Collingwood, Idea of History, pp. 246, 257.

(٤٢) Valéry P. — Variétés (Vol. IV) P. 128-129.

الجمهوري ، ويستحرج الليبرالي من الافكار والدلائل ما لا يستخرج الاشتراكي .. وليس فى العلم موقف ماركسى أو شيعى أو لاهوتى أو برجوازى .. فان برىء المؤرخ من كل اولئك وكان الفمة فى الموهبة وسعة الثقافه واللاميول ..أفلبس هو ابن عصره ؟ وتأتى ها هنا نظرية **كروتشه** لتكشف أن « كل تاريخ انما هو تاريخ الحاضر (٤٣) أو على الاقل كما قال Ch. Beard « ان تاريخا مكتوبا لا معدى له من ان يعكس فكرمؤلفه فى اطار زمانه ومحيطه التقافي (٤٤) وهكذا فان « حياة حقائق الماضي ومعناها لا تستنبطمن المراسيم والنقوش او غيرها من مخلفات الماضى وان مصدرها جميعا هو شخصيتهنفسه .. (٤٥) وتنكشف امامهذا الحيادالمستحيل سذاجة الفكرة التي دفعت اللورد **آكتون** الى انيسجل بين تعليمانه الى المساهمين فى سفر (تاريخ كمبردج الحديث Cambridge Modern History هذه التوصية « ان تكتب كما لو انك كنت قائما على خط الطول ٣٠ غربا » .. أى فىوسط المحيط الاطلسي ، فى عزلة اجتماعية كاملة عن كل سيء (٤٦) ... مثل هذه العزلة النظرية موقف لا يمكن للمؤرح تحقيقه لأنه حتى فى وسط المحيط انما يكتب من خلال الشهادة الذاتية للآخرين من جهة ومن خلال ذاته من جهة اخرى . الحياد ، الانفصال عن موضوع المعرفة ، المراقبة« للحدث » من عل كما لو كنا نطل من قبة الفلك قد يكون بامكان الفيزيائى او رجل البيولوجيا اوالاقتصاد الاحصائي تحقيقه .. اما المؤرخ فان انفصاله نفسه يعنى الغاء موضوعه .

« وعبنا — **كما يقولفاليرى** — ينمو المجهود، وتتنوع المناهج ، وينسع ميدان الدراسة او يضيق ، وتدرس الامور بنظرة عالية جدا او ينفذالمرء الى نسيج العصر الدقيق ، ويستقصي الوثائق المحفوظة عند الاشخاص ، والاوراقالبالية عند الاسر ، والشئون الخاصة وصحف العصر والقرارات المحليه . فهذه التوسعاتالمتعددة لا تتلاقى ابدا ولا تنتهي عند فكرة واحدة تفضى اليها بل ينتهي كل منها الى طبيعة مؤلفيهاواخلاقهم ولا ينتج عنها ابدا سوى نتيجة بينة واحدة هي أستحالة فصل المشاهد عن المشاهدوالتاريخ عن المؤرح .. » (٤٧) . جميل جدا ان نضع مبدأ « الحياد » المطلق هدفا للمؤرخ ولقدتكون الموضوعية صحيحة من حيث المبدأ ،ضرورية جدا من حيت استهداف الحقيقة ولكنها تنعثر فورا عند اول خطوات التطبيق العملي . وفرق كبير بين ما هو كائن وما نتمنى ان يكون . انالنقلة بين الحدين هى التي تورط العديد من المنظّرين لمناهج التاريخ فى الخطأ .

ولعلنا نستطيع ان نضع لمحبي الصيغالرياضية، صيغة تربط ما بينالذاتية والموضوعية فى التاريخ فى العلاقة المبسطة التالية :

$$ح = \frac{ت}{ش + م}$$

حيث ح = الحقيقة التاريخية ، و ت = التاريخالمكتوب ، و ش هي الشهادة أو الاثر و م هو

---

(٤٣) Croce, contribution (trad. fran. Paris 1949) p. 100.

(٤٤) انظر جونسون — تدريس التاريخ ص ٣٣ .

(٤٥) Gentile, G., Philosophy and History p. 104.

(٤٦) انظر فو تشالك — كيف نفهم التاريخ ص ٣١١نقلا عن : محاضرات فى التاريخ الحديث .
Lectures on Modern History, (London, 1906) p. 318.

(٤٧) Valéry P., Variétés (Vol. IV) p 128.

المعادل التـخصي للمؤرخ . وكما ان الـشهادة قد تتعدد لدى المؤرخ (بشكل نصوص عديدة وآثار متنوعة ، متفاوتة القيمة من الناحية الموضوعية)كذلك فان المعادل الشخصي متعدد العناصر : فيه العديد من العواطف (ع) المتفاوتة الحدة (ونرمزللحدة بالأس أو القوة) وفيه العديد من المواهب (م) التي تتفاوت فى القوة وفيه الثقافة (ق)المتفاوتة ايضـا والتى تتضـمن تمثيل المعاصرة (ولهذا تختلف فى الاس او القوة) مما يجعل المقام فى العلاقة الماضية على الصيغة التالية :

$$\text{ح} = \frac{\text{ت}}{\text{س}_{\text{ش}}^{2} + \text{س}_{\text{ع}}^{2} + \text{س}_{\text{م}}^{2} + \text{س}_{\text{ق}}^{2}}$$

حيث ترمز **س** الى عدد الشهادات او العواطف ..الخ وحيث يمكن للاس التربيعى أن يتقدم أحيانا وان يصبح من الدرجة الثالثة او السادسة ...أو أن يلغى ...

ونتيجة لهذا كله فان المناهـج العلمية اذاكانت تسير بالمتعدد الى التوحد ، وبالمحسوس الى التجريد ، فان التاريـخ بالعكس يسـير ،بالضرورة الى التعدد والى المزيد من التفاصيل المادية والمعنوية ودقائق المحسوس من الاحداث وهكذا اذن تتعدد التواريخ بتعدد المؤرخين وبتعدد مناحي الفكـر الذاتي . وهذا ما يضـيف بعداجديدا الى الابعاد التي تفصل ما بين « العلمية » الرسمية ، وعلمية التاريخ .

سارت مشرقة وسرت مغـربا   شـتان بين مشرق ومغـرب !

ليس من احد المؤرخين أو فى غيرهم يعتبرالتاريخ مجرد نسخ حَرْفيّ لأقوال الآخرين ، كما ليس من احد يقبل ان يكـون التاريخ مجردسنوات ولادة ووفاة وحروب متفق على موعدها واسمائها . هموم المؤرخين مرتبطة دوما بالتعدد ،موصوله دوما بالمزيد من الجزئى والفردى ، هاربة ابدا من التجريد لأنه يقطع فورا ما بينهـا وبين منبعها الحي فى الواقع ، وذلك شرط اساسي فى الادراك التاريخي .

السببية فى التاريخ :

المنهجية فى العلـوم نفضـي بعد ادراك « الحدث » بادخاله فى حدود المعقولية . بجعله منطقي الحدوث ، قابلا للادراك والفهم والتوازن الفكرى ولتطبيق حيل العقـل عليه . ذلك هو الاساس فى ما سموه منذ اكثر من قرنين «السيطرة على الطبيعة » عن طريق فهم قوانينها . ولعلنا نتكر الواقع ان قلنا ان المؤرخين لا يبذلون اقصى ما لديهم من قوى الفكر لاخضـاع التاريـخ الى المعقولية . والتقاط منطقـه الناظم للاحداث .الغزو فى هذا الميدان مستمر ، لم يهدأ منذ ظهر التحدى العلمي .. ولكن أين وصل ؟ واين يمكن ان يصل ؟

ان المعقولية فى التاريخ هي بالضرورة اكثر تواضـعا من معقـولية الحدث الطبيعـي . لأن الحقيقة هنـا غير الحقيقـة هنـاك فى النوعية .الحقيقة العقلية فى التاريخ ليست تتصل بالتأكيد الرياضـي العقلي ولا بالحتميـة التجريبيـة من فيزيائية وكيماوية .. حيـث تجرى المعقولية فى حدود المنطق الارسطى ، واللاتناقض والسببية المباشرة ومبدأ العلاقة الحتمية . اما فى التاريخ فليست المعقولية على الاطلاق اكثر من الاحتمال العقلي للحدث ، وان لا يكون ثمة من سبب كاف

لرفضه او انكاره (٤٨) . فكأنها هي ما يســـميه **البراجماتيون** : « الكفاية العملية A practical satisfactoriness هذا المبدأ الاساســـي من نظرية التاريخ قد انضح تماما منذ **ليبنتز** الذى اشار اليه حتى **ريمون آرون** الذى كتب : « ان كيفية الاحكام التاريخية هي الامكان » (٤٩) . . والاحتمال الذى لا علاقة له لا بالاســـتنتاج الرياضـــي ولا بالتجربة المادية .

ويمكننا ان ننقل القضية الى مستوى آخر لنرى فيها قضية السببية فى التاريخ : فهى الوجه الآخر التقليدى لعملية « تعقيل » التاريخ وربطه المنطقى سببا بحدث ، وواقعة باخرى . وعملية التأريخ العملية ليست فى الواقع شيئا آخر سوى تفسير المجهول بالمعلوم وتعليل الحدث بما يوازيه من الاسباب وبما يمكن ان يكون منطقيا دافعا من دوافعه وعنصرا من مكوناته . هي كشف النسيج الذى يكون ماضى الانسان فى دوافعه وروابطه .

واذا كان جمع المادة التاريخية هو الخطوة الأولى فى العمل التاريخى فان التعليل المنطقى هو الخطوة الحاسمة والاخيرة فى كتابة التاريخ » (٥٠) . سرد الاحداث واحدة بعد اخرى مهما بلغ من الدقة والموضوعية ليس أكبر من تقويم كرونولوجي ولا يعتبر ، فى نظر المؤرخين ، اكثر من نصف العملية التاريخيـــة التي لا تكتمل الا بادخال المعقوليـــة والروابط المنطقية بين حدودها . والسببية فى التاريخ هي اليـــوم مظلته العلميـــة . هي الركن الاساسى ان لم نقل الوحيد الـــذى يقيم عليهـــا موضـــوعيته ودعـــواه للحاق بالعلـــوم . ندر فى المؤرخين الآن من يفتش عن الغائيـــة الاولى ، او يبحث عن الاخـــلاق والعبـــرة او يلاحق الآمتاع الادبي . ان التاريخ محصور الهم الآن فى « فقه الماضي » فى فهمه ودراسة الاســـباب والنتائج والروابط فى الاحداث بعضها مع بعض . ان عمله هو التحلل المستمر افقيا وعموديا .

لقد وضعت فى المتاحف منذ زمن طويل تلك المغالطة القديمه التي كان يعبـــر عنهـــا بالعبارة اللاتينية Post Hoc, ergo propter hoc اى جاء هذا الامر بعقب ذاك اذن جاء بســـببه . ان توالى الوحدات الزمنية (من ايام وسنين) ليس يعطي الاحداث التاريخيـــة اكثر من التـــوالى الكرونولوجي . انه اشـــبه بالترتيب الابجدى - على حد قول فاليرى - فأما العلية والسببية الحقيقية ما بين ســـابق ولاحق فيجب ان نفتش عنها فى مستويات اخـــرى تذهب عمقا وجذورا وحجما الى ابعاد قد لا تخطـــر للوهلة الاولى فى بـــال .

ومسلمة السببية فى التاريخ تســـتند الى مسلمة سابقة عامة ، تقرر ان مســـيرة الحيـــاه (والبشرية جزء منها) تخضع لنظام شامل يربط بين الاجزاء ويقود النوع الانسانى (كما يقود غيره) وان بامكان العقل البشرى ان يصيب بعض التوفيق فى محاولة الكشف عن علل الحوادث وترابطها .

واذا كانت كلمة « ســـبب » (وهى الكلمة التي تقف الى جانبها كنتيجة لها كلمة الحتمية) كثيرة الاستعمال بصيغة المفرد فى العلوم الطبيعية فيبدو اننا لا نستطيع ، فى التاريخ ، ان نستعملها الا بصيغة الجمع . ليس ثمة من « سبب » مفرد لأى واقعة تاريخيـــة مهما صـــغرت . ثمة دوماً أســـباب وعلل وعوامل ودوافـــع وبنى وتراكيب والكثير منها يعمل على طريقة كرات « البليارد » عن

---

(٤٨) انظر مارو - من المعرفة التاريخية ص ٩٤ - ٩٥ .

(٤٩) انظر : Aron, R. — Introduction à la Phil. de l'His. p. 196

(٥٠) انظر Carr. E. H. : What is history p. 86.

طريق التأثير المثلث او المربع عبر عدد من التأثيرات السابقة .. « ومنذ أمد قصير ، اعلنت مجموعة من المؤرخين الامريكيين فى مجموعة رسمية من المقترحات للحكومة .. ان مصطلح « سـبب » حسبما يستعمله المؤرخون يجب ان يعتبر مجازالغويا ملائما لوصف الدوافع والتأثيرات والقوى وتداخلات سابقة اخرى لا تزال غير مفهومة تماما . ويمكن تعريفه كأى حادثة سابقه تجرى فيما هو مفترض ان يكون مركبا نتائجيا متشابكا . ويترتب على هذا التعريف ان اى سبب لا يعمل مطلقا الا كجزء من مركب او سلسلة » (٥١) .

وبدهي ان الاسباب فى التاريخ تتفاوت حجما ونوترا وحدة وعدداً . والعوامل المحركة الكبرى ليست دوما محركة ولا كبرى وبعضها انما يستمد قوته من الظروف التي احاطت به ، ولو جاء فى ظروف اخرى لكانت فاعليته الى الخمود وربما الى الانعدام . وهكذا فليس من الضرورى ان تكون العوامل المحركة فى التاريخ دوما عوامل ضخمة او متعقلة بعدد كبير من الناس او بمشاعر ايمانية شامله أو مواقف مصيرية ولعل العكس احيانا هو الصحيح . ان زلة لسان او كبوة فرس او عضة قرد او تأخر قائد فى النوم اومرض عالم لها ـ عند التقائها ببعض الظروف والعوامل ـ ما للعوامل الكبرى من الاثر فى انعطاف التاريخ ليس من الضرورى ان نفتش عن صراع الطبقات ، او ظهور البطل او انبثاق الافكار الايمانية لنجد « محركات » واسباب بعض وقائع التاريخ التي تدور .. لمجرد لحظة جنون ، ثم تأتي مركبة الاسباب الاخرى على الاثر .. اليس هذا ما يسمونه بالاصطلاح التقليدى بالاسباب المباشره وغير المباشرة ؟

وهكذا فالسببية فى التاريخ هي فى الواقع محاولة الكشف لا عن « السبب ولكن عن تلك المجموعة المركبه من الاسباب والعوامل الكامنة فى كل حدث . وقد دخل مفهوم السببية فى السرد التاريخي بشكل اصبحت كتابة التاريخ بدونه مجرد فهرسة أو تخطيط زمني للسنين » (٥٢) . ارتبطت فى الواقع ، علمية التاريخ الى حد كبير بهذه المحاولة الفكرية لتلمس الاسباب . ومع ان المؤرخين قد حققوا ـ فيما يبدو ـ جانبا من النجاح فى هذا الميدان فانه من الواجب ان نعترف ان مشكلة السبب التاريخي ما زالت فى جوهرها دون حل . واهم مشاكلها ليس الغموض فحسب وتركيز بعض المؤرخين على اسباب دون اخرى ولكن ايضا تحديد الفترة الزمنية التي يجب ان نفتش فيها عن الاسباب والبنى المتشابكة للاحداث اللاحقة ثم معرفة العوامل الثابتة والمتحولة فى كل حدث : عددا ونوعا واثرا(٥٣) . مع الاخذ بعين الاعتبار أن بحث العلل الاولى هو مشكلة غيبية تخرجنا من ميدان التاريخ الى رحاب الميتافيزيك . واذا كانت عملية التأريخ مرتبطة بخطين من الاعمال : كيف حدث ؟ (الوصف) ولماذا حدث ؟ (التعليل) فقد يكون الجواب على (كيف ؟) حتى بالشكل الدقيق المنطقي أسهل بكثير من الجواب على الـ (لماذا ؟) التعليلية . واذا كانت (كيف ؟) قد تجر الى السؤال عن أى الطرق وبأى الوسائل وضمن اى الظروف من اجتماعية أو طبيعية أو دينيه أو نفسية ، تم ذلك الحادث المركب الذى تحقق فى وقت ما وفى

---

(٥١) انظر غو تشالك ـ كيف نفهم التاريخ ص ٢٥٥ ـ ٢٥٦ (الترجمة العربية) .

(٥٢) المصدر نفسه ص ٢٥٦ .

(٥٣) انظر المصدر نفسه ص ٢٥٨ ـ ٢٥٩ .

مكان ما من التاريخ فان مشـكلة الـ (لماذا ؟) ترتبط بعملية غوص بعيدة الاغـوار عن العوامل السيكولوجية والاقتصادية والجغرافية والمناخية والفكرية والاجتماعية التي أثرت في تكوينه واخراجه على السكل الذى خرج فيه . وقد اقترح **غوتشالك** الاقلال من استعمال كلمة سبب واسـباب لدى المؤرخين والاتجاه الى كلمات اكثر دقة .. بلى أكثر دقة لأن كلمة الاسباب قد توحى بالسببية المباشرة بينما يتصل بتكـوين الحدث التاريخي دوافع واهداف ومناسبات وسوابق ووسـائل قريبة وبعيدة لا تكاد تحصى معرفة .

ونصل اخيرا فى مجال بحـث السـببية التاريخية الى مشـكلة هامة تقطع الطـريق على الاسباب المعقولة هي مشكلة الاحتمال والصدفة . المؤرخون يلاحظون احيانا ان ثمة امورا وحوادث فى التاريخ تتأبى على « المعقولية » . وتسير فى ماوراء السببية التـي نفهـم ونصـطنع .. فكأن المعقولية ليست وحدها التي تحكم قوانين التاريخ ومسيرته ... بلى ! ثمة فى حدود ما نعرف من احداثه وعواملـه عنصر من العبـث absurd واللامعقول ليس له اى معنى ولا أى تفسير او غاية ، ولكنه مع ذلك واقع تاريخى قائم . يقول المؤرخ فيشر : « لقد حرمت من لذة فكرية هي انني لا افطن الى ما فطن اليه من هم اكثر مني علما وحكمة ، اذ يرون فى التاريخ حكمة مرسومة محبوكة وايقاعا منظوما وقدرا محتوما للوقائع ، سابق التقدير .. اننى لا أرى الا مفاجاة تتلوها مفاجاة كموجة تلاحق موجة » .

ولا تعنى اللامعقولية فى بعض التاريـخ انه مضاد للعقل او مناف له . انها لا تعني أكثر من ان مظاهر الوجود الانساني كما تتجلى فى التاريـخ تحتاج الى نظرية اشمل من النظام العقلي التقليدى لاستيعاب حدوده ، كل الحدود . وابرز ما يتجلى العبث واللامعقولية فى هذا العنصر الذى نسـميه فى الاصطلاح الدارج « بالصدفة » أو الاحتمالات . والصدف فى التاريـخ ـ كما فى حيـاة الافـراد العادية ـ ليس اكثر منها . المـؤرخ **فاندرياس** وضع كتابا حول قضية الاحتمال والصـدفة فى التاريخ (٥٤) . ودرس فيه ، بين ما درس ، حملة نابليون على مصر وكشف بشكل واضح غرابة بعض المواقف ودور الصدف فى ذهاب **نابليون** وعودته فى البحر ، وفى كارثة أبى قير البحرية (٥٥) .. ويمكن أن نأتي بألف مثل من كل تاريخ على « الصدفة » التي حولت مجارى التاريخ . ان نجاة صلاح الدين مثلا ثلاث مرات من خناجر الاسماعيلية التي لم تكن تخيب مرة واحدة مع غيره .. صدفة لو انها نجحت فماذا كان يتحول فى التاريـخ ؟ وهروب المتحالفين السلاجقة أمام انطاكية سنة ١٠٩٧ دون حرب صـدفة لو لم تقـع فماذا كان يبقى من الحروب الصليبية ؟ ولو ان معاويـة كان اقصر عمرا فمات فى خلافة علي فأين كان يتجه التاريخ الاسلامى ؟ ويتحدثون بالنكتة التاريخيه التـى اطلقها **باسكال** حين قال : لو كان انف **كليوبطره** اقصر لتغير وجه العالم . ولكنها قد لا تكون مع ذلك مجرد نكتة او مبالغة . فان التاريـخ ملىء بالمفاجآت والصدف التي تغير سير الامور دوما ، ومن ذا الذى كان يستطيع ان يقدر مثلا فى صيف سنة ١٩٢٠ ان عضة قرد مدلل فى خـريف تلك السنة لملك اليونان سوف تؤدى الى سلسلة من الحوادث المفجعة يموت فيها ربع مليون انسان . او من ذا الذى لا يرى الصدفة فى نجاة عبدالرحمن الداخل من القتل والسهام تلاحقه وهو سابح فى

---

(٥٤) Vendryes . De la Probabilité en histoire, 2 Vols. Paris 1958.

(٥٥) انظر المصدر السابق ج ١ ص ٣٦٤ وما بعد .

الماء ليكون منه ومن أولاده قسمة العالم الاسلامي. وقيام دولة الاندلس ؟ .. ان من الصعب جدا ان نقدر ماذا كان عليه تاريخ الشرق الاسلامي لولا صدفة انتصار الكمين الذى اقامه قطز للمغول فى عين جالوت ، وماذا كان عليه تاريخ فرنسا واوروبا لولا خوف اصحاب الفافقي على متاعبهم فى معركة بلاط الشهداء وتراجعهم لحمايته ..وبالمقابل فانا نعرف الى حد ما ماذا فعلت صدفة الحصول على القنبلة الذرية قبل نهاية الحرب العالمية الثانية لا بعدها ، وصدفة وجود الجمل مع العرب ايام الفتوح ، ووجود القوس البعيدة المرمى فى ايدى السلاجقة . كما نعرف ماذا فعلت صدفة ابتكار ايقاد النار ، واستخدام العجلة من ثورة كوبرنيكية فى تاريخ الانسانية ؟ وماذا نفعل اليوم صدفة ابتكار الترانزستور سنة ١٩٤٨ لا سنة ١٩٧٣ . وابتكار نظرية النسبية فى مطلع هذا القرن لا وسط القرن الماضي . وصدفة مقتل ولي عهد النمسا سنة ١٩١٤ لا سنة ١٩١٥ او ١٩١٠ . وصدفة تأخر (غروشي) فى الوصول الى ميدان واترلو فى الوقت المناسب وهزيمة نابليون التي غيرت وجه التاريخ الاوروبي بعد ذلك .. وصدفة اصابة الاسكندر المقدونى بالملاريا وموته المفاجىء وهو فى أروع الشباب وتمزق الامبراطورية من بعده .. الواقع انا نحن مضطرون لأن نعترف بأن فى مسيرة التاريخ (وبالتالى فيما يمكن ان تكون عليه قوانين التاريخ) جانبا واضحا متروكا للفعل الحر ، جانبا لا نحدد زمانه ومكانه وابعاده الاسباب التى تقع تحت معقوليتنا . وان افعال الانسان فى الماضي وان كانت تخضع الى حتمية معقدة الحدود ، فانها فى الوقت نفسه كانت تحوى عناصر من « حرية » التصرف ، تفاجئنا فى كثير من الاحيان اذا ما نحن استعنا على كشفها بهذا الحرف الصغير « لو » وبدأنا التساؤل : « لو أن .. » . وبالرغم من انه ليس من التاريخ ان نبحث فى هذه « اللوات » التي تحمل معنى القلق (٥٦) ـ كما يقول فاليرى ـ والتى تضعنا فيما وراء التاريخ الا اننا لا نستطيع ان نمنع انفسنا ونحن فى اطار السببية الحتمية فيه ، من ان نضع مبدأ الاحتمال فى موضعه من سلم العوامل والاسباب ، ومن ان نقرر ان ثمة امكانيات معقولة كثيرة فى عدد كبير جدا من الاحداث لم تحدث رغم معقوليتها . واحدة فقط حدثت بفعل الصدفة . احتمال واحد جرى وماتت الاحتمالات الباقية فكيف تقوم العلاقة السببية الحتمية ما بين الواقع وبين الاحتمال العبثي الرواغ ؟

ان **فيبفر** يكتب فى هذا الصدد : « ليس ثمة ضرورات حتمية ثمة دوما امكانيات فقط . والانسان باعتباره سيد امكانياته هو الحكم الذى يحدد استخدامها .. (٥٧) » .

وقد حلل الباحث الفرنسي **شولغين** (٥٨) مشكلة الصدفة فى التاريخ . ذكر الآراء فيها . قال : « ان العلم ومعظم الفلاسفة يرفضونها » . « ليس ثمة من صدفة . هناك ما يعادلها وهو جهلنا لاسباب الاحداث » ـ كما يقول دافيد هيوم ـ ولكن التاريخ هو الوحيد الذى يقبل بشكل واسع وجود الصدفة . ومن يرفض الصدفة ـ على حد قول ـ **ادوار مير** Meyer

---

(٥٦) انظر فالرى ـ خطبة فى التاريخ (ترجمة عبد الرحمن بدوى ـ فى « النقد التاريخي ») ص ٣٠٢ .

(٥٧) Febvre L. A Geographical introduction to History (London 1925) p. 236.

(٥٨) Choulguine, Alexandre : L'Histoire et la vie
Ch. IV, le hasard pp. 69-82 et Ch. IX le probleme des lois et du hasard pp. 187-207

او دور الارادة الانسانية فى التاريـخ او يقلل من اهميتها يلغي منه كل خصبه ، كل ما يمثل النقطة الاساسية فى الدراسات التاريخية .. « ويذكر شولغين : بجانب الصدفة التي هي تعبير لفظي عن جهل الاسباب صدفا من نوع آخر : صدفة تقاطع وقائع مستقل بعضهـا عن بعض . والصـدفة البسيطة العمياء كلعب الحظ دون اى قانون ودون اى سبب فى وقت واحد ... » كل ذلك يقع فى التاريخ .. وكثيرا ما تحرك الصـدف القوانين الكبرى فيه ... ان وجود الصدفة غير قابـل للانكار . حتى فى العلوم الطبيعية وفى علاقات المادة أليس من مكان لقانون الاحتمـالات ؟ أليسـوا يتحدثون عن التـذوذ عن القانون ؟

بلى قد لا تكون « الصدفة » نوعا من فوضى العلاقة . قد لا تكون ـ وهو الارجح ـ نوعا من الهوى العشوائى الاعمى لقـوى غيبية عابثة ... ولقد تكون بالعكس هى الاسم المبهم الذى نطلقه على مجموعة تلك البنى التكوينيـة والاسـباب والعوامل الدقيقة المعقدة الخفية التي نجهل والتي تجعل حدثا من الاحداث يقع كنتيجة منطقية لهابينما لا تقع فى الوقت ذاته او بدلا منـه احداث اخرى من مثله ليست اقل منطقية ولا معقولية ولا قابلية للحدوث منه . . وهذا يعني ان «العبثية» قد تكون ظاهرية فقط ، وقد تكون اللامعقولية نسبيه وعارضة تمتد بمقدار ما يدوم جهلنا لتلك العوامل والبنى المشتبكة والمتفاعلة وراء الحدث ، والتي لم تطلها حتى اليـوم المقاييس والمناهـج والمعارف المتوفرة فى ايدينا ... ولكنا حتى كشف تلك العوامل سنظل ، فى السـببية التاريخية ، مضطرين لافساح مجال كبير جانبي .. لمفاجآت الصدف . وهو ما لا تقبل به العلوم ولا ترتضيه مبادىء السببية العلمية المتزمتة . انه يقع خارج نطاقها .

القانون فى التاريخ :

ونصل اخيرا الى متـسـكلة « القانون » فى التاريخ والناموس الشامل . ان نهاية المسـيرة فى المنهج العلمي هو الوقوع على القانـون ، على الصيغة الرياضيه التي تحكم علاقات الاحـداث وتسمح بالتحكم فيها وتكرارها . العلماء الطبيعيون منذ كشفوا بعض هذه القوانين ، شطح بهم الامل الى أن يتصوروا أن الطبيعة أضحت « لعبة » العالم .. رغم انهم لا يفقهون « سر » اللعبة . هوس الصيغ الرياضيه بلغ قمته مثلا فى قوانين النسبية البالغة التجريد والتعقيد . على أن هذه القوانين نفسها ليست ـ فيما يبدو ـ اكثر من لعب اطفال امام تعفيد « قوانين » التاريخ التي نفترض وجودها عقليا من خـلال آثارها ... ولسنا اكثر من فراش يحوم دون هدى كثير من حولها .

واذا كان « التفسير فى التاريخ هو الكشف ، الادراك ، التحليل لالف رباط يوحد بطريقة قد تكون غير قابلة للتعبير الرياضـي أو اللغوى ، الوجوه الكثيرة للواقع الانساني (٥٩) » فان البحث يجب ان يتركز حول هذا « القانون » المفترض الذى يمكن ان يجمع فى حدوده الف رباط تعمل معا على تركيب « الواقع » الهاوى باستمرار فى هوة العدم والماضي ..

ان السؤال هنا يصبح ذا شقين : هل القانون فى التاريـخ ممكن ؟ واذا كان ممكناً فما شروطه والحدود ؟

---

(٥٩) Marrou : De la connaissance his. p. 184

لعل الصيحة التى صـاحها ،**ادوار شيني** E. P. Cheyney فى خطابه امام الاتحاد التاريخي فى امريكا فى كانون الاول (ديسمبر) سنة ١٩٢٣ والتى قال : « يجب ان تكـون هنـاك قوانـين للتاريخ » ، واحدة من آخر الصيحات التي اطلقها جيل العلميين من مؤرخي القرن الماضي ، مصرين فيها على دفع التاريخ الى حظيرة العلوم الطبيعية ولو بهدم شيء من « اسوار » العلوم او اقتطاع شيء من ابعاد التاريخ فى الطول والعرض والذؤابات .. لقد قوبل خطابه بالترحاب الشديد يومذاك ، وبالاعجاب والموافقة على القوانين التاريخية التي قدمها للناس .. فما هي تلك القوانين ؟ « ذكـر شيني بكثير من التواضع ولكن بكثير من الشجاعة صيغ قوانين ستة سماها مجرد حدس او تخمين . القانونان الاول والثاني وهما قانونا الاسـتمرار والتعبير .. (ويتعلقان) بحقيقتين اساسيتين من حقائق مفهوم التطور . اما القوانين الاخرى فهى قانون التكافل ومعناه ان الامة تنهض او تضمحل كوحدة . وقانون الديمقراطية ومعناه ان ضبط حياة الجماعة يتجه نحو الديمقراطية وقانـــون حرية الاختيار ومعناه ان الضغط يولد الانفجار والكارثة . وقانون التقـــدم الخلقي ومعناه ان المؤثرات الخلقية تميل لأن تكـون اقـــوى من المؤثرات المادية » (٦٠) .

والمستعرض لهذه « القوانين » سرعان مايلاحظ انها لا مجال للمقارنة بينها وبين القوانين العلميه ، حتى ولا تلك القوانين التى تترك الصيغ الرياضية الدقيقة لتكتفي بالنســب والارتباطات العامة . واذا كانت « القـــوانين الطبيعية » على اربعة ضروب : فمنها القوانين الكونية العامة ، ومنها القوانين الجزئية المتعلقة بزاوية من زوايا الطبيعة . ثم هناك القوانين المطلقة وهناك القوانين النسبية الاحتمالية .. فأى نوع من القوانين هي هذه « التعميمات » التاريخية التي تدفع بالجهد الارادى الى دنيا القـــوانين ؟ لقد زرع تاريـخ « فلسفة التاريخ » زرعا بقوانين اعداد واشتات من مثل هذه التعميمات التي لا تكاد احيانا تحق حقا ولا تفسر ملاحظة ولا تسمح بأى تنبؤ .. ولو من قبيل التنجيم ! منذ **ابن خلدون** مثلا الـذى وضع ما يزيد على عشرة قوانين من هذا النـوع قال فيها قبل خمســة قرون : بجدلية التاريخ وديناميكيته وقيام الدول ثم تماسكها بالعصبية . وان الاجتماع الانساني يتطـور من البداوة الى الحضر فى سنة طبيعية دائمة وان الدول كالبشر تولد وتمنو وتكبر ثم تضـــمحل وتموت . وان الحضارات تتعاقب عليها ثلاثة اطوار : بداوة ثم حضر ثم اضمحلال اقتصـــادى وخلقي . وان الاقليم والعوامل الجغرافية تؤثر فى التاريخ وان العمران مرتبط بالاقتصاد واختلاف الاجيال انما باختلاف نحلتهم فى المعاش وان . وان .. جاء بعد ابن خلدون كثيرون حاولوا وضع هذا النوع من القوانين ... منهم هيجـل ومنهـم ماركس ومنهم اللورد آكتون ومنهم .. ومنهم .. فهل هذه هي القوانين التي يبحث عنها التاريخ لتكون جواز مروره الى ارض « العلم » ؟

الواقع ان محاولة **شيني** « القانونيـــة »والاعجاب الشديد بها لم يكونا نتيجة القناعـة بالوصول اخيرا الى قوانين التاريخ ولكنهما كانا يعبران عن الحرقة البالغة لدى انصار التاريخ « العلمي » لأنهم ، فى الحقيقة ، لم يسـتطيعوا الوصول الى اكثر من « التعميمات » التي لا تصل حتى الى درجة الكليات المقبولة .. انهم كانـوا يتعلقون بأى طيف « للعلمية » قبل ان تغـرق نظريتهم فى موجة النقد العلمي والرفض .

---

(٦٠) جونسون ـ تدريس التاريخ (الترجمة العربية) ص ٣٥ .

والآن وقد اضحى العلماء والباحثون اكثر فأكثر اطلاعاً علـى دخائل الكائن البشرى وعلى ابعاد تاريخه وعلى عمق الآثار وتعقد المركبات التي يحملها ضمن اهابه من ذلك التاريخ ، فانهم قد امسوا اكثر تواضعا فى طلب العلمية الموضـوعية للتاريخ ، واكثر سعة فكرية فى فهمهـا .. كما باتوا ايضا ، وفى الوقت نفسه ، اكثر يأسا من الوصول .. الى « الناموس » الاكبر الذى يحكم التاريخ .

ان امكان « القانون ، او عدم امكانه ، يجب ان يفتش عنه فى المقولات الاساسية التي تحكم المسيرة فى التاريخ . ان سلسـلة المقولات التي يستند اليها العالم الطبيعى للوصول الى القانون وتحقيق صيغته الرياضية وقوته فى التنبؤ يمكن ان نختصر فى الحدود التالية وكلها حدود سكونية:

المادة (الثابتة) ⟵ العلية (كعلاقة) ⟵ الكلية أو القانون (كحتمية مجردة عن الزمان والمكان) . أما سلسلة المقولات فى التاريخ فمختلفة تمام الاختلاف وكلها حدود حركية :

الانسان (الدائم التحول بيولوجيا ونفسيا ومعرفـة واجتماعيا ومعيشـة) ⟵ الزمان والمكان (المتبدلان) ⟵ العلية (كعلاقـة) ⟵ الصيرورة (كحصيلة للتحولات) .

ان الحد الوحيد المشترك بين السلسلتين هو وجود العلاقة السببية ولا يمارى فيها احد من الباحثين . ولكن التشابه ينتهي عندها بعد ذلك فالانسان ليس مادة فحسـب ولكنـه مادة حية وواعية وهو يتغير دون انقطاع لا من عصر لآخر ولكن من مكان لآخر ومن تكوين عرقى الى تكوين آخر ويتغير باستمرار بيولوجيا كما يتغير نفسيا ويتغير فى المعرفـة ونتائجهـا وفى البنى الاجتماعيـة والتكوينـات الاقتصادية ، وتختلف آثار الزمان فيه وتأثيرات المكان فى رواسب وردود فعل وارتكاسات ومواصفات لا تنتهي حدة وعددا وتوترا واستمرارا . ولعل فقر العلاقة الرياضية، فى العلوم الطبيعيه ، وبساطة حدودها تتبدى هنا عند المقارنة ... فان العلم الطبيعي – بالمقابل – انما يتعامل مع مادة هامدة ثابتة الكم والحجم والوزن والصفات ، خارجة عن حدود الزمان والمكان ! . واذا شئنا ان نضيف بعض الايضاح قلنا :

أ – ان المعرفتين العلمية والتاريخية تنتميان فى الواقع الى موضوعين مختلفين :

الطبيعة والانسان . وتتناول الاولى العلاقة الثابتة ، الكمية ، القابلة للتجلى بشكل قانـون رياضي . بينما تتناول الثانية العلاقة المتحولـة دوما اى تحليل التغير وضبط حدوده فى الصيرورة .. ان **تحول** الانسان **وزمانيـة** التاريخ **ومكانيته** هي التى تمنع من الوصول الى قوانين انسـانية **ثابتة لا زمانية ولا مكانية .**

ب – وليس فى التاريخ ، الى هذا ، اطراد طويل الامد يصلح لتعميم القانون بالمعنى الرياضي الحتمي . نفرد الحادث التاريخي، جدته المستمرة، جزئيته كلها ترشحه لرفض القانون . بالشـكل الذى يأخذه فى علوم الطبيعة على الاقل . انها تلح فى الوصول الى قانون ذى شكل آخر مختلف تمام الاختلاف ... لعل من المؤسـف ان العلماء لم يصلوا بعد الى تطوير المقولات الاولية التي يمكن ان تحتوى كافة حدوده . لم يصلوا الى ان يضعوا فيه بديهية كبديهيـة اقليدس او مبدأ من نـوع مبادىء ديكارت فى المنهج . او مقولة فى المنطـق التاريخي من نوع مقولات ارسطو فى المنطق .. علماء الطبيعة طوروا مع العصور وسائل وطرقا فى البحث، واتفقوا على مبادىء وفرضيات أقاموا على اساسها العلوم الطبيعية ، ولعل تعقيد العلوم الاجتماعية الانسانية هو الذى منع من تطويـر الوسائل المماثلة فيها ... ولعل من ضيق الفكران نحدد مفهوم العلم فى اطار العلوم الطبيعية

ذات القوانين الرياضية ، وهي ليست اكثر من زمرة محدودة من المعارف الانسانية . ومن الظلم للتاريخ (وللعلوم الاجتماعية الانسانية معه) ان نقسره على الخضوع لوسائل المعرفة المبسطة والحدود الرياضية السكونية التي نصطنعها للمادة الهامدة فى تلك العلوم ... ليس هذا من نوع التحيز للفلسفة المثالية ضد الفلسفة الوضعية التى ترى أن « العلوم » وحدها هي مستودع المعرفة الانسانية الوحيد ... ولكنه نتيجة الضرورة فى اقامة التوازن فى الفكر الانساني ما بين مختلف الكشوف والمعارف التى وصل البها حتى الآن ... وخاصة فى عالم هذا « الانسان المجهول » والمعقد فى وقت معا .

جـ ـ ثم أن « التاريخ الانسانى فى سيره يتأثر تأثرا قويا بنمو المعرفة الانسانية ... ولا يمكن لنا بالطرق العقلية أو العلمية ان نتنبأ بكيفية نمو معارفنا العلمية .. واذن فلا يمكننا التنبؤ بمستقبل سير التاريخ الانساني » (٦١) . ضمن قانون حتمي . وهذه الملاحظة الهامة التي لخص فيها يوبر بنفسه كل فكره حول « عقم المذهب التاريخى » يمكن لنا ان نعممها فنقول ان التاريخ يتأثر ايضا بتطور المجتمعات ، وتغير طرق المعيشة ونطور البنى النفسية للانسان بل وبتأثيرات التاريخ العكسية فيه .. فلا يمكن التنبؤ فيه بالمستقبل بشكل يقيني ولا شبه يقيني ما دامت المعطيات الاولى لتلك المتحولات المؤثرة فيها كقبض الريح ، تفر من بين الاصابع حتى الآن فى اللجة الواسعة للحياة .. منذ مائة سنة أى فى سنة ١٨٧٤ كانت شوارع اعظم المدن الاوروبية الراقية مملوءة بحيوانات البر ، وكانت السماء ملكا للطير وحده . وكانت الاجسام الصلبة العتمة صلبة وعتمة . وكأن الساعات كلها سواسية امام الكون ، وكأن المكان يتمتع بالتجانس واللانهائية . وقوانين نيوتن وغاليلو وديكارت هي اليقين العلمى الذى لا يقين بعده .. من ذا الذى كان بامكانه أن يتنبأ ، لو كتب التاريخ تلك السنة أو من ذا الذى كان بامكانه ان يضع القانون الذى يعرف ولو على الظن والحدس اوحتى الحلم البعيد (غير الروائي) ان الآلة سوف تطرد الانسان والحيوان من العمل ، وان الجو سيصبح للطائرات والصواريخ والاقمار والمركبات النازلة على القمر ، وان كل ما كان يطمئن اليه العلماء كحقائق أبدية من مفاهيم وقوانين فى الزمان والمكان والطبيعة سوف تنسفه من جذوره مفاهيم اخرى تغير وجه التاريخ ؟

د ـ وفى التاريخ احتمالات وصدف تشكل ـ ضمن حدود المعرفة الانسانية الحالية ـ نوعا من اللامنطق ، ضمن منطقية السير الكوني له . انها تمد لسانها لكل قانون . واذا كان حساب الاحتمالات ممكنا فى النطاق الرياضي والطبيعي فمنل هذا الحساب يتأبى ، حتى الآن ولعله سيظل طويلا على التأبى ـ على كل قانون .. على الاقل لكثرة ما يتصل به من حدود رواغة او مجهولة . ان كلمة « لو أن .. » كاشف كبير فى التاريخ لمفعول السحر الفكرى . انه على الاقل يكشف أن منطق « الحتمية » غير مطرد ابدا فى التاريخ . يكشف ان سبل الاختيار لم تكن كلها مغلقة فى الحدث التاريخي وان السبيل الذى سلكه ذلك الحدث لم يكن السبيل الوحيد . ان هذا وحده يكفى لايقاف أى « قانون » حتمى . مشلولا وخارج التاريخ . من ذا الذى مثلا كان يستطيع ، حتى لو ملك جميع المعارف اللازمة لوضع القانون التاريخي ، ان يضع الصيغة التي تتنبأ بانهيار اليابان امام القنبلة الذرية سنة ١٩٤٥ لو ان عبقرية **اوبنهايمر** صانع هذه القنبلة تأخرت فى

---

(٦١) انظر بوبر ـ عقم المذهب التاريخي (الترجمة العربية) ص ٥ ـ ٦ .

كشفها سنة أو سنوات ؟ ومن ذا الذى كان يعرف ماذا سيكون عليه تاريخ اوروبا الحديث لو أن خنجر سليمان الحلبي اصاب نابليون فى مصر بدلا من كليبر ؟ ولو ان أم المعتصم التركية كانت ارمنية او فرنجية فماذا كانت عليه علاقة الترك بالخلافة العباسية ؟ ولو لم تفشل خناجر الاسماعلية ثلاث مرات فى اصابة مقتل من صلاح الدين وهي التي لم تكن تفشل مرة فى مثل ذلك . فأين كانت حطين من التاريخ ؟

واذا كان لأثر « الافراد الابطال » فى التاريخ نظرية واسعة ، ومؤيدون كثيرون ليس **كارليل** بأولهم ولا بآخرهم ، فان الاحتمالات المؤثرة فى التاريخ أضيق من ذلك بكثير .. لقد تكون لا حياة فرد ولكن مجرد تصرف صغير غير مسؤول من حيوان أو مجرد صدفة ... وعندها : فأى قانون يمكن ان يحكم كل اولئك ؟

هـ ـ ان التاريخ لا يصل الى المعقولية (وبالتالي الى القانون) الا حين يصبح قادرا على انباتها بشكل يقيني ونهائي ، اى على كشف كافة الروابط التي تربط كل حدث من المصير الانساني بسابقيه وبنتائجه . والتاريخ ، فى حدود المتوفر من الوثائق والآثار والاخبار اليوم لا يشكل نسيجا كاملا للماضي الانساني كله . ان النقص فيه لايشكل شروخا فقط فى ذلك النسيج ولكن لا يكاد يكون اكثر من مزق ورقع من الرداء الذى يلف الارض طيات بعد طيات . الكثير من مادة التاريخ ضاع الضياع الابدى ولو كان الامر يتعلق بالمادة الهامدة لكان من السهل ان يدل الجزء على الكل أما والامر متعلق بالمادة الحية الواعية التى هى الانسان فانه بكل تأكيد يصبح مختلفا جدا . واذا كان التتابع الزمني فى المادة يمكن ان يكشف عن العلية وحدود القانون . فانه حتى وضع السلاسل الزمنية الدقيقة للاحداث لا يشكل فى التاريخ اى كشف للنواميس المحركة . وما يحاوله بعض المؤرخين من وضع نظريات يبدو ان الوقائع تؤيدها ليس اكثر من محاولات مسكينة « ولو دققنا النظر فى هذه الوقائع لتبين لنا انها اختيرت فى ضوء النظريات عينها التي نريد اختبارها بها .. (٦٢) » . ولا تكون النظرية التاريخية صحيحة ان وجدنا الوقائع التي تدعمها فقط ، ولكن ان عجزنا عن العثور على الوقائع التي تدحضها .. وهذا العجز لم يحدث بعد بالنسبة لأى نظرية .. ونحن فى كثير من الاحيان نستطيع ان نبرهن ان النظريات المستخرجة من حالات « التعاقب التاريخي » ليست اكثر من تعميمات تجريبية Empirique ومن الخطأ ان نخلط ما بينها وبين القانون بمعنى الناموس العام الحتمى الشامل ، بل ان «هيوم» الذى تحدى المدرسة التجريبية منذ قرنين يطل ها هنا برأسه من جديد ، من خلال متشككي القرن العشرين الذين قد يرون معه ان التحليل السببي التاريخي ، فى نهاية الامر لم يكشف اكثر من ان أمرا يحدث فى اعقاب آخر .. دون اى يقين فى السببية والقانون .

و ـ واخيرا فثمة ثلاث صعوبات كبرى تقف بين التاريخ وبين الوصول الى القانون ، وهي تقف فى الواقع ، عامة بين كل بحث اجتماعي وبين تقنينه فى صيغة رياضية او رمزية مجردة :

الاولى : صعوبة التعبير بالكمي عن الكيفي . ليس ثمة من وحدة قياس كمى أو رقمى تقيس الظواهر والعلاقات التاريخية . لا وزن ، لا قياس ، لا كيلا للحجم . الابعاد والارقام تنتمي الى عالم

(٦٢) انظر بوبر ـ عقم المذهب التاريخي ص ١٣٩ .

آخر من المعرفة لا يمر بالتاريخ الا لماما . لقد نستطيع ان نحصي بعض اعداد الجيوش او السكان او عدد المدارس او الكتب ولكن كيف نعبر رقما او ابعادا عن معركة عين جالوت او مصرع كنيدى او نكبة البرامكة ؟ وهي وقائع ذات توتر نفسي وامتداد زمني واتصال بما لا ينتهي من الاسباب والعوامل المكونة والنتائج ؟

الثانية : صعوبة المزج فى العمل التاريخي بين الدراسة الساكنة (ستاتيك) والحركية (ديناميك) فى وقت معا . صعوبة بحث الواقعة التاريخية بحالتيها من عناصر الاستمرار وعوامل التغير فى صيغة جدلية واحدة . أن بحث « الحدث » التاريخى سواء كان واقعة فردية أو ظاهرة حضارية عملية تشريحيه لحد كبير . واذا حددت الظروف المختلفة مكانه وزمانه وابعاده الا انه كظاهرة تاريخية انسانية يعبر التاريخ فى العمق ويتحرك خلاله ويؤثر فيه ويتأثر باستمرار . بجانب دراسته فى ذاته اذن هناك دراسة اخرى له فى حالة التحرك والتفاعل والتطور المتمادى ، ونحن نقوم بالعملين معا دون ان ندرى احيانا . ولا بد فى القانون المفرض ان يجمع بين جدلية الساكن والمتحرك ، بين الثابت المستمر والطارىء المحول فى صيغة واحدة . ولقد يكون ذلك سهلا فى العلوم الطبيعية المعروفة الحدود والتي نستطيع بسهولة فى قوانينها ان نجعل بعض حدودها صفرا أو أن نرسم لها الخط البيانى المتحول . . أما فى التاريخ فكيف تلفى الواقعة ؟ وكيف تصور الخطوط الذاهبة فى كل الاتجاهات ؟

الثالثة : صعوبة التمييز بين الروابط السببية فى وقائع التاريخ ، والعلاقات الوظيفية والبنائية . الترابط بين ظاهرتين فى التاريخ توجدان معا وتتغيران التغير النسبي طردا او عكسا بحيث تصبح الواحدة شرطا للاخرى ليس بمعنى ان الاولى سبب للثانية ولا ان الثانية نتيجة للاولى . مثل هذا النوع من العلاقة قد يكون نتيجة الترابط الوظيفي ، او البنائي فى تكوين الوقائع التاريخية وليست كذلك العلاقة السببية او العلية . ثمة مثلا ، علاقة العله والمعلول بين الفقر وظهور الاوبئة والطواعين فى بعض حقب التاريخ ، او بين التكاثر الديمغرافي والهجرات الفاتحة . اما علاقة انتشار الورق فى العصر العباسي الثاني مع نمو الفكر وامتزاج الثقافات فعلاقة وظيفية . ومن مثل ذلك : العلاقة البنائية بين الهجرة الريفية الى المدن مع كثرة الزنج فى جنوب العراق فى اواسط القرن الثالث للهجرة . ان التغير التكنولوجى فى الأولى وتبدل البناء الاجتماعي فى الثانية قد أديا بين ما اديا اليه من امور كثيرة ، الى الخصب الفكرى والى ثورة الزنج المدمرة . . دون علاقة العلة بالمعلول . لنسم ذلك بالاصطلاح الدارج المعروف : الاسباب المباشرة وغير المباشرة ان شئنا ، ولكن المواجهة المباشرة لها ولطبيعتها لا تسمح ببناء القوانين .

وهكذا لم يظهر حتى الآن أى قانون فى التاريخ . لان « مشكلة السببية فى الأصل ما زالت غير محلولة فى جوهرها » (٦٣) . ما ظهر ليس اكثر من تعميمات ، اوسع ما تتناوله فى المدى مجموعة تكثر او تقل من القرون . وفى المكان منطقة تتسع او تضيق من الارض . وفى الوان الحضارة والحياة لون واحد لا يزيد . . ومن ذلك نظرية بيورى حول التقدم ونظرية رينان فى التغيير الديني . ونظرية ويبر Weber و Sombart حول أصل الرأسمالية ونظرية ماركس فى صراع

(٦٣) انظر غو تشالك – كيف نفهم التاريخ (الترجمة العربية) ص ٢٥٧ .

الطبقات ، وتوينبي حول دور التحدى والاستجابة في خلق الحضارات وتعميم اللورد آكتون بأن كل سلطة تفسد والسلطة المطلقة تفسد فسادا مطلقا. والاقوال الأخرى الشائعة من ان الظلم يولد الثورة وان الثورة اول ما تأكل اولادها ....

هذه التعميمات وامثالها وان كانت تتراوح ما بين درجة النظرية التي تحاول تفسير التاريخ كله وبين درجة الافكار التي تعكس بعض تجارب التاريخ ودروسه الا انها في كل الاحوال اشبه بمرحلة الحكمة من الفلسفة قد تحمل النظرة التجريبية الصائبة ولكنها لا تصل مستوى النظرية الفلسفية التي تحل مشكلة الكون ولا درجة القانون الذى ينتظم علاقات الوجود .. ولعل من الاصح ان نعول مع شولغين « انه بسبب وجود الارادة الانسانيه (وغيرها ايضا) في الحدث التاريخي هذه الارادة التي قد تتعارض نظريا مع وجود قواعد ثابتة ، أو مع خلق قواعد جديدة فانه لا يمكن من حيث المبدأ أن تكون القوانين في حياة الناس قوانين مطلقة ثابتة ... » بل ان « قوانين » التاريخ او ما ندعوه بالقوانين هي امور موجودة ولكنها تنتمى الى طبقة قوانين الاحتمالات ولا يمكن لها ان تكون نظرية ـ كالقوانين الرياضية أو الفلكية أو الميكانيكية ـ ولا يمكن لها خاصة أن تكون مطلقة ... (٦٤) » .

وقليلة جدا هي تلك الفرضيات العظيمة في التاريخ (كنظرية صراع الطبقات ، ونظرية التحدى.. وغيرها) التي تعدل في القيمة والشمول تلك النظريات الكبرى في علوم الطبيعة (ابتكار الجبر على يد **الخوارزمي** . تطبيق الرياضيات في الفلك على يد **جاليليو** . نظرية حركة البخار ، النظرية الكهرطيسية للضوء ، النسبية) . ومع ان هذه الفرضيات المشابهة للقوانين تسهل عمل المؤرخ بجمعها آلاف الدقائق والوقائع المتناثرة وباضاءتها الدائمة زوايا مغلقه عتمة من الحقائق ، الا انها تتحجر وتفقد دفقها الخلاق احيانا على يد انصارها انفسهم . تصبح مع التعصب آلة « دوغمانية » جامده للدرجة التي تعمى معها عن وجهات نظر اخرى لا تقل عنها واقعية وصحة ، وتوهم وجود « بنى » اجتماعية وتاريخية وعوامل ونتائج ما ان لها من وجود ، وذلك لمجرد أن النظرية فقط تفترض وجودها ، وان المنظور الفكرى لا يتم وينطبق الا بذلك الافتراض . ولعل هذا ما دفع الكثير من المؤرخين الى التحرر من الارتباط بأى نظرية أو قانون والاكتفاء عن صياغة « النواميس » او متابعتها بالشرح والتفسير الجزئي طبقا لمعطيات كل واقعة على حدة (٦٥) . بل أن الكثيرين اليوم يدعون الى الغاء فلسفة التاريخ ويتجنبون الوصول الى نتائج عامة تستخلص من التجارب التاريخية ويرفضون الاعتراف بوجود قوانين موضوعية تحكم التطور الاجتماعي من امثال **مورتون وايت** استاذ الفلسفة في هارفارد ، وممثل البراغماتية الحديثة الذى

---

(٦٤) Choulguine : L'histoire et la vie p. 188.

(٦٥) انظر ما كتبه في هذا الصدد Dray في الفصل الثالث من كتابه Laws and explanation in history: ص ٥٨ ـ ٧٩ . وما كتبه مارو في كتابه من المعرفه التاريخية (بالفرنسية) ص ١٩١ ـ ٢٠٣ .

يقول فى كتابه : (اســس المعــرفة التاريخية)« ان فلسفة التاريخ التي تزعم انها تدرس التطور الاجتماعى وقوانين نشوء الحضــارات وتطورهاومستقبلها ، انما هي فلســفة « تقديريــة » . ورجل العلم المعاصر الذى يحاول ان يضع فلسفةللتاريخ انما يوجه اكثر اهتمامه الى تحليل الفكر التاريخي واللغة التاريخية .

هل يعني هذا كله ان « القانون » غير موجودفى التاريخ ؟ بعيدا عن الوصــول الى مثــل هذه النتيجة العدمية التي تجعل الوجــود كله مجردزوبعة من الصدف العمياء فى الفراغ اللانهائي ، فانا بالعكس نؤمن أن الوجود جميعا ــ بما فيهالوجود الانساني ــ يخضع لأدق واعقد واخفى القوانين . لا اســهل من البــرهان المنطقي علىوجود « قوانين » تحكم التاريخ ولكن كشف هذه القوانين هو المشكلة . هو المستحيل حتى الآنبوسائل ورموز وطــرق المعــرفة التي نتداول ونصــطنع . ولعل التعميمات الكبــرى انما هيبعض الدلائل والمؤشرات على ما وراءها من ناموس يمشي بقدر ويقف بقدر . واذا كنا لا نستطيعان نغفل عامل « الجديد » و « الصدفة » والقفزة النوعية التطورية فى التاريخ لنقول مع اوغوستكونت فى يقينه الدوجماتي « من يعرف الماضــي جيدا يعرف المستقبل » فلعلنا نستطيع ان نقولباطمئنان مع **(كانت)** : « لو امكننا ان يكون لنا بصر نافذ عميق فى الطابع العقلي للانســان كماتدل عليه الاعمال الداخلية والخارجية . أى بأن نعرف كل دوافعه حتى اصــغر دافع فيهــا .ونعرف كل الظروف الخارجية التي تستطيع ان تؤثر فيها .. لو امكننا ذلك لاستطعنا ان نحسبسلوك الانسان فى المســـتقبل بمثل اليقين الذى نحسب به خسوف القمر او كسوف الشمس .ومع ذلك سنظل نؤمن بأن الانسان حر .. » (٦٦). بمعنى ان ثمة دوما هامشــا من المنطقــة الحرةمتروكا لفعالية الحياة الانســـانية المتجددة بين العبوديــة لعوامل الماضــي ومقتضياته وبين مايحققه الانسان من عمل خلاق فى المستقبل . وهذا الهامش هو الذى سيظل العنصر الآبق المتمرد علىأى قانون وتنبؤ .

ويسألونك بعد عن التاريخ هل هو علم ؟قل : قد رأيت ...

انه ليس بعلم ان شئنا ان نفهم من الكلمةالمعنى الكلاسيكي لها : معنى العلوم الطبيعية وما تصطنع من وسائل منطقية ومن معالجة وضعيةللمادة تكشــــف بهــا علاقاتها حتى تتحول تلك العلاقات الى قوانين رياضية . التاريخ ليس منهذا ابدا انه من ميدان آخر بعيد .

ويسألونك اذن فهل هو ثقافة ؟ بلى ! علىالا نفهم من الكلمة انها عكس العلم او ادنى درجة منه . ولا انها المعرفة التطوعية او الآفاقية غيرذات اليقين . ولا انها نوع من الترف الفكــرى الذى يزين بعض الجماجم .. انه ثقافة بمعنىاعطاء الانسان ابعاده كانسان .

ويسألونك اذن فهل هو دراسة اجتماعية ؟لقد تكون الدراسة الاجتماعية بعضا منه . لانه

---

(٦٦) نقلا عن كاسيرر ـ مقال فى الحضارة (الترجمةالعربية) ص ٣٢٧ .

اوسع منها فى المدى الافقى بتنوع نواحيه وأبعد منها فى المدى الزمني بما يضم من العصور الغابرة .

ان التاريخ علم انساني (فى مقابل العلم الطبيعي) . انه معرفة مختلفة فى الطبيعة والميدان والموضوع عن العلوم الطبيعية . وعدم علميتها حسب مناهج هذه العلوم لا يعني عدم علميتها المطلقة . ولا ينقص من قيمتها كمعرفة انسانية . ولكنه يعني ان العلماء لم يصلوا بعد الى المقولات والوسائل والمناهج التي تتناسب فى التعقيد مع مادة التاريخ والتي تستطيع ان تضم بين حدودها الشاملة آفاقه اللامتناهية .

اساس المشكلة يقوم فى ما يمكن ان نستعير من اقوال اورتيغا اى كاسيه J. Ortega y Gasset: « الطبيعة شيء . بل شيء عظيم مؤلف من عدة اشياء صغيرة ومهما تكن الفروق بين الاشياء فان لها مظهرا واحدا مشتركا هو انها .. ذات وجود اى ذات مبنى وتركيب محدد . اى لها طبيعة ثابتة .. (ولكن) عجائب العلم الطبيعي ستظل دوما تقف (مبهورة) امام حقيقة الحياة الانسانية الغريبة .. فلم يقف هذا السر وحده امامها مغلقا ؟ لعل التفسير هو ان الانسان ليس شيئا . وانه من (الزيف) ان نتحدث عن « طبيعة » انسانية . ان الانسان لا « طبيعة » له .. الحياة الانسانية ليست شيئا . وليس لها طبيعة واذن فعلينا ان نوطن النفوس على ان نتصورها من خلال المصطلحات والمقولات والافكار التي نختلف جذريا عما يبصّرنا بظواهر المادة .. ليس للانسان « طبيعة » انما له تاريخ .. » (٦٧) . ولعلنا نستطيع ان نستبدل بكلمة تاريخ القول : « ان له طبيعة زمنية متطورة دون انقطاع . وهنا يكشف « ان العقدة الاساسية فى فلسفة العلوم الاجتماعية (عامة وفى التاريخ خاصة) هي هذه : هل بالمستطاع دراسة الانسان بالوسائل نفسها التى تطبق على الكائنات الدنيا والطبيعة الصماء ؟ »(٦٨). فالتاريخ ، كعلم انسانى اذن ، له (او يجب ان تكون له) علميته الخاصة اى طرائقه ومنطقه فى فهم الموضوعية الزمنية التطورية ، وفى الوصول اليها ، عبر متحولاته الثلاث : الزمان والمكان والانسان . على ان عدم وصول التاريخ الى القوانين التاريخية حتى الآن :

١ ــ لا يعني انه ليس باستطاعته الوصول اليها ، بقفزة نوعية فى الفكر التاريخي تشبه قفزة نيوتن ورعيله المعروف فى العلم الطبيعي ، متى توفرت المعطيات الأولى والمقولات التى لا بد منها لمثل تلك القفزة .

٢ ــ لم يمنع التاريخ كمعرفة انسانية من الدرجة الاولى ، من التقدم والتوسع . العمل التاريخي اليوم ناشط جدا فى نطاق توفير المادة الاولية وجمعها وتنسيقها ، وهو نصف العلم .

---

(٦٧) اورتيغا اى كاسيه ــ التاريخ كنظام . نقلا عن كاسيرر ــ مقال فى الحضارة الانسانية (الترجمة العربية) ص ٢٩٢ .

(٦٨) جون كيميني ــ الفيلسوف والعلم (الترجمة العربية ــ امين الشريف ــ بيروت ١٩٦٥) ص ٣٥٢ .

٣ ـ لم يلغ قيمة التعميمات والتفاسير التاريخية التى اخذت احيانا شكل القواعد العامة والنظريات الكبرى والتي كانت نتيجة مقارنات عرضانية وطولانية عبر مجرى التاريخ . انها مرتسمات القياس التاريخي، من خلال الحضارات المتعددة (التاريخ الساكن) . ومن خلال مسيرة التاريخ (التاريخ المتحرك) . فالديالكتيك الهيغلي ، رغم ميتافيزيكية صاحبه ، أخصب التاريخ اوسع الخصب ، بقدر ما زادت المادية التاريخية مع فيورباخ وماركس ، من عمقه ، وما قدمت فيه الآراء منذ ابن خلدون حتى توينبي من زاد انسانى .



عبد الرحمن بدوي

أحدث النظريات
فى فلسفة التاريخ

حين نتحدث عن فلسفة التاريخ نقصد تاريخ الانسان ، لأنه الكائن الواعى الوحيد بين الموجودات ، ولا فلسفة حيث لا وعى ، ولهذا فلامحل للحديث عن « فلسفة » التاريخ بالنسبة الى غير الانسان .

والانسان بدوره تاريخى ، لأنه انما يعمل فى الزمان ، ولا تاريخ الا بالزمان . ومن هنا ارتبطت كل نظرية فى التاريخ بنظرية فى الزمان :

١ ــ هل الزمان بداية ونهاية ؟

من أجابوا بالايجاب انقسموا الى فريقين :

أ ــ فريق حسبوا هذه المدة وفقا لأحداث ومقاصد معينة ، وهو فريق أصحاب النظرات الدينية فى الزمان وفى التاريخ ، الذين ربطوا الزمان بالخلق الأول وبمصير الانسان فى الدنيا

وبنهاية يرتبط بها حساب وعقاب وثواب . ومن أبرز ممثليه **فيلون** (حوالى ٢٥ ق.م ــ ٥٠ بعد الميلاد) بالنسبة الى اليهودية ؛ والقديس **أوغسطين** (٣٥٤ ــ ٤٣٠) بالنسبة الى المسيحية وابن خلدون (المتوفى سنة ٨٠٨ هـ) بالنسبة الى الاسلام .

ب ــ وفريق ربطوا تلك المدة بأحداث فلكية كونية ، بمعزل عن كل المعانى الدينية ، كما هو الشأن لدى علماء الفلك والانثروبولوجيا الفلسفية وعلماء الحياة ، ومن حذا حذوهم من المؤرخين المتأثرين بالعلوم الفزيائية والطبيعية ، مثل **رينان** (١٨٢٣ ــ ١٨٩٢) Renan **وأرنست هكل** Ernst Haekcel (١٨٣٤ ــ ١٩١٩) .

٢ ــ هل للتاريخ مسار واحد ، أو التاريخ دوائر ؟

فمن قالوا بالأولى تصوروه معرضا للروح المطلقة وهى بغض مضمونها على مر الزمان اللامتناهى ، وأبرز ممثلى هذا الاتجاه **هيجل** (١٧٧٠ ــ ١٨٣١) . ومن قالوا بالثانية تصوروه دوائر اما مقفلة هى الحضارات المختلفة ، أو دوائر يفضى بعضها الى بعض ولها عودات Ricorso : وبالفكرة الاولى قال **اشبنجلر** (١٨٨٠ ــ ١٩٣٦) ، وبالثانية قال **فيكو** Vico (١٦٦٨ ــ ١٧٤٤) .

● ● ●

وفى داخل هذه الاطارات العامة أثيرت مشاكل فلسفة التاريخ :

١ ــ واولها مشكلة النسبية فى التاريخ وبخاصة ما يتعلق منها بالقيم . فأفضت الى نظريات **دلتاى** فى نقد العقل التاريخى (١٨٣٢ ــ ١٩١١) وبدلتاى تبدأ فلسفة التاريخ المعاصرة ، **ونظريات اشبنجلر فى نسبية القيم الى الحضارة المنبثقة فيها** ، وآراء **ماكس فيبر** Weber (١٨٦٤ ــ ١٩٢٠) فى الربط بين التاريخ والاجتماع ، وما ذهبت اليه المادية التاريخية عند **كارل ماركس** (١٨١٨ ــ ١٨٨٣) **وفريدرش انجلز** (١٨٢٠ ــ ١٨٩٥) من الربط بين الاقتصاد المادى والتاريخ ، وما قال به **كارل مانهيم** من اجتماعية المعرفة ، وآراء بندتو كروسه (١٨٦٦ ــ ١٩٥٢) فى التاريخية المطلقة .

٢ ــ وثانيها مشكلة العلية فى التاريخ ، وتندرج تحتها الاشكالات والخواطر التى حفلت بها دراسات **توينبى** (ولد سنة ١٨٨٩) **وكارل پوپر** Karl Popper .

٣ ــ وثالثها مشكلة التقدم والتخلف فى مجرى التاريخ : هل هناك خط للتقدم مستمر قدما ؟ أو ثم تقدم وتخلف دون قاعدة ولا قانون ؟ وما من فيلسوف فى التاريخ الا ونعرض لهذه المشكلة اما لماما واما تفصيلا .

٤ ــ ورابعها امكان التنبؤ بما سيكون عليه التاريخ . وفى هذا ذهب البعض الى التفاؤل ، والبعض الآخر الى التشاؤم ، والبعض الثالث زعم انه بمعزل عن كليهما ، وانه تنبأ تنبؤات موضوعية غير تقويمية . ومن الذين برزوا فى هذا المجال : **توكفيل** (١٨٠٥ ــ ١٨٥٩) **ويعقوب بوركهرت** (١٨١٨ ــ ١٨٩٧) **وفريدرش نيتشه** (١٨٤٤ ــ ١٩٠٠) واخيرا **كارل يسبرز** (١٨٨٣ ــ ١٩٦٩) .

وفيما يلى نعرض لآراء طائفة من فلاسفة التاريخ المعاصرين * .

١ ـ فلهلم دلتاى

ونبدأ **بفلهلم دلتاى** Wilhelm Dilthey لأنه رائد التيارات المعاصرة فى فلسفة التاريخ فى المانيا .

هدف دلتاى الى أن يقوم بالنسبة الى التاريخ بما فعله **كانت** (١٧٣٢ ــ ١٨٠٤) الى العقل الانسانى المجرد ، وذلك بأن يقوم « بنقد للعقل التاريخى » هو بمثابة تكملة « لنقد العقل المحض » **لكانت** Kant .

وابتداء من هذه الحقيقة وهى « ضرورة فهم الانسان بوضعه موجودا تاريخيا فى جوهره ، وأن وجوده لا يتحقق الا فى جماعة » (١) . وراح يدرس « علوم الروح » على أساس تاريخية الوجود الانسانى ، بمعنى ان الانسان بعدا أساسيا هو التاريخ ، فينبغى دراسة العقل الانسانى من زاوية التاريخ . فالطبيعة غريبة عن الانسان ، ويستطيع المرء ادراكها بواسطة الملاحظة الحسية ، اما العالم التاريخي الاجتماعي فهو عالم الانسان ، ولا يمكنه ادراكه الا من الداخل (٢) . ولهذا فان العلاقة بين الانسان والموضوع فى العلوم الروحية ، علاقة مباشرة ، لأن هذا الموضوع هو التجربة الانسانية الحية . ومن هنا فان الاساس فى **العلوم الروحية هو التجربة** الحية Erlebnis ، ويقصد بها الاحوال والعمليات والنشاطات الباطنة كما نستشعر . ونحياها ونعيها .

ويعرف دلتاى العلوم الروحية Die Geisteswissenshafaten بأنها « مجموع الدراسات التى موضوعها هو حقيقة التاريخ والمجتمع »(٣) ، وتسمى بالفرنسية « العلوم الاخلاقية » Sciences morales .

وعلى الرغم من أن العلوم الروحية قد تتناول بعض الأشياء والعمليات الفيزيائية فانها انما تتناولها من حيث هى اثار أو ذات علاقة بتحقيق الاغراض الانسانية ، او نفيد فى التعبير عن الافكار والمشاعر الانسانية » . وإذن لا يهتم الدراسات الانسانية (= العلوم الروحية) بالظواهر الفيزيائية الا من حيث صلتها بالوعى الانسانى ، وخصوصا من حيث هى تعبيرات من خلالها يمكن فهم هذا الوعى .

وهذه العلوم الروحية متنوعة جدا : اذ تشمل **علوما فنية مثل النحو والخطابة** ، وعلوما معيارية مثل الأخلاق والنظريات السياسية والنقد الادبى ، وعلوما تعميمية مثل علم النفس وعلم الاجتماع وعلم الاقتصاد ، وعلوماً تاريخية بالمعنى الضيق مثل التراجم والتراجم الذاتية والتواريخ .

*** نظرا الى اننا الفنا كتابا عن اشبنجلر (ط ١ سنة ١٩٤١) فلن نذكره هنا مكتفين بالاحالة الى كتابنا .**

(١) Der Junge Dilthey, p. 124. Leipzig & Berlin, Teubner, 1933.

(٢) **راجع لدلتاى : « مجموع مؤلفاته » ج ١ ص ٣٦ ــ ٣٧** Gesammelte Schriften .

(٣) **دلتاى : « مجموع مؤلفاته » ج ١ ص ٤ .**

والدراسات (٤) الانسانية نجمع بين ثلاثةأصناف متمايزة من الفريرات . فصنف منها يقرر حقائق موجودة فى الادراك الحسي : وهذايؤلف العنصر التاريخى فى المعرفة . وصنف يوضح العلاقات المطـردة بين أجـزاء من هذهالحقيقه ، بمبزها بالتجريد : وهذا يؤلف العنصر النظرى . والصـنف الثالث يعبـر عن الاحكامالتقويمية والقواعد المفروضة : ويتضمن العنصر العملى فى الدراسات الانسانية . وعلى هذا فانالعلوم الروحية (= الدراسات الانسانيه) تتألف من أقوال تعبـر عن وقائـع ونظـريات واحكـامتقويمية وقواعد .

وملكة المعرفة فى الدراسات الانسانية هىالانسان كله والأعمال العظيمة التى نمت نبها لم تنشأ عن العمليات العقلية وحدها ، بل عن قوةالحياة التشخصية .

تاريخية الانسان :

والانسـان الفرد تاريخى فى جوهــره ، لأنهيعيش فى الزمان،ويتجدد بأحوال وظروف معينة، ووجوده عملية زمنية تتحدد بالميـلاد والمـوت ،وتتألف من سلسلة متصـلة الحلقات تتألف من ماض وحاضر ومستقبل ، ونجرى هذه العمليةفى اطار علاقاته مع الآخـرين ، وعـلاقاته مـع الطبيعة . ولما كان الفرد كذلك ، فان العلاقاتبين الأفراد هى ايضا علاقات تاريخية . وحياة الانسـان حياة تاريخية ، وعالم الانسان اذن هوعالم التاريخ .

واتساقا مع هذه التاريخية ، يرفض دلتاىالمبادىء المطلقة والقيم المطلقة ، وينكر النظرة التى « ترى مهمة التاريخ فى التقدم من قيم والتزامات ومعايير وخبـرات نسـبية الى قيم والتزامات ومعايير مطلقة ... صـحيح ان التاريـخ يعرفأقوالا مفادها وجود قيمة او معيار او خير مطلق وهذه الاقوال تظهر فى كل مكان فى التاريخ — مرةعلى ان ذلك صادر عن ارادة الهية ، ومرة أخرى بالاستناد الى نظرة عقلية فى الكمال ، او الى نظامنمائى للعالم ، او الى معيار — مقبول قبولا كليا — لسلوكنا القائم على أساس عال على الوجود . بيدأن التجربة التاريخية تعرف العملية فقط ، عمليه اصدار هذه الاقوال : ولكنها لا تعرف شيئا عنصحتها المطلقة (المزعومـة) . ولما كانت تتابع عملية تشكيل مثل هذه القيم المطلقة والخبرات اوالمعايير ، فانها تلاحظ بالنسبة الى كثير منها كيف انتجتها الحياة ، وكيف ان التقدير المطلق اصبحهو نفسه ممكنا بفضل تحديد افق العصر . ومن هناك تنظر الى جماع الحيـاة فى ملاء تحقيقاتهالتاريخية . وتلاحظ الكفاح السـجال بين هذه الاقوال المطلقة بين بعضها وبعض . والسؤال عمااذا كان يمكن أن يوضح ببينة منطقية ، ان اندراج التجربة تحت أمثال هذه المبادىء المطلقة — وهىمن غير شك حقيقة تاريخية ، يجب ان يـرد الى عامل فى الانسان كلى وغير محدود زمانيا — هذاالسؤال يفضى الى الاعماق النهائية للفلسـفة المتعالية ، التى تقـوم وراء الدائـرة التجريبيةللتاريخ ، مما لا تستطيع حتى الفلسفة نفسها ان تنتزع منه جوابا أكيدا » (٥) .

---

(٤) راجع دلتاى : « مجموع مؤلفاته » جـ ١ ص ٢٦ـ ٢٧ ، الفصل السادس من « المدخل الىالعلومالروحية » . وسنستعمل احيانا كلمة « الدراسات الانسانية » ـ بوصفهاالاستعمال الاكثر شيوعا اليوم . بدلا من كلمـة « العلوم الروحية » التى استعملها دلتاى ويكثر استعمالها فى اللغـةالالمانية .

(٥) دلتاى : « بناء العـــالم التـــاريخى فى العلــومالروحية » ، مجموع مؤلفاته ، جـ ٧ ص ١٧٣ .

ولهذا نـرى دلتـاى يرفض كل محاولـة لتفسير التاريخية بواسطة اللجوء الى أى مبدأ غير مشروط ، سواء كان ذلك بمعنى عال او بمعنىمحايث ، لأن عالم الانسان هو من عمل الانسان ، أى من عمل الافراد فى علاقاتهم بعضهم مع بعض ،والتاريخية تنسب الى العالم الانسانى وحده ، ومجرى التاريخ يرجع الى النشاط الانسانى ،فلا مجال اذن الى الاهابة بمبدأ فوق انسانى .

ومن نتائـج هذه النسـبية المنبثقـة عنالتاريخية ان قرر دلتاى أن الفلســفة مشروطة تاريخيا ، وان ماهية الفلسفة لا تتجدد بطريقةقبلية ، بل على أساس تحليل الطرق المختلفة التى تجلت عليها الفلسفه فى التاريخ ، مما سيظهر منهان وحدة الفلسفة لا تقوم فى وحدة الموضـوع أو المنهج ، بل فى وحدة الموقف الذى يفسر مختلفالأشكال التاريخيـة للفلســـفة . « وكل حـل للمشاكل الفلســفية ينتسـب — من الناحيـةالتاريخية — الى زمان معين والى موقف معين فى ذلـك الزمان : ان الانســان ، وهـو مـن صنعالزمان ، طالما يعمل فى الزمان ، يجد أمان وجوده فى هذه الحقيقة وهى انه يرفع محاولاته من مجرىالزمان بوصفها اشياء دائمة : وهذا الوهم يهب عمله الابداعى مزيدا من السرور والقوة . وهنايقوم التناقض المستمر بين العقول الخلاقة وبين الوعى التاريخى . انه طبيعى بالنسبة اليهم انينسوا الماضي ، وأن يغضوا النظر عن المستقبل الأفضل الآتى : لكن الوعى التاريخي يعتبر فى فهمكل العصور ، ويلاحظ فى كل ابداع الافـراد ما يصاحبه من نسبية وزوال . وهذا التناقض هوالاضطراب الخفى الذى تحمله الفلسفة اليوم فى صمت . اذ فى فيلسوف اليوم يتجمع ابداعه معالوعى التاريخى ، لأن اليوم بالنسـبة الى الغد يجعل فلسفته لا تؤلف غير شذرة من الواقع .ولا بد لنشـاطه المبدع من أن يعى انه حلقـة فى النسق التاريخى الذى فيه يشعر بأنه أتى بشىءنسبى . وهنالك يقدر على حل هذا التناقض ، وذلك بأن يسلم نفسه بهدوء الى سلطان الوعىالتاريخى ، ويستطيع ان يرى عمله اليـومى من ناحيه (أو زاوية) النسق التاريخى الذى فيهماهية الفلســـفة تحقق نفســـها فى تنــوع مظاهرها (٦) » .

٢ — جورج زمل

ونسبية المعرفة التاريخية

وممن تأثروا بدلتاي فى فكرة نسبية المعرفةالتاريخية جورج زمل (١٨٥٨—١٩١٨) خصوصا فى كتابه « مشاكل فلسفة التاريخ * » وقصـدفيه ان يبين ان التاريخ ليس مجرد ترجمة بسيطة الواقع المعاشى مباشرة ، بل ان المعرفة التاريخيةتخضع لأمور قبليـة . وقد قسـمه الى ثلاثـة اقسام : **الاول** خاص بالشروط الباطنـة للبحثالتاريخى ، **والثـانى** يدرس قـوانين التاريـخ ، **والثالث** يفحص المعنى الفلسفى للتاريخ .

تتساءل زمل اولا عن ماهيــة المعرفـــةالتاريخية ، فيقرر أن المعرفة التاريخية موضوعها هو الامتثالات والارادات والحساسات الخاصـةببعض الاشخاص ، اى ان مضموناتها الموضوعية هى نفوس . « وكل الاحـــداث الخارجيـــةوالسياسية والاجتماعيـــة ، والاقتصـــادية ،

---

(٦) دلتاى : « ما الفلسفة » ؟ ، مجموع مؤلفاته ، جـ٥ ص ٣٦٤ .

والدينيه ، والتشريعيه والصناعية لا يمكن أن تكون شائعة ولا مفهومة لنا اذا لم تكن مستمدة من حركات النفس واذا لم تحرك النفس . واذا كان لا يبغى ان يكون التاريخ لعبة عرائس ، فانه اذن تاريخ احداث نفسيه ، وكل الاحداث الخارجية التى يصفها ليست الا الجسور بين الاندفاعات والافعال الارادية من ناحيته ، وبين الافعال المنعكسة العاطفية التى تثيرها هذه الاحداث الخارجية . وهذه الملاحظة لا يفندها المحاولات التى أجريت لرد الحدث التاريخى ، فى تعييناته الجزئية ، الى احوال فزيائيه . وطبيعة الارض والجو لا اهمية لها بالنسبة الى مجرى التاريخ ، كما لا أهمية لارض وجو نجم الشعرى العبور ، اذا لم تؤثر هذه الطبيعة ـ مباشرة أو بطريق غير مباشر ـ فى التركيب العصبانى للشعوب . ولهذا فان الطابع النفسانى للبحث التاريخى يبدو انه يفرض عليه أن يكون مثله الأعلى هو أن يكون تطبيقا لعلم النفس ، بمعنى انه يرد الى علم النفس ، لو وجد علم نفس يحدد قوانين ، كما يرد علم الفلك الى الرياضيات » (٧) .

ومع ذلك ينبغى الا نخلط بين وجهة نظر المؤرخ ووجهة نظر عالم النفس . ذلك لأنه بينما عالم النفس يوجه اهتمامه الى عمليات المعرفة ، غاضا النظر عن مضموناتها ، فان ما يهم المؤرخ « ليس نمو المضمونات النفسانية بقدر ما هو النمو النفسانى للمضمونات » (٨) ووجهة نظر التاريخ « وسيطة بين وجهة نظر التحليل المحض ، التحليل المنطقى لمضمونات الشعور ، ووجهة نظر علم النفس أعنى التحليل الديناميكى للحركات النفسانية للمضمونات (٩) . ويزيد زمل فى تحديد الفارق بين التاريخ وعلم النفس فيقول : « وكل واحد من هذين العلمين يضع وحدة الواقع والتفير النفسانيين ، تلك الوحدة التى لا نفعل غير ان نعيشها فى مباشرتها ، لكننا لا نملك ادراكها فى النور الساطع . ونحن نقسم هذه الوحدة ، لدراستها عقليا ، الى عملية ومضمون ، ونقسم العمل العلمى يخلق ، من ناحية ، علم النفس ، من أجل بناء العملية ، والقوانين التى تحكمها ـ « على النحو الممكن لتعيينها ـ ، ومن ناحية أخرى يخلق علوم المنطق والادراك الموضوعى ، ابتغاء البحث عن المضمونات بغض النظر عن العملية التى بها تتحقق هذه المضمونات نفسانيا ، واخيرا يخلق التاريخ ، وموضوعاته لا تتحدد .... الا بأهمية ومعنى حقيقيين ، ايا كانت طبيعتها وتصحب ، فى النمو الذى تعانيه العملية النفسانية ، المضمونات التى اختارتها وفقا لهذا الطابع الاساسى » (١٠) .

ذلك ان نفس الاحداث النفسية ، مثل الحب ، الكراهية ، الخ يمكن ان تكون لها هى نفسها نتائج خارجية شديدة التفاوت . ولنضرب على هذا مثلا ما حدث فى الثورة الفرنسية بين حزب **هبرت** (١١) Hèbert وبين **روبسبيير** : فبعد أن عاونوا روبسبير على اغراضه ، انقلبوا عليه فى

---

(٧) زمل : « مشاكل فلسفة التاريخ » ط ٣ ، الفصل الاول ، ص ١ .

(٨) زمل : الكتاب المذكور ، ص ٤ .

(٩) زمل : الكتاب المذكور ، ص ٤ .

(١٠) الكتاب نفسه ، ص ٥ .

(١١) جاك رينيه هبرت ، الذى كان وكيل النائب العام للكومين ، وكان من المحرضين على مذابح سبتمبر (التى قتل فيها السجناء السياسيون فى سجون باريس وبخاصة فى سجن « الدير » وسجن « القوة » ، وذلك فى ايام ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ سبتمبر سنة ١٧٩٢) ، وكان ذا نفوذ هائل على كومين باريس حتى اعتقل وشنق هو وكثير من انصاره فى سنة ١٧٩٤ .

اليوم الذى صارت له السلطة العليا ــ فهذه الوقائع التاريخية تؤلف سلسلة تفهم جيدا اذا فسرناها على ضوء هاتين القاعدتين النفسانيتين وهما : اذا ساعد المرء اغراض حزب كسب رضاه ، واذا سيطر على هذا الحزب اجتلب كراهيته وغيرته . وفى التاريخ السياسى المعاصر شواهد كثيرة عليه فى الصراعات بين الاحزاب المتآلفة قبل الوصول الى الحكم والمتعادية المتطاحنة بعد هذا الوصول . غير ان هاتين القاعدتين مع ذلك ليست لهما غير قيمة نسبية واحتمالية . اذ قد يحدث على العكس من ذلك ان نرى أحد الحزبين المتحالفين قبل الحكم فى وصول أحدهما الى السلطة فرصة لازدياد قوته هو ووسيلة للمشاركة فى السلطة . . لكن الذى يفسر ما حدث لانصار ؟برت هو طبيعة الاشخاص الذين شاركوا فى هذا العمل . ومعنى هذا ان الاحداث النفسية الواحدة فى الظروف الواحدة قد تنتج نتائج متناقضة ؛ اذا اختلفت طبائع الافراد . ومن هنا كان علينا ، ونحن نفسر وقائع التاريخ ، ان ندخل فى حسابنا عامل الفروق الفردية والخصائص الشخصية ، والا نقتصر على المعانى العامة مثل الحب والكراهة ، او التدد ، او المكر او الذكاء ، الخ .

فزمل اذن يؤكد اهمية القواعد النفسية من ناحية ، كما يعترف من ناحية أخرى بطابعها الافتراضى الاحتمالى .

وهذا الطابع الافتراضى الاحتمالى يزداد أثره وضوحا حين تكون الاسباب التى يبدأ منها الحدث التاريخى اسبابا لا شعورية ، كما هى الحال فى أعمال الجماهير والدهماء . ويلاحظ **زمل** « ان التبرير باللاشعور ليس فى نظرنا غير تعبير عن كون الاسباب الحقيقية غير معروفة لنا ، ويعنى فقط ان معرفة الاسباب الشعورية ليست فى متناول أيدينا ، وكوننا نجعل من هذا الشىء السلبى الخالص امرا ايجابيا ، ونحيل الامر غير المشعور به الى امر لا شعورى ، سيكون شكلا معينا من الحياة العقلية ــ هذا النحو هو وسيلة للتعبير فقط عن الحاجة الى ملء فراغ العلية فى العقل الانسانى بواسطة دافع نفسانى (١٢) » .

وتحديد الدور النسبى فى التفسير التاريخى لكل من التبرير الشعورى والتبرير اللاشعورى ــ أمر يتوقف على الشخص المؤرخ . والمشاهد هو اننا نفضل اللجوء الى التبرير الشعورى حين يبدو لنا ان أسباب الاحداث راجعة الى ارادة الافراد ، والى الرجال العظام خصوصا ، بينما نلجأ الى التبرير اللاشعورى حينما تبدو لنا الاسباب راجعة الى ميول الجماهير . وايثار المؤرخ لاحد التبريرين على الآخر يرجع الى رأيه الخاص فى أيهما الاهم فى احداث حوادث التاريخ : الافراد ، أو الجماهير . وكذلك الحال فى مسألة ارجاع التأثير الى القوى الاجتماعية او النظم او العادات والتقاليد أو التنظيم الاقتصادى او ارجاعه الى الافراد ــ هذا ايضا يتوقف على مزاج المؤرخ ونظرته فى الوجود والحياة .

وهنا يزداد الامر تعقيدا حين نريد تفسير تأثير الاشخاص . اذ علينا ان نحدد الطابع العام للشخصية من تصرفاتها الجزئية ، ونحدد التصرفات الجزئية استنادا الى الطابع العام للشخصية ــ وفى هذا دور فاسد ، لكن لا سبيل الى التخلص منه . كما كان المؤرخ فى تفسيره للشخصية المؤثرة فى مجرى الأحداث ، يستنتج من تصرفاتها السابقة امكان تصرفات أخرى .

---

(١٢) زمل : « مشاكل فلسفة التاريخ » ط ٣ ، ص ١٦ .

ولكن هذا الاستنتاج تعوزه الدقة المنطقية . ويواصل زمل ايضاح هذه المعنى فيقول : « من الموضوعات ذات الاهمية الكبرى فى فلسفة التاريخ تحديد المعايير التى تتخذها قواعد لتوحيد الطبائع ، ومعايير للواقع المعطى ، ووسائل للعرض ، مما يمكن من تكوين صورة سابقة لما ينبغى ان يقوم فى تشكيل هذه الشخصية ، ومن هذه الموضوعات كذلك تحديد الهامش الذى فى داخله نتصور امكان الافعال التى تنحرف عنها ، وتحديد اوان النمو والتحول التى نقبلها نتائج ناشئة عن المبدأ الباطن للشخصيه ، وما نعتقد ان تفسيره ينبغى ان يلتمس فى الظروف الخارجية . اذ ما من شك فى وجود قواعد محدده لهذا التفسير ، قواعد يفرض وجودها المؤرخ والقارىء على السواء ، وان لم تتحدد بعد بوضوح (١٣) » .

وحين يتعلق الامر بجماعات ، فان وحدة الجماعة فى تصرفاتها يردها المؤرخ اما الى الاحداث النفسانية التى جرت فى نفوس زعمائها ، او الى نمط نفسانى وسط ، او الى مشاعر الاغلبية فيها . ويشير زمل هاهنا الى ما فعله **ماكولى** (١٨٠٠ ـ ١٨٥٩) المؤرخ الانجليزى الشهير ، حينما اقترح عشرة اسباب ودوافع لتفسير تحمس حزب الهيوتج لمشروع قانون معين ، ويعلق قائلا : « من الواضح انه ، فى شعور كل واحد من أعضاء الحزب لم توجد هذه الدوافع العشرة كلها معا ولا بنفس القوة . والحزب الذى انتجت وحدته النفسانية هذه الدوافع ليس الا صورة متالية ، ووهما ناشئا ومتولدا فى مخ المؤرخ بوصفه مركبا للوقائع المعطاة (١٤) . ومن هذا يظهر دور المؤرخ فى تشكيل الاحداث التاريخية وتصور دوافع الجماعات والافراد . والحق اننا لو تتبعنا ما يقوم به المؤرخ فى ذهنه حين يفسر احداث التاريخ لوجدناه يستخدم عمليتين أساسيتين : **الاولى** تقوم فى بذل مجهود يتولاه الخيال والتعاطف ، بواسطته يضع المؤرخ نفسه فى روح الشخصيات او الجماعات التاريخية . وعلى المؤرخ ان يستعيد فى نفسه المضمونات النفسانية التى انتجت فى الشخص الذى يدرسه . ويبدو ان هذا لا يكون ممكنا الا اذا كان المؤرخ نفسه قد عاش تجارب ومضمونات مماثلة ، وهو ما يثار عادة تحت مشكلة : من هو الاقدر على فهم التاريخ : من عاش أحداثا تاريخية وشارك فيها واسهم فى صنع التاريخ ؟ أو من لم يشارك فيها ، وكان مشاهدا محايدا « موضوعيا » لها ؟ وهى من أعسر المشاكل القديمة فى فلسفة التاريخ .

والعملية الثانية أن نضع المضمونات المعاشة على أنها خارجة وراجعة الى الغير .

على انه يلاحظ انه ليس من الضرورى ان تتميز هاتان العمليتان تميزا بارزا اذ الغالب ان يترابطا وان يتكاملا .

وهنا يتطرق **زمل** الى فكرة الموضوعية فى المعرفة التاريخية فيبين ان المعرفة التاريخية شأنها شأن اية معرفة انسانية ، تنقل المعطيات المباشرة الى لغة اخرى وتخضعها لاشكالها ومقولاتها ومقتضياتها الخاصة . ففي الترجمة الذاتية لا بد لمن يترجم لنفسه ان يختار بين الاحداث وان يرتبها ترتيبا جديدا . وهذا عينه يصدق على التراجم او السير وكل انواع الكتابة

---

(١٣) زمل : مشاكل فلسفة التاريخ ، ط ٣ ص ٢٤ .

(١٤) زمل : « مشكلات فلسفة التاريخ » ، ط ٣ ، ص ٢٦ .

فى التاريخ . اذ يضع المؤرخ اطارات وانصالات لاوجود لها فى الواقع التاريخى . والمؤرخ لا يأخذ من المعطيات النفسانية عبر جزء ، ينظمه وفقالمقولاته هو .

وفى هذا تقريب بين الفكر التاريخى والفكرالجمالى . فكما ان الفن يقتضى ترتيبا للاحداث وفقا لفكرة معينة ، كذلك الفكر التاريخى لا يستطيع ان يركب الاحداث التاريخية الا وفقا لمنظور معين من وضعه هو .

• • •

هل توجد قوانين لسير التاريخ ؟

وهذا يقودنا الى التحدث عن مسكلة أخرى تناولها **زمل** ، وهى امكان وجود قوانين تحكم سير التاريخ .

ان القانون قضية تعبر عن العلاقة الثابتةبين مجموعة من الوقائع السابقة التى تتلوها بالضروره وقائع لاحقة لا تتخلف عنها أبدا . ولتقرير هذه العلاقة لا بد من الفصل بين الوقائع السابقة والوقائع اللاحقه من ناحية ، وبين مجرى العوامل والاحداث الاخرى وهى عديدة جدا ومتشابكة كل الاشتباك . فاذا ما نظرنا الىالاحداث التاريخية ، وجدناها فى غاية التعقيد والتركيب والاشتباك بحيث يصعب جدااستخلاص العلاقات الثابتة بين مجموعات منها ، كما هى الحال فى الظواهر الفيزيائية . وهذا يفسران من المستحيل على المؤرخ ان يقرر روابط ثابتة بين الاحداث التاريخية بحيث تقع النتائجبالضرورة كلما تحققت الاسباب . ولهذا لا نجد فى التاريخ حوادث متشابهة تماما ، والحادثالتاريخى الواحد لا يتكرر ابدا .

وما زعم من وجود قوانين تحكم التاريخهو محض تخرص ، ومن امثالها : « الحرية تنتشر تدريجيا من **قلة من الافراد الى الجماهير** » ،« الجماعات تنتقل تدريجيا من حالة الشباب الى النضوج ، الى الشيخوخه » . « أشكال الانتاجالاقتصادى فى عصر ما تتحد بقوى الانتاج فى ذلك العصر » .

لكن هذا لايعنى مع ذلك ان الواقع التاريخىيتأبى على كل تحديد عام . فثم طريقان أمام الفكر الفلسفى لايجاد تفسير عقلى للاحداثالتاريخى ووضع صيغ عامة لهذا التفسير . **والطريق الاول** هو القول بأن قيمة معرفة القوانينالتاريخيه هى قيمة نسبية وموقتة ، وان الملاحظات العامة على مجرى التاريخ ، وان لم نعبر عن قوانين بالمعنى الدقيق ، فانها « اعدادات لقوانين » Vorberei-tungen Auf Gesetze على حد تعبير **زمل** . وهذه الملاحظات كلما تنوعت وقورن بعضها ببعض ادت الى مزيد من التدقيق،وبالتالى الى مزيد من الاقتراب من القوانين . ولهذا يفيدنا كثيرا فى هذا المجال استقصاءالاحداث ومقارنتها واجراء التحليل الدقيق العميق عليها .

والطريق الثانى عكس الاول : فبدلا منالتحليل الى عناصر ، نقوم بالتركيب بين المعانى اكثر فأكثر « حتى تكون التركيبات الاصيلةوالتصورات المركبة » ، والمجموعات التى تندرج فيها الاحداث ــ بمثابة وحدات ، لاحاجة الىتحليلها الى أقل من ذلك » (١٥) . فمثلا لفهم

---

(١٥) زمل : « مشكلات فلسفة التاريخ » ص ١٠٨ .

معركة ماراتون (١٦) يمكن أن نصرف النظر عن معرفة حياة كل محارب اشترك فيها ولا كيف تصرف هذا اليونانى او ذاك ، بل علينا ان نعرف كيف تصرف اليونانيون عموما ، وهكذا لايهتم المؤرخ بالافراد منعزلين ، بل بالمجموع ، وليس المجموع ناتج جميع الافراد ، لانه الى جانب الطباع المشتركة بين الافراد هناك طباع خاصة لاتعرف الا بالتركيب والتكامل .

والخلاصة انة : « سواء اتجه التطور التاريخى الى مزيد من التفاضل للافراد ، او الى مزيد من التشارك، وسواء قامت الثقافة الاخلاقية على الثقافة العقلية او على العكس كانت لها قوانينها الخاصة للتطور ، وهى قوانين عرضية بالنسبة الى الثقافة العقلية ، وسواء ذهبت الحرية الاجتماعية للافراد جنبا الى جنب مع تكوين روح موضوعية وكنز من النتاجات فوق التشخصية للحضارة ، فى الميادين العلمية والفنية والتكنيكية. فان كل هذه التوكيدات وامثالها يمكن ان تعد ، من ناحية ، كارهاصات وتحضيرات لروابط معلومة بدقة ومحكومة بقوانين عقلية ، ولكن من ناحية اخرى فانها ــ على مستوى التركيبات التصورية ــ هى اسقاطات للحادث مرضية بذاتها : فالمقولات المجردة الظاهرياتية ، التى من زاويتها تضع المعرفة أسئلة من هذا النوع ، لاتستطيع ان تظفر باجابات أكثر دقة ، او تتعلق بحقائق وباسباب فردية . صحيح ان هذه المقولات يمكن كثيرا ان تدرك على انها خاطئة ،لكن مايحل محلها ليست ابدا غير تحقيقات أخرى لنفس اشكال المعرفة ، تظل على مسافة مساوية من المثل الاعلى للعلية فى العلوم الطبيعيه . وهكذا ينكشف ان هاتين الطريقتين فى الوجود الخاصتين بالقوانين التاريخية هما أسلوبان مختلفان يتخذهما العقل فى وضعه للاسئلة ، ووجهان يرتفع اليهما فوق حقيقة الاشياء ، بسبب تفاوت الحاجات النظرية : وهذا من شأنه ان يبرهن مرة أخرى فى مواجهة الواقعية التاريخية الساذجة ، على ان هذين المظهرين لا يعنيان ابدا نسخة من الواقع ، بل تشكيلا داخل العقل لهذا الواقع . وتبعا للطابق الذى نضعه فيه ، يتخذ الواقع تنظيما خاصا ، يلائم هذا الطابق وحده . لكن هذا التنظير بين القوانين التاريخيه وبين التأمل ، فى ايقاع المعرفة ، لا يعنى ابدا ان التاريخ قد صار من اختصاص الفلسفة ، وانما يعنى ان مقتضيات المعرفة ومقولاتها ــ وهى تعبر عن علاقاتنا النموذجية مع الواقع ، تؤدى ، فى كلا الميدانين ، الى تكوينات مناظرة لمادتيهما » (١٧) .

هل فى مجرى التاريخ غائية ؟

ثم ينتقل زمل الى البحث فى نوعين من المشاكل الفلسفية المتعلقة بفلسفة التاريخ :

أ ــ **الاول** هو مسألة معرفة ما اذا كان « كل » التاريخ ، وهو ليس الا مجموع الجزئيات التجريبية ، يمكن ان يظفر بماهية ومعنى لاتملكه هذه الجزئيات ، وماهو الموجود المطلق ، او الحقيقة العالية التى تقوم وراء الطابع الظاهرى للمعطيات التجريبية للمعرفة التاريخية » (١٨) .

---

(١٦) قرية فى اقليم اتيكا فى اليونان اشتهرت بالمعركة التى انتصر فيها ملتياوس ، القائد اليونانى ، على الفرس فى سنة ٤٩٠ قبل الميلاد .

(١٧) زمل : « مشكلات فلسفة التاريخ » ص ١٢٠ ــ ١٢١ .

(١٨) زمل : « مشكلات فلسفة التاريخ » ، ص ١٣٥ .

ولا يمكن حل هذه المشكلة الا بتحويل السلسلة العلية للظواهر التاريخية الى سلسلة غائية تملك ، بما هنالك من غائية باطنة تحكمها ،وحدة عضوية . وهذا التحويل لايمكن حدوثه الا بافتراض اله ، وعناية الهية تعين مجرى التاريخ .

ب ــ والثانى يتعلق بالقيم والمعانى التىتتلقاها المعطيات التاريخية من الاهتمامات غير النظرية » . وفى هذا يقول **زمل** : « ان الانعكاسات التى تلقيها اهتماماتنا التأملية وغير النظرية على معطيات علم التاريخ هى عناصر ميتافيزيقا التاريخ ، وهذه الميتافيزيقا تتوجه على نحو مختلف تماما عن التكييف النظرى للحادث ، وفى هذا التمييز الدقيق بينها وبين هذا الاخير تجد تلك الميتافيزيقا حقها فى الوجود . بيد أن النظرية المحض هى مثل أعلى لايتحقق ابدا ، ويظل يؤثر فيها فعل المقولات الميتافيزيقية . والتأمل فى التاريخ ليس ، فى شطره الاكبر ، غير الاستخلاص والاتمام والتنسيق المتلائم مع مبادىء وفروض وقوى فعالة فى تركيب مادة الحادث ، كما بتصوره التاريخ الدقيق » (١٩) .

ويفحص **زمل** عن هذه الاهتمامات فوق النظرية التى تحكم فلسفة التاريخ فيجد فى مقدمتها الميل الى المعرفة . ويتلوه رد الفعل العاطفى نحو المضمونات الكيفية للاحداث ، وذلك فى الاحداث التى تثير فينا تشويقا خاصا . ولا يهم هل الاحداث حدثت بالفعل ، او فيها جانب من الخيال او كلها من نسج الخيال . وهذا امر ذاتى خالص ، يتوقف على مزاج المؤرخ .

ولايضاح هذه النقطة الثانية ، ننظر فى معنى يلعب دورا كبيرا فى اهتمام المؤرخ ، وهو فكرة التقدم . فمن الواضح انه لايمكن تصور التقدم الا بالنسبة الى فكرة سابقة عن الغاية ، والا فكيف نعرف أن ماحدث يعد تقدما وليس تأخرا ان لم تكن ثم غاية محددة من قبل ؟ وفى هذا يقول **زمل** : « كوننا ندرك ، أولا ندرك ، تقدما فى التاريخ ــ هذا يتوقف على مثل أعلى قيمته ، بهذه المثابة ، لاتصدر عن توالى الوقائع ، بل تنضاف اليها بفعل الذاتية » (٢٠) ولا يمكن أن يعترض على هذا بالقول بتقدم صورى خالص ،من نوع الاخلاص الصورية عند **كانت** Kant ، فانه من المستحيل تصور تقدم صورى محض ،لأن فكرة التقدم يدخل فيها عنصران اساسيان هما : وجود تغير فى الاحوال ، ووجود نماء فى القيمة من الحالة الاولى الى الحالة التالية . وهذا العنصر الثانى هو بطبعه متغير .

كذلك يلاحظ انه لكى يكون ثم تقدم معا من عصر تاريخى الى آخر ، فلابد أن يبدو العصر التالى محددا فى جوهره بالعصر الاول ، فى السلسلة الغائية ، مهما يحدث من انقطاعات فى السلسلة تحت تأثير ظروف طارئة عارضة : وهذا لايتم الا اذا تصورنا ، فى الاحداث التي تؤلف نسيج التاريخ ، وحدة وتوترا باطنين . ولا يمكن ان يكون ثم تقدم اذا لم يكن هناك وحدة جوهرية هى الحامل للظواهر .

ولهذه الاهتمامات يختلف المؤرخون فى تقويم العوامل التاريخية ، مما يجعل المؤرخ يقوم « باختيار » فى الواقع التاريخى ، ويغلب بعض العوامل على بعض ، كما هو مشاهد بكل جلاء فى نظرة انصار « المادية التاريخية » الذين يغلبون عوامل الاقتصاد ، او على حد تعبير **زمل** عامل « الجوع » على سائر العوامل .

---

(١٩) الكتاب نفسه ، ص ١٣٥ .

(٢٠) زمل « مشكلات فلسفة التاريخ » ص ١٥٦ .

والحق أن الواقع مليء بالاهتمامات من كل نوع . « والمادية التاريخية بسبب روح الاصرار التى تميزها فى اتباع هذا المبدأ ، لاتفعل الا أن تبين » بطريقة متيرة ، تلك الميتافيزيقا التى تتضمنها كل نظرية تاريخية أخرى لان امكان النفوذ فى التأثير المتبادل لكل العوامل التاريخية امر غير ميسور لنا ، وبينما هذا وحده هو الذى يستطيع ان يجعلنا نتصور الوحدة الفعلية للتاريخ ، فان كل صورة يتيسر لنا تكوينها عن مجموع الاحداث لا يمكن ان يتم رسمها الا بتركيب من طرف واحد » (٢١) ، أى من وجهة نظر واحدة . « وهكذا تخلط المادية التاريخية بين صورة الحادث كما صورت بفضل اهتمامات المعرفة ، وبين الحادث المباشر كما يتحقق فى الواقع ، وكذلك يخلط بين مبدأ له أهميته بوصفه مبدأ للبحث ، ولا يمكن تطبيقه ، من جميع الاعتبارات ، الا على سبيل المحاولة ــ وبين مبدأ تكوينى يوضع مقدما وعنه تصدر كل الوقائع » (٢٢) . وهذا يفضى بالمادية التاريخية الى مأزق لا سبيل الى الخروج منه : « لانه اذا صح ان تطورات العادات والقانون والدين والادب تسلك منحنى التطور الاقتصادى دون ان تؤثر فى هذا الاخير تأثيرا جوهريا ، فانى لا استطيع ان أفهم كيف تحدث التحولات فى الحياة الاقتصادية » (٢٣) . وبعبارة ابسط : لماذا نتصور تأثر القانون والعرف والدين والادب بالحياة الاقتصادية ، دون أن نتصور تأثر الحياة الاقتصادية هى الاخرى بالقانون والعرف والدين والادب ؟ ان ما تقوم به المادية التاريخية من اختيار فى نسيج الواقع التاريخي ينطوى على اهتمامات ميتافيزيقية ، وعلى ميول وأمانى ذاتية . ذلك اننا لو حللنا الاسباب التى من أجلها اختارت المادية التاريخية الاهتمامات والقيم والمصالح الاقتصادية وحكمتها فى تفسيرها لمجرى الاحداث التاريخية ، فاننا نجد مصدر ذلك النزعة الاشتراكية ، التي ترى ان المصلحة الاقتصادية هى العامل المشترك بين كل العناصر التى تحكم فى الجماهير ، لأن الاشتراكية تنحو نحو التسوية بين المستويات ، ولا يمكن الطموح الى التسوية الا فى الميدان الاقتصادى . ولهذا فان الاشتراكية ليست النتيجة المنطقية للمادية الاقتصادية ، بل على العكس من ذلك الاشتراكية هى السبب النفسانى المؤدى الى اعتناق المادية الاقتصادية والمادية التاريخية اساسا لتفسير مجرى التاريخ .

٣ ــ بندتو كروتشه

وننتقل الآن الى فيلسوف ومؤرخ كان من أشد الفلاسفة والمؤرخين اهتماما بمسألة العلاقة بين الفلسفة وبين التاريخ ، الا وهو بندتو كروتشه (١٨٦٦ ــ ١٩٥٢) .

والغريب انه ينكر « فلسفة التاريخ » لسبب بسيط وهو ان الفلسفة تاريخ ، والتاريخ فلسفة !

ويشرح كروتشه رأيه هذا فيقول (٢٤) ان من المعروف ان « فلسفة التاريخ » كانت تعنى

---

(٢١) : « امشاج من الفلسفة النسبية » ، ترجمة فرنسية ، ص ٢٠٧ ، باريس سنة ١٩٦٢ .

(٢٢) زمل : « مشكلات فلسفة التاريخ » ص ١٦٦ .

(٢٣) الكتاب نفسه ، ص ١٦٧ .

(٢٤) راجع كتابه La Storia Come Pensiero e come azione الطبعة الثانية ص ١٣٦ ــ ١٤٣ بارى ، سنة ١٩٣٨ .

– فى معناها الاول الذى كان سائدا فى القرن الثامن عشر » – « تأملات فى التاريخ » ، أو كتابة التاريخ مربطة بفكرة الانسانه والحضارة اى على نحو أقرب الى الفلسفه مما كانت الحال عليه عند المؤرخين الذين خضعوا لسلطان العقائد الدينية العتيقة . ولكن هذا التعبير « فلسفة التاريخ » لو حللناه جيدا لوجدناه ينطوى على تكرار وعدم تلاؤم ، لأن « التفكير فى التاريخ هو فى ذاته تفلسف ، ولا يمكن التفلسف الا بالرجوع الى الوقائع ، أى الى التاريخ (٢٥) .

ولكن التأملات العامة غير المقرونة بالوقائع تؤدى الى صيغ جوفاء ، هى ما آلت اليه كتب « فلسفة التاريخ » . ويكفى المرء أن يطالعها ليتبين له فى الحال ما فيها من خلط وهوى . ففى بعضها نجد مثلا ان الشرق هو « الشعور المباشر » بينما اليونان هى « حرية الفرد » ، وروما هى « العموم المجرد » أو « الدولة » ، والعالم الجرمانى هو « وحدة الفردى والكلى » . وفى كتاب آخر نجد أن الشرق هو « اللامتناهى » ، والحضاره اليونانية الرومانية هى « المتناهى » ، والعصر المسيحى هو « التركيب المؤلف من المتناهى واللامتناهى » . وفى كتاب ثالث يقال ان التاريخ القديم يقوم على فكرة « المصير » ، والعصر المسيحى فى فكرة « الطبيعة » . وبالمثل تسلك فلسفات التاريخ التى تستخدم معانى أو شبه مقولات مادية ، كما هو شأن الفلسفة الماركسية فى التاريخ : اذ هى تقول ان العصر القديم يقوم على معنى « الاقتصاد القائم على الرق » ، والعصر الوسيط يقوم على « الاقتصاد المستعبد » ، والعصر الحديث يقوم على « الاقتصاد الرأسمالى » ، والعصر المقبل سيقوم على « اشتراكيه وسائل الانتاج » . وهذا هو الشأن كذلك فى فلسفات التاريخ القائمة على العنصرية فى الاجناس ، فهى تحول المجتمعات الجغرافية واللغوية للشعوب الى اجناس نقية دائمة مستمرة ، وبعد ذلك تقسمها الى أجناس منحطة وأخرى سامية ، وتربط بينها وبين الفضائل والرذائل ، والقوى الروحية او النقائص الفكرية ، والشجاعة والتدين والقدرة على التفكير والابداع الفنى ، او الانحطاط والخسة وانعدام التدين والتخلف الفكرى ، وهكذا .

وثم فلسفات فى التاريخ تنطلق من فكرة احوال بدائية ، تلقائية ، بريئة ، من نوع من الفردوس الارضى ، الذى فقد فيما بعد ، ثم تمر بعد ذلك بجحيم ومطهر العصور التالية ، ثم تكسب بصورة أعلى وتسترد ذلك الفردوس الذى ان نفقده مرة أخرى . وهذا النمط هو الاكثر شيوعا ، ويوجد ايضا فى المادية التاريخية بما تقول به من جنة الشيوعية الأولى ، وما تلا ذلك من فترة وسطى قاسية سيتلوها مستقبل عقلى سعيد .

وثم فلسفات أخرى فى التاريخ ترسم الصراع بين مبدأين احدهما للخير والآخر للشر ، احدهما للسعادة والآخر للشقاء والألم ، مع القول بأن الانتصار النهائى سيكون لمبدأ الخير والسعادة وبتحقق الجنة على الارض او فى السماء . وهناك أخرى تصور التحرر فى الحصول الشاق على الشعور المتزايد بالشقاء الانسانى ، مما سيقود الى افناء كل ارادة عن طريق الزهد او الى الانتحار الكلى الواعى (شوبنهور) .

ويرى كروتشه ان طابع الاسطورة يسود كل فلسفات التاريخ ، لانها تريغ الى الكشف عن « خطة فى العالم » Weltplan من ميلاده الى فنائه ، او من دخوله فى الزمان الى دخوله فى الأبدية ،

---

(٢٥) الكتاب نفسه ص ١٣٦ .

ويشيع فيها لاهوت أو عالم من الجن . وليست القرابة بين الاسطورة وفلسفة التاريخ بعيده ، اذ ليست قرابة مثالية فحسب ، بل وقرابة تاريخية يتضح ذلك لمن يتأمل في هذه الحقيقة وهي ان فلسفة التاريخ ـ وقد ادعى الالمان زمنا انها علم جديد والماني ـ كان لها رواج وازدهار في البيئة التي هيأتها البروتستنية والكتاب المقدس بما فيه من حلم نبخذ نصر وتأويل دانيال بأن سيكون ثم توالي لممالك : مملكة الذهب ، مملكة الفضة ، ومملكة النحاس ، ومملكة الحديد ومملكة الطين .

وبهذه المناسبة ينفي كروتشه ارتباط مايذهب اليه البعض من جعل أعمال فيكو Vico (١٦٦٨ ـ ١٧٤٤) على رأس « فلسفة التاريخ » الالمانية من حيث ان هذه كانت في جوهرها اسطورية التكوين ، بينما كانت أبحاث فيكو نقدية .

وبالمثل يهاجم كروتشه « فلسفة الطبيعة » ويرى فيها تأويلات رمزية Allegorismo « والتأويل الرمزي Allegoria لا يضع وحدة عليا ، بل هو كتابة تولج حروفها بين أسطر كتابة أخرى ، وهو كتاب أقحم في كتاب آخر ، كتاب يمكن ان يكون جيدا أو رديئا ، وان يقول أشياء معقولة او غير معقولة » (٢٦) .

ويؤكد هذا المعنى في موضع آخر فيقول : « ان علو فلسفة التاريخ مثله مثل أي علو آخر ، Trascendenza يساوي علو فلسفة الطبيعة ، التي ازدهرت واضمحلت معها . ومثل أي علو نراه يتخذ شكلين : أحدهما شكل الأسطورة والآخر شكل الميتافيزيقا ، التي لا يمكن تمييزها بدقة من المنطق ، لأن كل ميتافيزيقا فيها نصيب من الاسطورة ، اعني انها تحتوي على عنصر امتثالي ، وكل أسطورة فيها نصيب من الميتافيزيقا ، اعني انها تحتوي على عنصر منطقي ، بفضله هي أسطورة وليست مجرد خيال شعري » (٢٧) .

ويرى ارهاصات فلسفة التاريخ في التصورات المهدوية عند العبرانيين وفي الكونيات الشرقية ، ثم اتخذت شكلها الواضح لأول مرة في المسيحية وخصوصا في عصر آباء الكنيسة ، ودخلت فيها بعض التنويعات خلال العصور الوسطى ، على يد رجال مثل يواقيم الفلوري Gioacchino di Fiore (حوالي سنة ١١٣٠ ـ ١٢٠٢) . فلما جاء عصر النهضة قامت حركة لكتابة التاريخ لا تعتمد على الاسطورة . وأدخلت المعاني الجديدة في العصور الحديثة ، وأخيرا دخلتها النزعة العقلية ونزعة التنوير ، هنالك انحصرت فلسفة التاريخ في دائرة الكنائس (الكاثوليكية والانجيلية على السواء) وتجاهلتها كتابة التاريخ ذات النزعة العلمانية ، ولم تدخل في صراع معها لانها لم تجد نفسها في مواجهة خصم مستكبر ومنافس . وفيكو Vico نفسه لم يحسب لها حسابا . والقرن الثامن عشر لم يفهم من « فلسفة التاريخ » غير التاريخ المروي بروح تنويرية واصلاحية .

لكن حينما استأنف المثاليون التالون « لكانت Kant والرومنتيك في المانيا ـ وكانت جامعاتها قد حافظت على التقاليد المنحدرة من العصور الوسطى ـ نقول حينما استأنف هؤلاء منهج فلسفة التاريخ المسيحية العنبقة المنسية في كل مكان غير المانيا ، وبلغت هذه الحركة أوجها

---

(٢٦) كروتشه : « التاريخ فكرا وفعلا » ، ط ٢ ص ٤٠، ١ . باري ، سنة ١٩٣٨ .

(٢٧) كروتشه : « فلسفة ـ شعر ، تاريخ » صفحات ماخوذة من كل مؤلفاته ، ص ٤٥٩ ميلانو ـ نابلي ١٩٥٢ .

فى فلسـفه **هيجل** ، وحينما نمت هده الحـركةوصارت البدع السائد ــ حدث ان تحول عدم الاكتراث القدم نحو فلسفه التاريخ الى رفضعنيـف وتهكم ســاخر . ولنضرب أمثلـة على مبالغات هذه الحركه بما فعله **فريدرش اشليجل**(١٧٧٢ ــ ١٨٢٩) من النظر الى التاريخ العالمى على انه سقوط من حاله براءة اولية وحكمة عالية،بسبب النزاع بين أبناء شـيث وابنـاء قابيل ، سقوط فى حالة انعدام الدين والالحاد ، وما فعله**جيرس** Görres (١٧٧٦ ــ ١٨٤٨) من تقسـيم تاريخ العالم بحسب سـنة أيـام موسى ، وجاءشلنج (١٧٧٥ ــ ١٨٥٤) فى طوره الثانى فقال بالانتقال من حالة أولية تسم بالتوحيد الى حالةتتسم بالشرك وذلك بالسقوط فى الشر ، وسببه هذا « بالالياذة » التى سنتلوها « أوديسا » عودةالانسانية الى الله . وصارت خصائص العصور المختلفة والشعوب أكثر غرابة : ففى كتب فلسفةالتاريخ التى كتبها هؤلاء نقرأ ان العالم القديم هو الجانب الواقعى او الطبيعى للتاريخ ، ومقامه مقامالطبيعـة بازاء الروح (أو العقل) ، والمتناهى بازاء اللامتناهى ، بينما العـالم الحـديث هـوالجانب المثالى والروحى . او نقرأ كذلك ان مبدأ العالم القديم هو الاحساس ، بينما مبدأ العالمالحديث هو العقل ، وان الشعوب تتميز بغلبة احدى الملكات او الصفات : فالصينيون يتميزونبالعقل ، والهنود بالخيال ، والمصريون بالوجدان النافذ ، والعبرانيون بالارادة .

لكن المؤرخين الوضعيين الذين خسروا منتهاويل هؤلاء الفلاسفة فى التاريـخ لم يوفقوا فى نقد هؤلاء الأخرين ، لانهم رفضوا الفلسفة نفسهاكما رفضوا فلسفة التاريخ ، فحرموا أنفسهم من السلاح الصالح الوحيـد للقيـام بعملية النقد ،واحلوا محل المثالية الميتافيزيقية نزعة طبيعيـة ليسـت أقـل ميتافيزيقية من مثالبـة أولئك ،وجهلوا الغائية الباطنية التى قال بها كانت Kant وأحلوا محلها الميكانيكيـة الحتميـة ، وبهذا لميحطموا فلسفة التاريخ ، بل التاريخ نفسه .

ولا سـبيل الى تفنيد فلسـفة التاريـخ ،وكذلك الحتمية التاريخيه التى تلتها،الا بالفحص الدقيق عن فعل الفكر الذى يولد كل قضـيةتاريخية ، وهو فعل يقوم به المؤرخون الحقيقيون، وهو يقوم على أساس ان الفعل التاريخى ينولدمن حاجة واضـحة الى الفعـل ، او الى التهيؤ للفعل ، ابتغاء الخروج من الموقف الذى يوجد فيهالمرء ، وبالتالى ادراك هذا الموقف ، موقفنا نحن فى العالم المحيط بنا ، ثم هذا العالم نفسه ، اعنىالقوى الفعالة فيه . وكل قول فى التاريخ محدود اذن بالحاجة التى تدفع اليه ، ولا يمكن الخروجمن هذه الدائرة دون السقوط فى الخواء . « ان الحكم التاريخى (اى الذى يصدره المؤرخ ، هودائما جواب عن سؤال تصدره الحياة ابتغاء توليد حياة جديدة ، حتى اذا ماعرف ما يراد معرفته ،وانضح ما ينبغى ايضـاحه ، لا يبقى ثم وجـه للسؤال ، فاذا حصل هذا المصباح المنير ، ينبغىالعمل ، ولا يمكن ان يكون ثم سؤال آخر وجواب آخر تاريخى الا اذا تكون موقف جديد وانبثقتحاجة جديدة . والتواريخ العارية عن المشـاكل العملية التى تتطلبها وتقودها ما هى فى قصارىامرها غـير تهاويـل ومماحكات ، وليسـت ابدا تواريخ حقيقية .

« ومن التهاويل والمماحكات فى المقام الاول ،ادعاء فلسفة التاريخ وضع تلك الاجابات فلسفيا ، وهى فى ذاتها فلسـفة تتضمن معرفة مقولات العقل(أو الروح) التى لا تحيا ولا تقوم الا فيما هـو حكم تاريخى عينى : وفى هذه النقطة يرتبـط ماتذهب اليه من أن كل الفلسـفة تحيا فقـط فى

التاريخ وبوصفها تاريخا ، وان الفلسفة والتاريخ يتطابقان وهما شيء واحد . وهذه حقيقة لمحها أو استشعرها هيجل ، لكنه سرعان ما أضاعها حينما تصور « تطبيق » الفلسفة على التاريخ ، تطبيق فلسفة جميلة ممشوقة على تاريخ جميل ممشوق ، الواحدة بغير تاريخ ، والآخر بغير فلسفة . والذين يقولون اليوم أو يعتقدون أن النظرية المشار اليها ـ والقائلة بالهوية فيما بين التاريخ والفلسفة ـ ليست غير تكرار للنظرية الهيجلية ، هؤلاء لم يتأملوا فى كتب هيجل ولا فى النظرية الجديدة ، او هم مخطئون فى ادراك الفوارق بين الكلمات التى تتشابه فى الرنين ، وهى كلمات لا تأخذ معناها الحق الا فى ملابسات تاريخية وحضارية مختلفة . واقول هذا مرة واحدة والى الابد ، انى لا أقرر هذا عن تفاخر بالاصالة ، بل من أجل فهم المعانى التى ذكرناها » (٢٨) .

ويكفى هذا بيانا لموقف **كروتشه** من « فلسفة التاريخ » بالمعنى الذى فهمه هو من هذا التعبير ، وهو معنى محدود لا يقره عليه أصحاب فلسفة التاريخ ، ولا ينطبق على نظريات كبار فلاسفة التاريخ : مثل هيجل ودلتاى وزمل واشبنجلر ويسبيرز . ويعجب المرء من موقف كروتشه هذا ، ويتساءل : **بأى حق قصر معنى** فلسفة التاريخ على ما أشرنا اليه هاهنا ؟ ان هذا تحكم منه لا مبرر له .

لعل ما دعا كروتشه الى الوقوف هذا الموقف الغريب من « فلسفة التاريخ » هو ايمانه بأن الفلسفة تاريخ ، والتاريخ فلسفة كما صرح بذلك مرارا وتكرارا . ولهذا رأى انه لا محل « لفلسفة التاريخ » لأن ذلك ـ فى نظره ـ تحصيل حاصل .

التاريخية المطلقة

وهذه النظرية هى ما يعرف بالتاريخية المطلقة عند كروتشه ، وقد كرس لها بحثا فى سنة ١٩٣٩ بعنوان « معنى الفلسفة بوصفها تاريخية مطلقة » (٢٩) .

فى هذا البحث يحاول كروتشه ان يبين قضيتين :

الاولى ان الفلسفة لا يمكن أن تكون وليست هى فى الحقيقة ، الا فلسفة للعقل (أو الروح) .

والثانية ان فلسفة العقل لا يمكن أن تكون ، وليست هى فى الواقع الفيبى ، ولم تكن أبدا حما ، الا تفكيرا تاريخيا او كتابة للتاريخ ، الفلسفة تمثل فى عمليتها لحظة ـ التأمل المنهجى ، التى يمكن ابراز جانب أو آخر منها ولكنها لا تنفصل عن العملية الوحيدة للتفكير التاريخى .

ويلاحظ فى تاريخ الفلسفة صراع متفاوت ولكنه متواصل تقوم به المعرفة النقدية أو فلسفة العقل ضد طريقتين معارضتين لها فى القاء الضوء الذى تحتاجه الحقيقة . والطريقة الاولى منهما ليست الشعر كما رأى افلاطون ، بل الأسطورة : الاسطورة التى ليست مجرد صورة مثالية او غنائية مثل الشعر ، بل الصورة التى تقوم بدور الحقيقة التصورية وبدون تفسير الاشياء والاحداث . والطريقة الثانية هى الميتافيزيقا . والميتافيزيقا تتولد من الانفصال عن الاساطير

---

(٢٨) كروتشه : « فلسفة ـ شعر ـ تاريخ » ، ص ٤٧٠ ـ ٤٧١ ، ميلانو ـ نابلى ، سنة ١٩٥٢ . وهذا البحث نشره كروتشه فى سنة ١٩٤٣ .

(٢٩) انظره فى : كروتشه : « فلسفة ـ شعر ـ تاريخ » ص ١٣ ـ ٢٩ .

وحقائق الوحى ، ابتغاء البحث فى المقولات التى نفكر بها فى الواقع . ويتم ذلك حين لا تجد طريقها الحق فتأخذ بمنهج العلوم الطبيعية او التجريبية، مما يضطرها الى القول بمقولات فلسفيه ، وتصورات تجريبيه هى تصورات محضه ، وموضوعات أو قوى مادية هى فى آن واحد روحية ومنطقية . والطابع الطبيعى النزعه فى التأملات الميتافيزيقية يتضح فى محاولتها اكتناه السبب أو اسباب الواقع ، لان مبدأ السببية من شأن العلوم الطبيعية . والطابع المولى يتجلى فى ادعائها البحث فى السبب ، والاسباب النهائية او « العالية » ، وهذا تناقض فى الحدود لأن الاسباب ليست أبدا نهائية ولا عالية ، اذ هى مجرد علاقات بين وقائع جزئية . واسم « الميتافيزيقا » نفسه ، فى انتقاله من معنى الى آخر ، ومن ال **بعد** Post الى **عبر** **trans** ، يدل على محاولة زائفة للارتفاع من عالم الموضوعات الى عالم الكيانات entita ، وبهذا تضع الفلسفة فى وضع زائف ، واضعة « نفسها « **كفلسفة أولى** » أو « **فلسفة عامة** ». والميتافيزيقا تعلو — أو تسىء فى البعد — على التاريخ ، ابتغاء **الوصول الى عالم خارج التاريخ أو فوق التاريخ .**

وفى مقابل ذلك نجد فلسفة العقل (أو الروح) — وهى التى يدعو اليها كروتشه — **قد انتجت وتنتج دائما كل المعانى والتصورات** التى بواسطتها تحكم الانسان على الحياة وعلى الواقع وتفهمها . ومنهجها ليس التجريد والتعميم ، بل التفكير فى الكلى المحايث فى الفردى ، وليس ضم الكليات الى الكليات ، بل ادراك العلاقات بين الكليات فى داخل الكل الذى يتألف منها ، وليس رد الوقائع الجزئية الى اصناف ، بل فهم الوقائع الجزئية بوصفها الكلى المتحقق عينيا .

ان الحكم التاريخى وحدة بين الفردى والكلى ، بين الموضوع والمحمول ، بين الادراك الحسى والتصور . ولا يوجد حكم حقيقى وعينى الا اذا كان تاريخيا . وتاريخية أيضا هى الحلول والتعريفات الفلسفية ، اذ هى تميل دائما الى موقف تاريخى معين يوجد فيه المفكر . « ان الفلسفة الحقة ، وهى تختلف تماما عن مباحث المدارس الفلسفية الهزيلة الشاحبة ، حافلة بالحياة الوجدانية والاخلاقية التى تزخر بها والتى تتبع الرغبة بازاحة الوان الغموض العقلى التى تعانيها وتضعها فى مواجهة الموقف التاريخى ، ممهدة السبيل الى الاشباع اللاحق الذى هو الفعل العملى .

وهنا نصل الى مبدأ مهم وصفه كروتشه للفهم التاريخى ، وهو مبدأ المعاصرة contemparaneità بوصفه الأساس فى كل كتابة حقيقية للتاريخ . فهذه تضع نفسها على انها فى جوهرها **معاصرة** . ذلك ان الحكم التاريخى فى **لحظة تولده يتبدى أنه يتولد** من « **اهتمام بالحياة** الحاضرة ، والا لم يتولد . ولهذا كان على كتابة **التاريخ** بالضرورة **أن تتولد من اهتمام بالحياة** الحاضرة . وواقعة التاريخ الماضى يجب ان تشيع فيها روح الحياة الحاضرة حتى تتخذ صورتها الحقيقية . ولهذا ينبغى رفع التاريخ الى الشعور بالحاضر الابدى .

وهنا **يميز كروتشه** بين « التاريخ » و « الأخبار » ، فيقول « ان التاريخ storia هو فى جوهره **فعل للفكر** ، بينما الأخبار cronaca **هو فعل للارادة** . والتاريخ storia **فعل للفكر** ، **فعل** نظرى لأنه وصف مقولى categoriale **للاحداث** التى أحدثتها الروح الانسانية فى الماضى ، وبوصفه **فعلا نظريا** فانه **فعل** « تركيب تاريخى » و « الأخبار » cronaca **فعل ارادة** ، لانها يجب عليها الا تحكم أو تصف ، بل فقط عليها ان تسجل اعنى ان تحفظ . ان فعله شبيه بفعل **العالم الطبيعى الذى لا يحكم على التجارب الجديدة** المختلفة التى يشاهدها **بل يعمم** فيها من اجل تصنيفها ، ويقوم **بعمل** وصف **اعتباطى** أو ميسر . ان الاخبارى يسجل ما يحدث بترتيب رمى ، انه

لا يتلقى الحياه التاريخية في ميلادها ونموها من الداخل ، بل يرصدها من الخارج فحسب ، ولهذا فان الاخبار cronaca لا تنفذ الى الفردية المميزة للوقائع التاريخية .

ان الأخبار والتاريخ لا يتميزان بوصفهما شكلين للتاريخ ، يكمل كل منهما الآخر ، أو يخضع أحدهما للآخر ، بل هما موقفان روحيان مختلفان . « ان التاريخ storia هو التاريخ الحى ، والأخبار هى التاريخ الميت ، والتاريخ هو التاريخ المعاصر ، بينما الأخبار Cronaca هى التاريخ الماضى ، والتاريخ هو أساسا فعل للفكر ، بينما الاخبار فعل للارادة . وكل تاريخ يصير أخبارا اذا لم يعد مفكرا فيه ، بل مذكورا فقط في كلمات مجردة ، كانت حينا ما عينية وتعبر عن التاريخ . وحتى تاريخ الفلسفة هو أخبار ، كتبها غير الفاهمين للفلسفة ، او قراها هؤلاء ، وتاريخ هو ذلك الذى نكون على استعداد لقراءته على أنه أخبار ، الا وهو تاريخ الراهب فى مونت كاسينو الذى وقع ما يلى : « ١٠٠١ : **دومينيك الطوباوى** رحل الى المسيح . ١٠٠٢ : فى هذه السنة جاء الترقيون (= المسلمون) الى كابوا . ١٠٠٤ : زلزال هائل هز هذا الجبل ، الخ ، وكانت هذه الوقائع جاهزة فى ذهنه ، وبكى على رحيل دومينيك الطوباوى ، وتحزن على المصائب الانسانيه والطبيعية التى هزت بلاده ، وأبصر فى توالى هذه الحوادث يد الله ممدودة . رهذا لا يمنع من كون هذا التاريخ ، بالنسبة الى نفس الراهب الذى من مونت كاسينو ، امكن أن يتخذ شكل الأخبار ، حينما سطر صيغها الباردة دون أن يتمثل بعد مضمونها ويفكر فيه ، ولم يكن همه غير أن يحفظ هذه الأخبار لاولئك الذين سيقيمون بعده فى مونت كاسينو » (٣٠) .

والتاريخ ، اذا فصل عن الوثيقة الحية وصار أخبارا ، لا يعود بعد فعلا روحيا ، بل شيئا ، ومركبا من أصوات او من علامات أخرى . وبالمثل الوثيقة اذا فصلت عن الحياة لا تعود غير شيء ، شبيه بأى شيء آخر ، ومجموعة من الاصوات او من العلامات الاخرى .

والتاريخية storicismo بالمعنى العلمى ـ هكذا يقول كروتشه (٣١) ـ هى القول بأن الحياة والواقع تاريخ ولا شيء غير تاريخ . وفى نفس الوقت هى تنكر النظرية التى تقسم الواقع الى « فوق تاريخ » ، و « تاريخ » الى عالم الصور او القيم ، والى عالم سفلى يعكسها او عكسها حتى الآن على نحو ناقص عابر وينبغى ان نضع مكان التاريخ الناقص أو التاريخ واقعا عقليا كاملا . ولما كانت هذه النظرية تعرف باسم « النزعة العقلية المجردة » أو « التنوير » فان التاريخية ــ تسير فى معارضة ونزاع ضد « التنوير » وترتفع فوقه .

ويقوم هذا النزاع على أساس ان الصور أو القيم ، التى عدت نماذج ومعايير للتاريخ ، ليست صورا ولا قيما كلية ، بل هى وقائع جزئية وتاريخية هى الأخرى ، رفعت خطأ الى مستوى القيم والصور الكلية . فمثلا فكرة الجمال التى كانت مقياسا للحكم على الاعمال الفنية كانت مستمدة من خطوط الجمال الخاصة عند فرجيل ورفائيل ، وافكار القانون الطبيعى كانت فى أساسها هى النظم القانونية التى وضعت فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، والافكار الاخلاقية وقواعد السلوك والفضائل هى تلك التى تصورتها الحضارة القديمة او المسيحية القديمة او الحديثة . بينما الافكار (أو الصور) والقيم الحقيقية ذات الطابع الكلى تملك تلك القدرة على فهم مختلف الاعمال فى الحياة الفنية والاخلاقية والقانونية ، من أشدها سذاجة وبساطة الى

---

(٣٠) بندتو كروتشه : فلسفة ــ شعر ــ تاريخ » ص٤٤٨ ــ ٤٤٩ .

(٣١) بندتو كروتشه : « فكرا وفعلا » ص ٥١ ومايتلوها . ط ٢ ، بارى ، سنة ١٩٣٨ .

اكثرها دقة وتركيبا ، وهى اذن ليست نماذج وتعميمات تجريبية ، بل صور محضة ومقولات ، مبدعة وحاكمة دائمة على كل تاريخ .

ومذهب كروتشه فى التاريخية يقوم على المبادىء التالية :

١ ـ انكار بقاء الطبيعة عالما قائما بذاته ،

٢ ـ الاعتراف بالطابع الروحى (العقلى) للواقع ، كل واقع .

٣ ـ تفسير الروح (العقل) على انها عملية تطورية ديالكتيكية ، اى عملية لها فى ذاتها مبدؤها الخاص فى الفهم .

٤ ـ رفض كل نوع من العلو البعد تاريخى Trascendenza metastorica وتوكيد محايثة الروح فى التاريخ ـ وبعبارة أخرى توكيد الهوية بين العقل (الروح) وبين التاريخ .

٥ ـ رد المعرفة الى معرفة تاريخية ، ورد الفلسفة الى لحظة منهجية فى التأريخ (٣٢) .

والروح ـ عند كروتشه ـ تطور ، (والتطور هو تغلب مستمر على الذات وتجاوز لها ، وهو فى الوقت نفسه محافظة مستمرة عليها) (٣٣) . الروح (أو العقل ـ والمعنى دائما واحد عند هيجل وعند كروتشه وفى المثالية بعامة) تقدم ، وكل لحظة من لحظاته لها قيمة ايجابية . وفى داخلها تندرج وقائع الطبيعة كما تندرج وقائع الحياة الانسانية ، لأن الطبيعة ، تكوين وحياة تاريخية « و » الواقع ، الواقع الوحيد (الذى يشمل فى داخله الانسان والطبيعة وهما لا ينفصلان الا تجريبيا وتجريدا فقط) كله تطور وحياة » . (٣٤)

٤ ـ كارل يسبرز

وأخيرا نصل الى الفيلسوف الوجودى المعاصر **كارل يسبرز** Karl Jaspers (١٨٨٣ ـ ١٩٦٩) الذى أودع آراءه فى فلسفة التاريخ فى كتاب بعنوان : « **فى أصل التاريخ وغايته** » (٣٥) .

يرى **يسبرز** أن « التاريخ حدث وشعور بالحدث ، تاريخ ومعرفة بالتاريخ . انه محاط بما يشبه الهاويات . فان تردى فيها ، لم يعد بعد تاريخا . وعلينا ان نغلقه دائما على نفسه ، وان نفتحه للعلو .

« **أولا** : للتاريخ حدود تعزله عن كل واقع آخر : طبيعة كان أو كونا . وحوله ينتشر المكان اللامتناهى للوجود بوجه عام .

---

(٣٢) راجع Pietro Rossi : Storia e Storicismo nella filosofia contemporania, p. 288 Milano 1960.

(٣٣) كروتشه : « نظرية وتاريخ كتابة التاريخ » ، ص ٧٢ .

(٣٤) الكتاب نفسه ص ١١٨ .

(٣٥) Karl Jaspers : Von Vrsprung und Ziel den Geschichte

« **ثانيا** : للتاريخ تركيب باطن ، يرجع الى تحول الواقع البسيط للظواهــر الجزئية ولكل ما يمضي دون توقف . وهو لا يصير تاريخا الا باتحاد الكلي مع الفردى ، لكن بحبث فى ضوئه الفردى ، فى كل صفاته ؛ يتخذ أهمية لا يمكن الاستغناء عنها ويصيــر كلــا على نحو ما . انه عبور يتحقق فيه الموجود .

« **ثالثا** : يصير التاريخ فكره شمولية حين نضع السؤال : اين تقوم وحدة التاريخ ؟

« ورؤية هذه الهاويات : الطبيعة الخارجية عن التاريخ التى هى بمثابة تربته السفلى البركانية، والواقع الذى يتجلى فيها بصورة عابرة فانية ، والتشتت اللانهائى الذى تحاول التخلص منــه وحدة اشكالية دائما ــ ان رؤيــة هذه الهاويات **يسمو فنيا بمعنى ما هو تاريخى حقا** » (٣٦) .

فى هذه العبارات فحص يسبرز منســاكل فلسفة التاريخ ، وعقد لها فصولا عنونها كما يلي :

(١) حدود التاريخ .

(٢) التراكيب الأساسية للتاريخ .

(٣) وحدة التاريخ .

(٤) الشعور بالتاريخ لدى الانسان اليوم .

(٥) العلو على التاريخ .

فلنأخذ فى بيان المعــانى الرئيســية التى عرضها يسبرز فى هذه الفصول الخمسة .

حدود التاريخ

ان الحياة على الارض ظهرت قبل الانسان . وتاريخ الانسانية ، وهو لا يرتفع الى أعلى من نهاية العصر الثالث ، قصير المدى جدا لو قورن بعمر النبات والحيوان ، وهو عمر يتجاوز عمــر الارض بما لا نهاية له من الزمان . والستون قرنا **التى توضحها لنا النقول التاريخية ، لا تمثل غير** فترة ضئيلة لو قورنت بما قبل التاريخ .

لكن التاريخ هــو نحن وفارق هائــل بين التاريخ الطبيعي وتاريــخ الانســانية . ذلك ان التاريخ الطبيعي غــير مشــعور به : انه مجــرد صيرورة بسيطة محضة ، الانســان وحده هــو الذى يعرفها، ولا يتوقف على أى قصد شعورى .

وبحسب مقاييسنا الانسانية فان مجرى هذا التطور للتاريخ الطبيعي بطيء جدا ، ويبدو لنا لأول وهلة كأنه تكرار مستمر . وبهذا المعنى فان الطبيعة ليســت تاريخيــة . واذا كنا نقيم تناظرا بين تاريخها ، فما ذلك الا لأن فكرنا قد تعود على هذه المقولات :

١ ــ فنحن نتمثل لانفسنا ذهاب وعــودة دائمين ، واختفاءات متلوة ببدايات ، وفى لانهائية الزمان يمكن ان يحدث كل شيء ، لكن ليس ثم معنى ثابت . ومن هذه الناحية ، فان التاريخ بالمعنى الحقيقى غير موجود .

---

(٣٦) الكتاب المذكور ص ٢٩٤/٢٩٣ من الترجمة الفرنسية .

٢ ـ والعملية الحبوية لا تظهر فى الانسان الا على نوع حيوانى ينتشر على سطح العالم مثل اشكال حية أخرى .

وتطور الانسانية فى مجموعة يتصور على انه عملية واحدة . ان الانسانية تنمو ، وتزدهر ، وتنضج ، وتشيخ ، وتموت . ومع ذلك فنحن نتصور ذلك لا على انه عملية لن تتكرر أبدا ، بل على انه تطورات متواتية او متواقتة ، هى الحضارات المختلفة . فمن المادة الانسانية الهلاميه تتولد الحضارات ، كأنها « أجسام » **تاريخية خاضعة لقوانين تطورها، ولأوجه حياتها : من الميلاد الى الموت . انها بمثابة كائنات عضوية لها** حياتها الخاصة ، وعلى الرغم من استقلالها فانها يمكن ان تتصل بعضها ببعض وان يعدل بعضها بعضا او يضر بعضها ببعض .

الوراثة والمنقول

نحن طبيعة ونحن تاريخ . والطبيعة فينا تتجلى فى الوراثة ، والتاريخ يتجلى فى المنقول tradition .

والنمو التاريخى يمكن أن يحدث له انقطاع بسبب النسيان أو ضياع التراث المنقول .

ولكننا اناس بالمنقول أكثر منا بالوراثة . ففى الوراثة يجد الانسان عنصرا لا يمكن تدميره ، ولكن فى المنقول عنصر يمكنه ان يفقده نهائيا .

ان المنقول Tradition يصاعد فى الماضى السابق على التاريخ، ويشمل كل ما ليس وراثيا ، بل ما هو مادة تاريخية للآنية (= الوجود الانسانى) .

وعلى وصية التاريخ ، وكأنه تراث خلفه ما قبل التاريخ ، يوجد رأس مال انسانى ليس وراثيا بالمعنى البيولوجى ، ولكنه جوهر ما هو تاريخى ، ويمكن الانسان ان يستثمره أو أن يبدده . وهذا الواقع يوجد قبل كل فكر ، ولا يمكن خلقه ولا صناعته صنعا . ولا يمكن أن يكتسب ملاءة ووضوحه الا فى الحركة الروحية التى تتم خلال التاريخ . والانسان يجرى فيه تحويلات . وربما انبثقت ينابيع جديدة هى بدورها مقدمات (وأكبر مثال لهذا : العصر المحورى ، **وسنتحدث عنه تفصيلا فيما بعد)** . ولكن ليس ثم جماعات ، بل أشخاص سامية منعزلة ترسل شعاعها ولكن الناس ينسونهم وينكرونهم ولا يرونهم .

وفى التاريخ ميل الى الانفصال عن المنقول وعن قيمه الجوهرية للافلات الى الفكر المحض ، وكأن من الممكن ان يولد شىء فى التجريد المطلق للعقل .

التاريخ والكون

لماذا نحن موجودون على الارض ؟ ولماذا نعيش قسطنا من التاريخ فى هذه البقعة من المكان اللامحدود ، وعلى هذه الجنة غير المرئية من التراب الملقى فى ركن من الكون ، وفى هذه اللحظة بالذات ، ضمن لا متناهى الديمومة ، تلك أسئلة لا جواب عنها ، ولكنها هى التى تجعلنا ندرك وجود لغز .

وشعورنا بأننا منعزلون فى الكون هو معطى جوهرى فى حياتنا . وفى صمت الكون نحن وحدنا

المزودون بالعقل والكلام . وكان فى تاريخ النظام الشمسى لحظة عابرة فيها على الارض حصل اناس على فكرة الوجود ووجودهم هم . وهناك ، وليس فى مكان آخر ، حدث هذا الكشف للذات عن نفسها ، كشفا باطنيا خالصا . وفى الكون الهائل ، وعلى كوكب صغير جدا ، وفى تلك القطعة الصغيرة من الزمان التى تؤلف بضعة عشرات من القرون ، حدثت ظاهرة يبدو أنها تجل للشامل . وفى هذا المكان الضئيل القيمة جدا بالنسبة الى الكون استيقظ الوجود مع الانسان .

لكن الكون هو ظلام الموجود الشامل ، انه عندنا هو المكان والينبوع والواسطة « لكل تحقيق شخصى أصله لا يمكن فهمه . غير أن الكون هو ايضا ما يخلق ويغذى الكشف التدريجى للتاريخ الانسانى .

ولقد كان المكان يبدو للانسان قديما شيئا لا يحد . ولكنه اليوم يحس بأن مسكنه على الارض قد انحصر وضاق : لقد عرت كل أجزائه وصار فى وسعه أن يتسمله بنظرته . وكان من أثر هذا أن تكثف وجود الانسان على الارض . وصار ما حوله أشبه ما يكون بصحراء لا تسكنها الروح ومحرمة على الانسان . وفى هذه العزلة لا تفهم الانسانية ــ وقد انطوت على نفسها ، غير واقعها هى .

وهذه العزلة فى وسط الكون تكون الحد العملى للتاريخ . انه ليس ثم دليل على وجود كائنات أخرى فى عوالم أخرى غير عالم الارض . ولا يهمنا من هذا الامر شىء ، طالما كنا لا نحس بأثر لهذه الكائنات المزعزعة .

الفردى والكلى

واذا حاولنا حصر التاريخ فى قوانين عامة ، فلن نستطيع ادراكه ابدا ، لان خاصيته هو أنه ظاهرة فريدة .

واذا نظر اليه من خارج ، فان ما نسميه ((**تاريخا**)) هو ما يحدث فى نقطة محددة من المكان والزمان . لكن هذا يمكن ان يقال عن كل واقع . فالعلوم تسجل كل تطور طبيعى وفقا لقوانين عامة ، لكنها لا تقول لنا لماذا ــ مثلا ــ الكبريت يوجد بكميات كبيرة فى صقلية ، ولا تذكر لنا السبب فى التوزيع المحلى للمواد الاولية بوجه عام .

والتحديد فى المكان والزمان لا يكفى لبيان خصائص ما هو فردى فى التاريخ . وما يتكرر وما يمكن استبداله بوصفه ظاهرة خاصة ، كل هذا هو فى ذاته ليس تاريخا . فالظاهرة لكى تكون تاريخية ، يجب أن تكون فريدة لا يمكن استبدال غيرها بها ، ولا يمكن تكرارها .

وطابع التفرد والتأحد هذا لا يتحقق الا فى الانسان وفيما يبدعه ، ولا نجده الا حيث يمكن أن تقوم علاقة بين الانسان والظاهرة : بأن يكون واسطة ، او تعبيرا ، او غرضا ، الخ . « ان الانسان ليس تاريخيا الا باعتباره موجودا مزودا بعقل ، لا بوصفه موجودا طبيعيا . ونحن ، بوصفنا اناسا ، لا نكون ميسورين لأنفسنا الا فى التاريخ ، لكن فيما هو جوهرى لنا ، لا بوصفنا موضوعا للبحث ، فنحن لا نصير موضوعا للبحث الا بوصفنا طبيعة ، وقانونا عاما ، وحقيقة واقعية تجريبية خاصة . وفى التاريخ نحن نلقى أنفسنا بوصفنا حرية ، ووجود ، وعقل ، وجادين فى

اتخاذ القرارات ، وذوى استقلال عن العالم . ومايواجهنا فى التاريخ ، لا فى الطبيعة ، هو هذا السر المزدوج : الانتقال المفاجىء الى الحرية واكتشاف الوجود فى الشعور الانسانى » (٣٧) .

وما هو تاريخى هو الوحيد ، الذى لا يمكن استبدال غيره به ، وليس تلك الواقعة الجزئية التجريبية التى سينفذ فيها ويمتصها ويحولها العنصر التاريخى ، وليس أيضا المفرد بوصفه حاويا أو « رمزا » للكلى ، وانما هو بالأحرى ذلك الواقع الذى يهب الحياة لذلك الكلى .

« وهذا الموجود الجزئى فى التاريخ ، لا يدرك الا بالحب والوجدان المتنبىء الذى يولده الحب . انه حاضر بالنسبة الى من يحب ، وتفرده ينكشف حين يلهم الحب الرغبة فى المعرفة . وهو يتجلى فى ظواهر يمكن ان تتنوع الى غير نهاية . وهو واقعى بوصفه جزئيا تاريخيا ، وغير واقعى فى الوقت نفسه بالنسبة الى المعرفة التجريبية . وحبنا لموجود تاريخى جزئى يجعلنا نستشعر الاساس الانطولوجى الذى يرتبط به هذا الموجود . والعالم ينكشف فى لا متناهى الفرد حينما نحبه . ولهذا فان الحب الحقيقى يتسع ويرتفع من تلقاء نفسه ، وينتشر على كل ما هو تاريخى ، ويتحول الى حب للكائن فى ذاته ومنذ أصله . ومن يحب يعرف ، بنوع من الوجدان الكاشف ، كيف أن الموجود ، هذا المفرد الفريد الرائع ، هو تاريخى فى العالم . لكنه لا يتجلى الا فى تاريخية حب موجود مفرد لموجود آخر .

« ويناظر موجود التاريخ الجزئية العينية للمعرفة التاريخية . والتوثيق (جمع الوثائق واستعمالها) وهو يجمع الوثائق الحقيقية ، يقدم المقدمات ، وبفضل هذه ينفتح ، على حدودها ، ما يفلت من البحث التجريبي ، لكنه يرشده فى اختيار موضوعاته وفى التمييز بين الجوهرى والعرضى . والبحث ، وهو يتجاوز الطابع العام للمعرفة ، يبين ، عند حدوده ، أن العنصر المفرد الذى لا غنى عنه للتاريخ ، ليس ابدا قانونا عاما . ولما يتجلى لنا هذا العنصر المفرد فانه يربطنا بذاته على مستوى قائم خارج مجال المعرفة ولكنه غير ميسور الا بالنسبة اليها . وما نتمكن من اكتسابه على أنه مفرد تاريخيا يمكننا من التوجه صوب تاريخ كلى سيكون بمثابة موجود مفرد ووحيد . وكل تاريخية تفرز جذورها فى أرض هذه التاريخية الوحيدة العالية » (٣٨) .

والتاريخ لا يمحو الطبيعة ، بل تظل هذه الحقيقة الحاملة الثابتة . وكل ما يبقى ولا يتحول الا ببطء شديد هو الطبيعة . لكن بالروح يبدأ الشعور والتأمل والحركة المتصلة والعمل المتواصل من الذات فى الذات ، بينما تنفتح ابعاد الممكن اللامتناهية .

وكلما تأكد جانب التفرد فى الظاهرة ، انعدم التكرار ، وصارت تنتسب الى التاريخ الحقيقى اكثر . وكل ما هو عظيم هو ظاهرة انتقال .

والموجود يتجلى تدريجيا خلال التاريخ . والحرية ، وان كانت موجودة فى كل مكان فى التاريخ ، فانها لا تكون تامة أبدا ، بل تظل دائما فى حركة . وهى تصنع اذا ما اعتقد المرء أنه

---

(٣٧) يسبرز : « اصل التاريخ وغايته » ص ٣٠٣ من الترجمة الفرنسية ، باريس سنة ١٩٥٤ .

(٣٨) كارل يسبرز : « اصل التاريخ وغايته » ص ٣٠٢ - ٣٠٤ من الترجمة الفرنسية .

امتلكها نهائيا . وكلما كانت الحركة جذرية ،كانت الحقيقة ، المتجلية ذات جذور اعمق. ولهذا فان أعظم اعمال الروح (العقل) اعمال انتقال على حدود عصر ، وهاك امثلة لذلك :

أ ـ ان المأساة (التراجيديا) اليونانية انتقال من الاسطورة الى الفلسفة . فمؤلفو المآسى قد استمدوا من المادة الاولية للتقاليد القديمة جدا وصاروا مبدعين فى عالم الاسطورة . لقد عمقوا الاسطورة بواسطة الخيال ، ولكنهم كانوا يعيشون بين المشاكل والتفسيرات . وهم فخموا مضمون الاسطورة وصاروا على الطريق الذى ستضيع فيه . ولهذا فانهم يمثلون انحلالها ، فى الوقت الذين فيه يمتلون انحلالها .

ب ـ واذا كان تصوف السيد اكرت (حوالى ١٢٦٠ ـ ١٣٢٨) كان جريئا ساذج الجراة ، فما هذا الا لأنه صار الينبوع لديانة جديدة متحررة . وبفضله أمكن تعميق الرؤية ، وفى الوقت نفسه بدأ المنقول فى التفكك .

ج ـ وفلسفة المثالية الالمانية ، من فشته ،وهيجل الى شلنج ، تقع فى نقطة الانتقال بين الايمان والالحاد . وفى عهد جيته كان للدين طابع جمالى ، فى اللمعان الباهر لعقل قادر على فهم كل اعماق الروح .

د ـ كذلك ينبغى ان ننظر الى أفلاطون وشيكسبير . ورمبرنت على انهم شخصيات انتقال . وثم قرون بأكملها تمثل انتقالا ، خصوصا القرون من سنة ٦٠٠ الى سنة ٣٠٠ قبل الميلاد ، وهى التى يطلق عليها يسپرز اسم « العصر المحورى » .

فمن الخصائص الاساسية للتاريخ اذن انه انتقال اساسا . وما يدوم لا ينتسب اليه ، انه مجرد اساس ومادة ووسيلة عنده .

ومن هنا تلح علينا فكرة ان تاريخ الانسانية لا بد له من نهاية ، كما كانت له بداية . غير ان الحد النهائى ـ سواء أكان بداية أم نهاية ـ هو بالنسبة الينا من البعد بحيث لا يمكن ادراكه . لكن هذه الحقيقة لا بد أن تلقى ظلها على كل شىء .

وحدة التاريخ

هل هناك وحدة للتاريخ ؟

سؤال يطرحه يسپرز ، كما طرحه كل الباحثين فى فلسفة التاريخ . واسباب النفى لهذه القضية عديدة : وأولها أن الظواهر التاريخية متشتتة الى غير نهاية : فهناك شعوب وحضارات عديدة ، وفى كل منها قدر لا قيناه من الوقائع التاريخية الجزئية . وحيثما سمح اقليم فى الارض بالعيش ، نظم الانسان جماعة .

ويرد يسپرز على هذه الحجة قائلا ان النظر الى الانسان من هذه الزاوية معنا ، تصنيفه على نحو ما يفعل علماء النبات فى تقسيمه الى انواع وأسر نباتية . وهذا معناه الافتقار الى ادراك ما يميز الانسان حقا الا وهو انه على الرغم من تشتت الجماعات الانسانية فان الناس لا يظلون فى عزلة ، بل حيثما التقوا تبادلوا أشياء فيما بينهم : معارف أو أفكارا . وفى هذا اللقاء يستشعر كل واحد منهم نفسه فى الآخر ويستشعر انه مدعو لاتخاذ موقف بازائه . فهو يحس اذن انه يستهدف شيئا فريدا لا يملكه ولا يعرفه ، ولكنه مع ذلك يدفعه دون أن يدرى .

ومن وجهة النظر هذه يمكن عد مظاهـرالتشتت فى التاريخ حركه تنحو نحـو الوحدة ، وربما كانت تصدر عن أصل مشترك .

ويبحث يسبرز فى دواعى هذه الوحدة فيبدأباستبعاد الاعتبارات البيولوجية والنفسانية لكى يتلمس الوحدة ودواعيها فيما يشاهد فى مجرى التاريخ من تطور نحو الوحدة فى المعرفة ، ونحو الوحدة فى الاصل : وهذا يتبين من القسـمات التالية :

أ ــ ان وحدة الانسان ، من خلال حـركة**تحولاته** ، **ليس لها ثبات الطبائـع الثابتة التى** تتحقق كل بدورها . ان الانسان صار ما هـوخلال التاريخ ، بواسطة حـركة ليسـت فقط طبيعية . انه بوصفه موجودا حيا ، هو مجموع استعداداته الفطرية فى تنوعها ، وبوصفه موجودا تاريخيا ، وصادرا عن أصله ، فانه يتجاوز هذا**المعطى الطبيعى . وهذا الاصل يحمله على الاتجاه دائما نحو** الوحدة التى تربطه بأمثاله من الناس . وتلك مصادرة : اذ بدون هذه الوحده لن يتيسر الفهم ، وسيكون ثم هوات بين طبـائع مختلفا**اختلافا جوهريا ، ولن يتيسر أى تفسير تاريخي .**

ب ــ كل فردية ، بوصفها حقيقة محددة ،لها طابع استبعادى : فلا انسان قـادر على أن **يجمع** كل الامكانيات التى تنتسـب أصـلا الى الانسان بما هو انسان ، ولا بد من الانتخاب ، فاما القديس او البطل مثلا . ان الانسان بوجه عام وكذلك الفرد ، من حيث أصله الذى صدر عنه ، يشتمل على كل الممكنات ، ولكنه فى الواقع الفعلى ليس الا فرديا . والفرد ليس ابدا انسانا كاملا مطابقا لمثل أعلى . ولا يمكن وجود انسان كامل ،لأن ثم شقا ونفرة فى كل ما يحققه .

جـ ــ ومن اللافت للانتباه ، ان ثم وحـدةانسانية فيما يتجلى من مشـابهات فى القسمات الاساسية ، سواء فى الاديان ، وفى أشكال الفكروفى النظم الاجتماعية .

د ــ والعلم والقدرة التى يمد بها التكنيك الانسان يزيدان فى تقدم الانسان خطوة فخطوة ، وفى تاريخ الحضارة يرتسم خط يصاعد دائما ،بيد ان ألوان التقدم هذا محصورة فى ميدان العالم والتكنيك ، وهما عاريان عن الشخصية . ومن هذه الناحية يمكن تصور التاريخ على أنه تصاعد مستمر . صـحيح ان فيـه مع ذلـك رجعات وتخلفات وتوقفات ، لكن بوجه عام يمكن القول بوجود تزايد فى الخبرات التى يسهم فيها الجميع والتى هى ميسرة للجميع . ونستطيع أن نستقرى مراحل التقدم هذه على مدى التاريخ .

غير ان الانسانية فى ذاتها ، واخلاق الانسان، وطبب ذاته ، وحكمته ــ **كل هذه لا تقدم** . ثم اذن تقدم علمى وصـناعى (تكنيكى) يوسـع من ممكناتنا ، ولكن ليس هناك تقدم بالنسـبة الى جوهر الانسان . واعلى الحضارات قد غرقت فى هاوية العدم ، وخضعت لغيرها من الحضـارات التى كانت أحط منها . وبعض الحضارات دمرها المتبربرون ــ حتى لا يخطىء المرء كثيرا ان قال : « كل ما هو عظيم ينهار ، وكل ما هـو منحط يدوم » .

• • •

على انه اذا لم تكن الوحدة واقعة ، فيمكن النظر اليها على انها غاية ، وهذه الغاية يمكن ان تعد معنى خفيا . فلنحاول ان نفسر التاريخ من حيث النهاية : ــ

١ ــ ان الغاية هي المدنيـة ، هى تأسـيس الانسان ، وما نقصـده من هذا ، وراء التنظيم المادى للحياة ، لم يتحدد نهائيا ، ولكنه ينتسب الى التاريخ . وعلى مستوى هذا التنظيم ، فانه

النظام القانوني للعالم . ان حركة التاريخ تسير من التشتت الى حياة مشتركة على الارض فى وحدة قانونية ، بعد الازمنة التى كانت الاتصالات الوحيدة فيها هى أعراض السلام والحرب . وهذه الوحدة بتنظيمها للحياة العمليـة ، تترك المجال حرا لكل الامكانات الروحية والمعنوية للمبدعات الانسانية .

٢ ـ **الغاية هى الحرية** ، الحرية الواعية . ويمكن تصور كل ما جرى حتى اليوم على أنه محاولات لاكتساب هذه الحرية والظفر بها . لكن ماهيتها حقا لن تتجلى الا فى اللامتناهى .

وارادتنا فى تنظيم عالم مؤسس على القانون لا يضع لنا كفاية مباشرة الحرية العالية ، بل الحرية السياسية ، وهذه الاخيرة تهيىء للانسان الحد الاقصى من الامكانيات لتحقيق الحرية العالية .

٣ ـ **الغاية هى انسانية عليا** ، وعملها الروحى هو ميلاد مدنية فى الجماعة المتحققة انها العبقرية .

ان الدافع الباطن فينا يدفعنا الى شعور متزايد فى الوضوح . ووحدة المعنى تأتينا من النقطة التى فيها الانسان ، فى المواقف الحدية ، يستشعر نفسه بأوضح ما يكون ، وفيها يضع لنفسه المسائل الجوهرية ، ويجد الاجابات الخلاقة التى ستفود حياته وتطبعها بطابع نهائى حاسم . وهذه الوحدة المتحققة فى العظمة لا تقوم فى أن يتسع الانسان فى علمه ووسائله التكنيكية ، ولا فى غزو مزيد من الامكنة وتنظيمها بطريقة امبريالية ، كذلك فان النظم التربوية المتخصصة الى اقصى درجة ، والتى لا تكون غير زهاد خارجين عن تيار الحياة او انكشارية ، لن يجعلوا هذه الوحدة تتخذ شكلها ، وليست تقوم ايضا فى ثبات الانظمة والمذاهب ، وانما انقوم فى تلك **اللوامع التى فيها يكشف الانسان عن نفسه** ، فى كشف جوهرى .

وربما لا يكون هذا غير نقطة فرارة فى مدى التاريخ الهائل . ولكنه سيكون بمثابة خميرة فى **مجموع الصيرورة** . وربما **يكون الاثر سريعا** ، وربما كان هذا الكشف ـ الذى يبقى أولا فى عمق ذكرى الناس ، مستعدا للعمل ـ مجرد سؤال يوضع للمستقبل ، أو الا تلتقط هذه القوه فى العالم ، والا تترك أى أثر فى رد الناس ولا تبقى الا أمام العلو .

فاذا كانت هذه القيم فى نظرنا لا يمكن ان يحل محلها غيرها ، فهذا مرجعه الى أنها ترجع الى وحدة مفترضة دائما ولكنها غير مملوكة ابدا ، هى الغاية والأصل والمصير فى التاريخ .

٤ ـ الغاية هى **الوجود المنكشف فى الانسان** ، وحينما يتأحد الانسان مع الوجود فى أعماقه ، فهذا هو الكشف عن الألوهية » (٣٩) .

● ● ●

وعند يسبرز ان ادراك الوحدة فى التاريخ ، أى تصور التاريخ العام على انه يؤلف كلا ، هو ما تصبو اليه المعرفة التاريخية التى تبحث عن معناه الاسمى .

---

(٣٩) كارل يسبرز : « اصل التاريخ وغايته » ص ٣٢٢ ـ ٣٢٤ من الترجمة الفرنسية .

والمؤرخون الذين أرادوا تصور التاريخ الكلى قد ضيقوا من وحدته بسبب ضيق آفاقهم : ففى أوروبا كان التاريخ هو تاريخ الغرب ، وفى الصين كان التاريخ هو تاريخ امبراطورية الوسط . رما كان خارج هذا النطاق لم يكن فى نظرهم موجودابوصفه تاريخا ، بل كان حياة المتبربرين والبدائيين،ولا قيمة له الا من ناحية علم الأجناس. وكانت فكرة الوحدة قائمة على اساس ان كل هذه الشعوب المجهولة لا بد لها ذات يوم ان تشارك فى المدنية الحقيقية وستنضم الى النظام الذى كان يعد وحده الصالح .

ولما اراد الايمان ان يمبز فى التاريخ بين علهوغاية ، وجدهما فى الوقائع . وادى ذلك الى تصور اله يوحي للانسان بوجود هذه الوحدة ، اوبعلم عقلى يمده بروًيا واضحة لها :

الغرب رأى عمل الله فى التاريخ ، وابصرسلسلة من الافعال الالهية : الخلق،عقاب الانسان المطرود من الجنة الارضية ، التنبؤات التى تعلن عن ارادات الله ، الخلاص المتحقق بظهور شخص الهي على الارض ، حتى نهاية الزمان ويوم الحساب المقبل . وما تصوره الانبياء اولا شكله **اوغسطين** (٣٥٤ — ٤٣٠) فى صورة مسيحية تم تكرر وتعدل خلال القرون ابتداء من **يواقيم الفلورى** حتى **بوسويه** (١٦٢٦ — ١٧٠٤) ثم عبرعنه فى صورة علمانية الفلاسفة من **لسنج** (١٧٢٩ — ١٧٨١) **وهردر** (١٧٤٤ — ١٨٠٣) حتى **هيجل** . وكلها محاولات استهدفت الى تصور التاريخ فى وحدته ، حيث يجد كل شىء مكانه . لكن **يسبرز** يبدى على هذه المحاولات الملاحظات التالية :

أ — لو عرفت مجموع الاشياء ، فان لكل حياة انسانية مكانها المعلوم فى هذا التاريخ . انها فى ذاتها ليست بشىء ، لكنها مجرد وسيلة . وهى ليست على علاقة مباشرة بالعلو (transcendance) ولكن عن طريق محلها فى الزمان ، مما يحد منها ويمنع من أن تكون شمولا totalité . وكل شكل من اشكال الحياة ، وكل عصر ، وكل شعب قدرد الى مجرد وسيلة . بيد أن فكرتنا عن وجود علاقة اصيلة مع الله ، وعن لامتناه شامل بمكن فى كل لحظة ان يكون كلا ، تحتج من هذا التصور .

ب — والمعرفة الشاملة تمكن من افلات الشطر الاكبر من الوجود الانسانى ، اذ تنحى جانبا شعوب باكملها هى وحضاراتها وتعدعرضية ومجرد مصادفة فى التطور الطبيعى .

ج — والتاريخ لم ينته ولا يمكننا من ادراك أصله . ومع هذا فان هذا التصور — وحدة التاريخ — يدعى انه يحيط به . وبدايته ونهايته تستخلص بواسطة وحى مزعوم . والواقع اننا بازاء نظريتين فى التاريخ متعارضتين وتستبعد كل منهما الاخرى :

١ — فاما ان نقول ان التاريخ أمامنا بوصفه كلا : انه مجموع التطور المعروف او القابل ان يعرف من أوله الى آخره . ونحن وعصرنا موضوعون فى نقطة محددة من هذا المنحنى ، ونعد هذه اللحظة بمثابة أوجه أو أحط نقطة فيه .

٢ — او نقول ان التاريخ واقعى وغير تام بالنسبة الى شعورنا . ونحن متأهبون بالنسبة الى ما يمكن ان يحدث . وهذا الموقف موقف تربص ، وبحث عن الحقيقة ، وتحوط وتحفظ فطن ، لا يدعى ولا معرفة الحاضر ، لأن هذا لن يفهمه الا المستقبل . ومن وجهة النظر هذه ، فان الماضي نفسه ناقص ، لم يتم ، انه لا يزال يحيا ،والقرارات التى اتخذت سابقا ليست نهائية ، بل نسبية ، يمكن تعديلها وتنقيحها واعادة النظر فيها باستمرار ، ويمكن اعادة تفسير الاحداث الماضية وتأويلها من جديد . وما بدا انه تقرر قد اعيد وضعه موضع التساؤل .

وعلى هذا النحو يتبدى لنا التاريخ كأنه مجال للمحاولات ، ووحدته تضيع فى لا نهائية الممكن . والموقف الدائم هو التساؤل .

والخلاصة « أن وحدة التاريخ ليست موضوعا للمعرفة . ولا يمكن ان نميز فيها وحدة اصل بيولوجى للانسان . وبوصفها وحدة كوكبية ، محددة فى المكان والزمان ، فانها ظاهرية فحسب . ولا يمكن البرهنة على وحدة غاية عالية . وتصور نظام عالمى مؤسس على القانون يقوم على أساس افكار انسانية ، لا على معنى التاريخ فى مجموعه ، ولا يزال تصورا احتماليا . وهذه الوحدة نحن لا نستطيع ان نقول انها حقيقة **واحدة كلية ، لأن هذه الهوية لا تقوم الا على** الذهن . ووحدة التاريخ ليست تقدما نحو غاية ، وليست ايضا المنحنى الصاعد لعملية لا متناهية . ولا توجد بالنسبة الى الشعور الواضح ، ولا تعنر عليها . فوق أعالى الخلق الروحى . وليست معنى يصدر عنه كل شيء او يجب ان يصدر عنه كل شيء . ولا يمكن عدها تركيبا صنعته الانسانية فى مجموعها . وشمول التاريخ ليس حاضرا حقا فى رؤيتنا التأملية : لا كواقع ، ولا كمعنى (٤٠) .

ان كل قول بوحدة التاريخ هو تبسيط خاطىء اذا كان يرى أن يفسر التاريخ فى شموله . وانما الواجب علينا ان نحافظ على الجزئيات والتفاصيل العديدة ، وفى نفس الوقت نعترف بأن ثم شيئا يتجاوزها ويعلو عليها ، ولا بد اذن من أن يظل العقل متأهبا ومتفتحا لادراك نوع من الوحدة .

ذلك « أن فكرة الوحدة تستمر فى فرض نفسها علينا . ومهمتنا هى تحقيق التاريخ الكلى :

أ ــ فنحن نرتفع على الاقل الى الحصول على « نظرة شاملة للتطور الانسانى فى العالم بأسره . ونرفض فى وقت واحد كلا طرفى التبادل الذى يقوم فى الاختيار بين تفتيت للوقائع المشتتة وبين تركيب ذى نزعة مركزية ، اننا نبحث بالاحرى عن نظام ملائم للتاريخ فى مجموعه . وحتى لو كان تشييدنا للوحدة التاريخية يجب دائما ان ينبه معرفتنا الى هوات الجهل ، فمن الممكن مع ذلك القول بنظام تسوده فكرة الوحدة .

ب ــ وهذه الوحدة عليها أن تستند أولا على هذه الواقعة وهى أن كوكبنا جسم متناه ويمكننا امتلاكه كله ، وثانيا على تسلسل زمنى معين ، فى حضن قطعة من المرة ــ مهما يكن من تجريد هذه الفكرة ــ ، واخيرا تستند على الجذر الوحيد الذى ولد الانسانية ، لأن ثم خصائص متجانسة تجعلنا نفترض اصولا لنا مشتركة .

جـ ــ والسبب الجوهرى للاعتقاد فى هذه الوحدة هو أن الناس يلتقون فى تفاهم كلى ، ويلتقون فى روح تشمل الجميع ، روح لا يستطيع احد ان يدرك مداها ، لكنها ترحب بنا جميعا . وهذه الوحدة يعبر عنها على أدق وجه فى تصوراله واحد .

د ــ وفكرة الوحدة حاضرة عينيا فى الشعور الذى يدرك الامكانات الكلية للانسانية . ومتى ماكان المرء مستعدا ، فان الفكرة القائلة بأن كل شيء يمكن أن تكون له اهمية كلية ويتبرر بمجرد وجوده ــ هذه الفكرة تفرض نفسها أقوى وأقوى ونحن نشعر بأننا نعيش على مستوى لا شيء فيه

---

(٤٠) يسبرز : « اصل التاريخ وغايته » ص ٣٢٧ ــ ٣٢٨ من الترجمة الفرنسية .

يبدو غير مهم ، ويشف لنا عن اماكن بعيدة وفى نفس الوقت يبين لنا ان كل دقيقة فى الحاضر تقتضى منا قرارا ، فى الطريق الذى نسلكه . وان نظرة نلقيها على هذه البدايات الأولى للانسانية — وهى بعيدة مع ذلك عن الأصول الاولية —ونظرة على المستقبل — ولا يزال دائما مفتوحا — سيمكناننا من ادراك الامكانيات المتضمنة فى مجموع لايمكن الاحاطة به ، حتى ان وحدة الكل تنكشف فى التحديد الباطن الذى يجعلنا نؤدى مهمتنا المباشرة .

هـ — واذا كان علينا ان نتخلى عن تكوين صورة متسقة تامة للكل ، فقد بقيت لنا على الاقل أشكال تعكسها . وهذه الاشكال هى : التاريخ يترتب وفقا لسلم من القيم ، منذ أصوله وخلال مراحله الحاسمة . والواقع ينقسم الى جوهري وعرضي .

والتاريخ يتوقف على كل سمي : العناية ، وادرك فيما بعد على انه القانون . وحتى لو كان الانسان قد أخطأ فى التمسك بتلك الفكرة ، فان فكرة الكل هذه تبقى تصورا حديا . نحن لانستطيع ان نرى الكل ، بيد اننا نعيش فيه ، ونحن لانستطيع التصرف فيه كما نهوى ، ولكننا نرتب فيه حياتنا . والتاريخ ، فى مجموعه ، لايتكرر ، انه تاريخى حقا ، وليس طبيعيا. وتبقى الفكرة القائلة بوجود كل منظم ، فيه لكل ظاهرة مكانتها الخاصة بها . وليس ثم فى هذا مجموع من الصدف ، بل كل الخصائص الارضية تندرج فى الوحدة الأساسية » . (٤١)

ليس ثم وحدة فى التاريخ العام. وانما ينشد الانسان الوحدة دون ان يبلغها ابدا . ومزج الانسانية كلها فى وحدة هو حد التاريخ ، بمعنى أن هذه الوحدة لو تحققت لانتهى التاريخ .

لكن يسبرز لايقف عند هذا المعنى ذى النغمة الحزينة ، بل نراه — على عادته دائما فى كل ما يكتب — يختم بنبرة حارة سخية فيقول : ان الوحدة النهائية ستشرق فى منطقة لايمكن بلوغها من الملكوت التى فيها تتلاقى الارواح وتتآخى ، انها الملكوت السمتور الذى فيه ينكشف الوجود فى اجماع النفوس . لكى يبقى شىء تاريخى ، ألا وهو الحركة التى فيما بين البداية والنهاية لاتبلغ أبدا معناها الخاص اللهم الا اذا لم يكن ثم غيرها هى » .

ويبدو أن شعورنا بالتاريخ بسبيل ان يتطور . واعمال الباحثين المخلصين فى التاريخ تتوالى ولاتزال لها كل أهميتها . وفى وسعنا ان نحدد بعض نقط هذا التطور للشعور بالتاريخ :

أ — ان الجديد هو **كلية مناهج البحث ودقتها** ، واحساس بالتنوع اللانهائى للاسباب ، وارادة للفحص الموضوعى عن التاريخ بمساعدة مقولات أخرى غير مقولات السببيه : التراكيب المورفولوجية ، معانى الكل ، الاشكال النمطية .

ب — لم يعد من حقنا اليوم ادعاء ان نرى فى التاريخ **كلا يمكن ادراكه فى مجموعه** . ولم يعد فى وسعنا ان ننساق وراء الرؤى الشاملة . ولانجد فى اى موضع كشفا تاريخيا محددا للحقيقة المطلقة . ولا يوجد فى اى مكان مايمكن ان يتكرر هو نفسه .

ج — ولنرتفع الآن **فوق التامل الجمالى للتاريخ** . فلا ننساق وراء دعوى أن كل ما فى التاريخ جميل ، يجذبنا . ذلك ان علاقتنا الحقيقية بالتاريخ ليست علاقة استمتاع وتامل

---

(٤١) يسبرز : « اصل التاريخ وغايته » ص ٣٢٨ — ٣٣٠ من الترجمة الفرنسية .

جمالى ، بل هى صراع : ذلك أن التاريخ يهمنانحن باشخاصنا ، وما يهمنا فيه يزداد اتساعا كل يوم . « وكلما كان التاريخ حاضرا لنا ، قل نظرنااليه على انه موضوع للتأمل الجمالى » (٤٢) .

د ــ وها نحن أولاء مدفوعون **نحــو وحدةانسانية** بمعنى أوسع واكثــر عينيــة مما كانت الحال عليــه من قبــل . ونحن نعرف السرورالعميق الذى تحدثه فينا النظرة التى نلقيها على أصــل الانســانية . ولا يقصــد من هذا معنى« الانسانية » ، فان كلمة « انسانية » تصــور مجرد يضيع فيه الانسان . ولقد تخلينا عن هذهالفكرة الغامضة . ان فكرة الانســانية لا تصبح عينية وقابلة للاحاطة الا فى جماع التاريخ الفعلى .

ولقد يبدو التاريخ الكلى خليطا من الاحداث العرضية ، التى تدور فى دوامة أعصــار . انه يجرى دائما من اضطراب الى اضطراب ، ومن شر الى شر ، مع فترات تهدئة بسيطة ، وجزر صغيرة تطفو على الامواج العاتية المضطربة ، امواج الاحداث التاريخية ، حتى ليكاد يصدق قــول ماكس ڤيبر Max Weber « أن التاريخ الكلى طريق رصفه الشيطان بقيم محطمة » .

ولو نظرنا الى التاريخ من هذه الزاوية ، لما كانت له وحدة ، ولا تركيب ، ولا يعنى ــ غــر التسلسل المتشوش الاسباب والاشــكال ، مثلما يحدث فى الطبيعة على نحو اكثر انتظاما . « لكن مهمة فلسفة التاريخ هى البحث عن هذا المعنى ، وهذا التركيب اللذين لا يمكن أن يهما غير الانسانية فى مجموعها » (الكتــاب نفســه ، ص ٣٣٩ من الترجمة الفرنسية) .

هـ ــ والتاريخ والحاضر يصيران بالنســبة البنا غير قابلين للانفصال الواحد عن الآخر . ان شعورنا بالتاريــخ مندرج فى اســتقطاب : ففي وسعى أن أعود كيما أتأمل التاريخ من بعد ، وان أراه كموضوع بازائى ، او كجبل فى البعد ، يمكن أن يدرك كله فى خطوطه العامة وفى تفاصيله . وفى وسعى ايضا أن أدمج نفسي فى الحاضر الأبدى : فى اللحظة التى أنا فيهــا ، والتى تنحفر ، وهنالك يصير التاريخ فى نظرى ذلك الحاضر الذى هو أنا .

على أن النظرتين ضروريتان : **موضــوعية التاريخ بوصفه حقيقة أجنبية عنى ، مستقلة عن ذاتى ، وذاتية اللحظة الحاضرة ، التى بدونها لن يكون لتلك الحقيقــة اى معنى عندى** . وعلينا ان نغذى الواحدة بالاخرى : نغذى الصــورة الكلية للتاريخ بالشعور بالموقف الحاضر . فأعانى الحاضر وفقا لطريقتى فى رؤية جماع الماضى . وكلما نفذت فى الماضى ازدادت مشــاركتى فى المجــرى الحاضر للاشياء جوهرية واهمية .

« أين مكانتى ، ولماذا أحيا ، هذا امر لا أفهمه الا بفضل مرآة التاريخ . ومن لا يحسب حسابا للثلاثة آلاف سنة التى سبقته يظل فى الظل ، انه كمن خلا من التجربة ويعيش ليومه » .

* * *

---

(٤٢) يسبرز : « أصل التاريخ وغايته » ص ٣٣٨ من الترجمة الفرنسية .

آفاق المعرفة

لقطات علمية
من تاريخ الطب العربى

توفيق الطويل

تمهيد

لقطاتنا من طب المشرق والمغرب العربيين[1]، فى عصر الاسلام الذهبى الذى امتد من منتصف القرن الثامن حتى القرن الثالث عشر لميلاد المسيح .

اما الاطار العلمى الذى سنتحرك فيه ونحن نتخير هذه اللقطات ، فيضم كل تفكير طبى اعتمد على المشاهدة الحسية منهجا ، واقتصر على الوقائع الجزئية موضوعا ، واستهدف تفسير الواقعة وتقنينها (أو تقعيدها) غرضا ، ومن هنا كانت هذه اللقطات وشبيهاتها تشكل الطب العربى علما طبيعيا بمفهومه عند المحدثين من الغربيين ، برغم أن التطور الذى صاحب هذه المرحلة من حياتهم ، لم يزودهم بما يعرف الآن من صنوف الآلات والأجهزة وغيرها ، مما

(١) كان يطلق المشرق العربى على العراق وسوريا ومصر ، ويطلق المغرب العربى على أسبانيا أو بلاد الأندلس (وهى ما دان لحكم العرب من شبه جزيرة ايبريا) .

قفـز بتقدم الطـب العلمى فى عصرنا الحاضر أوسع القفزات .

ويخطىء من يستبعد من علماء العرب كل من انحدر من أصـل غير عـربى ، فقد حدد مفهوم العالم العـربى الذى نقصـده فى هذا البحث المنصفون من المستشرقين (من أمثال ف . بارتولد Barthold ، وكارلو ألفونسـو نللينو Nallino ، وألدو مييلى Aldo Mieli) فقالوا ان علماء العرب فى هذا المجال هم كل من أسهموا فى تقدم العلم ممن كتبوا بالعربية من أهل العصور الوسطى ، وعاشوا فى بلاد عربية ، أو تدين لسلطان العـرب ، يجمعهم تـراث واحد ، ويربطهم مصير واحد (٢) .

وهذه دراسة لا تدفعنا اليهـا الرغبـة فى تمجيد الأجداد ، والاشادة بتراثهم ، لأن مثل هذه الرغبة لا تتمشى مع منهج البحث العلمى الذى يقتضى الباحث أن يتوخى النزاهة ويلتزم الموضوعية فى بحثه، وانما يغرينا بهذه الدراسة انها تكشف عن حقائق مطمورة ، او مجهولة للكثيرين منا ، ممن لا يعرفون نصيب العرب فى حلبة الصراع مع الآفات والأمراض .

وفى الحق لقد كانت المعـرفة منـذ فجـر التاريـخ مطلب الشـعوب التى اختـرعت الحضـارات ، أو أسهمت فى بنائها بنصيب ملحوظ ، وباستثناء المعرفة التى تزيد التجربة الدينية ثراء ، آثرت هذه الشعوب من مجالات المعرفة ما تيسرت الافادة منه فى خدمة الحياة العمليـة وتحقيق مطالبهـا ، ترحب به حين تسلمها اليه خبرتها ، وتسعى اليه فى مظانه اذا لم تدركه فى بيئتها .

وكان أول شيء أثار اهتمام الانسان الاول : الدين والطب،أثارت القوى الطبيعية مخاوفه ، فاستعان على مقاومتها بآلهة نصورها،وأشفق على نفسه من مغبـة المـرض ، وافزعته آلام المصابين به من أهله وذويه ، فنزع الى صناعة الطب ، واستعان ـ أول الامـر ـ فى محاربة المرض بالتعاويذ والأحجية والرقى السحرية ، حتى اذا استقام ادراكه ونضج وعيه ، ارتفعت بالأديان المنزّلة أساليب تدينه ، واستقامت بالخبرة والوعى طرق المحافظة على صحته ، وسَمَا بالعلاج الطبى الى مسـتوى يشرّف انسانيته .

وكان العرب ، وخاصـة فى عصـورهم الوسطى ، من أشد شعوب الارض طلبا للمعرفة ورغبةً فى الافـادة منها فى حياتهم ، وكان فى مقدمة العلوم العملية التى ظفـرت بنصـيب ملحوظ من اهتمامهم : الطب ثم الفلك وسائر فروع المعرفة التى تقوم على خدمتهما .

والآن ننبـه ـ بعد هذا التمهيد ـ الى أننا سنضمن هذا المقال ثلاثة فصـول خاطفة ، نتناول فى أولها آفاق الطب العـربى وقائيا وعلاجيا ، ونعرض فى ثانيها لتطور هذا الطب عبر تاريخه الطويل ، ونبين فى ثالثها مظاهـر النضج فى دراساته .

آفاق الطب العربى

نحدد فى هذا الفصل اطار الطب العربى ، ونتتبعه موجـزين فى حقله الوقائى ، ثم فى مجاله العلاجى ، ونستكمل صورته بالاشارة الى العلوم المسـاعدة له ، ومجـال تطبيقه فى المستشفيات التى كانت دورا لعلاج المرضى ، ومعاهد لتعليم الطب،وتدريب الأطباء ، ونلفت النظـر ـ مع هـذا ـ الى آداب الطبيـب والتزاماته .

علم الطب ، عند مؤرخيـه من الغربيين المحدثين ، يضم **فن الوقايـة من الامراض ، وكفالة الصحه عند الافراد والجماعات ،** ثم

---

(٢) انظر فى تفصيل هذا كتابنا : العـرب والعلم فى عصر الاسلام الذهبى ص ٢٣ وما بعدها .

الكشف عن الامراض فى بواكيرها ، وتدبير العلاج الكفيل بتخفيف آلامها ، والقضاء عليها عند استفحالها ، ومن الضلال ان يظن ظانّ ان وظيفة الطب لا تعدو علاج الامراض ، فان الطب الوقائى أسبق من الطب العلاجى مهمة وأعظم خطرا ، وهذا معنى لا يتبادر الى الاذهان ، لأن الصحة تاج على رؤوس الاصحاء لا يراه الا المرضى !

وقد فطن الى هذا المعنى مؤلفو العرب فى عصورهم الوسطى ، فكان الطب عندهم وقائيا يستهدف حفظ الصحة ، وعلاجيا يقصد الى شفاء المرضى ، والوقائى أجل من العلاجى وأكثر نفعا ، لأن الصحة فى الاصحاء موجودة ، وفى المرضى معدومة ، والمحافظة على الموجود ، أجلّ من طلب المفقود — فيما يقول علي بن عباس المجوسى (ت ٣٨٤ هـ/ ٩٩٤ م) فى كتابه « الكامل فى الصناعة الطبية — أو الكناشة الملكية » وشاعت هذه النظرية عند أطباء العرب ومؤلفيهم ، فعبر عنها « ابن سينا » شعرا فى أرجوزة من اراجيزه الطبية حين قال :

هذه أرجوزة قد اكتمل
فيها جميع الطب علم وعمل

الطب حفظ صحة برء مرض
من سبب فى بدن منذ عرض (٣)

وارتبط الطب بحياة الناس ، وكان مثار اهتمام العرب ، فجدوا فى ارتياد مجاهله والكشف عن حقائقه (٤) .

فلنقف الآن عند :

(أ) الطب الوقائى :

تهتم الأمم المتقدمة فى أيامنا الحاضرة بالطب الوقائى ، لأنه يكفل لمواطنيها الخدمات الصحية التى تقيهم شر الامراض والاوبئة قبل وقوعها، ويهيئهم للعمل ويمكنهم من الانتاج ، ويوجه الجهود الى العناية بحالة المساكن ونقاء الهواء ، ومستوى الغذاء ، ونشر الوعى الصحى ، وانشاء المعامل التى تساعد علىكشف الامراض فى بواكيرها ، وصنع اللقاحات والامصال الواقية... وغير ذلك مما احتل مكانالصدارة من اهتمام الحكومات ومؤسساتها فى أيامنا الحاضرة ، فلا نقنع بالطب العلاجى ودراساته الاكاديمية مكتفين باستخدام السماعة وميزان الحرارة وانبوبة الاختبار !

وقد بدأت فتوحات الطب الوقائي فى الغرب منذ أن وضحت العلاقة بين الفقر والمرض ، واقتنع البرلمان الانجليزى بأن يعتمد عام ١٨٤٨ م قانونا يكفل المحافظة على صحة الشعب ، وينظم اول مجلس عام لتحسين موارد الحياة ، ويقوم — بمشاريع المجارى وتنظيف المدن الكبرى ، ونشأ فى الولايات

---

(٣) الارجوزة الكبرى (الالفية فى الطب) وهى تتالفمن الف وثلاثمائة وستة عشر بيتا ! وقد شرحها كثيرون فى مقدمتهم ابن رشد ، وترجمت فى القرن الخامس عشر الىاللاتينية (لغة العلم فى أوربا اذ ذاك) .

(٤) لا يمنع هذا من ان نشير الى طائفة اثرت تركالتداوى عند الاصابة بمرض، اتكالا على الله ، قال شاعرهم :

ان الطبيب بطبه ودوائه
لا يستطيع دفاع أمر قدّرا

ما للطبيب يموت بالداء الذى
قد كان يبرىء قبله مستظهرا

هلك المداوَى والمداوى والذى
جلف الدوا وابتاعه ومن اشترى

وبنظرة فلسفية رفض بعض كبار الاطباء علاج انفسهم ! فالرازى رفض معالجة عينيه بحجة انه رأى من العالم ما يكفيه ! وابن زهر رفض اى اسعاف قائلا لولده الذى كانيقوم على خدمته انه عانى من الحياة ما يكفيه ! وابن سينا رفض أن يتعاطى الدواء ، وباع ممتلكاته ووزع ثمنها علىالفقراء !

المتحدة عام ١٩٠١ معهد روكفلر للأبحاث الطبية بمعامله وآلاته وأجهزته العلمية والباحثين المتفرغين به ، وفى العام التالى وافق الكونجرس على قانون يحرم غش الاغذية والأدوية .

ولكن العرب فى عصورهم الوسطى قد توصلوا الى الكثير من أسس الطب الوقائى ومقوماته ، فتوسلوا الى الوقاية من الأمراض بدراسة الجسم ووظائف اعضائه ، وحاولوا الكشف عن أسباب الأمراض وأعراضها وطرق انتشارها ، لمعرفة أساليب الوقايه منها دفعاً لوقوعها ، واهتموا بما نسميه اليوم بعلم الصحة (Hygine or Hygenics) **وحرصوا على وضع القواعد التى تكفل العافية وتحول دون الوقوع فى المرض ، ومعرفه الوسط الذى يعيش فيه الانسان ، كما يبدو فى الهواء الذى يستنشقه ، والغذاء الذى يطعمه ، والماء الذى يشربه ، والمسكن الذى يقيم فيه ، والعمل الذى يقتات منه ... بل كان بين أطباء العرب من أضافوا ضرورة الاهتمام بالحالات النفسية التى تتمثل فى الخوف والغضب والحزن والفزع ، واليأس والأمل ... وغير هذا من انفعالات لها تأثيرها البالغ فى صحة الانسان ومرضه .**

وكثرت مؤلفات العرب فى المحافظة على الصحة واتقاء الأمراض ، فكتب الرازى كتابه « منافع الأغذية ومضارها » وجرى على نهجه الكثيرون ، وأرسلوا اهتمامهم كتبا أو أبوابا فى كتب ، وتناول الرازى فى كتابه السالف الذكر منافع الحنطة والخبز ومضارهما ، والطرق التى تستخدم فى دفع هذه المضار ، وعرض لمنافع الماء باردا وحارا ، والشراب المسكر ومضاره ، ومنافع اللحوم والاسماك ووجه الأذى من تناولها ، والكوامخ والزيتون والمخللات ونحوها ، ومنافع البيض والبقول ، النيىء منها والمطبوخ ، والتوابل والفواكه والحلوى ... وعرض للأسباب التى تفسد الاستمراء مع جودة الطعام ودفع كل منها ... الى آخر ما تناوله فى ذلك الكتاب .

وخصص تلميذه « علي بن عباس » فى كتابه السالف الذكر « الكامل فى الصناعة الطبية » واحدا وثلاثين فصلا فى علم الصحة ، تحدث فيها عن حفظ الصحة وتدبيرها بالرياضة والاستحمام والغذاء والشراب والنوم والجماع ، وعرض لحالات الهواء فى كل فصل من فصول السنة ، وتدبير من ناله اعياء ، ومن فى أعضائه آفة ، ومن أصيب بهزال ... وحذر من الامراض الوبائية ونبّه الى الاعراض المنذرة بها ، ولم يفته ان يتحدث عن الأمراض النفسية وغيرها مما يدخل فى علم الصحة .

وزاد « ابن سينا » فعرض فى قانونه للحديث عن اختبار المرضعة ، والوقاية من حرارة الشمس ، وعوامل البيئة من طقس وتربة وغذاء وشراب .. ونحو ذلك مما تناوله فى الفن (الباب) الثانى من كتابه .

وكان للعرب فى أسباب الصحة والمرض لفتات طبية تقتبس منها نموذجا من مقدمة ابن خلدون ، اذ تحدث فيها عن أهمية الهواء والغذاء ومكانهما من حياة البدو وسكان الحضر ، فقال ان مرد الأمراض فى اغلب الحالات الى التغذية ، وهى تصيب أهل الحضر والامصار اكثر مما تصيب أهل البدو « لخصب عيشهم وكثرة مآكلهم» وتنوع أصنافها واقبالهم على تناولها ، مع خلطها بالتوابل والبقول والفواكه رطبا ويابسا ، الى جانب طبخها والاكثار من صنوفها حتى لتبلغ فى اليوم الواحد اربعين نوعا من النبات والحيوان ... يزيد هذا ان الهواء فى الامصار تفسده الأبخرة العفنة والناشئة عن كثرة الفضلات ... وأن اهل الأمصار لا يزاولون الرياضة الا نادرا .. واما أهل البدو فيغلب عليهم الجوع لقلة ما لديهم من حبوب ، حتى صار الجوع عادة ظنها البعض جبلة فطرت عليها طبائعهم ، ويكاد طعامهم يخلو من الدسم ، ولا يعالج بالطبخ ولا يزود

بالفواكه ، ... وأما الهواء الذى يستنشقونه فنقى قليل العفن ، مختلف ان كانوا ظواعن ، وهم يزاولون الرياضة بحكم حياتهم ، ويكثرون الحركة وركوب الدواب ومباشرة الصيد ونحوه مما يساعد على هضم الطعام وتفادى البردة (ادخال طعام الى المعدة قبل أن يهضم ما فيها) وبالتالى تقل حاجتهم الى الطب ... سنة الله التى خلت فى عباده ، ولن تجد لسنة الله تبديلا (٥) .

وحديث علي بن عباس المجوسى عن **خطر الوقاية** من الأمراض ، يستحق أن نقف عنده قليلا :

يقول ان الأجسام من شأنها أن تتغير وتستحيل ، لأن مصيرها الفساد والفناء ، وهما يعرضان للابدان اما ضرورة واما غير ضرورة « ويعرض أولهما بسبب الجفاف الذى يصير به النبات الى الذبول ، والحيوان الى الهرم ثم الى الموت ... وقد يعرض الفساد بسبب الفضلات التى تتولد عن الأطعمة والأشربة ، أما ما يعرض من الفساد الضرورى من خارج فيكون بسبب الهواء المحيط به ، أما الفساد الذى يعرض للاجسام من غير ضرورة ، فيبدو فيما يلحق بالانسان من خارج ،كصدمه الحجر أو قطع السيف أو لدغ الهوام ونهشها ، واذا كان الأمر على هذا فان الأجسام تتغير دواما ، ولا تثبت على حال ، ومن هنا مست الحاجة بالضرورة الى تدبير يصلح ذلك التغير ويمنع الأجسام من الفساد ، ويحفظها على حال صحتها الى وقت الهرم والموت الطبيعى ، ان منع الفناء مستحيل لأنه ينشأ عن طبيعة الأبدان ، ولكن الطبيب يتعين عليه أن يصطنع التدبير الذى يمنع الأسباب الداعية الى فساد الجسم وفنائه ، حتى لا يسرع اليه الهرم ، وذلك بالمبادرة بالتحفظ من الأسباب المفسدة غير الضرورية ، وتدبير البدن بما ينبغى ، فتصلح بذلك الأسباب الضرورية ، ولا يسرع الى الجسم الفساد ، وهذا التدبير هو حفظ الصحة على الأصحاء وردها الى المرضى ، وحفظ الصحة أعظم من علاج الامراض ، لأنه الفرض الذى تقصد اليه صناعة الطب .

وفى تراث الطب وصايا هدت اليها خبرة الطبيب العربى ، فمن أقوال العرب ليس أضر على الشيخ من طباخ حاذق وجارية حسناء ؛ لأنه يستكثر من الطعام فيسقم ، ومن الجماع فيهرم ... يقول « ابن سينا » :

اجعل غذاءك كل يوم مرة
واحذر طعاما قبل هضم طعام
واحفظ منيك ما استطعت فانه
ماء الحياة يراق فى الأرحام (٦)

ومثل هذا فى تراث الطب العربى أكثر من أن يحصى ، وهو يكفى ابطالا للزعم القائل بأن عقيدة القضاء والقدر قد صرفت أهلها من المسلمين عن الالتزام بقواعد الصحة ، ونسى أصحاب هذا الزعم ما فطن اليه بعض الغربيين — من أمثال ول ديورنت — من أن من مُسَلَّمات الاسلام أن النظافة من الايمان ، وأن الشراب المسكر حرام ، وميل سكان المناطق الحارة الى ايثار الطعام النباتى على الحيوانى ، والدعوة الى الاستحمام وخاصة عند الاصابة بالحميات ، والدعوة الى استخدام حمامات البخار وغيرها مما لا يزال يتبناه الطب الحديث .

قد لا يجد قارىء اليوم شيئا غريبا فيما أسلفناه عن موقف العرب فى عصورهم الوسطى من الطب الوقائى ، ولكنه اذا وضع هذا الموقف فى اطاره الزمنى ومجاله الحضارى ، كان خليقا

---

(٥) مقدمة ابن خلدون ص ٢٩٢ — ٩٣ .

(٦) وان قيل ان ابن سينا قد مات بسبب الافراط فى اشباع شهوته !

بأن يجد فيه سبقا لعصره بمئات السنين ، ويراه أهلا لأن يمثل مكانه من هذه اللقطات .

(ب) الطب العلاجي :

التشخيص والعلاج : اهتم العرب بتشخيص المرض ومعرفة أعراضه وطرق علاجه ، فكان الطبيب يستفسر من مريضه عن مأكله ومشربه ومسكنه وأسرته وحالته الصحية والاجتماعية ونحو هذا مما لا يزال طبيب اليوم يتوخى معرفته ، وكان للعرب فضلهم في الكشف عما سموه بالأسباب والعلامات ، اى اسباب الامراض وأعراضها ، وكان الرازى يرتبها طبقا لأهميتها ، وهذا هو ما يسميه أطباء اليوم بهيرارشية العلامات ، وقد أشار الرازى الى اختلاف العلامات باختلاف الوقت الذى تحدث فيه عبر تاريخ المرض ، فكان العرب أول من ابتدع استقصاء العلامات وتدوين المشاهدات بدقة بالغة ، مع استنباط نتائجها التى تلزم عنها بالضرورة .

واهتم الطبيب العربى بفحص البول وجس النبض ، وعرض مؤلفوهم لبيان هذا فى مئات الكتب ، وسموا الاستنتاج من فحص البول بالتفسرة ، ولم يكن يعالج مريض الا بعد فحص بوله ، وله عندهم علامات تميز السليم من المريض ، وكان النبض يشير الى حركة القلب ومدى حيويته ، فكان رسولا صادقا ومناديا يكشف برغم خَرَسِه عن أشياء خفية فيما يقول « علي بن عباس » .

وساعدهم هذا على وضع قواعد التشخيص، والتفرقة بين الأمراض المتشابهة فى أعراضها ، ففرق « الرازى » بين الجدرى والحصبة ، وميز « ابن سينا » بين الالتهاب الرئوى والتهاب السحايا الحاد ، وبين المغص المعوى والمغص الكلوى ، وبين حصاة المثانة وحصاة الكلية .. وغير هذا مما سنعرض له فى « كشوف طبية عربية » .

اما العلاج فكان ـ فيما أشار « ابن سينا » وغيره ـ بممارسة الرياضة ، ونوعية الغذاء وكميته ونحو ذلك من أساليب العلاج الطبيعي، تم باستخدام الدواء والعقاقير أو باجراء الجراحة التي أسماها العرب « العمل باليد او بالحديد » ، ولنقف عند بعض فروع الطب فى تراثهم :

فى طب العيون وغيره :

امتد الطب العلاجى الى أمراض العيون والنساء والتوليد والأطفال والأمراض العصبية والنفسية وغيرها مما يقتضى التخصص ويستلزم التعمق فى الدراسة ، فازدهر طب العيون على أيدى العرب لنشوء امراضه فى بلادهم الحارة ، ويرجع الفضل فى وقوفنا على براعتهم فيه الى « يوليوس هيرشبرج » J. Hirchberg أستاذ طب العيون بجامعة برلين سابقا ، اذ أفرد لتاريخ طب العيون سبع مجلدات استغرق اعدادها الاكباب على الدراسة الأمينة الواعية خمسة وعشرين عاما ، خصص سبعا منها لمجلد عن طب العيون عند العرب والمسلمين .

ومن خير ما وضع فى طب العيون كتاب « دغل العين » ليوحنا بن ماسويه + ٨٢٧ م ـ وشهرته عند الفرنجة Mesue Maior ويسمى أيضا يوحنا الدمشقي ـ وهو من السريان والنساطرة الذين تولوا التدريس فى مدرسة جند يسابور ، وقد عهد اليه الرشيد برياسة دار الحكمة، ويقول «ماكس مايرهوف» عن كتابه السالف الذكر أنه أول كتاب عربى منظم فى علم الرمد ، بل يقول انه أقدم الكتب التى وضعت فى طب العيون فى مختلف اللغات القديمة ، لأن ما وضع فى هذا الباب فى السريانية قد فقد، والكتاب حافل باصطلاحات فنية وفارسية ، وان كان أسلوبه العربى رديئا ، وبعض مؤلفاته الطبية مزود برسوم الأعشاب الطبية ، وعلى نهجه سار كثيرون من العرب فى تزويد كتبهم بالرسوم .

وبلغ طب العيون كماله بكتاب حققه حنين ابن اسحاق + ٨٧٧ م ـ وشهرته عند الفرنجة Johannitus ـ هو كتاب « العشر مقالات

فى العين » على مـا بينـه وشرحه جالينوس الحكيم — فيما يقول حنين فى مقدمته — وهو اقدم كتاب مؤلف على الطريقة العلمية فى طب العيـون — فيما يقـول ناشره ومترجمه الى الانجليزية ماكس مايرهوف (٧) وقـد زوده مؤلفه برسوم شائقة للغايه ، وهى أول رسوم عرفت فى تشريح العين ، ثم هى ادق من كثير من مثيلاتها فى الكتب الاوروبيـة فى القـرون الوسطى ، فيما يقول الباحثون المحدثون من أطباء العيـون انفسـهم — وقد جـرى على نهجه فى تزويد الكتب برسوم ايضاحية بعض خلفائه من المؤلفين ، وفى مقدمتهم ابن أخته حبيش بن الاعثم .

وانضج من هذا كله كتاب « تذكرة الكحالين الذى صنفه « علي بن عيسى » فى القرن العاشر — وشهرته عند الفرنجـة Jesu Haly — وهو بين الكتب العربية يعد اكملها جميعا فى هذا المجـال ، ولا يفضـله حتى بين الكتـب الأوربية كتاب آخر حتى القرن التاسع عشر — فيما يقول الدوميلى وماكس مايرهوف (٨) .

وعلى هذا المستوى نفسـه كان كتـاب « المنتخب فى علاج أمراض العين » « لعمار بن علي » الموصلى بالقاهرة — وشهرته عند الفرنجة Canamusli (٩) ويتفق ماكس مايرهوف مع هيرشبرج فى أن عمارا كان مجددا فى تصـور طريقته ، وبخاصة لازالة ماء العين (الكتاراكتا Cataracta) وهو الذى اخترع الابرة المجوفة التى تمتص هذا الماء .

وقد صنف « خليفة بن أبى المحاسن » فى النصف الثانى من القـرن الثالث عشر كتابه « الكافى فى الكحـل » وزوده برسـوم لآلات تستخدم فى جراحات العين ، ومن فرط ثقته فى قدرته على اجراء جراحة ماء العـين كان لا يتردد فى اجـرائها للمريض ولـو كان بعين واحدة !

وفى ذلك السيل من مؤلفات العرب فى طب العيون عرفت دراسات عميقة فى تشريح عيون الحيوانات وعضلاتها، مما أعانهم على تشخيص أمراض العيون وطرق علاجها على أحسن وجه يتيسر لمن تنقصه الآلات والأجهزة الحديثة التى يستخدمها المعاصرون من أطبائنا .

وبرع العرب فى الجراحة بأوسع معانيها ، ومنها جراحات النساء والتوليد ، وقد قـام « خلف ابو القاسم الزهراوى » (ت ٤١٤ هـ /١٠١٣ م) — وشـهرته عنـد الفرنجـة Abulcasis — بجراحه تفتيت رأس الجنين متى كان ضخما ، واختـرع منظار المهبل ، وكتب مع غيره من المؤلفين — من أمثال « ابن سينا » و « ابن زهر » — فى الأورام الرحمية ، والعنق وتقرحه ، وشرح « علي بن عباس » طريقة توليد الجنين الميت دون ايذاء المـراة الحامل ، وتحدث عن الأدوية التى تعوق الحمل، وان آثر عدم ذكرها خشية أن يستخدمها من لا يحتاجهـا بالضرورة ، وذلك تمشـيا مع تقاليده الدينية من ناحية ، وولائـه لِقَسَم « ابقراط » الذى أخلص له أطباء العـرب — وسنعود اليه عند الحـديث على « التزامات الطبيب وآدابه » ، كما أوصى الطبيب أن يشير بدواء ينفع فى احتباس الطمث ... وغير هذا مما يدخل فى أمراض النساء والتوليد .

---

(٧) مقدمة العشر مقالات فى العين لناشره ماكس مايرهوف — المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٩٢٨ .

(٨) الدوميلى : العلوم عند العرب ص ٢٥١ — ولم ينشر نص الكتاب العربى كاملا ، ونشر ماكس مايرهوف نص بعض فصوله ملحقا بكتابه عن تاريخ التراكوما وعلاجها قديما وعند العرب (بالانجليزية) وللكتاب ترجمة المانيه .

(٩) لم ينشر نصه العربى ، وترجمه الى الألمانيـة هيرشبرج مع آخرين ، ونشر ماكس مايرهوف للمؤلف نفسه كتابا آخر عن عمليات ماء العين .

فى الامراض المعديه

وامتد طبهم العلاجي الى الأمراض المعدية ، وكانوا يسمونها بالأمراض السارية ، فتحدث « ابن سينا » عن عدوى السل الرئوى ، وسبق الى وصف داء الفيلاريا وسريانه فى الجسم ، والى وصف الجمرة الخبيثة التى أسماها النار المقدسة ، كما سبق « الرازى » الى وصف **الجدرى** والحصبة والتفرقة بينهما ، والقول بالعدوى الوراثية ، وسبق « علي بن ريان الطبرى » (الذى لمع نحو سنة ٨٥٠ م) الى الكشف عن الحشرة التى تسبب داء الجرب ، وسبق « ابن ماسويه » الى وصف الجذام ...

وكان العرب ــ فيما روى مؤرخو الطب العربى ــ **أول من قرر أن الأوبئة تنشأ عن التعفن ، وتنتقل بالهواء والمخالطة** ، واشار « ابن التميمى » الى استخدام التدخين لتطهير الهواء اثناء انتشار الوباء ، واثبت « ابن الخطيب الأندلسى » وجود العدوى **ولاحظ مرارا أن من خالط مريضا مصابا بمرض سارٍ (أى مُعدٍ) أو لبس من ثيابه ابتلى بالمرض ، ومن لم يخالطه نجا من العدوى .** وقد تحدث فى رسالته « مقنعة المسائل عن المرض الهائل » ــ ويقصد الطاعون ــ فيقول : « فان قيل كيف نسلم بدعوى العدوى وقد ورد فى الشرع ما ينفى ذلك (١٠) قلنا وقد **ثبت وجود العدوى بالتجربة والاستقراء والحس والمشاهدة والاخبار المتواترة ، وهذه مواد البرهان ، وغير خفى عمن نظر فى هذا الامر أو اراد ادراكه ، هلاك من يباشر المريض بهذا المرض غالبا ، وسلامة من لا يباشره كذلك ، ووقوع المرض فى الدار والمحلة لثوب أو آنية ، حتى أن القرط أتلف من علق باذنه وأباد البيت بأسره ،ووقوعه فى المدينة فى الدار الواحدة ثم اشتعاله فيها فى أفراد المباشرين ، ثم فى جيرانهم وأقاربهم وزوارهم خاصه حتى يتسع الخرق ، وفى مدن السواحل المستصحيه حال السلامة الى أن يحل بها مَنْ فى البحر من عدوى أخرى قد شاع عنها خبر الوباء ... وصح النقل بسلامة أهل العهود والرحالين من العرب بافريقيا وغيرها لعدم انحصار الهواء ، وقلة تمكن الفساد منه »** .

واشار « ماكس مايرهوف » فى فصل الطب فى كتاب **تراث الاسلام** The Legacy of Islam الى أن الطاعون كان موضع دراسات علمية عربية فى مقدمتها دراسة « ابن الخاتمة » (ت ٧٧١ هـ/١٣٦٩ م) وكان قد اجتاح بعض المدن الأسبانية فى عصره .

ولا عجب فى هذا كله ، فقد فطن الى العدوى نبى الاسلام (ص) فى القرن السابع للميلاد فمما أثر عنه انه قال : « اذا وقع الطاعون بأرض فلا تقدموا عليها ، واذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه » فلا غرابة أن قيل ان العرب كانوا أول رواد الحَجْر الصحى .

كان هذا عند العرب فى عصورهم الوسطى ، بينما كانت أول دراسة علمية فى أوروبا عن العدوى والأمراض المعدية عام ١٥٤٦ م وكانت أوروبا تجهل أسباب الأمراض المعديه عند فشو الطاعون عدة مرات فى النصف الثانى من القرن الرابع عشر ، وعده الغربيون قضاء من الله لا يرد !

وقريب من هذا كله يمكن ان يقال فى براعة العرب فى طب الامراض العصبية والنفسية والعقلية ، وطب الاطفال والاسنان* والبيطرة وغيرها من فروع الطب المختلفة .

---

(١٠) الأصل أن رسول الله (ص) قال : لا عدوى ولاطيره ، وقال : لا يورد ممرض على مصح ، أى مريض على صحيح ، فالحديث يجب أن يحمل على النهى وليس على النفى بمعنى : تجنبوا العدوى واتقوا شرها وعندئذ يكون الحديث : لا يدخل مريض على صحيح ، مفسرا للحديث : لا عدوى .

* انظر النصوص القيمة التى جمعها اوتوشبيس عن « طب الاسنان عند العرب » وترجمها عن الالمانية الدكتور حسين مؤنس ونشرها فى مجلة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد مجلد ١٣ عام ١٩٦٨ .

فى التشريح والجراحه :

أما الجراحة ، فانها لا تستقيم بغير ممارسة التشريح ، والمحدثون من المستشرقين على اتفاق فى أن الشريعة الاسلامية قد حرمت تشريح الجثث ، انسانية كانت أو حيوانية ، واستندوا الى هذا فى القول بتأخر الجراحة والطب العلمى عند العرب ، ومن ثم كان اعتمادهم على ما كتبه « جالينوس + ٢٠١ م فى هذا المجال ، مع انه اقتصر على تشريح جثث القردة وغيرها من الحيوانات ، وحتى « ادور جورج براون » E. G. Browne قد اعتمد على مؤرخ الطب العربى « ابن أبى أصيبعة » ومعجم ايرانى وضعه اربعة من العلماء اجابة لطلب الشاه ، وذكر أن « ابن ماسويه » + ٨٢٧ م كان يميل الى التشريح ، ولا يستطيع أن يحصل على جثث انسانية ، فعمد الى تشريح قردة فى غرفة خاصة أقيمت على شاطىء دجلة ، وقد أعد له أمير النوبة بمصر — بأمر من الخليفة المعتصم — نوعا من القردة تشبه الانسان شبها قويا ليمارس تشريحها ، ومع هذا يزعم براون — مع الدو ميلى A. Mieli وول ديورنت Durant وغيرهما — أن ليس لديهم دليل يُعتدّ به على ممارسة التشريح — لجثث انسانية أو حيوانية — فى مدارس الطب العربي : واشارة « ابن أبى أصيبعة » الى ما سلف تنفى الزعم الذى ردده بعض الغربيين من أن التشريح كان محرما فى الشريعة الاسلامية ، والرأى عندنا أن الوقوف على ما كتب أطباؤهم يشهد بأن الكثيرين منهم قد زاولوا التشريح وان لم يجرأوا على الجهر بما فعلوا مخافة أن يتعرضوا لسخط المتزمتين من رجال الدين .

لم يقنع العرب بالالمام بما كتبه الاقدمون، ولا سيما امامهم جالينوس — فىمجال التشريح، بل نبهوا الى الكثير من اخطاء أسلافهم فى هذا المجال ، فى ضوء خبراتهم الشخصية ، ومن الادلة الناطقة على صدق هذا أن « ابن النفيس » (ت ٦٨٧ هـ / ١٢٨٨ م) برغم انه كان يجاهر بأنه لا يقوم بتشريح الجثث استجابة لتعاليم الشريعة ، كان فى كتابه « شرح تشريح القانون » ينقد « الفاضل جالينوس » ويقول : « والتشريح يكذبه ! » وفى ضوء خبرته الذاتية كشف الدورة الدموية لأول مرة فى تاريخ الطب ، كما سنعرف عندما نتحدث عن « كشوف طبية عربية » .

وكان « عبد اللطيف البغدادى » (ت ٦٢٩/ ١٢٣١ م) وهو يصف رحلته الى مصر فى كتاب « الافادةوالاعتبار فى الامور المشاهدةوالحوادث المعاينة بأرض مصر » يصرح بأنه وجد تلا من الهياكل البشرية فى احدى المقابر بمصر القديمة وتبين بخبرته خطأ « جالينوس » الذى باشر التشريح بنفسه وجعله دأبه ونصب عينيه » !

هذا عن التشريح عند العرب فى عصر رأت فيه أوروبا أن فن التشريح امتهان للجسم الذى خلقه الله ! وقد أجريت أول عملية تشريح فى باريس أواخر القرن الحادى عشر ، اى بعد وفاة « ابن النفيس » بنحو قرنين ! وفى مونبليه بفرنسا أجريت عام ١٥٥١ م وفى بازل بسويسرا عام ١٥٨٨ وفى بولونيا عام ١٦٣٧ ! ولم تنشأ نواة فن التشريح الوصفى الا أواخر القرن الخامس عشر باذن من البابا سكستوس الرابع ، ولم تنشأ مدرجات للتشريح فى أوروبا الا فى القرنين السادس عشر والسابع عشر — فيما أشار الدكتور غليونجى .

وفى ظل التشريح عند العرب تقدمت الجراحة ، وكان امامها « أبو القاسم الزهراوى » (ت ٤١٤ هـ/١٠١٣م) —وشهرته عند الفرنجة Abulcasis . وبكتابه « التصريف لمن عجز عن التأليف » احتل مكان

الصدارة بين جراحي العصور الوسطى ، وقد قدره الفرنجة أكثر مما قدره بنو وطنه ، وكان كتابه دائرة معارف طبية ، تناول في قسمها الأول الطب الباطنى ، وفى الثانى الأقرباذين (الصيدلة) والكيمياء ، وفى الثالث الجراحة ، وهو أهمها واخطرها ، عرض فيه للعلاج بالكي ، وآثره على المشرط ، واوصى به في فتح الخراجات واستئصال السرطان ، وقد زود كتابه برسوم مجموعة ضخمة من الآلات المستخدمة فى الجراحة ، نورد هنا نموذجا منها نقلا عن مؤرخ الطب العربى « لوسيان لوكلير » + ١٨٩٣ .

وكان « الزهراوى » السباق الى ربط الشرايين في الجراحات ، ومعرفة الطريقة التى تستأصل بها الحصى المثانية فى النساء عن طريق المهبل ، وقد وصف استعداد بعض الأجسام للنزيف وعالجه بالكي ، واجرى جراحات ناجحة فى شق القصبة الهوائية وتفتيت الحصاة فى المثانة وغير ذلك كثير ، وقد كان كتابه مرجع الدارسين في أوروبا ، والكتاب المدرسى فى جامعاتها حتى مطلع القرن السابع عشر [١١] .

علوم مساعدة للطب :

اتصلت بالطب العربى علوم تجريبية أعانت على تحقيق أغراضه ، فى مقدمتها الصيدلة التى أفادت من علمى النبات والكيمياء ، لأن على الصيدلى أن يعرف حقيقة الأعشاب ، ويقف على خصائصها ،ويقوم بتركيب المركبات واعداد المستحضرات وتحليلها ، فلنقف عند هذه العلوم قليلا :

فى علمى النبات والكيمياء :

اهتم العرب بالنبات من ناحية منفعته فى علاج الأمراض منذ أن أخذت الدولة الاسلامية فى التحضر ، واتصلوا بتراث أسلافهم فى دراساته ، وفى مقدمنهم ديسقوريدس + ٦٠م Dioscorides الذى كان كتابه فى الحشائش مرجع خلفائه من بعده ، وكان يضم أكثر من ستمائة عشبة مع أدوية وعطور وادهان وصموغ وأنواع شراب وأدوية معدنية. وقد وضع ابن جلجل فى مطلع القرن الحادى عشر ذيلا لترجمة هذا الكتاب استكمل فيه مافات ديسقوريدس من أسماء العقاقير الطبية ، بل أضاف العرب الفى نبات الى ما كان يعرفه اليونان .

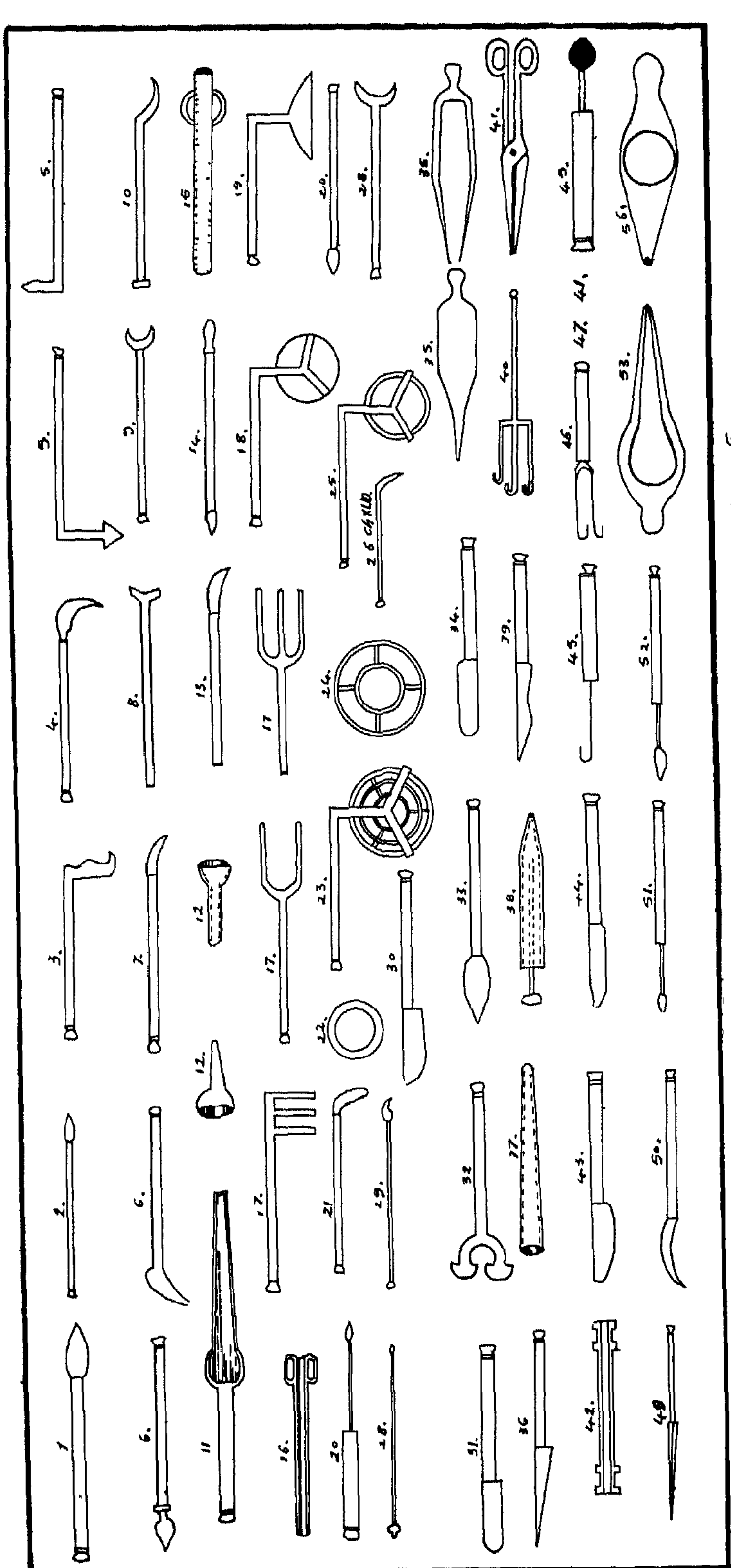
وفى أواسط القرن السابع أخذ « ابن البيطار » (ت ٦٤٦هـ/١٢٤٩م) يطوف البلاد لملاحظة النبات ومشاهدته فى منابته ، وعين فى بلاط الملك الكامل الأيوبى نقيب العشابين (الصيادلة) فى الديار المصرية .

وفعل مايشبه هذا « رشيد الدين الصورى (ت ٦٢٩هـ/١٢٤١م) وزاد فاصطحب معه فى رحلاته مصورا مزودا بأصباغ وألوان ، واطلعه على النبات فى منابته ليتوخى الدقة عند رسمه فى تعيين لونه ، وحجم أوراقه ، واغصانه وأصوله ـ على نحو ما يفعل علماء النبات فى أيامنا الحاضرة .

أما الكيمياء فان **مؤرخيه على اتفاق فى أن نشأته علما تجريبيا ، كان مقدرا لها أن تكون على يد علماء العرب ، ومن أنكر منهم ـ مستشرقين كانوا أو عربا ـ وجود « جابر بن حيان (ت ١٩٨هـ/٨١٣م) كشخصية تاريخية، رد نشاة هذا العلم الى عالم عربى آخر هو « أبو بكر محمد بن زكريا الرازى (ت ٣١٤هـ/ ٩٢٦ م) ـ شهرته عند الفرنجة** Le Razes **فيما يرى الدومييلى بوجه أخص ، فالعرب هم الذين أزالوا عن الكيمياء السرية والغموض والرمزية التى لازمتها عند أسلافهم،واصطنعوا**

---

(١١) لا توجد طبعة كاملة للكتاب ولا لترجمته اللاتينيةالتى قام بها جيرار الكريمونى أو غيرها وللكتاب أو اجزاء منه ترجمات مختلفة أشار اليها الدومييلى ص ٣٥٥ ـ ٥٦ .



صور آلات الطب والجراحة والتوليد التي جاءت في كتاب التصريف للزهراوي — نقلاً عن لوكلير

فى دراساتها منهجا استقرائيا تجريبيا ، واستخدموا فيها المكاييل والموازين وغيرها من الآلات تحقيقا للدقة والضبط .

والى العرب يرجع الفضل فى كشف الكثير من المركبات والمستحضرات التى لاتزال معتمدة فى أيامنا الحاضرة ، ومن المركبات التى استحدثوها ماء الفضة (حامض النتريك) وزيت الزاج (حامض الكبريتيك) وماء الذهب ... وقد كشفوا البوتاسا والنوشادر وملحه (نترات الفضة) والسليمانى (كلوريد الزئبق) واكسيده ، ونترات البوتاسا والزاج الأخضر (كبريتات الحديد) والكحول والزرنيخ وغيرها من مستحضرات ومركبات لم يعرف بعضها فى أوروبا الا أواخر القرن الماضى .

فى علم الصيدلة : تقول جمعية الصيدلة المصرية فى العدد الأول من نشرتها ، ان الصيدلة فن علمى يبحث فى أصول الأدوية ــ نباتية كانت أو حيوانية أو معدنية ــ من حيث تركيبها وتحضيرها ومعرفة خواصها الكيمائية والطبيعية ، وتأثيرها الطبى ، وتحضير الادوية المركبة منها ، والعقار ــ بضم العين ــ يعنى الدواء، وكان يراد بالأقرباذين Pharmacology تركيب الأدوية المفردة وقوانينها فيما يقول حاجى خليفة ، وزاد المحدثون الأدوية المركبة فيما يقول الأب قنواتى فى تأريخه للصيدلة .

والعرب هم اول من انشا صناعة العقاقير علما تجريبيا ، وتمكنوا عن طريقه من ابتكار ادوية لم تكن معروفة من قبل ، وركبوها من اصول نباتية وحيوانية ومعدنية ، واضافوها الى ما عرفوا من صنوفها عن اليونان والهنود وغيرهم ، وكانوا بهذا السباقين الى ابتداع الأقرباذين على الصورة التى وصلت الينا .

وكان العرب أول من ابتدع حوانيت العقاقير ــ الصيدليات ــ على الصورة التى نعرفها اليوم ، وعنهم أخذ الفرنجة ذلك ، ولا يزال هؤلاء يستخدمون الكثير من أسمائها العربية ، كما كان العرب أول من ابتدع مدرسة للصيدلة، ووضع المؤلفات القيمة فى علم الأقرباذين وغير هذا مما استرعى نظر الغربيين من المؤلفين .

وكان للعرب الفضل فى كشف الكثير من الأدوية،فى مقدمتها الكافور والصندل والراوند والمسك والمر والتمر هندى والحنظل وجوز الطيب والقرفة وغيرها ، كما ابتدعوا صنوفا من الشراب والكحول والمستحلب والخلاصة العطرية ونحوها ، وزادوا فاخترعوا آلات لتذويب الأجسام وتدبير العقاقير، واستخدموا الكاويات فى الجراحة وكان مما ساعدهم عليها تقدم الكيمياء التجريبية وعلم النبات المستند الى الملاحظة الحسية .

ولما كان الاشتغال بالصيدلة فى ذلك العصر من عمل الاطباء ، كثر تناولها فى كتب المؤلفين منهم ، وقد سبق الى ابتداع الاقرباذين « يوحنا بن ماسويه » ، وتابعه « ابن سهل » صاحب الاقرباذين الكبير ، وامين الدولة « ابن التلميذ » (ت ٥٦٠هـ/١١٦٤م) و « حنين بن اسحاق » فى العشر مقالات فى العين،و«الرازى» فى الحاوى ، و « على بن عباس » ، فى الكامل فى الصناعة الطبية و « ابن سينا » فى القانون.. وغيرهم كثيرون .

وكان « أبو جعفر احمد الفافقى » (ت٥٥٠/ ١١٥٥م) بكتابه فى الأدوية المفردة يتميز بالدقة البالغة فى وصف النباتات ، ويعده « ماكس مايرهوف » أعظم الصيادلة أصالة وارفع النباتيين مكانة عند المسلمين طوال العصور الوسطى ، واذا كان كتابه لم يصلنا كاملا فان المتاخرين ــ من امثال « ابن البيطار » ــ قد حفظوا عنه اجزاء وفيرة .

وقد وضع « ابن البيطار » (ت ٦٤٦/ ١٢٤٩ م) ــ رئيس العشابين (أى نقيب الصيادلة) فى مصر أكبر موسوعة فى هذا المجال ، بكتابه الجامع فى الأدوية المفردة ، وقد تضمن اكثر من الف واربعمائة صنف من الأدوية المختلفة مرتبة على حروف المعجم ،

منها ثلاثمائة لم يعرض لبحثها كتاب في الصيدلة من قبل ، وبرغم اعتماده على أسلافه ، فانه يسجل — فيما يقول الدوميلي A. Mieli تقدما بعيد المدى، وان لاحظ «جورج سارتون» G. Sarton أن تأثيره فى أوروبا المسيحية لم يكن ملحوظا ، لأن كتبه قد نقلت الى أوربا بعد أن فقد العلم العربى تأثيره فى العالم الغربى ، ولكن تأثيره فى العالم الاسلامى كان عظيما حتى أن كثيرين من الصيادلة قد سطوا عليه واستنسخوه .

وتمشيا مع تعاليم الدين وتقاليده كان على من يلى أمر المسلمين أن يكفل قيام المصالح العامة ، ولما كان من الصيادلة من يلتمس الربح الحرام بغش الادوية ، فقد نشأ نظام الحسبة الذى يفرض الرقابة لمنع الغش ، وتوقيع العقوبه على من يسىء الى مصلحة الجمهور ، ومن هنا افتضت المصلحة فرض امتحان ومنح ترخيص بمزاولة المهنة لكل من يريد الاشتغال بالصيدلة — كما كان الحال مع الاطباء — كما سنعرف عند الحديث على التزامات الطبيب وآدابه .

وخضعت المهنة للرقابة ،وتعرضت حوانيتها للتفتيش ، ذلك ان الافشين احد قادة « المعتصم بن الرشيد » (ت ٢٢٩هـ/٨٤٣م) طلب الى طبيبه « زكريا الطيفورى » أن يعقد للصيادلة امتحانا لمعرفة « الناصح منهم » فقال الطبيب ان كيميائيا قال للمأمون يوما ان آفة الكيمياء هى الصيدلة ، فما يطلب احد الى صيدلى دواء الا قال انه فى حانوته ! وطلب الى المأمون أن يخترع اسما وهميا ويرسل الى الصيادلة فى طلبه ، فعاد الرسل ومع كل منهم دواء من بذور أو قطع احجار أو وبر حيوان أو نحوه ، وكرر « الافشين » التجربة ، ثم استدعى الصيادلة جميعا ، ورخص بمزاولة المهنة لمن أنكر الأدوية الوهمية ، ونفى الباقين وكتب الى المعتصم يستأذنه فى أن يوفد اليه صيادلة على دين وخلق وعلم ، واجاب المعتصم طلبه فيما روى « ابن أبى أصيبعة » .

هكذا وجد الطب العربى فى النبات والكيمياء والصيدلة غذاء ، زاده حيوية وخصوبة وثراء، وكان أخصب مجال زاول فيه الاطباء مهنتهم هو مجال المستشفيات ، فلنقف عندها قليلا :

فى المستشفيات :

حرص الخلفاء والأمراء واهل اليسار من المسلمين على اقامة المستشفيات (البيمارستانات) (١٢) دورا لعلاج المرضى ، ومعاهد لتعليم الطب ، والى جانب العام منها مستشفيات خاصة ببعض الأمراض ، كالجذام والأمراض العصبية والعقلية وغيرها ، وأقام العرب الى جانب هذا مستشفيات متنقلة Ambulance وفقا لانتشار الأوبئة والأمراض، أو لتصحب الخلفاء والأمراء فى تنقلاتهم ، وزودوها بالأدوية وأنواع الطعام والشراب والصيادلة والأطباء .

واما المستشفيات العامة فكانت بفضل الأوقاف التى تحبس عليها ، والأموال التى ترصد لها وتنفق عليها بسخاء ، فى وفرة من الغذاء والكساء والأثاث والأدوية والأطباء والصيادلة والخدم ، وفى كل منها ساعور (مدير) يعاونه رؤساء الأقسام المختلفة والأطباء .

وكان نظام المستشفيات العربية فى عصورها الوسطى أشبه مايكون بنظامها فى أيامنا الحاضرة ، من حيث وجود أقسام تختلف باختلاف الذكور والأناث ، وتتنوع بتنوع الأمراض ، ومن حيث استقبال المرضى ، والحاقهم باقسامها أو علاجهم خارجها ،

---

(١٢) كلمة فارسية . بيمار = مريض ، ستان = دار ولما افتقدت مواردها اقفرت من المرضى الا المصابين بامراض عقلية ، واصبح المارستان مستشفى للمجانين وحدهم .

والاشراف على غذائهم وراحتهم ، ونقاهتهم .. فكان المرضى يترددون على العيادة الخارجية ويعالجون بالمجان ، يبقى منهم بالمستشفى من يتطلب علاجه البقاء بالقسم الخاص بمرضه ، فاذا أقام المريض بالمستشفى نزعت عنه ثيابه وحفظت عند أمين المستشفى ، ثم ألبس ثياب المستشفى وقدم له ما يناسبه من غذاء وعلاج ودواء حتى يبرأ من مرضه ، وكل هذا بغير أجر ... ومن أمكن علاجه خارج المستشفى صرف الدواء من صيدليته ، واذا اقتضى المرض استشارة طبيب من غير القسم استدعى الى ذلك ، وكان على الطبيب ان يمر بالقسم الذى ينتمى اليه ويتفقد أحوال مرضاه ، ومن ورائه مساعدوه من الأطباء والمرضين وغيرهم، فاذا فرغ من هذا مضى الى مكتبه بالمستشفى متفرغا للقراءة وحده أو مع زملائه وتلامذته ، ويتبادلون النقاش فى شتى الموضوعات التى يقرأونها ، وقد أسفرت مجالس الطب عن كتب قيمة يتداولها الأطباء وينتفع بها طلاب الطب . (١٣)

وعن المسلمين فى عصورهم الوسطى اخذ الغربيون المحدثون نظام مستشفياتهم ، بل سبق العرب الى اقامة مستشفيات للأمراض العقلية فى وقت كان المصابون بها فى أوروبا يكبلون بسلاسل من حديد ، ويسامون العذاب الوانا ، واقام العرب أول مستشفى للجذام فى مطلع القرن الثامن (٧٠٧م) مع ان فيليب الجميل أمر فى مطلع القرن الرابع عشر باحراق جميع المجذومين فى فرنسا !

وكان أطباء العرب وجراحوهم موضع التقدير البالغ من « الخلفاء » والأمراء وعامة الناس ، فى عصر كانت فيه اوروبا تحتقر الجراحين ، وتدخلهم فى زمرة الجزارين والحلاقين (١٤) ويصدر البابوات بين الحين والحين منشورات بمنع مزاولتها ! وكانت مع الطب الباطنى بمختلف فروعه تحارب من الكنيسة ــ ذات الحول والطول ــ بحجة أنها تعاند قضاء الله !

وكان الطبيب عامة يدين بقيم ادبية يحسن بنا أن نقف عندها قليلا :

فى التزامات الطبيب وآدابه :

كانت مزاولة الطب الى القرن العاشر لا تقتضى صاحبها اكثر من ان يقرأ الطب على طبيب نابه حتى يطمئن الى قدرته على امتهان الطب ، فيمارسه بغير قيد ولا شرط ، وشجع هذا على أن يباشر الطب من ليسوا من أهله ابتغاء الكسب الحرام ، ثم حدث عام ٣١٩ هـ /٩٣١ م ان تسامع الخليفة المقتدر بنبأ طبيب تسبب بجهله فى موت مريض من عامة الناس ، فأمر المحتسب بمنع الأطباء من مزاولة المهنة ما لم يجتازوا امتحانا يعقده لهم « سنان ابن ثابت » (اوائل القرن العاشر الميلادى) وكتب له فى ذلك بخطه ، وتقدم للامتحان فى بغداد وحدها ثمانمائة وستون طبيبا ــ فيما قيل ــ باستثناء المعروفين من الأطباء ، ومن كان منهم فى خدمة السلطان . **ومنذ ذلك التاريخ تعين على من يريد ان يمتهن الطب أن يتقدم الى نقيب الاطباء فى القطر المصرى ، ويلتمس اليه أن يجيزه ويمنحه ترخيصا بمباشرة المهنة ، وكان سبيل هذا ان يتقدم برسالة فى الطب يكفل له النجاح فيها الحق فى امتهان الطب .**

---

(١٣) من اراد مزيدا من التفصيلات فليقرأ : د . احمدعيسى : تاريخ البيمارستانات فى الاسلام (١٩٣٩) .

(١٤) لا يزال الجراح فى انجلترا يخاطب بلقب : السيد .Mr وليس بالدكتور !

وكان الذى يجيز الرسالة يبدأ بحمد الله وشكره ، ثم يعقب بامتداح الرسالة والثناء على الدراسة التي تضمنتها ، وتحديد فروع الطب التى يباح لصاحبها أن يشتغل بها ، فمن ذلك قول رئيس الجراحين بدار الشفاء المنصورى (قلاوون بالقاهرة) وهو يجيز فى عام ١٠١١ هـ/١٦٠٢ م رسالة شمس الدين محمد : « .... فاستخرت الله تعالى واجزت له أن يتعاطى من صناعة الجراح ما اتقن معرفته ، ليحصل له النجاح والفلاح ، وهو أن يعالج الجراحات التي تبدأ بالبط ، ويقلع من السنان ما ظهر له من غير شرط ، وأن يفصد من الأوردة ويبتر الشرايين ، وأن يقلع من الاسنان الفاسدة .. » .

وكان المحتسب يأخذ على الاطباء عهد « ابقراط » ، وسنتحدث عنه عند الكلام على عصر الترجمة — **وهو يحرم افشاء الأسرار ، أو تقديم السم لعدو ، أو الارشاد باجهاض امرأة حامل ، او اعاقة الرجال عن النسل ، كما يوجب على الطبيب مع مرضاه ان يغض الطرف عن المحارم ، وأن يستكمل آلات الطب التى تتطلبها هذه الصناعة ، وان يلمَّ بكتب الطب المعروفة ، ويقف على منافع (وظائف) الأعضاء** ... ومما نلاحظه فى هذا الصدد ان « حنين بن اسحاق » قد أوجب على أطباء العيون أن يجتازوا امتحانا فى كتاب « العشر مقالات فى العين » وأن يعرفوا تشريح العين وأمراضها ، ويبرعوا فى تركيب الأكحال والعقاقير الضرورية لعلاج العيون ، وأن يستكملوا أدوات المهنة وآلاتها ، وأن يرعوا الله والضمير فيما يفعلون .

وهكذا التزم اطباء العرب فى عصورهم الوسطى بقانون أخلاقى رفيع ، قوامه قسم « ابقراط » أبى الطب القديم ، وهو يتألف من قواعد صاغها وعاشها اطباء مصر القديمة (١٥) ، وتوارثها خلفاؤهم جيلا بعد جيل (١٦) وتبنى العرب عهد « ابقراط » فأورده مؤلفوهم فى صيغ تختلف عبارة وتتفق جوهرا ، بعد أن اضافوا اليه عناصر استمدوها من تعاليم دينهم فمن ذلك ما رواه « ابن أبى اصيبعة » عن « علي بن رضوان » (ت ٤٥٣/١٠٦١ م) نقيب أطباء القاهرة من أنه لخص الخصال التى أوجبها « ابقراط » على الطبيب فى سبع ، منها كمال الخلق ، وتوافر العقل والقدرة على التذكر ، والحرص على كتمان أسرار مرضاه ، والاعتدال فى تقدير أجره — وخاصة مع الفقراء — وطهارة البدن بحيث لا يطمع فى شىء مما يراه فى بيوت الأعلاء من نساء أو أموال ، بل التعرض الى شيء منها ، والتعفف عن وصف دواء قتال أو صنعه ، والعزوف عن اسقاط الأجنة ...

وقد تبنت كليات الطب هذا القسم فى عصرنا الحاضر ، أوجزت صيغته وبترت منه ما لا يلائم روح العصر الذى نعيش فيه ،

---

(١٥) يقول جاريسون ان قواعد الاخلاق التى التزم بها اطباء مصر القديمة (قبل ابقراط بقرون) تشبه اعظم الشبه قسم ابقراط عاطفة وتعبيرا F. H. Garrison, Introduction to the History of Medicine, 1929, P. 57 وانظر W. Durant, The Story of civilization, Vol. I, p. 182.
وقد قال ما يشبه هذا مؤرخ العلم جورج سارتون

(١٦) فمن ذلك انهم احسنوا معاملة المرضى بغض النظرعن طبقتهم الاجتماعية ، واخلصوا فى العمل مهما كان الخطر الذى يتهدد حياتهم ، فكان من هؤلاء الأطباء المصريين مَن تطوع لمكافحة الطاعون فى الجزائر وبغير اجر ، فاذا استشهد سارع غيره من زملائه المصريين الى القيام بعمله .

كفرض مسئولية الطبيب المادية والادبية كاملة عن أبناء أستاذه ! (١٧)

ووضع العرب فى آداب الطبيب مصنفات مختلفة فى مقدمتها : المدخل لابن الحاج (١٣٣٦ م) ومعالم القربى فى أحكام الحسبة لابن الأخوة (١٣٢٠ م) ... والتزم بهذه الآداب جمهرة أطباء العرب لأنها تساير تعاليم دينهم ولا تتعارض معها ، فمن ذلك أن « حنين ابن اسحاق » قد رفض أن يصنع السم استجابة لأمر المتوكل ، ولم ينفع معه ترغيب ولا تهديد ، وعد ولا وعيد ، وكان هذا – فيما قال هو نفسه – اذعانا لما قضت به آداب مهنته ، وتمسكا بتعاليم دينه ، وسنرى القصة كاملة فى ترجمة حياته فيما بعد .

ولا يعنى هذا أن الاشتغال بالطب قد خلا من الدجل والاحتيال ، والا لما مست الحاجة الى عقد امتحان للاطباء ، ومنح ترخيص بمزاولة المهنة للصالح منهم ، ولا اقتضت الضرورة فرض نظام الحسبة والرقابة على أعمال الاطباء والصيادلة (١٨) .

هذه لمحة الى آفاق الطب العربى ، فى حقله الوقائى ، وفى مجاله العلاجى ، مع اشارة الى موقف أهله من بعض ميادينه ، ولا سيما طب العيون والأمراض المعدية والتشريح والجراحة ، ولفت النظر الى العلوم التى غذت تطوره ، من نبات وكيمياء وصيدلة ، وحديث موجز عن مجال مباشرته فى المستشفيات العربية ، وما التزم به الطبيب العربى من آداب فى مزاولة مهنته ... فلتكن الآن لقطاتنا :

٣ – من تطور الطب العربى عبر التاريخ

فى هذا الفصل نتتبع – فى لقطات خاطفة – الطب العربى منذ نبت فى عصره الجاهلى ، وهمَّ بالنمو فى صدر الاسلام ، وازدهر فى عصر الترجمة فى مطلع العصر العباسى ، حتى بلغ ذروة أصالته فى المشرق والمغرب العربيين ، ثم نتركه متى اشرف على عصر التدهور والاضمحلال .

اذا توخينا ان نتخير لقطاتنا من ماضى الطب العربى عبر تاريخه الطويل ، تبين لنا أن له جذوراً تمتد الى ماضيه السحيق ، وانه تعرض خلال نموه للتأثر العميق بالطب الأجنبى الدخيل ، واستمد منه الكثير من عناصر حيويته ونضجه وتطوره ، فلنقف لبيان ذلك :

فى الجاهلية

عرف العرب فى جاهليتهم صنفين من

---

(١٧) صيغة القسم الذى يقسمه اليوم خريجو كليات الطب فى الجامعات المصرية هى : « اقسم بالله واشهده ان احترم مهنتى ، وأن اعتبر اساتذتى بمنزلة والدىّ ، وان اتبع فى العلاج الطريقة التي اؤمن أنها مجدية ومفيدة ، وان أمتنع عن كل ما هو ضار او مؤذى ، ولا اعطى دواء قاتلا او أسدى نصيحة ضارة ، وسوف افضى حياتى فى ممارسة فنى فى طهر وقداسة ، وأن احترم البيت الذى ادخله ، ولا افشى سرا اطلعت عليه ، ولا ابوح بشىء يجب عدم الاجابة عليه مما اراه او أسمعه عن مرضاى فى نطاق عملى ، وأن اعتبر هذه الأشياء من الأسرار المقدسة » .

(١٨) من ذلك ما رواه ابن ابى اصيبعة أن « ابن التلميذ » أمين الدولة (ت ٥٦٠ هـ/١١٦٤ م) – نقيب اطباء بغداد – قد لاحظ وهو يمتحن الأطباء أن بينهم شيخا وقورا كان يلتزم الصمت طوال الجلسة ، فساله ابن التلميذ عن السبب فى عدم مشاركته فى المناقشة ، فادعى الشيخ أنه على علم بكل ما قاله زملاؤه ، فساله عمن قرأ عليه صناعة الطب ، فقال: ان من بلغ من العمر ما بلغت ، لا يسأل عن شيوخه الذين ماتوا منذ زمن طويل ، بل الاحرى ان يُسأل عن تلامذته ، فساله ابن التلميذ عما قرأ من كتب ، وكان على دراية بالعلاج دون معرفة بكتبه فقال : سبحان الله ، تسالني عما يُسأل عنه الصبية الصغار، والخير ان تسالنى عن مؤلفاتى فى هذه الصناعة، لا بد أن اقدم نفسى اليك ، ثم نهض ودنا من ابن التلميذ وقال له هامسا : يا سيدى قد كبرت سنى واشتهرت بهذه الصناعة ، وانا اعول أسرة كبيرة ! فسالتك بالله يا سيدى الا تفضحنى أمام هؤلاء القوم ! فقال له هامسا : بشرط الا تهجم على مريض بغير ما تعرف ، ثم التفت الى المتقدمين للامتحان وقال بصوت مسموع : يا شيخ اعذرنا فما كنا نعرفك ، والآن قد عرفناك ، فامض فيما انت فيه ، ولا احد يعارضك بعد اليوم !

الطب : طبا هيأته لهم معتقداتهم الدينية فنهض به الكهان والعرافون ، واستخدموا فيه الرقى والتعاويذ وذبح الذبائح حول الكعبة ، والتوجه بالدعاء الى الآلهة التماسا للشفاء ؛ وتوصلوا مع هذا الى طب هدتهم اليه خبرتهم اليومية ، واستعانوا فيه بالعقاقير وكان أكثرها مستمداً من النبات ويؤخذ شرابا ، وكان العسل كثيرا ما يستخدم فى علاج الأمراض الباطنة ، وفى الجراحة استخدموا الحجامة والفصد واكثروا من الكى بالنار ، فقامت النار عندهم مقام المطهرات فى الطب الحديث ، وقد استعانوا بها فى جراحات البتر وغيرها .

وأطلق العرب فى جاهليتهم لفظ الحكماء على الاطباء الذين يعالجون ما يعرض للأبدان من أمراض ، وعلى القضاة الذين يفصلون فيما ينشب بين الناس من نزاع ، وكان الحكيم عندهم يجمع بين العلم والتجربة والنفوذ ، وكان من هؤلاء « الحارث بن كلده » (١٩) (ت ١٣ هـ ٦٣٤ م) ومن جراحيهم « ابن أبى رمثة » ، ومن بيطرييهم « العاص بن وائل » .

فى صدر الاسلام

وهكذا يبدو أن صناعة الطب لم تكن بمستنكرة عند جماهير العرب فى الجاهلية ، رعاية للصحة وعلاجا للأمراض ، فلما اعتنقوا الاسلام لم يجدوا فى الاشتغال بالطب خطرا يتهدد عقيدتهم ، وأبطل الاسلام الكهانة والعرافة ، اذ لا كهانة بعد النبوة ، ولم يكل صناعة الطب الى رجال الدين ، فبطل الطب الذى يمارسه الكهان ، وتمهد الطريق الى طب خبرة أكثر وعيا ، وامتدح القرآن الكريم الحكمة ، والطب من ضروبها ، وسلم النبى بطب الأبدان وحث على الاشتغال به لمن استطاع اليه سبيلا ، قال يا عباد الله : تداووا فان الله لم يضع داء الا وضع له دواء ، الا واحدا هو الهرم ، وورد فى حديث نبوى أن العلم علمان ، علم الأديان ، وعلم الأبدان . فارتفع الطب بهذا الى مرتبة تدنو من مرتبة الدين .

ولكن العرب — فيما يقول « صاعد الاندلسى » (ت ٤٦٣ هـ/١٠٧٠ م) فى طبقات الأمم : « لم يعنوا فى صدر الاسلام بشىء من العلوم الا ما اتصل بلغتهم واحكام شريعتهم ، مع استثناء علوم الطب ، فانها كانت معروفة لأفراد منهم ، غير منكورة عند جماهيرهم ، لحاجة الناس اليها فى حياتهم » ، فاستمر طب الأبدان قائما فى ظل الاسلام وفى رعاية نبيه (ص) بل أثرت عن الرسول مجموعة من الأحاديث النبوية تبلغ نحو الثلاثمائة حديث ، شكلت ما سمى بالطب النبوى ، وكانت تنضم على قواعد للصحة ، وطرق لمعالجة بعض الأمراض ، واتخذ اكثر هذه الأحاديث صورة جوامع الكلم (٢٠) وقد أوصى النبى بالاعتدال فى المأكل والمشرب ، وأوجب الاستحمام وحث

---

(١٩) من حكم الحارث المأثورة : دافع بالدواء ما وجدت مدفعا ، ولا تشربه الا من ضرورة ، فانه لا يصلح شيئا الا افسد مثله ، وقال عند احتضاره : لا تتزوجوا النساء الا من شابة ، ولا تاكلوا الفاكهة الا فى اوان نضجها ، ولا يتعالجن احدكم ما احتمل بدنه الداء ، وقد نهى عن الاستحمام بعد الطعام ، واوصى بالتخفف من الديون والهموم ، وساله معاوية : ما الطب يا حارث ؟ قال الأزم (الجوع) يا معاوية، سالوه عن الدواء قال : مالزمتك الصحة فاجتنبه ، فان هاج داء فاحسمه بما يردعه قبل استحكامه ، فان البدن بمنزلة الأرض اذا اصلحتها عمرت ، واذا تركتها خربت ... ويكفى هذا نموذجا لطب الخبرة فى الجاهلية .

(٢٠) منها : المعدة بيت الداء ، والحمية (الجوع) بيت الدواء ، أصل كل داء البرده (اى ادخال الطعام فى المعدة قبل أن يتم هضم ما فيها) — الافراط يسبب المرض ، نحن قوم لا ناكل حتى نجوع ، واذا اكلنا لا نشبع ، اذا سمعتم بالطاعون بارض فلا تقدموا عليه ، واذا وقع بارض وانتم بها فلا تخرجوا فرارا منه ... وقد وضعت كتب فى الطب النبوى منها كتاب الحافظ أبى عبد الله الذهبى ، وكتاب ابن قيم الجوزيه الحنبلى (ت ٧٥١ هـ/١٣٥٠ م) وكتاب الاحكام النبوية فى الصناعة الطبية لابى الحسن الحموى .

على النظافة لانها من الايمان ، وواصل ما كان معروفا فى الجاهلية من استخدام العقاقير التى تؤخذ فى العادة شرابا ، وقوامها العسل ، وابقى على الكى والفصد والحجامة ...

ولكن الى اى حد يصدق الطب النبوى ؟ **لقد كان النبى يصدر عن وحى فيما يتصل بشئون الدين ، ((وما ينطق عن الهوى)) ولكنه كان يفتى برأيه فى شئون الدنيا ، فتحتمل فتواه الصواب والخطأ ، واذا اثبتت التجربة خطاه قال لمحدثيه : انتم اعلم بشئون دنياكم .**

ويبدو أن الطب النبوى من هذا النوع الذى يحتمل الصواب والخطأ ، وقد فطن الى ذلك « ابن خلدون » (ت ٨٠٨ هـ/١٤٠٦ م) فأشار فى مقدمته الى ان للبادية طبا ينبنى فى غالب الأمر على خبرة بعض الأفراد ، ويتوارثه الناس عن مشايخ الحى وعجائزه ، وان هذا النوع من الطب يصدق أحيانا ولكنه لا يجرى على قانون طبيعى ، ثم يقول ابن خلدون : « والطب المنقول فى الشرعيات من هذا القبيل ، وليس من الوحى فى شىء ، وانما هو أمر كان عاديا للعرب ، ووقع فى ذكر أحوال النبى صلى الله عليه وسلم من نوع احواله التى هى عادة وجبلة ، لا من جهة أن ذلك مشروع على ذلك النحو من العمل ، فانه صلى الله عليه وسلم انما بعث ليعلمنا الشرائع ، ولم يبعث للتعريف بالطب ولا غيره من العاديات ، وقد وقع له فى شأن تلقيح النخل ما وقع ، فقال انتم أعلم بأمور دنياكم ، فلا ينبغى أن يحمل شىء من الطب الذى وقع فى الاحاديث المنقولة على انه مشروع ، فليس هناك ما يدل عليه ، اللهم الا اذا استعمل على جهة التبرك ، وصدق العقد الايمانى ، فيكون له أثر عظيم فى النفع ... »(٢١)

والطب الذى عرف ايام النبى قد استمر قائما طوال صدر الاسلام ، وفى العصر الاموى اتصل العرب بمدرسة الاسكندرية القديمة ، وكانت قد أسهمت فى نقل العلوم اليونانية الى العرب ، وكان لمؤلفات علمائها تأثيرهم الملحوظ فى دراساتهم الأولى ، وفى مقدمتها كتب طبية ترجمت مبكرا الى السريانية والعربية .

لكن اول نقل فى الاسلام ـ فيما يقول ابن النديم ـ كان فى عصر خالد بن يزيد (ت ٨٥ هـ ٧٠٤ م) وقد أسلم الطبيب الاسكندرانى « ابن أبجر » على يد اتقى بني امية « عمر بن عبد العزيز » (ت ١٠١ هـ/٧٢٠ م) وصحبه واستطبه واعتمد عليه فى صناعة الطب ، ـ فيما يروى ابن أبى أصيبعة ـ وقيل ان أول من أقام فى الاسلام مستشفى هو « الوليد بن عبد الملك » (ت ٨٨ هـ) واشتهر فى العصر الأموى أطباء من أشهرهم « زينب » طبيبة بنى أود ، وكانت خبيرة بالعلاج ومداوة امراض العين ، مع براعة فى الجراحة .

واقبل عصر بنى العباس فى منتصف القرن الثامن للميلاد ، فكان فاتحة عهد جديد فى اتصال الطب العربى بالطب الأجنبى ـ ولا سيما اليونانى والهندى ، ومن هنا كان تطوره ونضجه وازدهاره :

فى عصر بنى العباس :

(أ) عصر الترجمة :

بدأ عصر النضج والازدهار فى الطب ، وغيره من آفاق المعرفة ، بحركة ترجمة واسعة النطاق ، نقل العرب خلالها تراث السابقين من الأمم المتحضرة ، من منتصف القرن الثامن حتى أواخر القرن التاسع للميلاد ، حين بدأ الانتاج الأصيل المبتكر على نحو ما سنعرف بعد. وكان « كسرى أنوشروان » + ٥٧٨ قد انشأ فى مدينة جند يسابور ـ بقرب الأهواز فى

---

(٢١) مقدمة ابن خلدون ص ٣٢٦ ـ المطبعة البهية بالقاهرة .

ايران — مدرسة لتعليم الطب ، ومستشفى لعلاج الأمراض ، تحت اشراف النساطرة (٢٢)، واستقدم اليها الأساتذة من اليونان والهنود ، واشترط فيمن يتولى التدريس بها أن يجيد اليونانية حتى يتسنى له الاطلاع على كتب اليونان فى صناعة الطب ، وكان الطب يدرس فى هذه المدرسة نظريا وعمليا فى مستشفى كان فيما بعد نموذج الدراسة فى العالم الاسلامى ، وفيها تفاعل علم اليونان والسريان والفرس والهنود ، وكان لهذا كله صداه فى الطب العربى فيما بعد .

واستطارت سمعة جند يسابور ، فلما أصيب المنصور (ت ١٥٩ هـ/ ٧٧٥ م) ثانى خلفاء العباسيين بمرض أفقده شهيته للطعام ، واخفق فى علاجه أطباؤه ، استقدم من تلك المدرسة الى بغداد عام ١٤٨ هـ/٧٦٥ م جورجيس بن يختيشوع + ٧٧١ م رئيس أطباء جند يسابور ، ووفق هذا فى علاج المنصور فأبقاه فى بلاطه طبيبا له ، ومنذ ذلك الحين احتل ستة من أسرة يختيشوع مكانهم عند الخلفاء نحو ثلاثة قرون من الزمان ، كانوا خلالها أطباء البلاط ومعلمى الطب ، وكانت اكبر خدماتهم للطب العربى أنهم نبهوا العرب الى علم لم يكن قد استكمل علميته بعد ، ولم يكونوا هم على دراية كافية به ؛ وأن مدرستهم قد خرجت من أعلام الطب فى باكورة حياته عمالقة من أمثال « يوحنا بن ماسويه » ، و « حنين بن اسحاق » .

وقد بولغ فى شهرة جند يسابور فى الطب(٢٣) ولعل مرد هذا الى أنهم أغراب على غير ملة أهل البلاد (٢٤) ، حتى اذا كان عصر المأمون أخذت جند يسابور تفقد أهميتها كمدرسة للطب ، واذا كان القرن الثالث (التاسع للميلاد) هو العصر الذهبى للنصارى من المترجمين ، فقد كان القرن الذى تلاه العصر الذهبي لنشاط العرب .

وقد أوفد خلفاء المسلمين وأمراؤهم واهل اليسار منهم بعوثا الى مواطن الطب العلمى فى اليونان وغيرها لجمع المخطوطات الطبية ، وشجعوا على نقلها الى لغة العرب وأجزلوا للمترجمين العطاء — على نحو ما سنعرف فى سيرة « حنين بن آسحاق » .

---

(٢٢) انشاها ملك الفرس شابور الاول + ٢٧١ م ،ولما اغلق جستنيان مدرسة آثينا عام ٥٢٨ م فر فلاسفتها وعلماؤها الى فارس ، واحسن كسرى استقبالهم وحثهم على التاليف والترجمة فى الطب وغيره ، وفتحها العرب عام ١٧ هـ /٦٣٨ م . اما النساطرة الذين أشرفوا على هذه المدرسة فقد ترجموا الكثير من كتب اليونان من اليونانية الى السريانية ، وكانوا اكبر من نقلوا تراث اليونان الى فارس ، وحملوه الى دول الاسلام فى اول عهد المسلمين بالعلوم الدخيلة ، يقول القفطى فى اخبار الحكماء : « ولم يزل امرهم يقوى فى العلم ويتزايدون فيه ، ويرتبون قوانين العلاج على مقتضى أمزجة بلدانهم حتى برزوا فى الفضائل ، وجماعة يفضلون علاجهم وطريقتهم على اليونانيين والهنود ، لانهم اخذوا فضائل كل فرقة ، فزادوا عليها بما استخرجوه من قبل نفوسهم ، فرتبوا لهم دساتير وقوانين وكتبا جمعوا فيها كل حسنة » .

(٢٣) لم يستدع المنصور جورجيس الا بعد مشورة من اطبائه الذين قالوا عنه انه اقدر اهل زمانه ، وحينما استدعى الرشيد ابنه بختيشوع لمعالجته ، أوعز الى اطبائه ان يمتحنوه ، فقال له أكبرهم سنا ان احدا منهم لا يستطيع أن يناقشه فى الطب ، لانه سليل اسرة جميع افرادها فلاسفة واطباء ، فعمد الخليفة الى امتحانه بنفسه ، وطلب الى أحد اتباعه أن يجيء ببول حيوان ، وزعم انه لاحد محظياته ، ففحصه بختيشوع جيدا ، ثم قال للخليفة : ان هذا ليس بول انسان ، الا اذا كان الانسان قد تحول الى حيوان ! فضحك الخليفة وساله عما ياكل المريض ، فقال بختيشوع اتماما للنكتة : الشعير يا سيدى ! وهكذا بولغ فى براعة هذه الاسرة .

(٢٤) روى الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ/ ٨٦٩ م) فى كتاب البخلاء عن الطبيب المسلم اسد بن جانى آنه قال معللا ما اصابه من كساد ، ان الطبيب لا يكون (فى عصره وبلده) موضع ثقة من الناس ، الا متى كان مسيحيا ، يحمل اسما سريانيا ، ويتحدث بلهجة سريانية ، ويلبس رداء من الحرير (وهو محرم على المسلم) ويقوم بالتدريس فى المدرسة السريانية الفارسية المشهوة (جند يسابور) .. !

ومنذ القرن الأول من خلافة بنى العباس اتجه المترجمون خاصة الى ترجمة الكتب الطبية (من اليونانية الى السريانية ، ومن السريانية الى العربية) وكان فى مقدمة هؤلاء « جورجيس ابن بختشوع » + ٧٧١ م) وحفيده جبريل + ٨٠٠م « وتيوفيل بن توما » الرهاوى + ٨٧٥ م « وابو يحيى البطريق » (ت ١٨٤ هـ/ ٨٠٠ م ويوحنا بن ماسويه + ٨٥٧ م الذى درس فى جند يسابور ، وشارك فى الترجمة من السريانية ، واسهم فى التأليف ، ومارس الطب على طريقة آل بختيشوع .

وظهر شيخ المترجمين « حنين بن اسحاق » + ٨٧٧ ومدرسته التى كان من اعلامها ابنه اسحاق وابن اخته « حبيش بن الأعثم » ، واصطفان بن بسيل الذى كان أول من ترجم كتب « ديسقوريدس » فى الأقرباذين ، ونسبت اليه أول ترجمة لكتب أوريباسيوس (Oribaseus) الذى لمع فى النصف الثانى من القرن الرابع .

وكان اكبر نبع نهل منه المترجمون الى العربية طب اليونان ، ممثلا فى تراث أبى الطب القديم « ابقراط » +٣٧٧ق.م Hippocrates وامام الطب فى عصر الاسكندرية « جالينوس » + ٢٠١ م Galenus ، **ولما كان الطب العربى ـ فيما يقول بعض المستشرقين ـ قد نما ونضج وتطور فى جو من الاعجاب بابقراط ، وبالهام مباشر من « جالينوس » ، كان اغفال الحديث عن تراثهما ، يفضى الى الجهل بتاريخ الطب عامة ، والعربى منه بوجه خاص ، ولهذا** وجب أن نقف عندهما قليلا :

نقل اليونان طب مصر وبابل ، وارتفعوا باضافاتهم له الى ذروة الطب القديم ، يقول تشارلس سنجر Ch. Singer : « ان مؤلفات أبقراط وجالينوس لم يعد لها مكان فى مقررات الطب فى معاهد اليوم ، ولكن من يقف عليها يتبين أنها ليست سارية فى طب الغربيين فحسب ، بل انها لا تزال تشكل بطانة الطب فى عصرنا الحديث ، ولا يزال المعاصرون من الأطباء الغربيين يستخدمون التعبيرات اليونانية كلما جلسوا على كثب من سرير مريض ، ومن الحق أن يقال ان الطب الحديث فى جوهره من خلق اليونانيين (٢٥) وكانت أكبر مميزات الطب اليونانى فى عصره الذهبى (ق ٥ ق . م) أنه رفض رد الأمراض الى الشياطين، وتوخى البحث عن عللها الطبيعية ، فتأدّى به هذا الى دراسة اعضاء الجسم ووظائفها ، فتقدم بهذا علم الجراحة على يد اليونان فيما يقول العلامة الأثرى « برستيد » وارتفع الطب على يدهم الى مستوى لم يتجاوزه فى أيامنا الحاضرة الا فى الجزئيات والمعلومات الخاصة (٢٦) .

وعلى يد ابقراط ـ المؤيد بتأييد الهى فيما ظن ابن ابى أصيبعة ـ اتسم الطب بالنزعة العلمية ، لأنه رفض الأوهام وشك فى الخوارق، وابعد الطب عن الدين والفلسفة ، وتوخى الصبر فى ملاحظة الحقائق والدقة فى تسجيلها ـ فيما يقول جورج سارتون ـ وزاد فارتفع بمهنة الطب حين أكد جانبها الاخلاقى فى قسم اشرنا اليه عند الحديث على التزامات الطبيب وآدابه .

وكانت الاسكندرية أعظم مركز للطب فى العالم القديم وفى رحابها عاش « جالينوس » الذى سيطر على الطب فى مشارق الارض ومغاربها ، حتى عصر النهضة الاوربية ، وكان تراثه دائرة معارف فى كل فروع الطب والتشريح والجراحة والصيدلة ... وبسبب عكوفه على تشريح الحيوانات نضجت معرفته

---

(٢٥) 1. The Legacy of Greece, P. 248, Oxford Clardendon Press, 1921.

(٢٦) الدومييلى : العلم عند العرب ص ٥١ ـ ٢ .

بالجسم الانسانى ووظائف أعضائه ، وكان أكبر من أذاعوا علمه الطبيب البيزنطى اوريباسيوس Oribasius الذى لمع فى النصف الثاني من القرن الرابع ، كما أشرنا من قبل ، وكان أعظم أطباء عصره ، وقد عاش تراث « جالينوس » فى اللاتينية واليونانية والعربية (٢٧) ونقل العرب مؤلفاته فكانت المرجع الرئيسى المعصوم من الخطأ ! وكان بهذا ارسطو الطب فى العصور الوسطى .

فلا عجب بعد هذا كله أن كان الطب اليوناني اعظم نبع نهل منه العرب فى عصورهم الوسطى، وكانت العلوم اليونانية قد شاعت قبل الاسلام فى المنطقة التى تتكلم السريانية والفارسية الوسطى فى مجموعة من المدارس ، منها مدرسة الرها ، ولما أغلقها امبراطور بيزنطة عام ٤٨٩ م فر علماؤها الى فارس واستقروا فى مدرسة جند يسابور (٢٨) التى عرفنا من قبل تأثيرها فى الطب العربى .

هذه هى أكبر مصادر الطب العربى التى عكف على نقلها الى العربية المترجمون منذ مطلع العصر العباسى ، ولمزيد من الضوء على عصر الترجمة نقف قليلا عند :

شيخ المترجمين حنين بن اسحاق : (٢٩)

درس الطب فى مدرسة جنديسابور السالفة الذكر ، وتتلمذ على « يوحنا بن ماسويه » رئيس بيت الحكمة فى ذلك الوقت ، وكان أساتذة جند يسابور يكرهون أن يزاول الطب أبناء التجار من أمثال « حنين » ، ولكن مهارته فى اللغات الأربع : السريانية والفارسية واليونانية والعربية ، مع حبه للدراسة ودأبه على العمل وقدرته على الترجمة التى مرن عليها ، أكرهتهم على احترامه وتقدير جهوده ، وقد عينه المأمون رئيسا لبيت الحكمة الذى نهض بترجمة التراث الدخيل ، واضطلع حنين بترجمة مجموعة ضخمة من مؤلفات « جالينوس » وغيره ، فما كانت سنة ٨٥٦ م حتى كان -فيما يقال- قد ترجم خمسة وتسعين كتابا الى السريانية، وتسعة وثلاثين كتابا الى العربية، الى جانب ما صححه وراجعه من ترجمات تلامذته ، وهى ست الى السريانية ، ونحو سبعين الى العربية ، بل راجع وصحح معظم الخمسين كتابا مما ترجمه الى السريانية « سرجيوس الرأسعيني » وغيره ، وذلك الى جانب تآليفه فى طب العيون وغيره من فروع الطب ، وكان مثار اهتمام من كبار المستشرقين المحدثين من أمثال برجشتراسر Bergstrasser وماكس مايرهوف ولوسيان لوكلير وهيرشبرج وغيرهم .

ولم تكن الترجمة الى العربية بالأمر الهين الميسور ، اذ ضمت الكتب التى ترجمها مئات المصطلحات التى لم يكن يعرف لها فى العربية مقابل ، ولهذا كان كثيرا ما يضع المصطلح بنصه الأصلى فى العربية ثم يعقب بشرحه وتفسيره ، وأبدى فى هذا تمكنا وقدرة على فهم المصطلحات ومعرفة معانيها، وان كان المتأخرون من الناسخين قد حرفوا الكثير منها ، لأن تنقيط الحروف لم يكن مستعملا على الدوام فى عصر « حنين » ، وفى القرون التى أعقبته ، وكان فوق هذا يلتزم الدقة ويتوخى الأمانة فيما ينقل ، فكان يجمع كل ما تيسر له من نسخ المخطوط الذى يعتزم ترجمته ، ويصنفها ويقابل بين بعضها والبعض الآخر ، وقد يقارنها بترجمتها فى السريانية ، ثم يستخرج مما تحت

---

(٢٧) جورج سارتون : العلم القديم والمدنية الحديثة ص ١٧٩ (ترجمة عبد الحميد صبره) .

(٢٨) بحث ماكس مايرهوف فى انتقال التراث « من الاسكندرية الى بغداد » ترجمة د . عبد الرحمن بدوى فى كتابه « التراث اليونانى فى الحضارة الاسلامية » - القاهرة ١٩٤٠ .

(٢٩) ولد عام ١٩٤ هـ / ٨٠٩ م ومات عام ٢٦٤/٨٧٧م

يده نسخة صحيحة ينقلها الى العربية ، ويقول « وهذه عادتي التي اتبعتها فى كل ما ترجمته » .

وحين بلغ « حنين » الثلاثين من عمره ، ضاق بكل ما ترجم فى صباه ، وعمد الى اصلاحه أو اعادة ترجمته ، كما كان يفعل بترجمات بعض أقرانه ممن كانوا يترجمون تحت اشرافه ، وكان المأمون قد عينه رئيسا لبيت الحكمة ــ الذى قيل انه انشىء عام ٢١٥ هـ/٨٣٠ م ــ وكان قد أوفده مع آخرين للبحث عن مخطوطات يونانية ، وكان الخلفاء وكبار رجال البلاط يتحملون فى العادة نفقات هذه الرحلات ، ويدفعون فى الكتب النادرة اغلى الاثمان ، وكان فى مقدمة من عينهم المأمون للترجمة تحت اشراف « حنين » : الحجاج ابن مطر وابن البطريق وغيرهما ، وجرى الحال على هذا بعد المأمون ، فعين المتوكل مترجمين يعملون تحت اشرافه منهم اسطفان بن باسيل وموسى بن خالد الترجماني ويحيى بن هارون ، وكان حنين يقوم بمراجعة ترجماتهم وتصحيح أخطائها .

وبرزت كفاءة حنين حتى أخرست حساده ، وردتهم الى الافراط فى تقديره ، ونال حظوة عند جبرائيل بن بختيشوع وأستاذه يوحنا بن ماسويه ومنافسه علميا سلمويه بن بنان الذى عين بعد ممات المأمون عميدا لأطباء المعتصم .

ومع استثناء محنتين تعرَّض لهما أيام المتوكل (٣٠) ، أصاب حنين حظوة عند الخلفاء قبلهما وبعدهما بعشرين عاما (٣١) . وقدر له ان ينقل خلال هذا الزمن الطويل الحافل بالنشاط والعمل ، فيضا من الكتب التى ضمت تراث الطب القديم بوجه خاص ، وبمثل هذه الدقة والأمانة انتقل تراث اليونان الى العربية، وما عرف فى العربية من اخطاء فى الترجمة مرده الى اخطاء وقع فيها المترجمون الى السريانية من غير العرب ، ولم يكن هذا حال الترجمة من العربية الى اللاتينيه حين انتقل الى أوروبا تراث العرب ، تشهد بهذا الموازنه بين ترجمات حنين ومدرسته ، وترجمات « قسطنطين الافريقى » + ١٠٨٧ م اول رائد لحركة الترجمة من العربية الى اللاتينية فى صقلية ، أو « جيرار الكريموني » + ١١٧٨ م أكبر وأشهر المترجمين فى حركة الترجمة فى بلاد الاندلس .

وقيل ان جالينوس كان يستهدف تحويل الطب الى علم دقيق (exact Science) شبيه بعلم الفلك والعلوم الرياضية ، وأن « حنينا » هو الذى طبع اللغة العربية ، الى حد ما ، بطابع الاسلوب العلمي على عهد العباسيين . وكان كتابه العشر مقالات فى العين أقدم مؤلف اصطنع المنهج العلمي فى طب العيون ، وقد زوده بأول رسوم شائعة عرفت فى تشريح العين ، وكانت أدق من مثيلاتها فى الكتب الاوربيه فى القرون الوسطى ــ فيما يقول

---

(٣٠) انكشفت غمته التى سنشير اليها فى الهامش التالى عام ٢٤٤ هـ وبقى بعدها موضع تقدير من الخلفاء : المنتصر بالله (٢٤٨ هـ) والمستعين بالله (٢٥١ هـ) والمعتزبالله (٢٥٥ هـ) والمهتدى بالله (٢٥٦ هـ) والمعتمد على الله (٢٧٩ هـ) وفى عهده مات حنين ٢٦٤ هـ على أرجح الاقوال .

(٣١) أراد المتوكل ان يختبر أمانته خشية أن يغدر به ، فخلع عليه ووعده باقطاع ما يعادل خمسين الف درهم ، ثم طلب اليه أن يُعِدَّ سما يقتل به عدوا ، فابى حنين ، ولم يرده عن امتناعه وعد ولا وعيد ، فحبسه الخليفة عاما قضاه فى الدرس غير مكترث ، فاستدعاه الخليفة وأوهمه أنه مقبل على قتله ، فقال : لى رب ياخذ بحقى فى اليوم الأعظم ... فابتسم الخليفة وساله عن سبب امتناعه ، فقال : الدين ، وقسم الأطباء ــ وبعد بضع سنوات وشى به حساده فعذبه الخليفة وصادر أملاكه واعتقله ستة شهور عذب خلالها بالسياط ، ومرض الخليفة فلم يفلح فى علاجه سواه ، فعفا عنه وعاقب حساده ، ورد اليه املاكه وكافاه من أموالهم وأمواله بما يعادل أكثر من ربع مليون درهم ، ومنحه اقطاعا وراتبا شهريا بلغ خمسة عشر الف درهم ، وبرغم هذا كان حنين فى مجده رحيما بخصومه وحساده .

ناشره ومترجمه طبيب العيون « ماكس مايرهوف » .

واذا كان من النقاد — من أمثال سيمون — من زعم أن ترجمات حنين وحبيش بن الأعثم مليئة بفقرات منتحلة غريبة عن الأصل ، وأن طريقتهما تفتقر الى الأناقة أحيانا ، فان برجشتراسر Bergstrasser أستاذ اللغات السامية فى جامعة ميونيخ ، وأعظم حجة فى تراجم حنين العربية ، يصرح بأن حنينا وحبيشا — وهو احسن تلامذته — قد احتملا عناء كبيرا فى التعبير عن المعانى اليونانية ، وحرصا على ان يكون تعبيرهما واضحا ، وتوخيا الترجمة الحرفية ولو جاء هذا على حساب الأسلوب الجميل ، حرصاً منهما على الدقة فى نقل المعانى اليونانية ، وترجماتهما تشهد بسيطرة كاملة على اللغة ، تعرب عنها القدرة على التوفيق بين العربية واليونانية ، والدقة فى التعبير الموجز ، وهذا هو المشاهد على فصاحة حنين ، وقد اشرنا الى صعوبة الترجمة فى عصره .

وبرغم ما عرف عنه من أمانة وتعفف ، استغل سخاء المأمون مع المترجمين ، اذ كان المأمون يمنحه وزن ترجماته ذهبا ! فعمد حنين الى كتابة ترجماته على ورق سميك ثقيل الوزن ، وتوخى أن يكبّر الحروف ويوسّع ما بين الأسطر حتى تعظم مكافأته من الذهب !

وكان حنين الى جانب ترجماته مؤلفا ممتازا، كتب كثيرا بالسريانية حينا وبالعربية حينا ، وذكر ابن أبى أصيبعة ان له فى العربية أكثر من مائة كتاب فى شتى فروع الطب ، وردد ذلك الفرنجة من امثال لوسيان لوكلير Leclere ، وفى مقدمة كتبه كتابان كانا أساس ما وضع فى الطب العام من مؤلفات ، هما كتابا المسائل فى الطب ، وطب العيون ، وكان أولهما مدخلا للطب العام فى صورة اسئلة واجوبة ، كما وضع مجموعة اخرى من المؤلفات الطبية تتناول غذاء المرضى الناقهين ، وأعراض الامراض ، والنبض والبول والحمى وعلم الصحة وغير ذلك .

ولكن من هذا التراث الضخم كتبا كثيرة نحلت عليه خطأ ، وكان كثير من مؤلفى الرسائل الطبية يعمدون الى وضع اسم « حنين » عليها ترويجا لها بين القراء .

وكان حنين مع هذا الفيض من مترجماته ومؤلفاته طبيبا ممتازا وكحالا — طبيب عيون — لا نظير له ، وكان كتابه « العشر مقالات فى العين » ، مرجعا يمتحن فيه الطالب الذى يتقدم لاحراز اجازة ، والحصول على ترخيص بمزاولة المهنة .

كان حنين حركة دائبة اتصلت بعد وفاته على يد تلامذته ممن غذوا النهضة العلمية وبعثوا فيها الحياة،وصدق المستشرق الفرنسى «لوسيان لوكلير» حين قال **انه ربما كان أعظم شخصية انجبها القرن الثالث للهجرة (التاسع للميلاد) وانه كان من اساطين الفكر الذين يتميزون بحدة الذكاء وسمو الخلق ، واذا قيل ان النهضة العلمية فى المشرق لا تدين بوجودها له ، لما كان احد سواه أوفر منه عملا على ايجادها .**

وبانتهاء مدرسة حنين فى الترجمة ، بدا عصر الانتاج الخصب فى المشرق العربى منذ اواخر القرن التاسع حتى بلغ عصره الذهبي فى القرن الحادى عشر ، ثم أخذ فى التناقص من بدء القرن الثالث عشر حتى اواخر القرن الثالث عشر ، حين بدأت مرحلة تدهور واضمحلال افتقد فيه الانتاج الأصالة والابتكار، اما فى المغرب العربى (بلاد الاندلس) فقد ازدهر الانتاج فى ميادين الطب وغيره ابان القرنين العاشر والحادى عشر ، وبلغ عصره الذهبى فى القرن الثانى عشر للميلاد ، ثم اخذ فى التناقص ابان القرن الثالث عشر ، وبدات بعده مرحلة تدهور واضمحلال .

(ب) عصر الانتاج الاصيل :

بحركة الترجمة السالفة الذكر ، تهيأ للعرب تراث الطب القديم ، فعكفوا على دراسته حتى استوعبوه، ثم أخذوا فى تنسيقه أبوابا وفصولا ، وزادوا فعرضوا للكتب التى ترجموها بالتفسير والتحليل ، وتولوها بالنقد والتمحيص ، فكشفوا عن الكثير من أخطائها ومواضع الضعف فيها ، وجاء هذا فى ضوء فيض من الخبرات والتجارب التى عاشوها ، ولم تسلم من هذا التمحيص الواعى مؤلفات أئمة الطب القديم من أمثال ابقراط وجالينوس، وخلال تفسير هذا التراث وتمحيصه والكشف عن مواطن القوة ومواضع الضعف فيه ، أضافوا اليه ثروة من الحقائق التى تكشفت عنها دراساتهم التجريبية الواعية ، وكان فى مقدمة هؤلاء الاعلام : أبو بكر محمد بن زكريا الرازى ـ جالينوس العرب فيما كان يسمى ـ وقد كان من عادته ان يدون فى أوراق كل ما يقتبسه من الكتب الطبية التى يقرؤها ، ثم يدمجه ـ متى سلّم به ـ فى فيض من خبراته الشخصية فى مؤلفاته ، وفى مقدمتها «الحاوى»، بل كان لا يفرق بين اقتباساته عن الآخرين ، وملاحظاته السريرية التى استقاها من مرضاه وهم على اسرة المرض ، فكان معجمه الطبى من امهات مصادر الطب حتى العصر الحديث ـ وسنعود الى الحديث عن الرازى بعد قليل .

وكان من اعلام مؤلفى الطب الرئيسى « أبو على عبد الله بن سينا » (ت ٤٢٨ هـ/ ١٠٣٧ م) ابقراط العرب فيما كان يسمى ـ وقد استوعب تراث الأقدمين ونهض بتنسيقه وتبويبه ، وزاده خصوبة وثراء ، وخاصة فى كتاب « القانون » الذى يعد معجما فى مختلف فروع الطب ، ويتميز بالوضوح والدقة والخصوبة ، فكان اكبر مصادر الطب حتى مطلع العصر الحديث فى أوروبا ، **وقد سيطر « ابن سينا » على الطب فى الشرق والغرب قرونا ، وجمد الطب بعده ولم يجازف أحد فى أوروبا بمناقشته زمنا طويلا** ، وان وجد بين أطباء العرب من أمثال البغدادى وابن النفيس (فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر) من ناقشه الحساب . وازدهر الطب العربى وتطور فى المشرق على يد الرازى وتلميذه علي بن عباس المجوسى (٣٥٤ هـ/٩٩٤ م)وابن سينا وفى المغرب على يد أبى القاسم خلف الزهراوى (ت ٤٠٤ هـ/١٠١٣ م) أمير الجراحة فى العصور الوسطى ، وأسرة ابن زهر التى مارست الطب نحو قرن ونصف قرن من الزمان ، وكان أكبر افرادها أبو مروان عبدالملك ابن زهر (ت ٤٨٧ هـ/١٠٩٤ م) وهو يعد اعظم طبيب سريرى ـ بعد الرازى ـ يباشر علاج المرضى فى المستشفيات .

وقد اعتمد هذا الطب العربى على تراث يونانى وهندى وايرانى ، ولكنه كشف عن مصدره العربى الأصلى ، وواصل السير فى آثاره الهامة فى اتجاهه نفسه « وكان فى كثير من الأحيان يوفق فى تنمية النظريات والأفكار المستمدة من الآثار القديمة وشروحها ، وكان فى الأغلب ينشىء صنوفا من الشروح ، ويوسع المبادىء والنظريات القديمة ويبسطها ، مع عرضها فى أكثر الاحيان فى صورة أكثر وضوحا وحذقا ، واعظم دقة وعمقا ... ومن الخطأ ـ فيما يقول الدوميلى ـ أن « نظن ان العرب لم يضيفوا شيئا جديدا الى العلم الذى كانوا أوصياء عليه ، بل على النقيض من ذلك ، واذا كانت خطوات التنمية والانضاج التى خطوها فى هذا السبيل كثيرا ما ضاعت وتفرقت فى الحشد الكبير من الكتب التى تركوها ، فليست تلك الخطوات أقل أصالة ولا أبعد عن الواقع

من أجل ذلك ...)) (٣٢) وفى حديثنا عن الكشوف الطبية العربية ما يشهد بأصالة الطب العربى ويؤكد وجه الجدة والابتكار فيه .

وقد يقتضينا سياق البحث ان نقف قليلا عند اكبر ائمته :

امام الطب العربى : أبو بكر محمد بن زكريا الرازى (٣٣) :

هو أكبر أطباء العصور الوسطى ، وامام الطب العربى غير منازع ، فيما قرر جمهرة المستشرقين (٣٤) وهو جالينوس العرب وطبيب المسلمين غير مدافع — فيما يقول مؤرخ الطب العربى « ابن أبى أصيبعة » ، وقد ظل فى أوروبا الحجة الذى لا ينازع فى الطب حتى القرن السابع عشر ، وذلك فوق أنه كان من أعظم الكيميائيين فى العصور الوسطى ، أن لم يكن منشىء الكيمياء علما تجريبيا (٣٥) وقد تولى رياسة بيمارستان الخليفة المقتدر بالله الذى انشىء عام ٩١٨ م .

وكانت أهم مؤلفاته فى الطب : الحاوى : الجامع الحاصر لصناعة الطب ، وهو دائرة معارف ضخمة تختلف موضوعاتها وتصنيفها باختلاف مخطوطاتها ، لأنه توفى قبل أن يكملها ، فنهض باكمالها تلامذته بعده (٣٦) . وكان أكبر مميزات هذا السفر الضخم أن صاحبه قد ضمنه فيضا من ملاحظاته السريرية (الاكلينيكية) جمعها بطريقته فى مزاولة صناعة الطب ، وممارسته لعلاج مرضاه ، وهم على أسرة المرض — كما اشرنا من قبل — فكان اذا فحص مريضا شخّص مرضه ، وحدّد علاجه ، وأخذ يلاحظ فى دقة سير المرض وتأثير العلاج ، ويسجل ملاحظاته أولا بأول ، ومن أجل هذا قيل **أن التعمق فى دراسة الحاوى تقف الباحث على تاريخ العلاج العلمى فى المستشفيات العربية** ، ويؤيد هذا أن « الرازى » كان برغم تقديره للحكمة التى وعتها بطون الكتب التى خلفها القدماء يؤثر عليها الخبرة الحسية ، ويرفعها فوق نتائج الاستدلالات المنطقية التى لم تمحصها التجربة (٣٧) .

وكانت طريقته تقتضيه أن يستقصى أعراض المرض فى دقة وصبر ، ويحصر الاحتمالات التى تشير الى حقيقته ، ثم يستبعد منها ما توحى خبرته وملاحظاته بضرورة استبعاده ، فاذا رجح عنده أن يكون مرضا بعينه ، وصف له العلاج ، وتتبع سير المرض تحت تأثيره ، وكان التوفيق يحالفه فى أكثر الحالات التى رويت عنه .

وتكفى دراسة الحاوى وحده للكشف عن مميزات صاحبه ، فى مهارته الفنية ودقة ذكائه .

---

(٣٢) الدوميلى : العلم عند العرب ص ١٤٣ — ٤٤ .

(٣٣) ولد ٢٥١ هـ/ ٨٦٥ م ومات ٣١٤ هـ / ٩٢٦ (على غير اتفاق بين مؤرخيه) .

(٣٤) من ادورد براون ، وجورج سارتون ، والدوميلى ، وجاريسون ، واوسلر ، واوليرى ... وغيرهم .

(٣٥) هذا رأى الدوميلى بعد أن سلم برأى جمهرة المحدثين من المستشرقين (من امثال مارسيلان بيرتلو مؤرخ الكيمياء القديمة) فى رفض القول بان منشىء علم الكيمياء هو جابر بن حيان ، لأن جابرا فى رأيهم شخصية خرافية لا وجود لها فى التاريخ . انظر ص ٩٩ وما بعدها فى « العلم عند العرب » .

(٣٦) قيل ان ابن العميد طلب الى اخت الرازى بعد وفاته أن تسلمه مخطوطة الحاوى ، وأغراها بالمال حتى استجابت له ، ثم اجتمع تلامذة الرازى وأكملوا الكتاب على النحو الذى ظهر فيه .

(٣٧) باستثناء قطع نشرها « ماكس مايرهوف » ، أو ترجمها « ادورد براون » أو غيره ، يمكن القول بأن الحاوى لم يقدر له أن ينشر أو يترجم حديثا ، أما فى العصور الوسطى فقد ترجم الى اللاتينية ونشر عام ١٤٨٦ وأعيد طبعه أكثر من مرة فى القرن السادس عشر ، وكان قد ترجمه فرج بن سالم .

ومن اشهر رسائله التى ابدى فيها اصالة وابتكاراً ، رسالته فى الجدري والحصبة ، وقد فطن الرازى نفســــه الى ذلـــك ، فأشار فى مقدمتها الى ان أحداً من القدماء ولا المحدثين ـ اى المعاصرين له ـ قد قال فى هذا الموضوع قولا مُستقصىً ولا كافيا ، فان « جالينوس » وان كان قد عرف الجدرى الا انه لم يذكر له علاجا كافيا ، ولا سببا مقنعا ، ويقول نوبرجر M. Neuberger أن هذه الرسالة تعد من خير المؤلفات العربية ، وأنها احتلت برغم صـــغرها مكانا ملحوظا فى تاريخ الأوبئة ، فوق انها اول رســـالة وضعت عن مرض الجـــدرى ، وهى تكشف عن الرازى طبيبا علميا ذا ضمير حى ، متحررا من المعتقدات القديمة ، وقد وفق فى هذه الرسالة الى التفرقة بين الجدرى والحصبة ، ووصف تشخيصهما وابان عن اعراضـــهما ، واوصى بفحص القلب والنبض والتنفس والبراز فى دقة ، ولاحظ ان ارتفاع الحرارة من عوامل انتشار الطفح ... الخ وليس ادل على قيمة هذه الرسالة من مظاهر الاهتمام الذى صادفته فى الأوساط الطبية فى أوروبا حتى مطلع القرن العشرين (٢٨) .

ووضع الرازى كتاب المنصورى الذى اهداه الى « المنصور بن اسحاق » أمـــير خراسان ، وهو يصغر الحاوى وان فاقه شـــهرة ؛ وقد ضمنه فيما يقـــول فى مقدمته حفظ الصـــحة ومعالجة الأمراض ، وتوابع ذلك ولواحقه مما لا يزال يحدث وتمس الحاجـــة الى معرفته ، ويتسنى لأهل العقل والرأى ان يشاركوا فيه الأطباء ، وقد مهد له بمدخل فى الطب ، وعقب بالحديث عن موضوعات اهمهـــا حفظ الصحة وتدبير المســـافرين ، وصناعة الجبر والجراحات والقروح ، والسموم ، والحميات ونحوها(٣٩) .

وكانت كتب الرازى مع كتب ابن ســـينا مراجع للتدريس فى جامعة لوفان حتى القرن السابع عشر ، تشهد بهذا برامجها عام ١٦١٧ ، ومنها نرى ان حظ المؤلفات اليونانية حتى ذلك العصر كان ضئيلا .

وفى الرازى أصـــالة لا تخفى ، وفى تراثـــه كشوف علمية كان السباق اليها ، وفى حديثنا عن « كشوف طبية عربية » نجد الكثير منهـــا يشهد بوجوه الابتكار والأصـــالة فى انتاجه ، فليرجع اليـــه القـــارىء ليعرف مكانة الرازى طبيبا اصيلا .

هذه لمحة خاطفة عن امام الطـــب العربى ، واعظم أعلامه واخصبهم انتاجا مبتكرا اصيلا .

عصر التدهور :

أخذت الحركة العلمية تتدهـــور فى المشرق العربى منذ مطلع القرن الثاني عشر ، اى بعد نصف قرن من غزوات السلاجقة الأتراك للدولة

(٢٨) وقد نقل هذه الرسالة الى الانجليزية W. A. Greenhill ونشرها بلندن عام ١٨٤٨ تحت عنـــوان A. Treatise on the small-pox & Measles وكان قد ترجمها الى اللاتينية فى عصر النهضة E. Valla ونشر ها فى البندقية عام ١٤٩٨ ، كما نقلها الى اليونانية Jacque Gompyl ونشرها فى باريس ١٥٤٨ ، ثم نشرهـــا مـــع ترجمتها اللاتينية عام ١٧٦٦ J. Channing وكذلك نقلها الى الفرنسية فى باريس عام ١٧٦٣ Jacques Paulet واخرى فى باريس عام ١٨٦٦ للمستشرق لوســـيان لوكلـــير Leclerc و Lenoir وترجمها الى الالمانية فى ليبيزج عام ١٩١١ Karl Opitz .. الخ . ويقول ول ديورنت مؤرخ الحضارات ان فى وسعنا أن نتبين أهمية هذه الرسالة اذا عرفنا انها طبعت بالانجليزية وحدها اربعين مرة بين سنتى ١٤٩٨ و ١٨٦٦ .. !!

(٣٩) ترجم المنصورى الى اللاتينيه ونشر فى العصور الوسطى وفى عصر النهضة الاوربية عدة مرات ، وظل متداولا فى أيدى طلاب الطب فى أوروبا حتى القرن السادس عشر ، ونشر الجزء الاول منه ـ وهو خاص بالتشريح ـ مع ترجمة فرنسية كونبج تحت عنوان P. da Koning., Trois Trantes d'Anatomie Arabe, Leiden, 1903 وترجم W. Brunner القسم الخاص بالـرمد ، ونال به الدكتوراه من برلين عام ١٩٠٠ .

الاسلامية ، ومكن لهذا التدهور نشوب الحرب الصليبية التى اندلعت نيرانها أواخر القرن الحادى عشر ، وحملات المغول المخربة الهدامة التى استولت على عاصمة الدولة الاسلامية عام ١٢٥٨ م فالقوا بآلاف المخطوطات فى نهر دجلة حتى اسودت مياهه من مدادها ، وشكلت جسرا يعبر عليه الناس ! وانهار العلم العربى بانهيار السلطان السياسى للدولة .

واذا كانت نهضه العلم فى المغرب العربى قد تاخرت قرنا ، فان تدهوره جاء بدوره متاخرا عنه فى المشرق العربى قرنا من الزمان ، ومنذ منتصف القرن الثالث عشر توقفت أوروبا عن ترجمة التراث العربى ، الا ما جاء منها على أيدي أفراد ، وسنتعرض الى هذا عند الحديث على « انتقال الطب العربى الى أوروبا » .

ومع هذا فقد ظهرت فى عصر التدهور ، على يد قلة من أفراده ، بوادر ثورة على تراث الفكر القديم ، نذكر فى مجال الطب منها نموذجين كانا فى مقدمة الثائرين ، هما « عبد اللطيف البغدادى » (ت ٦٢٩ هـ/١٢٣١ م) و «ابن النفيس» القرشى المصرى (ت ٦٨٧ هـ/ ١٢٨٨ م) .

فأما أولهما فقد استند الى ملاحظاته الحسية فى تكذيب سابقيه من علماء التشريح ، وفى مقدمتهم شيخهم « جالينوس » الذى استبد باعجاب أطباء العرب واجلالهم ، ومنهم البغدادى نفسه ، ومن ذلك انه رفض زعم « جالينوس » بأن الفك الأسفل عظمان بمفصل وثيق عند الحنك ، بينما دلت مشاهدانه على أنه عظم واحد ليس فيه مفصل ولا درز أصلا ! وقد تحدثنا عن هذا بشيء من التفصيل فى مقال سابق (٤٠) .

واما « ابن النفيس » رئيس أطباء المارستان الناصرى بمصر فقد تحرر من سيطرة جالينوس وابن سينا مع فرط اعجابه بأولهما ، وخطأه فى زعمه أن بين البطين الأيمن فى القلب والبطين الأيسر فتحة صغيرة أو فتحات ، وانتهى من نقده الى وصف للدورة الدموية الصغرى على نحو لم يقل به احد سابقيه ، وسنرى بشيء من التفصيل معالم هذا الكشف العلمي الخطير فى حديثنا عن « كشوف طبية عربية » .

والذى يلفت النظر فى هذه الظاهرة أن يجيء الاعتراض على جالينوس فى عصر التدهور والاضمحلال من ناحية ، ثم فى وصفه لحقائق التشريح ــ الذى كان يعد أمامه الأوحد ــ من ناحية أخرى .

وبعد ، فهذه لقطات خاطفة من ماضى الطب العربى ، تتبعنا فيها بعض معالم تطوره منذ نبت طبا تجريبيا ، حتى اكتمل وازدهر على أسس علمية ، ثم أشرنا الى تدهوره حين ادركه الهرم ، مشيرين خلال ذلك الى العناصر التى تلقاها عن الطب الأجنبى الدخيل الذى اقتحم داره وعاش فى كنفه ، دون أن نغفل العناصر التى استقاها من بيئته ، واستمدها من عبقرية أهله ، ولنقف الآن عند :

٣ ــ مظاهر النضج فى الطب العربى

شارك العرب فى تطور الطب العالمى ، واسهموا فى العمل على انضاجه ، وتركوا بصماتهم على طريق تقدمه وازدهاره ، ومن دلالات هذه المشاركة الايجابية ما وفقوا اليه من كشوف علمية طبية ، وما حققوه له من شرائط « العلمية » بدراساتهم التجريبية، وما أفاده الاوربيون الذين نهلوا من ثمراته ... فلنقف قليلا لبيان ذلك على قدر ما يسمح المقام :

(٤٠) انظر مقالنا : خصائص التفكير العلمى بين تراث العرب وتراث الغربيين ــ فى مجلة عالم الفكر (عدد يناير ــ مارس ١٩٧٣) .

(أ) كشوف طبية عربية

فى تاريخ العلم وثبات بدت فى كشوف علمية أصيلة ، وكان كل منها حدا فاصلا بين عهدين ، وبداية لتطور ناضج ينبض حيــاة ، (٤١) وفى الطب العلمى الحديث عند الغربيين ، وهــو وليد القرن الاخير بوجه أخص ، وثبات تحققت بفضل ما أسفر عنه من كشوف ، واخترع فيه من آلات وأجهزة فتحت آفاق الطب ، ومكنت أهله من ارتياد مجاهله (٤٢) ولكن العصـــور الوســطى لم تكن لتهيىء لأهلهــا ، الا نادرا ، سبل الوثب السريع وأسباب التطور المفاجىء ، واختراع الآلات والاجهزة التى تدفــع عجلة التقدم فى قوة وعنف ، بل ان الأمــة حتى فى عصرنا الحاضر كثــيرا ما تفتقد العمالقة الذين يغيرون وجه العلم باحداث انقلاب فى تاريخه ، ولا يعوقها ذلك عن أن تكــون فى يقظة حيــة وازدهــار علمى يشــيع فى الكثــير من مرافق حياتها ، لأن الزمان لا يجــود بالأئمة العمالقة الا نادرا .

ومع أن العلم العربى عامــة ، والطبى منه خاصة ، كان فى عصره الوسيط ، الذى يعنينا فى هذا البحث ، فى ظــروف لا تهىء لظهــور العملاق الذى يغير وجه العلم ويترك بصماته على تقدمه ، فان تاريخه لا يعدم من الأسماء اللامعة من يرتفع بأصــحابها الى مرتبة الأئمة الذين كشفوا عن صفحات مشرقة وضــاءة ، سبقوا بها زمانهم فى الدنيا كلها بمئات السنين ، وكانت فاتحــة عصر جديد فى طــريق التقدم والرقى .

وفى تاريخ الطب العــربى فتوحات لا تخفى على مؤرخ ، الا اذا أضلته العصبية أو أعماه الهوى ، فقد سبق العرب شعوب الأرض الى تأميم الطــب بعلاج المرضى فى المســتشفيات بالمجان ، ومنحهم من المال والثياب بعد الشفاء ما يعينهم على دور النقاهة ، وكانوا أول رواد الحجر الصحى ، حين سبقوا الى الكشف عن الأمراض المعدية (وسموها بالسارية) والعمل على تفادى انتشارها ، ومعرفةالوباء والتوصية بحصار البلد الذى يظهر فيه ، فلا يخرج منه ولا يدخل اليه احد معافى غير مصاب .

وكان العرب أول من انشأ الصــيدلة علما تجريبيا ، واستعانوا بالكيمياء والنبات اللذين تطورا على أيديهم وتوافرت لها خصائص العلم ، فى ابتكار أدويــة لم تكن معروفة من قبــل ، وتركيبها من أصول نباتية وحيوانية ومعدنية ،

---

(٤١) كقول جاليليو بدوران الأرض ، واسحاق نيوتن الجاذبية ، وتشــارلس داروين بالتطــور ، وكارل ماركس بالصراع الطبقى ، واينشتاين بالنسبية .... الخ .

(٤٢) منها اختراع هنرى لاينك السماعة الطبية عام١٨٦١ وتوماس كليفورد اليات ميزان الحــرارة الصــغير ، وهرمان فون هلمهولتز مرآة تثبت على راس الطبيب لفحصقاع العين عام ١٨٥١ فبدأ طب العيون الحديث ، ومانويل جارسيا منظار الحنجرة عام ١٨٥٤ ووليم اينتهوفن جهاز رسمالقلب وتخطيطه عــام ١٩٠٣ ، وشيفالييه جاكســون منظار الشعب الهوائية عام ١٩٥٨ وفردريك باتينج كشف الانسولينلمرضى السكر عام ١٩٢١ وفيليب درينكر اول رئة صناعية عام ١٩٢٨ وفون لوفنهوك اختراع الميكروسكوب لرؤية الجراثيمعام ١٨٦٣ ولوى باستير نظرية الجراثيم عام ١٨٦٤ وويلهلم رونتجن اشعة × لرؤية العظام ومواضع الأجسام الغريبة فىالجسم عام ١٨٩٥ وفردريك ويلهيلم شتونر لتسكين الآلام بالمورفين مع ضبط جرعته عام ١٨٠٣ ووليم مورتن التخديرالذى يعطل الاحساس بالالم عام ١٨٤٦ وتشارلس برافاز ابرة الحقن لادخال الدواء الى تيار الدم عــام ١٨٥٣ وجوزيفليستر التعقيم لقتل الجراثيم عام ١٨٦٥ ووليم هانتز الكمامة المعقمة عــام ١٨٩١ ، لى دى فورست السكين الكهربــائيلاستئصال الرئة واورام المخ وترقيع قرنية العين وغيرها . وروبرت كوخ فى كشفه لجرثومة الكوليرا فى مصر فى مطلع القرنالعشرين ... وبمثل هذه الكشوف والمخترعات كان الطب العلمى الحديث عند الغربيين خلال مائة السنة الأخيرة بوجهاخص ، انظر فى تفصيل ذلك :

Elizabeth Rider Montagomery, The Story behind Great Medical Dıscoverıes, 1945.

واضافوها الى ما عرفوا من صنوفها عند اليونان والهنود ، فكانوا بهذا السباقين الى ابتداع الأقرباذين Pharmacology الذى نعرفه اليوم ، كما سبقوا الى انشاء الصيدليات ومدارسها .

وسبقوا الغرب فى عصوره القديمة والوسطى فى توفير الأطباء والجراحين ، وكفالة الحياة الكريمة السخية لهم ، بعد أن امتهنهم اليونان قديما وحاربتهم الكنيسة فى العصور الوسطى أطباء وجراحين حتى كانت تصدر بين الحين والحين منشورات تحقر من صناعتهم ، بحجة انها تعاند قضاء الله ! وبصيانة المهنة وابعادها عن الدجل والاحتيال سبق العرب شعوب الارض منذ النصف الاول من القرن العاشر الى فرض امتحان يجتازه من يصلح طبيبا او جراحا ، ومنحه ترخيصا بمزاولة المهنة ، وأنشأوا نظام الحسبة الذى يفرض الرقابة على الأطباء والصيادلة منعا للغش ، وتفاديا للكسب الحرام ، وصيانة لكرامة المهنة ، وقرروا توقيع العقوبة على من يسىء الى مصالح الجمهور .

وكان لهم الفضل فى تحسين المستشفيات ، ورفع مستوى خدماتها ، وفرض نظام دقيق حازم تجرى عليه ، حتى أضحت شبيهة فى عصورها الوسطى بمثيلاتها فى أرقى دول الغرب فى عصورها الحديثة ، وكانت لهم بها فتوحات فى مجال الطب السريرى (الاكلينيكى) الذى انبنى على الملاحظة الدقيقة، وتتبع سير المرض، ورصد نتائج العلاج لمعرفة مدى نجاحه أو مبلغ اخفاقه .

فلنقف قليلا عند نماذج من الفتوحات الطبية التى تحققت على أيدي أعلام الطب العربى :

فأما **الرازى** ــ جالينوس العرب وامام الطب العربى ــ فمن كشوفاته العلمية انه كان السباق الى استخدام امعاء الحيوان فى التقطيب والاكثار من استعمال الفتائل وخيوط الجراحة، ووصف جراحة استخراج الماء الابيض (الكتاركتا) واستخدام المحاجم فى علاج داء السكتة ، ووصف الطاعون وما نسميه اليوم بحمى الدريس Hay Fever وأول من ميز فى دقة بالغة بين الجدرى والحصبة ، وكانت رسالته فى ذلك أول دراسة علمية فى الأمراض المعدية ، وكان أول من ادخل فى الصيدلية الملينات ، وطبق فى الطب المركبات الكيماوية ، واستخدم الزئبق فى علاج الأمراض الجلدية ، وسبق الى الاهتمام بالاحوال النفسية فى تشخيص الأمراض الباطنية وعلاجها ، وكان من رواد الكتابة فى أمراض الأطفال ، وكان أول من فطن الى الاصابة بدودة Guinea Worm واستخدم الحزام ، وعدّ الحمى عرضا لا مرضاً ، وأدخل فى المداواة أساليب جديدة ــ كاستخدام الماء البارد فى الحميات ، وكان أول من كشف « البول السكرى » اذ كان يطلب الى المريض الذى يشتبه فيه أن يبول على رمل ، وينتظر قليلا ، فاذا اجتمع النمل فوق الرمل دل هذا على ان البول سكرى !

وقد أعاد الحياة الى شخص فقد حسه فى شارع فى قرطبة ، وذلك بأن جلد جسمه ، ولا سيما قدميه ، ومع ذلك قال فى رده على الخليفة الذى امتدح براعته انه تعلم هذه الطريقة من اعراب البادية ، وان فضله لا يعدو تشخيص المرض ، الذى يرجح أنه كان ضربة شمس !

وكان فيما سجله فى مشاهداته السريرية (الاكلينيكية) والطرق التى واجه بها صعوبات عمله ، أعظم ــ عند بعض مؤرخيه ــ من جميع سابقيه ، لا يستثنون من ذلك ابقراط وجالينوس !

وبرغم انه كان أعظم اطباء العصور الوسطى غير منازع ، برع فى الكيمياء العلمية حتى عده بعض مؤرخيها منشئها علما تجريبيا ، وفيها استحضر حوامض لا تزال مستعملة حتى يومنا الحاضر (كحامض الكبريتيك) كما

استخرج الكحول باستقطار مواد نشوية وسكرية مخمرة ، واستخدمه فى تحضير الأدوية ... ويطول بنا الشرح اذا توخينا أن نستقصى فتوحاته العلمية .

واما ((**ابن سينا**)) ـ ابقراط العرب فى الطب ، وامامهم فى الفلسفة ـ فقد تمكن بملاحظاته السريرية من أن يصف فى دقة نفيح التجويف البلورى ، وأن يميز بين الالتهاب الرئوى والالتهاب السحائى الحاد ،ويفرق بين المغص المعوى والمغص الكلوي ، وبين شلل الوجه الناشىء عن سبب مركزى فى الدماغ ، وما ينشأ منه عن سبب محلى ، وحدد مختلف أنواع اليرقان وأسبابها ، وكان صاحب الفضل فى علاج الفناة الدمعية بادخال مسبار معقم فيها ، وكان أول من شخص داء الانكلستوما ، اذ يقول الأستاذ الدكتور « محمد خليل عبد الخالق » أستاذ الطفيليات بطب القاهرة « ان ابن سينا هو أول من كشف الطفيلية الموجودة فى الانسان المسماة بالانكلستوما وكذلك المرض الناشىء منها المسمى بالرهفان (أو الانكلسفوما) » كشف ذلك فى الفصل الذى أفرده للديدان المعوية فى كتاب القانون ، ويقول الدكتور أن ما يقرب من نصف سكان المعمورة الآن مصاب بها ، وان مؤسسة روكفلر بالولايات المتحدة قد جمعت ما كتب عن هذا المرض حتى عام ١٩٢٢ فكان خمسين الف مرجع !

واوصى « ابن سينا » بتغليف الحبوب التى يتعاطاها المريض ، وكشف فى دقة بالغة عن أعراض حصاة المثانة السريرية بعد أن أشار الى اختلافها عن أعراض الحصاة الكلوية .

وقد سبق **أبو القاسم الزهراوى** ـ اكبر جراحى العصور الوسطى ـ الى ربط الشرايين فى الجراحات ، وتفتيت رأس الجنين متى كان ضخما ، واخترع منظار المهبل ، وأبان عن طريقة استئصال الحصى المثانية فى النساء عن طريق المهبل ، ووصف استعداد بعض الأجسام للنزيف وعالجه بالكى ، وأجرى جراحات ناجحة فى شق القصبة الهوائية وتفتت الحصاة فى المثانة بالشق والتفتيت ، واستئصال اللوز بسنارة ، ووصف استعمال الجفت لاستخراج المولودين ...

والى **ابن زهر** يرجع الفضل فى جراحات فتح القصبة والكسر والانخلاع ... وقد كان بعد الرازى أعظم اطباء العصور الوسطى اهتماما بالملاحظات السريرية (الاكلينيكيه) وقد قيل انه احتل فى الطب مكان الزهراوى فى الجراحة .

ولنقف الآن قليلا عند أعظم كشف علمي قدر له أن يكون على يد عالمين عربيين :

كشف الدورة الدمويه :

يقوم الطب الحديث على معرفة الدورة الدموية والوقوف على حركتها ، وقد وفق عالمان عربيان الى هذا الكشف الخطير قبل أن يعرفه الاوربيون ببضعه قرون من الزمان ، وهذان العالمان هما الطبيبان : على بن عباس المجوسى (ت ٣٨٤ هـ/٩٩٤ م) وابن نفيس القرتى المصرى (ت ٦٨٧ هـ/١٢٨٨ م) .

تحدث ((**علي بن عباس**)) فى الجزء الأول من « كامل الصناعة الطبية » عن الانقباض والانبساط فى وظائف الجسم الحيوية ، فكشف الدورة الدموية فى الأوعية الشعرية حين قال :

« وينبغى ان نعلم العروق الضوارب فى وقت الانبساط ، ما كان منها قريبا من القلب اجتذب الهواء والدم اللطيف من القلب باضطرار الخلاء ، لأنها فى وقت الانقباض تخلو من الدم والهواء ، فاذا انبسطت عاد اليها الدم وملأها ، وما كان منها قريبا من الجلد ، اجتذب الهواء من خارج ، وما كان منها متوسطا فيما بين القلب والجلد ، فمن شأنه ان يجتذب من العروق غير الضوارب ألطف ما فيها من الدم ، وذلك أن العروق غير الضوارب فيها منافذ الى العروق الضوارب ، والدليل على ذلك ان

العرق الضارب اذا انقطع ، استفرغ منه جميع الدم الذى فى العروق غير الضوارب » وهذا اقرب وصف الى الحقيقة فيما يقول الدكتور خير الله .

اما **ابن نفيس** فقد كان رئيسا لأطباء البيمارستان الناصرى بمصر ، وقد استوعب قانون ابن سينا ومؤلفات جالينوس ، فمثل بهذا روح عصره ، ولكنه مع ذلك كان من الاعتزاز بالنفس واستقلال الفكر بحيث حرر نفسه من تفاليد عصره ، وجاهر بانكار كل مالم تدركه حواسه ، أو يقبله عقله ، ووضح هذا فى كتاب له كان مفخرة العرب ، وان قبع منسيا فى بطون الكتب ثلاثة قرون من الزمان حتى كشفه فى مكتبة برلين شاب مصرى كان يعد دراسة عنه للدكتوراة فى جامعة فريبورخ الألمانية ، هو الدكتور محيى الدين التطاوى ، أما الكتاب فهو « شرح تشريح القانون » الذى توصل فيه ، فى أول ثورة حقيقية على تشريح جالينوس ، الى كشف الدورة الدموية .

ويزعم « ابن النفيس » أنه لم يمارس التشريح اذ يقول « وقد حدّثنا ــ منعنا ــ عن مباشرة التشريح وازع الشريعة ، ومافى أخلاقنا من الرحمة ، فلذلك رأينا ان نعتمد فى تعرّف صور الأعضاء الباطنة على كلام من تقدمنا من المباشرين لهذا الامر ، خاصة الفاضل جالينوس ، اذ كانت كتبه أجود الكتب ... » وهو يقول هذا خشية أن يتعرض لسوء ، لأن التشريح فى عصره كان يعد عند المتزمتين من رجال الدين انتهاكا لحرمة الجسم البشرى ، **فهو يجاهر بأنه لم يعتمد على أقوال أسلافه ، وفى مقدمتهم جالينوس « الا فى أمور ظننا أنها من أغاليط النساخ ، أو أن اخباره عنها لم يكن بعد تحقق المشاهدة فيها ، وأما منافع (وظائف) كل واحد من الأعضاء فانما نعتمد فى تعرفها على ما يقتضيه النظر المحقق والبحث المستقيم ، ولا علينا وافق ذلك رأى من تقدمنا أو خالفه» !**

وتثبت كتاباته أنه مارس التشريح بالفعل ، واعتمد على خبرته فى تخطئة سابقيه ، وفى مقدمتهم جالينوس وابن سينا ، وحديثه عن تشريح العظام والأربطة والقلب والرئة والعروق وغيرها من مكونات الجسم لا يكون بغير مباشرة للتشريح ، **وبه كاد ان يتوصل الى علم لم يكن قد عرف بعد ، هو علم التشريح المرضى (الباثولوجيا)** وذلك عندما لاحظ ان « **تشريح العروق الصغار فى الجلد يعسر فى الأحياء لتألمهم ، وفى الموتى الذين ماتوا من أمراض تقلل الدم كالاسهال والدق والنزف ، وانه يسهل فيمن مات بالخنق ، لأن الخنق يحرك الروح والدم الى الخارج فتنفتح العروق ، على أن هذا التشريح ينبغى أن يعقب الموت مباشرة لتجنب تجمد الدم** » .

وفى غمرة تفنيده لأقوال القدماء كشف الدورة الدموية ، ونفى نظرية جالينوس فى حركة الدم ، وليس فى دورته ، وهى النظرية التى أكملها ابن سينا وعاشت بعده حتى القرن السابع عشر ، وسجلها ليوناردو دافنشى + ١٥١٩ فى لوحاته التشريحية ، أكد بطلان هذه النظرية لأن « **اتجاه الدم عنده ثابت يمر من التجويف الايمن الى الرئه حيث يخالط الهواء ومن الرئة عن طريق الشريان الوريدى (الوريد الشريانى) الى التجويف الايسر » ، وبدت الشرايين عنده منفصلة تماما ، لأن العدسة المكبرة لم تكن قد اخترعت بعد ، ولم تكن الاوعية الدموية قد كشفت ، ولكن ابن النفيس قد مهد لكشفها الذى تحقق بعده بعدة قرون .**

ومؤدى نظرية ابن النفيس أنه « كان يرى أن الدم يأتى غليظا من الكبد الى التجويف الايمن حيث يلطف ، ثم يمر فى الوريد الشريانى (الشريان الوريدى) وهو وعاء غير نابض يتحرك بحركة الرئة حركة معتدلة ، هى سبب غلظ جداره ، ثم يصل الى الرئة حيث ينقسم

الى قسمين : قسم رقيق يصفى من مسام الشريان الرئوى ، وقسم غليظ يتبقى فى الرئة لتغذيتها ، أما القسم الرقيق فانه يختلط بالهواء القادم الى الرئة عن طريق القصبة الهوائية ويدخل الشريان الوريدى (الوريد الرئوى) عبر جداره النحيف وعلة هذه النحافة اولا ضرورتها لتسمح بمرور الدم الرقيق تم كثرة حركتها ، اذ انها كانت ــ فى زعمه ــ نابضة تلقائيا ، بالاضافة الى انها متحركة تبعا لحركة الرئة ، ثم يصل الدم الرقيق المخلوط بالهواء الى التجويف الأيسر حيث تتكون الروح التى تخرج منه الى الأورطة فالشرايين فالانسجة ، أما غذاء القلب فيكون عن طريق أوعيه خاصة تمر فى صميم عضلة القلب » .

هكذا كشف ابن النفيس الدورة الدموية ، ولكن تعاليمه قد اهملت بعده ثلاثة قرون من الزمان ، ثم ظهر خلال واحد وستين عاما من ترجمة كتابه الى اللاتينية (عام ١٥٤٧ م) ثلاثة من علماء أوروبا يصفون دورة الدم فى الرئة بنفس الألفاظ التى استخدمها ابن نفيس، هم : ميشيل سرفيتوس Servitus الأسبانى الذى نشر عام ١٥٥٣ كتابه : Christianismi restitutio وقد أعدم بسببه حرقا ! وريالدو كولومبو استاذ التشريح فى جامعة بادوا الذى نشر عام ١٥٥٩ م رأيه فى كتابه De re Anatomica ثم وليم هارفى Harvey (+ ١٦٥٨) ــ والذى نشر عام ١٦٢٢ كتابه De Motu Cardis ونسبت اليه نظرية الدورة الدموية !

و قد أثبت البحث العلمى ان هؤلاء الرواد من الغربيين لم يهتدوا الى النظرية مستقلين عن ابن النفيس ، ولا مستقلا احدهم عن الآخر، فان كتاب ابن النفيس قد ترجمه الى اللاتينية طبيب ايطالى هو « الباجو » ونشرت الترجمة لأول مرة فى البندقية عام ١٥٤٧ وقد كان هذا على التحقيق مرجع هارفى الذى تعزى اليه اليوم هذه النظرية (٤٣) .

هذه نماذج من كشوف علمية سبق بها أطباء العرب زمانها بمئات السنين ، وبها تركوا بصماتهم على تقدم الطب وتطور الحياة العلمية فى تاريخ البشرية .

(ب) علمية الطب العربى متى وكيف نشأت ؟

استكمل الطب العلمي الحديث مقوماته حين أصبح فرعاً من العلم الطبيعي فى مفهومه عند المحدثين ، وبهذا المفهوم لا تكون الدراسة علما طبيعيا ما لم تتوافر لها هذه الأركان : أن تتخذ الظواهر الجزئية المحسوسة موضوعا لا تتجاوزه الى ما وراءها ، وأن يصطنع فيها منهج تجريبي يستند الى الملاحظة الحسية ، والتجربة العلمية ان كانت ممكنة ، وأن تستهدف هذه الدراسة التجريبية للظواهر الطبيعية وضع قانون عام يفسرها ، وقد اشتد اهتمام المحدثين فى الفترة الاخيرة من عصرنا الحاضر بصياغة القانون العلمي فى صورة رياضية تتحول فيها الكيفيات الى كميات عددية ، تحقيقا للدقة والضبط ــ وذلك أمر كثيرا ما يشق على أهله فى العلوم الانسانية ــ وهذا الى جانب خصائص اساسية يقتضيها هذا المنهج العلمي ، منها موضوعية البحث ونزاهة الباحث ونحو ذلك .

فهل توافرت هذه الخصائص فى دراسات الطب العربي ؟ ومتى وكيف كان ذلك ؟

لقد ظل الطب العربى حتى أواخر العصر الأموى وليد خبرة عملية يزاولها بعض الأفراد ويتوارثها بعدهم جيل بعد جيل ، كان مجرد

(٤٣) عولنا فيما كتبناه عن ابن نفيس بوجه خاص على د. بول غليونجى فى كتابه ، ابن النفيس ، وبحثه المنشور فى العدد الاول من المجلد الاول من تراث الانسانية ــ القاهرة يناير ١٩٦٣ .

ملاحظات ومعلومات متفرقة حول أمثلة فردية معينة ، لا ترقى الى وضع قواعد عامة تندرج تحتها هذه الظواهر الفردية ، ولا يصطنع فى دراستها منهج علمى تجريبي يمنع البحث فيما وراء الظواهر المحسوسة مما لا يدخل فى نطاق العلم ، فلما اتصل العرب بالطب الأجنبى الدخيل ــ ولا سيما ما كان منه عند اليونان فى عصر بني العباس ، كان منهج الدراسة استقرائيا علميا ، وتحولت المعلومات الطبية ــ وكثير غيرها من المعارف ــ الى علوم لها مقوماتها وشرائطها ، وكثرت المؤلفات التي اصطنع فيها دارسوها المناهج العلمية ، فتجاوزوا عن طريقها الوقائع الجزئية الى وضع قواعد لتفسيرها ، وقد لفتت هذه الظاهرة انظار بعض القدماء من مؤرخي العرب ، ولو كان تقنين المعلومات المفرقة أو تقعيدها مما عرفه العرب ما استرعت هذه الظاهرة أنظار هؤلاء المؤرخين القدماء ، ذلك أن اتصال العرب بالطب الأجنبي الدخيل قد بدأ بأطباء منهم درسوا فى مدرسة جند يسابور فى فارس ــ منهم « يوحنا بن ماسويه » الذى كان أول من شرّح جثث القردة فى الاسلام ، و « حنين بن اسحاق » شيخ المترجمين ، كما بدا هذا الاتصال باستقدام أساتذة من هذه المدرسة الى بلاط الخلفاء ، منذ أيام المنصور تاني خلفاء بني العباس ــ كأسرة بختيشوع التي استمرت نحو ثلاثة قرون ــ وقد أشرنا الى أن أساتذة هذه المدرسة كانوا من اليونان والهنود ، وأنهم جميعا كانوا يجيدون اليونانية حتى يتسنى لهم الاطلاع على كتب اليونان فى صناعة الطب ، وأن مستشفاها بما كان يمارس فيه من علاج ودراسة وتدريب للأطباء كان المثل الأعلى لأطباء العرب منذ مطلع العصر العباسي ، وفى هذه المدرسة تفاعل علم اليونان والسريان والفرس والهنود ، وأن هذا كله كان له صداه فى الطب العربي فيما بعد ، كما أشرنا الى أن المترجمين منذ القرن الأول من خلافة العباسيين ، قد اتجهوا الى ترجمة الكتب الطبية من اليونانية الى السريانية ، ومن السريانية الى العربية ، فكان طب اليونان وخاصة طب « ابقراط » و « جالينوس » أعظم نبع نهل منه أطباء العرب . واذا كانت جند يسابور قد بدأت تفقد أهميتها كمدرسة للطب فى عصر المأمون فقد كان خلفاء المسلمين وأمراؤهم وأهل اليسار منهم يوفدون بعوثا الى مواطن الطب العلمي فى اليونان خاصة لجمع المخطوطاتالطبة وترجمتها الىالعربة.

فماذا لاحظ قدماء مؤرخي العرب فى ذلك ؟ وما الذى استرعى نظرهم مما كان غريبا على التراث العربى ؟ لاحظوا ما أشرنا اليه من قبل، من أن هؤلاء **كانوا يستخدمون المنهج العلمي الذى يمكن الباحث من أن يعلو فوق الوقائع الجزئية الى القانون العام . كانوا يتخطون الملاحظات التجريبية التى تؤدى اليها الحاجات العملية ، ويستهدفون المبادىء ويستندون الى البرهان .**

يقول « حاجى خليفة » (ت ١٠٦٧ هـ / ١٦٥٨ م) فى « كشف الظنون » أثناء حديثة عن النساطرة الذين اشرفوا على مدرسة جند يسابور : « ولم يزل أمرهم يقوى فى العلم ويتزايدون فيه ويرتبون **((قوانين)) العلاج** على مقتضى امزجة بلدانهم ، حتى برزوا فى الفضائل وجماعة يفضلون علاجهم وطريقتهم على اليونانيين والهنود لأنهم اخذوا فضائل كل فرقة ، فزادوا عليها بما استخرجوه من قبل نفوسهم ، **فرتبوا لهم ((دساتير وقوانين))** وكتبا جمعوا فيها كل حسنة » ولا نضيف الى هذا ما قاله الغربيون فى نشأة « العلم » عامة عند اليونان (٤٤) وربما أمكن الاستشهاد على صحة هذا بما لاحظه بعض المستشرقين عما يميز التأليف فى العصر العباسي ، فمن ذلك أن

(٤٤) انظر فى بيان هذا الاتجاه كتابنا ((اسس الفلسفة))ط ٥ ص ٣٨ وما بعدها .

« ماكس مايرهوف » يقول عن كتاب « دغل العين » الذى صنفه « يوحنا بن ماسويه » انه أول كتاب عربي منظم فى علم الرمد ، مع أن العرب والسريان وغيرهم قد كتبوا الكثير من الكتب فى هذا المجال . وأوضح من هذا قوله عن كتاب « حنين بن اسحاق » « العشر مقالات فى العين » : **انه أقدم مؤلف اصطنع المنهج العلمي فى طب العيون »** .

واذا كان جالينوس قد استهدف تحويل الطب الى علم دقيق ، شبيه بعلم الفلك والعلوم الرياضية ، فان « حنين بن اسحاق » هو الذى طبع اللغة العربية بطابع الاسلوب العلمي على عهد العباسيين ... فيما يقول هذا المستشرق (٤٥) ، ويزيد « الدوميلي » فيقول عن الكتاب السالف الذكر ان أهميته مردها الى أنه أول كتاب وصل الينا فى الرمد ، لا من الحضارة الاسلامية فحسب بل من العصر اليوناني القديم كذلك ، وليس أيضا لأنه يوضح لنا نظريات القدماء ، بل لأنه يزودنا بجميع الموضوعات المتصلة بالعين وأمراضها على وجه التقريب (٤٦) .

والناظر فى المؤلفات الطبية فى ذلك العصر ، وخاصة فى مرحلة الانتاج الأصيل ، يجد فيها فيضا من الشواهد التي تشهد بصدق ما نقول ، وسنعرض بعض نماذج لهذه الظاهرة .

من هذا المنطلق بدأت دراسات العرب فى الطب وغيره من مجالات المعرفه تتسم بطابع علمي ، باصطناعها منهجا تجريبيا يفرض قصر الدراسة على الوقائع الجزئية عن طريق الملاحظة الحسية ، ويستهدف وضع قاعدة عامة لتفسيرها ، وقد اقتضاهم هذا ان ينظروا الى المرض كظاهرة طبيعية تنشأ عن علل طبيعية ولا ترتد الى الشياطين أو الارواح الخبيثة، كما يتوهم عامة الناس فى الشعوب المختلفة بوجه أخص ، ولا ترجع ظاهرة المرض الى عقاب من الآلهة فيستحيل علاجها الا بارضائها ، أو يحرم علاجها لأن علاجها مقاومة لارادة الله ، كما ظنت الكنيسة فى أوروبا فى عصورها الوسطى ، وقد تادى المنهج العلمي بالعرب الى استبعاد الخوارق والغيبيات فى تفسير الأمراض والكشف عن أسبابها ، ووضعت الدولة نظام الحسبة لمحاربة الدجالين والمشعوذين الذين يعتمدون على الأوهام ويستغلون سذاجة الدهماء ، وفرضت امتحانا يجتازه الطبيب ومنحت لمزاولة المهنة ترخيصا .

وفى هذا الطب العربي تمزقت الصلات التي كانت تربطه بالفلسفة من ناحية وبالدين من ناحية أخرى ، وذلك من حيث انه اعتمد على الملاحظة الحسية وليس على مجرد التأملات العقلية والاستدلالات المنطقية ، وكان الاسلام منذ البداية قد حارب طب الكهانة ولم يجعل الطب من عمل رجال الدين ، وجاهر المستنيرون من المسلمين ـ من أمثال ابن خلدون ـ بأن الطب النبوى نفسه ، لم يصدر عن وحي الهي، وانما هو من رأى النبي (ص) فى شأن من شئون الدنيا ، ومن ثم تعرض للصواب والخطأ، ولا يمنع هذا ـ عند ابن خلدون ـ من ان يستعمل « على جهة التبرك وصدق العقد الايماني ، فيكون له أثر عظيم النفع » وهذه ملاحظة طبية ، اذ أن المريض المؤمن الذى يستجيب لوصايا الطب النبوى ، يستعين على الشفاء بايمانه ، والملاحظ ان الطب الحديث فى أيامنا الحاضرة يستعين فى علاج المرض بطرق سيكولوجيه تستند الى الايحاء .

---

(٤٥) مقدمة ماكس مايرهوف لكتاب العشر مقالات العين وخاصة ص ٥٧ و ٦٢ و ٦٦ .

(٤٦) الدوميلى : العلم عند العرب ص ١٤١ .

ولم يقنع اطباء العرب باصطناع الملاحظة الحسيه فى دراساتهم الطبية ، وانما زادوا فأجروا التجارب العلمية فيما تيسر فيه اجراؤها ، ومن أمثلة ذلك : أن « ابن سينا » قد فطن الى ما نسميه اليوم بكيس الثلج ، اذ أصابه ذات يوم ألم فى رأسه تصور معه أن مادة توشك أن تهبط الى حجاب رأسه ، وانه لا مأمن من ورم يدركه ، فطلب كمية كبيرة من الثلج ، وقام بدقه ثم لفه فى خرقة وغطى بها رأسه فامتنع الألم وعوفي مما أصابه .

وتوصل « ابن زهر » الى تجربه يسرت تعاطي المسهلات ، وذلك أن الخليفة **عبد المؤمن** كان فى حاجة الى مسهل ، ولكنه كان يضيق بشرب الأدوية المسهلة ، فمضى « ابن زهر » الى كرمة فى بستان ، واكسب الماء الذى يسقيها قوة الدواء المسهل الذى وصفه له ، فلما أثمرت عنبا كانت له قوة ذلك الدواء ، فأتاه بعنقود منها وطلب اليه أن يأكله ، فلما فعل قال له « ابن زهر » : حسبك هذا يا أمير المؤمنين ، فقد أكلت عشر حبات من العنب وهي تخدمك عشرة مجالس ... وكان أن استراح الخليفة مما به .

وكان أطباء العرب فوق هذا كله يتوخون الصبر فى ملاحظة الحالات التي درسوها ، ويحرصون على الدقة فى تسجيلها ورصد نتائجها ، ويلتزمون موضوعية البحث ويتمسكون بنزاهة الباحث ، وفى ضوء هذا المنهج العلمي خلفوا لنا وثائق سريرية اكلينيكية مستمدة من ملاحظاتهم لمرضاهم وهم على أسرة المرض ، وذلك كله بالرغم من جهلهم بنوعية الآلات والأجهزة التي اخترعت بعدهم ، وقفزت بالطب العلمي الحديث فى أيامنا الحاضرة قفزات واسعات (٤٧) .

ومن شواهد الكتابات العلمية التى تعالت على الحالات الجزئية المعينة ، واستهدفت تقعيد المعلومات المفرقة نقتبس هذين النموذجين اللذين احتفظا بصواب حقائقهما حتى اليوم :

يقول « الرازى » فى احتباس البول : « البول يحتبس اما لأن الكلى لا تجذبه ، وعلامته أن يكون البول محتبسا وليس فى الظهر وجع تقيل ولا فى الخاصرة والحالب ، ولا المثانة متكورة ، ولا فى عنق المثانة ضرب من ضروب السدة على ما نستبين ، وأن يكون مع ذلك البطن لينا ، وقد حدث فى البدن ترهل واستسقاء وكثرة عرق » .

« وأما الذى يكون من الكلى فيكون محتبسا وفيها المرض ، وذلك اما لورم أو حجر او علق دم أو مِدَّة ، ويعمه كله أن يكون الوَجَعُ فى البطن مع فراغ المثانة ، الا انه ان كان حصاة ظهرت دلائل الحصاة قبل ذلك ، وان كان ورما حارا كان مع الوجع شيء من ضربات » .

« وان كانت أوجاع الكلى فانما هي ثقل فقط ، وان كان ورما صلبا لم يحتبس البول ضربة ، لكن قليلا قليلا وكان تقل فقط ، وان كان علق دم ومِدَّة فيتقدمه قرحة ، وان كان احتباسه من أجل مجارى البول من الكلى فتكون المثانة فارغة ، والوجع فى الحالب ، حيث هذا المجرى ، مع نخس ووخز ، فان وجع المجرى ناخس لا تقيل ، وعند ذلك استعمل سائر الدلائل فى الكلى » .

« وان كان من قبل المثانة فاما أن يكون لضعفها عند دفع البول ، فعند ذلك فاغمز عليه والمثانة متكورة ، فان لم يدرَّ فالآفة فى رقبة المثانة ، وحينئذ استعمل الدلائل المذكورة » .

« وان كان الورم حادا فى هذه المواضع تبع ورم المثانة حمى موصوفة ، وورم الكلى حمى

---

(٤٧) انظر نماذج منها فى الهامش الذى كتبناه فى مطلع حديثنا عن « كشوف طبية عربية » .

موصوفة ، وقد ينضم مجرى رقبة المثانة من انضمام يقع له ، ويكون للبرد واليبس ، ومن تؤلول يخرج فيه ، ويكون قليـلا قليلا ، وقد تفسد هذه المجارى بخلط غليظ ، وعلاج ذلك التدبير الغليظ » .

هذه كلها قواعد عامة توصل اليهـا الرازى من غير شك بمشاهدات وتجارب استفرقت جهدا بالغا ، أما عن مدى صحتها من الناحية الطبية فحسبنا ان نشير الى أن الدكتور محمد كامل حسين الأستاذ بطب القاهرة قـد نقل هذا النص وهو فى معرض القول بأن العرب قد ابتدعوا فى الطب علم التشخيص المقارن الذى كان « الرازى » السباق اليه ، وعقب الدكتور على النص بقوله « واكثر هذه الفقرة يفيد منه كل طبيب حتى الأطباء المعاصرون » (٤٨) .

ونسوق شـاهدا آخـر على « علميـة » الدراسات الطبية العربية من « ابن سينا » ، اذ وصف فى الجـزء التاني من قانـونه حصى المثانة السريرية بعد أن اشـار الى اختـلاف الأعـراض فى الحصى الكلويـة عنها فى الحصى المثانية ، فقال :

« يجب أن نتأمل ما قلناه فى حصاة الكلية ، تم ننتقل الى تأمل هذا الباب ، وقـد علمت الفرف بين حصاة المثانـة وحصـاة الكليـة فى الكيفية والمقدار ، وبالفرق بين الحصاتين كانت الكلوية ألين يسـيرا ، واصـفر واقـرب الى الحمرة ، والمثانية أصلب وأكبر جدا واقرب الى الدكنة والرمادية والبياض ، وان كان قد يتولد فيها حصاة متفتتة ، والمثانية تتميز فى الأكثر بعد انفصال . واكثر من تصيبه حصاة المثانة نحيف ، وفى الكلية بالعكس ، والصبيان ومن يليهم تصيبهم حصاة المثانه » .

« ونقول ها هنا ايضا أن البول فى حصـاة المثانة الى بياض ورسوب ليس بأحمر ، بل الى بياض أو رمادية ، وربما كان بولا غليظا زيتي الثقل واكثره يكون رقيقا وخصوصافى الابتداء ، ولا يكون ايجاع حصاة المثانة كايجاع حصـاة الكلية ، لأن المتانة مخلاة فى فضاء الا عند حبس الحصاة للبول ، فان وجعه يشتد عند وقوعها فى المجرى ، والخشونة فى حصاة المثانة اكثـر لأنها فى فضاء يمكن أن يتركب عليها ما يخشنها، ولذلك هي أعظم لأن مكانها أوسع ، وقد يتفق أن يكون فى مثانة واحدة حصيتان أو اكثر من ذلك ، فيتساحج ويكتر تفتيت الرملية ، وقد يكون مع الرملية تخالي لانجراد سـطحها عن الحصاة الخشنة ، ويدوم فى حصاة المثانة الحكة والوجع فى الذكر ، وفى أصله وفى العانة مشاركة من القضيب للمثانة ، ويكثر صـاحبه العبث بقضيبه خصوصا اذا كان صبيا ، ويدوم منه الانتشار ، وربما تأدى ذلك الى خروج المقعدة والى الحبس والعسر ، مع أن ما يخرج بقوه لانحفازه عن ضيق وعن حافز نقيل وراءه . وربما بال فى آخره بلا ارادة ، وكلما فـرغ من بول يبوله ، اشـتهى أن يبـول فى الحـال . والمتقاضي لذلك هو الحصـاة المسـندفعة استدفاع البول المجتمع ، وكتيرا ما يبول الدم لخدش الحصاة خصوصا اذا كانت خشـنة كبيرة ، وكثيرا ما تحبس ، فاذا استلقى المحصو وأشيل وركاه وهز ، زالت الحصاة عن المجرى ، واذا غمز حينئذ فى العانة انزرق البول ، وهذا دليل قوى على الحصاة ... والحصاة الصغيرة أحبس للبول من الكبيرة لأنها تنشب فى المجرى ، وأما الكبيرة نقد ترول عن المجـرى بسرعة ، واعلم أن حصاة المتانة تكتر فى البلاد الشمالية وخصوصا فى الصبيان » .

---

(٤٨) أثر العرب والاسلام فى النهضة الاوربية فى فصل الطب والأقرباذين ص ٢٩٧ ـ ٩ .

هذا الفيض من الحقائق العامة تجاوز فيه « ابن سينا » الأمثلة الفردية الى قواعد عامة ، استغرق التوصل اليها سيلا من المشاهدات التجريبية ، ويكفى فى التدليل على دقتها الطبية البالغة أن يقول طبيب محدث وهو الدكتور خير الله تعليقا على هذا النص « ويصعب علينا فى هذا العصر أن نضيف شيئا جديدا الى هذا الوصف » (٤٩) .

ومثل هذين الشاهدين كثير ، وكلها شاهدة على أن أطباء العرب قد اصطنعوا المنهج العلمي فى دراساتهم ، فاستندوا الى الملاحظة الحسية والتجربة العلمية، وتوصلوا من دراسةالوقائع الفردية الى قواعد عامة تندرج تحتها الحالات الجزئيه ، وتمكنوا بهذا من التوصل الى حقائق يشهد المتخصصون من المعاصرين بصوابها حتى اليوم .

وفى ضوء ما أسلفنا نستطيع أن نقول الآن ان الطب العربي وان كان قد نشا فى بيئته العربية الاسلامية . واستقى من ينابيعها ونما فى كنفها ، الا أن اتصاله بالطب الدخيل اليوناني والهندى والفارسي ــ فى حركة الترجمة التي بدأت مع مطلع العصر العباسي ــ هو الذى أفاد أطباء العرب فى اصطناع المنهج العلمي فى دراساتهم ، ورفع معلوماتهم الطبية الى مرتبة العلم الدقيق ، ومكنهم من أن يتجاوزوا فى دراساتهم الحالات الجزئية المفردة الى وضع قواعد عامة تندرج تحت كل منها مجموعة من الحالات المتشابهة .

ولكن بين المعاصرين من مؤلفينا من يظن أن هذا التحول فى الطب العربي شأنه فيها شأنه فى العلوم الدينية واللغوية ، كان وليد تطور طبيعي للفكر العربي دون تأثر بالثقافات الأجنبية الدخيلة (٥٠) ، **ونبادر فنقول انه لا خلاف بيننا وبين أصحاب تلك الدعوة فى أن العلوم العربية ــ الدينية واللغوية بوجه أخص ــ قد نشات ونمت فى بيئتها قبل أن تؤثر الثقافات الأجنبية فيها ــ كما قلنا من قبل ــ ولكن الخلاف هو فى « علمية » هذه العلوم ، بالمفهوم الذى شرحناه فيما سلف .**

---

(٤٩) د.امين اسعد خير الله : الطب العربى ص ١٥١ ــ٥٢ .

(٥٠) فلننظر زميلنا الدكتور شوقى ضيف الذى يقولوهو يؤرخ لعلوم اللغة والدين (تاريخ الادب العربي ج ٣ ط ٢ ص ١١٨ وما بعدها) : ان العرب قد ارسوا قواعدالعلوم العربية والدينية باصولها المستقرة ومناهجها الواضحة قبل أن يتصلوا بالثقافات الاجنبية . والدكتور محمد كاملحسين الذى يقول (اثر العرب فى النهضة الاوربية ص ٢٧٠ ــ ٧١) ان العرب قبل اتصالهم ــ بالثقافات الاجنبية « كانتلهم علومهم الخاصة بهم ، ساروا فيها شوطا كبيرا ، ووضعوا لها أصولا مستقرة ، ومناهج واضحة ، وكان هذا من عملهموحدهم على غير مثال ... » ولتفنيد هذا الاتجاه نقتبس من الدكتور شوقى نفسه ، قوله ان الخليل بن أحمد مؤسسالنحو العربى ، كان « يتقن المنطق الذى ترجمه صديقه ابن المقفع وما يتصل به من القياس ... » ص ١٢٢ ــ ٢٣ وانالبصرة التى وضعت أصول النحو قد احتكمت فى ذلك « احتكاما شديدا الى القياس » ص ١٢٤ ــ ويقول انالشافعى واضع علم أصول الفقه كان اول رائد « للاتجاه العلمى الذى لايكاد يعنى بالجزئيات والفروع ... بل يعنىبضبط الاستدلالات التفصيلية باصول تجمعها ، وذلك هو النظر الفلسفى » ــ وهو دخيل على العرب ــ وقد كانالشيخ الأكبر الاستاذ مصطفى عبد الرازق يستعرض اقوال المستشرقين (من أمثال كارادى فو ، وجولد تسيهر) ومؤداهاان علم الفقه تاثر فى تكوينه بعناصر اجنبية ، ثم يورد اقوال علماء الاسلام (من أمثال ابن خلدون وابن قيم الجوزية) فىرد هذا العلم الى عناصر اسلامية دون ملاحظة التاثير الاجنبى فيها ، ثم يقول معقبا : « حتى لقد انتهى علم اصول الفقه بانجمع من مسائل المنطق وابحاث الفلسفة والكلام شيئا غير قليل ... على ان هذا لا يمس ما قررناه من أن النظر العقلىنشأ أصلا من أصول التشريع فى الاسلام يؤيده ويحميه . » (التمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية ص ٢٣٠ و ٢٤٥ ثم١٢٤ ــ ١٣٥) وفيما قلناه فى متن الكلام ما يكفى تعليقا على هذا الهامش .

ونقول اخيرا : ما الضير في أن نعترف بأن العرب في مطلع نهضتهم الفكرية قد تلقوا عن غيرهم ، وأفادوا مما أخذوا ؟ اننا نعلم أن العرب في العصر الذهبي لنهضتهم قد سددوا هذه الديون مضاعفة واعطوا أوروبا اضعاف ما أخذوا عنها ، فانتقل التراث العربي الى أوروبا في مطلع يقظتها منذ النصف الثاني من القرن الحادى عشر ـ كما سنعرف عندما نتحدث عن ((انتقال الطب العربي الى اوروبا)) وهذه هي طبيعة النهضات العالمية ، يتفاعل بعضها مع بعض ويعيش كلها بين أخذ وعطاء ، تأثر وتأثير ... واستقراء تاريخها أعدل شاهد على صدق ما نقول .

(ج) انتقال الطب العربي الى أوروبا .

اجتاحت القبائل الجرمانية المتوحشة روما عاصمه الدولة الرومانية الغربية في أواخر القرن الخامس ، فانطفأ مشعل الحضارة في أوروبا بضعة قرون من الزمان ، بينما ظهر الاسلام في المشرق العربي ابان القرن السابع للميلاد ، ونشر طيلسانه على صقلية وأسبانيا وغيرهما في العالم الأوروبي ، ومنذ منتصف القرن الثامن اتصل أهله في حركة الترجمة بتراث بناة الحضارة من الأمم القديمة ، وسرعان ما ازدهرت في ظله حضارة ناضجة كانت مركز الاشعاع الفكرى ومصدر النور في الدنيا كلها فترة طويلة من الزمن .

وقد عبرت الحضارة العربية الى أوروبا من ثلاثة طرق : احتكاك الغرب بالشرق في الحروب الصليبية ، وبحركة الترجمة التي نشأت في صقلية ، وبحركة أخرى في بلاد الأندلس كانت أوسع مدى وأغزر مادة واطول عمرا .

(١) في الحروب الصليبية

من الباحثين الغربيين من رد الى الحروب الصليبية يقظة الغرب التى تلتها في المحيط الاجتماعي والديني والسياسي والثقافي ، وكان من هؤلاء «هن أم راين» Henne am Rhyn وهانز بروتز Hans Brutz الذى رد الى هذه الحروب وحدها تقدم أوروبا في الفترة الواقعة بين عامي ١١٠٠ و ١٣٠٠م (٥١) .

وحقيقة ان اتصال الغربيين بالشرق في الحروب الصليبية قد أثار دهشتهم بازدهار الحضارة العربية واعجابهم بتقدم العلوم ونضج أهلها ، ومكن من تأثير العلم العربي في قلة من المفكرين من أمثال اديلار أوف باث الذى كان نشاطه بين سنتى ١١١٦ ـ ١١٤٢م ونقل الى اللاتينية الكثير من كتب العرب ، لكن الواقع أن جمهرة المحاربين من هؤلاء الغربيين كان همهم الانتصار على أعدائهم والاستحواذ على بلادهم ، ثم هم كانوا في الأغلب والأعم من أهل الحرف الذين تعوزهم الثقافة ، بل ان هؤلاء الصليبيين لم يفكروا حتى في اقامة مدارس يعلمون فيها أبناءهم ،برغم الأمد الطويل الذى استغرقته حروبهم ! ومع انهم كانوا يدهشون لبراعة أطباء العرب ، ويستدعون منهم من يقوم بعلاج قادتهم ، فانهم لم يفيدوا من ازدهار الطب العربي أكثر من ذلك . **وأقصى ما نستطيع افتراضه من تأثير الحروب الصليبية في مجال الطب هو أن نقرن قيام مدرسة الطب في مونبلييه بالتجارة التي تبودلت بين جنوبي فرنسا وسواحل بحر الروم الشرقي** ـ فيما يقول باركر أستاذ السياسة

(٥١) يأخذ المستشرق ارنست باركر E. Barker على أصحاب هذا القول (١) خطأ القول بعلة مفردة واحدة تفسر كل ما أعقبها من أحداث مع اغفال تأثير صقلية واسبانياعلى النحو الذى سنعرفه بعد قليل . (٢) وخطأ القول بأن حادثا سابقا هو بالضرورة علة ما بعده من أحداث ـ وذلك فيفصل كتبه عن الحروب الصليبية في كتاب تراث الاسلام ، وترجم الفصل د.على احمد عيسى .

بجامعة كمبردج ــ وسنعود الى الحديث عن هذه المدرسة عندما نتحدث عن حركة الترجمة فى بلاد الأندلس .

حركة الترجمة فى صقلية :

أخذ العرب فى غزو صقلية منذ عام ٨٢٧م واستولوا على الجزيرة كلها عام ٨٧٨م وأخذوا ينشرون حضارتهم فى ربوعها حتى انحسر عنها سلطانهم عام ١٠٩٢م على يد ملوك النورمانديين الذين لم يكونوا أقل من حكام العرب تسامحا فى الدين ، وكفالة للعلم ورعاية لأهله ، وفى مقدمة هؤلاء « روجار الثاني » الذى حكم بين سنتي ١١٣٠ و ١١٥٤ م واقترن اسمه بأكبر جغرافي عربي هو « الشريف الادريسي » ، ثم حفيده « فردريك الثاني » + ١٢٥٠ الذى استبد به الاعجاب بحضارة العرب فتشبه بهم فى عاداته وأساليب حياته ، وكان يقرأ كتبهم فى أصولها ، لأنه كان ملما بالعربية الى جانب الألمانية والفرنسية والايطالية واللاتينية واليونانية ! وقد أنشأ عام ١٢٢٤م **جامعة نابلي** لنقل العلم العربى الى العالم الغربي وسرعان ما أضحت مركز الاهتمام بالثقافة العربية ، وفيها وضعت ترجمات مختلفة من العربية الى اللاتينية والعبرية ، وبتشجيعه زار « ميخائيل سكوت » طليطلة عام ١٢١٧ ونقل الكثير من الكتب العربية .

واهتم فردريك الثاني **بمدرسة سالرنو** التي سنشير اليها بعد قليل ، وسن لها لائحة تفرض على الطبيب الا يزاول الطب فى مملكته بغير ترخيص رسمي منها ، فكانت هذه أول لائحة جادة فى أوروبا ! وتخصصت مدرسة سالرنو فى الطب وأضحت كتب العرب الطبية مصادر دارسي الطب فى أوروبا حتى مطالع العصور الحديثة .

وكانت صقلية تنهل من ينابيع عربية ولاتينية ويونانية ، لكن الصدارة فى العلوم عامة وفى الطب خاصة كانت لثقافة العرب .

وجاء أول تأثير للطب العربي فى اوروبا اواسط القرن العاشر فى مدرسة سالرنو (٥٢) السالفة الذكر ــ موطن ابقراط أبي الطب اليوناني القديم ، ومن الطريف أن الطب العربي قد عرف طريقه الى هذه المدرسة عن طريق تاجر عربي من قرطاجنة ــ بتونس ــ درس الطب العربي وجمع كثيرا من مخطوطاته ، وأبحر بها الى جنوبي ايطاليا واستقر فى سالرنو ، بعد ان غرقت بعض مخطوطاته فى عاصفة هاجمته أثناء رحلته ، واعتنق المسيحية وأسمى نفسه « قسطنطين الافريقي» + ١٠٨٧م (٥٣) واعتكف عام ١٠٥٦م فى دير وانهمك فى ترجمة مخطوطاته الطبية من العربية الى اللاتينية ــ لغة أوروبا العلمية اذ ذاك ــ فكانت ترجماته نواةمدرسة سالرنو وتخصصها فى الطب .

وعلى هدى ذلك الرائد سار تلميذه يؤانس افلاكيوس + ١١٠٣م وغيره ممن حاولوا أن يمزجوا بين طب العرب والنصوص اليونانية الرومانية المتوارثة .

وانتشر خريجو سالرنو فى أوروبا ، فخف

---

(٥٢) قيل انها نشات على شاطيء صحى مشمس ،وان مستشفى قد انشاته بها طائفة البندكت اواخر القرن السابع ، وان مدرسة للطب قد نشات بها فى منتصف القرن التاسع ، وان لم يعرف الطب الحقيقى طريقة اليها قبل مطلع القرن الحادى عشر ، وتميزت مدينة سالرنو من غيرهامن المدن الأوربية بحرية الفكر وعلمانية الدراسة والتحرر من فيود اللاهوت .

(٥٣) مع أن قسطنطين لم يكن عالما ولا ذا دراية كافيةباللاتينية ، وكانت ترجماته اقرب الى التلخيص منها الى الترجمة الدقيقة ، وقد نقل من العربية قسما كبيرا من كامل الصناعة الطبية لعلى بن عباس ، وزاد المسافرين لابن الجزار ، وطب العيون لحنين بن اسحاق ، وكثيرا من كتب اسحاق الاسرائيلى فى البول والحميات والادوية المفردة وغيرها ، وترجم كذلك نصوصا عربية ترتد الى اصول يونانية .

فريق منهم عام ١١٦٠م الى جنوبي فرنسا واستقر كثيرون منهم فى مونبلييه التي خلفت سالرنو بفضل تحررها من سلطة الكنيسة ، ونزوعها العلماني ، ومنها تسلل الطب الى باريس وغيرها من المدن الاوروبية .

وظلت مدرسة سالرنو قائمة حتى القرن الرابع عشر حين أخذ نجمها يأفل ، وفى مطلع القرن التاسع عشر أغلقها نابليون (٥٤) ، وخلفتها **پادوا** ، بفضل ما تميزت به من تسامح ديني وحرية فكرية فسيطرت على الطب فى أوروبا ابان القرنين الخامس عشر والسادس عشر .

ويدأ بذلك تأثير الطب العربي فى توجيه الطب الاوروبي وتجديد مصطلحاته ، كما تمثل فى كتب التشريح فى مدرسة سالرنو بوجه أخص ، وكما لوحظ فى الأدوية التي كان للعرب فضل انتقائها ، بل بدا فى غير هذا من مجالات الطب وفروعه ، فأثرت جهود قسطنطين ومدرسة سالرنو وآتت أكلها فى انحاء أوروبا كلها .

٣ ـ حركة الترجمة فى بلاد الاندلس

عبر العرب الى أسبانيا عام ٧٠٩ ولم ينحسر سلطانهم عنها الا بسقوط آخر مملكة عربية فى غرناطة عام ١٤٩٢م ـ اى بعد خروج العرب من صقلية بأربعمائة عام تماما ـ وخلال هذه القرون الثمانية انتشرت حضارة العرب المزدهرة فى ربوع البلاد ، وفرضت اللغة العربية نفسها على المفكرين بوجه خاص ، وكفل حكام العرب التسامح الديني ، وبسطوا رعايتهم على أهل العلم من جميع الملل ، وحذا ملوك الأسبان ـ حين استردوا بلادهم ـ حذو العرب فى كفالة التسامح مع من ليسوا من أهل ملتهم ، وكانوا يقاتلون العرب وهم يجلون علماءهم ، ويكنون الاعجاب بحضارتهم .

وقد بدأ اتصالهم بتراث العرب برحلة قام بها الى قرطبة « جريرت » الذى ولي عرش البابوية باسم « سيلفستر الثاني » ، اذ قضى فى أسبانيا ثلاث سنوات (٩٦٧ ـ ٩٧٠م) استهوته خلالها أسرار العلوم العربية وكنوزها .

ومع ذلك فان المحدثين من مؤرخي الأسبان ينكرون أثر التراث العربي فى أسبانيا ، ويخطّئون الرأي الذى شاع فى أوائل القرن التاسع عشر وبالغ فى خطورة الدور الذى قام به العرب فى بلاد الأندلس ، وكان من أسباب هذا ميل الباحثين ـ تحت تأثير الجامعات الفرنسية والأمريكية ـ الى الارتداد بكل شيء الى أصول لاتينية ما أمكن ذلك ، ولم يوفق الباحثون ـ من أمثال « ميشيل آسين » Miguel Asin « وجوليان ريبيرا » Julian Rebera بكل دراساتهم القيمة الى تغيير هذا الموقف (٥٥) .

لكن يبدو أن الاسلام قد أثر فى كل مرافق الحياة فى أسبانيا ابان القرن العاشر ، وبسقوط طليطلة ـ وسنتحدث عنها بعد قليل ـ أخذ يشيع تأثيره فى كل أوروبا ، اذ كانت طليطلة مركز الثقافة الاسلامية فى القرن الحادى عشر بعد أن خرب البربر قرطبة أوائل ذلك القرن ، واحتفظت بمكانها حتى بعد أن غزاها « الفونس السادس » عام ١٠٨٥م فاصطبغ بلاطه بالثقافة الاسلامية كما كان بلاط « فردريك الثاني » فى

---

(٥٤) وكان من الكتب الطبية التى نقلت الى اللاتينيةفى حركة الترجمة فى صقلية : كتاب الحاوى للرازى ، والطب التجريبى المنسوب الى جالينوس ـ وكان قد نقله الىالعربية حنين بن اسحاق ـ وكتاب جراحة ماسويه وتقويم الأبدان فى تدبير الانسان لابن جزله ، وابقراط فى الطبالبيطرى .

(٥٥) J. B. Trend فى فصل عن أسبانيا والبرتغالفى كتاب تراث الاسلام The Legacy of Islam الذى صدر عام ١٩٢٧ وترجمته الى العربية لجنة الجامعيين لنشر العلمبالقاهرة عام ١٩٣٦ ـ وهذا الفصل من ترجمة د.حسين مؤنس .

بالرمو بعد ذلك بقرنين ، بل أعلن الفونس هذا نفسه امبراطور العقيدتين ! ونشطت فى طليطله حركة علمية جعلتها قبلة طلاب العلم فى كل انحاء أوروبا .

ووضحت الحركة العلمية فى طليطلة منذ أن استدعى رئيس أساقفتها المونسنبير « ريموند » (١١٢٦ - ١١٥١م) العلماء والمهرة فى اللغات ،وأنشأ ديوانا لترجمة التراث العربي ليكون فى متناول طلاب العلم من الأوروبيين ، وجعل على رأس المدرسة كبير الشماسة أرشيدوق سيجوفيا « دومنيك جنديسالفوس » Dominic Gundisalvus وزاد فأدخل الدراسة بالمدارس ، واستمرت حركة الترجمة نشيطة من العربية الى اللاينية منذ القرن الثاني عشر حتى الرابع عشر ، بل الى ما بعده ، وفيها نقلت أوروبا كتب العرب التي كانت تتضمن التراث اليوناني مع شرحه والتعليق عليه ، وزاد النور توهجا فى عهد « الفونس الخامس » (الحكيم) + ١٢٨٤ م ملك قشتالة واكبر دعاة الثقافة العربية فى أسبانيا المسيحية ، وزاد فأغرى المترجمين بأن ينقلوا الى القشتالية التي اصبحت لغة اسبانيا الحديثة .

وكان اشهر المترجمين من العربية فى طليطلة « جيرار الكويموني » + ١١٨٧م الذى خلف « جنديسالفوس » على رياسة الديوان ، ويرجح « الدوميلي » أنه كان رئيسا معترفا به لمدرسة من المترجمين باشرت نشاطها فى طليطلة تحت رعاية الحكومة ، وبهذه الجهود كلها أضحت طليطلة مدينة العلم والنور .

وفى ظل هذه الحركة التي اتسعت آفاقها وعمق نشاطها وطال أمدها ترجمت من العربية الى اللاتينية كتب طبية كثيرة لابن ماسوية والرازى وابن سينا ، وأبي القاسم الزهراوى وعلي بن يونس المصرى وكثيرين غيرهم ، كما ترجمت من العربية الى العبرية أو القشتالية « زاد المسافرين » تم « الأقرباذين » لابن الجزار ، « والأقرباذين وتدبير الصحة والأخلاق المنحول » لجالينوس ، و « طب العيون » لعمار بن علي وغير ذلك كثير .

ونشأت فى أوروبا مدارس طبية تقيم دراساتها على الكتب العربية المترجمة الى اللاتينية ، ويبدو هذا فى **مدارس مونبلييه ، ونابلى ، وبولونيا ، وبادوا ، واكسفورد ، وكمبردج** ، وغيرها . وقد اسس أولاها (مونبلييه) أطباء العرب المطرودون من اسبانيا، واصبحت معهدا للدراسات الطبية المؤسسة على تعاليم ابقراط وجالينوس ، وان كان المظنون أن النصوص التى رجعوا اليها كانت فى البداية مترجمة عن نسخ عربية ، ولم تستخدم فيها كتب الطب العربى الا فى بداية القرن الرابع عشر . ففى عام ١٣٠٤ ترجم كتاب « قوانين الأدوية المسهلة » لابن رشد عن نسخة عبرية ، وفى عام ١٣٤٠ ادخل الشطر الاول من قانون « ابن سينا » فى المنهج الرسمى المقرر على المرشحين للدرجات العلمية فى الطب ، وعندئذ تضمنت المحاضرات الدراسات الطبية عند العرب ، ولبث هذا حتى عام ١٥٦٧ حين استبعدت كتب الطب العربى من قائمة الكتب المقررة للامتحان فى مدارس الطب ، على اثر شكوى تقدم بها الطلاب انفسهم ! وان كان المحاضرون قد ظلوا يعتمدون على قانون « ابن سينا » حتى عام ١٦٠٧م - فيما يروى ديلاسى أوليرى O'Leary فى كتابه عن « الفكر العربى ومكانه فى التاريخ» .

وقريب من هذا يقال فى أثر الطب العربى فى المدارس التى نشأت فى أوروبا وتشيعت للثقافة العربية وتأثرت بكتبها المترجمة عن العربية .

ومن طريف المفارقات أن يكون مقدرا للعلم العربى أن يسود أوروبا المسيحية على يد رجال دين من الكنيسة التى أشعلت فى ذلك العصر

نفســه نيران الحــروب الصليبيــة ، باسـم المسيحية التى كان أظهر وأسمى مافيها دعوتها الى المحبة والمسالمة !!

وكان مرد حركة الترجمة عن العربية الى أمرين : أولهما : ازدهار الحضارة العربيــة وتفوقها على ماعداها فى سائر أنحاء أوروبا فى ذلك العصر ــ وهو أمر كان من الوضوح بحيث لم يستطع ان تتنكر له الكنيســة نفســها ، وكانت فى ذلك الوقت ذات ســلطان واســع النطاق ، ممدود الرحاب . وثانيهما : تطلع أوروبا الى احياء تراث أجدادهم من اليونان ، وكانت اليونانيه مجهوله فى الغرب كلــه ، مع استثناء صقلية ومدن فى الدولة البيزنطية ــ الرومانية الشرقية ــ الى أن استولى الأتراك على عاصمة الدولة البيزنطية ــ القسطنطينية عام ١٤٥٣ م ففر منها علماء اليونان الى شمالى أوروبا مذعورين ، ومعهم مخطوطاتهم اليونانية، وأخذوا يعلمون طلاب العلم اليونانية وثقافتها.

ومن الحـق ان نقـول مع « الفرد جيوم A. Guillaume » لو ان العرب كانوا برابرة كالمغول الذين أطفأوا جـذوة العلم فى الشرق اطفاء لم ينبعث بعدهم أبدا ، وقد لاينبعــث أبدا (٥٦) ، بسبب ضياع دور الكتب وفقدان الآثار الأدبية ، لو أنهم كانوا كذلك لتأخر عصر الاحياء فى أوربا عن موعده بأكثر من قرن ... وسوف نرى عندما نخرج الى النور الكنوز المودعة فى دور الكتب الاوربية أن تأثير العرب الخالد فى حضارة العصور الوسطى ، كان أجل شأنا وأكبر خطرا مما عرفناه حتى اليوم (٥٧) .

هذه لمحة الى أهم مظاهر النضج فى الطب العربى ابــان عصــوره الوسطى ، بكشــوفه العلمية التى كان للعرب فضل الســبق الى ابتداعهــا ، وبالنزعة العلميــة التى سرت فى دراساته ، فى عصر لم تكن علميــة العلم قــد استوفت شرائطها ، مما شد انتباه الغربيين فجدوا فى نقل كنوزه الى لغاتهم ، واتخذوا منه زادا لتراثهم ، وسراجــا يضيء مسيرهم فى طريق التقدم .

* * *

---

(٥٦) خيب الله توقعات هذا المستشرق، فالمغول أطفأوامصباح العلم فى الشرق عام ١٢٥٨م عند استيلائهم على بغداد عاصمة الدولة الاسلامية حينذاك ، وشاء اللــه أن يظــلمصباح العلم مضاء بعد ذلك فى دمشق وفى القاهرة وفى كثير من حواضر الشرق ، حتى استيقظ الشرق كله وأضيئت فيهمصابيح العلم ، فى عصرنا الحديث .

(٥٧) فى فصل عن الفلسفة والالهيات فى كتاب تراثالاسلام ــ السالف الذكر ــ والفصل مــن ترجمــة توفيق الطويل .

مصادر البحث

* ابن ابى اصيبعة (أبو العباس احمد بن قاسم) : **عيون الأنباء فى طبقات الأطباء – جزءان (نشرة ماكس ميلر – القاهرة ١٣٠٠ هـ) .**

* ابن جلجل (سليمان بن حسان الأندلسى) : **طبقات الأطباء والحكماء – تحقيق فؤاد السيد – مطبعة المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية – القاهرة ١٩٥٥ .**

* القفطى (جمال الدين بن يوسف) : **اخبار العلماء باخبار الحكماء – الخانجى – القاهرة ١٣٢٦ هـ .**

* ابن النديم (محمد بن اسحاق) **فهرست العلوم (طبعة فلوجل) القاهرة ١٣٤٨ هـ .**

* ابن البيطار (ضياء الدين عبد الله بن احمد الاندلسى) : **الجامع لمفردات الأدوية والأغذية – ٤ أجزاء القاهرة ١٢٩١ .**

* حنين بن اسحاق : **العشر مقالات فى العين – نشره وترجمه الى الانجليزية ماكس مايرهوف – المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٩٢٨ .**

* ثابت بن قرة : **الذخيرة فى علم الطب – نشرة د . جرجى صبحى – المطبعة الاميرية بالقاهرة – الجامعة المصرية ١٩٢٨ .**

* عبد اللطيف البغدادى – **الافادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بارض مصر – القاهرة .**

* علي بن عباس المجوسى : **كامل الصناعة الطبية (أو الكناشة الملكية – جزءان القاهرة – ١٨٧٧ م) .**

* ابن سينا : **القانون فى الطب .**

* الرشيدى : **عمدة المحتاج فى علمى الأدوية والعلاج – ٤ أجزاء – القاهرة ١٢٨٢ هـ/١٨٦٥ م .**

* **د .** التجانى الماحى : **مقدمة فى تاريخ الطب العربى – مطبعة مصر بالخرطوم ١٩٥٩ .**

* **A. A. Khairallah,** Outline of the Arabic Contribution to Medicine and the Allied Sciences, Beirout, 1946.

ترجمة د . مصطفى أبو عز الدين : الطب العربى – بيروت ١٩٤٦

A. Issa, Histoire de la Bimaristan Islamique.

والنسخة العربية : تاريخ البيمارستانات فى الاسلام – جامعة فؤاد الاول – كلية الطب – القاهرة ١٩٤٤ .

* **الطب والاقرباذين** للدكتور محمد كامل حسين فى **كتاب أثر العرب والاسلام فى النهضة الاوربية – باشراف اليونسكو – الهيئة المصرية العامة للتاليف والنشر بالقاهرة ١٩٧٠ .**

* د . بول غليونجى : **ابن النفيس (العدد ٣٧ من سلسلة كتب أعلام العرب – بالقاهرة) (بغير تاريخ) .**

الكتاب الذهبى للمهرجان الألفى لذكرى ابن سينا – **جامعة الدول العربية الادارة الثقافية . القاهرة ١٩٥٢ .**

George Sarton, An Introduction to the History of Science (Cambridge Institution of Washington — London, 1931).

المجلد الثاني من الجزء الثاني .

Aldo Mieli, La Science Arabe et son role dans l'evolution Scientifique Mondiale (Leiden, 1934).

ترجمة د . عبد الحليم النجار ، د . محمد يوسف موسى : العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي (القاهرة ١٩٦٢) .

ولعل هذين الكتابين (سارتون والدومييلي أقيم المصادر الأجنبية جميعها)

Will Durant, The Story of Civilization, Vol. IV (age of faith)

E. Browne, Arabian Medicine, University Press, Cambridge 1921.

وقد ترجمه الى الفرنسية H. P. J. Renaud **تحت عنوان :**

La Médicine Arabe, Paris, Larose, 1933.

D. Campbell, Arabian Medicine and its influence on the Middle ages, Kegan Paul, London, 1926.

Lucien Leclerc, Histoire de la Medicine Arabe, 2 Vols., Paris 1876.

Milton-Simpson, M. W., Arab Medicine and Surgery (Oxford University Press, London, 1922.

Castiglioni (Arturo), A History of Medicine
ترجمه عن الايطالية E. B. Krumbhaar **طبعة ثانية لندن ١٩٤٧ .**

Sigerist (H. E.), History of Medicine, N.Y. Oxford University Press Vol. I, 1951.

* * *

ارنولد توينبي

صدقي عبدالله حطاب *

لعل خير مفتاح لشخصية **ارنولد توينبي** هو بيت من الشعر للكاتب المسرحي الروماني **تيرنس** (١٩٥ ــ ١٥٩ ق.م) في روايته ((**معذب نفسه**)) ردده توينبي في كتابه ((**تجارب**)) ثلاث مرات في اماكن متفرقة من الكتاب وهو ((**انني انسان ، ومن ثم فليس هناك شيء انساني لا اشعر انه يهمني**)) .
والحقيقة ان توينبي ــ باجماع الاراء ــ بحر زاخر بالمعرفة الشاملة ، ومثل فريد في القرن العشرين ، قرن التخصص . ولا يقتصر الأمر في معرفة توينبي على الاطلاع الواسع وحده ، وانما هناك جانب آخر للمسألة وهي غزارة الانتاج . ولقد اصدر توينبي بضع عشرات من الكتب اهمها سفره الرائع ((**دراسة للتاريخ**)) وقد احصى الاستاذ السوفييتي **كوسمينسكي** في كتابه ((**فلسفة التاريخ عند الاستاذ توينبي**)) عدد صفحات المجلدات العشر الاولى من الكتاب فقال انها تبلغ ٦ر٢٩٠ صفحة فيها ٣ر١٥٠ر٠٠٠ كلمة ، فاذا اضفنا الى هذه المجلدات المجلد الحادي عشر الذي اصدره في عام ١٩٥٩ بالتعاون مع **ادوارد مايرز** وعدد صفحاته يربو على ٢٥٠ صفحة والمجلد الثاني عشر (١٩٦١) الذي تزيد صفحاته على ٦٧٤ صفحة (عدا عن الفهارس والببليوجرافيا) لوجدنا ان هذا الكتاب الضخم يربو عدد صفحاته على سبعة الاف صفحة .

---

* **الاستاذ صدقي حطاب ، يعمل في المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب في الكويت . ترجم عددا من الكتب النقدية والمسرحية والمقالات .**



ارنولد توينبي

ولقد لاقى ظهور هذا الكتاب وموجزه الذى وضعه **سمرفيل** حماسا كبيرا لدى جمهور المثقفين وان كان قد لقى ـ المؤلف ـ عنتا كثيرا من عدد من المؤرخين . **يقول كوسمينسكي عن ظهور الكتاب :**

« لقد قابلت الصحافة البورجوازية ظهور **« دراسة للتاريخ »** و **« الموجز »** بحماس ، واصبح توينبى نبي الاذاعة والصحافة . وأثارت محاضراته التي القاها في الاذاعة البريطانية فى برنامج « محاضرات ريث » عام ١٩٥٢ ضجة . وقام توينبى بعدد من الرحلات الى امريكا ليحاضر هناك .. واعتبرته مجلة لوك اعظم مؤرخ معاصر ، وان اسمه يتمم قائمة المؤرخين التى بدأت **بهيرودوتس** . وقارن حواريو توينبي « مكتشفاته » بمكتشفات **كوبرنيكس وجاليليو ونيوتن وداروين** . وشبهوا منهجه فى دراسة التاريخ باكتشاف نظرية الكم فى الميكانيكا . واعتبر اليوم الذى تظهر فيه أية كتابات له « يوما مشهودا فى تاريخ الحضارة الغربية » وقد حيي توينبي لا على انه مبدع فهم جديد تماما للتاريخ فحسب ، وانما ايضا على اعتباره نبيا عظيما يرشد البشرية الى الطريق المؤدية الى مستقبل افضل » . (١)

واذا كان هذا ما لاقاه توينبي من حماس فى الثلاثينات وفى الاربعينات وفى الخمسينات ، فان المتحمسين له لم ينتهوا ، فقد صدر فى عام ١٩٧٢ كتاب بعنوان **« ارنولد ج. توينبي : مؤرخ لعصر متأزم » لرونالد سترومبيرج .** يقول فى مقدمته :

« ان توينبي سيذكره الناس على اعتبار انه المؤرخ العظيم لعصرنا ـ حقبة حروب القرن العشرين العالمية ـ وكما ان **جيبون وماكولي وبوركهارت** مثلوا عصورهم ، فان توينبي سيمثل عصرنا للاجيال القادمة .. ليس هناك من مؤرخ فى هذا العصر ينافسه فى المجال الواسع وفى الاسلوب وفى الموضوع وفى المنزلة الرفيعة التى يحتلها . ان انشغاله باضمحلال الحضارات ، وتمكنه المدهش من قدر كبير جدا من المعرفه ، حول جميع حضارات العالم يجعل منه شخصية من شخصيات القرن العشرين حيث تقترن الكفاءة الفنية بالانهيار الاجتماعي . » (٢) ويرى **باتريك جاردنر** « ان نظام توينبي وهو فلسفته فى دراسة التاريخ ، يمثل ـ بدون شك ـ اكبر اسهام قام به القرن العشرون فى ميدان التأمل التاريخى . ومن ثم فقد اصبح مركزا للجدل والنقاش ، وتركز فيه الكثير من المعارضة العامة للمشروعات والخطط التأملية التي برزت بشكل واضح فى السنوات الاخيرة » (٣) .

لقد شغل توينبي ـ وما زال ـ المؤرخين وعلماء الاجتماع وفلاسفة التاريخ كثيرا بما كتب (٤) ، ولقد كان سعيدا بكل ما كتب عنه من نقد ، فهو يقول فى مقدمة كتاب صدر بعنوان **« غاية تاريخ توينبي »** ويضم عددا من الدراسات التي كتبها عدد من العلماء حول تاريخه « ان

---

(١) Y. Kosminski, Professor Toynbee's Philosophy of History crisis, Moscow, 1965. pp. 3-4.

(٢) Ronald N. Stromberg, Arnold J Toynbee : Historian for an Age in Crisis, Southern Illinois University Press, 1972. p. XIII.

(٣) Patrick Gardner, " Speculative Systems of History ", Encyclopedia of Philosophy (Collier-Macmillan, 1967) Vol. 7, p. 521.

(٤) خصص توينبي المجلد الثاني عشر من تاريخه ـ يقع فى ٧٤٠ صفحة ـ لمناقشة نقاده ومراجعة آرائه . واورد فى هذا المجلد الذى صدر فى عام ١٩٦١ ببيليوغرافيا لما كتب من نقد لكتابه الكبير تقع فى ١١ صفحة . وصدرت فى مجلة History and Theory العدد الرابع (١٩٦٤) ببيليوغرافيا تضم عشرين صفحة عما كتب عن توينبي فى اللغات الغربية ما بين ١٩٤٦ و ١٩٦٠ .

المؤلف مدين لكل ناقد ، حتى الناقد الذي يهدف الى سلخ فروه الرأس ولا يريد زيادة المعرفة . ان مثل هذا الناقد الذي يسعى الى سلخ فروة الرأس يقدم لضحيته على الافضل تحية عندما يعطي شيئاً من وقته واهتمامه لعمل هذا المؤلف ، فليس سلخ فروة الرأس اسوأ مصير يمكن ان يلقاه المؤلف ، ان تجاهله اسوأ بكثير من هذا المصير » (٥) .

وعرف القارىء العربي توينبي من خلال مواقفه المشرفة في تأييد القضية الفلسطينية ، والتنديد بالصهيونية ، ومما ترجم له من مؤلفات ــ وان كان عددها لا يتجاوز العشرة .

وسنحاول في هذا المقال اعطاء صورة عامة عن حياة توينبي ، وعن انجازاته الضخمة ، وعن مواقفه الانسانية .

بالرغم من اننا نجد نتفا متناثرة عن حياة توينبي في كتبه الكثيرة ، الا ان هناك ثلاثة كتب منها تتحدث عن حياته : الاول من هذه الكتب هو المجلد العاشر من كتابه « **دراسة للتاريخ** » وهو بعنوان « الهامات المؤرخين » وفيه يتحدث عن المؤرخين الذين أفاد منهم ، ومن هؤلاء **ابن خلدون** (٦) **وابن الطقطقي** من المؤرخين العرب . والكتاب الثاني هو كتاب « **معارف** » الذي صدر في عام ١٩٦٧ . والكتاب الثالث هو كتاب « **تجارب** » الذي صدر في عام ١٩٦٩ ، وهذان الكتابان الاخيران هما الاساس الذي اعتمدنا عليه في الترجمة لحياته .

ولد ارنولد جوزيف توينبي في لندن في ١٤ ابريل (نيسان) ١٨٨٩ ، من اسرة تنتمي الى الطبقة الوسطى المثقفة ، فقد كان والده يعمل موظفا في شركة الشاي ، وامه حصلت على درجة البكالوريوس في التاريخ من جامعة كيمبرج . اما جده لابيه فقد كان اول طبيب في لندن يتخصص في الاذن والحنجرة ، وأول طبيب يأخذ جنيهين للاستشارة الطبية بدلا من جنيه واحد . وقد كان رائدا في الصحة العامة وفي التخدير . وقد مات في شرخ شبابه وهو يجري على نفسه تجارب التخدير ، ولم يترك وراءه مالا كبيرا . اما جده لأمه فقد كان مخترعا في مجال السكك الحديدية ، وحاول ان يجد مصدرا لتمويل مخترعاته ، الا انه فشل فأثر ذلك عليه ومات مبكرا دون ان يترك مالا كثيرا . ويحمد ارنولد توينبي المقادير التي جعلته يلد لآباء غير اغنياء ، لان ذلك كان سيحول بينه وبين الانتاج الغزير ، فالطبيعة البشرية ــ كما يقول توينبي ــ حتى ولو توفرت لها نزعة اصيلة نحو فن من الفنون او حرفة من الحرف لا تميل عادة الى بذل جهد كبير اذا عرفت ان لديها من الامكانات المادية ما يجعلها تحيا حياة مريحة بدون مجهود . وصحيح ان الضمير والطموح قد يكونا حافزين بديلين ، ولكن لابد من ان يكونا قويين اذا اريد لهما ان يكونا حافزين فعالين ، وهذه حالات نادرة . فان وخز الحاجة ــ كما يرى صاحبنا ــ حافز لا يمكن الاستغناء عنه عند معظمنا (٧) .

---

(٥) Edward T. Gargan, ed., The Intent of Toynbee's History (Loyola University Press, Chicago 1961) p. IV.

(٦) يذكر توينبي ابن خلدون في مواضع كثيرة من كتابه « دراسة للتاريخ » ويفرد له في المجلد الثالث سبع صفحات (٣٢١ ــ ٣٢٧) وفي المجلد العاشر اربع صفحات (٨٤ ــ ٨٧) ويرى ان ابن خلدون قد « تصور في مقدمته ووضع فلسفة للتاريخ هي بلا مراء أعظم عمل من نوعه ابتدعه عقل في أي مكان او زمان » المجلد الثالث صفحة ٣٢٢ .

(٧) Arnold J. Toynbee, Acquaintances (Oxford, 1967) الصفحات ٣ ، ٤ ، ٥ .

ويحدثنا توينبى عن فضل امه عليه ، التي جعلت منه مؤرخا عندما اذكت فيه حب التاريخ (٨) ، وكانت صحبتها له صحبة فكر به ساحره (٩) ، والفت كتابا مدرسيا فى التاريخ. وكان تأثر عمه هارى عليه قويا بآرائه المتحررة وشخصيته القويه .

درس أرنولد فى مدرسة داخلية فى وينون كورت ، حيث قضى فيها ثلاث سنوات ، ثم التحق بكلية ونتستر ، حيث امضى فيها خمس سنوات (١٩٠٢ ــ ١٩٠٧) وفاز فى نهاية دراسته الثانوية بمنحة دراسية ، مكنته من مواصلة دراسته الجامعية فى جامعة اكسفورد (١٩٠٧ ــ ١٩١١) حيث درس التاريخ القديم ، وعين فى تلك الجامعة بعد تخرجه ، وارسلته جامعة اكسفورد للدراسة فى المدرسة البريطانية للآثار فى اثينا (١٩١١ ــ ١٩١٢) فقضى هناك عاما واحدا ورجع بعد ذلك الى جامعته (١٠) .

تلقى توينبي تعليما ممتازا فى الموضوعات الكلاسيكية (ونقصد بها التاريخ اليوناني القديم والتاريخ الروماني واللغتين اليونانيه واللاتينية وآدابهما) وتتلمذ على يد استاذ الادب اليوناني القديم **جلبرت مرى** . وقد درس ارنولد اللاتينية وهو فى السابعة من العمر ولمدة خمسة عشر عاما ، ودرس اليونانية القديمة وهو فى العاشره ولمدة اثني عشر عاما . وقد أتقن هاتين اللغتين اتقانا تاما ، حتى انه نظم فيهما قصائد اوردها فى القسم الثالث من كتابه « تجارب » ، كما ان العبارات اللاتينيه واليونانية ترد كثيرا فى كتابه **« دراسة للتاريخ »** دون ان يحاول ترجمتها (وقد اخذ عليه بعض النقاد ذلك) . واستطاع ان يتعلم فى المدرسة وفى الجامعة اللغات الفرنسية والالمانية والايطالية واليونانية الحديثة ، وان يلم بالتركية (وبالعربية فيما بعد) .

ويتحدث ارنولد عن اثر هذه الثقافه

---

(٨) M. F. Ashley Montagu, ed., Toynbee and History . Critical Essays and Reviews (Porter Sargent Publisher, Boston, 1956) p. 8

راجع ايضا المجلد العاشر من « دراسة للتاريخ » صفحة ٢١٣ .

(٩) Arnold Toynbee, Experiences (Oxford, 1969) p. 194.

(١٠) يعطى توينبي اهمية كبيرة لهذه الفترة التى قضاها فى اليونان ، ويستخدم فى تسميتها الكلمة الالمانية Wanderjahr ــ وتعنى سنة ينفقها المتدرب مسافراً لتحسين مهاراته قبل أن يشرع فى عمله ــ ويتحدث عنها طويلا فى كتابه « تجارب » (من صفحة ١٨ الى صفحة ٢٩) ويرى انها كانت تكملة لثقافته الاغريقية ، وانها كانت سببا فى نقله من عالم اليونان والرومان القديم الى عالم القرن العشرين . يقول توينبي :

« كنت أمشى من قريه لقريه ، وانفق الليل فى قرية اخرى ، وامضى المساء ــ قبل أن آوى الى فراشى ــ فى دكان القرية الذى كان بمثابة ناد للرجال يؤمونه بعد عودتهم الى منازلهم اثر عملهم نهار يومهم فى الحقول او المراعى . وكنت اصغى مساء اثر مساء الى الاحاديث التي كانت تدور فى دكان القرية ، وفى النهاية بدأت اشارك فى هذه الاحاديث بعد أن ازدادت معرفتي بلغة الفلاحين اليونانية الحديثة تدريجيا . وفى هذا المكان حصلت على ثقافتي اليونانية غير المنتظرة المتصلة بشئون العالم المعاصر ــ وهي ثقافة حملتني بعد ذلك الى مؤتمرى السلام فى باريس ، واهلتني لمدة ثلاث وثلاثين سنة لان اكون احد مؤلفين تعاونا فى اصدار مسح للشئون الدولية عن دار شاتام » « تجارب » صفحة ٢٩) .

ولقد ظل حب السفر صفة ملازمة لتوينبي طوال حياته ، لانه يرى ان السفر يجب ان يسبق كل شيء عند من يدرس الشئون الانسانية . اذ ان الناس والمجتمعات البشرية لا يمكن فهمها بمعزل عن بيئاتها ، ولا يمكن فهم بيئاتها الجغرافية بطريق غير مباشر («تجارب» صفحة ٩٩) وهو يرى ان امتع وسيلة للسفر أبطؤها ، اى ان الحمار خير وسيلة لمن يريد ان يعرف ما حوله من العالم ، وامتع الدروب اوعرها ، ولقد قال أحدهم عن توينبي انه رحالة دربه المفضل شعاب الجبال التي تسلكها الماعز . وقد ألف توينبي عددا من الكتب يصف فيها اسفاره ، وهي من أمتع ادب الرحلات .

الكلاسيكيه عليه فيقول انها « منحتني موقعا عقليا خارج نطاق الزمان والمكان الذى صدف ان ولدت فيهما ، وقد انقذنى هذا من الافراط فى تقدير اهمية الحضارة الغربية الحديثة . كما اكتسبت من هذه التربية الكلاسيكية ايمانا دائما بان الشئون الانسانية لا تصبح مفهومة الا اذا نظر اليها كوحدة ومن تم كرست حياتي كلها للوصول الى رؤية شاملة للشئون الانسانية » .. وبفضل تأثير هذا التعليم الكلاسيكي على صار مذهب القرن التاسع عشر فى التخصص لا يعنى لى شيئا .. وقد علمتني تربيتي ان ارى الحضارة اليونانية الرومانية كوحدة ، وقد حاولت ان اوسع افقي التاريخي بانتظام . وحاولت ان ادخل ضمن رؤيتى وضمن عملي جميع المجتمعات الاخرى .. وحاولت مثل ذلك فى الفلسفات وفى الاديان العليا (١١) » (تجارب ص ١٠٦ ـ ١١١) .

ويرى نقاد توينبي انه ينطلق فى دراسته للحضارات الاخرى ، ووضعه القوانين لنموها وفنائها ، من ثقافته الكلاسيكية ومن تجربة الحضارتين اليونانية والرومانية ، وهي تجربة محدودة زمانيا وجغرافيا ومن ثم فانها لا تصلح لان تكون المقياس الذى يقيس به الحضارات الاخرى او يصدر بوحي منها الاحكام حولها . غير ان توينبي لم يستعرض فى دراسته الحضارتين اليونانية والرومانية وحدهما ، وانما تناول احدى وعشرين حضارة كما سنأتي الى ذلك فيما بعد .

ومن الكتب التي اثرت فى ثقافه توينبي « الكتاب المقدس » وقد اثر فيه تأثيرا عميقا جدا ، **واجاممنون** لاسخيلوس ، **وفاوست** لجيته (ومنه استوحى فكره التحدى والاستجابة فى سيره التاريخ وتنوع الحضارات) كما تأثر بافلاطون وبشكسبير وملتون وشيلي ، وبالعالم النفساني يونج ، وبالفيلسوف الفرنسي برجسون ، ويفرد توينبي فى المجلد العاشر من تاريخه بلابين صفحة (٢١٣ ـ ٢٤٢) تحت عنوان « اعتراف بالفضل وشكر » يورد فيها ذكر من استفاد منهم من المفكرين الكثيرين .

ولما نشبت الحرب العالمية الاولى لم يلتحق بالجيش لعدم لياقته الطبية ، لاصابته بالدزنتاريا فى عام ١٩١٢ اثناء رحلة له فى ريف اليونان (١٢) ، وهو لا ينفك يكرر فى اكثر من كتاب من كتبه انه نجا من الموت بالصدفة ، فقد التهمت الحرب نصف اقرانه ، وكلما ذكر هؤلاء ابدى اسى وحسرة عليهم ، وبغضا للحرب وويلاتها . والتحق بدائرة الاستخبارات السياسية فى وزارة الخارجية البريطانية ، وقد مكنته هذه الوظيفة من رؤية خلفية القرارات السياسية ، وتزوير الوثائق الرسمية التي يتلقفها المؤرخون وبكل سذاجة فيكتبون منها تاريخ الافراد والشعوب (١٣) . كما اشترك فى مؤتمر الصلح عام ١٩١٩ بعد انتهاء الحرب العالمية الاولى ، واشترك فى مؤتمر عام ١٩٤٦ الذى عقد بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية . ويتحدث فى كتابه « **تجارب** » (صفحة ٥٢) عن تجربته فيقول :

« وفى كل مؤتمر (من هذين المؤتمرين) لم تكن وظيفتي الا ثانوية ولكنها كانت توصلنى الى المقاعد الخلفية فى قاعة المؤتمر ، وكنت

---

(١١) يقصد توينبي بالاديان العليا : المسيحية والاسلام والبوذية الماهايانية والهندوسية ، وقد اضاف الى هذه الاديان الاربعة فى المجلد الثاني عشر من « دراسة فى التاريخ » ص ٢١٨ البهوية والزرادشتية .

(١٢) Ibid, pp. 37-38.

(١٣) Acquaintances, pp. 117-118.

قارن هذا مع ما يورده ليدل هارت عن تزوير التاريخ فى كتابه

Why Don't We Learn from History (Allen & Unwin, London, 1971) pp. 27-30.

امسك بأوراق قد تلزم وقد لا تلزم المندوبين الجالسين فى الصف الامامى ، ولما كانت مسئوليتي بالفعل ضئيلة فان فرصي للمراقبة كانت جيده . ان الساعات الكبيرة التىانفقتها فى المؤتمرين مصغيا أصبحت جزءا قيما جدا من ثقافتي » .

ويسرد توينبي فى كتابه ((معارف)) (٢١١ — ٢١٢) القصة التاليه التي توضح لنا ابعاد المؤامرة الاستعمارية على بلادنا ابان مؤتمر السلام عام ١٩١٩ :

« ذات يوم كان على ان اسلم بعض الاوراق الى **لويد جورج** (رئيسوزراء بريطانيا حينئذ) على أثر انتهاء أحد الاجتماعات الخاصة بالشرق الاوسط . انني كثيرا ما رأيت لويد جورج وسمعته يتكلم ، ولكن هذه كانت هي المناسبة الوحيدة التى قابلته فيها ، ولقائي هذا معه لم يستمر اكثر من دقيقة او دقيقتين، ولكنه كان كاشفا بشكل غير متوقع ، اذ انه عندما اخذ الاوراق وبدأ فى تفحصها نسى وجودي — وهذا أسرني — وبدأ يفكر بصوت مرتفع . (ما بين النهرين .. نعم .. نفط .. رى .. يجب ان نأخذ ما بين النهرين ، فلسطين .. نعم .. الارض المقدسة .. الصهيونية .. يجب ان نأخذ فلسطين .. سوريا .. ها .. ماذا فى سوريا ؟ ليأخذها الفرنسيون) « .. ويعلق توينبي على هذه الواقعة فيقول : « ان حوار لويد جورج الذاتي اللاواعيقد كشفعن معرفة ذكية لمزايا الاقطار العربية العثمانية ، السياسية والاقتصادية ، ولكن لم يكن هناك ذكر مسموع للعامل الانساني الذى كان موضوع تحرى وتقرير **لجنة كنج وكرين** . ان لويد جورج عندما عدد « النقاط » فى الدول العربية اهمل حقوق العرب انفسهم وامانيهم » .

ويخرج توينبي من المؤتمر ويعود للعمل فى الجامعه ، وفى هذه المرة يعرض عليه منصب استاذ فى جامعة لندن لكرسي كوريس للدراسات البيزنطية واليونانية الحديثة ، وظل يعمل فى هذا المنصب حتى اضطر الى الاستقالة منه فى عام ١٩٢٤ . وسبب استقالة توينبي هو انه عندما انتهى مؤتمر الصلح كانت الاخطاء المتعمدة التى ارتكبها ساسة المؤتمر الكبار توحى بأن السلام لن يعمر كثيرا فى بقاع كثيرة من العالم . وقد تسبب الحرب فعلا بين اليونان وتركيا (١٩١٩ — ١٩٢٢) وارتكب اليونانيون جرائم كبيرة ضد الشعب التركى ، فلما ذهب توينبي فى صيف عام ١٩٢١ لزيارة مناطق القتال كتبلجريدة المانشستر جارديان عن تلك الجرائم ، ولم يأبه توينبي لرد الفعل الذى اثارته مقالاته ضده لدى الاوساط الليبرالية البريطانية ولدى العالم الغربي ككل «حيث ظل التعصب المسيحى ، ضد المسلمين حيا فى عقول كثيرين ممن نبذوا المسيحية نفسها » ، ((**معارف**)) صفحة ٢٣٠) واصدر بعد ذلك كتابا بعنوان « المسألة الغربية فى اليونان وتركيا » عام ١٩٢٢ ، ادان فيه الدبلوماسية الغربية والتسوية السلمية ، واتخذ موقفا محايدا من تركيا ومن اليونان ، ولكن هذا الموقف لم يرق لليونانيين المقيمين فى لندن والذين يساهمون فى تمويل الكرسي التى يحتلها ، فاضطروه الى الاستقالة .

وفى عام ١٩٢٤ عرضت عليه وظيفة مدير المعهد البريطاني للشئون الدولية (الذى سمي فيما بعد بالمعهد الملكى للشئون الدولية) او « دار شاتام » ليتولى اصدار حولية ((**مسح للشئون الدولية**)) فقبلها ، وحتى ذلك الحين كان احسن ما يعرفه توينبى من التاريخ هو التاريخ اليوناني والروماني ، وان كانت أسفاره فى بلاد اليونان واعماله المتصلة بالحرب قد

ضـمنت له موطيء قدم فى التاريـخ المعاصر ، ولكن هذا الموطيء القى عليه مهمة خطيرة وهى كتابة مسح شامل للشئون الدولية الجارية(١٤). وقد امتاز هذا ((**المسح**)) بالموضوعية والدقة العلمية والبحث الرصـين ، حتى ان هتلـر استقبل توينبي فى عـام ١٩٣٦ لمده ساعـه ونصف السـاعه ، والقى عليـه محاضره فى السياسة وذلك لان هتلر كان يدرك قيمة هذا ((**المسح**)) (١٥) . وقد استطاع توينبى ان يكمل عمله بالمسح بعمل آخر الا وهو كتابه الضخم (**دراسة للتاريخ**) . ويقول توينبي ان عمله ارضاه فكريا واخلاقيا . ويفسر هذا الارضـاء الاخلاقي على النحو التالي :

((كيف يمكن ان يكـون هنـاك ارضـاء اخلاقي فى عمل قصد به ان يكـون ((علميا)) بمعنى تناول دراسة الاحداث الدولية بطريقه موضـوعية غير شـخصـيـة ؟ اننى فى كتابتى ((**للمسح**)) بذلت اقصى ما استطيع لكي احول دون آمـالى الشخصـيـة واحكامي بالخطـا وبالصـواب ، ودون تلـون سردي لهـذه الاحداث ، وعندما كنت اشعر بأننى لم احقق هذه الغاية كنت ابذل قصارى جهدى فى كشـف اوراقي امام القاريء لأسـاعده على ملاحظه اهوائي واسقاطها)) (١٦) .

وقد ظل توينبي يعمل فى ((دار شاتام)) ثلاثة وثلاثين عاما ، وكانت تساعده فى تحرير ((**المسح**)) **السيدة فيرونيكا بولتر** التي تزوجها عام ١٩٤٦ بعد ان طلق زوجته الاولى **روزلند** ابنة **جلبرت مـرى** (من اولاده منهـا الناقد الادبي فيليب توينبي) . كما ظل يعمل حتى عام ١٩٥٥ اسـتاذا باحثا للتاريـخ فى جامعة لندن .

ان العمل الذى اقترن ((**بالمسح**)) ـ كما قلنا ـ ((**هو دراسـة للتاريخ**)) ، وبينما كان الاول بحثافى الحاضر كانالثاني بحثا فىالماضى. وقد اسـتفاد العملان من بعضهما البعض . ويروى لنا توينبي ان فكرة الكتاب قد جاءته كتعليق على الجـوقة الثانيـة فى مسرحيـة ((**انتيجونه**)) **لسوفوكليس** ، وانه كتب اثناء سفره بالقطار من اسامبول الى لندن فى ١٧ ايلول ١٩٢١ على نصف ورقة قائمة تضم نحو اثني عشر عنوانا ، وقد ظلت هذه العناوين ـ مع تغيير طفيف جدا ـ عناوين الاقسـام الثلاثة عشرة فى كتابه ((**الدراسـه**)) ، وبدأ يكسو هذه الدراسة لحما فى عام ١٩٢٧ ، غير ان البداية الجدية كانت فى عـام ١٩٣٠ . وفى عام ١٩٣٤ اصدر المجلدات الثلاثة الاولى من كتابه ، وقبل الحرب العالميـة الثانية باحدى واربعين يوما اصدر ثلاثة مجلدات اخـرى ، واستطـاع ان يحتفظ بمذكراته الخاصـة بالكتاب فى نيويورك اثناء الحرب العالميةالثانية، وشـغل بالحـرب فلم يبدأ بالعمل على اتمام كتابه الا فى عام ١٩٤٧ . وفى عام ١٩٥٤ اصدر اربعة مجلدات اخرى هي تتمة الكتاب . وعاد واصـدر فى عـام ١٩٥٩ المجلـد الحادى عشر بعنـوان ((**اطلس تاريخي ومعجم جغـرافي**)) بالتعاون مع **ادوارد مايرز** ، وفى عـام ١٩٦١ اصـدر المجلد الثـانى عشر تحت عنـوان ((**مراجعات**)) واصدر سمرفيل موجزا للاجزاء الستة الاولى فى عام ١٩٤٧ ، وموجزا للاجزاء من ٧ ـ ١٠ فى عام ١٩٥٧ . وقد ترجم هذا الموجز ونشر فى القاهـرة . واصـدر توينبي طبعة جديـدة مختصرة ومنقحة ومصـورة لكتابه ، بالتعاون مع **جين كابلان** فى مجلد واحد عام ١٩٧٢ .

يقول البرت حوراني : ((كان واضحا منذ البداية ان الكتاب رائع ، حتى عندما ينظر اليه من ناحية سطحية جدا كمخزن للحقائق .

---

(١٤) Experiences, p. 75.

(١٥) راجع الصفحات من ٢٧٦ ـ ٢٩٥ Acquaintances

(١٦) Experiences, p 80.

فهو يضم الــوانا مختلفه من الحقائق الغريبة والمشوقة حول العالم الانساني ، بل ان اكثر القراء عرضية اذا نظر الى صفحة هنا او هناك فى السرير او اثناء رحلة سيخرج منهــا وقد زادت حصــــيلته من المعرفــة ، وقد تعمق احساسه بغرابة الحيـــاة البشرية . واذا كان بعض الحقائق غير دقيق نستطيع ان نقول عنه ما قاله توينبى نفسه عن كتـــاب ((**الموجــز فى التاريخ**)) **لويلز** : « مثل هذه الاخطاء شيء لا مفر منه ، ويمكن اغتفارها بسهولة فى كتاب ، حاول ان يحيا من جديد البشرية كلها كتجربة خيالية واحدة » (١٧) .

واذا كان اى عمل فكرى هــو وليد العصر الذى كتب فيه ، فان كتاب ((**الدراسه**)) هو وليد العقدين الثانى والثالث من هذا القرن، حيث طرحت الحرب العالمية الاولى تساؤلات قوية وملحة حول مستقبل الحضـــارة ، قـــام الشاعر الانجليزى **اليوت** (كان امريكيا حينئذ واخذ الجنسية البريطانية عام ١٩٢٧) والف قصيدته « الارض الخراب » عـــام ١٩٢٢ فى تعليق قـــاتم على الحضـــارة الغــربية ، واتى **اوزفالد اشبنجلر** الالماني فنشر فى عام ١٩١٨ كتابه ((**سقوط الحضارة**)) . ورأى اشبنجلر ان التاريخ يتألف من وحدات ثقافية مستقلة بذاتها . وان كل ثقافة كالنبتة ، لها دورة حيث تزدهر هذه الثقافة وتنمو ثم يصيبها الانحلال ثم تندثر . وقد قرأ توينبى كتاب اسبنجلر عام ١٩٢٠ وتســـاءل فى كتابه ((**الحضــــارة على المحك**)) (١٨) . اذا كان منهجه فى النظر الى ان اصغر وحدات البحث التاريخى هى المجتمعات او الحضارات وليست الدول القومية ، وان هناك معاصره بين هذه الحضارات ، لم يتأثر برأى اشبنجلر . وكان اسبنجلر قد تناول فى دراسته ثمانى ثقافات او حضـــارات وانتهى فى تحليله الى ان الحضارة الغربية محكوم عليها بالاندثار ، وان حضـــارات من الشرق ستحل محلها .

والى جانب تأثير اشبنجلر ، اثارت الحرب العالميـــة الاولى فى نفســـه ما اثارت الحــرب البيلوبونيســـية (٤٣١ ـ ٤٠٤ ق.م) التـــي قامت بين اثينا واسبرطة وحلفائهما فى نفس مؤرخ هذه الحرب **ثوسيديديز** ، وهو الذى كان قد درس ثوسيديديز لطلبته فى كلية باليول فى اكسفورد عام ١٩١٤ ، فرجع الى ثوسيديديز واذابه يجد الكتــاب مليئا بالمعاني الجديدة ، وانه ينطبق الى درجة مدهشـــة على الصراع المعاصر فى اوروبا . وقد كتب توينبي نفســـه يتحدث عن هذه التجربة فقال :

« .. وفجأة أنير فهمي . ان التجربة التي نمر بها الآن فى عالمنا هي نفس التجربة التي مر بها ثوسيديديز فى عالمه .. وقد بدا الآن ان ثوسيديديز كان فوق هذه الارض من قبل . وقد سبقني وسبق جيلي هو وجيله فى مرحلة التجربة التاريخية التي قد وصلنا اليها بعده .. ومهما تقل التواريـــخ فقد اثبـــت عصـــر ثوسيديديز وعصرى انهما متعاصران فلسفيا . واذا كانت هذه هي العــلاقة الصـــحيحة بين الحضارة الرومانيه اليونانية والحضــــــارة الغربية ، أفلا يمكن ان تكون العلاقة بين جميع الحضـــارات المعـــروفة لدينا هي على هـــذا الحال » (١٩) .

وتمرد توينبي على منهج المؤرخين الغربيين حين اعتبر الوحدة الصالحة لدراسة التاريخ هي المجتمع او الحضارة . وقد احصى توينبى

---

(١٧) Albert Hourani, A Vision of History (Khayats, Beirut, 1961) p. I.

(١٨) A. Toynbee, Civilization on Trial and the World and the West (Meridian Book, New York, 1958) pp. 20-21.

(١٩) انظر المجلد العاشر من دراسة للتاريخ صفحة ٩٤ — Ibid pp. 18-19.

فى تاريخه احدى وعشرين حضارة درسها واستنتج قوانينه منها . وهده الحضارات هي : المصرية والسومرية والبابليه والحيثية والسيريانية والمينوية والهيلينية والايرانية والعربية والهندوسية والهندية والصينية وحضارة الشرق الاقصى والانديه واليوكاتيكة واليابانية والمكسيكية والمسيحية الارتوذوكسية البيزنطية والاورثوذوكسية الروسية ، وقسم حضارة الشرق الاقصى الى حضارة صينية وحضارة كورية يابانية ، ثم الحضارة الغربية. وقد ابتلعت مسيره التحضير جميع هده الحضارات الا سبع حضارات هي : الاورثوذوكسية المسيحية ، والارثوذوكسية الروسية ، والاسلامية (التى تضم الحضارتين الايرانية القديمة والعربية) والهندوسية والصينية والكورية اليابانية والغربية. وبالرغم من ان توينبي يتفق مع اشبنجلر فى انالحضاره الغربية تمر فى أزمة حرجة ، الا انه يختلف معه فى انه يرى ان بالامكان انقاذها بسلوك السبيل الروحي .

وقد قسم توينبي كتابه الى ثلاثة عشر قسما هي : المقدمة ، تكوين الحضارات ، نمو الحضارات ، انهيار الحضارات ، انحلال الحضارات ، الدول العالمية ، والكنائس (الاديان) العالميه ، عصور البطولة ، الاتصالات بين الحضارات مكانيا (المجابهاتبينالحضارات المعاصرة) والاتصالات بين الحضارات زمانيا (عصور النهضات) ، القانون والحرية فى التاريخ ، مستقبل الحضارة الغربيه ، الهامات المؤرخين . ونلاحظ انه قد عدلفى هذا التقسيم فى موجزه الذى اصدره فى نهاية عام ١٩٧٢ . اذ ضم الموجز احد عشر قسما هى : شكل التاريخ، ونكوين الحضارات،ونمو الحضارات، وانهيار الحضارات ، والدول العالمية ، والكنائس (الاديان) العالمية ، وعصور البطولات ، والاتصالات بين الحضارات مكانيا ، والاتصالات بين الحضارات زمانيا ، ولماذا بدرس التاريخ .

ولعل اشمل تلخيص موجز لنظام توينبى ـ فيما قرات ـ هو ما بسطه البرت حوراني فى كتابه الذى اشرنا اليه فيما سبق . يقول الاستاذ حوراني (٢٠) :

« وتنطلق هذه النظرية من تمييز بين حالتين انسانيتين يرمز لهما عند توينبى بالمصطلحين الصينيين Yin (السلب) و Yang (الايجاب) (٢١) : حالة من الخمود والمحافظة السلبية على تماثل مدرك ، وحالة من التقدم الابداعي الى المجهول ، وتحول عن عادات السلف الى اسلوب فى الحياة جديد ، وغير رسمي ولم يرسم بعد . وهذه هي الازدواجية النهائية فى الحياة الانسانية ، والمبدا الاول فى التفكير التاريخى . ان مسيرات التاريخ تنبع من انتقال مجموعة من الناس من السلب الى الايجاب . وكل ما يستطيع التفكر التاريخى

---

(٢٠) Op. Cit. pp. 4-7.

وقد نشرت مقالة الاستاذ حوراني " Toynbee's Vision of History " لاول مرة فى مجلة The Dublin Review المجلد ٢٢٩ العدد (٤٧٠) لندن ـ ديسمبر ١٩٥٥ من ص٣٧٥ ـ ٤٠١ .

(٢١) الين واليانج ـ فىالفلسفة الصينية ـ مبدءان للسلب والايجاب على التوالى فى الكون ، او دور الانثى السلبي ودور الذكر الايجابي وهما متناقضان دائما ولكنهمامتكاملان . وهما موجودان ايضا وممثلان فى السماء والارض ، وفى الرجل والمراة ، وفى الشمس والمطر ، وفىالخير والشر . (ص . ح)

راجع M. Rosenthal and P. Xudin, eds., A Dictionary of Philosophy, (Moscow, 1967)

و D. D. Runes, ed., Dictionary of Philosophy (Peter Owen, London, 1970).

ان نفعله هو متابعه الظروف التى حصل فيها التغيير والنتائج التى تمخضت عنه ، اما لماذا حصل هذا التغير فى هــذه الظروف فهو لغز يختفى فى حرية الاستجابة الانسانية (يمكــن ان نلاحظ بشكل عابر ان هذه الازدواجيــة ــ السلب والايجاب ــ التي تعبر عن نفســها بصور متعددة ــ فى الانسحاب والعوده ، وفى التحدى والاستجابة ، وفى التبدبد والحشــد ــ هى مثل واحد على ولع توينبى بالازدواجية) » .

« وتنمو الحضارات بمل هــذا الانتفال ، ويعني النمو نقل ميــزان العمل والتحدى من التحدى الخارجي الى الداخلي ، وهــو تقدم نحو تقرير المصير ، واتجاه تصبح فيه شخصية الحضارة هى ميدان عملها . ويحدث هذا عندما تواجه الحضارة تحديا فتقابلــه باستجابــة ناجحه ، وهي عندما تفعل هذا لا تقتصر على امتصاص ذلــك العنصر الذى يتشــكل عــدم امتصاصه نفسه تحديا ، وانما تولد فى نفسها طاقة لمجابهة تحد آخر . ولكن كيف تستجيب احدى الحضارات للتحدى بينما تعجز حضاره اخرى عن ذلك ؟ الجواب على ذلك هو وجــود اقلية مبدعة فى الحضارة الناجحه ــ فــرد او نفر قليل من الناس او جماعة كاملة ــ وعندما تتحمل هذه الاقليه عبء التحدى اثناء عزلة انسحابها من المجتمع تعود الى صميمه وقد حلت المشكلة ومن ثم تجر وراءها كل الجماهير غير المبدعة بقوة التقليد او المحاكاة .

« ولكن قوه المحاكاة هــذه التي تيسر نقل الافكار او المهــارات الجديدة من الاقليــه الى الاكثرية ، ومن ثم تعطي قوتها للمجتمع النامي ، هى ايضا نقطة الضعف فى الحضــارات كلها ، اذ لا يمكن زعزعة الاكثرية غير المبدعة من حالة السلب الا بقوة السحر ، فاذا ما انتهى مفعول السحر انحلت حالــة التعايش ، ان كل عمل يصدر عن المحاكاة غير ثابت لانه ليس تلقائيا » .

ويتضح هذا بشكل خاص فى مجتمع متحرك حيث لم يعد رباط السحر يوثقه رباط العاده . وقد يحدث « انهيار » ان عاجلا أو آجلا : اى فقدان الانسجام ــ بشــكل او بآخــر ــ بين مؤسســات المجتمع القديمــة وبين افكارهــا الجديدة مثلا ، او بين الاكثرية والاقلية . وقد تنسحب هذه الفئة الاخيرة من مســئوليتها نحو المجتمع الى حياة سرية غامضة ، او ربما فعلت عكس ذلك ، ففرضت ارادتها بكل قوه حتى تفسد بذلك المجتمع كله . فاذا ســلكت احد الســبيلين ربما اصبحت عاجــزة عن الاستجابة المبدعة للتحديات الجديدة ، بل ان نجاحها نفسه فى مواجهة تحد قد يجعلها عاجزة عن معالجة التحدى التالى .

« فاذا حدث هذا (ونقــول « اذا » لأنه ليست هناك اشارة الى ان العملية كلها يجب ان تحدث بل أن الامــر على عكس ذلك ، فهناك اصرار على أن الانسان يســتطيع دائما ــ اذا اراد ــ ان يحطم الاغلال الذى يبدو انها تقيده) فان الحضارة ستنتقل من « الانهيــار » الى « الانحلال » . ونفس هذا التحدى الــذى لا يجابه بنجاح ابدا ، ومن ثم يعيد نفسه مرات ومرات بنفس (الرتابة الفاسية) يصير التنافر الى شرخ وهوة تتسع ببطء فى جسم الجماعة . وقد تظهر هذه الهوة بين الجماعات المحدودة التي تقسم اليها الحضارة (كالجماعات القومية التي تكون الحضارة الغربية) ، وقد تكون هوه بين « العناصر » المختلفة او « الطبقات » التى تكوّن الحضارة . وتقسم الحضارة الى ثلاث طبقات مستقلة ، تصبح الاقلية المبدعة فيها ــ بعــد ان توقفت عن الاســتجابة المبدعــه للتحديات ــ اقلية مسيطرة ، تظن ان مركزها فى القيادة هو امتياز لها ، وتتشبث به بطرق لا تساعد الحضارة على التغلب على مشاكلها ،

وتبــرز مقابلها بروليتاريا (٢٢) داخلية ، وهى جماهير لم تعد مرتبطة بالاقلية بالمحاكاة ، وقد قامت بعمل انفصالي ، ولا تعتبر نفسها منتمية للحضارة ، ثم بروليتاريا خارجيــة مكونة من عناصر جذبتها قوة الى تخوم الحضــاره ابان نمو هذه الحضارة ، ولكنها لم تعد تقبل الدور الذى خصصته لها الحضارة .

وبتقدم الانحلال . . تتحــول العلاقات بين هذه العناصر من الانسجام الى الفوة ، وتبذل الاقلية محاولة يائسة للمحافظة على مركزها فتردعليها البروليتاريا بالعنف.وليست هذه هي كل القصة : اذ فى اللحظة التى تدمر فيها الطبقات الثلاث انفســها ، وتدمــر الحضارة ككل نتيجه صراعها العنيف ، تتفتق الطبقات الثلاث عن اعمال ابداعية تضيء العالم المحتضر . وقد تنتج الاقلية المسيطرة ــ وهى فى الرمق الاخير ــ دولة عالميــة ، وتنتــج البروليتاريا الداخلية كنيســــة عاليــة (٢٣) ، وتتمخض البروليتاريا الخارجية عن دول بربريــة وآلهه حرب وبطولات وشعر حماسي .

« والكنيسة العالمية هى الوحيــده من بين هذه ، هي « المتطلعة الى الامام » وهى شرنقة حضارة جديدة ، وهي ايضا الطــريق الــذى يستطيع ان ينقذ الناس به انفسهم من مــوت الشيخوخة . لقد خلقت الكنيسة من قبــل اقلية جديدة ظهرت فى صفوف البروليتاريا ، وهى اقلية من نوع جديد ، ان تجربة الحياة فى

مجتمع متداع تلقى امام الروح الفردية تحديا . ان الانقسام فى المجتمع يؤدى الى انفســام فى الروح ، وقد يبرز قائد من طراز جــديد يبين كيف يداوى هذا الانقسام ، وهو المنقذ الذى يقود من يتبعه ويخرجه من مجتمع محكــوم عليه بالهلاك . اما من يتخلف عن هذا القائد فان مصــيره التــردى فى سراك الانحلال التى تأخذ الشكل التالى : تبديد ــ حشد ــ انهيار . وعند حافة الهزيمة يحاول المجتمع المنهار ان يضم صفوفه ، ويبدو وكأنه قد استعاد قوبه ، ولكنه سرعان ما يسمع اصرار التحدى العائد القاسي . ومن اقوى محاولات خداع هــذا الموت تلك المحاولة التي تتمخض عنها الدوله العالمية ، وعندما تتداعى الدولة العالمية تموت الحضاره اما بالفناء فى حضارة اخرى وامــا بالذوبان فى الفوضى ، وقد تنشأ عنها فى الوقت المناسب حضارة جديدة » .

وهكذا فان الحضارة فى رأى توينبي تنشأ عندما يواجه شعب تحديا فيستجيب لهــذا التحدى بقوة اكثر من التحدى نفسه ، ويرى توينبى ان افضل تحد هو الذى لا يقتصر على دفع المتحدى الى تحقيــق اســنجابة ناجحه واحدة ، وانما يدفعه ايضا الى الوصول الى حركة تدفعه الى الامام فينتقل من الانجاز الى كفاح جديد ، ومن حل مشكلة الى طرح مشكلة اخــرى ، ومــن راحــة آنيــة الى حركــة متكررة (٢٤) . ومن شروط هذا النحدى ان لا يكون مفرطا فى قوته ، والا فقد يؤدى الى

---

(٢٢) ان استخدام توينبي لكلمة بروليتاريا هــواستخدام خاص ، ويعني بها جميع الذين يشعرون بانهم لا ينتمون الى المجتمع المرتبطين به عضويا . وتتسم هذه الطبقة بسخطها وبشعورها بحرمانها من المكان الطبيعي في مجتمعها . وتعيش « البروليتاريا الداخلية » ضــمن المجتمع اما « البروليتاريا الخارجية » فتعيش خارجه وان كانت ضمن نطاق اشعاعه . وتظل المجتمعات البربرية ضمن نطاق حضارة معينة وتحت التأثير الروحي لتلــك الحضارة ما دامت هذه المجتمعات فى حالة نمو . وعندمايبدأ الانهيار تفقد الحضارة سحرها ويصبح البرابرة اعداء لها ويشكلون بروليتاريا خارجية . (ص . ح)

(٢٣) كلمة كنيسة عالمية « يعني بها توينبي ديناعالميا ، وليس الاستعمال مقصورا على الكنيسة المسيحية وحدها » . (ص . ح .)

(٢٤) <u>A Study of History,</u> Vol. 3, p. 119.

٣٠٠

الموت ، وان لا تكون مفرطا فى ضعفه والا فانه لن يستخلص الاستجابة الفعالة . وهكذا يطرح توينبي قانون الوسط الذهبى فى مبدأ التحدى والاستجابة . ويظل المجتمع متماسكا ما دام فى حالة نمو ، ويتميز باقلية مبدعة تقود هذا المجتمع ، ونجابه التحديات بنجاح ، وتبدأ الحضارة فى الانهيار عندما تعجز الاقلية المبدعة عن مجابهة التحديات وتتحول الى اقلية حاكمة، ومن ثم لا تعود هذه مثل اعلى تقلده الجماهير ، فتنفرط لذلك وحدة المجتمع .

لقد هاجم المؤرخون توينبى هجوما شديدا على اختلاف المدارس والمذاهب التي ينتمون اليها ، فالاستاذ الماركسي كوسمنسكي الذى اشرنا اليه فيما سبق — انكر على توينبي ما سماه بالجانب الصوفى — او الخرافي — فى فلسفته ، واعتبر توينبى احد المفكرين الغربيين الذين وضعوا نظما او فلسفات لمحاربة « الاشتراكية العلمية » ، وانكر على توينبي رجوعه الى الاساطير فى دعم فلسفته وهو — اى توينبى — الذى يزعم انه اتخذ لنفسه مبدأ التجريبية فى بحثه ودراسته .

وأنكر على توينبي منهجه فى اعتبار الافراد العظام ، وليست الشعوب ، القوى الرئيسيه المحركة فى تطور المجتمع ، وفى ان الصانع الحقيقى للتاريخ هو الشخصية الفردية المبدعة، وان تجربة هؤلاء الافراد الداخلية هي مصدر طاقتهم الابداعية ، سواء أكان هؤلاء الرجال صوفيين أم انبياء أم شعراء أم رجال سياسة أم قادة عسكريين أم مؤرخين أم فلاسفة .

وهاجمه المؤرخ الهولندى بيترجيل ، واتهمه بانتخاب الشواهد التى تناسب حجته ، أو بعرض هذه الحجج بالطريقة التى تروق له ؛ ورأى ان نظامه لافائدة منه ، فان المقارنات يجب الا يعتمد عليها ، لأن لكل واقعه ظروفها التى تحول دون تكرارها بالصوره التى تمت فيها . وسلم جيل بشاعرية توينبى وغزارة معرفته ولكنه ينكر عليه منهجه التاريخي (٢٥).

وبعد أن انكر ولش على توينبي ان يكون مؤرخا فى كتابه ((الدراسه)) تساءل هل سيوجد هناك من سيقرأ ((**دراسة التاريخ**)) بعد خمسين سنة ؟ وان كان قد اعترف ولش بفضل توينبي باخراجه المؤرخين من حظيرة التخصص الضيق الى آفاق أوسع . « ان المؤرخين المحترفين غالبا مايكونون على حق فى نقده ، ولكن كثيرا منهم بحاجة الى شىء من كبر عقله » (٢٦) .

ويسلكه باتريك جاردنر فى عداد فلاسفة التاريخ التأمليين فى المقال الذى كتبه عنه فى ((**موسوعه الفلسفة**)) فى المجلد الثامن (١٥١ - ١٥٣) ،وكذلك فى مادة « أنظمة تأملية للتاريخ» فى المجلد السابع من الموسوعة .

وأنكر عليه المؤرخون فرضه قوانينا لتفسير التاريخ تفسيرا حتميا ، ورأوا ان هذه القوانين ليست سوى فرضيات حلا لتوينبي ان يختارها ، وقالوا انه اتخذ الحضارة اليونانية الرومانية المعيار الذى قاس به حضارات العالم كلها ، ووضع بوحى من تجربة هذه

---

(٢٥) Pieter Geyl, Debates with Historians (Fontana Library, London, 1970).
راجع الصفحات ١١٩ ، ١٦٩ ، ١٧٠ . افرد جيل فى هذا الكتاب نحو مائة صفحة لمناقشة نظام توينبي .

(٢٦) W. H. Walsh, An Introduction to Philosophy of History (London, 1970) pp. 160-165

الحضارة قانونا فسر فيه أو رسم به مسار الحضارات الاخرى ، وان كان هناك من النقاد من دافع عن توينبي ونفى عنه الحتمية (٢٧) . ويرد توينبي على هذا الاتهام بقوله عن نفسه « انه ليس حتميا فى قراءاته لألغاز الحياة البشرية . فهو يعتقد انه حيث توجد حياة يوجد أمل ، وأن الانسان ـ بعون الله ـ سيد مصيره ، او على الاقل الى حد ما فى بعض الاعتبارات (٢٨) .

ويأخذون على توينبي غيبيته ، ويرون فيها ضبابية فى التفكير . ونحن نلاحظ ان تأثير الدين عليه لم يكن ضعيفا فى يوم من الايام ، وان كان قد زاد فىالاجزاء الاربعة التى اصدرها عام ١٩٥٤ ، كما اصدر فى عام ١٩٥٦ كتابا بعنوان « سبيل مؤرخ الى الدين » . وفى عام ١٩٥٧ كتابا آخر بعنوان « المسيحية بين أديان العالم » . وهو يردد ـ وفى أكثر من موضع فى كتبه ـ ان طريق الحضارة الغربية سيؤدى بها الى التهلكة مالم ترجع الى الله نادمة وتائبة .

ان الاديان ـ فى رأى توينبي ـ قد ولدت من تلاقى او تجابه الحضارات . » ومستقبل البشرية ـ اذا قدر للبشرية ان يكون لها مستقبل فى هذا العالم ـ هو ـ كما اعتقد ـ فى هذه الاديان العليا .. وليس فى الحضارات التى وفر تلاقيها الفرص لميلاد الاديان العليا **« الحضارة على المحك »** صفحة (١٤٣ـ١٤٤)

ويرفض توينبي رأي المؤرخين الذين يرون ان كل ما فى التاريخ صدفة ، هذا الرأى الذى ولد فى القرن التاسع عشر ، وعبر عنه فىالقرن العشرين المؤرخ **فيشر** فى مقدمته لكتابه « تاريخ أوروبا » الذى قال ـ وبتواضع العلماء ـ انه لم يستطع ان يرى فى التاريخ نسقا مطردا ، وان كان قد رأى هذا النسق رجال اكثر منه علما واغزر حكمة . ويناقش توينبي رأى فيشر **« دراسة للتاريخ »** المجلد الخامس ٤١٤ ـ ٤١٥) ولا يسلم به .

وناصب النقاد اليهود توينبي العداء ، لمواقفه العادلة من قضية فلسطين ، فمثلا بدأ خصام المؤرخ الصهيونى لويس نامير له فى عام ١٩٢٩ وكان سبب هذا الخصام كما يرويه توينبي فى كتابه (معارف) صفحة ٦٩ ـ ٧١ :

« وكان خصام لويس معي حول ما كنت اكتبه فى مسح دار شاتام حول تاريخ فلسطين تحت الانتداب البريطانى،وقد عارض معالجتى لهذا الموضوع الشائك والمثير للجدل ، لانه كان قد اصبح فى ذلك الوقت صهيونيا متحمسا ، بينما اصبحت انا اثناء تكشف الاحداث فى فلسطين ازداد شكا فى امكانية نجاح السلطة المنتدبة فى التوفيق بين التزاماتها نحو الفلسطينيين العرب ونحو التزاماتها فىفلسطين مع اليهود . وقد خشيت من ان العرب سيلاقون معاملة ظالمة ، ومن ثم جعلت همي التأكد من ان أسجل فى سردى الحقائق التى بدت لى وكأنها تعطى للعرب سببا معقولا للقلق ومن ثم للسخط » . ولم يحفل توينبي بهذه المعارضة واستمر فى موقفه النزيه . ولما صدر الجزء الثامن من كتابه **« دراسة للتاريخ »** (٢٩٨ ـ ٣١٣) فى عام ١٩٥٤ ادان بشدة وحزم الغرب والصهيونية فى جريمتهما فى

---

(٢٧) Oscar Halecki, " The Validity of Toynbee's Conception of the Prospects of Western Civilization," The Intent of Toynbee's History, p. 202.

(٢٨) Civilization on Trial, p. 38.

فلسطين . وقام اليهود والصهاينة يردون على توينبى اما بالدفاع عن الصهيونية واليهود ، واما بتحريف آرائه (٢٩) . وجرت بينه وبين السفير الصهيونى ياكوف هيرتزوج فى كندا فى ٣١ يناير ١٩٦١ محاورة انتقد فيها سياسة اسرائيل وندد بها .

وفى كتابه ((**تجارب**)) يتحدث فى اكثر من موضع عن قضيه فلسطين ، يقول فى صفحة (١٣٥ – ١٣٦) :

((لست أؤمن ان اليهود شعب الله المختار . ان اعتقاد المرء بأن قبيلته هي شعب الله المختار هو خطأ القومية . انه خطأ اخلاقى وفكرى)) . ويدافع فى الصفحات من ٢٤٤ الى ٢٦٤ عن حق الفلسطينيين فى وطنهم ، ويندد بجريمه اسرائيل ومواقفها اللااخلاقية ، ويقول فى موضع آخر من الكتاب (صفحة ٢٦٦) :

((ان الاستعمار الاسرائيلي منذ انشاء دوله اسرائيل هو أحد اسوأ حالتين فى جميع تاريخ الاستعمار فى العصر الحديث ، ويزيد من شده سواد الصورة تاريخها . ان الصهاينة من اوروبا الشرقية يزاولون الاستعمار فى فلسطين على شكل طرد السكان العرب المواطنين ، وسلبهم ممتلكاتهم فى الوقت الذى ترك فيه الاوروبيون الغربيون حكمهم المؤقت للشعوب غير الاوروبية . . (والصورة الثانية من الاستعمار نمت فى الولايات المتحدة ما بين عامي ١٨٢٠ و ١٨٣٨ عندماسلبت اراضي السكان الاصليين) لخمس ولايات وبمساندة الجيش الامريكي) لقد كان هذا الاستعمار الامريكي فى القرن التاسع عشر جريمة ، والاستعمار الاسرائيلي الذى ينفذ الان فى وقت كتابة هذه السطور (عام ١٩٦٩) هو جريمة ومفارقة تاريخية اخلاقيه)) .

وتحدث عن القضية فى كتابه ((**بين النيجر والنيل** Between Neger and Nile)) الذى صدر عام ١٩٦٥ (٨٦ – ٩٠) . وكان من آخر ما نشر توينبي حول القضية الفلسطينية حوار جرى بينه وبين الصحفي البريطانى **لويس ايكس** ونشر فى مجلة Palestine Studies **دراسات فلسطينية** عدد الربيع لعام ١٩٧٣ وكان مما قاله لما سألة **ايكس** : ((هل تعتقد ان **بلفور** كان اعمى عن رؤية مرامي التصريح ؟))

توينبي : كلا . لقد كان يفهمها . وهناك مذكرة منه الى زملائه فى الوزارة يقول فيها : ((لا استطيع ان افهم لماذا جعلتم هذا انتداب حرف ((أ)) ، الذى يعني حق تقرير المصير ، اذ اننا لا ننوى ان نعطي هؤلاء حق تقرير المصير)) (وهو يعنى ((بهؤلاء)) الفلسطينيين العرب) . واذن فقد كان يعرف ما يفعل . انني اقولها لك صريحة : لقد كان بلفور رجلا

---

(٢٩) من الكتب التي صدرت فى هذا المجال كتاب :
M. Samuel, The Professor and the Fossil (New York, A. Knopf, 1956).

وهو رد على اتهام توينبي لليهود بانهم شعب متحجر . ومقالة ابا ابان بعنوان ((هرطقة توينبي)) (المنشورة فى كتاب Toynbee and History) من صفحة ٣٢٠ – ٣٣٧ .

كما يحتوى هذا الكتاب على مقالة بعنوان ((المتحجر والاستاذ)) لفردريك روبن من صفحة ٣١٦ – ٣١٩ .

ويقول ستروميرج فى كتابه عن توينبي (صفحه ٥١) ((ان رفا كبيرا يمكن ان يملأ بما كتبه اليهود فى الهجوم على توينبي .

تريرا » . . . كان بلفور يعرف (كل التعبيرات) الغامضة مثل تعبير وطن قومي ــ وكانت هذه متعمدة فى تصريح بلفور . وكذلك قوله « الحقوق المدنية والدينية» وليست « الحقوق السياسية » للجماعات غير اليهودية الاخرى فى فلسطين » . انني اعتقد ان كل كلمة قد كتبت بعناية لتكون غامضة . وهذا امر سيء جدا » .

ان موقف توينبي من القضية الفلسطينية نابع من ايمانه بالحق العربي فيها ، ومن كراهيته للحركة الصهيونية المتمثلة فى احياء قومية بغيضة لديه ، بل انه يرى ان الصهيونية خيانة لليهودية الحقة ، ويرى المؤرخ الصهيونى **نامير** فى كتابه Avenues of History ان كراهية توينبي للصهيونيـة **لا** تنطوى على كراهية لليهود ، ويعزو هذه الكراهية الى موقف توينبي المتسايع للاسلام منذ عام ١٩١٩ . ويرى لويس ممفورد ان تناول توينبي لليهود هو « زلته الكبرى » .

وليس من شك فى أن محاولة استعراض جميع القضايا الهامة التى تناولها توينبى فى كتبه الكثيرة فى مقال واحد عمل مستحيل ، فلقد كان انتاجه غزيرا واهتماماته واسعة ومتشعبة ، وما اظنه وهو يتحدث فى المجلد العاشر من كتابه ((**دراسة للتاريخ**)) عن المفكرين الذين أنتجوا كثيرا الا يتحدث عن نفسه :

« النظام ــ فى الحقيقة ــ هو مفتاح حياة جميع هؤلاء الرجال الناجحين من ذوى العمل الفكرى ، ويظهر هذا فى أبلغ صورة فى استخدامهم المنظم لأوقاتهم . فقد اظهروا مقدرة على المثابرة فى متابعة أهداف فكرية طويلة المدى فى فترات تبلغ نصف أو ثلاثة ارباع حياتهم العملية العادية ، وفى هذه الاثناء انتزعوا من الحياة العمليـة ــ التى كانت مشغوله بصورة رئيسيه بواجبات ــ جزءا من الفراغ لاستغلاله فى الاقتراب من هدف فكرى بعيد ، وذلك بتعليم انفسهم كيف يقتصدون فى وقتهم ، وكيف يخططون له على أحسن وجه فى مجرى حياتهم اليومية » (المجلد العاشر صفحة ١٥٣ ــ ١٥٤) أو ليس من بين هؤلاء الرجال مؤرخنا العظيم الذى يضع فى عام ١٩٢١ مخططا لسفره الضخم ، ويظل منصبا على انجازه قرابة اربعين عاما ،دون أن ينحرف عن الخطوط الأولى التى وضعها للكتاب ، بل وانه ليشير فى المجلدات الاولى الى موضوعات سيتطرق اليها فى مجلداته التالية محددا مكانها ، وكأن هذه المجلدات ستصدر غدا أو بعد ، وكأنه فرغ لتوه من كتابتها . وهو الذى يقول عن نفسه (الاوبزرفر اللندنية ١٢ مارس ١٩٧٢) وقد بلغ الثمانين « الآن ــ وفجأة ــ بدأت الشيخوخة تتطلب منى أن استرخى » وبدأ يستيقظ فى الثامنه والربع صباحا بدلا من السادسة الا ربعا .

وسنختار بعض هذه القضايا ، ونمر بها مرا سريعا ، بلا استقصاء أو تفصيل ، ولعل اكثر كتبه تناولا للقضايا العامة كتبه ((**تجارب**)) ، و ((**الحضارة على المحك**)) و ((**العالم والغرب**)) ((**البقاء فى المستقبل**)) (٣٠) ((**انشغال الانسان بالموت**)) (٣١) (شارك توينبى بثلث مادة هذا الكتاب) .

ليس هناك أمر ابغض الى نفس توينبى من الحرب ، ومن القومية باعتبارها سببا رئيسيا من اسباب الحروب . فالحرب عند توينبي هي أم الكبائر ، وهى احدى أعراض ونتائج فشل الانسان الخلقى ، وقد بدأت مع بداية حضارة الانسان، ولعلها بدأت عند السومريين، وقد ولدت الحروب عندما أصبح لدى الانسان فائض من الوقت ومن الطاقة ومن الانتاج يفوق ما يحتاجه ليقيم اوده ، « وعندما استطاع أن

---

(٣٠) Surviving the Future, London, 1971.

(٣١) Man's Concern with Death, London, 1968

بحصل على مايكفيه من قوة التنظيم والادارة والمذهبة لتدريب أعداد من الناس على العمل، متكاتفين لقتل أناس آخرين بشكل منظم ، وكذلك لتكييف هؤلاء لمحاولة ان يقتلوا (بفتح الياء) والتعرض لأن يقتلوا (بضم الياء) دون ان ترتعد فرائصهم من هذه المحنة المزدوجة » . واخترعت الحرب لها تقاليدا كـان منها الا تسترك المرأة الا فى حالات محدودة فى الحروب، وان كان ذلك لم يعفها من نتـائج الحـروب وويلاتها . ومن تقاليد الحروب الزى الـذى يتخذ لهـا ، ويـرى توينبي ان هـذا الـزى « الصبيانى » له وظيفتان الأولى نفسية اذ انه يمثل نقض التحريم العـادى لقتل الانسـان لأخيه الانسـان ليحل محلـه واجب قتله ، والوظيفة الثانية لتمييز الجنود عن المدنيين . ويلاحظ توينبي ان ويـلات الحروب تزداد بالرغم من ادعاء الانسان بانه اكثـر مدنيـة وحضارة من أجداده ، بل ان احساس هـذا الانسان وتورته عليها أضعف من ذى قبل ، بل ان اهتمامه بها محدود مالم تكن وسائل العنف فيهـا جديـده . ويعلق توينبي على جـرائم الولايات المتحدة فى فيتنام فيقول : « وتشاهد بانتظام فى برامج التلفاز فى الولايات المتحـده اليوم مشاهد من الحيـاة الواقعيـة ، حيث الجنود يقتلون ويجرحـون بعضهم بعضـا فى فيتنام . وقد تعود الاطفال الصغار عليها . وكان يجب ان يكون رد الفعـل على هـذه المشـاهدة المباشرة لوقائع الحـرب الشنيعة اصرارا من الامة كلها على ايقاف الحرب فورا فى فيتنام . ولكنه قيل لي ان مشاهدة وقائع الحرب على شاشة التلفاز بدلا من ان تقرب الناس من هذه الوقائع ، جعلتهم يشعرون انها غير حقيقية ، وذلك لربط العقل الباطن هذه المشاهد التلفازيـة بالتمثيل وليس بالحيـاة الحقيقية . فمشاهد المعارك التى ينقلها التلفاز بتحول فى عقول المشاهدين وقلوبهم من واقع الى وهم . فكل طفـل يعلم ان القتـل عند « الغربيين » غير حقيقى ، ومن هنـا يصبح القتل الحقيقى ـ عندما يقدم كغربى ـ وكأنه ايضا غير حقيقى ، وهذا لايجعل المشاهد فاقدا للاحسـاس فحسب ، وانما يجعلـه متحجر القلب » (انشغال الانسان بالموت ص ١٤٩) .

وطريق الخلاص عند توينبي هو أن نقبل بعدد من التغييرات الاقتصادية والسـياسية التى لن يستسيغها الكثيرون ، ومنها خضوع جميع دول العالم لحكومة واحدة لديها القوة لكبح جماح الدول من اللجوء الى الحـرب . ومنها توزيع جذرى لخيرات العالم بين الاقطار الغنية ، والاقطار الفقيرة ، بل وتوزيع الخيرات فى البلدان الغنية بين الاكثرية الغنية والاقلية الفقيرة . ويتساءل توينبي : « هل يستطيع اى نظام ان يحقق هذه الاصلاحات الضرورية دون سلطة ديكتاتورية مسـلحة ؟ » ويعترف بأن هذه مسألة سياسية كبيرة تواجهنا الآن (**البقاء فى المستقبل** صفحة ١١١) ولكن ليس من المستحيل ايجاد هذه الحكومة بالاتفاق المتبادل دون ان تلجأ اقلية الى فرض حكم ديكتاتورى على اكثرية سكان هذا العالم ، نتيجة لما تمتلكه هذه الاقلية من المعرفة التقنية (**البقاء فى المستقبل** صفحة ١٣٩) ويتطلع توينبى الى الزمن الذى يصبح فيه كل انسان عضوا فى ثلاث مجتمعات، فهو عضـو فى مجتمع عالمي ، ومواطن فى دولة عالمية ، وهو عضو فى جماعته المحلية ، وهـو عضو فى جماعة صغيرة متفرقة فى أرجاء العالم تشاركه فى التفكـير وتبادله الرأى (**البقاء فى المستقبل** ١٤٣ ـ ١٤٤) . ويرى توينبي ان هذا المجتمع الفاضل يحتاج حتى يتحقق الى ثورة روحية عالمية (**البقاء فى المستقبل** ص ٦٦)، كما يحتاج الى تربية جديدة تنبذ التعصـب القومي ، وتؤاخى بين الناس (المصدر السابق صفحة ٩٦) ، والى ثقافة عالمية تختار افضل ما فى الثقافات المحلية وتجعله ملكا مشـتركا لجميع الناس (المصدر السابق صفحة ١٤٩) ، ويمكن ان تستخدم التكنولوجيا لتحقيق بعض هذه الغـايات ، كما ان الشـباب والاجيال الصـاعدة هى التى عقد عليهـا توينبى آماله فروح الشباب هى روح الكرم والاسـتعداد للتغيير والمثالية والنزاهـة والتفتح العقلى ، ومن ثم فهو يطالبهـم بتحمل مسـئوليتهم التاريخية فى احداث هذا التغيير المنشـود ،

وهو يسألهم ان يتحلوا بالصبر وان يجتنبوا اللجوء الى العنف ، وان يقتدوا برجال الأديان الكبرى والفلسفات العظيمة . (المصدر السابق ١٥٢ ــ ١٥٤) . وهو يعتقد ان الجنس البشرى يواجه اختيارين وكلاهما سيء : الأول افناء نفسه بحرب ذرية ، والثانى ــ وقد يكون أهون الشرين ــ تجنب الحرب بتوحيد العالم تحت حكم ديكتاتورى عالمى ، حيث تخضع فيه أقلية قوية وغنية اكترية ففيرة ومتأخرة ، ودور الشباب هو فى محاولة الخروج من هذا المأزق بايجاد وحدة عالمية تمكن الجنس البشرى من البقاء ومن الازدهار دون اضطهاد واستعباد .

وقد تنبأ توينبى فى كتابه « **التغير والعادة** ، صفحة ١٥٨) بأن الصين وليست الولايات المتحدة أو روسيا هى التى ستكون نواة وحدة سياسية على مستوى عالمي ، ويسندها فى ذلك وحدتها الداخلية وكثرة عدد سكانها وتاريخها .

ويقف توينبى فى كتابه ((**العالم والغرب**)) عند الوحدة الاسلامية ، ويعيب على الاتراك والعرب وغيرهم من الشعوب الاسلامية ، تبنيهم للقومية الغربية تلك « المتل الاعلى السياسى الغربي الضيق الفلب » رغم ان لهم براتا يجعل من جميع المسلمين اخوة بفضل دينهم المشترك ، بالرغم من اختلاف اجناسهم ولغاتهم واوطانهم . ويرى ان هذا التراث الاسلامى ، الذى يعتبر المسلمين اخوة ، أفضل كمثل أعلى فى تلبية حاجات العصور الاجتماعية من التراث الغربي الذى ينادى باستقلال عدد من القوميات . ويرجو توينبي ان يتوقف انتشار هذا الوباء السياسى الغربي ــ فى العالم الاسلامي على الاقل ــ بفضل الشعور الاسلامي التقليدى بالوحدة . (**الحضارة على المحك والعالم والغرب** ٢٥٣ ــ ٢٥٥) . وتسترعى اهتمام توينبي جامعة الازهر حيث الثقافة الاسلامية الواحدة ، التي تقدم باللغة العربية لجميع الطلاب على اختلاف اجناسهم ولغاتهم (**البقاء فى المستقبل** ص ٩٧) .

ويرفض توينبي نظرية التفوق العرقي ، ويقول انه ليس هناك اى دليل علمي على أن الفروق الجسمية فى لون البشرة مثلا او فى شكل الشعر او الانف مرتبطة بالقدرات والصفات . فلعل جميع الاجناس متساوية فى نسبة من فيها من عباقرة وبلهاء ومجرمين وقديسين (**تجارب** ص ٢٥٠) . ولا يتردد توينبي فى نعته الغرب بانه المعتدي الاول فى العصور الحديثة ، وأن الغرب اذا كان قد بدأ يقاسى على يد الأمم الاخرى ، فلطالما قاست أمم العالم منه قرونا عديدة (**الحضارة على المحك** ٢٣٥ ــ ٢٣٧) .

ويتحدث توينبى عن الآثار العميقة التي تنجم عن استعارة شعب من الشعوب للتكنولوجيا الغربية . فيقول ان التكنولوجيا تعمل على سطح الحياة ، ومن ثم يبدو أن من المناسب علميا تبنى تكنولوجيا اجنبية دون ان يتعرض (الشعب) لخطر فقدان روحه . ولكن هذا خطأ فى التقدير ، اذ ان العناصر المختلفة فى أية ثقافة مترابطة ترابطا داخليا ، فاذا هجر الشعب ما لديه من تكنولوجيا ، واصطنع بدلا منها تكنولوجيا اجنبية ، فأن أثر التغيير هذا على سطح الحياة التكنولوجية لن يظل محصورا فى السطح، بل سيبدأ فى التسرب تدريجيا الى الاعماق حتى تتصدع جميع ثقافة هذا الشعب التقليدية وتدخل اليه جميع الثقافة الاجنبية شيئا فشيئا عبر الثغرة التى صنعها أسفين التكنولوجيا الاجنبية فى حصون ثقافة الشعب . ان لكل اطار ثقافى تاريخي وحدته العضوية الكاملة تستند اجزاؤها الى بعضها البعض ، فاذا فصل اى جزء عن مكانه فان الجزء المفصول والكل المشوه يسلكان سلوكا مغايرا لسلوكهما يوم أن كانا فى اطار متماسك . ان دمارا عظيما يمكن ان ينشأ عن نزع فكرة او تنظيم أو أسلوب ، من مواطنها الاصلية وزرعها فى بيئة اجتماعية اخرى

تتعارض فيها مع الاطار المحلى التاريخي للحياة الاجتماعية . واذا أخذ جزء من ثقافــة ما ، وادخل فى جسم اجتماعي اجنبي ، فان هــذا الجزء سيسحب وراءه عناصر أخرى من النظام الاجتماعى الــذى جاء منه هــذا الجــزء . (**الحضارة على المحك** ، الصفحات ٢٧٠ ، ٢٨٢ و ٢٨٣) .

ومن الامثلة الطريفة التى يقدمها توينبي على هذا الغزو الثقافى ، القصــة التالية : لما أراد محمد علي ان ينشىء اسطولا بحريا قويا ، رأى انه لا بد من ان يصنع سفنه بأيد مصرية وفى أحواض مصرية . ومن تم أعلن عن حاجته الى خبراء غربيين ، فاشترط هؤلاء الغربيون احضار عائلاتهم معهم ، كما اشــترطوا توفير رعاية طبية لهم ، ومن تم تعاقد محمد علي مع عدد من هؤلاء الخبراء الغــربيين ، وكذلك مع بعض الاطباء الغربيين . وفى عام ١٨٣٩ انشىء مستشفى للولادة الى جانب دار الصــناعة البحرية فى الاسكندرية ، غير ان عــلاج هؤلاء الاطباء لم يقتصر على زوجات الموظفين الاجانب، وانما امتد ليشمل ايضا عددا من الســيدات المصريات . وقد لا يكون هذا الامر مثيرا لنا فى الوقت الحاضر ، ولكنــه فى ذلـك الحين كان خروجا على تقاليد كانت تفصل المرأة فصلا كليا عن اى رجل اجنبي ، ومن ثم كانت له آثاره العميقــة على اطــار حيــاة المجتمع المصرى التقليدية . (المصدر السابق ٢٨٣ ــ ٢٨٥) .

ويتحدث توينبى عن آثار التكنولوجيا فى العالم وعن تغييرها لكثير من الانماط التقليدية، وبعض هذه الآثار قد يكون ضررها اكبــر من نفعها . ومن الامثلة التى يعطيها التلفاز والعقل الاليكتروني وآثارهما الســلبية على عملية التربية والتعليم . فمشــاهدة التلفاز ــ عند توينبي ــ نشاط سلبي يعارض مبدأ « أعمله بنفسك » وهذا المبدأ هو ــ فى رأيه ــ أساس التربية ، كما ان المشــاهد أقــل قــدرة على التمييز بين ما هو حقيقي وبين ما هــو غــير حقيقي ، وأقل حريــة فى اختيار ما يريد من القارىء ، فهو مكيف (بفتح الياء) لأن يسلم بكل ما تريد المؤسسة التي وراء التلفاز منه ان يسلّم به . ويروي ان من الاشياء التى كان بعض الفرنسيين ينكرونها فى نظام ديغــول ان الحكــومة قد احتكرت التلفاز ، ومن تم فهم لا يستطيعون ان يروا الا ما يريد ديغــول ان يروه ، ومن ثم حرموا من رؤية الوقائع بأنفسهم وبالتالي حرموا من ان يقرروا بأنفســــهم ما يريدون ان يفعلوه . وقد أوردنا من قبل اثر التلفاز على الجمهور الأمريكى . غير ان توينبي فى بحثه عن وسائل لتحقيق الحكومة العالمية يفطن الى التلفاز فيعتبره أداة قيمة ــ ولكنه يبغضها ــ لتحقيق قبول من يكرهون احتمال الخضوع لحكومة ديكتاتورية عالميــة ، بل انه اكثر قيمة فى ترويض الجماهير لتقبل النظام الذى يمكن ان تفرضه مثل هــذه الحكــومة العالمية عليهم . (**البقاء فى المستقبل** ٧١ ــ ٧٢، ١١٥ ــ ١١٦) .

والعقل الاليكتروني لا يقل خطــرا عن التلفاز فى تحطيم مبدأ « اعمله بنفســـك » التربوى . لقد خطا العقل الاليكتروني خطوات سريعة فى السيطرة على العالم ، بما يقدمه من حلول لمشكلة معالجة الكميات والحجوم ، التي يتسم بها مجتمعنا المعاصر . فهو يستطيع ان يتناول كميات هائلة من المعلومات بسرعة البرق، ومن ثم يُعدّها ويضعها فى متناول الاداريين والمدراء والحكومات . بل انه يستطيع ان ينظم العلاقات البشرية على نطاق هائل ، ولكن ذلك على حساب سلب الانسان انسانيته . ويعترف توينبي انه (وقد بلغ الثمانين) فى هذه السن لا يحب التلفاز او العقــل الاليكتروني لانهما يفقدان حرية الانسان فى الاختيــار ، ولكنــه يعترف بأنه قد يكون متحاملا ضد اختراعات جديدة ، وقد يكون باخســـا لقيمة هاتــين الوســيلتين بالنســبة للمجتمع . (**البقاء فى المستقبل** ١١٧) .

لقد مكنت التكنولوجيا الانسان من السيطره على الطبيعة ، ولكن ذلك جعل منه عبدا لبيئة جديدة مصطنعة ومن صنعه . وهذه البيئة اكثر استبداد، واقل ملائمة ، واقوى ازعاجا نفسيا من بيئته القديمه ، وهو بهذا الاستبدال أضحى وكأنه قد فتح غطاء صندوق بندورا ، الذى تزعم الاسطورة الاغريقية انه كان مليئا بكل شرور الدنيا ، وهذا ما نراه من عدم استقرار وعنف وصراع . (**البقاء فى المستقبل صفحة ٣٠**) .

وكان من نتائج هذا التقدم التكنولوجي ان اختل توازن الثروة فى العالم ، كما لم يختل مثله فى اى وقت من الاوقات فى التاريخ . ان أغنى البلدان الصناعية اليوم الولايات المتحدة ، ولكن عشر سكانها وربما خمسهم يعيشون عيشة ضنكا ، وحظهم من الرعاية ضئيل . كما ان البلدان التى استغنى جزء من سكانها لا تشكل الا اقلية بين بلدان العالم كله . وما زال ثلاثة أرباع سكان العالم فلاحين ، يعيشون فى مستوى لا يفوق كثيرا مستوى انسان العصر الحجرى الحديث . (**البقاء فى المستقبل** صفحة ٣١) . بل ان هذه الاقلية التى أصبحت غنية قد حققت ذلك على حساب فقدانها لحريتها ولسعادتها . وقد اصبح الانسان سجينا للانجازات والخطوات التقنية التى خطاها . وانفصل العمل فى حياته عن الحماس له ، ولم يعد يجد فيه ما كان يجد من رضا روحى .

وفى محاولة العلم والتكنولوجيا الحلول محل الدين فشلا فى اسعاد الانسان . ان العلم لم يحل فى يوم من الايام محل الدين ، ويعتقد توينبي انه لن يحل محل الدين فى المستقبل ، وذلك لأن العلم يتطلب أجوبة محددة ولا تقبل الجدل ، ولكن الاسئلة التى تهم البشر كثيرا جدا لا يمكن ان تجاب اجابة يقينية . ولعل سر نجاح العلم فى الاجابة على أسئلته ان هذه الاسئلة ليست هى أهم الأسئلة . وبالرغم من ان نجاح العلم والتكنولوجيا كان مدهشا ، الا ان هناك حدودا لما يمكن ان يقدماه للانسان. ان حاجتنا الكبرى هى لتحسين روحى فى انفسنا وفى علاقاتنا باخواننا من بنى البشر ، وهذه حاجة لا يمكن ان يلبيها العلم او التكنولوجيا . ان من المعروف ان الطبيعة لا تقبل الفراغ المادى ، ومثل هذا يصدق عن الجانب الروحي فى هذا العالم . ان العلم والتكنولوجيا قد يخلقان فراغا روحيا عندما يكذبان الأديان السابقة ، ولكنهما لا يستطيعان ملء هذا الفراغ ، فلا بد من ملء هذا الفراغ بأديان من نوع ما . ان الشعور بالتقديس والرهبة غرائز فطرية فى الانسان ، وان الانسان الذى لا يشعر بدينه فى الظروف العادية يشعر بالحاجة اليه عندما يمر بأزمات فى حياته . (**البقاء فى المستقبل** ٤٤ ــ ٤٥ ، ٤٧) .

ومن الموضوعات الشيقة التي يتطرق لها توينبي ابحاث اكتشاف الفضاء ، وهو لا يشارك المتحمسين فى حماسهم لهذه الاكتشافات ، لأنه يرى ان اتخاذ اى قرار يحدد بالأولويات هو قرار أخلاقي ، ومن ثم فان اعطاء الاولوية لابحاث الفضاء هو قرار أخلاقي ، ولكنه قرار لا يمكن الدفاع عنه لان ابحاث الفضاء أعطيت الاولوية على اطعام واسكان وكساء الغالبية الفقيرة من سكان هذا العالم . ويرى توينبى ان هذه الحاجة الصارخة يجب ان تحتل المركز الاول فى الاستفادة من مصادر البشرية وطاقتها ومهارتها . ثم يقول « واشك فى أن حكومتي الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي ما كانتا ستنفقان على برنامج الفضاء هذه المواد الطائلة التى انفقاها فعلا عليه لو لم تكونا تتنافسان على الارتقاء السياسي والعسكرى فوق هذا الكوكب . انني اعتقد ان المنافسة صبيانية فى حد ذاتها ، وعمل غير أخلاقي فى عصر معظم

الناس فيه فقراء ، وهو عمل اجرامى فى زمن تسلحت فيه الدولتان الكبيران المتنافستان بالاسلحة الذرية . ولهذه الاسباب فاننى لو كنت حاكما ديكتاتوريا لهذا العالم ، ولدي قوة لا تقاوم — وهذا لحسن الحظ غير محتمل — لاوقفت جميع برامج الفضاء الحالية فورا . اننى لن احذف هذه البرامج عن جدول اعمالي، ولكني سأعطيها مكانا متأخرا جدا فى قائمة الأولويات عندى ... ولنؤخر برنامج الفضاء الى ان نرفع مستوى الاكثرية الساحقة الفقيرة من الجنس البشرى فوق سطح هذا الكوكب الى مستوى الاقلية الفنية » (**البقاء في المستقبل** ١٣٨ — ١٣٩) .

لقد شغل توينبي نفسه بكل ما يهم الانسان ، وانتج انتاجا غزيرا جدا ، تناول فيه جوانب كبيرة من المعرفة ، وكتب بوحى من مسئوليته كمؤرخ وكانسان .

فتحية لمؤرخنا العظيم فى عيد ميلاده الخامس والثمانين الذى يصادف صدور هذا العدد من مجله عالم الفكر .

* * *

مراجع مختارة

أشرنا في المقالة الى عدد من الكتب والمقالات ، وقد رجعنا الى كتب ومقالات لم نشر اليها ومنها :

1. Arnold Toynbee — **The Impact of the Russian Revolution** 1971—1967 (London, 1967).
2. — — **The Economy of the Western Hemisphere** (London, 1962).
3. — — **America and the World Revolution,** (London, 1962).
4. — — „ Technical Advance and the Morality of Power ", **Can We Survive Our Future ?** A Symposium edited by G. R. Urban, London, 1971.
5. — — **Cities on the Move,** London, 1970.
6. — — **East to West, London,** 1956.
7. — — **Between Oxus and Jumna,** London, 1961.
8. — — **Hellenism,** London, 1959.

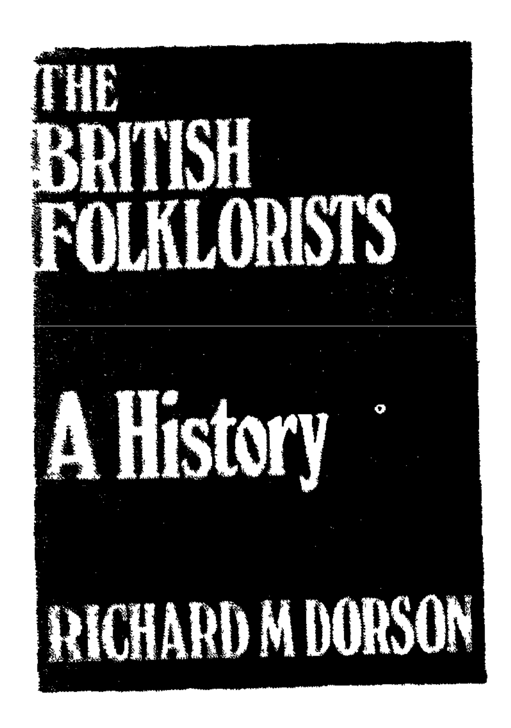
(٩) محاضرات آرنولد توينبي — نص المحاضرات التي القاها آرنولد توينبي للجمهورية العربية المتحدة في ابريل عام ١٩٦٤ .

10. " The Argument between Arabs and Jews : An Exchange between Arnold Toynbeee and J. L. Talmon". **The Israel-Arab Reader** edited by Walter Laques, New York 1968 pp. 260-272.
11. H. E. Barnes, **An Intellectual and Cultural History of the Western World,** Vol. 3, New York, 1965.
12. — — (ed.) **An Introduction to the History of Sociology,** Chicago, 1965.
13. E. H. Carr, **What is History,** London, 1962.
14. R. G. Collingwood, **The Idea of History,** London, 1946.
15. Mark Krug, **History and the Social Sciences,** Walthaw, Mass., 1967.
16. P. W. Martin, **Experiments in Depth : A Study of the Works of Jung, Eliot and Toynbee,** London, 1955.
17. Ved Mehta, **Fly and the Fly-Bottle** (Penguin, Middlesex, 1965)
18. George E. Mosse, **The Culture of Western Europe ; the Nineteenth & Twentieth Centuries,** London, 1963.

(١٩) الدكتور حسين مؤنس « آرنولد توينبي ونظرية التحدى والاستجابة » مجلة العربي يناير ١٩٧٤ ، ص ٩٩ — ١٠٥ .

★ ★ ★





الفولكلوريون البريطانيون

دراسة تاريخية

عرض وتحليل : الأستاذ صفوت كمال

منذ أن استخدم الأثرى البريطاني **وليام جون تومز** William John Toms (١٨٠٣ ـ ١٨٨٥) مصطلح فولكلور Folk-lore (١) ليدل على مواد التراث الثقافى الشفاهى . شاع استخدام هذا المصطلح ليدل على المأثورات الشعبية التي تتناقل شفاهة عبر الاجيال ، وتؤثر فى أنماط الممارسات اليومية وكوامن التفكير ، وتشكل حكمة الشعب The Lore of the People .

وفى هذه الدراسة التاريخية للفولكلوريين البريطانيين تناول الاستاذ ريتشارد دورسون تاريخ حركة الفولكلور البريطانية منذ بداية الاهتمام العلمي بمواد المأثورات فى العصر الفيكتورى الى الحرب العالمية الاولى . متتبعا فى دراسته الجهود العلمية والاهتمامات الادبية بمواد التراث الثقافى الشفاهى للمجتمع باعتبار ان مواد التراث الثقافى الشعبي هى جانب مكمل لدراسة التراث الثقافى لأى مجتمع . .

فدراسة الفولكلور ، كمادة .. وعلم ، ارتبطت فى بداياتها بالدراسات التاريخية ،

---

* Richard M. Dorson, the **British Folklorists** A History, Routledge & Kegan Paul, London 1968.

(١) استخدم تومز هذا المصطلح فى مقال نشره فى مجلة الاثينيوم
The Athenaeum, No. 982 (August 22, 1846), 826—63.
ووقعه باسم مستعار هو امبروز ميرتون Ambrose Merton

والاهتمام بالموروثات القديمة والعادات المتوارثة ، قبل أن ترتبط بدراسة ثقافة الشعوب والاهتمام بالاساطير ودراسة العناصر الأسطورية التي عاشت عبر العصور في الممارسات الطقوسية والحكايات الشعبية .

ومؤلف هذا الكتاب ، الاستاذ **ريتشارد دورسون** هو أحد أساتذة الفولكلور الامريكيين المعاصرين ، ممن لهم مكانة علمية دولية . فهو أستاذ للتاريخ ، وللفولكلور ، ومدير معهد الفولكلور في جامعة انديانا ، الذى يعتبر من أنشط المعاهد العلمية المتخصصة في الدراسات الفولكلورية . كما يشغل الاستاذ دورسون منصب رئيس جمعية الفولكلور الامريكية ، ونائب رئيس هيئة الاثنولوجي والفولكلور الدولية . . كما أنه يشرف على سلسلة الكتب التى تنشرها دار روتلدج وكيجان بول Routledge & Kegan Paul عن الحكايات الشعبية ، والتى يختص كل عدد منها بدراسة عن حكايات بلد من البلاد . . كما يدرس تحت اشرافه حاليا عدد من الدارسين العرب الذين يستكملون دراساتهم العليا في الفولكلور .

وقد نشر الاستاذ دورسون في نفس تاريخ صدور هذا الكتاب كتابا آخر يعتبر مكملا لهذا الكتاب يتناول فيه عادات الفلاحين واساطير البدائيين (٢) اقتبس مادته العلمية من دراسات الفولكلوريين البريطانيين الذين تناولهم في دراسته التاريخية هذه عن الفولكلوريين البريطانيين وقد بدأت فكرة تأليف هذا الكتاب كما يقول المؤلف ، في صيف عام ١٩٤٨ حينما زار انجلترا زيارة شخصية لشقيقته التى تقيم في لندن . . وفي أثناء زيارته لها زار مكتبة جمعية الفولكلور ، فتعرف على غزارة المادة العلمية التي تحتويها هذه المكتبة ، ثم تابع بعد ذلك زياراته لانجلترا خلال عام ١٩٤٩ ـ ١٩٥٠ ، ١٩٥١ ، ١٩٦٣ . ثم عام ١٩٦٤ ـ ١٩٦٥ ـ بهدف استكمال جمع مادة هذا الكتاب الذى نشر عام ١٩٦٨ .

الكتــاب :

والكتاب يقع في ٥١٨ صفحة من القطع الكبير وينقسم الى احد عشر فصلا غير المقدمه والخاتمة والفهرس التفصيلى والببليوجرافيا التي تشغل وحدها ١٩ صفحة .

والفصل الاول يخصصه المؤلف لمجموعة الاثريين الذين اهتموا بجمع مواد من المأثورات الشعبية وسجلوها في دراساتهم التاريخية عن الحياة القديمة قبل حياة التمدين والمدَيْنَة . ومن بين هؤلاء **وليام كامدن** William Camden (١٥٥١ ـ ١٦٢٣) الذى جمع خلال جولاته العلمية نماذج عديدة من عادات وتقاليد الايرلنديين القدامى ، ومعتقداتهم الشعبية وكذلك بعض الممارسات الطقوسية التى يمارسونها خلال حياتهم اليومية لجلب الحظ ، او لدرء الشر وكف الحسد .

وبعد وفاة كامدن بثلاث سنوات ولد **چون أوبرى** John Aubrey (١٦٢٦ ـ ١٦٩٧) الذى أكد أهمية الجانب الشفاهى في دراسة التراث ، ونظر الى الناس باعتبارهم مركز حفظ التقاليد وحفظة التراث . . وربط أوبرى في دراساته أواصر الصلة بين دراسة الموروثات القديمة وعلم التاريخ الطبيعي . . كما اهتم بعادات وتقاليد الجناز والدفن ، من حيث انها أشد العادات احتفاظا بالآثار التقليدية ، كما اهتم بالحكايات الخرافية بما تحمل من تصورات وأوهام قديمة .

---

(٢) R. M. Dorson (Edit.), **Peasant Customs and Savage Myths. Selections from the British Folkorists,** Routledge & Kegan Paul, London 1968.

وقبل وفاة أوبرى بثلاث سنوات ولد **هنرى بورن** Henry Borne (١٦٩٤ – ١٧٣٣) الذى اهتم ايضا بحياة الناس العاديين وما تتضمنه من موروثات ثقافية (٣) وعاداتهم وتقاليدهم بجانب اهتمامه الاصلى بالتاريخ ، ويتابع المؤلف فى هذا **الفصل الاول** من كتابه ذكر جهود هذا الجيل من الرواد الذين اهتموا بالتقاليد السائدة والمتوارثة بين الناس مثل **جون براند** John Brand (١٧٤٤ – ١٨٠٦) الذى اهتم بالأعراف السائدة فى التجارة وتقاليد البيع والشراء والعادات ، وطقوس الحصاد التى وضع لها **جيمس فريزر** James Frazer فيما بعد نظرية خاصة عنها فى كتابه الغصن الذهبى The Golden Bough .

وقد جمع براند مادة غزيرة ، اوضحت الكثير من جوانب الحياة البريطانية . كما اوضح المؤلف جهود **فرانسيس جروس** (١٧٣١ ؟ – ١٧٩١) Francis Grose واهتمامه باللهجات الشعبية (٤) ودراساته عن تاريخ الجيش البريطاني وتاريخ انجلترا وويلز وكذلك عن اسكتلندة وايرلنده .. كما ذكر المؤلف الباحثين الآخرين الذين اهتموا بجمع مواد الحياة القديمة وذكريات الأسلاف والموروثات الباقية من عصور سابقة وما زالت حية فى الحياه اليومية يمارسها الناس تلقائيا ..

وفى الفصل الثانى ، قدم المؤلف مجموعة اخرى من جامعى الموروثات القديمة الفولكلوريين The Antiquary Folklorists والذى يعتبر **توماس كروفتون كروكر** Thomas Crofton Croker (١٧٩٨ – ١٨٥٤) أحد الاعلام البرزين فى هذه المجموعة حينما نشر عام ١٨٢٥ مجلدا عن الخرافات والحكايات الخيالية والتقاليد فى جنوب ايرلندا (٥) . وقد صدر هذا الكتاب بدون اسم مؤلفه ولاقى نجاحا كبيرا . فطلب الناشر (Murray) من كروكر ان يجمع مادة اخرى من ايرلنده . وفى سنة ١٨٢٨ نشر كتابين آخرين وقد ترجم الاخوان **جريم** (Wilhelm & Jacob Grimm) هذا العمل الى الالمانية بعد صدوره بعام واحد .. كما ترجم الى الفرنسية ايضا بعد ثلاث سنوات . وقد كتب وليهام جريم خطابا رقيقا الى كروكر وجهه الى « الرجل صاحب المجموعة القيمة من الحكايات والاساطير الايرلندية ، الذى شغلنا بعمله عدة شهور ... » وتابع **كروكر** جمع الحكايات والاساطير الايرلندية ولكن **توماس كيتلى**" Thomas Keightley " (١٧٨٩ – ١٨٧٢) انتقد عمله فقد افترض ان بعض الحكايات التى أوردها كروكر هي حكايات مزيفة غير أصيلة مما اضطر كروكر بعد ذلك الى اختصار الحكايات التي نشرها من خمسين حكاية خرافيه الى أربعين . وتعاون مع **كيتلى** Keightley فى جمع ودراسة الاساطير والحكايات الخرافية . واصدر كيتلى كتابين هامين هما الاساطير الخيالية (١٨٢٦) ، وحكايات وروايات شعبية (١٨٣٤) The Fairy Mythology و Tales and Popular Fictions

ثم تحدث المؤلف بعد عرض جهود كروكر وكيتلى عن **فرانسيس دوس** Francis Douce (١٧٥٧ – ١٨٤٣) الذى كان ، رغم انتاجه

---

(٣) Henry Borne, **Antiquitates Vulgares,** or the Antiquities of the Common People .... (Newcastle : J. White, 1725).

(٤) Francis Grose, **A Provincial Glossary,** London, 1970.
Francis Grose, **A Classical Dictionary of the Vulgar Tongue** (1785)

(٥) **Fairy Legends and Traditions of the South of Ireland,** (John Murray, 1825).

القليل ، مرشدا لكثير من الدارسين، فمعلوماته الموسوعية الغزيرة ساعدت كثيرا من الباحثين فى التعرف على مصادر مواد بحوثهم . كما ان ملاحظات دوس على أعمال شكسبير كانت لها أهمية بالغة فى القاء الضوء على المؤثرات الثقافية التقليدية التى تأثر بها شكسبير فى أعماله (٦) . كما يعتبر دوس من أوائل الذين اهتموا برمزية الرقص الشعبي ودلالاته الفولكلورية .

بعد فرانسيس دوس تناول المؤلف حياة وأعمال **توماس رايت** Thomas Wright (١٨١٠ ـ ١٨٧٧) الذى يعتبر واحدا من الثقات فى أدب العصور الوسطى وممن شاركوا العالمين الالمانيين الأخوين جريم ، يعقوب (١٧٨٥ ـ ١٨٦٣) وويلهام (١٧٨٦ ـ ١٨٥٩) فى اهتماماتهما بالتقاليد والآداب الشعبية .

وأهم أعمال رايت ، كتابه عن موضوعات ترتبط بالادب والخرافات الشعبية ، وتاريخ انجلترا فى العصور الوسطى (٧) . . الذى يتناول فى حوالى ٢٠ مقالا من مقالاته التقاليد الشعبية الشائعة فى ذلك الوقت وردها الى أصولها التاريخية التى ترجع الى القرنين الثانى والثالث عشر .

كما له غير ذلك عديد من المؤلفات ذكرها الكاتب وعرض لها فى ايجاز .

ومن الذين تعاونوا مع رايت جيمس أورشارد هاليويل فيلبس James Orchard Halliwell Phillipps الذى اهتم بجمع أغانى تهنين الاطفال (٨) كما نشر قاموسا للكلمات العامية ، وعددا من الكتب عن الاغانى القصصية ، والنوادر ، والمعتقدات الخيالية . كما نشر دراسة أعدها لجمعية شكسبير سنة ١٨٤٥ عن التصورات الاسطورية فى حلم ليلة صيف Illustrations of the Fairy Mythology of Midsummer Night's Dream والتى أورد فيها ٣٩ فقرة مقتطفة من الآداب الشعبية الشائعة فى عصر شكسبير أو سابقة له .

وفى نهاية هذا الفصل الذى أفرده الاستاذ **دورسون** عن الأثريين الفولكلوريين ، قدم لنا عالم الآثار الانجليزى **وليام جون تومز** William John Thoms (١٨٠٣ ـ ١٨٨٥) صاحب مصطلح الفولكلور ، والذى فرق فيه بين الموضوعات التى يتناولها المؤرخون بالدراسة من حياة الشعوب . . فقد اهتم وليام تومز بالخرافات والمعتقدات وما تتضمنه الاغنيات الشعبية واغانى الاطفال من عناصر أسطورية ومعتقدات خرافية . كما أن باب « ملاحظات واستفسارات » الذى أشرف عليه لمدة خمسة وعشرين عاما فى مجلة الاثينيوم (٩) كان له أهميته فى جمع مواد فولكلورية مفيدة للدارسين ، كما ساعد على نشر مصطلح Folklore .

وجهود تومز العلمية كان لها أكبر الاثر فى تنمية وتنشيط حركة الفولكلور العلمية والاهتمام بالمأثورات الشعبية ، داخل انجلترا وخارجها . . حتى أصبح الفولكلور علما قائما بذاته له مادة دراسته ، وطرق ومناهج بحثه العلمية مستقلا عن العلوم الانسانية التى ارتبط

---

(٦) **Illustrations of Shakespeare, and of Ancient Manners.**

(٧) Thomas Wright, **Essays on Subjects Connected with the Literature, Popular Superstitions, and History of England in the Middle Ages**, London : John Russell Smith, 1846.

(٨) James Orchard Halliwell, **The Nursery Rhymes of England**, 4th edition (London : John Russell Smith, 1846).

(٩) مجلة اسبوعية تختص بالاداب والعلوم والفنون .

بها فى بداياته .. مثــل علم التاريخ .. وعلم دراسة الانسان .. وعلم الاجتماع . وان كان مازال وثيق الصلة بطرق ومناهج بحث علــم الاتنولوجيا والدراسات الميدانية الانوجرافيه.

ولا يذكــر مصطلح فولكلور فى أى لغــة الا ويذكر اسم تومز ، كما يرجع لتومز فضــل تأسيس جمعية الفولكلور الانجليزية التى تعتبر من أقدم الجمعيات الفولكلورية فى العالم .. ودوريتها التى أصدرتها فى أول عام من تكوينها ١٨٧٨ مازالت تصدر للآن وتعتبر مرجعا علميا للدارسين والباحثين الفولكلوريين .

ومنــذ تكوين هــذه الجمعية Folklore Society وصــدور دوريتها Folklore ١٨٧٨ اخذ مصطلح فولكلور ينتشر الى ان اصبح مصطلحا علميا عالميا متعارف على دلالته العلمية ومادته .

وفى **الفصل الثالث يتناول** المؤلف مجموعة اخــرى مــن رواد الحركــة الفولكلوريــة البريطانية .. يسـميهم الفولكلوريين الادباء .. ففى أوائل القرن التاسع عشر حينما اخــذت روح الاهتمام بالتراث الشعبى تنتشر اخــذ الرومانسيون أيضا ، وخاصة الشعراء ، بحكم اهتمامهم وميلهم وحبهم لحياة الريف وبساطة الفطرة الطبيعية ، يتجهون ايضــا الى ابداع الفلاحين البسطاء ، ويهتمون بأغانيهم وفنونهم وعاداتهم وتقاليدهم التى توارثوها .. واهتم الشــــعراء الرومانســـيون مثــل وردزورث Wordsworth وكــوليردج Coleridge بالحياة الريفية .

هذا الاتجاه الرومانسى الذى ارتبط فى نفس الوقت بالروح القومية ، شاع فى مختلف بلدان أوروبا كما ساعدت دراسات الأخوين جريم فى ألمانيا على نشر الاهتمام بالموروثات الثقافيــة والادب الشعبى ، وشاعت هذه الحركة الادبية الرومانسية القوميــة فى كثير مــن البلدان وبخاصة فى ألمانيا والنرويج وفنلندا والمجــر والصرب .. ومن الشــعراء الذين اهتمــوا بالاغانى الشعبية وجمعها **يوهان جوتفريدفون هــيردر** Johann Gottfried Von Herder .

هذا الاتجاه الرومانسى أثرَّ على الاتجــاه العقلى والمنهج الوضعى فى منــاهج البحث ، فاتجه الاهتمام العلمى بالمواد الفولكلورية وجهة ادبية ، كما أن ظهور مجموعات من الحكايات الشعبية وخاصــة مجموعة الحكايــات التى جمعها الأخوان جريم ، أثرت فى اتجاه الكتاب الروائيين من **أوفــد** Ovid الى **بوكاتشــيو** Boccaccio (١٠) كما أثار هذا الاتجاه اتجاها آخرا فرعيا أعطى لجامع الحكايات الشعبية حق اعادة صياغة المادة الشــفاهية بأسلوبه الشخصى .

مع هذا الاتجاه ظهرت مجموعة من الادباء الذين يهتمون بالتراث الشعبى الذين يسميهم دورســـون الفولكلوريين الادباء The Literary Folklorists ، مثل **روبرت سوزى** Robert Southy (١٧٧٤ — ١٨٤٣) والروائيــة **أنــا براى** Anna Eliza Bray (١٧٩٠ — ١٨٨٣) التى كتب لها **سوزى** فى احدى رسائله قائلا ، انه كان يود ان يحفظ كل ما كان يرويه أقاربه المسنون من ذكريات عن حياتهم وتقاليدهم ، وما كانوا يقصونه مــن قصص وسوالف عــن اقاربهم وأسلافهم ، تصــف حياتهم القــديمة وعادانهم ، وما كان شائعا فى زمانهم السابق والازمان التى سبقتهم .

---

(١٠) لم يشر المؤلف الى اثر حركة ترجمة التــراث العربى مثل الف ليلة وليلة والمقامات فى هذا الاتجاه الروائى وخاصة عند بوكاتشيو فى عملــه Decameron **وكانديد** Candid **لفولتير وظهور فن الرواية المسمى اصطلاحا** Picaresque Novels .

وقد اصدرت السيدة **براى** كتابا من ثلاثة أجزاء (١٨٣٦) اشتهر بعد ذلك (١٨٧٦) بعنوان The Borders of the Tamar and the Tavy يتضمن وصفا للتاريخ الطبيعى والعادات وانماط السلوك والخرافات والموروثات الثقافية فى ديفونشير Devonshire مع ترجمة لبعض الشخصيات الهامة القاطنة هذه المنطقة التى تقع بالغرب من تاماروتاقى .

هذا الاتجاه الادبى ، فى رصد الظواهر الفولكلوريةاستمر عند **چونروبى** John Roby (١٧٩٣ ـ ١٨٥٠) الذى وضع ١٨٢٩ كتابا عن تقاليد لانكشير Lancashire (١١) ، وغير ذلك من مجموعات قصصية ، كما سار **صمويل لقر** Samuel Lover (١٧٩٧ ـ ١٨٦٨) على نهج خطى روبى، وأصدر مجموعات من القصص الشعبى الايرلندى .

اما الفصل الرابع من الكتاب : فيخصصه المؤلف للفولكلوريين الاسكتلنديين الاوائل مثل **والتر سكوت** Walter Scott (١٧٧١-١٨٣٢) الذى اهتم بالمعتقدات الخرافية والأشباح وانواع الجنيات وشخصيات الساحرات التى ترد فى الحكايات والمعتقدات الشعبية . كما اشترك **الان كننجهام** Allan Cunningham مع سكوت فى دراسة الخرافات الشعبية وجمع الاشعار الشعبية ، وعلى نهج سكوت سار ايضا **روبرت تشامبرز** Robert Chambers **(١٨٠٢ ـ ١٨٧١) الذى جمع مادة عن التراث الثقافى فى ادنبرج** Traditions of Edinburgh (١٨٢٤) وكذلك اشعارا غنائية من اسكتلنده Popular Rhyms of Scotland (١٨٢٦) وحكايات ونوادر اسكتلندية (١٨٣٢) .

من بين مجموعة الفولكلوريين الاسكتلنديين الذى أشار اليهم **دورسون** فى هذا الفصل من كتابه ، **هـ . ميلر** Hugh Miller (١٨٠٢ ـ ١٨٥٦) الذى لم يكن مجرد جامع او مسجل للسوالف والعادات ، بل كان يتمتع بقدرة كبيرة على تمثل هذه المأثورات الشعبية ، وقدرة ملاحظة واستيعاب لكل ما يحوطه من موروثات ثقافية قديمة ، وقد نشر دراسات عن الخرافات الشائعة فى شمال اسكتلندة Scenes and legends of the North of Scotland (١٨٣٥) كما نشر ترجمة ذاتية لحياته .

ومن بين هذه المجموعة من جامعى المأثورات القديمة الباحثة **آن جرانت** Anne MacVicar Grant (١٧٥٥ ـ ١٨٣٨) التى **اصدرت دراسة عن الخرافات الشعبية فى** مرتفعات اسكتلندة Essays on the Superstitions of the Highlanders of Scotland **ووليام جرانت ستيوات (١٢)** .

ووليام چون جراهام داليل John Graham Dalyell (١٧٧٥ ـ ١٨٥١) الذى **اهتم بجمع الخرافات الشعبية** من الكتب القديمة والمخطوطات وكذلك من خلال الممارسات اليومية .

The Darker Superstitious of Scotland Illustrated from History and Practice (1834)

• • •

وبعد أن تناول المؤلف فى هذا الفصل من كتابه **اعمال** أهم الفولكلوريين الاسكتلنديين مع ترجمة موجزة لحياتهم واهتماماتهم قدم فى **الفصل الخامس** جماعة الفولكلوريين الذين

---

(١١) John Roby, **Popular Traditions of Lancashire,** 3 Vols. (3rd edition, London, Henry G. Bohn, 1843.

(١٢) Stewart, William Grant, **The Popular Superstitions and Festive Amusements of the Highlanders of Scotland** (1823).

اهتموا بالجانب الاسطوري في التراث الشعبي. وهو فى تتبعه التاريخي لمختلف المراحل التى مرت بها حركة الفولكلور البريطانية يتابع فى نفس الوقت الاتجاهات العلمية التى ساعدت على تحديد مفهوم الفولكلور .

ومن اهم اعلام المدرسة الفولكلوريه الاسطورية **ماكس مولر** Max Müller **واندرو لانج** Andrew Lang وقد ولد مولر فى المانيا عام ١٨٢٣ ، ثم انتقل الى انجلترا ١٨٤٦. وعمل استاذا فى جامعة اكسفورد منذ ١٨٤٦ الى أن مات سنة ١٩٠٠ . ودراسات مولر فى علم الاساطير المقارن، وتاريخ الاديان والمعتقدات عديدة .. وعرض المؤلف لاعمال مولر العديدة فى ايجاز . ونظرياته التى وضعها عن الاساطير الهندية واليونانية والاساطير الهند ــ اوروبية . كما عرض المؤلف للنقد الذى وجهه مولر للانج ، وكذلك نقد لانج لمولر .. كما تناول فى هذا الفصل علماء الاساطير الآخرين المعاصرين لكل من مولر ولانج مثل العالم الالمانى **ادلبرت كوُنْ** Adalbert Kuhn **ووليام جل** William Wyatt Gill **وولتر كيللى** Walter K. Kelly وغيرهم من اساتذه علم الأساطير مثل **روبرت براون ((الصغير))** Robert Brown, "Junior" (١٨٤٤ ــ ١٩١٢) الذى بين اثر الثقافات السامية القديمة على الاساطير الهلينية الدينية. وقد أشار براون الى انه يجب على هؤلاء المشغولين بميدان الدراسات الآرية أن ينتبهوا الى ما وفد اليهم من شواطىء الفرات والنيل (١٣) وكما حاول مولر أن يبين الصلة بين آلهة اليونان وآلهة الهند كما ورد فى نصوص الفيدا ، فقد حاول براون المتخصص فى التراث المصرى والآشورى أن يربط اليونان بثقافة واساطير الشرق الادنى .

والواقع ان المدرسة الأسطورية فى الفولكلور لعبت دورا كبيرا فى موضوعات الدراسات الفولكلورية ، واوجدت نوعا من العلاقة بين دراسة الحكايات الشعبية والخرافية منها بخاصة والأساطير . فكثير من الحكايات الشعبية تحمل فى مكوناتها عناصر اسطورية ، كما تداخلت عناصر من الاساطير والتصور الاسطورى مع بعض عناصر المعتقدات الدينية. ورغم الاستقلال العلمى الذى يتميز به علم الفولكلور ــ حاليا ــ توجد صلة وطيدة بين علم الاساطير ومباحث الحكايات الشعبية والممارسات الطقوسية. . فالباحث الفولكلورى يجد نفسه دائما فى حاجة الى معاونة تفسيرات علماء الاساطير (١٤) مثل حاجته الى معاونة الدراسات الاثنولوجية . (١٥)

وكما طالب مولر دارسى الاساطير بمعرفة السنسكريتية ، وطالب لانج دراسة الاثنولوجى ، فان براون طالب بضرورة ان يتعرف الدارسون للاساطير على آخر الدراسات عن الحضارات الكلدانية والآشورية والفينيقية والعربية والفارسية ، والمصرية . فالثقافات

(١٣) Robert Brown, **The Great Dionysiak Myth**, 2 Vols. (London 1877 — 78) 1—162.

(١٤) راجع ، الدكتور عبد الحميد يونس ، الفولكلوروالميثولوجيا ، مجله عالم الفكر ، المجلد الثالث ، العدد الاول ، ابريل ــ مايو ــ يونيه ١٩٧٢ ، الكويت ، ص ١٥ ــ ٥٤ .

(١٥) Smith Thompson, **Advances in Folklore Studies,** in Anthropology Today, An Encyclopedic Inventory, The University of Chicago Press, 1953.

انظر ترجمة هذه الدراسة (التقدم فى دراسات الفولكلور)للكاتب ــ مجلة ((المجلة)) القاهرة ــ سبتمبر ١٩٦٤ .

السامية الاسيوية قد اضافت آلهة عديدة الى آلهة اليونان القديمة التى كان أصلها هنديا آريا (١٦) .

ثم فى **الفصل السادس** يتناول المؤلف الفولكلوريين الذين اهتموا بالحياة البدائية . ورائد هذه الجماعة هو **ادوارد برنت تايلور** Edward Burnet Taylor الذى يعتبر أبا لعلم الانسان Anthropology وعرّاب Godfathre مدرسة الفولكلوريين الانثروبولوجيين . فدراسات تيلور الرائدة عن التاريخ المبكر للانسان : (١٨٦٥) Researches into the Early History of Mankind اوجدت الحد بين الفولكلور وعلم الاساطير . كما أن تيلور وضع تعريفا او تفسيرا جديدا للفولكلور بمعنى « الثقافة الحية » وقد استلهم هذا التعريف من ملاحظاته ودراساته لثقافة الشعوب البدائية .

وقد عرض المؤلف أعمال تيلور ونظرياته بتوسع أكثر من غيره من العلماء ، نظراً لاهمية تيلور فى تحديد المفهوم الثقافى للفولكلور .. كما اوضح جهود الذين عاونوا تيلور فى دراساته مثل **چون لوبوك** John Lobbock الذى نشر عام ١٨٦٥ كتابا نفذ فور صدوره Pre Historic Times, as Illustrated by Ancient Remains and the Manners and Customs of Modern Savages.

وفى **الفصل السابع** ، يقدم المؤلف المجموعة العظيمة من الفولكلوريين مثل اندرولانج (١٨٤٤ ــ ١٩١٢) احد اعلام المدرسة الفولكلورية الاسطورية التي سبق الاشارة الى جهوده مع ماكس مولر فى دراسة الاساطير والذى حدد مناهج البحث الفولكلورية فى كتابه الذى تضمن مقالات عن العادة والاسطورة Custom and Myth (١٨٨٤) . وقد تناول الاستاذ دورسون حياة وأعمال اندرولانج لا باعتباره عالما من علماء الانثروبولوجيا بل كعالم انثروبولوجى فولكلورى ، وكذلك موقف لانج من الحكايات والقصص الفنائى . كما ان اهتمام لانج بالحكايات والقصص الشعبية قد وجه تفكيره نحو « دراسة الطابع القومى فى الحكايات الشعبية ، كما انه رفض فكرة تبعية الفولكلور للدراسات اللغوية ، وربط الفولكلور بالدراسات الانثولوجية (١٧) .

اما أول من نادى بأن الفولكلور هو علم قائم بذاته فهو **چورج لورانس جوم** George Laurence Gomme (١٨٥٣–١٩١٦) الذى يعتبر الرجل المنظم لمجموعة الفولكلوريين الانجليز ، والذى لعب دورا فعالا فى نشاط جمعية الفولكلور الانجليزية ، ونشر عدة دراسات عن تاريخ لندن . وهو الذى نبه الى ان الحكايات الشعبية تحتوى على عناصر تاريخية ، وعناصر أسطورية ، كما تتضمن الحكايات ايضا نماذج من النظم السياسية البدائية . كما اصدر دراسات عن الامثال والعادات والتقاليد. وحث جمعية الفولكلور على المشاركة فى جمع مواد المأثورات الشعبية ونشرها .. واول كتاب أصدره عن الفولكلور كان عن المجالس التى تعقد خارج البيت فى بريطانيا (١٨) .

ومن العلماء الذين شاركوا بجهودهم فى جمعية الفولكلور الانجليزية **الفردنت** Alfred Nutt (١٨٥٦ ــ ١٩١٢) فهو بجانب انه

(١٦) Robert Brown, op, cit 1. Vi ; II 334.

(١٧) ص ٢١٧ من الكتاب .

(١٨) **Primitive Folk-Moots, or Open Air Assemblies in Britain,** London 1880.

ومن مؤلفاته ايضا :

1. Ethnology in Folklore 1892)
2. Folklore as an Historical Science (1908).

أحد العلماء الاتنولوجيين العظام ، ينضم أيضا الى جماعة الفولكلوريين العظام الذين دفعوا بحركة الفولكلور الى مجالها المتميز فى الدراسات الانسانية .. وقد تناول المؤلف أعمال هذه الجماعة العظيمة The Great Team of Folklorists الذين تعاونوا معا فى الكشف عن الموروث الثقافى الانسانى وبلورة الدراسات الفولكلورية مثل **هارتلاند** Edwin Sidney Hartland (١٨٤٨ — ١٩٢٧) **وادوارد كلود** Edward Clodd (١٨٤٠ — ١٩٣٠) **ووليام كلوستون** William Alexander Clouston (١٨٤٣ — ١٨٩٦) الذى نشر مجموعة من الاسعار العربية سنه ١٨٨١ (١٩) وقصة سندباد .

كما تناول المؤلف حياة وأعمال غير هؤلاء من الفولكلوريين الرواد ، واعضاء جمعية الفولكلور الانجليزية .

وقد خصص المؤلف **الفصل الثامن** من كتابه لعرض جهود هذه الجمعية وما تناولته من دراسات ، ودوريها التى مازالت تصدر للآن ربع سنوية تتضمن دراسات فولكلورية .

بعد ذلك تناول المؤلف عمليات الجمع الميدانى التى قام بها الباحثون الفولكلوريون فى الأرياف . والتى يرجع الى **جوم** **Gomme** فضل الريادة فى وضع الأساس المنهجى لها حينما اعد كتاب « دليل الفولكلور » Hand Book of Folklore لجمعية الفولكلور عام ١٨٩٠ وتعاون معه مجموعة من الباحثين الفولكلوريين . وقد أوضح جوم فى هذا الكتاب الموضوعات التى تتكون منها المأثورات الحية التى تسمى Folklore والتى تقسم الى :

أولا : المعتقدات الخرافية والممارسات الطقوسية والسحر .

ثانيا : الاحتفالات التقليدية والالعاب .

ثالثا : المرويات التقليدية وتتضمن الحكايات الشعبية وقصص الابطال وحكايات الحيوان والقصص الغنائية .

رابعا : الاقوال السائره وتحتوى على اغانى تهنين الاطفال والامثال والالغاز والاسماء المستعارة .

وقسم هذه الاقسام الى اقسام فرعية ، كما احتوى الكتاب على ٧٨٤ سؤالا حول هذه الموضوعات تساعد الجامع على جمع مادة بحثه بدقة وترتيب ، كما تضمن الكتاب فصلا عن تعريف الفولكلور « الفولكلور ما هو » ، و « السبيل الى جمع الفولكلور » و « العمل فى المكتبة » . وقد أثمر هذا الكتاب فى تكوين مجموعة من الباحثين الميدانيين ، الذين جمعوا موادا من المأثورات الشعبية الشفاهية جمعا أكثر منهجية .. وقد أورد الاستاذ دورسون فى هذا الفصل قائمة بأسماء هؤلاء الباحثين الميدانيين وأعمالهم (٢٠) . وتحدث عن بعض هذه الاعمال بايجاز بنفس الطريقة التى انتهجها فى مختلف فصول هذا الكتاب فى عرضه التاريخي لتطور حركة الفولكلور البريطانية ومؤثراتها وتأثرها بحركات الفولكلور فى بلدان أخرى وخاصة فى المانيا .

ثم فى **الفصل قبل الأخير** تناول المؤلف حركة الفولكلور عبر البحار .. والفولكلوريين الذين

---

(١٩) Arabian Poetry for English Readers.

وفى سنة ١٨٨٧ اصدر احسن اعماله :

Popular Tales and Fictions, their Migrations and Transformations.

(٢٠) ص ٣٢٠ من الكتاب .

جمعوا مادتهم من الدول التي استعمرتها الامبراطورية البريطانية .. في الهند وافريقيا .. وكذلك لحركة الفولكلور في أوروبا والمواد التي جمعت منها ..

ثم في **الفصل الحادي عشر والاخير**، تناول الفولكلوريين الكلتيين The Celtic Folklorists واستهل حديثه في هذا الفصل بعبارة لالفرد نت قالها عن **كامبل** J. F. Campbell الذي تعلم منه الفرد نت حب التراث الكلتي .

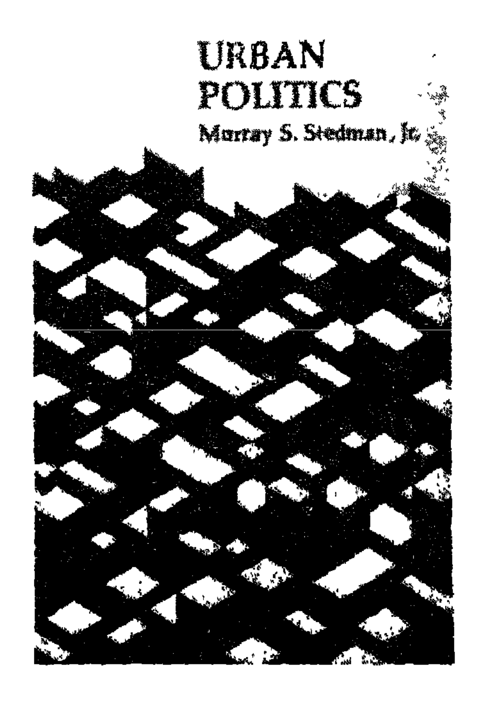
وتناول المؤلف الحركة الفولكلورية في اسكتلندة وايرلنده ثم اختتم كتابه بخاتمة مختصرة عن أثر الحرب العالمية الاولى في توقف النمو الطبيعي لهذه الجهود العلمية .. ففي ١٩١٤ توفي اندرو لانج والفردنت وجوم ، وهاجر جوزيف يعقوب الى امريكا احد مؤسسي جمعية الفولكلور ، وساد الاهتمام بالدراسات الانثروبولوجية اكثر من الاهتمام بالفولكلور ..

ولكن منذ أوائل الخمسينات في هذا القرن بدأ الاهتمام الجاد بالمأثورات الشعبية يظهر من جديد وبشكل أكاديمي .. وصدرت عدة دراسات عن أغاني الاطفال وعن الحكايات الشعبيه .

وفي الواقع ان هذا الكتاب رغم غزارة مادته وتنوعها قد قدمه المؤلف في أسلوب ونهج واضحين .. كما ان المنهج الذي اتبعه في وضع كتابه يعتبر نموذجا يحتذى به في تاريخ حركة الفولكلور العربية .. في مختلف اقطار الوطن العربي . فرغم ان حركة الفولكلور العربية لم تتخذ شكلها الرسمي تحت هذا المصطلح الا في بداية النصف الثاني من هذا القرن ، فان الجهود العلمية العديدة والمتنوعة لجمع مواد التراث الشفاهي العربي تمتد في عمر الزمان الى عشر قرون خلت حينما سجل الرحالة والمؤرخون العرب مشاهداتهم عن الحياة اليومية للمجتمع العربي ، وانماط السلوك والاعراف الشائعة والعادات والتقاليد بجانب رصدهم لمختلف الظواهر الفنية في مختلف العصور .

والاستاذ **دورسون** بطبيعة تكوينه العلمي كاستاذ للتاريخ .. واستاذ للفولكلور قد أمكنه بطواعية شديدة وضع تأريخ دقيق وواضح لحركة الفولكلور البريطانية ، كما حدد في نفس الوقت التطور العلمي لعلم الفولكلور كمادة ، وموضوع بحث .

* * *



السّياسَة الحضريّة

عرض وتحليل : الدكتور عبد الباسط محمد حسن

تميز العصر الحديث بزيادة عدد المدن فى العالم ، ونموها مساحة وسكانا ، ووصول كثير منها الى مرتبة المدينة المتروبوليتانية (المائة الفية) ، ثم المدينة العملاقة التى تضم عدة ملايين من البشر ، وقد ترتب على ذلك نمو التجمعات الحضرية الكبيرة بصورة لم تكن مألوفة من قبل ، وزيادة معدل التحضر ، وانتشار الحضرية كأسلوب للحياة ، ونمط للمعيشة يؤثر فى سلوك الناس وتفكيرهم ، ويطبعهم بطابع خاص متميز .

ولما كانت عملية التحضر فى المجتمعات المختلفة تصاحبها تغيرات فى البناء الاجتماعي ، وتنشأ عنها أنماط مستحدثة ، وقيم اجتماعية جديدة ، وترتبط بها مشكلات اقتصادية وسياسية واجتماعية وحضارية متعددة ، فقد اتجهت جهود الباحثين والمفكرين ــ على اختلاف تخصصاتهم ــ الى دراسة ظواهر الحياة السائدة فى المجتمعات الحضرية ، والكشف عن المشكلات التى تواجهها، والوقوف على الصلات التى تقوم بينها وبين غيرها من المجتمعات المحلية فى اطار المجتمع القومي العام .

والكتاب الذى نعرض له فى هذا المجال واحد من الكتب التى تتخذ من المجتمع الحضرى ميدانا للدراسة ، وتجعل من النظام السياسى موضوعا للبحث ، فيناقش المؤلف الأسس النظرية لفلسفة الحكم فى الولايات المتحدة ، والمبادىء العامة التى ترتكز عليها الديموقراطية الامريكية ، ويركز على مبداين اساسيين هما : مبدأ التمييز بين الدولة والمجتمع المحلى ، ومبدأ تعدد الجماعات وحرية الانتماء الى أى منها من غير قهر أو اكراه ، ثم يعالج قضايا الديموقراطية فى مجال التطبيق العملى ،

والممارســة الفعلية ، ويظهـر بوضـــوح أن « جماعات المصـالح Interest Groups » تدخل فى دائرة الصراع ، وتؤثر على بناء القوة فى المجتمعات الحضرية ، ويصـبح لهـا الدور الرئيسى فى صنع القرارات ، وصياغة المستقبل ، بحيث تنحرف الديموقراطيـة عن مســارها الطبيعى ، وتتحـول من حكـم الاغلبيـة الى « احتكار القِلّة Oliopoly » ومن نظام يقوم على التوفيق بين المصالح المتعارضة Compromise الى نظـام يجعـل من « الصراع Conflict » ركيزته الاساسية فى السياسة والحكم .

ومؤلف هذا الكتاب هو « مرى ستيدمان » استاذ العلوم السياســية بجامعة « تمبــل » بفيلادلفيا بولاية « بنسلفانيا » . وله مؤلفات كثيرة فى مجال تخصصه ، من اهمها :

– الدين والسياسة فى أمريكا .

– تصدير الاسلحة .

– عدم الرضا أمام صناديق الاقتــراع (بالاشتراك) .

– ديناميات الحكم الحديث (بالاشتراك) .

– تحديث الحكومة الامريكية : متطلبات التغير الاجتماعي .

وقد اختار « ستيدمان » المجتمع الحضرى بالذات ليكون ميدانا لدراسته لاحساســه بتعاظم الدور الذى تقوم به المجتمعات الحضرية فى المجالات السياسية والاقتصادية والحضارية ، ولادراكه مـدى التأثـير الـذى تحدثه تلـك المجتمعات على غـيرها من البيئات المحليـة فى اطار المجتمع الكبير . وفى رأيـه ان النظـام السياسى فى الولايات المتحدة كان من أكثر النظم تأثرا بعملية التحضر . ففى الوقت الذى كان فيه الاقتصاد القـــومى يعتمـد على الانتــاج الزراعى ، كانت الولايات المتحدة تنقسـم الى مناطق لزراعة القطن والذرة والقمح ، وكانت أعداد كبيرة من السكان تشتغل فى الزراعة أو فى الاعمال الاستخراجية البسيطة ، غير أنه بعد حدوث الثـــورة الحضريـــة ، ونمو المراكـــز الصناعية ، ظهرت وحدات ايكولوجية جديدة ، ووجـــدت طبقات جديـــدة لم تكن معروفة من قبل ، واصبح العمال ينتظمون فى نقابات تدافع عن مصالحهم المشتركة بغض النظر عن المناطق الجغرافية التى يعملون فيها ، كما تغير الاساس الطبقى للتنظيمات السياســية ، فأصــبحت الاحزاب تعتمد على تأييد فئات جديدة غــير الفئات التي كانت تساندها من قبل ، وليس أدل على ذلــك من أن الحـــزب الديموقراطى أصبح يعتمد اعتمادا أساسيا على سكان الحضر بعد أن تزايدت هجرة الزنوج وأهل بورتوريكو الى المدن الكبيرة ، كما اصبح لقادة الحـــزب الديموقراطى فى المدن الصناعية مثل نيويورك وبوسطن وشيكاجو دور كبير فى تصريف أمور الحزب على المستوى القومى .

وبالنسبة للاتجاه النظـرى الـذى يتبناه « ستيدمان » فى دراسته يقول :

لقد كان الاتجاه الســائد بين المؤرخــين فى الولايات المتحدة هو تصوير التاريخ الامريكى كما لو كان يسير نحو خلق وحــدة داخلية بين الجماعات غير المتجانسة .

وكان الشعار السائد هو : من الكثـير الى الواحد (١) .

وقد أخذ علماء السياســة هذا المفهوم عن المؤرخين الامريكيين فى تفســـيرهم لاتجاهات التطور السياسي ، فكان ينظـر الى عمليات المنافسة والصراع السياسى على أنها وســائل للوصول الى قدر من الاتفاق ، وليست غايات

(١) Stedman, Murray S., Urban Politics, Winthrop Publishers, Inc., 1972, p. 11

فى ذاتهـا . وهذه النظره كان يطلق عليها فى مفهوم الفلسفة السياسية « اصطلاح التعدد Pluralism » ، وكان يطلق عليها ـ فى مجال المنافسة الحزبية ـ اصطلاح « سياسة المساومة أو السمسرة Brokerage Politics » . غير أنه فى السنوات الاخيرة أثيرت تساؤلات كثيرة ـ من جانب المؤرخين وعلماء السياسة ـ حول صحة هذا الاتجاه ، وظهرت نظرية جديدة تركز على « الصراع » كعملية أساسية فى توجيه السياسة الامريكية (٢) .

والاتجاه الذى يتبناه المؤلف هو : تقدير أهمية الصراع كعنصر أساسى فى فهم السياسة الامريكية لاعتقاده فى فشل مفهوم « التوفيق Compromise » أو « الاجماع Consensus » فى تفسير العلاقات والاوضاع السياسية السائدة .

ويذهب « ستيدمان » الى أن نموذج الصراع الذى يستخدمه فى تفسير السياسة الحضرية له جذوره فى الفكر القديم ، كما أنه يعتمد ـ الى حد ما ـ على آراء كارل ماركس التى تؤكد دور الصراع الطبقى بين القوى الاقتصادية والاجتماعية القائمة فى المجتمع ، غير انه فى أساسه مستمد من واقع الخبرة بأساليب السياسة الحضرية فى المجتمع الامريكى خلال العشرين عاما الماضية .

ويقول « ستيدمان » :

قد يتساءل البعض : لكن ما هو الجديد فى هذا التفسير لمعالم السياسة الحضرية ؟ وردا على هذا التساؤل فاننى أقول : ان الجديد هنا يتلخص فى نقطتين هما : محاولة الوصول الى تعريف للسياسة الجديدة ، ثم محاولة تحديد خصائصها المميزة .

فبالنسبة للنقطة الأولى ، يمكن تعريف السياسة الجديدة بأنها « سياسة لا تعتمد على التكيف Accomodation الذى يتم عن طريق المساومه او الوساطة أو السمسرة ، وانما تعتمد على الصراع بين قوى متعددة بحيث يستطيع صاحب القوة الاكبر ان يفرض رأيه ، ويملى قراراته على الآخرين دون أن يتمسك كثيرا بالمبادىء والقيم الاخلاقية (٣) » .

اما من ناحية الخصائص ، فيمكن تحديد معالم السياسة الجديدة فيما يلى :

١ ـ اتساع نطاق الصراع السياسى ، وامتداده الى كثير من مجالات الحياة .

٢ ـ تزايد حدة الصراع السياسى وتغلغله فى كثير من المسائل التى لم تكن تلقى اهتماما سياسيا كبيرا .

٣ ـ زيادة عدد الافراد والجماعات الذين دخلوا دائرة الصراع السياسى .

٤ ـ اتساع دائرة المشاركة فى المسائل السياسية نتيجة لتزايد عدد المشتركين فى النشاط السياسي .

٥ ـ اخضاع القوانين والاجراءات الحكومية للمناقشة للتأكد من مدى التزامها بمبدأ الشرعية ، بعد أن كانت القوانين تطاع وتنفذ فى الماضى من غير مناقشة أو أعتراض (٤) .

ويقع الكتاب فى ثلاثمائة وتسع وعشرين صفحة من القطع المتوسط ، منها ثلاثمائة

---

(٢) Ibid., p. 12.

(٣) Ibid, p. 12.

(٤) الكتاب : ص ١٢ .

واحدى عشرة صفحة للمتن ، وثماني عشره صفحة للتعليقات والتذييلات . وينقسم الكتاب الى مدخل وخمسة أقسام وخاتمة ، تضم اثنى عشر فصلا يعالج فيها المؤلف موضوعات لها أهميتها من الناحيتين النظرية والتطبيقية .

ففى مدخل الكتاب ــ الذى يشتمل على فصل واحد ــ يتحدث المؤلف عن الوضع الحضرى فى العالم بصفة عامة ، وفى الولايات المتحدة بصفة خاصة . فيعرض لنشأة المدن فى العالم وتطورها ، ثم يعرض لنشأة المدن الامريكية والمراحل التى مرت بها ، والمشكلات التى اعترضت سبيلها منذ منتصف القرن التاسع عشر ، والعوامل التى أدت الى فشلها فى مواجهة تلك المشكلات ، وما ترتب على ذلك من انتشار التشاؤمية لدى جماهير الشعب الامريكى التى أصبحت أقل ثقة فى مستقبل مدنها مما كانت عليه منذ ستين عاما مضت . ومن أهم النقاط التى ناقشها المؤلف فى هذا الفصل التأثيرات التى أحدثها النمو الحضرى السريع فى الولايات المتحدة من حيث زيادة معدلات الهجرة الى المدن المتروبوليتانية ، وظهور جماعات المصالح ، وتغير الاساس الطبقى للتنظيمات السياسية،وظهور متغيرات جديدة لها وزنها فى العمل السياسى ، مثل التركيب العمرانى والنوعى والعنصرىللسكان، وارتفاع مستوى التعليم ، وتنوع المهن ، وارتفاع متوسط الدخل الفردى ، وحدوث التفاوت الكبير بين الطبقات الاجتماعية ، وعدم التجانس الشديد فى بناء المجتمع .

وفى ختام هذا الفصل يناقش المؤلف الاتجاهات الجديدة فى السياسة الحضرية ، والتي ترتكز فى أساسها على الصراع بدلا من المساومة والتوفيق ، كما يعمد الى تحديد المصطلحات التى يستخدمها بكثرة فى دراسته وهي : العلوم السياسيه ، والصراع السياسي ، والشرعية ، والمنطقة الحضرية ، والمدينة ، والمنطقة المتروبوليتانية ، والسياسه الحضرية .

وفى **القسم الاول من الكتاب** ــ الذى يشتمل على فصلين ــ يعرض المؤلف للوضع الحضرى العام فى الولايات المتحدة ، ويبدأ بتحديد الخصائص المميزة للحياة الحضرية ، وينتقل الى تحديد مصطلح « الايكولوجيا » ، ويعتمد فى تحديده للمفهوم على قاموس التراثالامريكى الذى يُعرِّف الايكولوجيا بأنها « العلم الذى يدرس العلاقة بين الكائنات العضوية وبين الظروف البيئية المختلفة » (٥) ، ثم يعرض لنظريات ثلاث تفسر النمو العمرانى فى المدينة وهى « نظرية النموذج الدائرى المتمركز Concentric Zone Theory » التى ترى ان المدينة تنمو بفعل حركة الطرد المركزية من الداخل الى الخارج فى شكل حلقات دائريةحول المركز بحيث تختص كلّ دائرة بنوع معين من أنواع النشاط ، « ونظرية القطاع Sec or Theory » التى تقول بأن المدينة لا تنمو فى شكل دائرى وانما تنمو فى شكل قطاعات تبدأ من الداخل وتتجه نحو الخارج ، « ونظرية النوايا المتعددة Multiple Nuclear Theory » التى تقول بوجود عدد من المراكز فى كل مدينة بخلاف النظريتين السابقتين (٦) . وبعد ذلك يعرض المؤلف لنمو المناطق المتروبوليتانية فى المجتمع الامريكى ، ثم يوضح العلاقة بين الجانب الايكولوجى والجانب السياسي .

---

(٥) الكتاب : ص ٢٢ .

(٦) الكتاب : ص ٢٢ ٢٣، .

ونظرا لأهمية الجانب السياسي فى هذه الدراسة ، فان المؤلف يخصص فصلا كاملا يعالج فيه النظم والعمليات السياسية فى البيئات الحضرية ، فيعرض بالتفصيل للاطار القانونى للحكم المحلى ، ولأشكال الحكم فى المدينة ، والتى تتمثل فى أشكال ثلاثة هى : نظام حكومة المحافظ والمجلس ، ونظام المجلس والمدير ، ونظام اللجنة ، ويناقش مزايا وعيوب كل نوع ، ثم يعرض للعلاقات المتبادلة بين حكومات المدن ، ومدى تدخل الدولة فى شئون الحكم المحلى .

والقسم الثاني من الكتاب عبارة عن فصل واحد ، يعتبر من أهم فصول الكتاب . يعرض فيه المؤلف لتطور النظرية السياسية فى الولايات المتحدة ، ويحاول ان يستفيد من فكرة اقامة « النماذج Models » فى تأصيل نموذج نمطى للسياسة الامريكيه .

اما عن تطور النظرية السياسية فى الولايات المتحدة فيقول :

« لقد كان هناك شبه اتفاق بين علماء السياسة حول طبيعة الديموقراطية الامريكية، والخصائص المميزة لها،ولما نشر مكيفر — عالم الاجتماع الامريكى (٧) — كتاب « تكوين الدولة » فى سنة ١٩٤٧ ، وعرض فيه للصلة بين الدولة والمجتمع المحلى ، والخصائص التى يتميز بها النظام الديموقراطى عن غيره من النظم السياسية ، زاد اتفاق المجتمع الاكاديمى حول مفهوم وخصائص الديموقراطية الامريكية (٨) .

ومما هو جدير بالذكر أن الكتابات السياسية فى الولايات المتحدة — قبل الاربعينيات — كانت تعتمد على تفسيرات مستمدة من التاريخ والقانون والفلسفة ، ولم تكن هناك نظريات مستمدة من علم النفس والاجتماع . فلما قامت الحرب العالمية الثانية ، اهتمت هذه العلوم بالجوانب التطبيقية ، وبدأت تستخدم أساليبها واجراءاتها المنهجية فى الصناعة والحرب وفى غيرها من مجالات الحياة . وكان للنتائج العملية التى توصلت اليها أثر كبير فى تقدم علم السياسة الذى كان يمر فى تلك الآونة بمرحلة حاسمة من مراحل تطوره ، فكان عليه ان يكيف نفسه لنمط التفكير الذى تأخذ به العلوم السلوكية . وخلال حقبتين من الزمان بدا واضحا ان علماء السياسة تأثروا بالعلوم السلوكية تأثرا كبيرا . وكانت « نظرية العمل السياسي The Theory of Political Action » التى عرفت باسم « نظرية الجماعة فى المجال السياسى Group Theory of Politics من النظريات التى تركت بصمات واضحة فى مجال العلوم السياسية . وتذهب هذه النظرية الى أن العلاقات السياسية الرئيسية هى التى تنشأ داخل الجماعة ، او تقوم بين الجماعات بعضها وبعض . ويعنى هذا أن ما يحصل عليه الفرد انما يتم عن طريق تفاعله مع غيره من الناس . ويتطلب هذا وجود نوع من التنظيم . ولذا فان دراسة سلوك الافراد يمكن أن تتم من خلال الانشطة التى تمارسها الجماعات . ويهتم عالم السياسة بالدرجة الاولى بالجماعات التى لها تأثير حقيقى أو فعّال فى العملية السياسية ، وهى التى تعرف باسم « جماعات المصالح » ، وهى جماعات يجمع بين أفرادها مشاعر واتجاهات مشتركة ، وتسعى الى فرض سيطرتها، واملاء رغباتها واتجاهاتها على غيرها من الجماعات الموجودة بالمجتمع (٩) » .

---

(٧) وهو من أصل اسكتلندى .

(٨) الكتاب : ص ٧٩ .

(٩) الكتاب : ص ٨٤ .

وفى سنة ١٩٥١ نشر « ترومان » كتابا بعنوان « العملية الحكومية » ، وقد اعتبر انجيلا لأصحاب نظرية الجماعة ، ومرجعا أساسيا للمشتغلين بالعلوم السياسية . ويمكن القول بأن نظرية الجماعة ساعدت على ظهور وتدعيم الاتجاهات الامبريقيةفى علم السياسة، كما ساعدت علىفهم وتفسير الصراع السياسي، ومن ثم أصبحت نظرية الجماعة جزءا من النظرية الرسمية للسياسة الامريكية .

أما عن النموذج النمطى للسياسة الامريكية، فيقول « ستيدمان » : « من المفيد فى العلوم الاجتماعية والطبيعية بناء نماذج تفيد فى تحليل وفهم العمليات التى تدور داخل الانساق الكبيرة . وقد حاول أفلاطون فى جمهوريته ان يضع نموذجا لدولة مثالية ، كما قدّم « هوبز » نموذجا آخر فى كتابه « Leviathan » ، وبالمثل يمكن بناء نموذج لدولة شيوعية مستمد من كتابات « ماركس وانجلز ولينين » ، ونماذج أخرى لدول دكتاتورية واوليجاركية وديموقراطية (١٠) .

والنموذج الامريكى يمكن تأصيله بالرجوع الى القرارات الحاسمة التى اتخذها القادة الكبار الذين ساهموا فى ارساء دعائم الديموقراطية الامريكية ، والى الكتابات التى تناولت هذه القرارات بالدراسة والتحليل ، بالاضافة الى ما كتبته « الصفوة المفكرة » فى هذا المجال .

ويشير « ستيدمان » الى ان النموذج الامريكى فى الحكم الديموقراطي يعتمد على مبدأين اساسيين أشار اليهما **مكيفر** هما : مبدأ التمييز بين الدولة والمجتمع المحلى ، ومبدأ تعدد الجماعات وحرية الانتماء الى اى منها من غير قهر او اكراه . ومن شأن المبدأ الاخير أن يضيق نطاق الصراع السياسي ، ويحصره فى دائرة محدودة .

وقد ناقش « ستيدمان » هذا النموذج ، وأبدى بعض التحفظات على المبادىء والأسس النظرية التى يستند اليها .

أما القسم الثالث من الكتاب ، فيشتمل على فصول ثلاثة ، يعالج فيها المؤلف الاسلوب التقليدى فى الحكم ، وقد اتخذ له مصطلحا خاصا هو « أسلوب الوساطة او السمسرة Brokerage Style » . وقد عرض « ستيدمان » فى الفصل الخامس للأسس التى يقوم عليها هذا الاسلوب ولانماطه الرئيسية ، ويحددها فى نمطين هما : النمط الآلى Machine Type ، والنمط الاصلاحى Reform Type . وقد ناقش مزايا وعيوب كل نمط ، ثم حاول تطبيق النموذج الديموقراطى على أساليب الحكم التىكانت سائدة فى البيئات الحضرية فى المراحل التاريخية السابقة . وكان هدفه من وراء ذلك ان يختبر مدى صحة النموذج وصلاحيته من الناحية العملية .

وفى الفصل السادس من الكتاب عرض للاتهامات التى وجهت الى أسلوب الوساطة ، وأوضح انه فشل فى تحقيق العدالة بين المواطنين ، وفى ترتيب أولويات العمل ، وفى الاعتماد على التخطيط العلمى فى تحديد الاحتياجات الفعلية للمواطنين ، وتعبئة امكانياتهم ومواردهم وفقا لاستراتيجية واضحة المعالم ، محددة القسمات ، كما انه فشل فى ايجاد فلسفة تعبر عن المصالح المشتركة للمواطنين (١١) .

---

(١٠) الكتاب : ص ٨٥ .

(١١) الكتاب : ص ١٤٧ .

وفى الفصل السابع من الكتاب ناقش المؤلف اساليب الحكم والسياسة فى « الضواحى Suburbs » ، على أساس انها أصبحت مركزا لتجمعات سكانية كبيرة ، فوفقا لتعداد السكان لسنة ١٩٧٠ ظهر أن أكثر من نصف سكان المناطق المتروبوليتانية بالولايات المتحدة يعيشون فى ضواحى ، بالاضافة الى أن سكان تلك المناطق لهم خصائص اقتصادية واجتماعية وثقافية تميزهم عن سكان المدن المركزية .

وقد اشار « ستيدمان » الى أن الفكرة الشائعة عن الضواحى أنها مجرد أماكن لسكنى المديرين الاغنياء الذين يعملون فى المدينة المركزية ، وأنها لا تزيد عن كونها أماكن للمبيت، أو حسب التعبير الشائع « مجتمعات غرف النوم Bedroom Communities » غير أنه يعارض هذه الفكرة ، معتمدا على النتائج التى أسفرت عنها البحوث السوسيولوجية الحديثة والتى تقول بتعدد أنماط الضواحى واختلافها فيما بينها من حيث التركيب الاقتصادى والاجتماعى ، ومن حيث الاساليب المعيشية السائدة .

وقد عرض للعوامل التى تدفع الناس الى الانتقال الى الضواحى ، وأشار الى وجود عوامل طاردة وأخرى جاذبة . فعوامل الطرد تتمثل فى ارتفاع معدلات الجريمة فى المدن المركزية ، وفى عجز المؤسسات والهيئات القائمة فى المدينة عن تقديم الخدمات المتعلقة بالاسكان والتعليم والصحة ، بالاضافة الى أن المدينة المركزية — كما يقول ممفورد — تفتقر الى الارض الفضاء التى تلزم لاقامة الحدائق العامة وساحات الالعاب . فالانسان لا يرى فيها سوى حركة العمل ولا يشعر الا بزحمة الحياة، ولا يسمع الا ضجيج الآلة ، أما ضوء الشمس ونور القمر ، فلا يراه الانسان الا من خلال ناطحات السحاب والمبانى العالية .

أما عوامل الجذب فتتمثل فى الرغبة فى امتلاك مسكن تحيط به أرض فضاء ، وفى الحصول على خدمات تعليمية وصحية كافية ، بالاضافة الى أن هناك شيئا آخر يغرى الناس بترك المدينة ، وهو — على حد تعبير ممفورد — ان تتوافر لهم الحرية فى أن يفعلوا ما يشاؤون وهذه هي النغمة الحقيقيه لصوت الضاحية ، ويمكن تلخيصها فى أن يعتزل المرء الناس كراهب ، ويعيش كأمير .

وقد ركز « ستيدمان » بعد ذلك على دراسة جوانب السلوك السياسي فى الضواحي ، وحاول الاجابة على السؤالين التاليين :

١ — هل الاقامة فى الضواحي تساعد على الاحتفاظ بعنصر المنافسة الذى يقوم عليه النموذج التعددى فى السياسة ؟

٢ — هل تختلف نظم الحكم واساليب السياسة فى الضواحى عن النظم والاساليب المستخدمة فى المدن المركزية ؟

وانتهى من دراسته الى وجود اختلافات اساسية فى أساليب العمل السياسي بين الضواحي والمدن المركزية . ففى الضواحى تسود سياسة التوفيق والاجماع ، كما أن عنصر المنافسة يكاد ينعدم نتيجة لتجانس السكان من النواحى الاقتصادية والاجتماعية ، بعكس الحال فى المدن المركزية ، بالاضافة الى أن سكان الضواحى يتعاونون فيما بينهم ليواجهوا الضغوط التي تقابلهم ، وليحصلوا على أكبر قدر ممكن من الخدمات من جانب الهيئات الحكومية والاهلية ، وليحققوا لانفسهم نوعا من الاستقلال الذاتي (١٢) .

وفى القسم الرابع من الكتاب — الذى يشتمل على فصل واحد — يناقش المؤلف بناء القوة فى المجتمع المحلي باعتباره موضوعا أساسيا فى السياسة الحضرية ، ويطرح تساؤلات كثيرة

---

(١٢) الكتاب : ص ١٧٣ .

تتعلق بطبيعة القوة السياسية واهدافها وتوزيعها في المجتمعات المحلية . وقد عرض لنظريات « الصفوة Elite » التي تقول بأن كل مجتمع يشتمل على فئتين اساسيتين : فئة حاكمة قليلة العدد ، وأخرى محكومة كبيرة العدد . وبمقتضى ذلك تتولى الفئة الاولى مقاليد القوة في المجتمع بحيث تصبح صاحبة السلطة النهائية في اصدار القرارات الاساسية ، بينما تنحصر مهمة الفئة المحكومة في طاعة الفئة الحاكمة وتنفيذ قراراتها . وقد عرض للنظرية الماركسية التي تقول بأن علاقات الانتاج تمثل الاساس الضروري لفهم كل الجوانب السياسية في المجتمع ، كما عرض لنظرية « ماكس ڤيبر » التي تفسر بناء القوة في التنظيم البيروقراطي ، ثم عرض لكثير من الدراسات التي اهتمت بدراسة بناء القوة في المجتمعات المحلية . وأشار الى ان دراسات « دومهوف Domhoff وليند Lynd وهنتر Hunter » تؤكد وجود طبقة تمتلك مقاليد القوة في المجتمع ، وتتمتع بالهيبة Prestige ، والمكانة Status ، وتستأثر بالسيادة والسيطرة Dominance ولها القدرة على التأثير Influence (١٣) . وفي الجانب المقابل توجد دراسات أخرى تقول بتعدد مراكز القوى والتأثير ، وترفض القول بوجود فئة واحدة تسيطر على الحكم في المجتمع .

ويختتم « ستيدمان » مناقشته لهذا الموضوع بقوله :

« ان بناء القوة ليس واحدا في كل المجتمعات . ففي الوقت الذي تسيطر فيه طبقة واحدة على مقاليد الامور في مجتمع ما ، نجد مجتمعا آخر تتوزع فيه القوة بين عدة طبقات . وليس ثمة شك في أن نوع النشاط الاقتصادي في المجتمع له صلة بتوزيع النفوذ في المجتمع . ففي المدن الصناعية مثلا يزداد عنصر المنافسة بين أصحاب المصانع بحيث يحاول كل منهم أن يكون له التأثير الكامل في مختلف السياسات والقرارات التي تتخذ على المستوى المحلي . أما المدن التي تعتمد على التجارة أو الخدمات فان توزيع القوة يأخذ نمطا مغايرا . ويمكن القول أيضا بأن اختلاف المناهج والاساليب التي استخدمها الباحثون في دراساتهم كان لها أثر كبير في اختلاف النتائج التي توصلوا اليها (١٤) .

أما القسم الخامس من الكتاب فيشتمل على فصول ثلاثة يناقش فيها المؤلف قضايا : التعليم ، والاسكان ، والقانون والنظام ، وكان يهدف من وراء دراسته الى اختبار أحد المبادىء الأساسية التي يتألف منها « النموذج التعددي للديموقراطية » ، وهو مبدأ التمييز بين الدولة والمجتمع المحلي . وقد توصل الى أن هذا المبدأ لا وجود له من الناحية العملية ، ذلك لأن عنصر « الصراع » هو الذي يؤثر في رسم السياسات المتعلقة بالتعليم والاسكان والأمن ، وأن هناك اتجاها متزايدا نحو « تسييس Politicization » هذه القطاعات (١٥) .

أما خاتمة الكتاب ، فقد اشتملت على فصل واحد ، جعله بعنوان : نحو أسلوب سياسي جديد ، حاول فيه أن يقدم نموذجا سياسيا يتمشى مع التغيرات الجديدة التي يشهدها المجتمع الامريكي المعاصر ، ويهدف الى تحقيق الديموقراطية الكاملة ، ويكون قادرا في الوقت نفسه على تحديد الاحتياجات ، وترتيب الاولويات ، واقتراح السياسات وتنفيذها ، مع ضمان المشاركة الكاملة من جانب المواطنين في اتخاذ القرارات ورسم السياسات .

---

(١٣) الكتاب : ص ١٨٧ .

(١٤) الكتاب : ص ١٩١ ، ١٩٢ .

(١٥) الكتاب : ص ٢٩٠ .

وقد ناقش اساليب المشاركة فى الجماعات والتنظيمات القائمة فى المجتمع ، ولم يتمكن من وضع نموذج سياسى محدد . فاكتفى بتحديد بعض الخصائص والانجاهات المتوقعه ، وأشار الى أن اساليب العمل السياسي فى المستقبل سوف تتركز حول القضايا السياسيه ، وتقوم على مبدأ الصراع ، وتعتمد على القواعد الشعبية فى التنظيمات الحزبية ، وسوف يتسع نطاق الحركات المطالبة بحق تقرير المصير والحكم الذاتى داخل المدن (١٦) .

ونعرض فيما يلى لبعض القضايا والافكار الرئيسية التى عالجها المؤلف ، والتى تحتاج الى مزيد من المناقشه .

١ ــ الوضع الحضرى العام فى الولايات المتحدة وعلاقته بالوضع السياسي :

اذا رجعنا الى الاحصائيات المختلفة ــ التى تنشر عن التوزيعات السكانية فى الولايات المتحدة ، وعن نسب سكان المناطق الحضرية الى جملة السكان ، فاننا نجد أن عدد السكان فى الولايات المتحدة قد تضاعف فى الفترة ما بين ١٨٧٠ ، ١٩٠٠ ثم تضاعف مرة أخرى فيما بين عامى ١٩٠٠ ، ١٩٥٠ . وقد اظهر احصاء ١٩٧٠ أن العدد الكلى لسكان الولايات المتحدة بلغ ٢٠٤ر٧٦٥ر٧٠٠ نسمة ، ومن المتوقع ان يصل العدد الى ٣٠٠ مليون نسمة فى نهاية هذا القرن .

وتشير الاحصاءات المختلفة الى أن نسبة السكان فى المناطق الريفية قد انخفضت من ٥٤ر٣٪ فى سنة ١٩١٠ الى ٢٥٪ فى سنة ١٩٧٠ . وبالنسبة لسكان الحضر ، فان هناك تزايدا مستمرا فى عدد السكان منذ سنة ١٩١٠ باستثناء الفترة ما بين ١٩٣٠ ، ١٩٤٠ حيث كانت نسبة الزيادة متساوية بين سكان المناطق الريفيه والمناطق الحضرية (١٧) .

وليس من شك فى أن ارتفاع معدلات التحضر فى المجتمع تؤثر الى حد كبير فى خصائصه البنائية والوظيفية . وقد اهتم « ستيدمان » بتحديد الخصائص المميزة للحياة الحضرية ، فأشار الى أن نمط العلاقات الاجتماعية فى البيئة الحضرية يأخذ طابعا جديدا ، اذ تحل العلاقات الثانوية محل العلاقات الاولية . ويحدث ذلك نتيجة لكثرة التحركات الجغرافية والمهنية فى المدينة ، بحيث لا يجد الفرد وقتا كافيا ليدخل فى علاقات دائمة مع كل الناس الذين يتصل بهم او يتعامل معهم ، سواء فى محيط العمل او فى نطاق الجيرة . كما أشار الى ضعف الضوابط الاجتماعية غير الرسمية ، وتحرر الأفراد من سيطرة القيم الجماعية التى كانت تفرضها المعايير الثقافية فى المجتمعات التقليدية ، والى ضعف الروابط القرابية . وهذا من شأنه ان يؤدى الى احساس الانسان فى المدينة بالفردية ، والاغتراب ، وعدم الانتماء الى المجتمع (١٨) . ومن الخصائص الاخرى للحياة الحضرية ــ وبخاصة فى المدن الامريكية ــ انفصال اماكن العمل عن مناطق الاقامة . وقد ساعد على ذلك سهولة المواصلات وسرعتها مما ادى الى نزوح السكان من وسط المدينة الى الضواحى بعيدا عن حركة العمل ، وزحمة الحياة . وتتميز حياة المدينة ايضا بكثرة الحراك

(١٦) **الكتاب** : ص ٣١٠ .

(١٧) **الكتاب** : ص ٩ .

(١٨) **الكتاب** : ص ٢٠ .

الجغرافي مما تتسبب عنه مشكلات شخصية واجتماعية .

ويتساءل « ستيدمان » : ما هي الاهمية السياسية للخصائص الاجتماعية التي تميز أسلوب الحياة فى البيئات الحضرية عن أسلوب الحياة فى البيئات الريفية ؟

ويجيب على هذا التساؤل بقوله : ان من الصعب أن نعطى اجابةدقيقةعلى هذا السؤال، فما تزال الحاجة ماسة الى مزيد من الدراسة والبحث ، غير ان من الممكن القول بأن مثل هذه الاختلافات من شأنها ان تؤدى الى تغير نظرة الناس الى الحياة السياسية ، والى تغير اتجاهاتهم وأفكارهم وطريقة تصرفهم فى المواقف المختلفة (١٩) .

وبالنسبة للعلاقات بين الجانب الايكولوجى والجانب السياسي يقول ستيدمان :

ان دراسة ايكولوجيا المدينةتفيد منالناحية السياسية ، حيث أن كثيرا من جوانب الصراع السياسي فى البيئات الحضرية تتسبب عن الارض وتوزيعها وطرق استخدامها ، ولا يقتصر الامر على الافراد ، وانما يتسع ليشمل الجماعات العنصرية والعرقية والاقتصادية ، وفى كل مرة يحدث فيها صراع بين هذه الجماعات تجد الهيئات الحكومية نفسها فى دائرة الصراع (٢٠) .

وبالنسبة لنمو المناطق المتروبوليتانية وتأثيرها على الجوانب السياسية يقول ستيدمان :

ان اى دراسة للنمو الحضرى فى الولايات المتحدة ، وانعكاساته السياسية ينبغي أن تأخذ فى الاعتبار نمو المناطق المتروبوليتانية وتوزيعها (٢١) . ولعل من أهم النتائج التى ترتبت على نشأة هذا النوع من المناطق الحضرية تركز الزنوج والطبقات الفقيرة فى المناطق المركزية ، ونزوح اصحاب الدخول المرتفعة ـ وغالبيتهم من البيض ـ الى الضواحى والمدن التابعة . ويشير الجدول التالى الى هذا التوزيع :

المدن المركزية

	البيض	الزنوج
١٩٦٠	٧٥ر٣ مليون	٨ر٠ مليون
١٩٧٠	٣٣ر٨ مليون	١٠ر٨ مليون

الضـواحي

البيض	الزنوج
٤١ر٦ مليون	١ر٨ مليون
٥٤ر١ مليون	٢ر٦ مليون

ويقول « ستيدمان » : لقد ترتب على حركة الهجرة الداخلية الى المدن أن أصبح غالبية السكان فى المدن الكبيرة من الزنوج ، بينما بقي العنصر الابيض متفوقا فى الضواحى . وتشير الاحصاءات الى انه من بين المدن الكبرى الخمسين فى الولايات المتحدة يمثل الزنوج أكثر من ٥٠٪ من نسبة السكان فى ثلاث مدن كبرى هي : واشنطن ، واطلنطا ، ونيويورك ، كما أن مدينة جارى بانديانا بها اغلبية سوداء .

(١٩) الكتاب ص ٢١ .

(٢٠) الكتاب : ص ٢٤ .

(٢١) الكتاب : ص ٢٤ .

ويختتم ستيدمان عرضه لاتجاهات التطور العمراني في المناطق المتروبوليتانية بقوله : ان السياسة في المناطق المتروبوليتانية يمكن النظر اليها على أنها مجموعه من المشكلات التي تتعلق بصنع القرارات . وفي داخل هذا الاطار تتور تساؤلات كثيرة أهمها :

١ ــ من الذي يقوم بصنع القرارات في المنطقة المتروبوليتانية ؟

٢ ــ هل تتمسك الجماعات التي تقوم بصنع القرارات بمبدأ الشرعية ؟

٣ ــ ما هي الجماعة أو الجماعات التي تمسك في يدها زمام السلطة في المنطقة المتروبوليتانية ؟

٤ ــ كيف تحل الخلافات والصراعات التي تنشأ بين مختلف الجماعات في المنطقة المتروبوليتانية ؟

ثم يقول : ان كثيرا من الدراسات التي اجريت في المجتمعات المحلية المختلفة تشير الى ان التنظيمات السياسية في تلك المجتمعات تسيطر عليها صفوة من الناس . وهذه الصفوة قادرة على توجيه تلك التنظيمات لتحقيق أغراضها الخاصة . ويقول أيضا : ان ثمة اعتبارا آخر ينبغي الاشارة اليه وهو أنه حينما تحدث خلافات محلية حول اتخاذ القرارات المتعلقة بالمشكلات المتروبوليتانية ، فان الحكومة المركزية تتخذ القرارات التي تراها مناسبة لحل المشكلة (٢٢) .

٢ ــ أشكال الحكم في المدينة :

توجد ثلاثة أشكال لحكومة المدينة في الولايات المتحدة . وهذه الاشكال هي :

أ ــ حكومة المحافظ والمجلس Mayor-Council

ب ــ اللجنة Commission

جـ ــ حكومة المجلس والمدير Council-Manager (٢٣) .

ونعرض فيما يلي لهذه الاشكال الثلاثة بشيء من التفصيل .

أ ــ حكومة المحافظ والمجلس :

يعتبر هذا الشكل اقدم الاشكال لحكومة المدينة وأكثرها انتشارا في الولايات المتحدة ، وبالرغم من منافسة الاشكال الجديدة ، الا أن ما يزيد على نصف المدن ــ التي يزيد عدد سكانها عن خمسة آلاف نسمة ــ تستخدم هذا النظام . وهو في أساسه مقتبس من النظام الانجليزي ، غير أن تطورا بالغ الاهمية قد حدث بالنسبة لهذا النظام في الولايات المتحدة بحيث أصبح يختلف كليا عن النظام الانجليزي . فبينما نجد ان منصب المحافظ فخري في النظام الانجليزي ، نجد أن المحافظ في الولايات المتحدة يتمتع بسلطات ضخمة ، بحيث فقد المجلس أهميته الى المدى الذي أصبح فيه المحافظ أكثر أهمية من المجلس في كثير من المدن . ويلاحظ ان بعض المدن اعطت محافظيها سلطات تشريعية أوسع من غيرها من المدن ، بحيث أصبح من المعتاد ترتيب المدن على

(٢٢) الكتاب : ص ٣٩ .

(٢٣) الكتاب : ص ٤٦ .

أساس انها مدن لها محافظ قوى Strong Mayor Type ، او مدن لها محافظ ضعيف Weak Mayor Type (٢٤) .

ويتم اختيار المحافظين فى الولايات المتحدة بواسطة الناخبين لمدة سنتين او أربع سنوات ، ومن المفروض ان يتم انتخاب المحافظ دون التقيد بانتمائه الحزبى ، غير ان القاعده العامة فى أغلب المدن هى انتخاب المحافظ على أساس انتمائه لأحد الحزبين الرئيسيين فى الولايات المتحدة .

وتختلف وظائف المحافظ باختلاف المدن ، ففي المدن الصغيرة تكون مسئوليات المحافظ ومهامه محدودة ، بعكس الحال فى المدن الكبيرة حيث تتنوع اختصاصاته ، وتكثر الاعمال والواجبات الملقاة على عاتقه . وللمحافظ عادة سلطات تشريعية وأخرى تنفيذية ، وهو يتمتع فى أغلب المدن بحق الفيتو فى مجال السلطة التشريعية (٢٥) غير أن من الممكن ان يبطل المجلس اعتراضاته بأغلبية ثلثي الاصوات . وفى أغلب المدن يقوم المحافظ بتعيين رؤساء الاجهزة الادارية وأجهزة الخدمات (البوليس والحريق والصحة العامة) .

اما مجالس المدن فتقوم باصدار اللوائح الخاصة بتنظيم الصحة العامة والأمن والآداب العامة فى المدينة ، كما تقوم بفرض الضرائب ، وتخصيص الاموال لمختلف المشروعات . واذا لم توجد نصوص رسمية تحدد حق الانتفاع بالملكيات العامة فان المجالس يكون لها الحق فى منح امتيازات الى شركات المنافع العامة التى ترغب فى استخدام الشوارع او الملكيات العامة الاخرى ، كذلك العقود الخاصة باقامة المبانى وتمهيد الطرق وتعبيدها .

ب ـ نظام اللجنة :

يعتمد هذا النظام على مجموعة من الاعضاء يتراوح عددهم ما بين ثلاثة أعضاء وسبعة ، ويتم تعيينهم بالانتخاب لمدة سنتين أو أربع سنوات ، ويختار منهم واحد لتشغل منصب المحافظ ، وان لم تكن لهذا المنصب فى ظل نظام اللجنة أهميه حقيقية .

ويقوم أعضاء اللجنة كمجموعة بوضع السياسة العامة ، وفرض الضرائب ، واعداد الميزانية ، وتعيين الموظفين وفصلهم ، واصدار اللوائح التنفيذية كما ان لهم الحق فى الاشراف على الادارات المختلفة بالمدينة .

وقد ظهرت عيوب هذا النظام واضحة خلال السنوات الاخيرة ، فتقسيم المسئولية بين اعضاء اللجنة كان يمنع اتخاذ قرارات موحدة ، يضاف الى ذلك ان غالبية الاعضاء ليست لديهم الخبرة الادارية اللازمة لممارسة العمل فى الاقسام المختلفة . ومن الملاحظ ان الأخذ بهذا النظام بدأ يقل بشكل ملحوظ ، واصبح الاتجاه الآن نحو الأخذ بأحد النظامين الآخرين (٢٦) .

ج ـ حكومة المجلس والمدير :

استخدم هذا النظام فى أوائل القرن الحالى فى كثير من المدن للتغلب على نقاط الضعف الموجودة فى نظام اللجنة ، وأصبح يحتل المركز الثانى بعد نظام حكومة المحافظ والمجلس .

ويشبه هذا النظام التنظيم الموجود فى الشركات الخاصة ، ويعطى أهمية خاصة للعلاقة الوثيقة بين الأقسام التشريعية والتنفيذية ، فبينما يقوم المجلس بالجوانب

(٢٤) الكتاب : ص ٤٦ ، ٤٧ .

(٢٥) الكتاب : ص ٤٨ .

(٢٦) الكتاب : ص ٥٠ .

التشريعية ، يقوم المدير بتنفيذ القرارات ، ويتولى اختيار رؤساء الاقسام ويشرف على اجراءات التنفيذ .

والمدير هو الذى يقوم بالاشراف على الجوانب الادارية للحكومة،كما يحدث بالنسبة لمدير الشركة ، فهو يراقب كل مرحلة من مراحل العمل ، ويعين رؤساء الوكالات الادارية،ويقوم بالتنسيق بين مختلف الوكالات والاقسام .

وفى ظل هذا النظام يقوم المجلس بوضع السياسة العامة ، وللمدير الحق فى تقديم مقترحاته وتوصياته الى المجلس ، وهو يشترك عادة فى مناقشة السياسة العامة مع المجلس بالرغم من عدم وجود صوت له بالمجلس . ويقوم المدير بتقديم تقارير الى المجلس عن سير العمل فى الادارات المختلفة ، كما يعد الميزانية ويعرضها على المجلس ، ومتى وافق عليها يقوم بالاشراف على عمليات التنفيذ .

وقد ثبت ان لهذا النظام مزايا عديدة . فهو يشجع على وجود مدير واحد توضع فى يده المسئولية ، ويكون مسئولا بمفرده عن اجراءات التنفيذ ، وهذا من شأنه ان يوفر الوقت والجهد بعكس ما هو موجود فى نظام اللجنة . ومن عيوب هذا النظام انه نظام غير ديموقراطي . كما انه لا يسمح بقيادة سياسية على مستوى عال من الكفاءة كما هو الحال فى منصب المحافظ (٢٧) .

٣ ــ النموذج الرسمي للسياسة الحضرية :

يقوم النموذج الرسمي للسياسة الحضرية على تطبيق « النموذج التعددى للديموقراطية Pluralistic Model » ، ويعتمد هذا النموذج على مبدأين أساسيين اشار اليهما **مكييفر** فى كتابه « تكوين الدولة » ، وهذان المبدءان هما :

١ ــ مبدأ التمييز بين الدولة والمجتمع المحلى .

٢ ــ مبدأ تعدد الجماعات وحرية الانتماء الى أى منها ، من غير ضغط أو أكراه (٢٨) .

وقد ركز مكييفر فى تفرقته بين الدولة والمجتمع المحلى على النقاط التالية :

١ ــ يبنى الانسان لنفسه عالما غير مرئي من النظم والمؤسسات ينقل عبرها تراث ماضيه الى حاضره ، ولولاها لكانت حياته فوضى وفراغا ، ولظلت محصورة فى المستوى الحيوانى .

٢ ــ المجتمع المحلي وليس الدولة هو الكيان الكامل الذى نحيا ونتحرك فى اطاره . والانسان يقضى حياته كلها داخل مجتمعات محلية . والمجتمع المحلى تنشأ فيه أشكال للقرابة ليست كلها أشكالا حكومية ، وتتكون فيه تجمعات ليست كلها تجمعات سياسية ، وتتواتر فيه أعراف ومستويات للسلوك ليست كلها من خلق الدولة ، وليست كل قوانين المجتمع المحلى من صنع الدولة ، بل ان للمجتمع المحلى قانونا ينمو وراء قانون الدولة ، وتكون له حرماته قبل ان تنشأ الدولة ، وتظل له هذه الحرمات بعد أن تنشأ الدولة .

٣ ــ الديموقراطية وحدها هى التى تعترف به أشكال الحكم الاخرى اعترافا ضمنيا .

٤ ــ الديموقراطية وحدها هى النظام الذى يجعل من الحكومة وكيلا ، ومن الشعب سيدا يسأل وكيله الحساب ، والمجتمع المحلى يراقب

(٢٧) الكتاب : ص ٥٢ .

(٢٨) الكتاب : ص ٧٩ .

الحكومة فى النظام الديموقراطى ، ولكن هذا لا يعنى ان الشعب يمارس بكليته هذه الرقابة ، ولا سبيل للشعب بكامله لأن يقرر من هم حكامه الا بالاعتماد على الرأى العام والاعتماد على صناديق الاقتراع . والديموقراطية تقوم على حكم الرأى ولا تفضل ابدا اصطناع القوة ضد الرأى .

٥ ــ تقوم الديموقراطيــة على الاستجابة الحرة بين الدولة والمجتمع المحلى .

٦ ــ القانون الأساسي فى الدولة الديموقراطية يجعل المجتمع المحلى فى وضع أعلى من الدولة .

٧ ــ الديموقراطية هى روح للحكم بقدر ما هي شكل له ، واذا كانت الديموقراطية تعرف بشكلها لئلا تلتبس خصائصها بخصائص أشكال الحكم الاخرى ، فانها فى الاساس نسق للحياة ، والاخطار التى تتهددها تتهدد شكلها وروحها .

٨ ــ تتشابه كل انظمة الحكم الدكتاتورى من حيث انها لا تفرق بين الدولة والمجتمع المحلى ، وحينما يسود نظام دكتاتورى فانه يقضي نهائيا على كل ما من شأنه ان يميز بين ما هو من اختصاص الدولة وما هو من اختصاص المجتمع المحلى (٢٩) .

وبالنسبة لمبدأ تعدد الجماعات وحرية الانتماء الى أى منها ، فاننا نجد أن الدولة الدكتاتورية تقضي على الشخصية الخاصة التى تتميز بها الجماعات ، بحيث تصبح هيئات حكومية أو شبه حكومية ، ولذا فان الجماعات المتعددة التى تعتنق قيما متنوعة تجد نفسها فى النظام الدكتاتورى تتبنى قيما واحدة .. هى قيم الدولة . والديموقراطية تقوم على مبدأ التنوع القيمى والاخلاقي والاعتقادى ، واتاحة الفرصة لكل جماعة ولكل عقيدة لأن نقوى اجتماعيا بدون أن ترتبط بالدولة ، فتظل بذلك حياة الافراد متنوعة تنوعا عضويا ، واذا اقترنت اية ديموقراطية بأخلاقية معينة فان مرجع ذلك الى انتشار هذه الاخلاقية بين مختلف الجماعات لا الى صدورها عن الدولة .

ويضع « سنيدمان » بعض التحفظات على هذا النموذج ، ويحددها فيما يلي :

١ ــ النموذج مشتق من نظرية يتسوبها الغموض فى بعض المواضع ، ولذا يصبح موضعا للشك ، فحكم الاغلبية لا يتحقق فى عالم الواقع وكثيرا ما يحدث ان تسيطر احدى الجماعات على مقاليد الامور فى المجتمع ، كما ان القرارات تتخذ بعد مساومات طويلة (٣٠) .

٢ ــ يفشل النموذج فى وضع الحدود القاطعة بين الدولة والمجتمع المحلي ، وكثيرا ما يوسع كل منهما دائرة نفوذه على حساب الآخر (٣١) .

٣ ــ يصور النموذج وجود حرية فى الرأى ومنافسة حرة بين الافراد والجماعات ، غير أن هذا لا يحدث فى عالم الواقع ، وغالبا ما يتحول الأمر الى احتكار القلة لمجال العمل السياسي ... ان المنافسة الحرة تستلزم وجود تكافؤ بين القوى المتنافسة من النواحي الاقتصادية والسياسية ، غير ان هذا لا يتحقق فى المجال التطبيقي .

---

(٢٩) الكتاب : ص ٨٠ ، ٨١ .

(٣٠) الكتاب : ص ٨٧ .

(٣١) الكتاب ص ٨٨ ، ٨٩ .

٤ ـ يقـــوم النمـــوذج على افتراضـــات اقتصادية لم يعد لها وجود فى الوقت الحالى . فالمنافسة التى كانت قائمة فى القرن التاسع عشر بين جماعات ومنظمات متكافئـة لم يعد لها وجود نتيجة لتغير الوضع الاقتصـادى ، وبعد أن كان مجتمع الطبقة الوسـطى يحافظ على توازن القوى اصـبح اليـوم أداة فى يـد الدولة .

٥ ـ يعتمد النموذج الامريكى للديموقراطية على سياسة لبرالية تفترض انالنموذجيصحح نفسه بدون تدخل من جانب الدولة ، غير ان هذا ليس له أساس من الصحة (٣٢) .

٤ ـ أسلوب الوساطة أو السمسرة :

استعار ستيدمان هذا الاصطلاح من المجال الاقتصادى، فكما يقوم الوسيط أو «السمسار» Broker بتنظيم عمليات البيع والشراء وفقا لقواعد واجراءات متعارف عليها ، يقوم الحزب أو التنظيم السياسى بالتدخل لدى الهيئـات المختلفة لتحقيق مصالح الافراد والجماعات ، ويكون دوره فى هذه الحالة كدور الوسـيط تماما . فهو الذى ينظم عمليات بيع واستغلال الاراضى ، وهو الذى يخلق المناخ المناسـب للمهاجرين الجدد ليستقروافىالبيئاتالجديدة، وهو الذى يساعد الفئات العرقية والطبقات الفقيرة على الحصول على احتياجاتها ، وذلك عن طريق الاتصال بالهيئات المسئولة التـى تملك زمام الامور .

وهذا الأسلوب له نمطان هما : النمـط الآلى والنمط الاصلاحى .

وهذا النمط الآلى على افتراض مؤداه أنه ليس ثمة تعارض بين مصلحة التنظيم ومصلحة الافراد . ولذا فان القرارات التى يتخـذها القائد أو الرئيس تحقق مصالح الافراد بطريقة آلية ، ومن هنا تترك السلطة كلها للقـائد ليتصرف بالطريقة التى يراها مناسبة. ويذهب « ستيدمان » الى أن هذا النمط يشبه الى حد كبير النمط البيروقراطى الذى يقوم على مبدأ تسلسل السلطة ، والذى يعطى للرئيس الحق فى الاشراف على مرؤوسيه واصـــدار الاوامر اليهم . (٣٢)

ومن الواضح أن هذا النظام من شأنه أن يخلق الوحدة ويحقق التكامل بين فئاتوعناصر التنظيم ، الا أنه يمنع الأفراد من المشاركة فى اتخاذ القراراتولا يساعد على تنمية المهارات والقدرات الفردية .

أما النمط الاصلاحى فيهدف الى تحويل السلطة الى الشعب ، ويعتمد علـــى عناصر المشاركة على أساس أن كافة الفئات والهيئات ينبغى أن تشترك فى صنع مستقبلها وتقـرير مصيرها .

وقد طالبالمصلحون منذ سنة١٨٩٤ بتطبيق هذا النمط ، وكانت لهم مطالب محددة أهمها: تكوين مجالس للمواطنين ، وأحزاب محليـة مســتقلة ، ونـواد اصـــلاحية ، ويذهب « ستيدمان » الى أن النظام الآلى يجد مساندة من جانب الطبقات الفقيرة ، على حين ان النظام الاصلاحى يجد المساندة والتأييد من جـانب الطبقات المتوسطة .

ولذا فان أى تغير فى البنـــاء الطبقـى فى

---

(٣٢) الكتاب : ص ٩٢ .

(٣٣) الكتاب : ص ١٢٠ .

المجتمعات المحلية كفيل بأن يحدث تغيرات مماثلة فى اتجاهات الافراد نحو النمط السائد . (٣٤)

خاتمـــة :

يتضح من العرض السابق لأقسام الكتاب وفصوله وموضوعاته أن المؤلف ركز على دراسة النظام السياسى فى البيئات الحضرية معتمدا على المنهج التحليلى ، ومرتكزا على النتائج التى أسفرت عنها البحوث المعاصرة فى علوم النفس والاجتماع والاقتصاد والسياسة ، مستفيدا بالاستقراء التاريخى فى شرح وتفسير الظواهر السياسية السائدة فى المجتمع الحضرى الأمريكى . والواقع أن هذا المنهج لا غنى عنه لأى باحث يقوم بدراسة نظام سياسى أو اقتصادى أو اجتماعى معين ، لما بين ظواهر الحياة الاجتماعية ـ بصورها المتعددة ـ من ترابط وثيق ، واعتماد متبادل .

وهذا الكتاب اذ يحلل الأسلوب القديم فى السياسة الحضرية ، ويظهر تخلفه عن تحقيق الديموقراطية الصحيحة ، انما يبرز فشل اسلوب المساومة والتوفيق فى حل المشكلات بطريقة جذرية ، وفى مواجهة التغيرات التى يمر بها العالم فى النصف الثانى من القرن العشرين .

وليس ثمة شك فى أن الاتجاه الذى يتبناه المؤلف ـ وهو الذى يركز على مبدأ الصراع ـ يجد له صدى كبيرا فى الكتابات الاجتماعية المعاصرة .

وقد حاول المؤلف أن يقدم نموذجا سياسيا يتمشى مع التغيرات الجديدة التى يشهدها المجتمع الأمريكى المعاصر ، غير أنه لم يستطع أن يقدم نموذجا واضح المعالم ، محدد القسمات ، واكتفى بتحديد بعض الخصائص والاتجاهات المتوقعة فى مجال العمل السياسى . وقد يكون له بعض العذر فى ذلك نظرا لتضارب النتائج التى تسفر عنها البحوث الاجتماعيه ، ولصعوبة وضع نموذج نمطى ـ يتسم بشىء من الثبات ـ فى عالم دائم التغير .

وقد لمس المؤلف بنفسه هذه النقطة فى أكثر من موضع ، وأشار الى أن الهدف من الكتاب هو وصف التحول العظيم فى أساليب السياسة الحضرية ، ومحاولة تفسيرها بقدر الامكان ؛ ويتضح ذلك فيما كتبه فى مقدمة الكتاب اذ يقول: وقد كنت أحاول أن أقدم تقييما للموقف كلما دعت الضرورة ، أو كلما وجدت ذلك ممكنا ومناسبا ، كما كنت أقوم بصياغة بعض الفروض على أمل أن يكون ذلك دافعا لباحثين آخرين لأن يتناولوها بالتحقيق والدراسة العلمية المتعمقة .

والكتاب فى جملته جهد علمى قيم ، جدير بالقراءة المعمقة ، والدراسة الجادة .

* * *

(٣٤) الكتاب : ص ١٢٣ .

من الكتب الجديدة

كتب وصلت الى ادارة المجلة، وسوف نعرض لها بالتحليل فى الاعداد القادمة

(1) A bell, Peter, **Model Buildiug in Sociology**, Weidenfeld and Nicolson, London 1971.

(2) Ford, E. B., **Ecological genetics**, Chapman and Hall Ltd. London 1971 3rd edition)

(3) Evans & Smith, **Psychology for a changing world**, John Wiley & sons, Inc., U.S.A. 1970.

(4) Gurr, Ted Robert, **Politimetrics, An Introduction to Quantitative** Macropolitics, Prentice-Hall, Inc. N.J. 1972.

(5) Morton, John, **Man, Science and God**, Collins, London and Auckland, 1972.

★ ★ ★

مطبعة حكومة الكويت

العدد التالى من المجلة

العدد الثانى ـ المجلد الخامس

يوليو أغسطس سبتمبر ١٩٧٤

قسم خاص عن الطاقة والحياة
بالاضافة الى الابواب الثابتة

الخليج العربي	٥	ريالات	سوريا	٣	ليرات
السعودية	٥	ريالات	القاهرة	٢٥٠	مليمًا
البحرين	٤٠٠	فلس	السودان	٢٥٠	مليمًا
اليمن الجنوبية	٤٠٠	فلس	ليبيا	٣٥	قرشًا
اليمن الشمالية	٤٫٥	ريال	مسقط	٤٠٠	بايسة
العراق	٣٠٠	فلس	الجزائر	٥	دنانير
لبنان	٢٫٥	ليرة	تونس	٥٠٠	مليم
الأردن	٢٥٠	فلسًا	المغرب	٥	دراهم

مطبعة حكومة الكويت